دكتور مهندس
توفيق أحمد عبد الجواد

العمارة الإسلامية
فكر وحضارة

العمارة الإسلامية

فكر وحضارة

دكتور مهندس

توفيق أحمد عبد الجواد

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد

رقم الايداع ٢٨٠٤ / ٨٧
الرقم الدولى ٢ ــ ٥٥٥٠ ــ ٠٥ ــ ٩٧٧

العمارة الاسلامية
فكر وحضارة

تقــديم
المهندس المعمارى دكتور / سيد كريم

● العمارة مرآة الحضارة ·· والحضارة نسيج الفكر الانسانى النابع من معطيات الثقافة التى تتحرك فى اطار عقائده الدينية ومبادئه الســـياسية وكيانه الاقتصادى وأصولة التربوية · فنسيج الحضارة يتكون من خيوط متجانسة ومتماسكة لا ينحرف مسار أحدها اتجاه متوازيات المجموع ـ ذلك النسيج الذى يعبر عن مقومات الحضارة وبنيتها النابضة بالحياة والتى تعكس المرآة صورتها وطابعها وطرازها ·

ان خيوط ذلك النسيج وانسجام غزله وتكوينه هو صورة لنسيج حياة المجتمع البشرى المعايش والمعاصر له فى الزمان والمكان · فهو يجمع بين عـادات المجتمع وتقاليد معيشته ومطالبها من أزياء للملبس وأثاث للمسكن وأدوات للمنزل · كما يعبر عن لغة ثقافته الأدبية فى مختلف نواحى الأدب ورسم خطوط كتابته · ولغة فنونه من موسيقى وغناء ورقص وتصوير ونحت وأدوات التعبير والانجاز الخاصة بها · ولا تنفصل متوازيات خيوط ذلك النسيج عما يؤديه له المجتمع من خدمات عامة كوسائل النقل ومعدات المرافق والأمن ، امتدادا الى أسلحة الدفاع ومعدات الحرب · فطراز العمارة هو طراز ذلك النسيج المتكامل بخيوطه المتوازية والتى ينعكس على صوره أو طراز كل منها على حدة ·

● كما ان حياة المجتمع وضربات نبضه فى حركة مستمرة من النمو والتطور والتغير ، كذلك صورة حضارته التى تعكسها مرآة العمارة وطرازها · لذا فقــد أمكن تسجيل تاريخ الحضارات وتاريخ الشعوب التى بنتها مما خلفتــه من تراث معمارى والتى وصفها الكاتب « فان لون » فى موسوعة « تاريخ الحضارة البشرية» بقوله ــ ان تاريخ الشعوب وحياة مجتمعاتها منقوش على حوائط اثارها المعمارية · كما وصف ابن خلدون العمارة الاسلامية بقوله « طبائع العمران البشرى هى أحسن الوجوه وأوثقها التى يقرأ على صفحتها تاريخ الشعوب » ·

ووصف الجبرتى كيف يستخدم الاثار فى تحقيق ما كتبه من تراجم فى موسوعته التاريخية فى تاريخ مصر والعمارة الاسلامية التى اسماها « عجائب الاثار فى التراجم والاخبار » وصف فيها كيف استقى مراجعه مما حوته مصر من مساجد واسبلة وكتاتيب وقصور وبساتين وما بقى قائما من الدور وشواهد القبور — دون من خلالها مسيرة تاريخ الخلفاء الراشدين الى العباسيين وتدرج الى سيرة المماليك الذين عاصر أواخر أيامهم حتى السيادة العثمانية التى اعتبرها نهاية الطراز الاسلامى فى العمارة · قام الجبرتى أثناء اقامته بمصر برحلاته التى طاف خلالها بمختلف بلاد الوجه البحرى والصعيد لزيارة ما بها من مساجد ومشاهدة ما بها من اثار امعن فى دراسة تفاصيلها ودراسة ما طرأ على عمارتها من تعديل وتغيير بمعاصرتها لمختلف العصور والعهود وما مرت بها من أحداث · تمكن من خلالها تدوين تاريخ كل منها وكتابة تاريخ المجتمعات التى عاصرتها مما وجده موثقا بين صفحات مبانيها ·

فالعمارة الاسلامية التى غطت مساحة واسعة من المكان تمتد من اسيا الوسطى والجزيرة العربية شرقا الى المحيط الاطلسى وجنوب أوروبا غربا — وفسحة طويلة من الزمان تمتد الى ما يقرب من ألف عام كتبت طرزها المعمارية الخالدة تاريخ الشعوب الاسلامية فى كل مكان فاختلفت طرز عمارة مبانيها من مكان الى اخر من دولة الى أخرى · وفى المكان الواحد من جيل او عصر او عهد الى اخر · ليس هناك طراز معمارى ثابت وموحد يمكن وصفه بأنه يعبر عن الطراز القومى للعمارة الاسلامية بصفة عامة — لا فى طراز العمارة وحدها أو طراز أى خيط فى نسيج مقومات الحضارة المستمدة من حياة المجتمع وعاداته وتقاليده وأزياء ملابسه وأثاث منزله الخ والتى ارتبط انتماؤها بكل من الزمان والمكان · واستمرت صورتها وطابعها أو طرازها فى تغير منذ بدء الحضارة حتى نهايتها ·

● من الخطأ الشائع وصف العمارة بأنها فن ·· وتسميتها بفن العمارة ، فاطلق عليها قدماء الاغريق اسم **أم الفنون** ووصفها كتاب عصر النهضة **بتاج الفنون** فالعمارة كانت ولازالت احدى مقومات الحضارة وعنصر حيوى فى بنائها والتعبير عنها · فبنيان الحضارة يتأسس بالثقافة وعلومها · فعلم البناء هو الذى وضع أسس بنيان العمارة فى جميع الحضارات الانسانية منذ نشأتها ·

مواد جديدة للبناء · طرق جديدة للانشاء · أشكال جديدة للمبنى ·
ذلك المثلث هو الذى يشكل وحدات التكوين التى تتعاون وتتجمع لتشكل بدورها وحدات تشكيل الطراز ونظريات عمارته ·

فعلم الانشاء هو الذى حدد أبعاد الحوائط الحاملة وقطاعاتها وفتحاتها بالنسبة لمواد بنائها . هو الذى حـــدد أبعاد الدعامات والأعمدة واعتـــاب ربطها الحاملة لأسقفها . هو الذى ابتكر أشكال العقود الدئراية والمقوسة والمدببة تبعـــا للمواد الطبيعية المتاحة ابتداءا من اللبن وتشكيله ومختلف العجائن الطبيعية ومونها ومدى تحمل كل منها ــ الى الحجارة والصخور والجرانيت والرخـــام وقالب الطوب والأخشاب . هو الذى غطى الفراغات والمسطحات بالأسقف المسطحة وانتقل منها الى الاقبية والقباب المختلفة الاشكال . ووصل الى قمة الابداع الفنى والتقنى فى استغلال المواد التى أمدته بها الطبيعة فحدد العلاقة النسبية بين المواد وطـــرق الانشـــاء التى تحقق الغرض من البناء . فاختلف طراز مبانى الخلود التى تأوى العقيدة وطقوس ممارستها عن مبانى الحياة التى تأوى المجتمع وتقاليد ممارسة حياته .

● طراز العمارة الاسلامية ... بين عمارة الخلود وعمارة الحياة .

ارتبطت نشأة الحضارات العالمية جميعها بالعقائد الدينية التى ارســـت نظم الحياة للمجتمعات البشرية . لقد شقت العقائد طريقها فى بناء المجتمع بالعلم وكان للثقافة وعلومها التى فرضتها العقائد الدور الأول فى بناء المجتمعات وبالتالى بناء الحضارات نفسها وقيامها . والثقافة فى جميع الحضارات الانسانية الخالدة هى توأم الحضـــارة .

فالحضارة الفرعونية ــ أقدم الحضارات البشرية بدأت بالحرف والكلمة التى وصفها حكماء العقيدة بأنها رسالة الاله الى البشر ليقرأو تشـــــاريعه وتعاليمه ، والحضارة البابلية بدأت بالكتابة والخط المسمارى التى دونوا بها وصـــايا الاله وتعاليمه . والحضارة الاغريقية بدأت بالكتابة التى انزلها اله جبل الاولمب والحضارة الاسلامية بدأت بنزول القرآن وقوله عز وجل اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . بالجهل والامية يعمل على علم الانسان مالم يعلم ؟

فالثقافة هى الشعلة التى تنير طريق الحضارة وانطفاؤها بالجهل والأمية يعمل على تخلفها وانحلالها . فالعلم والايمان اقاما صرح الحضارة الاسلامية ورعا بناء عمارتها . لقد كان للثقافة وعلومها الفضل فى ازدهار الحضارة الاسلامية والتى بفضلها زحفت لتصل الى عالم الغرب فتحتل الأندلس فتقيم أول جامعة فى العالم الغربى وأوروبا جامعة قرطبة التى درس بها وتخرج منها علماء الغرب الذين أقاموا أول جامعات رفعت شعلة العلم فى انحـــاء أوروبا وكان لها الفضـــل فى ازدهار الحضارات الأوروبية .

أن العقائد الدينية والأديان السماوية بما وضعته من تشاريع وتعاليم ووسائل للبشر ، كان لها الدور الأول فى بناء المجتمعات البشرية وبناء الحضارة نفسها ٠

لقد عبرت العمارة وطرزها عن تلك العلاقة بين العقيدة والمجتمع أصدق تعبير فطبعت صورتها على وجهى العملة يعبر أحد وجهيها عن عمارة الخلود التى تبنى لتأوى العقيدة وتأمن خلودها ويعبر الوجه الآخر عن عمارة الحياة التى تبنى لتاوى المجتمع البشرى بعاداته وتقاليده ومعيشيته الدائمة التغير والسريعة الفناء لقد سبقت عمارة الخلود التى أطلق عليها « بيوت الاله » وهو الاسم الذى أطلق على المعابد الفرعونية والكنائس والكاتدرائيات المسيحية والمساجد الاسلامية ٠ سبقت عمارة الحياة أو بيوت سكان البشر ٠

كانت مبانى الخلود تبنى لتقاوم الزمن بخفايا وأسرار تخطيطها وصلابة مواد بنائها ووسائل انشائها ٠ فسجلت صفحات جدرانها تاريخ العمارة التى كتبت بدورها تاريخ الحضارة ٠

اما مبانى عمارة الحياة فكانت تبنى بالمواد السريعة الاستهلاك حتى يسهل اعادة تشكيلها تبعا لشكل حياة المجتمع الدائمة التغير والسريعة التطور ٠ لذا فقد تركز تسجيل تاريخ العمارة وتاريخ الحضارات جميعها على عمارة الخلود التى بقيت قائمة بعد زوال عمارة الحياة ٠

● ان مبانى الخلود التى اتخذها تاريخ العمارة كنموذج أو طابع للطراز القومى فتلك المبانى لم تكن لها علاقة بقومية الحياة ــ حياة المجتمع وعمارة حياته كما أنه لم يكن لها طابع أو شكل ثابت عبر تاريخ الحضارة التى لازمتها ٠

فكما أن عمارة الخلود فى الحضارة الفرعونية بدأت بالمصاطب التى تدرج ارتفاعها لتتحول الى الأهرامات المختلفة الأشكال وتنتقل منها الى المعابد المحفورة فى الجبال الصخرية لتتحدى الزمن وتنتقل منها الى المعابد ومنشـــــــاتها العمرانية العملاقة التى عبر تطور أشكال طراز عمارتها عن تطور الثقافة المعمارية والانشائية ، لا تطور الثقافة الاجتماعية التى تحدد الطرز القومية لعمارة الحياة ٠

ان ذلك التغير المتتابع فى طابع أو طراز عمارة الخلود مع بدء نشاتها فى مختلف الحضارات انعكس واضحا على « العمارة الاسلامية » منذ نشاتها وتتابع تطورها وانتقالها عبر الزمان من مكان الى مكان ٠

فالمسجد كرمز ونموذج لعمارة الخلود فى العمارة الاسلامية لم يكن مع قيام الدعوة الاسلامية فى أرض الرسالة أكثر من ساحة مكشوفة بها مظلة تظل الامام وتحمى القبلة ـ تطورت المظلة لتتحول الى سقف من الأخشـــاب والجريد والزعف تحملها أعمدة من جزوع النخيل • كما حلت الخيام محل الأسقف طابع عمارة البدو الرحل ، واستبدلت أعمدة النخيل بالدعائم الحجرية والعقود ابتداءا من استعمال طوب وكتل اللبن الى مختلف أنواع الأحجار مع الانتقال من الصحراء الى الحضر تبعا للمواد المحلية المتاحة فى الأماكن والمناطق والبلاد التى يغزوها الاسلام • فتبنى المساجد لتستقبله وترسى قواعده ـ وبخروج الاسلام من الجزيرة العربية الى مختلف أرجاء المعمورة اتخذت عمارة المسجد وطرق انشائه طابعها من الطـــرز التقليدية الموجودة بالأماكن التى انتقل اليها •

لم يكن للعرب بعد خروجها من الصحراء ومعيشة الخيام دراية بفنون البناء بالأحجار لذا فقد عهدوا الى مهندسوا الأجانب اقامة منشأتهم ومساجدهم الأساسية فقبة الصخرة اقدم مساجد الاسلام فى الأراضى المقدسة قام بتصميمها وانشـــائها مهندس بيزنطى على الطراز البيزنطى • وقد انتقل تصميم طراز قبة الصخرة الى أكثر من مبنى من مبانى العصر البيزنطى فى أوروبا وآسيا عندما أعلن المهندس الذى قام بتصميمها أنه استوحى شكلها من عرش سليمان • كما أن المسجد اقصى الذى زاره الرسول صلى الله عليه وسلم فى رحلة الأسراء والمعراج عهد ببنائه الى مهندس رومانى على الطراز الرومانى المعاصر وذكر بعض المؤرخين أنه بنى فى الأصل ليكون كنيسة للسيدة مريم العذراء ولكن العرب استولوا عليه قبل الانتهاء من بنائه وقاموا بتحويله الى مسجد اسلامى ـ كما هو الحال فى كثير من الكنائس والكاتدرائيات البيزنطية التى قام العرب بتحويلها الى مساجد كمسجد ايا صوفيا (سان صوفى) فى اسطنبول أو غيرها من الكنائس والاديرة التى قاموا بتحويلها الى مساجدا وقاموا بهدمها واستغلال أعمدتها ومواد بنائها فى تعمير مساجدهم •

لقد كان لطراز عمارة الكاتدرائيات والكنـــائس البيزنطية أثر كبير فى تطوير عمارة المساجد وتوقيع مساقطها وعناصر تكوينها وطرق انشائها وفنون زخرفتها فى كثير من البلاد الاسلامية • وقد تعلم العرب من البلاد التى أقاموا بها مختلف الحرف والصناعات سواءا فى حفر الاخشاب ونحت الأحجار وسباكة المعادن والصناعات الزجاجية وأعمال القيشانى والفسيفساء ونقش الرخام وكسوة الأرضيات وصناعة النافورات والتى نقلوها مع حرفيوها وصناعها المهرة من مختلف الجنسيات من بلد الى آخر مع تشكيلها وتطبيعها بما يتمشى مع البيئة وفنونها التقليدية المحلية •

وكما تبادلت البلاد الاسلامية مختلف عمال المهنة وحرفويها فقد تبادلت فى

نفس الوقت مهندسوا تصميم المساجد نفسها فمعظم المساجد التى اقيمت فى أى بلد عربى قام بوضع تصميماتها مهندسون من بلد آخر ٠

كما أستفاد العرب من مهندسوا الصليبيين وعمالهم فى عمارة المساجد وفنون زخرفتها التى استمدوها من الطراز القوطى بعقوده المدببة ونوافذه الزخرفية المطعمة فقد اعترف الصليبيون أثناء أقامتهم التى استمرت مائتى سنة فى الاراضى المقدسة بأنهم تعلموا كثيرا من العرب ونقلوا كثيرا من علومهم وآدابهم وثقافتهم المعمارية الى البلاد الأوروبية والتى تركت بصماتها واضحة فى كثير من منجزات ذلك العصر خاصة فى شرق أوروبا وبلاد البلقان كما كان لعمارة المساجد الاسلامية أثر ملموس فى تطور عمارة بعض الكنائس التى قاموا ببنائها بعد عودتهم الى بلادهم وقد وصف المؤرخ « فان لون » فى تاريخ الحضارة الانسانية تأثير كل ن عمارة المساجد الاسلامية والكنائس المسيحية على بعضها البعض فى مختلف مراحل اتصالهما ببعض عبر التاريخ ٠

● لقد كان لمصر دور هام فى تصميم عمارة المساجد فوضعت أسس الكثير من عناصر تكوينها المعمارى وتشكيل تصميماتها التى انتقلت منها الى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ٠

لقد بدأت عمارة المساجد فى مصر مع دخول الاسلام بمسجد عمرو بن العاص الذى يعتبر قدوة فى تصميم المساجد وبلورة معالمها المارية ٠ واستمر بناء المساجد فى مصر خلال مختلف العصور الاسلامية التى عاصرتها ابتداء من عصر الخلفاء الى توالى العصور الأموية والعباسية والطولونية والأخشـــيدية والفاطميـة والأيوبية والمماليك البحرية والشركســـية انتهاءا بالعصر العثمانى ـ كان لكل عصر من تلك العصور طابعه الخاص والمميز فى عمارة مساجده فوضع كل حاكم بصماته الخاصة على تصميم المساجد بما أدخله على عمارة المساجد من تشكيلات انشائية وفنـــون معمارية ووحدات زخرفية بواسطة ما اتى بهم من معماريين وحرفيين وصناع مهرة كان لهم دور كبير فى تطوير عمارة المساجد وتدريب الصناع المصريين وادخال الكثير من فنون الحرف الصناعية الزخرفية والفنية لتتحول الى حرف تقليدية تشق طريقها الى جميع ميادين المعمار وتحدد معالم طراز العمارة فى كل عصر من تلك العصور٠

● كان لمصر مع بداية عمارة المساجد وتطورها دور هام فى تصميم المساجد نفسها وتحديد عناصر تكوينها ٠ فالكثير من مكونات التصميم المعمارى فى مساجد العالم الاسلامى باجمعه دخيله على تصميم المساجد قبـــل ان تبدأ مصر باقامتها

فالمئذنة على سبيل المثال التى تعتبر عنصر أساسى فى عمارة المســاجد دخيلة على تصميم المسجد نفسه والعمارة الاسلامية بصفة عامة ٠

فالمئذنة كانت أول اضافة اضيفت لعمارة المسجد عندما أقيم أول مسجد فى مصر وهو جامع عمرو بن العاص فقد رأى مهندسوا مصر عند دخول الاسلام ان ترتفع مبانى المسجد ومكان المؤذن عن المبانى المحيطه به ويعلو صوت المؤذن على صوت أجراس أبراج الكنائس ٠ فرفعوا على جانبى المسجد منارتين على طراز منارة الاسكندرية الفرعونية المشهورة ٠ لذا فقد اطلق على المآذن فى عمارة المســـــاجد الاسلامية التى ظهرت بعد ذلك اسم المنارات ٠ كما بنيت مئذنة جامع عمرو بن العاص على شكل وطراز المنارة الفرعونية فقد تطور شكلها لتأخذ طراز عمارة الأبراج فظهر المنار الحلزونى الذى اتخذ طابعه من برج بابل ليظهر فى الملوية ملوية سامراء فى العمارة العراقية وينتقل الى مصر مرة أخرى ليظهر فى مئذنة بن طولون الحلزونية ٠ لم يتوقف طابعها وشكلها عن طراز معين بل أستمر تغير شكلها من عصر الى عصر ومن مسجد الى آخر ــ التصقت بالمسجد وأصبحت جزء لا يتجزأ من عمارته وتغير اسمها من المنارة الى المئذنة التى يؤذن من فوقها للصلاة ٠

لقد تبارى المعماريون فى تصميم أشكال المآذن فى مصر طوال تاريخ عمارتها الاسلامية حتى بلغ عدد المآذن التى أقرتفعت فى سماء القاهرة ألف مئذنة خلال ألف عام فأطلق على القاهرة فى تاريخها الحديث اسم « مدينة الالف مئذنة » ٠ ووصف مآذنها احد مؤرخى الغرب بأنها الأقلام التى سطرت تاريخ عمارتها ٠

● وما يقال عن المئذنة يقال عن المنبر الذى أصبح كالمئذنة جزءا لا يتجزأ من عمارة المسجد ــ فأقامه أول منبر داخل المسجد كان فى مصر وفى مسجد عمرو بن العاص بعد اقامة المنارة أو المئذنة خارجه ولقد اعتبر المنبر بدعة حرمها الاسلام عندما علم الخليفة بأمرها وأن الخطيب يعلو بها على الناس وانهم يســجدون تحت أقدامه ٠ أمر بازالتها ولكنها عادت الى الظهور فى مختلف المساجد الاسلامية بعد ذلك وهكذا سجلت عمارة الخلود التى تمثلت فى عمارة المساجد الاســــلامية فى مصر والعالم الاسلامى ٠٠٠ سجلت تاريخ الحضارة الاسلامية ٠٠٠ من خلال العمارة الاســــلامية ٠

● أن الوجه الآخر المقابل لعمارة الخلود يتمثل فى عمارة الحياة ــ التى تعبر عن حياة المجتمع العضوى الحى ــ غير الخالدة ٠

ان أقرب أمثلة عمارة الحياة وأقربها اتصالا بحياة المجتمع ــ عمارة المسكن ــ

الذى يبنى ليأوى الخلية العضوية الحية ـ العائلة ـ العضو العامل فى كيان المجتمع ـ يبنى ليأوى حياة مجتمعه الصغير ومعيشته ـ يأوى عاداته وتقاليده وسبل معيشته ـ يأوى احتياجاته ومطالبه وخدماته ومرافقه ـ كما يعكس تخطيطه علاقة افراد الأسرة ببعضهم البعض وعلاقتهم بالمجتمع الخارجى ومقومات كيانه الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والعقائدى فالمسكن هى الصورة الصادقة التى تعكس واقع الحضارة التى تعكسها صورة حياة المجتمع الذى يأويه ـ ذلك المجتمع العضوى الحى الذى يخضع كيان وجوده لسنة الحياة • فالمسكن فى جميع الحضارات وطرزها المعمارية تنطبق عليه بدوره سنة الحياة فهو يبنى أو يولد وينمو ويكبر ويتطور ويصـــان ويمرض ويعالج ويموت ليحل محله مسكن آخر يعكس الصورة المتجددة والمتغيرة للاجيال المتعاقبة من مجتمع سكانه الذى عليه أن يأوى مختلف نماذج مطالبهم واحتياجاتهم ومدى ارتباط أفراد العائلة ببعضهم البعض وانتمائهم للمجتمع الكبير • ومدى اندماج المجتمع الكبير نفسه بالتطورات الاقليمية والعالمية المادية والروحية والثقافية •

● لقد اختلفت مبانى عمارة الحياة عن عمارة الخلود فى اختيـــار نوعية مواد بنائها وطرق ووسائل انشائها • فبينما كانت عمارة الخلود تبنى بالأحجـــار الصلبة وكتلها الضخمة والجرانيت والرخام ووسائل انشائها التى تضمن لها الخلود ومقاومة عوامل التعرية والتخريب الطبيعية والبشرية • كانت عمارة الحيـاة تبنى بالمواد الطبيعية المتاحة من اللبن والأحجار الجيرية والطوب والأخشاب وما يرتبط بها من طرق للبناء ووسائل للانشاء تسمح بتعديل المبنى ومكوناته ليتمشى مع الحياة المعيشية ومجاراة تطورها وتغيرها لاطالة بقائها فى خدمة المجتمع قبل هــــدمها واستبدالها بمسكن جديد يتمشى مع التطورات الانتقالية مع تتابع الاجيال فى عمر المجتمعات •

لذلك لم يحتفظ لنا تاريخ العمارة فى مختلف الحضارات الانسانية من النماذج الحية لعمارة المساكن الخاصة التى تمثل عمارة الحياة التى تعبر عن الطراز القومى فى أصدق صوره • تلك المساكن التى بنيت لتأوى حياة مجتمعات سكانها الخاصة وتعيش لتفى بمطالب واحتياجات وتقاليـــد معيشـــتهم فتطورت بتطورهم واختفت باختفائهم • فالنماذج والأمثلة الوحيدة التى احتفظ بها تاريخ العمارة اقتصرت على قصور سكن الحكم والحكام التى لم تتأثر بطرز حياة المجتمع وتطور قوميته ولم يتغير فيها غير ساكينها أو شاغليها الذين طوعوا حياتهم وتقاليد معيشتهم لمجاراتها • لذا فقد انتقلت بدورها لتبحث لها عن مكان فى عمارة الخلود •• ومخلفات التراث •

● العمارة الاسلامية •• والطراز القومى

ان اطلاق اسم الطراز القومى على العمارة ارتبط باطلاق اســم القومية على

الحضارة نفسها عندما نشأت الحضارات القديمة لتعكس حياة المجتمعات أو «الأقوام» التى كانت تعيش كل منها متباعدة ومنعزلة ضمن حدودها المقفلة ، كالحضـــارات الفرعونية والاغريقية والصينية والبابلية والهندية ـ حضارات خالدة سادت وبادت وعمرت ألوف السنين · عكست طرز عمارتها قومية الأقوام التى عاصرتها ··

عندما بدأت الأقوام تخرج من حدود مكانها الجغرافى تتصل ببعضها البعض وتنفتح علاقاتها على بعضها بمختلف عوامل الغزو والسياسى والعقائدى وما تبعه من تبادل ثقافى وما ارتبط به من فنون وأدب كان لها أثرها الفعال فى رسم الصــورة الجديدة لحياة المجتمعات التى ارتبطت ببعضها لتضمها حدود اقليم واحد وتتعاون فى بناء حضارتها الاقليمية المشتركة ·

هكذا ظهرت « الحضارة الاسلامية » التى تغطى مسـاحة اقليم بأكمله تطوق حدوده عدة أقوام وشعوب ودول ، وحدتها عقيدة مشتركة · غطت مساحة من الأرض تمتد من الجزيرة العربية وآسيا الوسطى شرقا الى شمال افريقيا وجنوب أوروبا حتى المحيط الاطلسى غربا ·

فالعقيدة كان لها الدور الأساسى فى قيام الحضارات الأقليمية لتحل محـــل الحضارات القومية فكما كان للاسلام الفضل فى قيام الحضارة الاقليمية الاسلامية وطراز عمارتها الاسلامى ـ كان للمسيحية الفضل فى قيام الحضـــارة الاقليمية المسيحية التى وحدت دول أوروبا وامتدت لتضم بعض الدول الآسيوية وقد تمخضت الحضارة الاقليمية المسيحية عن ظهور طراز الرنيسانس أو « طراز النهضة » الذى وحد الطرز القومية المختلفة ·

وهكذا حلت الحضارات الاقليمية بطرز عمارتها بصورتها وطابعها الجديد لتحل محل الحضارات القومية ـ قطعت العلاقة بها فيما يختص بمقومات حياة المجتمعات تبعا لما فرضته العقيدة الجديدة من مناهج وما وضعته تشاريعها من دساتير لحياة المجتمع ودور اشتراكيه الثقافة والعقائدية ومؤثراتها على العادات والتقاليد التى حددت معالم الحضارة الاسلامية ·

هكذا أظهرت الحضارة الاسلامية لتعكس صورتها وطرازها · صورة « الطراز الاسلامى » الذى عبر بصدق وصراحة أصالته كطراز اقليمى متكامل ومحدد المعالم·

- كما قطعت الحضارة الاسلامية الصلة بالحضارة القومية القديمة التى

حلت محلها كذلك قطعت العمارة الاسلامية وطرازها الصلة بالحضارات القديمة التى حلت محلها ان الحضارة الاسلامية كأى حضارة عالمية حية طال عمر حياتها لأكثر من ألف عام • دبت خلاله الحياة فى جميع أجزاء جسمها العضوى الممتد من الخليج الى المحيط • تأثر طابع كل عضو أو طرازه تبعا لموقعه فى المكان دور المؤثرات المكانية الموروثة من ثقافة وعلوم وفنون ذات الطابع والطراز القومى المستمد من الحضارة المعاصرة فى مواجهة الحضارة الاقليمية الجديدة ومدى تفاعله مع عناصر ثقافتها •

فأختلف طابع العمارة الاسلامية من دولة الى أخرى ومن بلد الى آخر ليعبر عن شخصية وقومية مجتمع المكان الذى تعبر عنه • فالطراز الاسلامى فى مصر اختلف عن مثله فى العراق أو الشام أو المغرب أو الأندلس كما أن طراز العمارة الاسلامية فى كل موقع من تلك المواقع الجغرافية لم يتوقف طابعه عند شكل معين بها وتجاوب مع سنة تور الحضارات التى تعبر عن حياة المجتمعات التى عاصرتها – فاستمرت طرز العمارة خاضعة للتطور والتغير المستمر بمعاصرتها ومعايشتها لحياة المجتمعات حتى أصبح من الممكن من خلال دراسة أشكال عمارتها وما يطرأ عليها من تغير تحديد التاريخ الزمنى للحضارات وما اعترض تاريخ مجتمعاتها من أحداث •

لقد تعرضت الحضارة الاسلامية كما تعرضت مختلف الحضارات الاقليمية فى أواخر عهودها لمختلف ظواهر الانقلابات والثورات والحروب المحلية والعالمية التى عجلت بنهايتها والتى ظهرت واضحة فى مرآة حضارتها أو عمارة مبانيها المعاصرة •

والتى عبر عنها تاريخ الحضارات بعصور الانتقال التى تعقب مراحل الانحلال والاضمحلال العمرانى والتى تهتز فيها صور كثير من الطرز باهتزاز الاســـــتقرار الاجتماعى • وهى المرحلة التى تمر بها حاليا العمارة الاسلامية الى ان تحدد موقعها وموقفها من الحضارة العالمية التى تعتبر آخر مراحل اندماج الحضارات واشتراكيتها التعاونية التى فرضها العصر التكنولوجى •

لقد بدأت مرحلة الانتقال فى تاريخ الحضارات بالانقلاب الثقافى أو التكنولوجى الذى عبر عنه بالمارد أو عملاق الحضارة الذى خـــــرج من القمقم ليلبى الرغبات المستحيلة • وذلك الانقلاب الذى بدأ باكتشاف القوى المحركة بدءا من البخار الى البترول والكهرباء وصولا الى تكنولوجيا الالكترونات والطاقة النووية ودورها فى السيطرة على عصر الآلة التى سيطرت بدورها على جميع مرافق وخدمات حيـــاة المجتمعات المعاصرة وفرضت كلمتها على عالم البناء حتى تعكس العمارة صـــورة الحضارة والعقول الالكترونية التى تبنيها وتحدد معالم طرازها • دخلت الآلة الى

عالم البناء لتحرر العمارة من مواد البناء الطبيعية وطرق انشـــائها اليدوية التى تسخر لها القوى والطاقة البشرية لتحل محلها مواد البناء الصناعية ووسائل انشائها الآلية وتركيباتها المجهزة وانشاءها السابق التجهيز فسيطرت على الفنون التشكيلية للطراز المعمارى بتكنولوجيا علوم الانشاء · كان لسرعة تطورها وما أحــدثته من انقلابات متابعة فى الثقافة المعمارية ان التطورات نفسها سبقت ما حاولوا أطلاقه من أوصاف ومسميات على الطراز المعمارى ففى خلال ما لا يزيد عن نصف قرن من عمر الحضارة تغير اسم عصر العمارة من عصر الخرسانة الى عصر الزجاج وعصر العجائن وعصر التعمير الآلى وعصر الالكترونات والذرة ·· وأخيرا أطلق عليهـا عمارة عصر السرعة · فالسرعة كان لها الفضل الأول فى ظهور الحضارة العالمية وازدهارها ·

لقد ساعد على تبلور الحضارة العالمية ونضجها سرعة ضربات نبضها التى ساعدتها على سرعة الانتشار والتسلسل الى مختلف انحاء المعمورة سرعة الحركة التى تميزت بها وأطلق على عصرها « عصر السرعة » · تلك السرعة التى ربطت بين الشعوب وعملت على انفتاحها على بعضها البعض وتبادل ثقافاتها ووســـائل اعلامها بفضل سرعة النقل والانتقال · فسرعة الانتقال التى بلغت فى حدها الأقصى عشرون كيلو متر فى الساعة خلال عشرة آلاف سنة من عمر الحضارات القوميـــة البشرية بوسائل النقل الطبيعية والحيوانية انتقلت فى الحضارلت الاقليمية لتصـل الى خمسين كيلو متر فى الساعة خلال ألف سنة أخرى بظهور العربات التى تجرها الدواب والخيول ثم قفزت لتصل الى مائة كيلو متر خلال نصف قرن عنـــد ظهور البخار والقوى المحركة ـ كانت وسائل نقل المراسلات والاخبار والاعلام تسير بنفس السرعة موازية لوسائل النقل ·

بالانتقال الى الحضارة العالمية حضارة عصر الذرة والعقول الالكترونية التى ساعد على ظهورها اشتراكية الثقافة العالمية انتقلت خلال نصف قرن لا أكثر لتتعدى سرعة الصوت بفضل المحركات النفاثة والذرية وتمتد سرعة المراســـلات ووسائل الاعلام لتتعدى سرعة الضوء بفضل قوى الاشعاعات والذبذبات اللاسلكية التى تنقل حياة الشعوب وصور مجتمعاتها واخبارها بالصوت والصورة والصحافة المطبوعة ·

ان السرعة التى لغت المسافات بين الشعوب انعكست بدورها بفضـــل الآلة والقوى المتجددة الدافعة والمحركة لها ، انعكست على مختلف مقومات حياة المجتمعات نفسها ـ انعكست على حركة الالات وسرعة انتاجها انتاج الجملة المتضاعف والمركب ليغطى احتياجات ومطالب المجتمع العالمى المشترك لقد صاحب الانتاج الصـــناعى

وسرعته مع سرعة دورة الالات سرعة الانتاج البشرى والتضاعف المركب لعدد سكانه حتى بلغ عدد سكان الكرة الأرضية خلال قرن واحد من الزمان اربعة أمثال حجمه ـ وقد قرر أحد خبراء الاحصاء بأن الكرة الأرضية بسعتها الحالية اذا نما عدد سكانها بنفس المعدل ونفس السرعة التى هى طابع العصر فسوف يغطى السكان سطح الكرة الأرضية بأكملها ويختل كل شخص عشرة أمتار مربعة من سطحها الصالح للحياة بما فى ذلك الأراضى الزراعية والانتاجية بأكملها ٠

ان الحضارة العالمية التى ستحل محل الحضارات الاقليمية والقارية وغيرها من الحضارات القومية القديمة ومن بينها الحضارة الاســـلامية فقومية طرازها أو عوامل نشأتها ومقومات بنيانها الحضارى ليست وقفا على شعب معين ، أو ثقافة معينة بل هى نتاج اشتراكية وتعاون الثقافة العالمية ٠ فثقافتها حصيلة علوم وبحوث تبادلها علماء وخبراء من مختلف الجنسيات لم يتخلف عنهم علماء الدول النامية ودول العالم العربى فكان لهم دورهم الفعال فى بناء تكنولوجيا الحضـــارة العالمية الحديثة من الكمبيوتر الى علوم الفضاء ٠

فمن الخطأ نسبة الحضارة العالمية الى شعب معين من شعوب الكرة الأرضية لسرعة تفاعله معها والارتفاع بثقافته الى قمة مستوياتها كما هو الحال فى الشعوب الأمريكية أو الشعب اليابانى أو بعض الشعوب الأوربية الناهضة ٠

فالشعوب التى ساهمت جميعها فى بناء الحضارة العالمية والثقافية العالمية فى سباق دائم لتحتل كل منها مكانها من تلك الحضارة الاشتراكية تبعا لظروف كل منها السياسية والاقتصادية وأثرها على الثقافة وسرعة تقبل الشعوب وتطبعها وانتمائها ٠

فعلاقة الحضارة العالمية وطراز عمارتها وأثره على الحضارة الاســـــلامية وعمارتها القومية هو نفس الدور الذى قامت به الحضارة الاسلامية كحضارة وعمارة اشتراكية اقليمية وحدت ثقافات الشعوب التى ضمها الاقليم ، وحـــدتها فى ثقافة اسلامية مشتركة ، وحدت نظم حياة مجتمعاتها فانعكس طابعها على طراز عمارتها التى أطلق عليها اسم **العمارة الاسلامية** التى حلت محل عمارة الطرز القومية وقطع طابعها وطرازها علاقته بكل من تلك الطرز ٠

ان الاشتراكية التى تحدد طابع العمارة أو طرازها والغرضـــية التى تنوع أشكالها هما اللذان سيحددان طابع العمارة العالمية وتشكيل وحداتها المرتبطة بالغرض أو الاغراض المتعددة والمتحددة المرتبطة بخدمات حياة المجتمع المعاصر ٠

فالاشتراكية العمرانية هى التى نقلت حيــاة المجتمع من **الخلية الوحيدة الى الخلية المجمعة** • والغرضية تعمل على تشــكيل الخــلايا المجمعة لتحقق مطالب الاشتراكية المتزايدة والمتجددة والمركبة •

فتحولت العمارة الى آلة تقوم بخدمة المجتمع بدلا من قيام المجتمع بخــدمة العمارة فالمسكن المنفرد الذى يمثل الخلية الوحيدة فى العمارة الاسلامية يعيش حياته المنعزلة عن المجتمع الكبير ينفرد بمعيشته وخدماته ومرافقه ضمن أسواره المقفلة داخل حدود ملكية أرضه الخاصة ـ تحول فى العمارة العالمية الى خلية مجمعة تضم مئات المساكن أو حى سكنى كامل فى عمارة واحدة كاملة المرافق والخدمات العامة الصحية والثقافية والتجارية ـ ترتفع عمارته عشرات بل مئات الأدوار لتناطح السحاب ويحتل من الأرض مساحة لا تزيد عن مساحة المسكن المنفرد أو الخلية الوحيدة التى حل محلها •

ان نفس التطور والانتقال من الخلية الوحيدة الى الخلية المجمعة سيطر على جميع عناصر عمارة الخدمات الاشتراكية فى العمارة العالمية الحديثة سواء ما رسمت منها طراز المدن القديمة نفسها وطابع تخطيطها أو التى فرضتها وتفرضها باستمرار مطالب الحضارة الحديثة وانتاج بحوثها التكنولوجية •

وحانوت التاجر المنفرد وأسواق حوانيه اختفت بدورها لتحل محلها العمارات التجارية المركزة •• والمتعددة الأدوار •

وأسطبل العربة وسيلة النقل فى العمارة الاسلامية بطراز عمارته وطابعه الذى يتمشى مع طراز العربة •• تحول الى جراج عند ظهور السيارة التى حلت محلهـا وأنتقل الجراج •• الخلية الوحيدة ليتحول الى جراج متعـــدد الأدوار يأوى مئات السيارات وتحولت الحوارى والأزقة ـ شرايين مرور العربات والدواب الى شوارع عريضة متعددة الأدوار تحلق فوق سطح المدينة وتحت أرضها • لتحل مشكلة انسداد شرايين المدن القديمة ـ ومناخ الجمال أو محطة السفر فى المدن الاسلامية تحول الى مطار تهبط فيه مئات الطائرات التى تحمل ملايين الركاب وتقوم بنقلهم من دولة الى أخرى فى أقل من الوقت الذى كان يحتاج فيه المواطن للانتقال من وسط المدينة الى أحد اطرافها •

● كانت العمارة الاسلامية بطرز مبانيها التقليدية تسخر جهودها لمقاومة العوامل الجوية على اختلاف أنواعها وتباين مواقعها • بينما العمارة العالمية وطرز عمارتها سخرت العوامل الجوية وقواها والطاقات المستمدة منها لخدمة العمارة •

ان الآلة رمز الحضارة العالمية · حضارة عصر الآلة والعقل الالكترونى لم تغير طراز المبانى وأشكالها تبعا للتخطيط الغرضى لمساقطها وبما تؤديه من خدمات متطورة لا حدود لها ··· بل امتدت لتغير شكل المدينة بأكملها وطراز تخطيطها ــ المدينة المعاصرة التى يفسح تخطيطها المكان ويحدد مقع كل من تلك المبانى الغرضية التى لم يكن لأى منها شبيه أو مثيل فى مدن الحضارات القديمة والتى يخطط الغرض لكل منها متطلبات المدينة العصرية · كما يحدد تخطيط المدينة علاقة كل منها بشبكات الخدمات المرافق اللانهائية التى تسيطر العقول الالكترونية على تخطيط مساراتها وتوفير آلات ومعدات تنفيذها وتأمين طاقات القوى المحركة لادراتها وضمان انتاجية دورة عملها ·

● ان القومية هى تصنع الطراز وليس الطراز هو الذى يحـــدد القومية فالطراز يتغير بتغير القومية التى يعكس صورتها · صورة النسيج المتكامل لواقع حياة المجتمع المعاصر نفسه · فكلما تغير طراز النسيج ومتوازياته تغيرت الصورة التى يعكسها ·

فطراز عمارة اليوم فى أى مكان هى صورة واقعية صادقة لمجتمع اليوم الذى تعكس صورة قوميته · فاذا كان كثير من الشعوب تمر اليوم خلال مرحلة من مراحل الانتقال الحضارى قد اهتزت صورتها تبعا لتفاعل مجتمعاتها مع الحضارة العالمية المعاصرة وارتباط ثقافاتها مع تيار مقوماتها ــ فتلك الصورة المهتزة هى ظهرت على مرآة طراز عمارتها المعاصرة التى جمعت بين مقتطفات من جميع الطرز المنتمية الى مختلف العصور والأزمنة · ذلك الخليط فى استعراض ازياء ملابس السكان ووسائل انتقالاتهم ومستلزمات حياتهم بل انعكس على تقاليد وعادات معيشتهم وما ارتبط بها من فنون وآداب وموسيقى وغناء التى انجرفت فى دوامة تتجاذبها تيارات القـديم والحديث والمستقبل تلك الدوامة التى يجرف تيارها كثير من الشعوب الاســـلامية النامية · لقد دوت بعض الأصوات من وقت الى آخـر من خلال تلك الدوامة دوامة مرحلة الانتقال فى انحاء العالم الاسلامى ــ أصوات يطالب أصـــحابها بالعودة بالعمارة وطرزها الى الطراز الاسلامى أو الطرز الاسلامية التى كانت ســـائدة فى مختلف الأمكنة والعصور الاسلامية القديمة باسم القومية ·· أو الطـــراز القومى الذى افتقده الاسلام ·

● الطراز القومى ليس فى حاجة الى من يجهد نفسه فى ابتكاره أو يحاول عبثا فى اقتباس أشكاله من طراز عاشت وبادت ·

فالطراز موجود فى كل زمان ومكان · هو صورة واقع المجتمع وحياته وثقافته وعاداته وتقاليدهواحساسه بوجوده ·

اذا كانت صورة العمارة ·· أو صورة الشخص المنعكسة على المرآة لا تعجبه أو يخجل منها ويريد تغييرها ــ فلن يكون تغييرها بتغير المرآة بل بتغيير الشخص الذى تعكس صورته · ان كان هناك من يطالب بتغيير طراز العمارة المعاصرة بالعودة الى طرز العمارة الاسلامية كرمز للقومية وتعبير عن أصالتها ، فمن السهل تحقيق تلك الأمنية بتغيير الواقع الذى تعكسه المرآة ·· وليس بتغيير المرآة ·

فاذا كنا نريد أن ترتدى العمارة زى الطراز الاسلامى القديم فما علينا الا أن تغير شكل المجتمع وصورة حياته التى تعكسها المرآة وعلينا أن نغير نسيج المجتمع ــ علينا أن نغير نسيج المجتمع بأكمله ومقومات معيشته من أدوات ومعدات وما تؤديه من خدمات واستبدالها بما يحقق طرازها وأشكالها المرتبطة بوظيفتها ــ استبدالها بما يحقق الصورة المرجوة التى تعبر عن القومية التى نتمناها ونتخيل طرازها · علينا أن نخلع الملابس وازيائها التى فرضتها الحياة العملية الآلية الحديثة لنرتدى ازياء الملابس الطرازية القديمة مع ما يتمشى معها من عادات وتقاليد فى مختلف نواحى المعيشة فى المعاملات والعلاقات بالمجتمع ·

علينا أن نتخلى عن المرافق الكهربائية والآلية ومعداتها لتحل محلها الشموع والقناديل والمعلقات ــ نتخلى عن الغسلات والثلاجات والأفران الحديثة لتحل محلها الطشوت والازيار والقلل وافران الخبيز ولكل منها مكانها المخصص والمفضل فى عمارة الطرز القديمة ــ علينا أن نستبدل السيارة والطائرة ووسائل النقل الآلية بأنواعها نستبدلها بوسائل النقل القومية الطرازية من الجمال والجياد والعربات التى تجرها الدواب ــ كما تحل أسلحة الحرب والدفاع والفروسية من سيوف وحراب وأقواس ونبال محل أسلحة الحضارة المعاصرة من دبابات وصواريخ وطائرات ·

بأكتمال تلك الصورة الكاريكاتورية التى تفرض على حياة المجتمع ليعيش فى القرن العشرين بعقلية القرن العاشر ·

ستعكس المرآة صورة العمارة وهى ترتدى ازياءا مزيفة ومقلده من الطرز القرن العشرين بعقلية القرن العاشر · ستعكس المرآة صورة العمارة وهى ترتدى ازياءا مزيفة ومقلدة من الطرز الاسلامى القديمة التى يحلم ببعثها ·· ستفضح صورتها صورة قوميته المزيفة التى يسعى الى تقليدها باسم الانتماء اليها عقائديا أو سياسيا أو اجتماعيا · فارتداء ازياء الماضى فى العصر الحاضر ليس له مكان الا فى حفلات الكرنفال التنكرية ــ وليس ظهور ازياء تلك الطرز فيها يعد تقديرا أو تمجيدا لها ولعصورها ·· بل سخرية منها · فالعودة لطرز من الحياة تجاوز التاريخ الحقيقى لتطور الحضارات والثقافات والعودة لنبذ الحضارة الحديثة والتمسك بمقومات الماضى

باسم القومية – ان دل على شيء فهى يدل على اتساع الفجوة بين ثقافة الشعب القومية وثقافة الحضارة العالمية ·

● اذا كانت العمارة هى مرآة الحضارة التى تعكس واقع حياة المجتمع وصورة قوميته · فالقومية هى التى تصنع العمارة وتحدد معالم طرازها وليست العمارة هى تصنع القومية · فالقومية وطابعها موجـــــودان دائما ولما كانت حياة المجتمع فى أى مكان ليست ثابتة بل فى حركة مستمرة من التطور والتغير بتجاوبها مع ضربات نبض الحضارة العالمية الحديثة فطراز عمارة البلاد الاسلامية اليوم ليس لها علاقة بطرز العمارة الاسلامية فى عصورها المختلفة بل هو طراز حياة المجتمع الاسلامى المعاصر وموقعه من الحضارة العالمية ومقومات عناصر تكوينها ·

● ان مهندسى العمارة الاسلامية القدماء الذين وصلوا الى قمة الابداع الفنى والنبوغ العلمى والمهارة التطبيقية فى استغلال مواد البناء المتاحة التى وضعت تحت ايديهم فاخرجوا تصميمات المسجد الاسلامى وتأكيد طـــرازه المعاصر لتاريخ انشائه · ان وسائل الانشاء الطرازية التقليدية لم تسعفهم فى تغطية مساحات وافنية المساجد وحرارة الشمس فاضطروا الى زراعة المساجد بالأعمدة والدعامات المتقاربة التى تحمل العقود والمقوصات والأقبية والقباب التى تغطى الاسقف والتى فرضتها طرق الانشاء الطرازى فحجبت القبلة والمنبر والامام عن المصـــلين وعاقت تنظيم صفوفهم المترامية ·

فلو وضعت مواد اليوم الصناعية وطرق انشائها الألية ومعداتها الالكترونية لو وضعت فى أيديهم لقاموا فورا بتغيير عمارة بناء مساجدهم – لقاموا بتغطية أسقف المساجد التى يبلغ مساحة كل منها عشرات أمثال مساحات المساجد القديمة لقاموا بتغطيتها أو بتسقيفها مهما بلغ حجمها بغير أعمدة أو عقود أو قبـــاب كما أمكنهم التغلب على كثير من المشاكل التى كانت تواجه عمارتهم الاسلامية التقليدية من ناحية

توزيع الاضاءة والصوت وتسخير العوامل الطبيعية وطاقاتها وقواها لخدمة المسجد بدلا من تسخير المسجد وعمارته لمقاومة عوامل الطبيعة ·

سيظهر مسجده بطراز اسلامى جديد طراز معاصر لحضارة الزمان والمكان وسيكون صادقا فى تعبيره بأن الاسلام دين كل زمان ومكان ولا تنفصـــــل ثقافته وحضارته عن ثقافة وحضارة العالم المعاصر ولن تتخلف عنه · ربما اهتدى التفكيـــر الى حماية الكعبة المشرفة ومنشآتها وساحتها بسقف واحد معلق أو تغطية ساحات عرفات ومسجد منى التى تظل مئات الألوف من الحجاج والمصلين – وقد مهدت عمارة

العصر لتغطية أسقف الملاعب والمعارض التى تتسع لمئات الألوف من الزائرين ·· بغير أعمدة أو عقود أو قباب ·

العمارة الاسلامية ·· بين التراث والقومية :

هناك فرق بين التراث والقومية ··· وعلاقة الطراز المعمارى بكل منهما فالتراث هو صورة الماضى وتاريخه الذى طوى الزمان صفحاته ليحتفظ بين صفحاتها أصالة الشعوب بانتمائها للمكان ومعاصرتها للزمان · بينما القومية هى الصورة الحيـــة لواقع حياة المجتمع التى تعبر عن حاضره المعاصر ومدى ارتباط أصالة الماضى وآمال المستقبل بواقع الحاضر — وصوره كل منهما فى مرآة الحضارة يعبر عنهـا بطراز العمـــارة ·

فطراز التراث من الناحية الشكلية والتشكيلية ثابت ومحدد المعام ، بينمـــا طراز القومية متطور ومتحرك وغير ثابت — لذا فيجب الفصل بين ما نطلق عليه اسم **طراز التراث الاسلامى** · وطراز القومية الاسلامية المعاصرة · فمحاولة الخلط بينهما جريمة فى حق كل من التراث والقومية · كما سبق ذكره فى تفسير معنى القومية وعلاقتها بالطراز القومى وعلاقة الأصـــالة بكل من التراث وواقع حيـــاة المجتمع المعاصر · ومدى تفاعله بالمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية التى تفرض نفسها على مقومات الحضارة المعاصرة ومدى ارتباطها وانتمائها بمقومات التراث · فتراث العمارة الاسلامية هو سجل تاريخها الخالد الذى يجب المحافظة عليه بأمانة واخلاص وعدم السماح بالعبث به أو التطاول عليه أو تشويه صورته ·

فالتراث العمرانى للعمارة الاســـلامية يعتبر من الآثار التاريخية التى تبدأ المحافظة عليها بتسجيل تاريخهـــا · بالبحث عن عناصر تكوين بنيتها المعمـــارية والانشائية والكشف عن مواطن الاعجاز الفنى لا فى صورة واجهاتها ·· بل بمـــا تعبر عنه تلك الواجهات وما تخفيــه أقنعتها من المؤثرات التى لعبت دورا هاما فى تكوينها المعمارى ·· سياسية كانت أو اقتصادية أو ثقافية ودورها فى اختيار مواد بنائها وتشكيل عناصر تكوينها أى تسجيل المواصفات الكاملة لتكوينها المعمـــارى المكملة لتخطيط مساقطها وواجهاتها وتفاصيل زخارفها التى يمكن الرجوع اليها فى أعمال الصيانة والترميم ·

فالمحافظة على التراث تنتقل بعد عملية تسجيله الفنى والتاريخى الى العمل على الابقاء عليه بصيانته وترميمه — هناك ركن هام فى أركان عمليات ترميم الآثار المعمارية وهو الحفاظ على القيمة التاريخية التراثية للاثر وهو المحافظة على نوعية مواد بنائه الأصلية وطرق انشائه كذلك مواد صناعة زخارفه وتركيباته فلا يستبدل

الحجر والجص بالخرسانة المسلحة والمون الأسمنتية ولا تســـتبدل الاقبية والقباب ومواد انشائها وبنائها الطبيعية التى تنتمى لعصر بنائها بعقود من الخرسانة والعجائن الحديثة وتغطى بالبياض الذى تنقش عليه صور الحجر والطوب او تستبدل القباب الأثرية المبنية بالطوب والحجارة والتى يمثل بعضها قمة الاعجاز فى فن الانشـــاء تستبدل بقباب شبيهة ومستعارة تصب بالخرسانة المسلحة أو الهياكل المعدنية وتكسى بالالومنيوم لتحاكى صورة الفسيفساء والخزف أو يحل الانشاء الجاهز والسابق التجهيز محل وسائل انشائها الأصلى أو تستبدل الأسقف الخشبية بكمراتها ونقوشه المحفورة بأخرى من الخرسانة المسلحة تلصق بها الكمرات المستعارة بالجص والبياض التى تحملها الأسقف بدلا من تقوم الكمرات بحمل الأسقف ٠ او تســـتبدل النقوش الرخامية والقرنصات المحفورة وزخارف الخزف والفسيفساء تســـتبدل بالجص والبياض وتنقش وتلون بالاصـــباغ حتى تحاكى ألوان الرخـــام واشـكال مواد الزخرفة الأصلية ٠

ان تلك المحاولات والجهود التى قصد بها المحافظة على التراث وتقييم تاريخه وأصالته ان دلت على شيء فقد دلت عقم تفكير الخلف فى الحفاظ على تراث السلف هى المعول الذى يعمل دائما على تحطيم صرح تراث العمارة الاسلامية ويعجل على اندثارها وتشويه أصالة أمجادها وانعدام الصلة بين الطراز والقومية ٠

● لقد قامت كثير من الدول ذات الحضارات التاريخية القديمة بسن شتى القوانين التى تحمى بها تراثها العمرانى من التعرض للاعتداءات على اختـــلاف طابعها وأنواعها والتى تعمل على تشويه معالمها وتعجل اندثارها ، فمنعت تقليـــد المبانى القديمة أو اقتباس تفاصيلها المعمارية واستعارة عناصرها الزخرفية لكسوة مبانيها الجديدة المعاصرة ، بصرف النظر عن علاقة الشكل بالغرض من البناء او علاقة الشكل المعمارى بالهيكل الانشائى ومواد بنائه ، وعناصر تكوينه مع تجاهل الغرضية وذلك فى الخلط بين طرز عمارة الخلود وطرز عمارة الحياة كنقل التفاصيل المعمارية لعمارة المساجد ودور العبادة لكسوة وزخرفة عمارة المساكن ودور اللهو ٠ والطراز المعمارى لكل منهما فى مرحلة من مراحل تطور الطرز لم يكن له اية علاقة بالآخر لا فى مواد البناء أو طرق الانشاء أو أشكال المبانى ٠

ان ذلك الخلط الشائع لن يؤكد الأصالة فى العلاقة بين التراث والطراز والقومية بل سيكون تعبيرا عن فقد الانتماء للاصالة والجهل بعلاقتها بالقومية ٠

كما نصت بعض القوانين على السماح للبلديات بالاستيلاء على المبانى الأثرية القديمة والمشغولة منها بالسكان ، بالاستيلاء عليها باسم المنفعة العامة اذا حاول أصحابها أو ملاكها تغيير معالمها الأثرية أو هدمها لاقامة مبان حديثة مكانها ٠

واشترطت بعض قوانين تخطيط المدن عدم اقامة مبان حديثة الطراز ملاصقة للمبانى الأثرية وخاصة المساجد مع ترك المنطقة المحيطة بها فى التخطيط كمسطحات خضراء وازالة ما يكون قد سبق اقامته من مبان تجـــارية أو عامة يكون لها تأثير معنوى على حرمتها ٠

لقد اثير موضوع المحافظة على التراث المعمارى فى كثير من مؤتمرات تخطيط المدن العالمية واعادة تخطيطها لتتمشى مع التطورات العمرانية والزيادة الســـكانية والتطورات التقنية التى فرضت نفسها على حياة المجتمعات ومختلف وسائل الخدمات والمرافق فغيرت نظريات تخطيط المدن الجديدة وجـــه المدن وطابع تخطيطها وأسس عمرانها فامتد بعضها الى ازالة العديد من الاحياء القديمة واعادة تخطيطها بصورة جديدة تخفى معالمها القديمة ٠

● لم تتجاهل البحوث ونظريات التخطيط موضـــــوع التراث التاريخى ، لا بالنسبة للوحدات الأثرية القائمة بذاتها ـ المنعزلة منها أو المتداخلة مع المبـــانى المعاصرة ومراعاة موقعها الثابت فى التخطيط الجديد الذى يدخلها ضمن عناصر تجميل المدينة والتى تعتبر من الاوتاد الثابتة أو مراكز الاشعاع فى شبكات الطرق ـ بل تطرق الى بعض الاحياء السكنية الأثرية المتكاملة والتى تحتفظ الى حـــد كبير بطابعها العمرانى والمعمارى المميز وتاريخها الثابت الأصل ـ والتى يعتبر معظمها نواة نشأة المدينة القديمة والتى تحتفظ صفحات مبانيها وطابع عمرانها بشهادة ميلاد المدينة الكبرى نفسها ٠ لذا فقد اتجه تفكير بعض المخططين الى المحافظة على التراث المعمارى فى مثل تلك الأحياء الأثرية الصميمة التى حفظت على كيانها العمرانى فى مواجهة التطورات والانفجارات العمرانية التى حولتها من مدينة تاريخية متكاملة الى حى منعزل فى جسم المدينة الحديثة الكبرى ٠

اتجه التفكير الى اعتبار ذلك الحى التاريخى بأكمله كمجموعة أو وحدة أثرية تراثية متكاملة ٠ يبدأ برنامج ترميمه وصيانته المحافظة التامة على كيانه الأثرى مع الاحتفاظ بطرقاته التى تحولت الى أزقة لا تسمح بمرور وسائل النقل الحديث فيعاد رصفها بوسائلها وموادها القديمة والاحتفاظ بطابعها القـــديم ويترك المرور خلالها للمشاة فقط والمحافظة على طابع حياتها الاجتماعية بأســـــواق مبانيها التجارية وحوانيتها وما تعرضه من حرف وصناعات تقليدية بجانب الابراز الصادق والصريح لمبانى عمارة الخلود من مساجد دور للعبادة ، بجانب مبانى عمارة الحياة من دور للسكن ودور للخدمات الثقافية والترفيهية حتى يتحول الحى بأكمله الى متحف حى متكامل يكمل المتاحف الأثرية التى تحتفظ بمخلفات التراث الفنية والأثرية ٠

ان مثل تلك المشروعات العمرانية فى المحافظة على التراث وصيانته تلعب دورا هاما فى اقتصاديات التعمير والدخل القومى عندما تتحول الى مركز سياحى شامل يجمع بين الخدمات السياحية الأثرية والفنية والتجارية والترفيهية فى مركز واحد يعتبر من المعالم السياحية والعمرانية الرئيسية بالمدينة الكبرى · ان احياء الطراز القومى « للعمارة الاسلامية » برعايته والمحافظة عليه هو الذى يؤكد اصالة الانتماء اليه ــ تلك الأصالة هى الطاقة الكامنة التى تدفع الشعب لبناء حضارته التى تحدد قوميته المعاصرة ·

فالعمارة الاسلامية هى تراث فكر وحضارة . احتفظ التاريخ بصورتها التى انعكست على طرز عمارتها لتعلن عن ميلاد أول حضارة اقليمية فى تاريخ الحضارات العالمية · حضارة وحدت عدة شعوب وقوميات متباينة · وحدتها فوق ارض واحدة وتحت سماء عقيدة واحدة ، فعاشت فسحة من الزمان خمسة عشر قرن وضعت خلالها صورة القومية وطرازها لكل شعب من شعوبها فى المكان الثابت والزمان المعاصر ·

فالعمارة الاسلامية أو الطراز القومى لأى شعب من الشعوب الاسلامية هو صورة الطراز الذى تعكسه المرآة · صورة حياة الشعب وموقفه من مقومات الحضارة العالمية ومدى تأثره بتفاعلات التطور الحضارى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تعطى للرابطة القومية مجالا أوسع ولطرازها شكلا أوضح · قدمان ترتكز عليهما القومية وتخطو بهما نحو الأصالة والرسوخ ــ أحدهما تخطو نحو الحفاظ على التراث وازالة الغبار عن تاريخه لابراز أصالته وأصالة الشعب بالانتماء اليه · والقدم الثابتة يخطو بها نحو الثقافة العالمية ليؤكد انتماؤه الأصيل اليها ليس فقط بتفاعله معها بل بالمشاركة والمساهمة فى بنائها ·

● فالعمارة الاسلامية كفكر بنت ثقافته الحضارة ــ وحضارة بنت كيان المجتمع الاسلامى وجسمت معالم قوميته قام ببحثها وتسجيلها وتقديمها رائد تاريخ العمارة ومعلمها لأكثر من جيل من المعماريين الأستاذ الدكتور توفيق احمد عبد الجواد ــ عبر عنها بحضور فكره وعمق بحوثه التى ضمنها خلاصة تجاربه فى العمارة وتاريخها وعناصر تطورها الفنى وتسلسلها التاريخى حول المكان وعبر الزمان فقدم للعالم المعمارى ذلك المجلد الجديد ــ العمارة الاسلامية ــ فكر وحضارة ــ الذى اثرى به المكتبة العربية ليكمل به موسوعته القيمة فى تاريخ العمارة ·

بسم الله الرحمن الرحيم

● اهـــــداء : العمارة والفنـــون الاسلامية .

ـ الى كل مهندس معمارى فنان ، يؤمن بأن العمـــــارة كعلم تحقق الحق وتظهره ، والعمارة كعمل وتنفيذ تعمم الخير وتنشره ، والعمارة كفن تكشف عن الجمال وتصوره .

ـ الى كل مهندس معمارى عربى ، يؤمن بعـــروبته ، ويحترم ماضيه ، ويثق فى حاضره الى كل مهندس حر ، يعتز بتراثه العربى ، ويؤمن بمجتمعه وواقعه .

ـ الى كل منهدس معمارى فنان ، ينافس ولا يقلـــــد ، يبتكر ولا يقتبس . الى كل مهندس معمارى أصيل ، يهـــدف الى رفع التوعيه على الكمية .

ـ الى كل مهندس معمارى ، يحب الطبيعة ويحب الجمال .. الجمال الحقيقى الذىينبعمنه جمال العمل ، وجمالالانتاج، وجمال الخلق .

ـ الى كل مهندس معمارى عربى ، يؤمن بأن العمارة العربية عمارة عضوية أصيلة ، ذات حساب باطن دقيق ، يشع من خلالها الفن بكل ما يحمل من لهب فى توافق تام مع جميع القوى فى التأليف المعمارى .

ـ الى المهندس المعمـــــارى الفنان ، الذى ســــار على نفس الطريق ، طريق العمارة العربية ، طريق الحيـــــاة ، طريق الأمل فى المستقبل ..

● الى ولدى المهندس المعمارى الأستاذ الدكتور محمد توفيق عبد الجواد أستاذ العمارة ـ كلية الفنون الجميلة جامعة حلوان ـ أهدى هذا الكتاب .

توفيق أحمد عبد الجواد

مقـــدمة :

- ما هو التاريخ ؟
- ما هى العمارة ؟
- ما هـــو الفن ؟

● التـــاريخ

- تاريخ العمارة والفن هو تاريخ تحرير الانسان ·
- التاريخ سبيل الى فهم الحاضر ، وطريق الى الأمل فى المستقبل ·
- التاريخ كالطبيعة : يتطلب دائما اعادة التفسير ·
- نحن نصنع التاريخ عندما نبرز روحه ومعناه ·
- ويصنعنا التاريخ بأن يحدد لنا اتجاه سعينا فى الحياة ·
- الناس يعيشون فى التاريخ ، والتاريخ يعيش فى الناس · ثم أن التاريخ هو حركة الصراع ، والصراع هو حركة التاريخ · وحيث يكون الناس يكون الصراع ويكون التاريخ ·
- القانون الوحيد فى التاريخ هو الصراع والحركة ، والتعبير ، وليست هناك حالة ثبات ودوام فى التاريخ ، حيث لا يجـــب الخلط بين تيارات التاريخ ومتاحف التاريخ فتيارات التاريخصراع وحركة وتعبير أما متاحف التاريخ فهى تماثيل من حجر ، وأوان من ذهب ومومیات فى أكفان ·

● العـــمارة

العمارة ــ هى المرآة الصادقة التى تعكس عليها ثقافة الشعب ونهضته وتطوره ورقيه ٠

العمارة ــ هى تلك السيمفونية العظيمة الخالدة من الحجر وهى ذلك العمل الضخم لانسان وأمه ٠

العمارة ــ هى الحياة ٠٠٠ الحياة التى عاشت فى عــــالم الأمس والتى تعيش اليوم ، والتى ستبقى حية فى المســتقبل ٠

العمارة ــ هى التاريخ الصحيح الذى لا يخدع ولا يكذب ٠

العمارة ــ هى علم وفن وعمل ٠ فالعمارة كعلم تحق الحق وتظهره ، والعمارة كفن تخلق الجمال وتصوره، والعمارة كعمل وتنفيذ وتصمم الخير وتنشره ٠ فالمعنى الحقيقى للعمارة اذن هو: احقاقها للحق ونشرها للفن ، وتعميمها للفضيلة ٠

● الفـــن

الفن ــ تهذيب للنفس وارهاف للحس ٠
اذا عبرنا عن الفن باللفظ ــ فهو الشعر ٠
واذا عبرنا عن الفن باللحن ــ فهى الموسيقى ٠
واذا عبرنا عن الفن بالرسم ــ فهو التصوير ٠
واذا عبرنا عن الفن بالتجسيم ــ فهو النحت ٠
واذا عبرنا عن الفن بالانشاء ــ فهى العمارة ٠

● التاريخ ... العمارة ... الفن :
HISTORY OF ART & ARCHITECTURE

كثيرا ما عجبت من أمر نفسى ، وكثيرا جدا بل وما أسرع ما يتحول هذا العجب الى سخرية أولا ، ثم الى رثاء لها ثانيا ، وأخيرا الى عطف عليها . حيث لا يعرض لى أمر أو موضوع أو بحث أو مشروع ، سواء أكان هذا البحث أو ذلك المشروع عادى أو غريب ، مألوف أو غير مألوف الا وحاولت أن أتبين أصله وأرده الى علته . وقد أصل الى ما أريد فترضى نفسى وهذا نادر ، وقد أعجز عن التعليل فتغضب نفسى وهذا كثير . وأنا على كل حال ساخر من أمر نفسى لهذا المرض الذى لا أجد له علاجا ، ومن التماس العلة والانتهاء الى المصادر والأسباب ، مرض البحث وتقصى الحقائق بالرجوع الى المراجع الصادقة .

.. تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ، أو قصة الحضارة العربية الاسلامية والفكر الاسلامى بكل مالها وما عليها ... وقبل شرح ذلك التاريخ الأصيل ، لابد من الوقوف لحظة لنعرف ماهى العمارة وما هو الفن ... ؟

فى أى مرحلة من مراحل تطور العصور المختلفة التى مرت على العالم سواء فى الشرق أو الغرب ، سواء قبل التاريخ أو بعده ، نجد أنه لا يمكن الفصل بين الفن وبين العمارة . واذا ما تحدث المؤرخون عن العمارة فيصفونها بأنها عمل انشائى تكوينى ، نجد أنهم يطرقون باب الفن فيها ، ويتحسسون مواضعه ، ويحددون مكانه ومكانته ، ويبرزون صور الفنون المختلفة فيها ، ويطغون بذلك على العمارة حتى رأينا أنهم فى الماضى وصفوا العمارة بأنها فن ، وأطلق عليها قدماء اليونان بأنها أم الفنون — Architecture is the mother of all arts — وكان اليونان على حق فى هذا التعريف ، لأن العمارة كانت فى تلك العصور لا تختلف عن النحت أو الرسم ، وكان الفن هو المتغلب عليها وأخرجها عن الغرض من كيانها .

ولقد مرت فعلا على العمارة عصور وأجيال وهى وقف على الحجر والصخر ، وعلى المواد التى وجدها الانسان حوله من الطبيعة ، وعرف الانسان كيف يستغل تلك المواد استغلالا صحيحا ، فظهرت العقود والقباب والقبوات ، وكلها نشأت على أساس علمى انشائى صحيح ، لا على أساس فنى . ثم وجه الانسان همه الى اخفاء تلك الأحجار الصلبة تحت رداء من الزخارف والحليات والكرانيش بطبقات من البياض . فخرجت العمارة من يد المعمارى الى يد الفنان النحات مثل ميكل أنجلو ورفائيل وبرنينى وسانجالو وفينيولا وغيرهم ، وأخرجت معاولهم تحفا فنية . ولكنها ليست بمبان سكنية ، بل بنماذج كقطع الأثاث والزينة ... ينظر اليها الانسان ويعجب من صنعها كحلية ، ويتعجب من كونها بنيت للسكن .

فكانت هناك علاقة أكيدة بين العمارة والنحت ، بل مر الوقت الذى رأينا فيه أن العمارة كانت هى النحت ، ومتى كان ذلك ··· ؟ حينما كان الغرض من العمارة هو التعبير التأثيرى دينيا أو دنيويا · فعبرت عن الرهبة فى هياكل التعبد ، والمظهر المصطنع للجاه والعظمة والسلطان فى هياكل السكن ، وطغت الواجهات المنحوتة على المساقط الأفقية الداخلية ·

ولما أخرج اليونان العمارة من مثلث الفنون وهو النحت والتصوير والعمارة ، وسموا العمارة بأنها أم الفنون ، ذلك لأنهم لمسوا بأنفسهم أن العمارة هى التى تكتب تاريخ الفن وتحدد طابع الفن لأن التصوير والرسم والنحت مثلا رهن بوحى الفنان ، أما العمارة فهى التى تسخر وحى الفنان المعمارى لبناء مطالب الشعب الذى عاصرها وبذلك جمعت العمارة بين ثقافة العصر وعلومه ، واحتياجاته ومطالبه وبين وحى المهندس المعمارى وطبعها بطابع الجمال · فجمعت العمارة تحت سيطرتها مجموعة من نواحى الفن المكملة كالنقش والحفر والزخرفة والألوان والاضاءة والأثاث الى غير ذلك من الفنون الأخرى ·

● العلاقة بين الفن والعمـــارة :

ما هى اذن العلاقة بين الفن وبين العمارة ؟ العلاقة هى أن الفن يأخذ نسبة من الذوق والشعور والأحاسيس والمشاعر ــ أما العمارة فتأخذ نسبها من الانشـــاء والتركيب والتكوين ·

Art is a form out of creation ' but Architecture is a form out of function

العمارة هى التى تضع أسسا ونسبا جديدة لتســـاعد على تأدية الوظيفـــة والغرض · فلو كانت العمارة أطلق عليها خطا اسم الفن ، وأطلق عليها اليونان اسم « أم الفنون » فالدور الذى تلعبه فى الفن هو تأثيرها على الشكل أو النسب ، فنسبها الانشائية التكوين هى فى الواقع بمثابة وحى الفنـــان فى الفن المعاصر للعمارة ·

● ما هـــو الهـــدف ··· ؟

بهذه المقدمة السريعة أردت أن أوضح الفرق بين العمارة وبين الفن ، وبالتالى بين تاريخ العمارة وتاريخ الفن · ولذلك سيكون موضوع التاريخ الذى نحن بصدده مقتصر على العمارة بصفة خاصة ، وعلى الفنون الأخرى المكملة لها بصفة عامة ·

وأرجو مخلصا أن أوضح بأننى ما أعددت هذا الكتاب الا لتحقيق غرضين :
الغرض الأول ····· لكى يكون هذا الكتاب مدخل الى العمارة الاســـلامية

والفن الاسلامى فى البلاد العربية ، وليس بأى حال من الأحوال دراسة شاملة كاملة لهذا التراث الاسلامى المجيد ، وأن الأمثلة التى اخترتها لا تشمل جميع الاعمـــال المعمارية أو الفنية ، ولكنها فى الواقع وحقيقة الأمر ما هى الا محاولة للتعبير عنها٠

أما **الغرض الثانى** ٠٠٠ من اعداد هذا الكتاب هو :

— مسايرة معالم النهضة الحديثة فى جميع الدول العربية ٠
— تسجيل لحضارة العرب بلغـة عربية وأسـلوب سـهل ٠
— حاجة المؤرخ والباحث والمهندس والطالب والفنان الى مرجع فى العمارة والفنـــون الاسلامية ٠
— ملء فراغ فى المكتبة العربية فى هذا المجـــال الفنى ٠

والله ولى التوفيق ،،

الطبعة الثالثة ١٩٨٦

دكتور مهندس
توفيق أحمد عبد الجواد

الباب الأول :

— العمارة والحضارة الاســـلامية : بين الماضى والحاضر والمستقبل ٠ بين الأصالة والمعاصرة والمحافظة ٠
— العوامل والمؤثرات والتطورات التى تأثرت بهـا العمـارة الاسلامية ٠
— العمارة والفنون الاسلامية على مر العصور ٠٠
— الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى ٠٠
— المراحل والعصور والدول التى تتابعت الحكم ٠٠
— العمارة والفنون الاسلامية بين المشرق والمغرب٠

● العمارة والفنون الاسلامية ١/١
1/1 ISLAMIC ART & ARCHITECTURE

— بين الماضى والحاضر والمستقبل ٠

— بين الأصالة والمعاصرة والمحافظة ٠

ان الاهتمام بالعمارة والفنون الاسلامية معناه الاهتمام بالماضى لتوجيه الحاضر الى المستقبل ٠ والحقيقة أننى أشعر بثقل المسئولية الضخمة التى أخذتها على عاتقى لتسجيل تاريخ العمارة الاسلامية والفن الاسلامى أو شرح قصة الحضارة العربية بكل ما لها وما عليها ، كما أننى فى الوقت نفسه أشعر بالخطر الشديد الذى يهـــدد حضارات الشرق التى أصيبت بالداء الذى يهدد حضارتنا وقوميتنا بالاكتساح ، وهو المادية التى لا هدف لها ولا غاية ٠ ومن الواضح أننى لا أنادى باحياء طراز معين أو ابتكار طراز قومى لكى يعبر عن حضارتنا وقوميتنا ونهضتنا ، حيث سبق أن أوضحت فى كثير من المناسبات بأن الطراز لا يبتكر ، وقلنا أن العمارة علم وليست فن ٠٠٠ أو أن العمارة فن علمى ٠

ولكن لابد من الوقوف لحظة ونحن نكتب مقدمة تاريخ العمارة الاسلامية لنكشف عن حقيقة تاريخية أصيلة نشأت فى أرضنا وازدهرت ، وبلغت من القـوة والروعة والجلال مالم تبلغه أى صورة أخرى من الطرز المختلفة ٠٠٠ هذه الحقيقة هى حق علينا للتاريخ الأصيل وللفن الاسلامى والعمارة الاسلامية ، حق علينا للشرق والعروبة جمعاء ٠ كما لا بد من الوقوف لحظة أخرى لنكشف عن بعض الأخطاء التى وقعنا فيها وعن اهمالنا لهذا التراث الاسلامى وتلك الثروة المعمارية الضخمة ٠

— من الغريب أن نتجاهل ماضينا وحضارتنا من هذا التراث المعمارى العربى الضخم ، فى الوقت الذى نرى فيه الكثير من علماء الغرب متعطشـــون الى معرفة الكثير عنه وتزويد جامعات بلادهم به للتخصص والتعمق فى دراسته ، ولا نهتم نحن العرب به ٠ وقد قال فرانك لويد رأيت حين زيارته لجامع السلطان حسن عام ١٩٥٨ ـ كيف يجوز لقوم لديهم مثل هذه الروائع أن يتركوها ويستبدلوا بها سوءات العمارة الغربية التى يحاول الغربيون أنفسهم أن يتخلصوا منها ؟

— من الغريب أن نتجاهل هذا التاريخ التليد ، وذلك الماضى المجيد ، وتلك الحضارة الاسلامية الرائعة التى تعيش فى عقولنا وأرواحنا ووجداننا ، ولا نحافظ عليها أو على الأقل لا نحاول الابقاء عليها من الزوال ٠٠٠ بل ولا نكثر من تطبيقها

فى منشآتنا العامة ، ولا نضفى على المبانى الهامة والعامة تلك الصبغة الاسلامية التى تعبر عن شخصيتنا وواقعنا وبيئتنا ٠

— ومن الغريب حقا أن نلمس فى بعض الدول الأوروبية فى الوقت الحاضر آثار التقاليد الاسلامية فى معظم مظاهر الحياة العمرانية ٠ فما زالت أسبانيا مثلا تحتفظ منذ ما يسمونه بالاسترداد ومعناه انتهاء دولة الاسلام بالأندلس بتراث هائل من هذه التقاليد الاسلامية ، وما زالت مدنها تحمل ذلك الطابع الاسلامى العريق بفضل الروائع الفنية التى خلفها مسلموا الأندلس فى مدنهم وقراهم ، وتتمثل آثار العمارة الاسلامية فى الأندلس فى ثلاث مدن رئيسية ، كل منها تمثل مرحلة من مراحل تطور العمارة الاسلامية وهى قرطبة ، أشبيلية ، غرناطة ٠

● الماضى والحاضر والمستقبل :

ان الطابع المعمارى أو ما يسمى بالطراز أو النسق المعمارى ، ما هو الا نتيجة طبيعية لعدة عوامل مشتركة ومتفاعلة مع بعضها ، مصهورة فى بودقة الانتفاع الكامل للمبنى ، وأساليب البناء ومواد الانشاء ، وطبيعة الأقاليم أو المنطقة ثم التقـــــاليد والعادات ، هذا بالاضافة الى العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية ومستوى الثروة المحلية ٠ فاذن ليس من المنطق فرض طراز معين أو ابتكار طراز قومى بطريقة أو بأخرى على مدننا العربية أو عمارتنا الشرقية حيث أن الطراز لا يبتكر ٠

وهنا تظهر أهمية ذلك السؤال الذى كثيرا ما رددناه ٠٠٠ هـــــل نعيش على ماضينا ٠٠ ؟ أم نبنى حاضرنا ونمهد لمستقبلنا ٠ والجواب على ذلك أن العمارة مرآة تعكس آمال وأمانى الشعوب وقدرتها العلمية وذوقها وفلسفتها ٠ فالعمارة تخص الانسان والمبانى ، أما التخطيط فيرتبط بالانسان والمبانى والمجتمع ٠ والانسان هنا هو الانسان العربى ، والمجتمع هنا هو المجتمع العربى ، لذلك يتحتم على المهندس المعمارى والمخطط أن يأخذ كل منهما فى الاعتبار حين التصميم والتخطيط جميع العلوم المتعلقة بالانسان والبناء والمجتمع ٠

ومع أن العرب فى الدول العربية لايزيد عددهم عن مائة مليون عربى ، الا أنهم يمثلون احدى الدعائم الأساسية الثقافية الست فى العالم ، وهى الثقافة الأوروبية والهندية والصينية والعربية واليابانية والروسية ٠ وتلك مسئولية كبيرة وخطيرة ، وتحد كبير لا يمكن للهندسة المعمارية الحالية فى جميع أنحاء الشرق العربى مع ما وتحد كبير لا يمكن للهندسة المعمارية العربية الحالية فى جميع أنحاء الشرق العربى مع ما فيها من زيف وخلط وتقليد أن تتحملها ٠

● حضارة الشرق :

كلنا نعلم والعالم كله يعترف بأن مهد الحضارة كان مقره الشرق العربى ، وأن الشرق علم شعوب العالم أجمع فى الماضى كيف تكون الحضارة وكيف تكون العمارة • وهذه هى حقيقة التاريخ الصحيح الذى لا يكذب ، والعمارة هى توأم التاريخ ، فهى أيضا لا تكذب •

ان العالم العربى يزخر حقا بثروات طائلة من العلوم والثقافة والآداب والتراث الانشائى والطابع المعمارى ، كما يزخر أيضا بكنوز وثروات مادية ظاهرة وباطنة ، وان مفاتن الشرق لا تحصى ولا تعد • ولو أخذنا مثلا اللغة العربية بلهجاتها المتعددة الحديثة ، واللغة الكلاسيكية بقواعدها وشعرها وأدبها ونثرها ومرادفاتها فسوف تدهشنا هذه الناحية وحدها لما يمتاز به العرب والعالم العربى من ثروات أدبية وفنية •

والكتابة العربية بتنويعاتها وحيويتها فى تجريداتها الشكلية ، وما تبديه من براعة فى التراكيب وسيطرة على الفراغات فى الامكان أن تضاهى لصفوف النحت البارز من الفن القديم ، وكأنها أصداء لها من بعيد ، هذه الأشكال الهندسية المجردة ، تتفتح أحيانا فى هيئة أوراق الشجر أو الزهر تحتفظ — حتى حين لا تتفتح فى هذه الأشكال — كالأوراق والأزهار بسر الحياة • فما بالنا اذن بالتراث المعمارى الاسلامى وتاريخ العمارة الاسلامية والطابع العربى والمبانى والمنشآت المعمارية العربية الخالدة والتى سيأتى شرحها فيما بعد وغير ذلك مما لا يمكن حصره فى هذا المقام • ولعل مشكلات العالم العربى تنبع من تعدد أنواع ثرواته ومفاتنه •

من الحقائق الثابتة أن العمارة كانت دائما فى العصور الماضية هى الصورة الصادقة والتعبير الدقيق لحضارة الانسان وتطوره وسارت حضارة الانسان وسارت معها العمارة فى تطور هادىء رزين لا يفارقها طابعها المميز • وكانت العمارة دائما تتميز بصفتين متلازمتين لا يمكن فصلهما • فالى جانب الوجود المادى المستمد من مواد البناء وطرق الانشاء ، هناك المحتوى الحسى للمبنى وهو ما يتمتع به من صفات فنية ، وهى الغرض والوظيفة بأسلوب خاص وتعبير معين • تماما كالكلام ، فالى جانب البناء اللفظى هناك « المعنى » الذى يعبر عنه هذا الكلام وأسلوب التعبير به •

فالحياة والمدنية الحديثة مهما اتجهت نحو الآلة ، ومهما اتجهت نحو المادية لن تستغنى أبدا عن الفن ولن تنفصل عن عجلته فى سيره التقدمى ، بل هى توجه كل قواها الآلية والمادية لتعميم الفن ونشره ليعلب دوره فى حياة المجتمع ويحتل مكانه

فى كل ركن من أركان مقومات حياته . فى كفاحه ونضاله ، فى سلمه وحربه ، فى عمله ولهوه ، فى كل ما يرتبط باحساسه فى الوجود كعنصر انشائى فعال فى المجتمع الانســـانى .

العمارة والنقـــد :

والعمارة معرضة للنقد والتحليل ، شأنها فى ذلك شأن أى عمل فنى أو عمل أدبى ، ولكن يظهر ذلك النقد بوضوح فى العمارة — وهى المرآة التى تنعكس عليها ثقافة الشعب ونهضته وتطوره ورقيه . هى الحياة التى عاشت فى عالم الأمس ، والتى تعيش اليوم ، والتى ستبقى حية فى المستقبل .

فالكتاب الفنى أو المؤلف العلمى أو ديوان الشعر أو القطعة الموسيقية ، لا بد الحكم على الكتاب أو الديوان أو القطعة الموسيقية من قراءة هذا الكتاب أو سماع هذه القطعة الموسيقية . واذا تناول أحد الكتاب أو الشعراء قراءة الكتاب ولم يرقه أو شعر بالملل ، فانه سرعان ما يغلقه ويضرب به عرض الحائط ، ولا تلبث أفكاره التى علقت بذهنه أن تزول من ذاكرته ولو بعد زمن يسير ، وكذلك الحال فى الموسيقى .

ولكن الوضع فى العمارة على العكس من ذلك مختلف تماما . فالمبنى الذى يقام والمدينة التى تخطط والقرية التى تنشأ ، يمكن الحكم على أى منها بمجرد النظر اليها وتقدير مدى الجهد الذى بذل فيها ، ويمكن أيضا معرفة قلة العناية وعدم الاهتمام فى دراستها حتى لتظهر تلك العيوب واضحة على مر الأيام والسنين . وبذلك تفرض هذه الأبنية نفسها بأخطائها وأمراضها وعيوبها على المدينة وعلى العمارة وعلى شاغليها وعلى المارة ، كما تفرض هذه المدينة نفسها على المجتمع الذى يعيش فيها ، رضى هذا المجتمع أم لم يرضى .

فكأن المهندس المعمارى اذا أخطأ ، فان هذا الخطأ يكون علما عليه هاديا اليه مرشدا الى خطأه ، ولا يمكن أن يطلب من المرء أن يغض النظر عن مبنى محطة السكة الحديد التى يركب منها ، أو مبنى البنك الذى يتعامل معه ، أو مبنى النقابة التى ينتمى اليها ، أو مجمع المصالح الذى يعمل به ، أو المسجد الذى يصلى فيه ، أو العمارة التى يسكنها أو مبنى الجامعة التى يدرس فيها .... تلك المبانى العامة التى لها علاقة بالأفراد والمجتمع . فيالها من مسئولية ضخمة تقع على كاهل المهندس المعمارى . يستطيع الطبيب أن يدفن أخطائه ، ولكن المهندس لا يستطيع ذلك الا اذا اقنع عمليه بغرس أشجار عالية أمام المبنى لاخفاء أخطائه .

❁ عمالقة العمارة ليسوا بسحرة :

نقول أن الأمر مختلف تماما فى العمارة عن بقية الفنون الأخرى ٠ فالرسام أو الشاعر أو الكاتب أو الفيلسوف أو الموسيقار ليسوا دائما على اتصال بالمجتمع ، لان الغالبية العظمى من الشعب عادة ما تكون بعيدة كل البعد عنهم ، اما بسبب الجهل أو الفقر أو الكسل ، وبذلك يكون انتاجهم مجهولا من الكثير ٠ أما المهندس المعمارى فان عمله وانتاجه ممثل فى مبناه ظاهر واضح مكشوف للجميع ، بضاعته منشورة على السـواء ٠

فاذا ما مر أمام جامع السلطان حسن بالقاهرة أو مبنى البنك المركزى ، أو مبنى السفارة الأمريكية فى بغداد مثلا جاهل أو متكبر أو معدم ، فان كل فرد منهم يأخذ نصيبه من عظمته وروعته وجماله مثل أى فرد آخر مهما عظم شأنه ٠ اذا ما مر أمام ناطحات السحاب البدائية فى حضرموت أو مبانى طارم وديوان فى اليمن أو ابراج تكييف الهواء الطبيعية فى البحرين أو الأقواس والقباب الحجرية فى مراكش بالمغرب أو الأردن أو جامع القيروان فى فاس أو مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة أو تاج محل بالهند أو قصر الحمراء بغرناطة ٠٠٠٠ اذا ما مر أمام هذه الأمثلة وغيرها جاهل أو مبتكر أو معدم ، فانه سيأخذ نصيبه من عظمتها ويستمتع بجمالها وسـحرها وروعتها ، مثله فى ذلك مثل أى فرد آخر مهما سمت مكانته وعظم شأنه ٠

فالمؤلف الركيك والكتاب الهزيل ، والموسيقى الغير هادفة سرعان ما يذهب أى منها الى عالم النسيان ، ولكن المبنى القبيح المنظر أو المسجد الذى أسىء اختيـار موقعه ، أو الكنيسة الغير مدروسة ، أو مبنى البلدية المرتجل التصميم ، أو مبنى النقابة الذى ربما قد يعبر عن أى شىء ما عدا المهنة التى ينتسب اليها ٠٠٠٠ قد تبقى جميع هذه الأبنية أكثر من مائة عام لا يمكن تجاهلها ، فهى تطل علينا طوال الوقت وتفرض نفسها على المجتمع وتجبرنا بوجودها نتقبلها بعيوننا وحواسنا طائعين أو مكرهين ٠٠٠

ان عمالقة الأساطير الشرقية ، ومشيدوا قلاع وحصون وقصور صلاح الدين ، ومصمموا مساجد السلطان حسـن وابن طولون وسـامرا وبابل والقـيروان والفسطاط ٠٠٠٠ وغيرها من الأعمال الخالدة ، ليسوا بسحرة ولكنهم عمالقة ، وكم ينقصنا من هؤلاء العمالقة الكثير ٠ وربما نجد أن السبب فى ذلك التخلف يرجع الى أن هذه المشروعات تحتاج فعلا الى عمالقة من المعماريين لصعوبتها وضخامة مسئوليتها التاريخية ، فانشاء مدينة وتصميم دار للبلدية أو مبنى للاذاعة أو مكتبة عامة أو

دار للأوبرا أو انشاء جامعة ، ليس الا عملا من أعمال العمالقة • فهل من العسير مؤاخذة المهندس المعمارى من أن يكون عملاقا •• ؟

● الخلط المعمارى :

لا يمكن ألقاء المسئولية كلها على المهندس المعمارى وحده ـ ولو أنه هو المسئول الأول لانه هو المصمم الأول ـ ولكن يشترك معه المجتمع فى هذه المسئولية الضخمة • المجتمع فى مصر ولبنان ، فى دمشق وعمان ، فى الكويت وتونس والسعودية ، ••• فى جميع المدن العربية خلط معمارى غير مألوف • لا يمت بصلة الى البيئة من حيث الموقع والمناخ ، من حيث مقتضيات المنطقة المناخية والحضارية والهندسية ، غير متناسق مع مقتضيات البيئة الأساسية والظروف الاجتماعية • هزيلا من الناحية الفلسفية والوظيفية والعملية ، حيث لابد وأن تتناسب طبيعة المبنى الحسن مع بيئته لكى تدوم صفاته البارزة •

ومن خلال دراستنا لتاريخ العمارة والطابع المعمارى فى الطرز الفرعونى والرومانى والاغريقى والقوطى والاسلامى والتركى والهندى والصينى •••• ومن خلال تدريسنا لهذا التاريخ فى العصور المختلفة ، فاننا لم نصادف حتى الآن طيفا من الخيال يشبه فى طرافته أو ايلامه أو ارتباكه أو فتنته ما نشاهده يظهر الى الوجود فى المدن العربية الجديدة • غير أن هناك بوادر تشير الى أن هذا الاتجاه يسير من حسن الى أحسن احقاقا للحق والتاريخ فى كل من لبنان وتونس والعراق ، وأن الطابع المعمارى سينبثق من الأسس المناخية والعملية والحضارية للبلاد فى كل منها •

ان علينا تنقية مفهوم العمارة المعاصرة من الشوائب والخلط المعيب لكى نرفع العمارة الى مكانها الذى كانت عليه فى العصور المزدهرة • ويجب أن نفرق بين مدلول لفظ « معاصر وزائل » • حيث يقول دانتى « قد يكون ما يسمى حديثا هو ما يستحق أن يبقى ليهدم » • ومن المحزن أن نرى كثير من المعماريين العرب ، والذين يتمتعون بشهرة ويعتبرون من كبار أهل المهنة، يختارون الزائل بدلا من المعاصر، مثلهم فى ذلك كمثل بعض طلبة العمارة الذين يتبارون فى خلق الأشكال المستحدثة التى لا معنى لها ، لمجرد أنها تلفت النظر وتحوز على رضاء وتصفيق الجهلاء •

● مسئولية ضخمة :

نرى فى البلاد العربية ، مع الأسف الشديد ، أن النجاح فى الكثير من المنشئات المعمارية الضخمة الكبرى وفى ظل هذا التطور العالمى السريع هو الشىء الوحيد الشاذ

الذى ما كان ينتظر حدوثه ، وقد كان العكس فى الماضى ، حيث كان الاخفاق هو الشىء البعيد الاحتمال ٠ وكثيرا ما فكرت محاولا اختيار مبنى واحد فى أى بلد عربى من الأبنية التى أنشئت فى الربع قرن الماضى لكى يضيف ضمن الأبنية العالمية أو أن يكون حائزا على جدارة معمارية عالمية أو حتى يرقى الى المستوى الأهلية المنبثقة من التراث المعمارى العربى الأصيل فلم أجد ، وأرجو أن أكون مخطئا ٠

نرى اليوم ميادين عواصم الأقطار العربية وكأنها ميادين استعراضات أبنية لطرز مختلفة ، وكأنها صور بشعة للخلط المعمارى أو الفوضى المعمارية ٠ هذا مبنى على الطراز الفرعونى ، وذاك على الطراز العربى ، وآخر نسق قوطى ، وغيره خليط من جميع الطرز ، ومبنى آخر يقال عليه أنه طراز قومى ثم مبانى مودرن ٠

أننا نشعر بالحزن والأسى حينما نرى هذه الاستعراضات المبتذلة ، وتلك الصور الهزيلة التافهة للأبنية العامة ، وخاصة التى تحمل اسم هيئات حكومية جادة أو تحمل اسم مؤسسات عامة ٠ هذه الأبنية التى نراها مصممة على شكل طائرة أو بارجة أو قاطرة أو أشكال راقصة ٠٠ وما أكثرها فى المدن العربية المنشأة حديثا ٠ فى جدة والرياض ، فى الكويت والقاهرة ، فى بيروت والاسكندرية ، نرى تلك المناظر المتنافرة والغير لائقة فهما ومعنى ونتساءل — هل قصد المعمارى أن يصمم مبنـاه على تلك الصورة ؟ واذا كان تصميم المبنى جاء عن طريق الصدفة ، فالطامة أكبر لأنه لو نقص المبنى بعض الذوق فى التصميم أو الاخراج خير من أن يصمم المعمـارى بطريق المصادفات ٠٠ انها حقا عنوان سىء للتخطيط والعمارة والتصميم والتكوين المعمارى والانشائى ، بل ويعتبرها المؤلف جريمة فى حق الشرق وحق التاريخ ٠

● جوته والاســلام :

يقول : جوته « ان أى نظام للمجتمع لا يكون عضويا » Organic من حيث تكوينه بما يضمن له التطور والنمو المتجانس والمتماثل فى جميع أعضائه ، نظام يحول المجتمع بأكمله الى شكل شجرة تربط جميع فروعها وخلاياها ببعضها وتركز جذورها على أرض صلبة بما يضمن لها البقاء والدوام ، نظام مصيره الانهيار ، كذلك ، كذلك الحال فى العمارة ٠ وحينما نذكر فيلسوف المانيا « جوته » لابد أن نسجل هنا ما لهذا الكاتب المتعمق من دور رائع ورأى قاطع فى الاسلام ٠

وصورة الاسلام التى ارتسمت فى مخيلة « جوته » فيلسوف ألمانيا وشاعرها الأكبر وما تركه من تراث نفسانى وروحانى خلال ٨٣ عاما عاشها ابتداء من أواسط القرن الثامن عشر ١٧٤٩ م ٠ تلك الصفحة التى كانت لها أكبر الأثر فى حياته وتفكيره

والذى أضاء بها كثيرا من ظلام ، وأبعد بها كثيرا من ظلال ألتفت حول الاســـلام فى العقلية الأوروبية من قبل جوته اثر قرون عديدة لعب فيها التزمت دورا ضخما نشره أغلب حكام أوروبا ابان الحروب الصليبية ، ثم راح غلاة التعصب ينشرون قصصا أوغروا فيها صدورهم ضد الاسلام وضد النبى الكريم ، وخاصة أيام تركيا المسلمة وهى تدك أبواب وسط أوروبا .

ولكن نرى أن ســحابات الجهل تتبدد شيئا فشيئا مع فجر عصر النهضة فى أوروبا ، وسرعان ما يجرى النور واشعاع الحق على أقلام المفكرين . مثل « ريلاند » الهولندى ، « وبولاتينيه » الفرنسى ، و « سيل » الانجليزى ، و « لانج » ، و «هردر» و « ليبنز » الألمانى وغيرهم .

أصبح الاسلام دينا رسميا فى نظرهم معترفا به . وأصبحت النظرة الى النبى الكريم « محمد رسول الله » عميقة الاحترام والاجلال ، على أنه رجـــل مفكر عظيم ورسول جليل .

الا أن الخطوة التى خطاها « جوته » (*) فاتت كل ما سبقها من بحث لاعطاء الاسلام حقيقته . و « جوته » قرأ ابان شبابه القرآن فى ترجمة ألمانية تناولها الألمانى « مجرلين » وقرأ ترجمة لاتينية للراهب « مراتشى » ، كما درس حياة الرسول من مراجع أوروبية كثيرة . حيث بدأ يعد نفسه لكتابة مسرحية « محمد » وكتب فعلا قصيدة طويلة سماها « النشيد المحمدى » جعل الكلمات فيها والحوار على لسان « فاطمة » بنت رسول الله وعلى لسان زوجها .

أفتتح « جوته » المسرحية بنشيد يتضمن مناجاة النبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام لربه ليلا ــ على نمط سيدنا ابراهيم فى القرآن الكريم . فلما رأى كوكبا « قال هـــذا ربى » .

وتأثر « جوته » بنقطة من نقاط الاسلام جعلها مبدأ له يسير عليه فى حياته ، وهى التسليم لله فى الأمور التى لا دخل للانسان فيها ، وقد عرف ذلك أيضا من الانجيل وكلمة المسيح عليه السلام « اللهم ما تريد وليس ما أريد » . ومن اعجابه بالاسلام والدين الاسلامى ، قال جوته قصيدته المشهورة ومطلعها : اذا كان الاسلام هو التسليم لله . فاننا نحيا ونموت على الاسلام مجمعين .

● العمارة بين المعاصرة والمحافظة :

كيفية الحفاظ على التراث التاريخى له طريقان . فالطريق الأول يعتمد على كيفية

(*) جوته والاسلام : رسالة الدكتوراه
جامعة برلين للدكتور سعيد عبد الرحيم

المحافظة على التوافق والانسجام المعمارى مع الأبنية التاريخية أو التحكم المعمارى وفرض القيود على الأبنية الجديدة لتأكيد معالم العمارة التذكارية التاريخية · والأبنية التاريخية القائمة الآن فى مثل هذه الحالة هى الطريق الأساسى المعمارى للوصـــول الى المشـــكلة · ويعتمد الطريق الثانى فى كيفية المحافظة على القيم المعمارية للتراث الحضارى مع الأخذ فى الاعتبار العوامل التكنولوجية الحديثة والنواحى الاجتماعية للحياة العصرية الحديثة ·

فالعمارة الحديثة فى هذه الحالة ما هى الا استمرار طبيعى للتراث الحضارى التاريخى · حيث ربما تغير العمارة وظيفتها أو الطرق التكنيكية لها ، ولكنها لا تزال تطوع قيمها الانسانية والحضارية وتخضعها ، وهى أى هذه القيم تأخذها من الماضى · وهذا ما نقصده بالعمارة المعاصرة ·

فالثورة الصناعية بكل وسائلها وأساليبها وتأثيراتها التكنيكية الحديثة مسئولة مسئولية مطلقة عن هذا التحول المخيف نحو المادية الذى طرأ على العمـارة · فهذا الاستمرار الحضارى فى العمارة أخذ جانب التكنولوجيا · وقد بذلت محاولات مختلفة ازاء هذه الظروف لتوجيه العمارة واعطائها العوامل الانسانية التى فقدتها فى دوامة الصناعة والتصنيع · ويمكن نلمس هذه المحاولات التى تظهر فى العمارة اليابانية المعاصرة والتى تعبر عن طريقة التفكير اليابانى · بل ونادى كثير من المعمـــاريين المتطورفين بالحكم بالاعدام على طرق مواد البناء الحديثة وأنها من عمل الشيطان ولكن هذه المدرسة لم تستمر طويلا فى المقاومة أمام التطور التكنولوجى الحديث ·

وستظل المشكلة قائمة فى كيفية الموازنة بين المادية التكنولوجية وبين التأثيرات المنبعثة من التراث الحضارى وكيفية التعبير عنها · فهذه المشكلة تواجه الكثير من الدول النامية التى تحاول أن تطور من نفسها وتسير نحو ركب الحضارة وتلحق بالدول المتقدمة دون اعتبار لتراثها الحضارى وتاريخها · نرى أن بعض هذه الدول قد طورت من موسيقاها المحلية ، ومن رقصاتها الجماعية ، ومن الكثير من فنونها التقليدية والشعبية ، ولكن لم نر أى تطور فى مجال العمارة المحلية الا فيما ندر ·

● العمارة العربية الاقليمية :

العمارة العربية الاقليمية Oriental or Regional ما هى الا مرحلة متطورة من العمارة العالمية International Architecture · فالعمارة العربية الحديثة كما سبق القول ما هى الا مرآة صادقة تعكس بيئتنا ومحيطنا وواقعنا بجميع عناصرها المختلفة من جو ومناخ وتربة ومعالم جغرافية ومبادىء ثابتة للعمارة وتطور اجتماعى

وثقافى وعلمى وتكنولوجى • فيتضح لنا اذن مفهوم العمارة العربية على ضوء هذه العناصر المختلفة •

فالعمارة العربية ذات الطابع الاقليمى ليست اذن عمارة يفرض عليها أو ينقل اليها صور من العقود والبوائك ، أو الفتحات المعينة ، أو زخارف ومشربيات ، دون ادراك للمفهوم العضوى للعمارة العربية خلال فترات العصور الاسلامية ، ودون ادراك لمفهوم العمارة الحديثة • وقـــد يكون من الضرورى شرح موضـــوع البيئة والمحيط Enviroment ، والفراغ Space والشكل form •

● ان بيئة العالم العربى تختص بمناخ شديد القسوة قليل الأمطار تتخلله جبال وهضاب قاحلة وصحارى تهب منها الرياح الشديدة الحرارة المحملة بالرمال ، يتخللها أيضا بعض المساحات الخضراء والمراعى المنبسطة • فهل استسلم العرب لمثل هذه البيئة القاسية ••• ؟ سجل التاريخ أن الصبر والشـــجاعة والذكاء والمغامرة والخبرة المكتسبة ، بالاضافة الى التطور التدريجى للقدرات الفنية مكن العرب من مجابهة هذه البيئة القاسية ومن التحدى ومن البقاء •

ان جو الصحراء القاسى هذا ساعد فى خلق القاعدة المعمارية الأولى (*) التى اتصفت بها العمارة العربية ألا وهى التضاد العضـــــوى والبيئى Enciromental Contrast • لقد حاول العرب أن يخلقوا الداخلية الفردوسية ، التضـــاد بين الرمال المحرقة والخضرة النضرة الدائمة ، التضاد بين المناخ الحار القارى الجاف وبين النافورات المتوثبة والعمارة الفنية بالزخارف والألوان •

أن العمارة الداخلية لم تعن فقط الفارق بين الداخل والخارج ، ولكنها عنت الخلوة والشعور بالاستقلال والخصوصية Privay ، وعولج الداخل ليختلف مع الخارج القاسى بشكل حاد ومباشر • فكانت البرودة ، والظل ، والخضرة والماء ، بدلا من الحر ، والشمس ، والوهج والرمل ، والجفاف •

● أما فيما يتعلق بالفراغ بنوعيه المعمارى والعمرانى ، فكان عند العرب هذا الفراغ Space عضويا وتلقائيا ، وخاصة الفراغ المعمارى الداخلى كما ذكرنا من قبل • ونظرة سريعة على المدنية العربية نلاحظ خلوها من الفراغات المفتوحة الكبيـــــرة Urban open Spaces ، والسبب فى ذلك يرجع الى البيئة رغبة فى تقارب المبانى للحماية المناخية ، ورغبة فى التمويه لأســـباب دفاعية أو أســـباب اجتماعية • وبالرغم من ذلك فان الفراغات العمرانية ان وجدت كانت دائما مملوءة بالاثارة والحياة •

(*) أسس التصميم المعمارى فى المدن العربية للدكتور نوفل الكسراوى ــ بحث المؤتمر الهندسى العربى الحادى عشر ــ الكويت ١٩٦٩ •

وقد شكل الفراغ المتعلق بالمسجد داخل الصحن أو خارجه الفراغ الرئيسى فى المدينة ٠ وان خلت بعض المدن العربية من فراغات وساحات عمرانية ، الا أن الشوارع والحارات عوضت هذا النقص حيث تركزت الحياة والحركة فى هذه الشوارع ، وكان انطباعا مثيرا مليئا بالحركة ذلك الذى يحصل عليه المرء متنقلا من حارة مظلمة ضيقة الى أخرى فسيحة تسطع فيها أشعة الشمس عندما يتسع الشارع ، أو متتبعا المآذن التى تقوده من فراغ الى فراغ مع اثارة عند كل منعطف ومفاجأة عند التى تليها ٠ أما الفراغات الداخلية فقد عولجت بشكل أكثر تركيزا لتعكس الحركة وتعبر عن الوظيفة ويبلغ هذا التغيير ذروته فى قصر الحمراء بغرناطة ــ يرجى أن ينظر التخطيط العــام للقصر شكل ٠

ونلاحظ مثلا أن تعدد الأعمدة فى المسجد يعطى شعورا فراغيا بالامتداد والانطلاق واللانهائية حيث يمكن للبصر أن ينتقل بسهولة ٠ ولا شك أن هذا الشعور هو نتاج روح البادية وروح التنقل ، ونرى ذلك بسهولة فى مسجد قرطبة مثلا الذى لم تتعدد فيه الأعمدة فحسب بل تعددت فيه العقود الحاملة لتعطى للناظر اليها شعورا غير محدود بالفراغ ٠

ان هذا التركيز على امتداد الفراغ وعدم تحديده ، جعل الواجهات تحتل مكانا ثانويا فى المعالجة المعمارية ، وبالتالى أدى ذلك الى خلق أحجام متكاملة بدلا من أحجام كلاسيكية كالتى نشاهدها فى البارثينون أو فى المعابد المصرية ٠

وعلى العكس من ذلك ، فان المعالجة المعمارية للمنزل والقصر ركزت على الأفنية الداخلية كرئات للمعيشة ، وعولجت على أنها فراغات محددة ثابتة وذات طابع خاص ورغم أن الأفنية الداخلية لم تكن بدعة عربية ، بل استعملته كل حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ، الا أن العرب عالجوه بشكل جعله غرفة للمعيشة الرئيسية حيث تجرى فيه أنشطة الحياة اليومية ٠

● أما من حيث الشكل Form ان الأشكال المختلفة التى اتسمت بها العمارة العربية كانت ولا شك نتيجة طبيعية لعضوية مبسطة ، وأن الطابع المميز لها هو الاستمرار الكتلى والتداخل الفعلى ، والى حد ما الغموض الذى تسببه الاضافات المتراكبة والعضوية التلقائية فى حد ذاتها ٠ وهذه العضوية التلقائية هى ما تعطى لهذه العمارة عمرانية محببة ورومانتيكية مرغوبة مفضلة ٠

هذا اذا أضفنا الى ذلك حساسية خاصة لتفهم الشمس وانعكاساتها على الأسطح

الملساء المختلفة ، نستطيع أن ندرك لماذا يعتبر بعض النقاد المعماريين القرى العربية الصافية آية التشكيل الفنى « البلاسيكى » Plasticity بأسطحها البيضاء وفتحاتها الصغيرة وسمائها الزرقاء الصافية · ونلاحظ دائما ميل نحو الأفقية Horizontality لا يقطعه الا عمودية المآذن من حين لآخر ·

● أما من حيث مواد البناء وطرق الانشاء ، فيقول البعض أن مواد البناء الحديثة وطرق الانشاء المتطورة علميا وفنيا وتكنولوجيا · كل ذلك لا يتفق والعمارة العربيه التى كانت تبنى بالطرق التقليدية والامكانيات المحدودة ، نتصور أن العرب كانوا يملكون هذه الوسائل وتلك الطرق والامكانيات ·

ان طرق الانشاء ومواد البناء وتطورها ما هى الا ثروة ضخمة مفتوحة أمام العمارة العربية ، لم تكن متاحة للعرب من قبل · يجب أن تستغل تلك الطرق وهذه المواد والامكانيات الانشائية لحل المشاكل العضوية ، وخلق الفراغات الوظيفية المناسبة والتعبير عنها بصراحة تامة ووضوح · يجب أن لا تستغل تلك الامكانيات الانشائية والمواد الحديثة للاسقاف والسطحية · يجب علينا أن نعلم أن تلك المواد وطرق الانشاء المختلفة انما تضع نفسها فى خدمة الوظيفة والعضوية والتعبير عنها ، وما كانت أبدا نقطة انطلاق لتجسيد شكل معين أو تقاليع خاصة ·

● ان التنوع البيئى خلال الاطار العام للرباط العربى الصحراوى ، والتأثير الثقافى لحوض البحر الأبيض المتوسط ، والامكانيات المحدودة للوسائل الصناعية الآلية كالتكييف الصناعى ترسى أمامنا ثلاث قواعد رئيسية للتصميم المعمارى فى المدن العربية هى :

أولا ـ خلق عمارة عضوية Organic تنبع من البيئة وتعكسـها وتؤكدها مستفيدة من أى تطور تكنولوجى يساعد فى التغلب على الطبيعة العربية فى نطاق اقتصادنا المحدود · وعلى أن تكون هذه العمارة عضوية رئيسية تقليدية أى عمارة صحراوية فى الصحراء الداخلية على السواحل ، جبلية فى الجبـال ، داخلية فى الداخل · كل ذلك خلال اطار عام من الوحدة العضوية التى ترتبط بعضها البعض ربط الشجرة الأم لفروعها ·

ثانيـا ـ اعطاء المعالجة الفراغية بشكلها المعمارى العمرانى أهمية رئيسـية كقاعدة انطلاق فى التشكيل المعمارى والتركيز على عنصر الفراغ كحجر أساس فى التكوين المعمارى والتعبير عنه فى الداخل والخارج بصراحة وقوة ·

ثالثــا ــ يجب أن تكون الأشكال المعبرة عن الفراغ عضوية وبيئية صريحة ، أى أنها لا تعكس الفراغ والوظيفة فحسب ، بل تعكس أيضا البيئة والمناخ ٠ واذا أريد الاستعانة ببعض الأشكال التقليدية لتطعيم العمارة المتطورة وربطها بالتراث التاريخى، فيجبأن يكوناختيار الشكل عضويا ويخدموظيفيا اليوم ماكان يقومبه بالأمس ٠ فاذا كان الرواق يخدم فى السابق لعنصر مناخى للتدرج الحرارى ، فعليه اليوم أن يقدم نفس الخدمة اذا أريد له أن يبقى كجزء عضوى من العمل المعمارى وليس كزخرفة انتقائية ٠ ان الشمس لا زالت ساطعة فى العالم العربى كما كانت ســـاطعة بالأمس وستظل ساطعة ٠ وعلى الأشكال المعمارية المعبرة أن تكون حساسة لأشعة هذه الشمس القوية ، تستقبلها عندما يجب أن تستقبل ، وتصدها عندما يجب أن تصد ٠ ويجب أن نعلم أن أى خط معمارى ضعف له قيمته وقوته تحت أشعة هذه الشمس ٠

وحول موضوع العمارة المعاصرة أو العمارة العربية الاقليمية ، والحفاظ على التراث الهندسى العربى ٠٠٠ ان المهندس المعمارى المطلوب ليس هو الشخص الذى يفرض حلولا جاهزة موحدة للجميع ، أو حلولا منقولة مستوردة أو مستوحاة من المشاريع الأجنبية ٠ ولكنه هو ذلك المهندس المعمارى الأصيل الفنان الذى يتعاطف مع احتياجات عمله ويترجمها الى الأســلوب المعمارى الذى يتلاءم مع البيئة والمجتمع ٠ والعمـــــارة أكثر من أى فن آخر تتأثر بالمكان والبيئة والمنـاخ ، لأنها خاضـــعة لظروفها الجوية التى عليها أن تتعامل معها وتجاوبها ٠ وربما كانت كل الفنون تتأثر بالجو ، بل وربما نحن أنفسنا أكثر تأثرا بالجو مما يبدو لنا واضحا ، ولكن العمارة بالذات فى ارتباطها بالجو تبدو ظاهرة حتمية ٠

العوامل والمؤثرات التى تأثرت بها العمارة الاسلامية ١/٢

يكاد يكون من المتعذر القول بأن هناك فى العمارة الاسلامية والفن الاسلامى اتجاها عربيا أو فارسيا أو تركيا أو هنديا موحدا ، لأن ارادة الحاكم فى تلك العصور الاسلامية كانت تلعب دورا أساسيا فى هذا الموضوع كما سبق الاشارة الى ذلك ٠ ولكن من الجدير بالذكر بالنسبة الى التطور العام أن نرى أن المغرب مثلا الذى فى أواسط القرن الثامن الميلادى قد انقطعت صلته من الناحية السياسية بالشرق الاسلامى، جعل منذ ذلك الحين يشق لنفسه طريقا خاصا به ، بصرف النظر عن بعض مؤثرات شرقية عابرة ٠

فظهرت فى شمال أفريقيا وأسبانيا حركة فنية ومغربية مشتركة موحدة ، بقى استقلالها مؤكدا فى الحدود التى قررها الاسلام · وبقيت ايران منفصلة عن بقية البلاد الاسلامية ، لاختلاف العقيدة · لأنها اعتنقت مبكرة مذهب الشيعة وحده ، ذلك المذهب الذى لم يعترف بالخلفاء الثلاثة الأولين ، ولا بالسنة التى تربط حنفاء المسلمين الى جانب القرآن الكريم من حيث العقيدة · وقد ساعد هذا الموقف الدينى الخاص على بقاء العناصر الايرانية الوطنية فى الفن والعمارة أيضا ، ولم يظهر هذا التأثير كاملا الا فى عصر متأخر ، ذلك أنه عندما اعتنقت أقاليم أخرى مذهب الشيعة ـ بعض الوقت على الأقل ـ كمصر تحت حكم الفاطميين ، كان طبيعيا أن يظهر التعاطف مع ايران فى الحال وتؤثر هى من جهتها ·

● وحدة العقيدة ووحدة التطور :

كان لوحدة العقيدة الدينية تأثير كبير على وحدة التطور · ويمكن تلخيص الظروف والمؤثرات التى أثرت على العمارة والفنون الاسلامية بما يأتى :

— فتوحات الاسلام فى بلاد متحضرة شرقا وغربا واتساع نطاق الامبراطورية الاسلامية من الهند الى الأندلس ·

— البواعث الدينية والنظم السياسية والاجتماعية والتشريعية التى أوجدها الاسلام ، ومفهوم كل شعب منها ·

— فنون الأمم العربية التى استوطنت أطراف الجزيرة ومجاورتها للامم المتمدينة ، وتأثير فنون هذه الأمم على فنون العرب والعمارة قبل الاسلام·

— تأثير بقايا الحضارات السابقة فى الأقاليم والبلاد المختلفة على الفن والعمارة الاسلامية الجديدة ـ مثلا ·

— ظهور الطراز المعمارى الأول فى سوريا حيث أقام الأمويين دولتهم ، فتأثرت عمارته بعمارة الفن البيزنطى ·

— وفى بغداد حيث ظهرت الدولة العباسية ، فتغيرت أساليب العمارة وغلبت الأساليب الفنية الفارسية على عناصر العمارة الاسلامية ·

— ما نقله أحمد بن طولون من أساليب العمارة الى مصر عند تأسيس الدولة الطولونية ·

— الاقتباس من فنون هذه الأمم المتحضرة التى أصبحت تحت حكم العرب مع صبغها بالروح الاسلامية وبقاء صبغها محليا ، واستخدام الصناع من مختلف البلاد وتأثير مهارتهم على الفنون الاسلامية ٠

— تعدد مواد البناء وأنواعها فى مختلف الأقاليم ٠

— اختلاف الطقس والمناخ ، معتدل على سواحل البحر الأبيض المتوسط غزير الأمطار فى الشتاء ، شديد الحرارة ومشمس مناسبة وأمطـار نادرة فى معظم أنحاء البلدان العربية — فى الأندلس أمطار غزيرة وثلج فى الشمال وفى بعض المناطق الجبلية ٠

— الدين الاسلامى دين سمح ، فأخذ ينظم الحكم فى البلاد التى أصبحت تحت حكم العرب فى حدود التشريعات الاسلامية ٠

والحقيقة أن تهيبا مبعثه الدين والتدين حال تماما دون تقليد الطبيعة الكونية صورا وتمثيلا حتى فى العصور المتسمة بأعظم تسامح دينى فى التاريخ الاسلامى ، وتكفل بأن تستخدم الموضوعات المحورة عن الطبيعة استخداما زخرفيا بحتا ٠ ومن الخطأ أن نظن أن لهذه الموضوعات معنى رمزيا أو مجازيا فى بعض المنشئات التى أبدع فيها مصمموها ، أو نحاول أن نجد فى بعض المناظر التى ما تزال زاخرة بالفن ما يمثل أحداثا تاريخية ٠ لقد كان النفور من تصوير الطبيعة أمرا يتفق وكيان المسلم٠ الى حد أنه بات أمرا مقررا بصرف النظر عن نواهى النبى الصريحة ٠ وكفى هـــذا النفور ليحول منذ البداية دون تطور بعض فنون النحت والتصوير تطورا حرا مستقلا ٠

● الوعى الثقافى العربى :

فى القرن السابع لم يكن للعرب دراية كافية بالسياسة ، كما لم يكن لديهم من التجارب ذات القيمة فى هذا الميدان السياسى ٠ فبدأت هـــذه الامبراطورية الكبيرة الواسعة الأطراف والتى كانت عاصمتها دمشق فى تلك الفترة والتى امتد سلطانها حتى شمل الصين شرقا الى الأندلس غربا بدأت هذه الامبراطورية فى الانحلال ٠ وكانت الدلائل كلها فى ذلك القرن تشير الى قرب انهيارها من الوجهـــة السياسية ، بسبب الخلافات الداخلية والصراع على السلطة ، وهى العوامل التى كانت تهز من كيانها وتهدد وحدتها ٠ ولكن هدفنا واهتمامنا هنا فى هذا المجال لا ينصب على موضوع الانحلال السياسى ، وانما الجدير بالتأمل هو أثر العرب على العقل الانسانى وعلى مصير الجنس البشرى بأكمله ٠

● فلقد انتشر الوعى الثقافى العربى عبر العالم بأسره بسرعة مذهلة أثارت الدهشة ، وانتشر هذا الوعى الثقافى بأسرع مما انتشرت به الثقافة الأغريقية قبل ذلك بألف عام • وكانت الثروة الفكرية التى أحدثها ذلك الوعى الاسلامى ثروة ضخمة عظيمة الأثر ، اذ تحطمت أمامها كثير من الآراء والأفكار البالية العتيقة التى كانت تسود العالم فى ذلك الوقت ، وحل محل هذه الآراء أفكارا أخرى تقدمية بدل منها •

وفى بلاد فارس امتزجت الثقافة العربية بالعقائد المحلية فى هذه المنطقة ، كما أثرت وتأثرت أيضا على الفلسفة المسيحية التى كانت تسود بعض مناطق تلك البلاد • كما تقابلت الفكرة الاسلامية فى أواسط آسيا مع العقيدة البوذية واستفادت بآثار النهضة المادية للحضارة الصينية • فتعلم العرب مثلا من تلك البلاد صناعة الورق التى كان لها أكبر الأثر فى نشر العلوم العربية •

واضطر العرب فى سرعة فائقة الى التخلى عن تلك الفكرة التى عاقت تقدمهم الفكرى فى أول عهدهم بالاسلام ، تلك الفكرة التى كانت تصور لهم وتوحى اليهم بالشعور بالاكتفاء الذاتى بالقرآن الكريم ، على اعتبار أنه هو الكتاب الوحيد الذى يجب أن يرجع اليه فى الأمور الدينية والدنيوية • وهكذا فقد زحفت حضارة العرب وامتد أثرها فشملت جميع الأراضى التى دخلها العرب فاتحين •

● وفى أوائل القرن الثامن كانت هنـاك مجمـوعة ضخمة من المؤسسات الثقافية فى جميع البلاد العربية تعمل جاهدة فى نشر العلوم والثقافة • فكان طلاب العلم فى قرطبة مثلا يتبادلون الرسائل العلمية مع اخوانهم طلاب العلم فى القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند • وكانت هذه الحضارة الفكرية قوية الأثر عظيمة الفائدة لدرجة أنها لم تفقد قوة دفعها حتى بعد فترة طويلة من هذا الانحلال السياسى الذى أصاب الدولة العربية • بل ظلت تلك النهضة الفكرية والعلميـة تؤتى ثمارها حتى القرن الثالث عشر •

● ● كانت أماكن التعليم والثقـافة فى صدر الاسـلام مقصـورة على المساجد ، فقد كان الدين هو الدافع الحقيقى للعلم والتعليم ، واتخذ الخلفاء الراشدون من المساجد مواطن للكثير من شئون الدولة • ففيها كانت تقام الصلاة ، والفصل فى الدعاوى والحكم بين الناس ، ومبايعة الخلفاء ، والقاء الخطب السياسية والحربية وما وصلت اليه حالة الأمة العربية وحالة جيوشها •

كان الأزهر مثلا أهم معهدا من معاهد التعليم بالاضافة الى جامع عمر بن العاص الذى بنى فى الفسطاط سنة ٤١ هـ عنـدما فتح المسلمون مصر ، وجـامع أحمد ابن طولون الذى بنى فى منتصف القرن الثالث الهجرى • ونبغ فى القرون الاسلامية الأولى

كثير من العلماء والحكماء والفلاسفة والرياضيين والفلكيين ، وظهرت مؤلفات قيمة. انشأ هارون الرشيد بيت الحكمة لتدريس العلوم الطبية والطبيعية والرياضية ، وناصر المأمون هذه العلوم واعتنى بها ، وألحق ببيت الحكمة مرصدا فلكيا ، وأضاف الى مكتبة الأزهر آلاف من الكتب فى الفلسفة والطبيعة والرياضة بلغات مختلفة منها العربية واليونانية والفارسية والهندية والقبطية ، ونبغ فى عهده كثير من العلماء فى الفلسفة والفلك والطب والرياضة ، كالخوارزمى فى الجبر ؛ ويحيى بن أبى منصور والعباس الجوهرى وغيرهم من فطاحل علماء العرب .

وكانت بمكتبة الأزهر مائة ألف كتاب ، منها ستة آلاف فى الطب ؛ وكانت تحتوى على كرتين سماويتين من الفضة صنعهما بلطميوس الفلكى ؛ وعلى خريطة جغرافية من الحرير الأزرق دقيقة الصنع ؛ عليها صورة أقاليم الأرض بجبالها وبحارها وأنهارها ومدنها ومساكنها وجميع الأماكن المقدسة فيها ـ مسيحية كانت أم اسلامية ـ مكتوبة أسماء طرائفها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير . ويصف الجبراتى مؤرخ العصر ؛ وهو من علماء الأزهر دار الكيمياء وما شاهد فيها من تجارب واختراعات ؛ ودار التصوير وما فيها من صور فنية متقنة لكبار العلماء وصور الطبيعة والحيوان والنبات والتاريخ الطبيعى .

وبطبيعة الحال ، مرت فترات بعد ذلك بأن هجرت العلوم التى أخترعتها الأمم الاسلامية الأولى ـ وقد جاء عددها طبقا لما ورد فى كشف الظنون عن ١٩٠ علما ـ ولكن على الرغم من هذا التأخير العلمى فان الاسماء الاسلامية ما كانت تخلو بين الحين والحين من نجوم ثواقب تشرق بأنوار علمها على حالك الجهل ، وتقاوم بما فى طاقها وتجاهد لاعادة حالة العلم والمتعلمين الى ما كانت عليه أيام عزة المسلمين ومجدهم .

● أرسلت الدولة المصرية البعثات الى الخارج منذ عام ١٨٢٦ لتلقى الدراسات فى الادارة والحقوق والعلوم السياسية واللغات والهندسةو الطب والكيمياء والرياضيات ومختلف الفنون العسكرية . وكان من بينهم أفذاذ نوابغ مثل رفاعة الطهطاوى وابراهيم النبراوى وأحمد حسن الرشيدى وغيرهم ممن تلقوا العلم بالأزهر. ولما قدم جمال الدين الأفغانى الى مصر عام ١٨٧١ م وأخذ يعقد حلقاته المشهورة ، يشرح فيها علوم الكلام والفقه والفلسفة والمنطق بطريقة عصرية مبتكرة ، ظهرت الآثار اولى لهذا التطور ، وظهرت حركة اصلاح وتطور أهمها تكوين الزعامة الفكرية والقومية . وكان ظهور رجال مثل الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وغيرهم أسطع دليل على أن هذا العهد لم يفقد خلال عصور الانحلال والتأخير كل حيوته

الفكرية ٠ كما ساهمت الدولة المصرية فى بعث فلسفة أرسطو ، وأزاحت التراب عن متحف الاسكندرية الذى ظل مهملا لفترة طويلة ٠

كما أحرز العرب تقدما عظيما فى علوم الرياضة والطب والعلوم الطبيعية ٠ كما استحدثوا علوما جديدة كعلم الجبر وعلم الكيمياء ـ وهذا الاسمان اسمان عربيان ٠ كما استبدلوا الحروف الرياضية الخالية من الجمال الفنى بالحروف العربية ، وهى تلك الحروف التى لا يزال الأوربيون يستعملوها حتى الآن ٠

ومما يدل على ما كان للعرب من فضل السبق فى مضمار علوم الفلك أن كثيرا من الكواكب لها أسماء عربية مازالت تعرف بها حتى الآن

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الشأن بأن نسجل هذه الحقيقة ، فلقد حاز اليهود فى أسبانيا فى ظل الدولة العربية مكانة مرموقة ، كما أثروا ثراء كبيرا ، كما ظلوا متمعين بهذه الظروف الطيبة طوال فترة حكم العرب لهذه البلاد ٠ ولكن عندما سيطر « فرديناند » سنة ١٤٩٢ م على شبه جزيرة الأندلس وأنهار الحكم الأسبانى فى هذه البلاد ، فقد اليهود كل الحرية التى استمتعوا بها أثناء الفترة التى سيطر فيها العرب على شبه جزيرة الأندلس ٠

وخير هؤلاء اليهود بين الدخول فى المسيحية أو مغادرة البلاد ومصـــادرة ممتلكاتهم ٠ ولم تكن الكنيسة فى الواقع وحقيقة الأمر راضية عن هذا التصرف وذلك الاكراه ، بل على العكس من ذلك احتج البابوات على هذه الهمجية التى مارسها ملك أسبانيا الذى كان ءأمل فى ملىء حقيبته بأموال هؤلاء اليهود ٠

وفى نفس الوقت وفى نفس السنة التى اكتشف فيها كولومبس أمريكا اكتشف ميها الملك فرديناند اليهود ٠ وقد فضل اليهود أو الكثير منهم الحل الأصعب فهاجروا من الأندلس الى أوربا حاملين معهم حصيلة فكرية وعلمية ضخمة اكتسبوها من العرب فى ظل الحرية التى استمتعوا بها أثناء حكم العرب لشبه جزيرة الأندلس ـ

● احياء القيم الاسلامية فى المدنية والعمارة المعاصرة (*)

خلاصة لما كتب فى هذا المجال فى الكتب أو فى الندوات والمؤتمرات أن هناك اجماع على ضرورة العودة الى الشخصية الاسلامية والعربية فى تصميم المـــدن والعمارة المعاصرة فى العالم العربى ٠ وتبقى الجوانب التطبيقية لهذا الموضوع حتى الآن غير واضحة المعالم ٠٠ فمجال الكتابة والحديث عنه متسع على مصراعيه ولكن مجال التطبيق لا يزال محدود بمحددات كثيرة ٠ فالمخطط والمعمارى الذى يدعو الى هذا الاتجاه كثيرا ما يدعو اليه من منطق النظرية وليس من منطق الواقع ٠ والدليل على ذلك أن الأمثلة أو المحاولات فى هذا الاتجاه لاتزال محدودة للغاية ٠٠ وان دل ذلك على شىء فأنما يدل على أن الدعوة فى هذا الاتجاه لا تزال محصورة بين الخبراء من المعماريين ولم تجد طريقها بعد الى الضمير العام الذى تشغله الجوانب المادية فى الحياة أكثر من الجوانب المعنوية والحضارية ٠٠ وهذا فى حد ذاته دليل على خروج الضمير العام عن الخط الاسلامى الصحيح كأمة وسطا تتعادل فيها القيم المادية بالقيم المعنوية ٠٠ وهذا هو أول الخيط الذى يجب أدراكه والأخذ به كمدخل لاحياء القيم الاسملامية فى المدنية والعمارة العربية المعاصرة ٠

والضمير العام هنا لا يفرق بين صاحب القرار فى التخطيط أ وفى البناء وبين صاحب الفكرة التخطيطية أو المعمارية فالمسئولية مشتركة وان كا نالحكم فى النهاية يقع على صاحب القرار أما صاحب الفكرة فهو يعتمد على ما غرس فى ذهنه من علم أو فن وما درسه فى نشأته أو قرأه بعد ذلك ومعظمها اقرارا للواقع أيضا مبادىء مستوردة من حضارات تختلف فى جذورها عن الحضارة الاسلامية أو العربية ٠٠ ومبدأ الاستيراد هو فى حد ذاته واقع عند الدول النامية فليس لديها ما تعتمد اليه من فكرة متطورة أو انتاج معاصر وان دل ذلك على شىء فانما يدل على الضعف الحضارى عندها ٠ واذا كا نالمنطق المعاكس لهذه الأمور أن تذوب الفوارق الحضـــارية بين الشعوب وهذا ما ينعكس بالتبعية على البيئة الحضارية فى المدن والعمارة ٠ والواقع أن العالم قد أصبح وحدة واحدة ولكن من الجانب المادى فقط فى التجـــارة أو فى الصناعة أو فى غيرها ولكنه لم يصبح وحدة واحدة من الجانب المعنوى ف ىالثقافة أو فى التقاليد كما لم يصبح وحدة واحدة من الناحية المناخية أو الجغرافية ٠٠ وكلها مؤثرات على تخطيط المدن وعمارتها ٠٠ وفوق كل ذلك فان العالم لم يصبح وحدة حضارية اسلامية فلهم دينهم ولنا دين ٠ وديننا هو الحيـــــاة تتوازن فيه الماديات

(*) بحث نشر فى مجلة المهندسين / اكتوبر ١٩٨٠
للدكتور عبد الباقى ابراهيم ٠٠٠ أستاذ تخطيط المـدن
كلية الهندسة جامعة عين شمس ٠

بالمعنويات هو نظام حياة وأسلوب للتعامل أو بمعنى آخر هو قمة الحضارة لخير أمة أخرجت للناس .. وان كانت هذه الحضارة قد ضعفت أمام غيرها من الحضارات فليس السبب فى قصور الدين ولكن فى البعد عنه . عدم الأخذ بجوانبه المتكاملة بعد أن أصبح الدين عند الكثيرين عبادات وفرائض تؤدى فى مواعيدها . وكان لابدمن هذه المقدمة لتوضح أن الموضوع هو فى حد ذاته وضع حضارى من جميع جوانبه حتى لا تعالج الأمور بأكثر مما تتحمله وحتى نعرف موقفنا من القضية الحضارية الشـــاملة .

ومن خلاصة لما كتب ونشر ونوقش فى هذا المجال تخرج ببعض الحقائق الثابتة وهى على وجه العموم ما يأتى :

أولا : ربط العمارة بالاسلام كعمارة اسلامية لا يقيدها نصوص أو قواعد أو أشكال أو زخارف معينة . فارتباط العمارة بالاسلام هو ارتباط حضارى أكثر من ارتباط شكلى .

ثانيا : لما كان ارتباط العمارة بالاسلام هو ارتباط حضارى فان صيغة هـــذا الارتباط تختلف من منطقة لأخرى باختلاف الخلفية الحضارية والظروف المناخية والطبيعة ولكنها تحدد فى المفهوم الحضارى للاسلام دين كل زمان ومكان .

ثالثا : اذا كان ارتباط العمارة بالاسلام لا تفيده نصوص أو أشكال فان الناحية الشكلية برغم من أهميتها الثانوية فهى فى النهاية تصور للعامة والخاصة المظهر الخارجى الذى يعبر عن العمارة الاسلامية وهذا أمر لا يمكن اغفاله حتى ولم يكن التعبير صريحا عن المخبر الداخلى للمبنى .

رابعا : أن الدعوة الى احياء القيم الاسلامية فى تخطيط المدن والعمارة المعاصرة هى جزء لا يتجزء من الدعوة الحضارية الشاملة للمجتمع الاسلامى وان أى جهد يبذل فى هذا الاتجاه لابد وان توازيه جهود أكثر فى الجوانب الأخرى المكملة للبناء الحضارى الشامل .. فى التوعيه الثقـــافية وفى التوعية الاجتماعية وفى التربية وفى التعليم .

الهدف من الخلفية التاريخية :

واذا كانت الدراسات الأكاديمية لأى موضوع تبدأ بالخلفيه التاريخية فانه كثيرا ما تطول هذه الخلفية حتى تطغى على الهدف الرئيسى للدراسة دون تحديد لهـــدف

الخلفية التاريخية . وبالنسبة لموضوعنا فان الهدف من الخلفية التاريخية ليس فى ذكر التاريخ أو تذاكره ولكن فى استنباط العوامل والمؤتمرات الثابت منها والمتغير التى أثرت على بناء المدن وعمارة الدولة الاسلامية منذ فجر الاسلام ثم كل ارجاء الوطن الاسلامى وعند أستعراض الخلفية التاريخية لا يكون النظر الى المبانى القديمة من وجه النظر الأثرية التاريخية والتسجيلية أو الوصفية ولكن من جهة النظر المستقبلية من حيث التعرف على المسببات ثم النتائج فى ضوء الظـــروف الادارية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لكل عصر . وفى ضوء وسائل ومواد وعمالة البناء المتاحة وفى ضوء وسائل الحركة والنقل المتوفرة مع اعتبار أخر للظروف المناخية والتكوين الفسيولوجى للانسان فى كل بيئة وفى كل عصر .. والنظره الى المستقبلية للنماذج التاريخية تركز دائما على المقارنة المستمرة بين الماضى والحاضر وماذا قد يحدث فى المستقبل من متغيرات .. ثم ادراك الخط الثابت فى كل هذه العملية وهو من ناحية يمكن فى الخط الحضارى لكل منطقة من قبل الاسلام ومن بعده ثم فى البيئة الطبيعية الجغرافية والمناخية التى لا تتغير .

والخلفية التاريخية فى هذه الحالة لا تستعرض لكل عصر على حدة . ولكن لتعبر كل العصور حتى يمكن استخلاص نتائج المقارنة بين الظروف المتابعة مع حركة الزمان وهذا يؤكد ضرورة النظرة المستقبلية عند دراسة العمارة التاريخية . واذا تعذر استعراض الخلفية التاريخية الكاملة عبر العصور مرة واحدة فيمكن استعراض الخلفيات التاريخية لكل نوع من النوعيات المختلفة من المبانى أو حتى لكل عنصر من العناصر المميزة لها وبهذا الأسلوب يمكن الاستفادة من الخلفية التاريخية للموضوع ومتابعة حركته عبر العصور ومقارنة حركة التطور لمكوناته حتى الوقت الحاضر الذى يعتبر نقطة الانطلاق الى المستقبل .

ومن خلال النظرة العابرة لحركة التطور المعمارى يمكن استخلاص بعض الثوابت التصميمة التى تعبر عن السلوك الاسلامى فى الحياة داخل المبانى وخارجها كما يمكن استنباط بعض الأشكال المعمارية أو الفنية التى لا ترتبط بزمن معين أو مكان معين فكثيرا من هذه الأشكال ما يلتصق بوجودان الناس فى المناطق المختلفة من العالم الاسلامى . والاستعمال المعاصر لهذه الأشكال لا يعنى العودة الى الماضى بقدر ما هو تعبير عما فى الوجدان من قيم فنية أو ثقافية أو عادات أو تقاليد لا تتعارض مع التعاليم الاســـلامية .

● استقراء الحاضر :

فالخطورة التالية للخلفية التاريخية هو استقراء الحاضر ومقارنته بحركة الماضى

عبر العصور ثم استنتاج المسببات التى أدت الى الوضع الراهن وتقييمه من الناحية الحضارية فى ضوء المذاهب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية السائدة واعتبار أن الاسلام أولا وقبل كل شىء هو منبع القيم الاجتماعية والأسس الاقتصادية والجوانب الثقافية للمجتمعات الاسلامية المعاصرة ٠

ومن خلال استقراء الحاضر يمكن الوصول الى تقيم عام للموقف الحضارى الاسلامى الراهن الذى شدته الحضارة الغربية الى مدى بعيد كاد يقتلعه من جذوره الضاربة عبر التاريخ ٠ وتتفاوت قوة هذا الشد من مجتمع الى آخر ومن طبقة الى أخرى ٠ ومن مكان لآخر ٠ وبالوصول الى معرفة المسببات التى أدت الى هذا المبدأ الحضارى الخطير يمكن أن نضع الأساليب التى تكفل توجيه الوضع الحضـــارى الراهن وجهته الاسلامية الصحيحة ٠٠ ومن هذا المنطلق يمكن تحديد الوسائل التى تستطيع أن تقوم بهذا التوجيه ٠ ولما كانت الدعوة هنا حضارية شاملة فان الوسائل هنا تعدد بتعدد أوجهها المختلفة ٠ ومنها الدعوة الى احياء القيم الحضارية فى المدينة والعمارة الاسلامية وفيها الدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية كمنبع للنظم والقوانين التى تنظم حياة المجتمع وسلوكه ٠ والدعوة الى احياء التراث الثقافى العلمى والفنى والدعوة الى تنظيم السلوك الاجتماعى فى الشارع فى المسكن وفى مكان العمل وفى مكان الترويح وفى المتجر وفى المطعم وفى وسائل النقل ٠ وكذلك الدعوة الى النظام والنظافة والوقاية والمشرب والمأكل ٠ فالدعوة الى احياء القيم الحضارية فى المدينة والعمارة الاسلامية تكون ناقصة ما لم تكن جزء من الدعوة الاسلامية الحضارية العامة ٠٠ واذا رجعنا الى الواقع لوجدنا أن العمارة على مر العصور لم تكن سوى انعكاس للمستوى الاجتماعى والاقتصادى والثقافى للمجتمعـــات فهى نتاج طبيعى لظروف معينة أكثر منها دعوة أساسية ٠ وان كنا نعتبرها بحكم المهنة دعوة أساسية فى الوقت الحاضر الذى غزت فيه الحضارة الغربية معظم مقومات الحضارة الاسلامية ومنها ما هو ظاهر ومنها ما هو باطن والظاهر لدينا هو الانشاءات والمبانى التى ترسم وتشكل البيئة الطبيعية المرئية فى المدينة والمعمارة المعاصرة ٠

واستقراء الوضع الحاضر لابد وان يتصف بالواقعية والموضـــوعية من حيث الظروف والعوامل التى أوجدته حتى لا تبنى تصورات المستقبل على نظريات يصعب تحقيقها فمن خلال هذا الاستقراء يمكن تحديد المشاكل ذات الاعماق البعيدة والمشاكل ذات الأعماق القريبة والتى يمكن تحقيق معالجتها وبمعنى آخر يمكن تحديد الأولويات لتحقيق الأهداف العامة لاحياء القيم الحضارية للمـــدينة والعمـــارة المعاصرة ٠ والخروج عن الواقعية والموضوعية عند استقراء الأوضاع الراهنة قد يجرف الدراسة

بعيدا عن الهدف بالتمادى فى النقد أو اللوم أو عدم الرضاء عن الأوضاع الراهنة التى هى نتيجة طبيعية للظروف القائمة وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها ٠

● النظرة المستقبلية :

النظرة المستقبلية التى تتبلور من خلال الاستعراض العام للخلفية التاريخية للعمارة عبر العصور الاسلامية ثم نضجت خلال استقراء الأوضاع الراهنة يمكن أن تضع أسلوب العمل المستقبلى لاحياء القيم الحضارية للعمارة المعاصرة ٠٠ وهنا يظهر التساؤل عن علاقة المستقبل بالمعاصرة ٠٠ والمعاصرة فى المفهوم التخطيطى أو المعمارى هى الملائمة المستمرة مع الأوضاع القائمة فى فى كل وقت ٠٠ فالمعاصرة هى الحاضر والمستقبل معا ٠ فهى بذلك تتأثر بالمتغيرات كما أنها فى كل وقت تتأثر بالثوابت ٠

والنظرة المستقبلية يجب أن تتم كالنظرة التلسكوبية ترى من قرب ثم من بعد ثم من قرب وهكذا تربط القريب بالبعيد بصفة مستمرة هذا من الناحية النظرية أما من الناحية التطبيقية فالتركيز أساسا ينصب على البعد القريب الذى يمكن أن تتحقق فيه النظرية ثم تقاس وتقيم ثم تعدل لنبدأ مرحلة أخرى لبعد آخر وهكذا ٠

والبعد القريب هنا أن يظهر فى ثلاث خطوط :

الخط الأول :

الدعوة الى احياء القيم الاسلامية فى التخطيط والعمارة المعاصرة كجزء من الدعوة الحضارية الشاملة مستخدمين فى ذلك مختلف وسائل الاعلام المصـــــورة والمقروئه ـ مع التركيز على مفهوم الدين الاسلامى كحضارة ـ نبعها السماء وتوضيح مدى ظهور هذا المفهوم فى البيئة المبينة ـ فى الشوارع والطرقات فى الأبنية وفى الساحات وهنا لا بد من مشاركة علماء الدين فى هذه الدعوة الحضارية ٠

الخط الثانى :

تأكيد الخط الحضارى فى التربية الحضارية فى المدارس ثم أبراز القيم الاسلامى فى المناهج الدراسية فى أقسام العمارة وتخطيط المـدن ٠ مع مقارنتها بالنظريات الغربية ٠ وهذا يتطلب بطبيعة الحال مزيد من البحوث والدراســـات التى يمكن أن تغذى هذه المناهج ٠

الخط الثالث :

وهو الخط التطبيقى فى المشروعات العمرانية ٠ فبالنسبة للمشروعات المعمارية يمكن وضع أساس التصميم التى تمكن من قياس التصميما تالمعمارية على أساسها مع التركيز بصفة خاصة على التعبيرات الخارجية وهى التى تهم المجتمع فى حين أن المكونات الداخلية هى التى تعبر عن احتياجات المنتفعين بالمبنى سواء أكانت هذه المكونات تعبر عن قيم حضارية أجنبية أو قيم حضارية محلية ٠ وبطبيعة الحال فان المكونات التى تعبر عن قيم حضارية محلية تعطى تعبيراتها الخارجية بتلقائية واضحة تصهر فيها القيم الحضارية المحلية ٠ وأجهزة البلديات التى تعتمد تراخيص مثل هذه المبانى لا بد أن يكون لديها الاداة ذات الكفائة العالية لتتمكن من قياس هذه القيم التصميمية والعمل على أساسها مع ملاحظة التدرج فى هذا القياس من العناصر البسيطة حتى العناصر الكبيرة للمبنى الواحد ٠ وهذا لا بد وان يكون لدى المصمم معرفة دقيقة بالمقاييس التى تضعها أجهزة البلديات لقياس القيم التصميمية ٠

الخط الرابع :

وهـو الخـط التطبيـقى فى المشروعات التخطيـطية ومن المعروف أن هذه المشروعات تنقسم الى نوعيات ثلاثة :

١ ــ مشروعات جديدة ٠
٢ ــ مشروعات فى مناطق نصف مبنية ٠
٣ ــ مشروعات فى مناطق مبنية ٠

والمعالجات التخطيطية لاحياء القيم الاسلامية تختلف من نوعية الى أخرى ٠ فهى أقرب الى امكانية التطبيق فى المناطق الجديدة وأقل فى المناطق الشبه مبنية وتقل كثيرا فى المناطق ا لمبنية والتى هى فى الوقاع تمثل الحجم الأكبر من المشكلة ٠ وهنا تبدأ المحاولات الواقعية التى تظهر فى تغيير الملامح المعمارية الخارجية بابسط الوسائل مثل ازالة الشوائب المعمارية التى تشوه المظهر الخارجى واستعمال الألوان المناسبة سواء فيها اللون الرملى فى المناطق الصحراوية أو اللون الأبيض فى المناطق الزراعية أو على الشواطىء ٠ ثم منها تحديد مدخل الطرقات الداخلية ببوبات أو تغطية أجزاء فيها بجسور من البناء ٠ أو تغيير أثاثات الطرق من مقاعد أو مظـلات أو محطات انتظار أو أحواض زهور الى ما يتناسب مع التشكيلات الفنية المستوحاة من البيئة المحلية ٠ أو بتخصيص طرق للمشاة والتجارة لتكون أعصاب الحياة فى الاحيـاء السكنية وأبعاد طرق السيارات خارجها وهناك أمثلة عديدة لذلك تمت فى مدن

كثيرة فى العالم يمكن الرجوع اليها كنظرية عامة وهناك عديد من الاجراءات التى يمكن اتخادها فى المناطق القائمة يمكن أن تصفى ولو نسبة قليلة من القيم الاسلامية على العمارة القائمة ٠٠ وهذا مثـــار جـــدل كثير يمكن أن يتم فى قاعات البحث والمناقشات ويتقى المشكلة فى معالجة الأبنية المرتفعة سواء القائم منها أو الجديد ٠ وقد أصبحت علامات مميزة للمدينة العربية الاسلامية بعد أن كانت المأذنة هى العلامات المميزة من قبل ٠٠ وهنا تكمن المشكلة الحضارية التى تواجهها فى الوقت الحاضر معظم المدن الاسلامية نسبا لا شكلا ٠

● **اظهار التراث القـــائم :**

لقد أصبح هذا هو الاسهل تداولا فى الوقت الحاضر سواء بالنسبة للمحافظة على المبانى الأثرية وترميمها وأعطائها الخلفية المعمارية المناسبة وذلك فى تنظيم البيئة العمارنية حولها وقد بدأت بعض المدن العربية تجاربها فى هذا الشأن واسبقها مدينة جده ٠٠ كما بدأت المنظمات العلمية والثقافية الدولية تدخل فى هذا المجال بخبرائها سواء المتمرسين منهم أو المبتدئين ٠٠ وهنا يمكن الحظر أن هؤلاء الخبراء ومعظمهم من الأجانب ومنهم من لم يتكون عنده الوجدان الحضارى الاسلامى الذى يؤهله للقيام بمثل هذه المهام الكبصيرة الأهمية ٠ هذا فى الوقت الذى لم تتبلور فيه الشخصية العامة فى المدن الاسلامية القائمة التى يمكنها أن تفرض وعيها الاسلامى على البيئة العمرانية لهذه المدن ٠ ومن هذا المنفذ الضعيف بدأت جحافل الخبـــــراء الأجانب يقتحمون هذا المجال بقوة ضوضائية تكاد لا يتسع فيها انات القليل من الخبـــــراء المسلمين المحليين ٠٠ والأمر هنا يرجع الى متخذ القرار فى هذا الشأن ٠ فربما غابت عنه وثروة الفنية محليا أو هو بطبيعه محاز حضاريا للاجنبى ٠

وأهمية اظهار التراث لا تقتصر فقط على الحفاظ على الثروة الفنية أو الحضارية كأثار ولكنها أيضا تعطى تبعا روحيا لابراز القيم الاسلامية فى المـــدينة والعمارة المعاصرة ٠

وهكذا تتحدد الجوانب المختلفة للمدخل الى احياء القيم الحضارية فى المدينة والعمارة الاسلامية المعاصرة وهكذا يظهر أن هذه الدعوة هى جزء من دعوة حضارية شاملة تتفاعل جميعها لتبنى لنا المدينة الاسلامية الفاضلة ٠

● النماذج الرئيسية لتخطيط المساجد (*) :

لاحت بشائر العمارة العربية الاسلامية وتبلورت أولى خطوت تقاليدها وأسسها منذ اللحظات المبكرة من هجرة الرسول عليه السلام ووصوله الى المدينة المنورة ٠

تمثلت تلك البشائر والتقاليد والأسس فى دار الرسول التى تحولت بعد فترة قصيرة من بنائها لتضم مسجدا للمسلمين ٠

وكان تخطيط ذلك المسجد غاية فى البساطة ويتمشى تماما مع ظروف المسلمين فى ذلك الوقت ، فقد كان يتكون من صحن فى جانبه الشمالى : أى جهة بيت المقدس ، ظلة صغيرة يجتمع فيها الرسول بالصحابة والأنصار ويؤذن فيها للصلاة اذا ما حان وقتها ، وعدما نزلت الآية الكريمة بالأمر بأن تكون الكعبة هى قبلة المسلمين اينما كانوا أضيفت عندئذ ظلة أكبر بطول الجدار الجنوبى من الفنـــاء أى جهة مكة المكرم ، وأصبحت بذلك هى الظلة الرئيسية للمسجد ٠

ثم جاءت المرحلة التالية لتخطيط المسجد النبوى باضافة ظلات أخرى فى جوانب الصحن وأصبح التخطيط يتكون من الصحن الأوسط وأربع ظلات فى جوانبه الأربعة وتمتاز القبلية منها بأنها أوسع الجميع ، وكان ذلك فى أيام عثمان بن عفان ٠

ذلك هو النموذج الرئيسى الأول الذى أسميه بالتخطيط النبوى سواء كان يتكون من صحن أوسط وظلة واحدة جهة القبلة أو كان يتكون من الصـــحن وأربع ظلات حوله ٠ وذلك هو التخطيط الذى شيدت عليه جميع مساجد المســـلمين فى الدولة الاسلامية من أواسط آسيا حتى الأندلس ٠

وبقى عدد كبير من أمثلة ذلك النموذج فى مصر وبخاصة فى عاصمتها بالقاهرة، ومن أجمل تلك الأمثلة جامع ابن طولون الذى يتميز بوجه خاص بما يوحيه الى زائريه من شعور عميق بالخشوع وما يشيع فى وجوه من روحانية ، وهو الوصف الذى سمعته من أحد أعضاء البنك الدولى من الجاليات الاسلامية فى بلد شرقى ومن الذين يترددون على مصر فى المناسبات الرسمية ، وهو لذلك لا يتنازل عن أن يداوم زيارة

(*)بحث نشر بمجلة المهندسين فى العيـد الثانى ليوم المهندس ١١ اكتوبر ١٩٨٠ للاستاذ الدكتور فريد محمود شافعى أستاذ العمارة الاسلامية بجامعة الرياض والقـــاهرة ٠

المسجد والصلاة فيه طوال اقامته بالقاهرة ، كما يوجد عدد كبير من أمثلته فى العالم العربى الاسلامى ، فى شرقه وفى غربه مثل جامع سامرا فى العراق والجامع الأموى بدمشق ، وجامع القيروان بتونس وجامع قرطبة بالأندلس ، وغير ذلك كثير يضيق المقام عن سرده وشرحه ٠

ولكن ما هو جدير بالتنبيه اليه أن هذا النموذج النبوى قد ابتكره الرسول عليه الصلاةوالسلام مع أصحابه وأنصاره ، ولم يقتبسوه من أى من الطرز المعمارية السابقة أو المعاصرة ، وهو اذن تصميم عربى اسلامى خالص لا شك ولا شبهة فى أصالته ونقاوته ، ولم يجرؤ أحد على نسبته الى طرز سابقة الا أحد المستشرقين نال رأيه نقد شديد من بقية المستشرقين ٠

وأستمر هذا التخطيط النبوى وله السيادة المطلقة حتى بدأ ظهور وانتشـــار النموذج الثانى الذى أطلقنـــا عليه اســـم « النموذج ذا الايوانات » أو « النموذج السنى » ٠٠٠ فقد بدأ ظهوره وانتشاره فى أيام السلاجقة واكراد والأيوبيين منذ أواخر القرن العاشر الميلادى وفى العراق والشام ومصر وعلى أيدى أولئك السلاطين والولاة الذين كانوا متحمسين للمذهب السنى ، ودفعهم تحمسهم هذا الى اعـــداد المدارس لنشر تعاليم الدين الاسلامى على المذاهب السنية الأربعة ٠

ومن المرجع أن حماسهم قد دفعهم الى الاسراع للوصول الى ذلك الهدف فاتجهوا الى تحويل الدور والمنازل التى كانت مشيدة لذوى المقدرة منهم ومن الناس والتى كانت مخططة على نظام الايوانات الذى كان معروفا فى العراق منذ أيام الاشوريين حيث وجدت من عصرهم أمثلة بها أربعة ايوانات حول فناء مكشوف أوسط كما وجدت أمثلة أخرى منه ترجع الى أيام البرثيين فى مدينة الحضر جنوب الموصل ، ثم انتقل الى العمارة الساسانية فى العراق ، ومنها مثل مشهور هو ايوان كسرى فى المدائن التى يعرف موقعها الآن باسم « سيلمان باك » ويقع على بعد نحو ٢٠ كيلو مترا الى الجنوب من بغداد ٠

ويبدو أن نظام الايوانات فى الدور والمنازل قد برهن على صلاحيته ليكون نموذجا للمدارس ، ومن ثم فقد أخذت أولئك المتحمسون من الســـلاطين والولاة والأمراء ليشيدوا عليه المدارس التى أنتشرت فى الشرق الاسلامى : فى فارس والعراق وآسيا الصغرى والشام ومصر ، وله أمثلة عديدة فى تلك البقاع ٠

وكان الايوان القبلى من تلك المدارس يزود بمحراب ، وكان يؤدى الصلاة فيها الأساتذة والطلبة المقيمون بها ، وكانت تخصص لهم النفقة لمعيشـــتهم من الأراضى

والعقار الموقوفة على ذلك الغرض ، ثم مع مرور الوقت لم يقتصر الأمر عليهم اذ كان ينضم اليهم جماعات من الأهالى المقيمين على قرب من المدرسة منها وذلك فى أوقات الصلوات اليومية ويؤدون الصلاة الجامعة فى أيام الجمعة وفى المواسم فى المساجد الكبيرة والجوامع فى احياء المدينة ٠

وتطور الأمر الى تزويد المدارس والخانقاوات بالمنابر والمآذن فأصبح الكبير منها يؤدى وظيفة المساجد الجامعة ومن ثم صار المبنى منها مدرسة وجامعا فى نفس الوقت ٠ ومن أجمل وأعظم أمثلتها فى العالم الاسلامى جامع ومدرسة السلطان حسن قرب قلعة صلاح الدين فى مدينة القاهرة ٠ وهو مبنى شيد ليؤدى الوظيفتين : فهو مسجد جامع يتكون من أربعة ايوانات أكبرها أيوان القبلة كما أن به أربع مدارس مخصصة للدراسة وضعت منها فى ركن من أركان المبنى وتتكون الواحدة منها من صحن مكشوف صغير وايوان جهة القبلة ٠ وكذلك يحتوى المبنى على حجرات للاساتذة والطلبة وضعت فى أربعة طوابق تعلو فى مجموعها الى ارتفاع قمم الايوانات العظيمة التى وضعت حول الصحن الرئيسى ،مما أعطى للمسجد مقياسا عظيما وهيبة كبيرة جعلته يتميز بشخصية فذة ٠

وهناك ملاحظتان تتعلقان بهذا النموذج السنى أو ذى الايوانات :

وأولى الملاحظتين أن استخدام هذا النموذج قد اقتصر على الشرق العربى الاسلامى والى حدود مصر الغربية ويكاد لا يوجد له مثل واحد فى الغرب الاسلامى ، وأغلب الظن أنه لم يكن بذلك الغرب منافسة قائمة بين المذهب السنى والمذهب الشيعى فقد كان المذهب السنى هو السائد هناك بغير منازع ٠

والملاحظة الثانية أن المستشرقين قد أطلقوا على ذلك النموذج اصطلاح «التخطيط الصليبى » وذلك على أساس أن الايوانات قد وضعت على محورين متعامدين غير أنه اصطلاح قد يؤدى بمن يسمعه أو يقرأه الى الظن بأنه قد اشتق من شكل الصليب ، وبالتالى فهو مدين بظهوره للتخطيط الصليبى للكنائس ، وهو ايحاء خاطىء لسببين : أحدهما تاريخى والآخر معمارى ٠ فمن الوجهة التاريخية فان التخطيط الصليبى للكنائس لم يظهر فى العمارة المسيحية الا بعد فترة ليست بالقصيرة من قيام الحروب الصليبية وبعد ظهور التخطيط السنى ، ومن الوجهة المعمارية فان الايوانات التى فى جوانب الصحن الأربعة يقل ضلع كل منها والمفتوح بكامله على الصحن عن الضلع الذى وضع فيه ولا يتساوى معه كالحال فى أجنحة التخطيط الصليبى للكنائس ولذلك فهناك خطورة كبيرة فى استخدام ذلك التعبير التخطيط الاسلامى حذرا من الظن بأن التخطيط ذا الايوانات مشتق أو مقتبس من تخطيط الكنائس الصليبية المسقط ، مع

أن العكس هو الصحيح ، ولكن لا مجال هنا لمناقشة ذلك بالتفصيل وله مجال آخر ٠

أما النموذج الثالث لتخطيط المساجد فقد ظهر منذ فتح العثمانيين للقسطنطينية ومنذ فتحهم لعدة أقطار فى جنوب أوروبا ٠

ذلك أن كنيسة آيا صوفيا التى كانت وما تزال تعد من روائع العمارة البيزنطية تستحوذ بضخامتها وفخامتها على مشاعر الناس معا جعل الفاتحين العثمانيين يطلبون من معماييهم من المسلمين واليونانيين أن يشيدوا لهم المساجد بحيث تنافس كنيسة آيا صوفيا التى حولوها الى مسجد ٠

ومن المعروف أن كنيسة آيا صوفيا قد تبع تخطيطها البازيليا الذى ابتكره الرومان من قبل الميلاد ، وذلك من عمل بيت للصلاة الذى ينقسم الى ثلاثة أروقة أكبرها أوسطها ٠ ويتقدم بيت الصلاة فى الكنيسة فناء مكشوف محاط برواق فى كل جانب (ش : ٦) ، أى أصبح الفناء ، يتقدم بيت الصلاة بينما يتوسط الصحن المساجد من النموذجين : النبوى والسنى ، واللذين كانا مستعملين فى أيام الاتراك فى آسياالصغرى قبل فتح القسطنطينية ، وكان ذلك الفناء الذى يتقدم بيت الصلاة يعرف بـ ٠

واقتبس المعماريون فى العصر العثمانى بعد الفتح فكرة بيت الصلاة الذى يتقدمه الفناء للمساجد التى شيدوها ولكنهم تصرفوا فى تقسيم بيت الصلاة من الداخل الى منطقة وسطى تغطيها قبة رئيسية والى مناطق أصغر منها تحيط بها وغطيت المناطق الصغيرة بقبيبات ، سواء فى بيت الصلاة أو فى الاروقة حول الفناء ، مما جعل لتلك المساجد طابعا خاصا ، وتوجد أمثلة كثيرة لتلك المساجد وبخاصة فى استنبول ومنها على سبيل المثال مسجد السلطان أحمد ٠

ومما يستوقف النظر أن هذا النوع من التخطيط الذى نراه جديرا بأن يسمى « بالبازيليكى » قد أستلفت نظر الزملاء مهندسى وزارة الأوقاف المناط بهم بناء الغالبية العظمى من مساجد مصر فقد اقتبسوا ذلك التخطيط البازيليكى لأغلب تلك المساجد وبخاصة الكبيرة منها التى شيدت فى مواقع هامة فى العواصم الكبرى وهى القاهرة ومنها على سبيل المثال جامع عمر مكرم فى ميدان التحرير وجامع كوبرى جامعة القاهرة المعروف بجامع صلاح الدين ، ومن ثم فانهم ضربوا صفحا عن النموذجين الأصليين اللذين بذل المعماريون العرب المسلمون جهود متواصلة كبيرة على مر الأجيال لتطويرها وبخاصة النموذج النبوى ، وفى رأينا أنه من الواجب الابقاء على هذين النموذجين اللذين نبعا وتطورا بأذهان وجهود العرب المسلمين وانتجوا منها روائع تستحوذ على افئدة الناس فى كل زمان ومكان ٠

● المســـجد الحرام :

ان أول معبد ومسجد لله هو المسجد الحرام الذى بزغت منه شمس الاسلام · بنى هذا البيت ابراهيم واسماعيل عليهما السلام · يقول الله سبحانه وتعالى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » ·

وقد تقبل الله دعاء ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان قواعده بالدعاء « ربنـــا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك · وأرنا مناسكنا ، وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم · ربنا ابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » ·

فقد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الرسول الامى فى أمة أمية ، لا تقرأ ولا تكتب ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويجمعهم على الهدى ودين الحق بعد أن فرقتهم المحن وأصبحوا نهبا موزعا بين الفرس فى الشرق ، والرومان فى الغرب ، والأحباش فى الجنوب ··· وأصبحوا كما يقول تبارك وتعالى فى القرآن الكريم « كنتم خير أمة للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »·

هذا هو أول مسجد ظهر على الأرض ·· سماه سبحانه جل شأنه بالبيت العتيق ، وسماه بالمسجد الحرام « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » وسماه تبارك حرما آمنا ، ونسبه اليه جل شأنه فجعله بيته « وعهدنا الى ابراهيم واســماعيل أن طهرا بيتى للطائفية والعاكفين والركـــع الســـــجود » ·

ولما دخل رسول الله مكة سنة ٦٣٠ م واستولى على الكعبة ، أزال منها جميع آثار الوثنية ومحا التماثيل والأصنام والتى هى من عمل الشيطان كما أشـــار بذلك القرآن الكريم · ولم يتعرض القرآن الى الرسم أو الاخراج ، وأن رسول الله تبـارك وتعالى حينما دخل الكعبة وجد صورة للسيدة مريم تحمل طفلها الوليد سيدنا عيسى عليه السلام فحياها الرسول بيده الكريمة ومنع الناس من ازالتها ·

● المسـجد الأقصى :

وهناك مسجد آخر يلى الكعبة فى المنزلة ، ويقترن به فى القرآن الكريم وفى أذهان وعقول المسلمين والعرب كافة وهو المسجد الأقصى · وينسب مبناه القديم الى سيدنا سليمان عليه السلام · وقد أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم ليلا اليه ، ثم عاد الى قومه فى الصباح يتحدث بما رأى من بينات ومن آيات ربه الكبرى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه السميع البصير » · وقد وقعت قصة الاسراء والمعراج قبل هجرة الرسول الكريم من مكة الى المدينة ، وفى هذه القصة ما يشعر بمصير هذا المسجد ومصير « ايلياء » مدينة القدس (١) الى أيدى المسلمين · وقد انتزع المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه هذا المسجد وهذه المدينة من الرومان بعد حصار طويل أحكمه عمرو بن العاص حولها · وأمر عمر أمير المؤمنين بالمحافظة على بيت المقدس وأهله ومقدساته « أنه لا تسكن كنا ئسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم · ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بيت المقدس أحد من اليهود ··· » من نص كتاب عمر رضى الله عنه (١) ·

ويذكر المؤرخون أنه حينما دخل عمر رضى الله عنه بيت المقدس ، صلى على عتبة باب كنيسة القيامة حيث قال للبطريق أنه لو صلى داخل الكنيســـة ، يأخذها المسلمون من بعده ، حيث يقولوا هنا صلى عمر · وسأل البطريق ليريه موضعا يبنى فيه مسجدا ، فأشار الى « الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب » فذهب اليها عمر ووجد عليها رمادا كثيرا وشرع فى ازالته ، ثم أمر رضى الله عنه ببناء المسجد ، ولا يزال قائما يعرف باسم مسجد عمر فى المسجد الأقصى · ومن ثم يتبين أن اليهود لم يكن لهم ظل من سلطان فى هذا المكان · حيث أنه من المعروف والثابت أن الأرض التى شيد عليها المسجد عند الفتح كانت أرضا خالية لا مبانى عليها ، ولم يكن هناك أى أثر لمعبد يهودى ·

حيث أن المعبد اليهودى كان قد تهدم واندثر أثناء حصار تيتوس لمـدينة بيت المقدس عام ٧٠ م ومن المعروف أيضا أن الامبراطور الرومانى هارديان ١٣٨ م حرم المدينة على اليهود ، وان كان قد ســـمح بعد ذلك للحجاج بزيارتها · فما يدعيه الاسرائيليون أمر لا أساس له من من الصحة ، فلم يخرب لهم العرب شيئا لأنهم لم

---

(١) مساجد وجوامع · من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى للاستاذ عبد الرحيم فوده ·

يجدوا مبانى على الاطلاق لكى يهدمها العـــــرب ، ولم يســـتولوا على ما يزعمون أنه يخصهم ٠

والواقع أن المسجد الأقصى الحالى ليس بالمسجد الأصلى الذى شيد فى عهد عمر ، ولا فى عهد الوليد بن عبد الملك مؤسس المسجد الحقيقى ٠ اذ تعرض المسجد لأحداث الزمن ، ولحقه الدمار أكثر من مرة نتيجة لهزات أرضية ٠ ويصف المقدسى المسجد فى حالته هذه فيذكر « أنه كان له ٢٦ بابا أطلق على الباب المواجه للمحراب باب النحاس الأعظم ، حيث كان مغطى بصفائح من النحاس الأصفر ٠ والى يمين هذا الباب سبعة أبواب كبيرة أوسطها مغطى بالصفر أيضا وكذلك الحال فى أبواب الجانب الأيسر ٠ أما أبواب القسم الشرقى فعددها ١١ بابا غير مزخرفة ، وثمة عمد واسطوانات تحمل الأروقة وأروقة أخرى ذات أبنية متخذة من الحجر ٠ ويغطى وسط الحرم سقف جمالونى تعلوه قبة جميلة ويكسو السقف ألواح من الرصاص » وهكذا ينتهى وصف المسجد الأقصى فى حالته الأولى ٠

ولما تعرض المسجد للزلزال الخطيرة ١٠/١٢/١٠٣٢ م فخربه ، دعـا الخليفة الفاطمى الظاهر الى اعادة بنائه ٠ والى الاصلاحات التى تمت فى عهد الظاهر سنة ١٠٢٥ م يرجع اليها الفضل فى وجود الجزء الأكبر من المسجد الحالى ٠ وليس (١) بصحيح ما يقال من أنه يرجع الى عهد الصليبيين وصلاح الدين ٠

ويتكون المسجد أصلا من مجموعات من سبعة أروقة مكونة من عدد من العقود تتعامد على جدار القبلة ويتكون من احدى عشر عقدا ٠ فيما عدا الرواق الأوسط ، فهو أعرض من الأروقة الأخرى ويبلغ ضعفها من حيث الاتساع فهو ١١٫٨٠ م ، فى حين أن عرض الأروقة الأخرى ٦٫٥٠ م وتتمثل أعمال الصليبيين فى بعض أجزاء من الجانب الشرقى والجانب الغربى ، كما أن المحراب من عمل صلاح الدين ٠

● المسجد الأقصى ثالث الحرمين الذى أحرقه اليهود ٠

فى ٢١ أغسطس ١٩٦٩ أرتكب اليهود المحتلين للاراضى المقدسة جريمة بشعة ، حيث ملأ الحقد قلوبهم وأعمى بصيرتهم من تلك الضربات التى يتلقونها من الفدائيين العرب فأحرقوا المسجد الأقصى وهو من أقدس مقدسات الاسلام والمسلمين ، وثالث الحرمين بعد الكعبة والحرم المدنى ٠

---

(١) الدكتور جمال محمود ـ مدير عام مصلحة الاثار ٠

وبهذا العمل أضاف اليهود الى جرائمهم جريمة كبرى فى حق الله ورسله وكتبه ، وسوف تلاحقهم هذه الجريمة الشنعاء أينما كانوا غاصبين أو مشردين فى الأرض ٠

وفى عهد عبد الملك بن مروان أنشئت قبة الصخرة ، ثم أدخلت على المسجد تعديلات وتحسينات عدة فى العصر العباسى ٠ وفى العصر الأيوبى والمملوكى أنشىء بداخله وحوله عدة مدارس ، كدت صبغته العلمية ، وجعلت منه جامعة اسلامية ٠ يرجى أن ينظر الشرح بالتفصيل والرسومات الخاصة بقبة الصخرة المقدسة ٠

● مسجد قباء والمسجد النبوى :

بعد أن ودع النبى مكة سنة ٦٢٢ مهاجرا منها الى المدينة : ومضى فى طريقه الى الهجرة ومعه أبو بكر وصحبه ، وفى الطريق نزل فى « قباء » وأسس رسول الله أول مسجد فى الاسلام ٠ وهو مسجد قباع أول مسجد صلى فيه عليه السلام بأصحابه جماعة ظاهرا ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين ٠ ثم تلاه بعد ذلك المسجد النبى الشريف بالمدينة المنورة والذى يعتبر أنه أول معهد علمى أنشىء فى الاسلام ، حيث كانت حلقات الدرس تعقد فى هذا المسجد وكان بمثابة جامعة يلتقى فيها الناس من جميع الأجناس والقوميات ، من قريش واليمن والبحرين والشام والحبشة وفارس والروم وغيرها من الأقطار الأخرى ٠

● مساجد ومعاهد :

لم تكن المساجد التى نشئت فى عهد رسول الله ومن بعده ، وفى عهود ازدهار الاسلام بمعابد دينية فقط ، بل كانت معاهد جامعة ٠ كانت ولا يزال بعضها جامعات علمية اسلامية عربية قامت بنصيبها فى خدمة الثقافة العربية وتنمية الذات الاسلامى وامداد العقل البشرى بما قواه ونماه وكشف له طريق المعرفة ٠٠ منها المسجد الجامع بالبصرة والكوفة والفسطاط ؛ والجامع الأموى بدمشق ، وجامع الزيتون بتونس ، وجامع حمد بن طولون بمصر وجامع الأزهر ٠

واتخذ الخلفاء الراشدون من المساجد مواطن لكثير من شئون الدولة ، ففيها كانت تقام الصلاة ، والفصل فى الدعاوى ، والحكم بين الناس ، ومبايعة الخلفاء ؛ والقاء الخطب السياسية والحربية وما وصلت اليه حالة الأمة العربية وحالة جيوشها ٠

● لم يشترط الدين الاسلامى على ضرورة اقامة مساجد فى بادىء الأمر

لاقامة الصلاة والشعائر الدينية فقد كان المسلمون فى عصر النبى والخلفاء الراشدون من بعده يعيشون حياة بسيطة خشنة للجهاد فى سبيل الله · كانت المساجد بسيطة فى تخطيطها · حوائطها من الطوب اللبن وأسقف من زعف النخيل ، محاطة أحيانا بخندق حولها مثل مسجدى الكوفة والبصرة بالعراق · وقد كان من الممكن استعمال كنيسة لهذا الغرض أو صالة ذات أعمدة على الطراز الفارسى أو العجمى و البيزنطى ، و الاستعانة بأعمدة حجرية مأخوذة من معابد وكنائس قديمة لتسقيف هذه المساجد ، أو اختيار مساحة مستطيلة محاطة بسور · وقد كان العنصر الهام الذى يتحتم وجوده فى المسجد هو « القبلة » التى يتجه اليها المسلمون فى الصلاة فى اتجاه الكعبـــة الشريفة ، وكان لا بد من التركيز عليها واظهارها بما يتناسب مع الغرض الدينى ووضع المدخل فى الجهة القابلة لها حتى لا يتعـــارض دخول القادمين للصـــلاة مع الموجودين بالمســـجد ·

● وفى نهاية القرن السابع وبعد أن استقر الأمر للحكام المسلمين فى الأقطار التى دخلوها فاتحين مجاهدين فى سبيل الله ، بدأوا فى انشاء المساجد والدور رمزا لتوثهم وعلما لديهم ، دين الحق والسلام ، ودين الهدى والقرآن وجمع المسلمون العمال والصناع المهرة والمهندسين والفنانين من مصر وســـوريا والعجم وبيزنطة لصنع الزخارف والنقوش الفنية المعمارية · ويمكن القول بأنه بدأ يتبلور الفن الاســـلامى والطراز المعمارى الأول فى منتصف القرن الثامن ، وذلك على أثر استيلاء الأمويين على الخلافة وانتقال عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة الى دمشق ·

● ففى عام ٧٠٦ ـ ٧١٥ م بنى الوليد الجامع الأموى فى دمشق متأثرا بما خلفته الامبراطورية الرومانية من آثار فى هذه البقعة ، حيث نرى حوائط المســـجد مغطاة بالموازيك المزجج البديع الشكل واللون من أصل بيزنطى ، ويقول المؤرخون أن الوليد أراد أن يضفى على المسجد هذه الروائع الفنية لكى يطغى بذلك على الكنائس التى كانت موجودة فى هذا الوقت وليشد أنظار المسلمون اليها ويدخل الرهبة فى نفوسهم · بنى المسلمون فى ذلك العصر وفى تلك الفترة الوجيزة من عمر الزمن عدة آثار معمارية هامة لاتزال باقية بعضها للآن منها قبة الصخرة ببيت المقدس وعـــدة قصور فى الشام ـ سوريا ، وظهر الفن الاسلامى متأثرا فى أســـاليبه بالتاثيرات البيزنطية وفى بعضه بالتقاليد الايرانية ·

● ولما انتقلت العاصمة من دمشق الى بغداد بظهور الدولة العباسية تأثرت العمارة والفنون الاسلامية بالأساليب الفنية الفارسية · ففى سنة ٧٦٢ م أنشأ الخليفة المنصور مدينة بغداد على نهر دجلة ذا تالتخطيط المستدير ـ يرجى الرجوع الى تاريخ تخطيط المدينة ·

وفى سنة ٨٣٦ م أنشأ الخليفة المعتصم مدينة سامرا « سر من رأى » شمال بغداد على الضفة اليمنى لنهر دجلة ··· وبنى المتوكل سنة ٨٤٨ ــ ٨٥٢ م مسجد سامارا العظيم على نهر الفرات شمال غرب المدينة ، بمقياس كبير وبسرعة مذهلة ويعتبر أكبر مسجد فى العالم ، مستطيل الشكل المحور الرئيسى متجها الى الكعبة ومشيرا الى مكة المكرمة ، فى الجهة المقابلة للقبلة توجد المئذنة فريدة فى نوعها وتختلف عن مآذن المساجد الأخرى ، على شكل برج عال مشتق أصلا من أبراج الكنائس المسيحية السورية · يدور حول البرج منحدر يصل الى القمة بخلاف سلم حلزونى داخل البرج ، يعكس نفس الفكرة التى استخدمت فى انشاء الزاجورات ــ مرصد النجوم والفلك فى برج بابل · وتبلغ مساحة المسجد نحو ٤٥ ألف ياردة مربعة أى حوالى ١٠ أفدنة ، وتبلغ مساحة الجزء المسقوف من المسجد نحو ٥½ فدان وعدد أعمدته ٤٦٤ عمود ·

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أن أحمد بن طولون نشأ فى سامارا ، واليه يرجع الفضل فى نقل أساليب العمارة بالعــراق الى مصر حين ما نقل اليهــا وتأسيسه للدولة الطولونية ، كما سيأتى شرح ذلك تفصيلا فيما بعـــد ، فبنى جامعه المعروف على نفس الأسس والقواعد التى اتبعت فى مسجد ســمارا ، وأهم ظاهرة فريدة فى نوعها فى تلك المئذنة المتأثر بمأذن سامرا المعروفة بالعراق باسم « الملوية » يرجى أن ينظر شرح المسجد والرسومات أشكال ·

● وفى العصر الفاطمى أنشئت مدينة القاهرة تحيطها الأسوار للدفاع عنها وبواباتها الأربع الشهيرة · وبنى الجامع الأزهر الشريف وجامع الحاكم والأقمـــر والأفخر والصالح طلائع وعدة مساجد أخرى · كما أمتاز العصر الأيوبى بالعمارة الحربية وبالقلاع والحصون ، وانشاء المدارس لتدريس المذاهب الأربعة الاسلامية ·

فمنذ القرن العاشر الميلادى وما بعد ذلك ابتدأ الأتراك السلجوقيين فى تقدمهم الى الشرق حيث تبنوا مبدأ الاســـلام وتحـــكموا فى العجم وميزوبوتاميا وسوريا والأراضى المقدسة حتى واصلوا زحفهم على الامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى، وتتبعهم بعد ذلك المغول بزعامة « جانكسخان » فى القرن الثالث عشر بجيوشهم التى كانت تضم المماليك ، ثم بعد ذلك الأتراك العثمانيين الذين حددوا نهاية الامبراطورية البيزنطية باستيلائهم على القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، واحتلوا الشرق بما فى ذلك مصر وتكونت بذلك أقوى امبراطورية اسلامية · وظهر عنصر معمارى تركى فى هذه النهضة الاسلامية المستمدة من حضارة العرب وقتئذ وهو :

« المدرسة » الذى نشأ هذا العنصر فى العجم ايام الحكم السلجوقى فى القرن الحادى عشر كما سبق القول · ومن أهم الأمثلة ــ مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ــ

وأبرز عناصره فناء مربع فى وسطه نافورة ، يفتح على هذا الفناء من ثلاث جهات صالات مستطيلة أسقفها قبو . أما الاتجاه الرابع المواجه للقبلة ففيه الصالة الكبرى الرئيسية . وعلى العموم فان هذا النظام الذى اتبع فى انشاء المساجد على هذا الأسلوب ـ أسلوب العمارة التذكارية Monumental Architecture أصبح شائعا أيام حكم المماليك يرجى أن تنظر رسومات مسجد السلطان حسن أشكال .

● ولما استقر الأتراك العثمانيون واستتب لهم الأمر فى آسيا الصغرى طوروا نموذجا ثالثا للمسجد يجمع بين المدرسة السلجوقية ونظام الكنيسة البيزنطية المقببة . ونتيجة لذلك ، ظهر هذا الأنموذج الثالث للمدرسة ذات المحمولة على بهو مربع يطل عليه أربع صالات . ورحب الترك بجمال كنيسة أيا صوفيا حينما دخلوا القسطنطينية وتأثروا بها ، وتأثرت مساجدهم التى بنيت فى المدينة وخارجها حتى عام ١٤٥٣ . وكان من أدق الأمثلة التى بنيت فى اسطامبول متأثره بنظام كنيسة أيا صوفيا هو جامع السلطان احمد الأول ١٦٠٩ ـ ١٦١٦ م . ومن أروع الأمثلة للعمارة الاسلامية فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، هو تاج محل بالهند . بناه الشاه جاهان تخليدا لذكرى زوجته الجميلة ، ويلاحظ أن الشاه من العجم من سرة مغولية ، ومن هنا يتضح السبب فى وجود وجه الشبه بين تاج محل بالهند وبين جامع ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة . وفى نفس الوقت نجد أن مثل هذه المقارنة تؤكد أهمية ومزايا تاج محل ، والتى تجعله قطعة معمارية فنية ممتازة فريدة فى نوعها . وعلى ذلك نرى أن النصف الأول من القرن السابع عشر الذى ظهر فيه تاج محل ـ شكل ٢٢٠ وجامع السلطان أحمد الأول ـ شكل ٢٣٢ ، ٢٣٣ يحدد لنا نهاية أروع ما وصل اليه الفن والعمارة الاسلامية من قوة وازدهار .

وفى الغرب والأندلس ظهر الطراز الأسبانى المغربى فى القرن الثانى عشر حيث يمتاز بالعقود التى على شكل حدوة الفرس Horse shoe shape . أنشأ المسلمون الكثير من الأبنية المشهورة بطراز مغربى مثل جامع الكتبية فى مراكش ـ شكل ٢٢١ ، ٢٢٢ . ومسجد قرطبة ، ١٢٣٦ م الذى يعتبر من أكبر وأبدع الآثار الاسلامية فى الأندلس ، ولا يفوقه فى ضخامته سوى الكعبة المكرمة بمكة . حيث توحى عقود المسجد المتتابعة بالطبيعة الحية الجميلة ، يتسلل الضوء من شبكات نوافذه فيصل ضعيفا باهتا يؤثر فى النفس ، فيستشعر المرء نفسه بعيدا عن نطاق الحقيقة . ويظل مستغرقا مهيأ للتطلع الى ما وراء الحس فى صلاة خاشعة . أما قصر الحمراء ١٣٣٤ ـ ١٣٥٤ م فى مدينة غيرناطة فيعتبر أروع مثل للعمارة المغربية .

الثوابت والمتغيرات فى تخطيط وتصميم المسجد :

المسجد ــ الكنيسة ــ المعبد ــ ... كانت وستظل دائما انعكاسا للديانة التى تمثلها ، وتعبيرا قويا عن ثوابت هذه الديانة : عقيدة ، شريعة ، عبادة ، واذا أردنا أن نفرق بين ما هو ثابت ومتغير فى عمارة المساجد فيجب أن نتفهم أولا روح الاسلام وثوابته العقيدية . (*) **الثوابت العقيدية وانعكاسها على تخطيط وتصميم المسجد :**

● التوحيد الخالص « هو أساس العقيدة الاسلامية » لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، لا أول له ولا آخر ، لامكان له ولا زمان ولا صوره له ولا شكل ، ... وحده خالصة .. وجوهر فرد لا يتجزأ » .

ــ ومن ثم انعدمت كل صورة بشرية وكل ايقونة أو تمثال فى المسجد .. ، ومن ثم لجأت الفنون الفرعية فى المسجد الى التحوير والتجديد الهندسى الخالص ، والبعد عن كل ما يشبه الأشياء الحية ، أو ما يشبه ما صنعه الخالق .

ــ ومن ثم كانت القبلة الواحدة ، تتجه اليها كل المساجد فى العالم ، من فنلندا الى استراليا ومن أوربا الى أمريكا فى محاور تلتقى كلها فى كعبة واحدة لرب واحـــد .

ــ ومن ثم كان المسجد الجامع الواحد فى مركز المدينة الاسلامية ، يتوسطها كالدره فى واسطه العقد .

ــ ومن ثم كان تصميم المسجد صحنا واحد تحيط به الأروقة من كل جانب .

ــ ومن ثم كانت فراغات المسجد وأعمدته وعقوده وتغطياته ومداخله وقمرياته ومواد بنائه وتفاصيله وزخارفه ، تتكلم لغة واحدة فى الداخل والخارج ، معبـــرة ونابعة عن وحدة واحدة حتى ولو كان المسجد تم على مراحل تفصلها قرون كما هو الحال فى المسجد الجامع بقرطبة مثلا .

(*) بحث نشر بمجلة المهندسين فى العيد الثانى ليوم المهند / أكتوبر ١٩٨٠ للاستاذ الدكتور ــ أحمد كمال عبد الفتاح ستاذ التصميم المعمارى ونظريات العمارة كلية الهندسة بجامعة عين شمس .

● هناك اختلاف جوهرى بين تصميم المسجد وتصميم المسيحية أساسه عقيدى • فالمسيحية حين بدأت حولت المعابد الوثنية القديمة والبازيليكا الرومانية الى كنائس ، وساعد على ذلك اختلاط المسيحية بعقائد وثنية سابقة ، مثل تجسيد الاله وتعدد صوره واختلاط اللاهوت بالناسوت ، والتثليث ، والوساطة بين الرب والعبد ممثله فى كهنوت قوى متجبر والعكس كل ذلك على التصميم فى هيكل ومزيج وحجاب وقدس أقداس ، وضريح ومعمودية ، وتماثيل وايقونات أما المسجد ، فقد بدأ نسيج وحدة معبرا عن عقيدة نظيفة منزهة عن كل شرك وغير مختلطة بأية ديانات سابقة ، لذا جاء صورة معمارية جديدة كل الجدة غير مقلد لأية معابد سابقة •

● الاسلام عقيدة فطرية واضحة ، لا غموض ولا أبهام ولا تعقيد فى مفاهيمها أو عباداتها ، قوتها فى بساطتها وجلائها وقوة منطقها • ومن ثم جاء تصميم المسجد بسيطا واضحا ، وفراغا سهلا مجردا خاليا من أى تعقيد أو عناصر طقسية كما فى معابد الأديان الأخرى •

● الاسلام دين التواضع والمساواة ، يقول الحق تبارك وتعالى « ان الله لا يحب كل مختال فخور » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » •

ـــ ففى المسجد والجامع الكل سواسية كأسنان المشط فلا مكان بعينه لفقير ولا مكان بعينه لغنى أو لسيد من سادات الدولة ، وانما هو البدر الى الصلاة الشرف الصف الأول فالأول ، أيا كانت مكانة الفرد • الا أن الأمر تغير بعد ذلك بظهور المقصورة التى تفصل الأمير وأسرته وحاشيته فى الصفوف الأولى عن باقى المصلين بحاجز من المخرمات الخشبية ، وذلك ابتداء من عصر الأمويين الذين حولوا الخلاف والشورى الى ملك عضود وشعلاء وتميز طبقى وعرقى ، مخالفين بذلك روح الاسلام لذا تعتبر المقصورة دخيلة على تصميم المسجد وليست من ثوابته ، وكانت تظهر وتختفى من المساجد الجامعة حسب علاقة الحاكم بالمحكومين •

ـــ من هذا أيضا نتبين أنه من المستحب فى تصميم المسجد والجامع أن يكون ضلعه الطويلى رواجها للقبلة بشرف الصف الأول فى الصلاة ، كما فى الجامع الأموى بدمشق •

ـــ كذلك كان المدخل المنكسر فى بعض المساجد ، كمسجد السلطان حسن بالقاهرة ، انعكاسا واضحا لتواضع الاسلام الذى لا يميل الى المداخل المركزية الفخيمة

التى تقع على محور التمـــــاثل الرئيسى للمبنى كمـــــا فى كنائس العصر القوطى وعصر النهضة ·

● الاسلام دين ودنيا « والمبدأ هو « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا » وأن « العمل عبادة » ويقول الحق تبارك وتعالى « وقــــل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ·

— والحياة الاسلامية كانت ويجب ن يكون محورها المسجد والجامع فيهما يتدبر المسلمين شئون دينهم ودنياهم ، وفيهـــا يتم الكثير من نشـــاطاتهم الادارية الاجتماعية والدفاعية الى جانب العبادة لذا كان بيت الحاكم وقصر الحكم قريبا أن لم يكن ملاصقا لحائط القبلة للمسجد الجامع ، مثال ذلك قديما قصر المنصورة الملاصق للمسجد الجامع ببغداد ·

— ولذا كان بيت المال يقام فى صحن المسجد الجامع لكل مدينة اسلامية ·

— ولذا كانت المساجد والجوامع محاطة بكل جهة بالأســـــواق البازارات والوكالات والحانات والحمامات والبيمارستانات وحتى كل باب من أبواب المسجد الجامعة كان يعرف باسم السوق أو البازار المؤدى اليه كباب المزينين بجامع الأزهر وباب القنادلية فى جامع عمرو بن العاص ·

● الاسم دين الفعل والعلم ويقول الحق جل وتعالى « يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ويقول « رب زدنى علما » ويقول « انما يخشى الله من عباده العلماء » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم » لباب من العلم خير من مائة صلاة » ويقول « أطلبوا العلم ولو بالصين ·

— وأرتبط المسجد منذ بدأ الاسلام بالعلم فكان الرسول يجلس فى المسجد يتحلق من حوله أصحابه وهو وسطهم يفيض عليهم من علمه الذى وبيانه الرائع فى أول حلقة علم اسلامى متكامل شاملا أمور الدين والدنيا ومن ثم أستمرت المساجد الجامعة منارات علم وبحث وهدايه وابرطة مشرق العالم الاسلامى بمعرفة من دلهى حتى قرطبة ودرست فيها عـــــلوم الدين واللغة والطب والهندســـــــة والفــــلك والحســـاب والتاريخ والنبات والحيوان ، وتخرج منها العلماء النوابغ ذوى العقول الموسوعية التى لم تعرف التفريق بين علم دينى واخر دينيوى أمثال ابن سيناء وابن رشد وابن الهيثم والبيرونى والخوارزمى والأدريسى والخيام ··· الخ ·

— بقيت بعض هذه الجوامع الجامعة « ابراجا شامخة للعلم حتى الآن ، يدرس فيها فى حلقات بالطريقة التقليدية أمثال جامع الأزهر بالقاهرة وجامع القيرون وجامع الزيتونة بالمغرب العربى ٠

— وكان كل مسجد وجامع يشتمل على خزانات للكتب القيمة والمخطوطات النادرة حتى أن اتفاق انسحاب الحملة الفرنسية على مصر تضمن شروطا يعطيها الحق فى أن تأخذ معها ما يعجبها من هذا التراث من مكتبات المساجد ٠ وكانت من الأسواق المهمة القريبة من الجامع أسواق الكتبية والوراقين ٠

— ظهر فى العصر الأيوبى نوع جدي من المسجد يطلق عليه « الجامع المدرسة» تطور حتى وصل الى أوج تطوره فى العصر المملوكى ، كما فى جامع ومدرسة السلطان حسن ، حيث يشتمل الجامع على أربعة مدارس لتدريس الأربعة المذاهب السنية ٠

— وفى أواخر العصر المملوكى وعلى امتداد العصر العثمانى وحتى الآن ، كان يلحق مسجد مدرسة لتحفيظ القرآن وتجويده وتعليم اللغة العربية وبعض العلوم الأساسية ، وكان يطلق عليها الى وقت قريب كتابا وكان لهذه الكتاتيب الملحقة بالمساجد الفضل فى تعليم كبار رجالانا فى الدين والعلم والأدب ٠

● الاسلام دين يقدس الطهارة والنظافة « طهارة المظهر والجوهر » ويقول الحق جل جلاله « أن الله يحب المتطهرين » و « خذوا زينتكم عند كل مسجد » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظافة من الايمان » و « لا يدخل الجنة سوى نظيف » ، والتطهير والوضوء ركن أساسى من أركان الصلاة فى الاسلام ٠ ومن ثم دخل عنصر الماء الجارى فى تصميم كل مسجد وجامع ، فمثلا فى ميضه الوضوء ، الفساقى والتوافير وأحواض المياه فى ضمن الجامع والاسبلة الملحقة بالمسجد كما فى مسجد قايتباى ٠

كذلك أنتشرت أسواق العطارين والمزينين والحمامات العامة (التى يوجد بها الماء الساخن) قريبة من المسجد أو على الطرق المؤدية له بل أن بعض هذه الحمامات العامة أرتبط بجسم المسجد كحمام المؤيد المرتبط بمسجد المؤيد بالقاهرة ٠

(ب) الثوابت والمتغيرات فى تصميم المسجد :

● المسجد من أبسط المنشات المعمارية من حيث الشكل والتكوين ، ويدين بجماله الى هذه البساطة ، والوحدة القوية البسيطة التى تكامل بين جميع أجزائه

ـ وقد تختلف أنواع المساجد حسب بانيها فهى أما سلطانية تبنيها الدولة ، ممثلة فى خلفاء أو سلاطين ، ملوك أو حكام ، أو ممثلة فى وزارات أوقاف ، وأما أهلية يبنيها الناس أفرادا أو جماعات ، وقد تختلف فى تفاصيلها وتغطياتها ومواد وطرق بنائها : فمن مجاز قاطع لتأكيد اتجاه القبلة الى أكتاف بنائية تحل محل الأعمدة ، الى تغطيات بأقبية تسمى أيوانات الى تغطيات بجمالوناتخشبية مغطاة بقراميد ، الى قباب كبيرة ٠ وصغيرة تغطى الأرواقة الى مساجد معلقة تحتل الدور العلوى فوق متاجر الى مساجد مرتبطة بمدارس ٠٠ الخ وقد تختلف فى طورها الفنية مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، كل طراز يتبع التراث والأساليب الفنية القائمة فى ذلك العصر أو ذلك المكان الذى يقوم فيه مبلورا ومطورا أساليب ومواد البناء المحلية والحلول المعمارية المناسبة للبيئة والمناخ والتقاليد ، فهى طولونية أو فاطمية أو مغربية أو أندلسية أو سلجوقية (فى ايران وتركستان والعراق) أو مملوكية (فى مصر والشام) أو هندسية مغولية (فى الهند وأفغانستان) أو صفوية (فى ايران وخراسان) أو تركية عثمانية (فى آسيا الصغرى والبلقان وشرق أوروبا ومصر والشام والحجاز) أو حديثة ، ومع كل هذه الاختلافات فالتصميم فى جميع المساجد فى صمم واحد لا يتغير ووحدته قوية ظاهرة لمن يراها لأول وهله ، مميزة عن أية معابد من معابد الأديان الأخرى ، هذا الاختلاف أو التمايز فى الوحدة أو الوحدة التى تجمع الاختلاف والتمايز ، خاصية من أهم خواص العمارة الاسلامية والنموذج الموحد الذى يجمع كل أنواع المساجد تحت وحدة قوية : هو النموذج النبوى الرائع الذى يتكون من أربعة عناصر رئيسية (ثوابت) أضيف اليها فيما بعد عنصران ستجدان (متغيرات) ٠

والعناصر الأربعة الأساسية (الثوابت) هى كما يلى :

١ ـ صحن مفتوح للسماء ، قد يكون مبلطا ، أو به فسقية أو حوض ماء أو قد تزرع فيه أشجار النارنج أو البرتقال لتعطى ظلا ولتعطر الجو (مساجد الأندلس) ، وقد تزرع أجزاء منه فى أحواض ازهار يختلط بها الريحان (فى تركيا وايران) ٠

٢ ـ يحيط بالصحن من جانب واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة جوانب أروقة مسقوفه أكبرها وأهمها رواق الصلاة أو (بيت الصلاة) فى اتجاه القبلة ، وتختلف طرق التسقيف حسب الزمان والمكان والطراز ٠

٣ ـ الجدار الرئيسى فى بيت الصلاة هو الجدار المتجه نحو مكة المكرمة ويسمى جدار القبلة وفى جزء ما من ذلك الجدار (فى منتصفه فى الغالب) توضع عــلامة للموضع الذى يقف أمامه الامام ، هذه العلامة كانت فى أول حربة تغرس فى الأرض (ومن هنا جاء لفظ المحراب) وقد ترسم على هيئة باب على الجدار أو على شكل عقد

وقد يكون محربا مجوفا على شكل حنية داخلية وقد تتحول الحنية الى مقصورة ذات بوابة (كما فى المسجد الجامع بقرطبة) ، وقد تتعدد المحاريب فى الجامع الواحد كما فى الجامع الأزهر وجامع السلطان حسن وجامع المؤيد بالقاهرة) ٠

٤ ـ المنبر قد يكون مجرد منصة درجة أو درجتين أو ثلاث أو أكثر أو منصة عالية ذات درج كثير وباب خشبى عليه ستار وقد تكون شرفة مطلة على قاعة المسجد يدخل اليها الخطيب من المحراب كما هو فى الحال فى مساجد الكويت والخليج ٠

ـ أما المئذنة فلم تكن جزءا رئيسيا فى المسجد ، وأول ظهورها كان فى المسجد الأموى بدمشق (٨٦ ـ ٩٦ هـ) أيام الوليد بن عبد الملك الذى أقيم على آثار رومانى مهجور كانت توجد فى أركانه أربعة صوامع مربعة كانت تستخدم للرصد الفلكى ، فاستخدمها المسلمون مآذنه ، فكانت أول مآذن أضيفت للمسجد الاسلامى فى الاسلام ثم تنوعت بعد ذلك أشكال المآذن وتغيرت مواقعها واعدادها بالنسبة للمسجد ٠

ـ أما ميضة الوضوء فلم تكن كذلك جزءا أساسيا من المسجد وانما أضيفت فيما بعد وكان المسلمون أيام الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين يذهبون الى المسجد متوضئين مستعدين للصلاة من بيوتهم ٠

● والوحدة المتكاملة التى تسمح بالاختلاف والتمايز ، صفة ينفرد بها الفن الاسلامى على جميع مستوياته ٠٠٠ من المدينة الاسلامية الى العمارة الاسلامية الى الفنون الاسلامية الفرعية فالانسان الغربى قد لا يستطيع أن يفرق بين المدن الاسلامية القديمة ولكنه يستطيع أن يجزم من أول وهله أنها مدينة اسلامية ، حين يرى أن الطابع الغالب هو مسجد جامع متوسطا قلب المدينة تحيط به الأسواق والوكلات والخانات والقيصاريات ، ثم مساجد الاحياء موزعة بين الدور بمآذنها وقبابها بينما الحقيقة أن المساجد تختلف من مدينة الى أخرى والمنارات والقباب تغاير المنارات والقباب من بلد الى اخر فمآذن المماليك فى القاهرة أنفردت بجواسقها العليا المعلقة على عمد دقيقة وقمم مهضومة الخواطر أما فى المغرب والأندلس فتوجد المآذن المربعة السامقة الارتفاع كما اشتهرت بالخرام والهند والباكستان بالمرمر ، وأشتهرت مصر والمغرب والأندلس بالحجارة المنقوشة والملبسة بالخرام وهذه الوحدة الفنية التى تجمع كل هذا وتعطيه الطابع الاسلامى الواضح مهما أختلفت التفاصيل وتميزه عن غيره من الفنون الأجنبية الأخرى وهذه الوحدة انما تستمد جذورها من روح العقيدة نفسها ، من توحيد وتجريد خالص ، ومن تكامل بين الدين والدنيا وتواضع وعدل ومساواة وطهارة باطن وظاهر ٠٠ الخ ، فن مقدس مرتبط بالدنيا كما أنه مرتبط بالله الواحد الأحد ، لأن الاسلام الهى بمصدره ٠٠ انسانى بغايته ٠٠

● المساجد ·· عمارة ··· ورسالة ··· وتاريخ

— (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى وزكاة ، ولم يخش ال الله) ·

— (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغـــدو والآصال مجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة) ·

— (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ·

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ·· بنى الله له بيتا فى الجنة » ·

— « اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان » ·

وبعـــــد ··

فان خير الكلام ، كلام الله ·· وخير الحديث ، حديث محمد صلى الله عليه وسلم ·· وخير الشهور شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ·· وخير البقاع ، مسجد يغشاه عباد الرحمن : (ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر الســـــجود) ·

القرآن الكريم : شريعة منزلة ، والحديث الشريف : سنة منزهة ·· وفقه وتوحيد تتحدد معالمها من أحكام الشريعة وفروض السنة ·

والانسان : أرفع خلق الله شأنا ، وأسماهم منزلة ، وأولاهم تكريما (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) و (كرمنا بنى آدم) ·

الانسان الذى كرمه الله ، والمسلم الذى اختصه الله من بنى آدم كى يخلع عليه نعمة الاسلام ·· (ان الدين عند الله الاسلام) ·

الانسان والمسلمون و ·· شهر رمضان :

خلق كريم ، وأمة هى (خير أمة أخرجت للناس) وشهر فيه ليلة (خير من لأف شهر) وفيه أيضا أنزل القرآن ·

ونحن فى رمضان ·· بالنهار ممسكون عن الطعام ، ومحجمون عن فاحش القول والعمل · فاذا ما رفع أذان المغرب ·· أطفأنا حر الظمأ وحرمان الجوع ·· ثم نحن ـ بعد العشاء ـ قيام بالمساجد حتى ينتصف الليل أو يزيد ·

هكذا نحن ·

(وعباد الرحمن الذين يمشـــون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما · والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما ، انها ساءت مستقرا ومقاما) ·

وبين الصيام والقيام ، تتمتم الشفاه حمدا وتسبيحا ·· ويجرى اللسان بأحسن القول قرآنا ·· ويتأمل العاقل فى أطهر البقاع مســـجدا : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدى هذا » ، هكذا يقول سيد الانام صلى الله عليه وسلم ·

اذن فهى المساجد ·· بيوت الله فيها عزتنا ·· ووحدتنا ·· وحضارتنا ·

ولئن كنا قد تعودنا ـ فى الموضوع الخاص ـ أن نطل على القارىء مع مطلع كل شهر هجرى بدراسة مصورة لمواضيع متعددة الجـوانب ، تغطى كافة الأذواق والاهتمامات (الخيـل ـ النخيـل ـ الطيور المهاجرة ـ كرة القـــدم ـ البراكين والزلازل ·· الخ) فان خير موضوع خاص فى شهر القرآن ·· شهر الصيام والقيام هو موضوع المسأجد ·· وهو موضوع واسع ·

ـــ رسالة المسجد ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ قضية كبيـــرة نوقشت فى ندة الشهر بالعدد الماضى ·

ـــ المسجد كركيزة وموقع انطلقت منها جحـافل الاســـلام تحمل النـور والهدى الى كافة أرجاء الأرض ·

ـــ الزوايا المعمارية والهندسية والجمالية التى تميز المساجد الاسلامية ·· موضوع طويل ومتشعب ·

فأى موضوع يمكن مناقشته من خلال هذا الباب ؟

دوافعنا للأخذ بالتخصص تميل بنا الى اختيار جانب أو موضوع معين ومحدد ·

لكن طموحنا الى شمولية التغطية تتطلب معالجة هذه الجوانب اجمـــــالا مع ايجـــاز ·

المسجد ·· فى القرآن الكريم :

ورد ذكر لفظ « مسجد » فى القرآن الكريم ثمان وعشرين مرة ، كما وردت كلمة « يسجد » و « سجود » بالقرآن الكريم واحدا وسبعين مرة ·· وقد ورد بمعنى «بيت» ست عشرة مرة ·

والمسجد هو مكان العبادة فى الاسلام · ولقد كان لليهود والنصارى تسميات يطلقونها على أماكن عبادتهم ، ذكر منها القرآن « الصوامع والبيع والصـــلوات » وسلكها مع المساجد فى سلك واحد فجاء فى القرآن : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) ·

ويقال للمسجد بيتا ·· لقوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع) ، ويرد لفظ « بيت » بمعنى « البيت الحرام « أو « الكعبة » (وان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) ·· كما تطلق كلمة « بيت » فى القرآن الكريم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت)·

و « المسجد » اسم للسجود ·· والسجود من أركان الصلاة التى هى عماد الدين « من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها هدم الدين » ·· ولقد اختير السجود كى يشتق منه اسم « المسجد » كدلالة على أهمية « السجدة » وعظمها ·· لأنها دليل خضوع العبد لربه ·· « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من قبلى ·· وجعلت لى الأرض مسجدا » ·

أما « الجامع » فهو وصف شائع للمسجد أصبح علما عليه · يقال فى الأصل « مسجد جامع » بمعنى مسجد لصلاة الجماعة أو مسجد تقام فيه صلاة الجمعة·

ويقول ابن خلدون فى مقدمته : « اعلم أن المساجد صنفان : مساجد عظيمة كثيرة الغاشية ، معدة للصلوات المشهورة ·· وأخرى دونها ، مختصة بقوم أو محلة ، وليست للصلوات العامة · فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع الى الخليفة أو من يفوض اليه من سلطان أو من وزير أو قاض ·· فينصب بها الامام فى الصلوات الخمس ،

والجمعة ، والعيدين والخسوفين ، والاستسقاء ، وتعين ذلك انمـــا هو من طريق الأولى والاستحسان » ثم شاع استخدام لفظ « الجامع » بمعنى المسجد الذى تعقد فيه حلقات الدرس كالجامع الأزهر وجامع القيروان ·

المساجد : منزلة ودلالة :

للمساجد منزلة تتجسد فى سلوكيات ينتهجها رواد ، نوجز منها :

ـــ ان الداخل الى المسجد يصلى ركعتين هما « تحية المسجد » ·

ـــ وجوب المحافظة عليها وتنظيفها ·

ـــ يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه نهى عن البصاق فيها وتسمية ذلك « خطيئة » ·

ـــ كراهة الثرثرة أثناء التواجد بالمسجد ·· الى جانب كراهة دخـــولها بالحذاء الا فى أحوال معينة كالحرب والحراسة مثلا ·

ـــ وجوب التزين عند الدخـــول الى المسجد (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) ·

هذه المنزلة وتلك السلوكيات التى تختص بها المساجد عما ســـواها من دور العبادة لدى غير الاسلام أهلت المساجد ــ بدورها ــ لأداء رسالة دينية وحياتية ·

فمع وصول الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة ــ وقبل أن يقضى بها مدة يستريح فيها من وعثاء السفر ــ كان شروعه فى بناء مسجد قباء ·· أول مسجد شيد فى الاسلام ·· بل انه كان يشترك بنفسه فى البناء مرددا : « لا عيش الا الآخرة ·· اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » ·

نزلت فى مسجد قباء الآية الكريمة القائلة : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه · فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) ·

وفيه أيضا قال سيد الأنام حديثه الشريف ، والمخطوط على محرابه : « من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه ركعتين كان له كأجر عمرة » ·

أما مسألة المسجد على امتداد الأربعة عشر قرنا الماضـــية فتتخلص فى أن المسجد لم يكن مجرد مكان لأداء الصلاة وحسب ، بل كان ـ وسيظل دائما ـ مرشحا لأداء مهام اجتماعية وتربوية وسياسية هامة الى جانب مهامه الدينية والقضائية ·· من ذلك :

المسجد ·· المعبد :

يقول عليه الصلاة والسلام : « ما جلس قوم فى بيت من بيوت‌الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » ·

ان الناس اذ يعمون ، فهم يقومون للصلاة صفا واحدا ·· أحقادهم خلوها خلف ظهورهم ·· فهم هنا متساوون (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ·· والمسلمون فى المسجد راكعون ·· ساجدون ·· قارئون لقرآن ·· مسبحون · ·حامدون (وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما) ·

المسجد ·· مقر الحكم :

فيه يختار المسلمون خليفتهم ، وفيه يتم له البيعة ، وفيه يخطبهم الخليفة موضحا منهجه فى سياسة الدين والدنيا ·· وهذه كلمات أبو بكر الصديق رضى الله عنه تحملنا من وراء أربعة عشرة قرنا وكأن لها قوة وصلابة اليوم ·· يوم بيعته :

« لقد وليت عليكم ولست بخيركم ·· القوى عندى ضعيف حتى آخـــذ الحق منه ·· والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخـــذ الحق له ·· أطيعونى ما أطعت الله فيكم ·· فان عصيت فلا طاعة لى عليكم » ·

·· وهو مجلس الشـــورى :

اذ كان مجرد سماع نداء « الصلاة جامعة » يعنى أنه قد جـــد أمر يراد فيه مشورة المسلمين جميعا ·· عندئذ يهرع الناس الى المسجد ·· وبعد تأدية الصلاة يكون عرض الأمر (اختيار خليفة أو بيعة أو بحث قصة المرأة التى كانت بالمســـجد عندما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يناقش مسألة المهور ، فوقفت وجادلته الى أن أثنته عن رأيه ، فقال قولته المشهورة : « أصابت العجوز وأخطأ عمر » ·

·· والمدرســة :

فى المسجد كانت حلقات الدرس تعقد لتعليم كافة دروب وفنون العلم ·· ولم يقتصر التعليم بالمساجد على علوم القرآن والسنة والشريعة واللســان والطبيعة ، ولكنه امتد أيضا لتعليم الطب والهندسة والرياضيات والفلك والكيمياء وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « من دخل مسجدنا هذا ليعلم خيرا أو ليعلم كان كالمجاهد فى سبيل الله » ·

محكمة المسجد :

وفى ساحة المسجد صدرت أكثر أحكام القضاء عدلا ·· وفى ذلك يروى الامام البخارى رضى الله عنه فى صحيحه أن كعب بن مالك تقاضى ابن أبى حدرد دينا كان له عليه فى المسجد ، فارتفعت أصواتهما فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « يا كعب ·· ضع عن دينك هذا » فقال : قد فعلت يا رسول الله ، فقال : « قم فاقضه »·

·· والنــادى :

كان سيد الأنام عليه الصلاة السلام يسمح بأن تقام الأعمال الرياضية بالمسجد· ويروى عن عائشة رضى الله عنها قولها : « دعانى رسول الله والحبشة يلعبون بحرابهم فى المسجد فقال : يا حميراء أتحبين أن تنظرى اليهم ؟ فقلت : نعم · فأقامنى من ورائه ·· فنظرت من وراء منكبيه » ·· قالت عائشة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة » ·

المسجد ·· ومهام أخرى :

●● الروح الاجتماعية : فقد كان تردد المسلمين الدائم على المساجد يعتبر بمثابة مؤتمرات دائمة الانعقاد تطرح على مائدة البحث ما يعرض لها من أمور الدين والدنيا ·· فهناك مؤتمر يومى يتمثل فى الصلوات الخمس وآخر أسبوعى يعقد مع صلاة الجمعة ، ثم المؤتمر السنوى العالمى بالمسجد الحرام فى الحج ·

●● وهو المستشفى : يروى عن السيدة عائشــة رضى الله عنها قولها : « أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق فى الأكحل ، فضرب عليه رســول الله خيمة فى المسجد ليعوده من قريب » ·· الخ ·

●● والأسرى : ففى سواريه يربط أسرى الحروب · فقد روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث خيلا قبل نجد ، فجاءت برجـــل من بنى حنيفة يقال له تمامة بن آثال ·· فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فاغتسل ثم دخل فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » ·

هذه هى المساجد عموما ·· الا أن هناك ثلاثة مساجد اختصـــها الله بمكانة خاصة ، وروى فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث وهى :

المسجد الأقصى : بالقدس وهو الذى أسرى بالرسول صلى الله عليه وسلم ·· (سبحان الذء أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) ·

المسجد النبوى : بالمدينة المنورة وهو الذى بناه الرسول بها كى يكون مقر حكمه ودار قضائه وديوان سياسة ·

الا أن المسجد الحرام قد امتاز على سائر مساجد الدنيا بعدة مزايا نذكر منها :

١ ــ انه أول « بيت » على الأرض لقوله تعالى (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) ·

٢ ــ قبلة كل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يتجهون اليها خمس مرات فى اليوم (قد ترى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ·

٣ ــ ان تحية المساجد جميعا هى الصلاة ، لكن تحية المسجد الحرام هى طواف سبعة أشواط حول الكعبة ·

٤ ــ قوله عليه الصلاة والسلام : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام ·· وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه » · قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « فحسب ذلك على هذه الرواية التى هى صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فبلغت صلاة واحدة فى المسجد الحرام عمر خمس وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة ·· وصلاة يوم وليلة فى المسجد الحرام ــ وهى خمس صلوات ــ عمر مائتى سنة وسبع وسبعين سنة وتسعة أشهر وعشر ليال » ·

ولم يقتصر تكريم اقامة الشعائر بالمسجد الحرام على الصلاة وحدها بل انه امتد كقول الحسن البصرى : « صوم يوم بمكة بمائة ألف وصدقة درهم بمائة ألف وكل حسنة بمائة ألف » ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم ـ عن رواية ابن عباس ـ « من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه وقام منه ما تيسر ، كتب له مائة ألف شهر رمضان فيما سواها وكتب له بكل يوم وليلة عتق رقبة ، وفى كل يوم حملان فرسين فى سبيل الله وفى كل ليلة حسنة » ٠

٥ ـ العقاب على « الهم » فيه وان لم ترتكب ، قال أحمد بن حنبل : « لو أن رجلا هم أن يقتل فى الحرام أذاقه الله من العذاب الأليم » ٠ ثم قرأ قوله تعالى (من يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) ٠ وقال ابن مسعود : « ما من بلد يؤاخذ العبد فيه على الهم الا مكة » ، ثم تلى نفس الآية ٠

٦ ـ ان صيد بالحرم محرم على الحلال والمحرم بالاجماع لقوله صلى الله عليه وسلم : « ولا ينفر صيدها » ، وكذلك يحرم قطع شجرها وحشيشها للحديث الشريف : « ولا يعضد شجرها » ٠

٧ ـ يعفى ساكن مكة المستوطن بها من دم التمتع والاقران فى الحج لقوله تعالى (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) ٠

٨ ـ يمنع الكافر من دخول مكة وحرمها لقوله تعالى (يا أيها الذين امنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ٠ وروى عن الشافعى رضى الله عنه أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : « لا يجتمع مسلم ومشرك فى الحرم » ٠

٩ ـ ان معظم آيات الذكر الحكيم التى ورد فيها ذكر « مسجد » قد ذكر بهـا « المسجد الحرام » وانه قد ذكر فى خمسة عشر موقعا بالقرآن الكريم (١) ٠

هذه الشخصية المتميزة للمسجد كدار للعبادة ٠٠ وذلك الدور المرشح له ٠٠ وتلك المواقف والأقوال التى جسدت ٠٠ فى النهاية ٠٠ لمساجد الاسلام شخصية ودورا ودلالة ليس فقط فى المدلول الدينى للمسجد ورسالته ومهامه ٠٠ ولكن أيضا فى شكله الخارجى ٠٠ وكما يقولون فان تميز المساجد عن غيرها لم يكن فى « المضـمون » وحسب ولكن فى « الشكل » أيضا ٠

الفن الاسلامى :

صحيح أن رسالة الاسلام قد نزلت فى القرن السادس الميلادى ، بعد رصيد بشرى هائل فى مجال العمارة والفنون ٠

صحيح أن رسالة الاسلام قد نزلت فى القرن السادس الميلادى ، بعد رصد سبقت ظهور الاسلام وبناية المساجد ٠

لكن غير صحيح هو القول بأن الفن الاسلامى كان امتدادا للمدارس السابقة عليه ٠٠ فكما تميزت رسالة المساجد عما قبلها من دور للعبادة ٠٠ كان طبيعيا أن تتميز عمارة المساجد عما قبلها من مدارس معمارية أيضا ٠ ولسوف نناقش هذه القضية من خلال زوايا أربع :

١ ـ آثار الاسلام على الفن ٠ ٢ ـ معايير الفن الاسلامى ٠
٣ ـ ملامح الفن الاسلامى ٠ ٤ ـ المدارس المعمارية الاسلامية ٠

١ ـ آثار الاسلام على الفن :

تقوم العقيدة الاسلامية على مبادىء وقيم كانت
الاطار الذى تحرك الفن الاسلامى من خلاله ، من ذلك :

ـ الايمان المطلق بوحدانية الله لقوله تعالى (كل شىء هالك الا وجهه ٠٠

● الايمان المطلق بوحدانية الله لقوله تعالى (كل شىء هالك الا وجهه ٠٠ له الحكم واليه ترجعون) ٠

ـ ضعف الانسان أمام قدرة الله : (ما أصابك من حسنة فمن الله) ٠

ـ الله هو الخالق البارىء المصور : (خلق الله السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم) ٠

ـ الترغيب فى حب الجمال والزينة : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده الطيبات من الرزق) ٠

ـ الحث على العلم والتماسك من الله تعالى : (وقل رب زدنى علما) ٠

ـ الحث على العمل : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)

٢ ـ معايير الفن الاسلامى :

وكانت تتحدد فى كراهة تصوير الكائنات الحية كالانســـان أو الحيوان ·· وتتضافر هذه الكراهية « الفنية » مع المضمون الاساسى لرسالة الاسلام وهو توحيد الألوهية والربوبية ونبذ الشرك وتحطيم الأصنام واخلاص العبادة لله وحده « خالق كل شىء » ·

٣ ـ ملامح الفن الاسلامى :

وتتأكد تلك الملامح ، كما قال « فييت » : « ان الفن الاســـلامى فى مظاهره السائدة لا يهتم أصلا بنقل الحياة ، انما ترمى نزعته العامة تجريد المشاهد الحية فى الطبيعة حتى لا يبقى منها الا خطوطها الهندسية » وفى ذلك نستطيع القول بأن الفنان المسلم قد حقق سبقا فنيا بوصوله الى الرسوم التكعيبية قبل الفنانين المعاصرين بعدة قرون ·· الا أننا لا نستطيع أن نعقد بين الفنان الاسلامى المبكر والفنان التكعيبى المعاصر مقارنة عادلة ·· اذ يتفوق فنان الاسلام لسببين هما ـ كما يقول الأستاذ أبو صالح الألفى فى كتابه « الفن الاسلامى » :

- الفارق بين الفنان المسلم والفنان المعاصر أن الفنان المسلم حقق فاعليته الفنية التى استشعرها فى نفسه تعبيرا عن موقفه ازاء الطبيعة . أما الفنان المعاصر فانه يعبر عن فلسفة عقلية منطقية ·
- والفنان المسلم يقدم لنا فى رقة وألفة وعذوبة صياغته الجـــديدة · أما الفنان المعاصر فكثيرا ما يقدم لنا أشكالا مشوهة لا تحقق الاســـتمتاع الجمـــالى واستشعار العذوبة التى نلمسها فى الفن الاسلامى ·

كذلك كان يتنازع الفنان المسلم اتجاهان متناقضان . وكان عليه ـ كما نقول بتعبيرنا المعاصر ـ « حل هذه المعادلة الصعبة » ·

فأما النقيض الأول فهو ازدهار الحضارة الاسلامية والثراء الذى وصل اليه الخلفاء المسلمون ·· الأمر الذى يدفع الى النفس دائما بحب الاستمتاع بكل ما هو ثمين نفيس كالملابس الفاخرة والأثاث والرياش والقصور الفارهة ·· الخ ·

وأما الطرف الآخر للمعادلة فهو التجاوب مع اتجاه العقيدة الاسلامية ، والنزوع الى عدم الرغبة فى انهاك الموارد الاقتصادية للمجتمع ·· الى جانب التأثر لحد كبير بالحديث الشريف القائل : « من أشراط الساعة التباهى بالمسجد » ·

هنا استطاع الفنان المسلم الوصول الى حلول ابتكارية حقق بها التوازن بين نقيضى « المعادلة الصعبة » تمثلت فى :

١ ـ انتاج الخزف ذا البريق المعدنى ، والتوصل ـ باستعمال الحرارة ـ الى

التمكن من تلينه بالبريق الذهبى أو الأحمر أو الأخضر أو الزيتونى ·· كبديل لاستعمال معدنى الذهب والفضة ·

٢ ـ تمثلت مثالية الفنان المسلم فى حل هذه المعادلة فى أسـلوبه فى زخرفة زخرفة المحراب المصنوع بخامات الخشب أو الصلصال المزجج أو الجص ·· وهى خامات زهيدة الثمن ·

« الجدير بالذكر أنه كان باستطاعة المسلمين ـ وبخاصة فى فترات الازدهار ـ حيث كانت تتدفق عليهم الأموال من كل مكان ·· ان يستعملوا فى زخرفة المقاصير الذهب والفضة مع ترصيعها بالأحجار الكريمة » ·

٤ ـ المدارس المعمارية الاسلامية (٢) :

(أ) العصر الأموى : (٤١ ـ ١٣٢ هـ) ـ (٦٦١ ـ ٧٥٠ م)

وفيه تطورت عمارة المساجد تطورا عظيما أتضح أيام حكم « عبـد الملك بن مروان » وازدهر فى عهد خلفه « الوليد بن عبد الملك » · وقد شيدت فى هذا العصر عدة مساجد ما زالت موجودة حتى الآن منها :

- مسجدى « قبة الصخرة » و « المسجد الأقصى » ببيت المقدس ·
- الجامع الأموى بدمشق ·
- جامع عقبـة بالقيروان ·
- جامع الزيتونة فىتونس ·

ولقد استحدث استعمال المآذن فى العصر الأموى · ويقال ان معاوية بن أبى سفيان قد أمر فى عام ٦٦٣ م « مسلمة » واليه على مصر بتشييد « أربع صوامع » لمناداة على الصلاة فى أركان جامع عمر بن العاص · كذلك أدخل بنو أمية استعمال « المحراب المجوف » والمنبر ·· كما يقـال أن معاوية كان أول من شـيدت له « المقصورة » ·

يقول ابن خلدون فى مقدمه :

المقصورة : « أول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان حين طعنـه الخارجى ، والقصة معروفة ، وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى · ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما » · ويقول أيضا :

« بعد أن أخذ عمرو بن العاص « المنبر » بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب اليه عمر : « أما بعد ·· فقد بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين ·· أو ما يكفيك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك ·· فعزمت عليك الا ما كسرته » ·

(ب) العصر العباسى :

(١٣٢ ــ ٤٤٧ هـ) ــ (٧٥٠ ــ ٥٥

وقد تميزت عمارة المساجد فيه عن العصر الأموى باستبدال الأعمدة الحجرية ــ التى كانت مستعملة من قبل ــ بدعامات تحمل السقف مشيدة بالآجر ، وغالبــا ما يتم تزويد هذه الدعائم بأعمدة متصلة بها من الجانبين ، كذلك استغنى عن القبة وكانت المآذن تقام خارج المساجد .

ومن المساجد فى هذا العصر :

- مسجد « السمراء » شيدت المعتصم عام ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) بشمال بغداد .
- مسجد : أبو دلف » وبناه المتوكل فى المدة من ٢٣٢ ــ ٢٣٧ هـ .
- جامع « ابن طولون » فى مصر .
- جامع « نايين » فى ايران (بالقرب من مدينة « يزد » . ويمكن القول ان فيه ظهر « الايوان » لأول مرة ثم توالى انتشاره بعد ذلك .

(جـ) العصر الأموى فى الأندلس : (١٣٨ ــ ٤٢٢ هـ) ــ (٧٥٦ ــ ١٠٢١ م)

ويعتبر جامع مدينة قرطبة الكبير ، الذى بناه عبد الرحمن الأول عام ١٦٩ / ١٧٠ هـ ، هو السمة المعمارية المميزة للعصر الأموى فى الأندلس ، كما يعتبر هذا المسجد ــ بعد مسجد السمراء ــ أكبر جامع اسلامى . ولقد كان تصميم هذا المسجد متأثرا ــ الى حد كبير ــ بتصميم المسجد الأموى بدمشق .. لكنه خضع لعدة تحسينات وزيادات أخرجته عن التصميم المحورى للمسجد الأموى .

هذا .. وجامع قرطبة ــ أحد العلامات المعمارية الاسلامية الهامة يتميز بعدة جوانب منها :

ارتفاع مئذنته الى ٣٣ مترا .

تنقسم مساحة المسجد الى ١٩ صحنا كبيرا و ٣٨ ساحة عريضة .

● فى الوجه الجنوبى للجامع ــ المواجهة للوادى الكبير ــ ١٩ بابا مصفحا بصــــفائح وألواح برونزية عجيبة الصنع .. أما الباب الأوســــط فقد زين بألواح وصفائح من الذهب الخالص .. الى جانب تسعة ابواب فى الجهة الشرقية والجهة الغــــربية .

● تتمثل عبقرية الفنان المسلم فى أنه استطاع تحميل سقف المسجد ــ والذى يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار ــ على أعمدة رفيعة لا يزيد قطرها عن ٢٥ سم .. وتتضح

حدة المقارنة اذا عرفنا أن مهندس كنيسة نوتردام بفرنسا قد رفع سقفها ، الذى يقترب ارتفاعه من سقف جامع قرطبة ٠٠ ولكن على أعمدة من الحجر يبلغ أطر الواحد منها أربعة أمتار ٠

(د) العصر الفاطمى : (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ـ (٩٦٩ ـ ١١٧١ م)

وكان طراز عمارة المساجد فى العصر الفاطمى مزج من الأســلوب الطولونى والعمارة المغربية التى كانت خطوطها واضـــحة فى شمالى افريقيـــا ٠ كذلك عنى الفاطميون بواجهات المساجد كما يتضح ذلك من واجهة جامع المهدية وبوابته الفخمة٠
ومن أشهر المساجد التى أقميت على الطراز الفاطمى فى مصر آنذاك :

ـــ الجـامع الأزهر

ـــ جامع الحاكم بأمر الله (ويتميز ببروز مدخله الرئيسى عن الواجهة بمقدار ستة أمتار وتلك ظاهرة معمارية تظهر لأول مرة فى مصر بعد نقلها عن مسجد المهدية)٠

ـــ مسجد الأقمر ومسجد الجيوشى ومسجد الصالح طلائع٠

(هـ) العصر السلجوقى : (٤٤٧ ـ ٥٥٣ هـ) ـ (١٠٥٥ ـ ١١٥٧ م)

ـــ فى ايران :

وتتميزعمارة المساجد آنذاك بوجود ايوان عال مقبب يتوسط دعائم واجهة كل ضلع من أضلاع الصحن المكشوف ٠٠ كما ظهر بالواجهة طابقان ٠٠ ويتميز ايوان القبلة بزيادة اتساعه عن بقية الايوانات الثلاثة ، كذلك ازداد ارتفاع المئذنة ٠٠ ومن مساجد تلك الفترة :

ـــ مسجد الجمعة بمدينة أصفهان ٠

ـــ مسجد الجمعة فى قزوين ٠

ـــ مسجد جليايإجان وسفارية وأردستان ٠

● فى تركيـــا :

ويتضح من مساجد تلك الفترة أن سلاجقة تركيا لم يأخذوا بطراز المسجد ذى الايوان والصحن المكشوف المعروف فى ايران ٠٠ فقد خلت مساجدهم من الصحن واعتمد تصميمها على بهو للصلاة مغطى ومتعدد الاروقة تظهر به دعائم منتظمة ٠ وقد يعلو رواق القبلة أكثر من قبة وأشهر مساجدهم :

ـــ جامع علاء الدين فى قونية ٠
ـــ الجامع الكبير فى ويفرجى ٠

ـــ **أتابكة السلاجقة : (١١٢٧ ـ ١٢٧٢ م)**

اتسمت عمارة المساجد فى عصر آل زنكى فى سوريا ، بالمحافظة على تصميم الجامع المستطيل الذى تتفتح أروقته على الصحن المكشوف ٠٠ ولا يوجد فى هـــذا النموذج قبة لعدم وجود رواق قاطع لرواق القبلة ٠ ولم يعثر ـ من بين مساجد هذه الفترة ـ الا على مسجد واحد له قبة وهو جامع مدرسة ركن الدين بدمشق (٦٢١ هـ ـ ١٢٢٤ م) ٠٠ ومن مساجد تلك الفترة :

ـــ جامع حلب ٠
ـــ الجامع الكبير ـ الموصل بالعراق ٠

(و) العصر الأيوبى فى مصر وســـوريا
(٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ) ـ (١١٧١ ـ ١٢٥٠ م)

لم يخلف لنا العصر الأيوبى آثار معمارية كثيرة ، وسبب ذلك انشغالهم بالحياة العسكرية والاستعداد للحروب وخوضها ٠ لكنهم صرفوا اهتمامهم الى انشاء المدارس التى بلغ عددها ١٣ مدرسة (عام ٦٠٣ هـ) والتى كان تصميمها يشبه تصـــــميم المساجد ٠ وأشهر مساجد تلك الفترة هو المسجد الكبير الملحق بقلعة صلاح الدين بالقـــاهرة ٠

(ز) المغول فى ايران :
(٦١٥ ـ ٧٣٥ هـ) ـ (١٢١٨ ـ ١٣٣٤ م)

وقد تميزت عمارتهم الدينية بعدم الخروج كثيرا عن طراز جامع اصفهان ٠٠ الا أن التغيير لديهم قد اقتصر على محاولة تدريجية لاستطالة العناصر الزخرفية ٠٠ الأمر الذى أكسب المبانى أناقة واتزانا ٠٠ بالاضافة الى فخامة الداخل والمآذن ٠٠ ومن مســـاجدهم :

ـــ جامع تبريز ـ ايران ٠
ـــ الجامع الأزرق بتبريز ٠

(ح) الفن المغربى الاسبانى :
(٤٢٥ ـ ٨٩٧ هـ) ـ (١٠٢١ ـ ١٤٩٢ م)

وهنا تجدر ملاحظة أن المساجد لم تتأثر مهارتها بالطـــراز المعمـــارى السابق الاشارة اليها ، بل ظل تخطيط المسجد علعى نفس الطراز العربى الذى كان معروفا من قبل فى القيروان وقرطبة ·· ومن أشهر مساجد مراكش فى تلك الفترة :

— جامعا تلمسان والكتيبة ·

أما فى الأندلس فقد تأثرت عمارة المسجد بالنمط المغربى ومن أشهر مساجدهم :

— مسجد طليطلة ·
— المسجد الجامع بالمرية ·
— المسجد الجامع فى أشبيليه والمعروف باسم (لاجيرالده) ·

(ط) العصر المملوكى :
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) ـ (١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)

وقد نشطت حركة عمارة المساجد فى تلك الفترة فى مصر أيام الســـلطان ·· « الظاهر ببيرس » ·· ورغم أن المساجد فى تلك الفترة قد اخـــذت ببعض العناصر المعمارية الأجنبية الا أن تخطيطها ـ عموما ـ لم يبتعد كثيرا عن التصميمات القديمة التى عرفت فى مســـجدى ابن طولون (الدولة العباســـية) والحاكم بأمر الله (الفاطميون) وأشهر المساجد :

— مسجد الظاهر بيبرس ـ القاهرة ·
— مسجد قايتباى ـ القاهرة ·
— جامع السلطان حسن ـ القاهرة ·

(ى) العصر الصفوى بايران :
(٩٠٧ ـ ١١٣٥ هـ) ـ (١٥٠٢ ـ ١٧٢٢ م)

وتعتبر مساجدهم امتداد للمدارس المعمـــارية الايوانية الســـابقة ··· ومن مســـاجدهم :

— مســـجد الشاه ـ أصفهان ·
— مسجد الشيخ لطف الله ·

(ك) العصر العثمانى :
(٦٨٠ ـ ١١٣٤ هـ) ـ (١٢٨١ ـ ١٧٣٠ م)

وتعتبر طرز المساجد فى عصرهم حلقة اتصال بين الطراز السلجوقى القديم

والطراز العثمانى الجديد الذى ظهر بعد فتح القسطنطينية · بعد ذلك تأثرت عمارة المساجد بالعمارة البيزنطية بالقسطنطينية وأوضح مثال لها هو جامع « ايا صوفيا » الذى كان كنيسة بناها الامبراطور الرومانى « جوستنيان » ومن أهم مساجد ذلك الطراز :

- جامع ايا صوفيا باسطنبول ·
- مسجد السلطان بايزيد الثانى ·
- جامع سليمية بادرنة ·
- جامع السلطان أحمد الأول باسطنبول ·
- جامع سليمانية باسطنبول ·
- جامع محمد على بالقاهرة ·

(ل) عمارة المساجد بالهند :

(٩٣٣ ـ ١٢٧٤ هـ) ـ (١٥٢٦ ـ ١٨٥٧ م)

تحولت بعض المعابد الهندية ـ على أيدى المسلمين ـ الى مساجد ، ولذلك ظلت الخطوط المعمارية الهندية واضحة فى المساجد والابنية التى شيدت خلال العصر الاسلامى الأول هناك ·

ولعل أوضح مثال وأقدم اثر ، للعمارة الهندية للمساجد هو مسجد « قوة الاسلام » الذى شيده قطب الدين أيبك عام ٥٩٠ هـ (١١٩٢ م) ومن أشهر مساجد المعمار الهندى :

- مسجد جامع مدينة جاونبور ·
- مسجد اللؤلؤة ، الملحق بقلعة « شاه جاهان » بمدينة اجرا ·

⊛ عمارة المساجد ·· ماذا تعنى ؟

من هذا الاستعراض السريع للمدارس المعمارية الاسلامية على امتداد تاريخ الاسلام · وامتداد رقعته التى كان خضوعها ـ على امتداد السنين ـ لعامل الجزر أكثر منه للمد ·· يتضح لنا عددا من النقاط التى لا تخلو من دلالة ·· والتى تدعونا الى شحذ الهمم والعمل الفورى أكثر من اثارتها لجانب التأمل والأسف :

١ ـ ان المسجد كان ، أول ما يبدأ بالتفكير فيه اوقامته والاهتمام به مع بناء كل مدينة جديدة ·

٢ ـ ان المسجد كان يحظى الرعاية والاهتمام ، والانفاق ، فوق ما كان بنساءه غير ذلك من مرافق الدولة ·

٣ ـ ذلك يجسد مدى تواجد الحاسة الدينية والنزعة العقيدية فى أذهان المسلمين آنذاك ·

قضـية اليوم ··· ومسئولية الحاضر :

قد يقول البعض ان الدول الاسلامية ترفع مع كل يوم مئذنة مسجد جـــديد ، وترصد الميزانيات الكبيرة لهذا الهدف ·

هذا صحيح ·· ولكن قضيتنا هى أن المسجد لم يكن فى يوم من الأيام فن عمارة ورسوم وزخارف ومساحات ، وجدران ترفع وأعمدة تقام وحسب ·· بل انه دائما مركز اشعاع دينى وثقافى واجتماعى ، وكان منارة علم وفن وحرب ·· وكان محـل ميلاد فكر ·· وتربية أجيال ·· ومدرسة مجتمع ·· كان المسجد كل هذا ·· كان « مقر الحكومة » و « مجتمع الدولة » ·

واذا كانت المساجد قد تطورت ·· والمؤسسات قد أقيمت ·· والسلطات قـــد حددت ووضعت بين كل منها الحواجز والفواصل ·· الأمر الذى صحبه ـ فى الوقت ذاته ـ استقلال فى المبانى والمواقع ·· فان المسجد ، حسب هذا التطور ، لا بد أن يكون له دور جديد ·· دور يساند الانسان المسلم المعاصر فى صراعه ضد مبادىء المادة والالحاد ·· تلك هى التى استشرى ضررها خلال الأونة الأخيرة ·

لا بد أن يكون المسجد للمسلم : مصلى ·· ومنتدى ·· ومأوى ·· ومهربا ·· مهربا يلوذ اليه كلما ضاقت به سبل الكفاح ضد سموم الفكر المعاصر ·

وفى تصميم المساجد المعاصرة لا بد أن تراعى تغطيتها للخدمات التالية :

- روضة أطفال ينشأون فيها على علوم الدين وحفظ القرآن الكريم ·
- قاعة للمحاضرات ·
- مكتبة اسلامية وأخرى عامة ·
- سكن لامام المسجد ومؤذنه وخادمه ·
- مدارس وفصول التقوية للطلاب ·

تلك اقتراحات طرحت على كافة وسائل الاعلام ، ونادى بها علماء المسلمين فى كافة أقطار الاسلام ·

وهى ليست رفاهية فكرية يفاخر بها أصحابها ، كما أنها ـ وبنفس المقياس ـ ليست بذخا فى انفاق ، أو امعانا فى زخرفة ، أو تماديا فى أساليب معمار ·· فقط هى استجابة عصرية لدور « بيوت الله » لقوله تعالى (فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) ·· الآية ـ ثم هى خروج بالمسجد عن رسالته المعاصرة المحدودة التى كادت أن تقتصر على أداء الصلوات الخمس والجمعة والعيـــدين والاستسقاء والخسوف ·· والكسوف ··

الاسلام والتحدى :

ثمـــة نقطة اخرى ••

ان العالم كله – وخصوصا اصحاب المبادىء الهدامة كالشيوعية والماسونية والقديانية •• الخ وغيرها ، يرون انهم لن يتمكنوا من اقطار الاسلام ما ظل الاسلام حيا فى أفئدة شعوبها •

وفى مواجهة ذلك •• ليس امامنا غير ان يكون نهجنا على دربين :

— تكثيف الدعوة الاسلامية فى الاقطار غير الاسلامية •

— ترشيد وتطوير رسالة المسجد حسب التصور المعاصر لها •

فى هذه الحدود أنشئت مؤسسات اسلامية عدة لخدمة أهداف الاسلام والدعوة لبادئه وفى طليعتها :

— رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة •

— المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة ، والذى عقد لأول مرة بالمدينة المنورة فى المدة من ٢٤ – ١٣٩٧/٢/٢٩ هـ (١٢ – ١٩٧٧/٢/١٧ م) •

— مؤتمر رسالة المسجد الذى عقد لأول مرة بمكة المكرمة فى المدة من ١٥ – ١٣٩٥/٩/٢٠ هـ (٢٠ – ١٩٧٥/٩/٢٥ م) •

أيضا – اقيمت « مراكز اسلامية » وهو تعبير نعتقد انه طرحه كان اكثر توفيقا وواقعية منه لو قلنا انها « مساجد » •

المراكز الاسلامية فى أوربا :

أقيمت مراكز اسلامية فى كل من لندن – زيوريخ – جنيف – همبورج – أما المركز الاسلامى الخامس فهو فى « فيينا » ويعتبر أول مسجد يسمح باقامة مئذنة به ، وعلى ارتفاع ٣٢ مترا •• أما مساحته فتبلغ ثمانية الاف متر مربع ، وفى حـــديقة الأمم المتحدة بشارع هوبرتس فى فيينا بالنمسا •

أما ايطاليا •• فقد اهدت حكومتها قطعة ارض لاقامة مركز الاسلامية عليها •• وتشكل للمشروع مجلس ادارة برياسة الشافعى عبد الحميـــد ، السفير المصرى وعضوية سفراء كل من المملكة العربية السعودية والسودان والعراق وعمان والكويت والأردن وليبيا واندونيسيا وافغانستان وتونس وباكستان وروما •

آخر مركز اسلامى هو ذلك الذى قام بافتتاحه جلالة الملك خالد ابن عبد العزيز حفظه الله والملك بدوان ملك بلجيكا فى مدينة بروكسل يوم ١٣٩٨/٦/٢ك هـ الموافق ١٩٧٨/٥/٩ م •

● **في كنـــدا :**

تبرع المسلمون في اوتاوا عاصـمة كندا بمبلغ ٢٠٠ ألف دولار لاقامة مسـجد تحت اشراف الجمعية الاسلامية هناك ٠

● **وفي دبئة الأمم المتحدة :**

أوصى المؤتمر العالمى الأول لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة ، الذى افتتح بالمدينة المنورة يوم ١٣٩٧/٢/٢٤ هـ الموافق ١٩٧٧/٢/١٢ بانشاء مسجد بمبنى الأمم المتحدة فى نيويورك ٠

ماذا بعد المراكز الاسلامية :

وعود الى الحديث النبوى الشريف : « من أشراط الساعة ، التباهى بالمساجد »٠

اننا نعلم جميعا أن اسلامنا الحنيف لم يكن ـ بامتداد تاريخه الطويل المجيد ـ بحاجة الى بذل الجهد وتعميق الجذور أكثر منه فى عصرنا الحاضر هذا ٠

ونعلم أيضا ـ كما سبق أن قدمنا ـ أن المساجد لم تكن أبدا غاية فى حـــد ذاتها ٠٠ بل اقترن المسجد دائما ـ منذ وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ اللبنة الأولى فى مسجد قباء بالمدينة المنورة ٠٠ اقترن المسجد دائما برسالته ٠

وهذه المراكز الاسلامية التى ترتفع مآذنها فى سماء عالم غير الاسلام اليوم٠٠ سوف تقيم رسالتها على أسس ثلاثة :

ـــ مباشرة واعية ورشيدة لشعائر الاسلام ٠٠ (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) ٠

ـــ أساليب واعية للدعوة الاســـلامية : (ادع الى ســـبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة) ٠

ـــ ثم تكريس العاملين بها لهدف واحد أمام أعينهم الا وهو نصرة الدين ونبذ ما دون ذلك (ومن أحســـن قولا ممن دعا الى الله وعمل صـــالحا وقال اننى من المسلمين) ٠

● بينما كانت الدولة الساسانية فى فارس ودولة الروم الشرقية فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط قد تدلاهما الضعف الشديد وفى طريقهما الى الزوال، بزغ فجر جديد بظهور دولة العرب الشابة الفتية بنشر بدين جديد ورسالة جـديدة لوءاها سيدنا محمد بن عبد الله · فأخـذت هذه الدولة تنشر لوءاهـا على الأمم والأنصار فدانت لها شعوب كثيرة ، وانضم تحت لوائها أمم تسعى الى الهـدى ، وتملت هذه الدولة الاسلامية ووسعت أطرافها فى مدة وجيزة من عمر الزمن بحضارة من نوع جديد فريد من نوع جديد فريد ، عظيمة فائقة تسندها رسـالة محمد أول المرسلين وخاتم النبيين ·

وكان لمنزل الوحى وانبثاق نور الاسلام أن ظهر هذا الفن العربى الاسلامى فريدا فى نوعه · مؤيدا بروح خاصة من عنده ، جعلته مميزا وغريبا عن غيره من الطرز التاريخية التى سبقته . كما كان لحياة العرب أنفسهم فى الصحراء والبادية ونشيدهم للحب والتسامح والحرية ، وتغنيهم بالشعر وحبهم للجمال تأثير كبير على الفن الاسلامى والعمارة الاسلامية · حيث اتسمت بالبساطة والجمال ومن الطبيعى كان على العرب أن يستعينوا بخبرة الفنانين والمعماريين فى البلاد التى خضعت لهم· ونشأ من اختلاط العرب بهذه الأمم فنون متشابهة فى جملتها وتنوعت وفق مجـال كل بلد قامت فيه ، كما تأثرت عمارة العرب اولى بفارس وبيزنطة وفى كل بلد فتحوه بعوامل أخرى محلية وبنوع الحياة فيها · فليس اذن اطلاق التسمية « العمـارة العربية » على هذا النحو بصحيح للمعنى الحقيقى ، وخاصة اذا ما أخذ فى الاعتبار أن لم يكن للعرب أنفسهم تأثير على نشر هذا الطراز مثل ما كن لدعوة الاسلام من تأثير غير مباشر فيه ، وخاصة تأييد التأثير الذى أوحى به نداء الاسـلام وحرمته لعبادة الأوثان وكرهه تقليدها ونهيه عن البذخ · وعلى ذلك نرى ان اطلاق « العمارة الاسلامية » علم على هذه العمارة أحق وأنسب تسمية لها ·

● وقد ازدهرت مدنية العرب وانتشرت حضارتهم بفتحهم البلاد فى المشرق والمغرب وكانت « العمارة » أعظم مظاهر هذه الحضارة وذلك التقديم بما شـيده الخلفاء وما اقاموه من مدن ومساجد وقصور وحدائق وقلاع وحصون وأسوار ··· وكان الفن الاسلامى من أبدع وأدق وأروع الأمثلة الذى سار جنبا الى جنب مع العمارة الاسلامية فى المساجد والقصور مثل قصر أشبيلية وقصر الحمراء بغرناطة وأعمدة هرقل فى الأندلس وغير ذلك من الروائع والتحف والآثار التى سيأتى شرحها

بالتفصيل فيما بعد ...... وعلى ذلك يحق لنا أن نقول ان الاهتمام بالعمارة العربية الاسلامية معناه الاهتمام بالماضى ليمكننا من توجيه الحاضر الى المستقبل السليم . ان ما بناه العرب وما خلدوه من أمثلة رائعة فى مصر فى القرن الثامن عشر تعتبر فترات مميزة وخالدة فى تاريخ العمارة الاسلامية . ويعتبر القرن السابع بدء تكون الحضارة الاسلامية فى مصر ، ويعتبر القرن الثامن عشر أعظم فترة من فترات الازدهار لهذه الحضارة والتى أخذت بعدها فى الأنهيار نتيجة تدخل الأتراك فى الحكم وفى جميع مرافق الحياة المصرية .

● فمساكن مدينة الفسطاط مثلا فى القرن السابع نستشف منها أنه كان هناك ارتباط وثيق بين الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى من ناحية ، وفى الرغبة والاستقرار من ناحية أخرى . على غير ما قيل أن العرب فى الأصل كانوا قبائل رحل وساكنى خيام ، فقد حدث عند غزو عمرو بن العاص لمصر عام ٦٤١ م أن أمر ليلة وصله الى فسطاط بتخطيط المدينة ، ويقول المقريزى عن عمر بن العاص ...... بظهور فجر اليوم التالى لغزو المدينة كانت الفسطاط قد خططت وجـــزء كبير من الأساسات قد حفر ..... وسيأتى وصف ذلك تفصـــيلا فيما بعد بشرح مدينة الفسطاط فى الجزء الثالث من تاريخ العمارة والفنون الاسلامية .

ولكى يتتبع الباحث التطورات التى مرت بالعمارة العربية الاسلامية ، والحقائق التى كان لها أكبر الأثر فى تكوين الطراز العربى الاسلامى ، الذى تركز وأخذ طابعا خاصا به فريدا فى نوعه ، وخاصة فى منتصف القرن السابع الميلادى بعـــد وفاة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام عام ٦٣٢ م ، وبعد أن انتشر الدين الاسلامى من المشرق للمغرب ، فغزا الخلفاء البلاد المتاخمة لأرض كنانة وغزوا الشام والعراق وفلسطين ومصر ، وفتحت أمامهم كنوز الفنون البيزنطية والرومانية والفارســـية والمصرية ، واقتبسوا من تلك الفنون مالاءمهم ، ولذا أخذ الطراز العربى يحدد مكانه ويأخذ مكانته . ولقد تحولت بعض الكنائس الى مساجد وخاصة فى الشمال ، وزودت هذه الكنائس بانشاء قبلة تواجه مكة المكرمة ، وأنشئت المساجد فى الكوفة والبصرة وغيرها من الأقطار الاسلامية .

● ومما هو جدير بالذكر ، أن نشير الى العمارة الاسلامية فى مصر وسوريا فى ذلك الحين أيام أن كانت دمشق عاصمة دولة الأموية حيث نجد أن أهم آثارها قبة الصخرة فى بيت المقدس التى بناها عبد الملك بن مروان عـام ٦٨٨ م الجامع الجامع الأموى بدمشق عام ٧٠٥ م اقامه الوليد بن عبد الملك ، حيث تفنن كل منهما فى كساء الحوائط الداخلية والخارجية بالنقوش البديعة والألوان الزاهية الرائعة

ببلاط القيشانى أو الفسيسفاء ـ الكاش الفرفورى ـ كما يسمى فى العراق ٠ وفى عهد الدولة الطولونية بعد ذلك تفوق المصريون أيام أحمد بن طولون فى هذا المضمار وكان مسجده العالمى المشهور أكبر دليل على هذا التقدم ٠

وقد ترك الفاطميون بمصر كثيرا من المساجد وغيرها من التحف الفنية النادرة، حيث كان عصرهم من عصور الاسلام الذهبية كما هو عصر للنهضة بالعمارة الاسلامية ٠ ومن آثارهم الخالدة جامع الأزهر الشريف الذى يعتبر أقدم جامعة اسلامية فى العالم ٠ أما المماليك فجعلوا من القاهرة مدينة السحر والخيال ، حتى وصفت القاهرة حينذاك بأنها أكبر متحف يحوى أكثر عدد من الآثار الاسلامية ، وأعظم مبانيهم « جامع السلطان حسن » بجوار القلعة « وجامع قايتباى » الذى يلقب بالدرة اليتمية فى العمارة الاسلامية وسيأتى شرح هذه العصور بالتفصيل فيما بعد ٠٠ وفى عام ٧٥٠ م حدث انقلاب تاريخى عظيم الأثر وهو زوال الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية التى أنشأها المنصور عام ٧٦٢ م ، حين اتخذ بغداد عاصمة الملك ومقرا للخلافة ٠ ويشبه هذا الانقلاب انتقال العاصمة الرومانية الى القسطنطينية ، وعلى ذلك زال التأثير البيزنطى عن العمارة الاسلامية وحل محله التأثير الفارسى ٠ فى ذلك العصر بنى مسجد بغداد كما أدخل على الطراز العربى العقد المخموس وأعمال الفسيفساء ٠

المسجد والبيئة :

THE MOSQUE & THE ENVIRNMENT

منذ ظهور الاسلام وبعثة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام والمسجد هو مركز التقاء مجتمع المسلمين على التآلف والتعاطف والتآخى فى وحدة الصف أمام رب العالمين ٠٠ لذلك فان نوان التخطيط فىأى عصر مضى كانالمسجد أولا وأخيرا ٠ كان مسجالرسول عليه الصلاة والسلام ، مكانا لتلاقى الصحابة من مهاجرين وأنصار وبه آخذ الرسول عليه الصلاة والسلام فى جمع شمل المؤمنين وفى المسجد نفسه أقام المهاجرون وهذا واضح فى المسجد كان مأوى وملجأ لكل مهاجر ومكانا للتشاور فى جميع أمور المسلمين والتعرف على أحوالهم ٠

وبالتالى فلقد تأثر العمران منذ ذلك الحين بالمسجد تأثر به فى تحديد مراكز الحكم ومنها ٠ كل ما يتصل بالحكم من بيت المال وأمور عسكرية واجتماعية كالمحاكم

المسجد والبيئة : بحث للمهندس عبد العزيز أبا الخيل
مجلة البناء السعودية ـ عدد خاص عن المساجد

والمنابر . ولقد اتصلت دور الامارة فى مدن ما بين النهرين والأندلس والمغـــرب وتلاصقت كليا بالمسجد علامة على مدى تأثر المدن فى شكلها بموقع المسجد .

(+) وان أمثالا لهذا التخطيط تكثر فى تاريخ المسلمين منها مسجدا ابن طولون بالقاهرة ومسجدا المنصور ببغداد والكوفة ... ولكن أهم ما أخذ فى الاعتبار بالنسبة لموقع المسجد كان سهولة الوصول اليه فى كل وقت علاوة على مواقيت الصلاة .

فلقد كان المسجد محورا لكافة نشاطات المسلمين من التفكير فى علوم الدين وجمع شمل المفكرين وتدوين الاختراعات العلمية بأنواعها من فلك وطب وجبر ومقابلة ولوغاريتمات . وحيث أن المسجد أصبح مركزا لتجمع المسلمين فى كافة ساعات النهار والليل فان التجارة بدورها أخذت تدور حول أروقة المساجد وتكونت حولها الساحات والميادين .

أما بالنسبة للنسيج العمرانى فلقد تكرر بدوره فى دوران حول المسجد ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار المقياس الانسانى لطاقة التنقل بين المسجد والمساكن ومدى وصول صوت المآذن للنداء .

ومع امتداد العمران والتوسع فى كافة مدن الاسلام بات من الضرورة اقامة مساجد أخرى احتراما للمقياس الانسانى الأصيل . تنقل الرجـــل ما بين أهله فى مسكنه وما بين المساجد ومن ثم قضاء حاجاتهم فى مركز المدينة قبل وبعـــد أداء الصـــــلاة .

ولذلك اقترن بالمسجد على مر الزمان كل جديد فى حياة المسلمين منها المدارس والمتجار والأسواق بأنواعها حرصا على عدم ضياع وقت المسلمين وفوات الصلاة عليهم مع الجماعة بالمسجد وعلى طاعة رب العالمين فى ما جاء من الآيات والذكر الحكيم (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة) . وعليه فان كل التنظيم الاجتماعى كان أساسه المسجد وموقعه وعليه تنظيم المران وتخطيط أبعاده .

وحين نتكلم عن الموقع يتضح لنا أمران جذريان فى تاريخ وحاضر العمران ـ وهما أن تحديد المسجد فى كل زمان ومكان كان نابعا من البيئة ومكوناتها توفر الماء وصلاحية نوعية التربة لتأسيس دعائم البناء ... فالمادة والتربة اذا هى قواعـــد كل بناء وعلى ضوء ما تقدم يمكن الاستنتاج أن العمران الاسلامى كان منبعه المسجد،

فلقد أسس المسجد قواعد كل عمران من استراتيجية طبيعية (جيولوجيا) ودوافع استقرارية واقتصادية وزراعية وتجارية ومبادىء اجتماعية (مدارس) • ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من المدن القديمة والحديثة تحمل اسم مسجدها الأول علامة على منشئها وأساس عمرانها •

وبهذا فانه ينبغى على كل مخطط للمدن أن يأخذ فى عين الاعتبار دور المسجد فى تنظيم وتخطيط العمران ••• وأساس كل نسيج عمرانى اسلامى يجب أن يكون مقياس تنقل السكان من منازلهم الى المسجد وبالعكس • لذلك من المستحب أن يكون المسجد مركزا لكل حى ينفرد بخدمة الحى والاستجابة لكل مطالبه وتكون بهذا الشكل نوان عمرانية تتكرر وتتلاحق لتشكل المدن فى تخطيطها الاسلامى • ولبيان مفهوم النواة العمرانية التى يمركزها المسجد والخدمات التعليمية والطبية والتجارية يتحتم علينا تفصيل مفهومها •

النواة العمرانية هى : حى سكنى كامل يقع المسجد فى وسطه على مسافة متساوية من أطراف الحى • بحيث يسمع سكان أطراف الحى النداء للصلاة ويسهل عليهم الوصول على الأقدام فى وقت وجيز حتى لا تفوتهم اقامة الصلاة وهذا المقياس يكون أيضا نابعا من البيئة بحيث يؤخذ فى عين الاعتبار حين تحديد تلك المسافة أو بمعنى آخر هذا القطر يؤخذ بعين الاعتبار ما فى وسع السكان من السير فى ساعات النهار فى الصيف الحار •

ويؤخذ أيضا عرض الطرق واتجاهها بحيث توفر الظلال للمصلين فى أيام الصيف أثناء تنقلهم من المسكن الى المسجد ومفهوم الظل مقرون بزراعة الأشجار فى الطرقات والشوارع لهذا الغرض ولغرض التأثير على مناخ البيئة وتحسينه بأمر الله • ونعود الى تفصيل مفهوم النواة العمرانية من حيث تحديد أماكن الخدمات التعليمية (مدارس بأنواعها) والطبية (مستوصفات وصيدليات مثلا) والتجارية وهى احتياجات السكان الشاملة من غذاء ولباس وأثاث •• الخ ويكون المسجد فى مركز الحى ويحيط بالمسجد كافة المبانى التى تحتوى على الخدمات السابقة الذكر •

● المسجد ومدن اسلامية التخطيط :
MOSQUE & ISLAMIC PLANNED TOWNS

ولما توجهت جيوش المسلمين شمالا وشرقا وغربا وذلك فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وفتحت ممالك فارس وبيزنطة وغيرها ••• هنالك بدأت مراحل تنوع

طراز المسجد حسب بيئة البلاد المفتوحة · فالمعطيات التى تمثلها البيئة كانت ما توفره تلك المناطق من مواد بناء ومناخ متنوع من اقليم لاخر ويضاف اليها معطيات ثقافية وتاريخية تميز كل منطقة على حدة ·

ولذلك يتضح لنا أن أول المساجد التى ابتكرت تصميمها من أصــل معطيات مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة أولهما مساجد الكوفة والبصرة والفسطاط الى الشمال الشرقى بالعراق والشمال الغربى بمصر ·

أن مدينة الكوفة هى النموذج فى أصلها لما أراده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالنسبة لمساكن جيوش المسلمين فى فتوحاتهم · فلقد أوصاهم بالاقامة فى معسكرات والبقاء على أهبة الاستعداد بدلا من البقاء فى المدن التى فتحت بنصر الله وذلك لحرصه على سرعة حركة الجيوش · ولهذا فان التاريخ سجل نماذج لهذا العمران أهمها الكوفة والبصرة بالعراق والفسطاط بمصر ·

وتلك اذن مدن بعناصر اسلامية بحتة وأول عناصر تلك المدن أو بمعنى آخر تلك المعسكرات المسجد وأطراف ما يمكن ذكره هو طريقة بناء تلك المساجد بل تصميمها المعمارى · ولكنها للأسف قد تغيرت مع مر الزمان وانتهت صورتها الأصلية وتصميمها الأول · فلقد توسعت وتطورت بشكل جذرى وبقى لنا روايات علماء التاريخ الاسلامى (الطبرى مثلا) تحكى لنا شكلها وتروى لنا تصميمها حين خططها سعــد بن أبى وقاص أو عمر بن العاص ·

ويروى المؤرخون أن مسجد الكوفة قد اختط بطريقة فريدة فلقد القى أحــد الجنود رماحا أربعة الى القبلة والشمال والشرق والغرب حددت بها أضلاع المسجد كل ضلع طوله ضعفى الرمح ثم احيط هذا الموقع بخندق ولم يبن شىء آخر سوى الظلة ترفعها أعمدة وتمتد بطول الضلع الجنوبى حيث القبلة وأما عن الأعمدة فكانت من الرخام اقتطعت من مخلفات قصور البلاد المفتوحة بالحيرة كما ذكره الطبرى ··· لكن أطرف صفات هذا المسجد أن الظلة لم يكن لها جدران تحيط بها حتىأن المصلى اذا فرغ من الصلاة نظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وأمكنه الاطلاع بسهولة على محيط المسجد وما يدور حوله ، ولقد تغير هذا الوضع حين قام سعد بأمر من عمر رضى الله عنه بالصاق المسجد بدار الامارة وبها بيت المال وذلك لحراسته ·

ومهما يكن فان دتلك التصاميم قد أعطت لبناء المسجد منذ ذلك الوقت نموذجا

جديدا وطرازا نابعا من البيئة والتاريخ عناصر هذا الطراز الجديد هى الجمع بين دار الحاكم وبين المسجد والشكل المربع لهذا المسجد ٠٠

ولقد أعيد بناء هذا المسجد فى عهد زياد بن أبيه ٠٠٠ وأهم ما لاحظه المؤرخون أمثال ابن جبير هو ارتفاع أعمدته وعلى السقف وهنا يجدر الذكر ان تلك الأعمدة كانت تقريبا بارتفاع خمسة عشر مترا وعليه فان الطراز القديم أضيف اليه فى ذلك العهد ارتفاع سقف المسجد ومنه تأثرت مساجد جمة شمالا وشرقا فى بلاد فارس والهنـــــد ٠

لقد كان فتح مصر ممثلا ببناء أول مسجد بها ٠٠ بنى هذا المســـــجد بمدينة الفسطاط حيث عسكرت جيوش المسلمين ولقد سمى هذا المسجد كذلك مسجد عمرو ابن العاص حيث ؤنه كان ـ يقوم جحافل جيش الفتح ٠٠ وكان المسجد نموذجا لمسجد الرسول بالمدينة المنورة من حيث البساطة مع فارق أساسى هو انفراده ببناء مغطى وتخليه عن الفناء ٠ ولكن مادة ـ البناء تطابقت وكذلك الارتفاع ٠ ولكن الطراز الذى أخذ عن هذا المسجد هو تطوره واعادة ـ بنائه فى عهد معاوية على يد مسلمة حاكم مصر فى ذلك الزمن ٠٠ وأول ما أضيف للتصميم الأول علاوة على توسعته هو الفناء وأربع صوامع فى أركانه سميت بعدها مآذن ؤو منارات نسبة الى المســـــجد الأموى بدمشق وتأثرا به ٠

● عناصر المســـجد الأساسية :
THE BASIC MOSQUE ELEMENTS

ان تطوير بناء المسجد عبر العصور المتتالية من ظهور الاسلام الى يالمنا هــذا حافل بالأمثلة الرائعة لحرص المسلمين على تجســـيد عظمة عقيدتهم وتعلق قلوبهم بعبادتهم وطاعة الله ٠ ومنذ بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ المسجد يكون عنصرا أساسيا لتخليد كل مناسبة فى تاريخ الاسلام ٠ أولها المسجد الحـــرام ويليه مسجد قباء ثم مسجد المدينة ٠ فالأول ينطبق ويعبر عن مركز انطلاق دعوة الحــق رحمة للعالمين ٠

لذلك كان الحرم المكى مكونا من الكعبة الشريفة معبرا عن الجهات الأربعـــة البسيطة وموقفها مفتوحا الى السما لا يحول بينها حاجز ولا غطاء علامة على ارتباط العبد بمعبوده وتعلق قلبه الى أعلى ٠

ومع بناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة بدأ التاريخ يسجل المثال الخالد لبساطة البناء وانطباعه على بيئته وتعبيره عن مثل الاسلام الخالدة واندماج تصميمه مع العقيدة • فالبناء صريح وواضحة أطرافه ••• لا طلاســـم ولا زوايا معقدة أو مداخل محصنة • أما بالنسبة لمادة البناء فلقد نبعت من البيئة المباشرة للمدينة المنورة الا وهى خشب النخيل والطين ••• وفيما يخص التصميم الأصلى فانه فناء مفتوح أجزاء منه مغطاة لا محراب ولا مئذنة ولا منبر ••• وحتى مسجد قباء الذى بنى قبل المسجد النبوى فانه يلتقى فى تصميمه مع بساطة المسجد النبوى ••• النور والظل مجسمان فى فناء ومظلة عناصره الأساسية حتى وأن تكررت المظلة لأسباب تحويل القبلة •• وعلى ضوء ما تقدم فان عناصر المسجد قد تأسست فى المدينة المنورة على يد رسول الله عليه أفضل الصلاة والســـلام • وهى عناصر معمارية للتصميم الفناء أو الصحن مفتوح والرواق أو المظلة للصلاة وأخرى لايواء المهاجرين (أهل الظلة) الأولى الى الشمال والثانية الى الجنوب الغربى تلحقهـــا وسائل التنفيذ الانشائية الأساسية للبناء •• الأعمدة ••• وكأنها فى تكرارها تعبير العبد عن عجزه أمام عظمة الخالق الذى (رفع السماء بغير عمد ترونها) •

ولما جاء نصر الله والفتح انطلق المسلمون الى مشارق الأرض ومغاربها راية الاسلام خفاقة فى أيديهم ومرفوعة فوق رؤوس شعوب الأرض وهناك بدأت شعوب الأرض (بيزنطية فارسية ـ هندية ••• الخ) تتجدد بحضارة الاســـــلام وتخضع عناصرها لمطالبة وتتطور وتلبس حلة التوحيد وتخـــــرج الى النور بفضل الهدى ودين الحق • وفى كل مناسبة فتح أو قيام دولة اسلامية وانتصار أى جيش من جيوش المسلمين فى كل مناسبة كان المسجد المعنى الأول لتخليدها •

المسجد ••• فى بيئة الحضارات المسخرة للاسلام :

وأول مثال لتلك المناسبات هو المسجد الأقصى الذى سجل فتح بيت المقدس وصلاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى جوار الصخرة •• وعلى هذا الموقع قام الأمويون ببناء المسجد الأقصى كما قاموا بتغطية الصخرة وكلاهما تطور فى عهد العباسيين ولكن التصميم فى كلتا الدولتين أعطى للمسجد عنصرا جديدا الا وهو القبة التى أدخل طرازها الى شكل المسجد منذ ذلك العصر ولكن المؤثر الأول على هذا التصميم كان منبعه البيئة أراد الأمويون التفوق فى البناء على مخلفات الوثنية فى بيت المقدس على مقربة من موقع المسجد الأقصى (كنيسة القيامة) لذلك كان الابتكار وليد البيئة••

ولقد تردد صدى هذا الابتكار فى كثير من المساجد التى انشئت من بعد هو تغطية الصحن بالقبة واتساع الرواق نفسه بالأعمدة بشكل يجعل الصحن شبه نادر أو غير وارد ٠

وهذا التناقض مع طراز مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة ليس خروجا عن الدين أو تغييرا فيه ولكن البيئة ومكوناتها من مناخ وأشجار وصخور متوفرة للبناء أوجدت الدافع الى خدمة العقيدة والتعبير عنها فى الشكل المعمارى الجديد : القبة بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة نفذها العرب المسلمون بالخشب وبدافع من العلم والتفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف ليل ونهار بين المدينة والقدس ٠٠ جاء انطباق المسجد الأقصى على بيئته وموقعه وارتفعت القباب مذكرة بقبة السماء وقدرة الخالق فالأعمدة كذلك يعتبر امتدادها امتدادا للطراز الأول فى المدينة وتخليدا لذكراه ٠

أما عن التفسير الانشائى لاختلاف تصميم المسجد الأقصى عن مسجد المدينة فهو مادة البناء واختلافها من المدينة الى القدس ٠٠ فالخشب له مزايا ميكانيكية فى تحمله للشد والضغط وأمكن استعماله فى الامتداد الأفقى (كمرات) ولكن قلة استمرارية البيولوجية جعلت أصل استعماله فى المدينة مؤقتا ٠

ولكن الحجر المتوفر بالقدس وأى مكان له مزايا البقاء وقوة التحمل ضد عناصر البيئة المؤثرة من أمطار وتغيير درجات الحرارة من النهار الى الليل اما بالنسبة لتحمله الشد الميكانيكى فى أى عنصر انشائى فان استعماله لكمرة أفقية كان محدود الامتداد نظرا لوزنه ٠ وهنا يبدو واضحا أن نسبة قوة الضغط للحجر توازى عشرة أضعاف قوة الشد ٠ لذلك فان الشكل الدائرى كأقواس وقباب يلائم مواصفات الحجر الميكانيكا الانشائية ٠

القبة ــ قبة السماء ــ حركة الشمس قوس قزح نعمة المطر وخلاصة القول أن الخشب مادة استعمل مباشرة فى المدينة لسهولة تركيبه عندما ترسخ الاسلام ولم يخشى المسلمون بأستعماله أى عواقب ضدية ولكن الحجر استعمل كذلك لخدمة قوة الدين ضد أعدائه فى بلاد الفتوحات فالخشب مادة الاطمئنان والحجر مادة الردع وقوة التحمل اليس فى ذلك دروس لكل مهندس فى كل زمان ٠

ومن الجدير بالذكر أن الخشب كذلك مادة سريعة البناء وهذا ما فهمه العرب المسلمون حين نفذوا القباب بتلك المادة (قبة الصخرة مثلا) ٠

وعلى ضوء ما تقدم فان المساجد الســـابقة الذكر هى التى وضعت أساس التصميم المعمارى فى العالم الاسلامى وهذا التصميم كان نابعا من بيئة موقعه داخل البلاد المذكورة لذلك كان اختلاف تصميمه وطرازه من بلد الى آخر ٠

والدليل على ذلك أن الطراز الأموى قد اختلف بل وقد ابتكر شـــكله عناصر جديدة ٠ بينما الطراز العباسى جاء مطابقا لطراز المســجد النبوى بالمدينة المنورة والسبب واضح الاو هو اختلاف البيئة بالشام عنها بالمدينة المنورة وتشـــابه بيئة العراق ببيئة المدينة ٠

وهنا يستحسن سرى تأويل الشكل المعمارى تصميمه بالنسبة للبيئة ٠ أما فيما يخص الطراز الأموى وادخال القبة كعنصر أساسى فيه (قبة الصخرة مثلا) فأن أساس ابتكاره انشائى الا وهو تغطية أكبر مساحة بدون الحاجة الى أعمـــدة تحتها اللهم الا على أطراف مسقطها ولكن هناك مبرر نابع من البيئة وهو عدم تراكم مياه الامطار فوق الأسقف لهذا تكرر بناء هذا الطراز بشكل ملحوظ فى المناطق التى تكثر فيهـا الأمطار (الهند وفارس وتركيا وشمال وشرق آسيا عامة) وعند عجز شعوب تلك المناطق عن بناء قباب كبيرة الحجم لجأوا الى تكرار قباب صغيرة ... ولكن الطراز العباسى الذى كان مصدره البيئة الصحراوية الجافة فأن أسطح مســـاجده جاءت مستوية وكثرت هنالك الأعمدة وتكرر هذا الطراز منطقيا فى المناطق ذات البيئـــة المماثلة المناخ والمعطيات ٠

لذلك فأنه من الواجب احاطة كل مصمم معمارى لأى مسجد أن الطراز المرجو له هو ما ينبع من البيئة ويتلائم معها ٠٠ أما بالنسبة لبلادنا فأن أول ما يؤخذ فى عين الاعتبار تقليل المساحات المفتوحة بالنسبة لتلك المغطاة أو بمعنى آخر تقليل نسبة المساحة المخصصة للصحن ذلك لما تستلزم البيئة عندنا وكذلك تحسين بيئة الصحن بتوفير الظل مثلا فى أركانها ٠٠ وأما ما يمكن استنتاجه والتوجيه به بعد مراجعة تطوير المسجد منذ انشائه فهو أن على التصميم المعمارى أن يخـــدم فكرة الارتقاء بالمسجد الى مستوى يتلائم مع خشوع فى الصلاة والعبادة وأبعاد المصلين عن كل ما يزعجهم ويخل بصلاتهم من أصوات وأتربة ورياح كريهة وكل ما يجعل المصلى يحرج فى أداء هذا الركن العظيم من الاسلام ٠

فأجراء أى فتحات فى جدران المسجد يجب أن تكون للاضاءة فقط من اتجاه لا تزعجه حرارة الشمس أو عين متطفل بل يكون المصلون فى معزل عن ما يخل بأقامة

الصلاة والتركيز فى تلاوة كتاب الله والتفكير فى آياته ٠ والصحن يجب أن يكون مع مدخل المسجد نوعا من اعداد المصلى بماء الميضة والحمامات بل يسمو بأستعمال الماء والشكر على انزاله فى أشكال جميلة تليق بتلك النعمة فى شكل فوارة أو نافورة مثلا ٠٠٠ وليذكر المصممون جمال مساجد قرطبة بالأندلس واصفهان ببـــلاى فارس والعناية التى قدمها المسلمون لتشييد بيوت الله وحرصهم على تخليدها ٠

● المسجد وتطوير حضارات الأرض والابتكار المعمارى :

أن ظهور المآذن كعنصر فى تكوين المسجد كان سببه تاريخيا ودافعه استراتيجيا وفوائد عمرانية ٠٠ أما السبب فهو قيام المسجد الأموى على انقاض كنيسة بيزنطية احتفظ الوليد بن عبد الملك ببعض عناصرها هى الصحن المستطيل بتقديم غطاءه فيه قباء وأربعة أبراج أو صوامع مربعة القاعدة أستعمل أحداها للمراقبة وبرج آخر كان يستعمل لاشعال النار للانارة وحين أستدعت الحاجة فان البرج أصبح مئذنة ينطلق منها النداء حتى يلبى سكان دمشق المترامية الدعاء أما الدافع فهو بداية استعماله كبرج مراقبة فى بداية فتح عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية دمشق ٠٠ ومع استكمال الأمويين لسيادتهم على بقاية الامبراطورية البيزنطية أمتد العمران وطاب المقام وتوسع نسيج المدينة ظهرت عندها الفوائد العمرانية للمآذن ٠٠ ان المآذن شعار لخدمة المعطيات العمرانية لأى موقع ٠٠ ومن الطريف ذكره أن تلك المناسبة هى أصل استعمال أبراج بالمساجد سميت أولا صوامع لاستعمالها الأصلى ثم مآذن لاستعمالها للآذان ثم منارة لاستعمالها كذلك لاشعال النار للاشارة ٠

علاوة على ذلك فان الوليد بن عبد الملك طور شكل الصحن وتمت تغطية منتصفه المربع بقبة وينبغى تذكير المعمارى فى عصرنا أن هذا الشكل المكون من قبة يتقدمها جمالون له رواق يعلوه مثلث ابتكرها المسلمون فى زمن الوليد بن عبد الملك وطبقها الغرب فى ابرز مبانيه ، منها على سبيل المثال لا الحصر كنيسة بطرس بالفاتيكان وكنيسة بولس وقصر تشيزيك ببريطانيا وأهمها الروتندا لأشـــــهر مهندس بالغرب بلاديو ٠

فان كان النسيج العمرانى مستوى أو واديا أو تضاريس فان الارتفاع الى أعلى علاوة على تعبيره لعزة الاسلام ـ وجاء نصره فهو الوسيلة التى تنطبق على أى بيئة عمرانية ٠٠ ولكن الى جانب هذا الابتكار المعمارى لاستعمال برج للأذان فانه تعبير عن الابتكار الهندسى الاقتصادى الا وهو قلة المساحة وتوفير الانتقال وسهولته داخلها وخدمة المقياس الانسانى الأول سبق المعمار العصرى فى ابتكاره ٠٠ ومن الجدير بالذكر هنا أن المآذن كان أصلها مربع المسقط وتطورت الى شكلها الاسطوانى الدائرى المسقط ولكنها مرت بمؤثرات حضارية وبيئة ٠

الفن الاسلامى :

نشأ الفن الاسلامى اذن فى القرن السابع ، وظل يزهو ويزدهر حتى بلغ ذروته فى القرنين الثالث والرابع عشر ، ثم ابتدأ يضعف فى القرن الثامن عشر بعد أن تأثر بالفنون الغربية وأقبل الفنانون على تقليدها ٠ ومن البديهى أن الفن الاسلامى لم يكن له اتجاه واحد فى القرون الطويلة التى ظهر فيها ، وطبيعى كذلك أنه كان فن موحد ذا طابع واحد فى جميع أقاليم الامبراطورية الاسلامية ٠

ويلاحظ أن الحرف والصناعات ظلت بعد الفتوحات الاسلامية فترة من الزمن فى أيدى أهل البلاد المفتوحة ، فكانت الأساليب الفنية المحلية تطور فى كل اقليم تطورا لا تفقدها كل صلتها بما فيها ، ولكنها تخضع لكثير من القواعد التى يطلبها العهـــد الجديد أو التى كان ينقلها العرب من اقليم الى آخر من ممتلكاتهم الواسعة ، وبعد أن امتزج العرب بأهل البلاد التى أخضعوها وبعد أن تتلمذ الصناع العرب على أيدى الفنيين منهم ٠ ونتيجة للاختلاط بين أهل تلك البلاد ، نشأت فنون متشابهة فى جملتها يمكن تمييزها عن غيرها من الفنون ، ولكنها متباينة فى تفصيلها قامت اذن فى العالم الاسلامى طرز أو مدارس فنية بتطور العصور وبتأثرها بالأحـــــداث الســـــياسية والاجتماعية ، وكانت الفروق بين هذه المدارس ظاهرة خصوصا فى فن العمارة ، وذلك لأنه ، أى الفن المعمارى أكثر الفنون اتصالا بالاقليم الذى ينشأ فيه ، بينما كان تبادل العناصر الفنية وتأثر بعضها ببعض أسهل فى ميدان الفنون الزخرفية ٠ وفن العمارة اذن كان له طابع خاص يختلف حسب الاقاليم والعصور التى مر بها فى مواد البناء وأنواع الأعمدة والعقود وفى المآذن والقباب ، والمقرنصات وفى أنواع الزخـــارف الهندسية المختلفة ، وفى المواد الزخرفية التى تغطى بها الجدران كالجبس والقيشانى وغيـــرها ٠

فى العصور الأولى للخلفاء الراشدين كان الغالب على الفن البساطة ، وفى عصر بنى أمية كان الطراز الأموى أول مدرسة فى الفن الاسلامى ٠ وقد أخذوا الكثير من مدينة دمشق عاصمة العالم الاسلامى ، فكانت السيادة الفنيـــة فى عصرهم للفنانين السوريين الذين أنشأوا هذا الطراز ، وهو مرحلة انتقال من الفنون المســيحية فى

الشرق الأدنى الى الطراز العباسى • وقد نقل هذا الطراز الى سائر الاقاليم الاسلامية على أيدى صناع مهرة من الشام ومصر • على أن هذا الطراز لم يخلو من التأثير بالأساليب الساسانية (الأساليب الايرانية القديمة) التى كانت مزدهرة فى الشرق الأدنى عند ظهور الاسلام • وثبتت هذه الأساليب الأموية فى الأندلس حتى بعد أن زال ملك بنى أمية فى الشرق ، وذلك لأن هذا الاقليم خرج عن الدولة العباسية وقامت فيه دولة أموية عربية كان لها طراز أموى عربى ، احتفظ بمعظم الأساليب الفنية لهذا الطراز •

وفى العصر العباسى سنة ٧٤٠ ميلادية نقل مقر الحكم الى العراق ، وأصبحت السيادة فى العالم الاسلامى للعراق وايران ، واتخذ الفن الاسلامى اتجاها جديدا ، وقام الطراز العباسى الذى تغلبت عليه الأساليب الفنية الفارسية • وبعد فتح الفاطميين لمصر جعلوا القاهرة مقرا لحكمهم وقام على يدهم الطراز الفاطمى الذى ازدهر فى مصر والشام بفضل استتباب الأمن وما سادها من رخاء وتسامح دينى ، وكان حكم الدولة الأيوبية فى مصر انتقال الطراز الفاطمى الى المملوكى الذى ازدهر فى مصر بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر (وهو الطراز الذى تدين له القاهرة بمعظم آثارها الاسلامية الجميلة) • ولما قضى العثمانيون على دولة المماليك سنة ١٥١٧ م فقدت البلاد استقلالها وأصبح العصر التركى فى مصر عصر ركود سياسى وفنى ، أما الأندلس فقد ازدهر الطراز الأموى الغربى فى القرن الحادى عشر ولم يتأثر بالفن العباسى ، فقد أتيح للاندلس والمغرب أن يندمجوا تحت حكم دولة واحدة والى أن قفز المغرب الأقصى للاساليب الفنية لهذا الطراز • وفى شرق البحر الأبيض المتوسط قام طراز جديد على أنقاض طراز الدولة العباسية وهو الطراز السلجوقى •

والسلاجقة قدموا آسيا الوسطى وأتيح لهم فى القرن الحادى عشر أن يحكموا القسم الشرقى من العالم الاسلامى ، ولكن دولتهم الواسعة من أفغانستان وايران والعراق والشام وآسيا الصغرى تمزقت الى دويلات صغيرة بعد غزو المغول فى القرن الثالث عشر ، وقامت فى ايران بعد الطراز السلجوقى طرز قومية ايرانية ، أولها الطراز المغولى الذى ازدهر فيها منذ القرن الثالث عشر ، وفى آسيا الصغرى آل الحكم الى العثمانيين من القرن الرابع عشر ثم امتد سلطانهم السياسى حتى مصر حيث نشأ النظام التركى •

● الفن والعمارة في مصر :

لقد غمرت روح الاسلام وحضارة العرب جميع البلاد المصرية ذات الأصالة

التاريخية العريقة وطرحت أمامها تلك الثروة المعمارية والفنية الضخمة من مدينة قدماء المصريين ، وتسابقت فى مجالات الفنون المختلفة حتى أصبحت هذه البلاد رائدة وقائدة للشعوب الاسلامية جمعاء ·

ومن الواضح أن يقترن تاريخ الفنون والعمارة فى مصر بالتـــــاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى والروحى · وقد تعاقبت على مصر دولا متعددة وحكومات مختلفة ، وتغيرت كل واحدة منها وتغير أساليب الحكم فيها ، مما كان له أكبر الأثر فى تطور الفنون والصناعات المتعددة ، ليوافق كل عصر ويتجاوب مع كل مرحلة من مراحل هذا الحكم · ومن الواضح أيضا أن احتفظت كل دولة من هذه الدول بشخصيتها وتقاليدها وانعكست على صفحات الفن وقرأت على حوائط ما خلدوه من آثار ، وتجلت بصورة واضحة فى تنوع أساليب البناء وخاصة ما كان لتغيير المذهب الدينى من أثر فعال فى الفنون والصناعات فقد كان الفاطميون مثلا شيعة انفصلوا عن الخلافة ، وجاء صلاح الدين وأزال قصورهم ورسوماتهم وما تركوه من آثار · وظهر فن آخر غير الفن الفاطمى · وكذلك الحال فى الفن والصناعة أيام حكم المماليك وحكم الأتراك ·

غزا عمرو بن العاص مصر فى العام الثامن عشر للهجرة فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومنذ ذلك الحين انقسم تاريخ الاسلام فى مصر والمراحل التى مر بها الفن والعمارة والصناعة الى ثمانية عصور تناولنا شرحها بالتفصيل فى الباب السابق ·

● الفن والعمارة فى المغرب والأندلس :

اهتم خلفاء بنى أمية أمثال عبد كرهمن الناصر ، وهشام ، والحـــكم وغيرهم اهتماما بالغ الأثر بالفنون ، بالعلوم والصناعات · وأولها حبهم ورعايتهم لها عجز التاريخ عن ادراكها بدرجة أن كانت قرطبة العاصمة أيامهم لها درجة خاصة ومنزلة جامعية والتى أصبحت مدينة العلم والمال والجمال · ولعبت الفنون الاسلامية دورا خطيرا فى تونس والجزائر ، أما الأندلس فقد احتفظت بأعظم تراث للفن الاسلامى خلده التاريخ بما له من سحر وخلود ·

ويعتبر جامع القيراون وجامع الزيتونة فى تونس أشهر الآثار الباقية حتى الآن فى المغرب ، وكان ولا يزال ، اسم « غرناطة » آخر المدن الاسلامية فى أسبانيا (وقعت فى يد فرديناند وايزابيلا عام ١٨٤٨ م) يقرن على الدهر باسم « قصر الحمراء » يعتبر فخرا للعمارة الاسلامية ومعجزة من معجزات الفن الاسلامى العريق · ذلك القصر

الذى يلهم الأحلام ، وتحوم فيه أرواح فرسان الأندلس والذى لدقة صنعه وجمال تعبيره وصدق مكوناته وأصالة فنه ، تثير رؤيته ومشاهده وتأملاته فى النفس الشعر والخيال وتعود بها الذكريات ، حتى أوحى لكثير من الفلاسفة والكتاب والشعراء أمثال أرفنج وجوته بأروع التأملات فى الأدب الخالدة ، ومادة لخيـــال الموسيقيين والمصـــورين والفنانين ٠

كما امتازت أشبيلية وغرناطة بسلامة التخطيط وحسن التنسيق ، وساعد على ذلك جمال الخضرة النضرة ووجود البساتين والحدائق والماء والمناظر الطبيعية ٠ أما مدينة قرطبة فقد كانت عاصمة الأمويين القديمة فى الأندلس ، وتشهد بماضى الاسلام ومجده ٠ وأجمل مبانيها ذلك الجامع الكبير الشهير بأروقته وعمده المتعددة يرجى أن ينظر شرح الجامع وكذا الصور والرسومات ٠

شيد قصر الحمراء فى غرناطة عاصمة دولة بنى الأحمر وحصن العرب الأخير فى أسبانيا ، أنشأه محمد بن الأحمر فى أوائل القرن الثالث عشر حيث نرى شـــعار بنى الأحمر « لا غالب الا الله » منقوشا على حوائط هذا القصر على جميع مبانيه الأخرى بالخط الكوفى أو الخط النسخ ٠

ويتكون القصر من عدة عناصر معمارية هامة ، نذكر منها قاعة الشورى ، ومنها الى ساحة الآس بها بركة صناعية وبصدرها قاعة السفراء حيث كان العرش ، ثم ساحة الأسود العالمية المشهورة والتى تجمع مع ما حولها من القاعات أروع ما فى الحمراء من جمال وسحر ، ثم تنتهى الى قاعة العدل وعلى جانبيهـــا قاعة بنى سراج وزراء ملوك غرناطة وقاعة الأختين ، ثم يلى ذلك غرف أخرى تشرف على الوادى فى منتهى الجمال والروعة ، خصصت بعد ذلك لاقامة كبار الشخصيات من ملوك وشعراء وكتاب أثناء زياراتهم ، ويلاحظ أن أسقف الحمامات المخصصة للقصر من البللور على شكل قباب تصل اليها أشعة الشمس الضعيفة وتنعكس داخل الحمامات فتضفى ســـحرا وجمالا ـ يرجى أن تنظر الصور والرسومات الخاصة بالقصر ٠

● الفن والعمارة فى الهند :

حينما استولى المسلمون على دلهى عام ١١٩٣ م ظهر الفن الاسلامى فى شمال الهند ، ويمكن تقسيم الفن الى عصرين عظيمين ٠ الأول هو عصر الباتان
وأهم ما يمتاز به هذا العصر أن كانت العمارة فيه عمارة تذكارية معبرة

وذلك بتقديم فن البناء وطرق الانشاء باستعمال الحجر الرملى Monumental والرخام بمختلف أشكاله وأنواعه ، ومراعاة مقياس الرسم المناسب فى تصميمات هذه الأبنية الهامة ، حتى أصبحت مدينة دلهى العاصمة بما حوته من مبان ضخمة وآثار اسلامية وتعددها ووفرتها تضارع أثينا أو روما أو القسطنطينية ولا تقل عنهـــا من الناحية المعمارية فى الأهمية ·

أما العصر الثانى فيسمى المغول Mogul Dynasty ١٥٢٦ الى ١٨٥٧ م ، فقد كان للفن الاسلامى فى هذه الفترة آياته ومميزاته واستقلاله عن المؤثرات الخارجية كما كان فى العصر السابق له الذى كانت الفنون الاسلامية فيه متأثرة بالفن الهندى القديم · فمنذ أن استولى بابار Babar على دلهى وأعلن حكمه وسلطانه على البلاد رأينا أباطرة المغول يفوقون الفراعنة الأقدمين أو على الأقل كانوا يحاولون ذلك فى انشاء مقابرهم التذكارية لتحقيق غرضين : أولاهما باستعمال هذه المقابر فى حياتهم الدنيا كصالات احتفالات واجتماعات ، وثانيهما استعمالها مقبرة لهم بعد وفاتهم وقد كانت آثارهم حقا تحفا غالية من الوجهة الفنية ولآلىء ثمينة من الناحية المعمارية ، خاصة اذا ما أخذ فى الاعتبار الأماكن والمسطحات الضخمة التى كانت تخصص لاقامة هذه المبانى من حسن التشنسيق والتخطيط وجمال الطبيعة وتنميق الحدائق وتزويدها بالنافورات والفساقى وخلجان المياه ، مما أضفى على هذه الأبنية سحرا وجمالا ·

ولا شك أن تاج محل الذى أنشأه الشاه « جيهان » فى أجرا هو أعظم وأشهر الآثار الاسلامية حتى لقب بألمع جوهرة فى تاريخ العمارة بالهند (يرجى أن ينظر شرح تاج محل والرسومات والصور الخاصة به ومقارنته بجامع السلطان حسن بالقاهرة)·

● الفن والعمارة في فارس ـ ايران والعراق :

خضعت فارس للمسلمين أيام الخلفاء الراشدين ، غير أنه لا توجد آثار تذكر هناك باقية للحكم الاسلامى حتى ولاية العباسين عليها الا بعض الخرائب والأطلال ، ما عدا جامع أصفهان العظيم الذى بقى من العهود التى تلت بعد ذلك حتى الآن · وأهم ما يذكر فى هذا الشأن أنه كثرت استعمالات كسوة الحـــــوائط فى العمارة الفارسية بالأنواع المختلفة المتعددة من القيشانى ذات الألوان الزاهية والذهبية ، حيث تفننوا فى صناعتها وكانت تسمى « بالكاش الفرفورى » واشتهرت العجم بصـــناعة السجاد منذ بدء التاريخ وأتقنوا هذه الصناعة وانفردوا بها حيث ظلت متربعة على عرش هذه الصناعة منذ القدم ، كذلك اشتهرت فارس برسم اللوحات الفنية المصورة لمختلف المناظر والطيور وغيرها ·

● **الفن والعمارة فى تركيا :**

من المعلوم أن العثمانيون سلالة من الأتراك السلجوقيين ، وكان لهم فن تأثر بالفن الفارسى . فلما اجتازوا بوغاز الدردنيل واستولوا على القسطنطينية من المسيحيين عام ١٤٥٣ م وضعوا أسس عماراتهم ومبانيهم على نفس الأسس الخاصة بالعمارة البيزنطية المزركشية المحلية ، والتى كانت أهم مظاهرها ومعالمها الواضحة كثرة القباب أسوة بما اتبع فى سانت صوفى « أيا صوفيا » وقد نجحوا فى تحويل كثير من الكنائس لعبادة المسلمين ولمزاولة الشعائر الاسلامية . وهذا هو السبب فى الاستغناء عن نظام الصحن المكشوف المحاط بالبواكى على جوانبه الأربعة كما هو المتبع فى جميع المساجد فى البلاد الاسلامية . وقد أصبح جامع « أيا صوفيا » نموذجاً يقتدى به فى بناء الجوامع التركية . وقد كثرت استعمالات القبات حتى حملت على الأعمدة والعقود ، أما الحوائط فكانت تكسى من الداخل بألواح القيشانى . وابدع ما شيده العثمانيون من المساجد بالقسطنطينية جامع « بايزيد وجامع السليمانية » حيث استعمل فى جميع النوافذ الزخارف البديعة المصنوعة من الجبس والمحلى بالزجاج الملون الدقيق الصنع – يرجى أن تنظر الصور واللوحات والرسومات الخاصة بجامع أيا صوفيا بالقسطنطينية فى الباب المخصص للعمارة البيزنطية .

حضارة الاسلام :

● **العمارة الاسلامية بين الماضى والحاضر :**
بين الأصالة والمعاصرة والمحافظة ..

فى رحلة الاسلام الخالدة عبر الزمان والمكان معا حمل المسلمون معهم قيمهم ومبادئهم وفنونهم وقدراتهم على الابداع والتشكيل ، واضافوا اليها ما ناسبهم من فنون وحرف الشعوب التى اختلطوا بها لتمتزج فى غير ما تعارض ولتتوافق فى غير ما تناقض ولتمثل انجازات عملاقة لا تزال شواهدها تشهد بالابداع حيث انتقل الاسلاف المسلمون بأنفسهم من مرحلة الاخذ الى مرحلة الابداع . وسيطرول على جميع العلوم والفنون فى سرعة مذهلة ، وطوروا ما ورثوا عن الأمم الأخرى ، واستخدموا آلات مبتكرة فى تجاربهز ، وعلوما جديدة لم تكن معروفة لدى الاسلاف من الأمم ، واستمر موقفهم المتميز هذا حيث اثرت العلوم والفنون الاسلامية فى بيئة أخرى سميت

خلافا للحقائق بالنهضة الأوروبية بالجذور للعلوم والفنون الاغريقية • ولقد كانت هذه الحضارة الاسلامية حضارة تصون كرامة الانسان وتحفظ عليه نفسه وماله ، وكتب التاريخ تحفل بالكثير من القيم التى غرستها وحثت عليها تعاليم الاسلام •

وكانت العمارة احدى النتائج الهامة لها ، حتى بعـــد ضـــياع الامبراطورية الاسلامية ، اذا صح التعبير ، فانه من المشاهد أن لهذه العمارة حتى يومنا هذا تأثيرها فى بقاع كثيرة من الأرض انتقلت من الصحراء الى شعوب البحر الأبيض المتوســـط وشعوب أخرى كثيرة • وبالرغم من تعدد العوامل التى أثرت فى العمارة الاسلامية الا أنها جمعتها خصائص وعناصر واحدة هى التى حددت العالم الاسلامى ، بحيث لم تتطور منطقة اسلامية بمعزل عن الأخرى ، وأصبح العالم الاسلامى كدائرة ضخمة تقع فى مركزها مدينة وهى مكة المكرمة ويتجه الى نقطة وهى بيت الله الحرام وكل مساجد الدنيا تتجه بخط مستقيم نحو الكعبة المشرفة •

ولقد أعجب غير المسلمين كثيرا بعمارة المسلمين ، ولكنه ينقصه الفهم الصحيح لعقيدتهم وحياتهم والتى شيدت هذه العمارة من أجلهم فهى أكثر من كونها قبابا ومآذن وقصورا فاخرة ومقرنصات وتشكيلات خزفية وغير خزفية ، انما هى تعبير صحيح عن حضارة غنية وحدت أقطارا كثيرة مترامية الاطراف من المشرق والمغـــرب لآلاف السنين وعكست الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه الاقطار •

كما أحاطت التباين فى المعطيات المعمارية فى الاقطار الاسلامية المختلفة بهذا الاطار الموحد الذى يمثل قوة الاسلام ، والذى شهد القرن الثالث عشر الميلادى وحتى الثامن عشر عصر امبراطوريته الكبرى • فى حين شهد القرنين التاسع عشر والعشرون عصر الاستعمار والاحتلال لديار المسلمين ، وبالتالى سيطرة الفكر والفلسفة والمدنية الغربيـــة •

ويبدو التساؤل ملحا حول العمارة الاسلامية :

ما هى العمارة الاسلامية ؟ وهل يوجد ما يســـمى بهذا الاســـم ؟ ومنذ متى بدأت ؟ والى أين انتهت أو متى انتهت أو هل هى مستمرة ؟ وهل نعنى بها تلك التى نتجت عما بناه المسلمون للمسلمين لخدمة الاســـلام كدين مثل المســـاجد والقبور والمدارس ؟ أو هل نعنى بها كل ما بنى فى ديار الاسلام ؟ واذا كانت صفة الاسلام هذه لا تمثل صفة دينية فقط بالمعنى المفهوم فهل هى تمثل صفة معمارية معينة ؟ وفى هذه الحالة يمثل الاسلام حضارة ديار الاسلام بحيث يمكن تسميتها عمارة اسلامية وعمارة

غير اسلامية ؟ ثم ماذا عن استعمال المسلمين لعناصر معمارية من أبنية غير اسلامية وكذلك استعمال أشكال واتجاهات عرفت قبل حضارة الاسلام ؟ ٠

أن الظهور العضوى للعمارة الاسلامية فى بلاد الاسلام لا يمكن الا أن يقـــرن بروحه ، اذا اردنا أن نتعمق أكثر خلف أعمال الوصف للنتائج المعمارية الفخمة وذلك يقربنا كثيرا من الهدف المنشود ٠ حيث صاحب ظهور الاسلام وانتشاره تطورا فى الحياة العمرانية فى كافة المناطق التى استقر فيها الدين الجديد ، ســـواء فى المدن الصغيرة التى كانت موجودة أو فى القرى أو فى أوساط القبائل البدوية ٠

ويبدو التساؤل ملحا أيضا عن ماهى العمارة على وجه العموم ؟ أو ما هو غير العمارة ؟ أو ما الذى يمكن تسميته عمارة والذى لا يمكن تسميته كذلك ؟ وهل المبانى الجميلة فقط هى ما يمكن تسميته عمارة ؟ أن الحوائط والواجهات ليست الا وعاء أو غـــلافا Container أما المحتوى فهو الفراغ الداخلى ولا يجوز أن يأخذ الغلاف أهمية أكثر من المحتوى ، حيث يفرق دائما بين Container and contained وان كان فى كثير من الاحيان يبدو التداخل بينهما فى اعطاء النتائج ، ولكن الى أى مدى يسمح بهذا التداخل ٠ وتبدو الاجابة بأن الفراغ المصمم والدافع والمؤثر ايجابا أو ســـلبا هو ما يمكن أن يسمى عمارة Environmental space modulation.

● البحث عن النموذج (*):

والمشاكل المعمارية التى يعنى منها العالم اليوم ليست قاصرة على العـــالم الاسلامى فحسب ولكنها شاملة Universal characteristics of the contemporary world وهى تعبر عن التحول من مراحل ما قبل التصنيع الى مراحل ما بعد التصنيع الا أننا نختص فى العالم الاسلامى بعدم الوضوح الكافى وعدم استمرارية التطـــور التاريخى ، ثم سرعة التغيير والاحداث بالاضافة الى عمليات الهدم المســـتمرة للتراث ٠ وان تغير المسلم هو جزء من التغير العام الذى أصاب العالم الاسلامى بعملية التحول الشاملة له ٠ وان حديثنا عن الاسلام والمسلمين لابد وان يخضع للقاعدة
Minerals. View of the library and administration building.

فان عودة المسلمين الى رحاب الاسلام سوف يعيد لهم أمجادهم ويقلل من اعتمادهم على غيرهم وسوف تكـــون لهم الريادة كما كانت لهم فى ماضـــيه المجيد ٠ وفى مجـــال بحثنا عن النمـــوذج يجدر تحديد الحقبة من التاريخ الاســـلامى التى سوف يتجه البحث اليها ليحتذى بها ؟ والمكان من العالم الاسلامى أيضا ليحتذى به ؟

(*) العمارة الاسلامية بين السلفية والحاضر : بحث للدكتور المعمارى المهندس حسن الششناوي ـ مجلة البناء العدد العاشر السنة الثانية

فالزمان والمكان Space and Time هما من القضايا الرئيســـية فى الفهم الصحيح ٠

رغبة اللجوء الى المستورد :

ان التقدم التكنولوجى الرهيب للغرب والرغبة فى مواجهة مشـــاكل الانشاء والتعمير والاسكان بسرعة ، لم يعط الفرصة لشعوب كثيرة فى الاختيار فى مجالات التشييد والبناء سوى أن تقلد ، وفى معظم الاحيان تكلف شركات أجنبية بالتخطيط والتنفيذ للمشروعات بكاملها والامثلة على ذلك كثيرة وفى كل مكان ٠ واذا استمر الوضع كذلك فسوف تتحول مدن العالم الاسلامى الى مقابر للنسج المقلدة أو المستوردة لعدم مواءمتها للحياة حضاريا واجتماعيا ودينيا New stums وهذا تحذير موجه الى كل من يعنيه الأمر على كافة المستويات ٠٠ وقضية التجديد قد تكون سهلة بالنسبة للرسام والموسيقى والنحـــات أما الأمر فيختلف بالنســـبة للمعمارى فهى مسألة جد خطيرة ولا تخضع لنفس مقاييس الموضة ٠

مثل من اليمن :

تختلف التشكيلات الحضرية فى العالم الاسلامى
من ايران والأناضول الى المغرب حتى الصين ٠

والعمارة اليمنين المتوارثة اسلامية بالرغم من انعدام العقود والمنرقصات أو المبـــانى أو Monumental كالأزهر وتاج محل ٠٠ أنها مثل للعمـــارة التى تخضع للتحكم الكامل من المستفيدين Users ٠ واليمن له أجواء مختلفـــة وبيئات متعددة فمن الصحراء الى المدرجات على ارتفاع ٣ آلاف مترا فوق سطح البحر الى مواقع تتوافر بها الأحجار وأخرى يتوافر بها الطين وكى كل موقع عرف اليمنيون كيف يتعاملون معه محققين نوعية ممتازة من الفـــراغات المعمـــارية والحضرية ٠

Adaptation of man to nature in the extreme economy of means for a maximum of use.

كما عرفوا كيف يستخدمون المواد بمهارة وعناية

The master of the technology, the masons are the people of the village. The building materials are local ones, and they are free.

ولقد اعجب اليمنيون بالابنية العالية من قديم الزمان · فكان للتشـــــكلايت الرأسية الاثر البالغ فى النسيج العمرانى وان نظرة الى صنعاء تعطى هذه الصورة العضوية المتكاملة ·

Architecture is just a part of the hole and reflects collective necessities.

● المدينة الاسلامية :

من المسجد يرتفع صوت الاذان خمس مرات يوميا داعيا الى الصلاة ·

وتبدأ الجماعة وتتجه الآذان والعيوان والقلوب الى المنبر والمحراب فى هوء وطمأنينة بعيدا عن مشاغل الحياة ·· وتتجه الشوارع الى المســـــجد ومنها الى الحارات المغلقة Cul-de-sacs أما الشوارع الجانبيــــة فتؤدى الى البوابات الضخمة للمدينة ، وينساب الماء الضرورى للطهارة فى المساجد والبيوت ، ولكل منها مسجدا وحماما عاما يتميز به ، وتتوزع الأسواق والبازارات ، والحوانيت ، وورش الصناعات الخفيفة متسمة حسئب نوعياتها وتتوافر لأغراض التجارة والتجار القيصريات والخان والوكالات حيث لعبت تجارة الاستيراد وخاصة الأقمشة دورا هاما ، وشكل البدو الرحل العنصر المتغير فى التركيبة الاجتماعية · وانقسم وقت المسلم بين مكان عمله لطلب الرزق والمسجد لطلب العبادة والسكينة والبيت لطلب الراحـــة ·

وكانت المدينة مفعمة بالحركة ، وكون البيت و الشكل الرباعى مع البيوت الأخرى على غير ما استقامه ولا تماثـــل خطوطا منحنيـــة Internesting cells وهى الصورة المغايرة تماما للتصـــــميمات المرانية الرومانية أو الاغريقية ، حيث بنيت على التشكيل الهندسى الثابت والمنظم ·

Geomery and regulations of the oversetas colonies of classical Greece and Rome.

● المبانى الدينية :

كان أول المساجد مسجد رسول الله بالمدينة بسيطا وبعيدا عن الزخرف · وفى سنة ٦٣٥ بنى مسجد البصرة على شكل مربع يحيط به السور وفى سنة ٦٣٨ بنى مسجد الكوفة وهو عبارة عن سقيفة وكان تغطيه القبلة بهذه السقيفة يعد أول علامة فى بدأ تطوير عمارة المساجد ، والتى تتركز وظيفتها فى تمكين المصلين من الوقوف جنبا الى جنب فى صفوف متوازية ومستقيمة تجاه القبلة ولم تكن الفخامة هـــدفا

لها وظهور ذلك كان فى العصور المتأخرة بظهور طائفة من الصناع البنائيين المهرة، فتحقق لها البعد الثالث ، من خلال التشكيلات والألوان وفنون الخط العربى وهو ما يشار اليه دائما ويفهم على أنه العمارة الاسلامية ثم عرفت بعد ذلك تشكيلات متعددة للمساجد ونفذت طبقا لطرق ونظم وطرز بناء معينة ، وتحت عوامل حضارية وسياسية متعددة متخذة من العوامل والمبادىء الآتية مرشدا لها :

1. Relation to the soil.
2. Physical environment in which they are built.
3. Cultural and political environment in which they are created.

This space responds to the ecological encircling of the Town by intense social and cultural forces.

Symmetric modulations of exterior and interior spaces - Hollow and filled spaces of immobility and movement beneath a big vertical sign of the Minaret as a Land mark Forms of the mosque, omnipresent decorative marks of reference or attitude that correspond to the ionic in the collective life.

وبرزت الوحدة بين المبنى والسماء عن طريق تشكيل نهايات المبنى والتى كانت تتفادى دائما الخط الافقى القاطع والذى يفصل ولا يربط وكانت القبـــاب والعقود بالشكل الذى تمت به فى العصور التاريخية تعبيرا صادقا عن امكانيات المـــادة والخواص الطبيعية والانشائية لها ونتج عن ذلك مفهوما فراغيا متجانسا .

Vertical space is mediated by the treatment of the horizontal plane of columns and arches that give it the spiritual within human-scale, which is so distinctive in islamic architecture.

ومن أحسن الأمثلة الدالة على ذلك مسجد قرطبة .

والمسجد المدرسة كان بناء مغطى عاليا بواسطة قبة وله أربع أيوانات متقابلة التكوين ، ومبانى خارجية عديدة مصممة لأغراض شتى حيث تكاملت الأبنيـــة للاغراض الدنيوية مع المسجد فالاسلام لا يفرق بين الدين والدنيا ، عملا بشمولية الحياة وتكامل الأنشطة البشرية والمســـجد الجامع تلقى فيه الخطبة وله مكانته السياسية ، وكان معظم المساجد صغيرها وكبيرها يقوم بوظيفة التدريس وبعض الخدمات الاجتماعية الا أن هذه الوظائف قد تحولت الآن من المساجد لتقوم بهـــا مؤسسات أخرى تعليمية أو اجتماعية وانحصرت وظيفة المسجد فى اتاحة الفرصة لأداء الصلوات .

● القلاع والقصور وعبرت عن القوة والقيادة السياسية : Political leadership and powers وامتلأت جنباتها بالأبنية المنسقة ومثـــال ذلك قصر الحمراء وكان لوصف الجنة على أنها تجرى من تحتها الأنهار الأثر البالغ فى تصميم هـــذه التشكيلات وأعمال تنسيق المواقع ٠

خصوصية البيت فى القرآن الكريم :

وردت كلمة المدينة والمدائن فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كما وردت كلمة الدار بالمعنى الأعم ، حتى شملت الدار الآخرة ، أما البيت ويعنى به المسكن وهو مشتق من بات يبيت ويعنى فى وقت الليل وهو وقت النوم والأمان ٠

« والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم أقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين. والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون (١٦ ــ ٨٠) ٠ كما ورد أيضا فى سورة النور (٢٤) ٠

« فى بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها أسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وايتاء الذكاء يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » ٠ ثم يأتى التوجيه الالهى نحو خصوصية البيت ونحو المسلك الواجب فى داخله ٠

« فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة » ٠

« يا أيها الذين أمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتســـلموا على أهلها ذلكم خير خير لكم لعلكم تذكرون » ٠ أما الأبنية العامة أو البيوت غيـر السكينة فالأمر يختلف ٠

« ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » ٠

« يا أيها الذين أمنوا ليستئذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعـد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم

بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم • واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستئذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ••• » كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم •• وللبيت حرمة •• فى سورة الاضراب

« واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فأرجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون أن بيوتنا عورة وما هى بعورة أن يريدون الا فرار » •

ولتحقيق هذه الخصوصية صممت الافنية الداخلية وأحـــاطت بها الايوانات وكذلك صممت عناصر حماية الفتحات من الرؤية من الخارج بواســـطة المشربيات والمظلات المعلقة ويعطى الفناء كتفريغ فى الوحدة السكنية عنصر البتاين المطلوب فى الكتلة المعمارية والحضارية Urbanblok متكاملا مع فراغات الشوارع والحارات والأفنية العامة ، فأعطت المدينة التصميم المستمر والاتزان المطـــلوب بين المغلق والمفتوح والمنتظم والغير منتظم • وروعى أن تتوافر الظلال بدراسة قطاعات الشوارع والأفنية وتغطية وتقليل الفتحات على أن تظل المدينة أمينة علىقيمها الجمالية •

● التشكيلات الســكنية :

ولقد كان للتماثل وللمركزية الصفة السائدة فى التصميمات العمرانية حيث ساعد ذلك على تحقيق تجانس الوحدة •

وهناك التماثل الحقيقى الهندسى وتماثل الفكرة •

ولقد عرفت التصميمات للمدينة الاسلامية وللعمارة الاسلامية تماثل الفكرة •

كما استحدثت مصايد الهواء Wind catcher والملاقف الهوائية ، وكان من الطبيعى أن تكون الحوائط والأسقف ذات مقاومة عالية للتوصيل الحرارى ، مما دفع الى استعمال الحوائط السميكة من الطوب أو الأحجار أو الطين وتلك الفتحـات وغطيت بعناية بكاسرات الشمس ولقد نشأت خواص المنطقة السكنية على وجـــه الخصوص والمدينة على وجه العموم من النمو العضوى لها •

Organic growth of dwellings surprise vistas at every corner of the street and every bend of the road.

وبعدت مناطق الاسكان عن النموذج المتكرر متفادية أى احساس بالملل أو التكرار ولم تعزل البيوت عن بعضها البعض كما هو الحال فى التخطيطات الحالية • وعرفت الفراغات المتميزة .

Tri-fold division of space into private, controlled semi private and public (western bi-fold) clear segregation into male and female spheres.

وارتبطت مناطق التجمع السكنى بمواقع العمل بصفة مباشرة ٠

وكانت المهنة تورث ، ويتم التدريب بالممارسة مع أصحاب الخبرة فى المجال ، وكانت العلاقة مباشرة وشخصية بين المنتج والبائع ، وبين البائع والمستهلك ووزعت المهن (طبقا للنوعية) على شوارع ضيقة فأعطى ذلك للمستهلك فرصة الاختيار والمقارنة ، وقلت المسافة بين الانتاج والبيع ،تفاديا لزيادة تكلفة النقل ونشأت على جوانب الطرق خدمات ترويحية كالمطاعم والاستراحات للعابرين (Passers by) ووضعت البضائع الغالية مثل الذهب والمجوهرات قريبة الى المركز ، وتوزعت أو انتشرت محلات البقالة والمخابز فى الأحياء السكنية وهذا ضد فكرة (Large department store) فى الاتجاه الغربى ٠

وكان الوصول الى الحارات ليلا تحت الحراسة والحماية حيث تجمعت هذه الحارات حول أفنية وساحات عامة ولا تصب فى الشارع الرئيسى مباشرة وتحققت فى داخل الحى المتطلبات اليومية ٠

Protected sub-areas of limited access as a buffer zone to separate is compatible groups or activities.

والحماية هنا ليست بالضرورة ضد الايذاء المباشر من الأعداء فى حالات الاضطرابات ولكن من كافة المضايقات مثل الضوضاء والسيارات وكذلك الخصوصية بهدف التوصل الى جزيرة هادئة ٠

بين الاتجاه السلفى والمعاصر والمحافظة :

To see the future through the eye glasses of the past of seeing the past through the eye glasses of the future.

فالسيارة والطائرة ووسائل الاتصالات الهائلة من السكان وخدمات البنية الأساسية كلها جديدة ومعقدة ولم تكن موجودة من قبل ٠ فهى مشاكل مستحدثة وأنه لظ الخطورة أن نعظم أو نضفى صفة العصمة أو المثالية على الماضى بكل ما فيه فى طريقنا للبحث عن النموذج الذى نريده مخلصين ٠

ولا شك أننا يجب أن نأخذ فى الاعتبار المتغيرات والثوابت فى البلاد الاسلامية المختلفة ، فليس صحيحا أن نعود الى ما بناه المسلمون الأوائل ونقلده أو نطبقه تماما، لأنه ليس تشريعا ولأنه كان الوسيلة لتحقيق الهدف بامكانيات وعوامل معينة تغيرت الآن تماما ، ولكن الأهداف ثابتا وعلينا أن نجتهد كما اجتهد الذين من قبلنا ، ولا يضيرنا فى هذا أن ننقل بعضا ما توصلوا اليه ، أو تترك بعض منه ، كما أنه ليس صحيحا تماما أن ندير ظهرنا للتراث المعمارى بكامله ونجنح الى المستورد من بيئات غريبة علينا ، ولدت نظرياتها ومعاييرها فى أجواء مختلفة فى الوقت الذى ولدت

وتطورت عمارتنا من خلال التجربة والخطأ فى عهود الأسلاف المسلمون حتى اكتمـل لها المعيار والفكرة والحلول الكفيلة المعطيات البيئية ، وان محاولة الخروج من هذا بالقناعة الوظيفية والجمالية والتى تتناسب مع المأزق بتقليد أبنية اسلامية معروفة ، يؤدى الى أن لا تكون هذه الأبنية اسلامية الخصائص ولا حديثة التقنية • بل وأخطر من تقليد المبانى الاسلامية المعروفة هذا الاتجاه السائد بما يمكن تسميته بعمارة الواجهات •

Facade architecture as an instant solution Life less shell.

وذلك باستعمال العقود أو الأقواس أو الكوابيل بدون العلاقة قطعا بالفراغات الداخلية سواء بالنسبة للمساقط أو الحجوم فهى الرؤية السطحية من الشــــارع بدون التعامل مع الحقائق وانما مع Infrastructure ونسبة غير قليلة من العائدين من البلاد الغربية تحاول جاهرة أن تنقل صورة المدنية الغربية بـــــكل ما فيها الى مجتمعاتنا والنتيجة هذا التشويش المعمارى الذى نلمسه فى كل مكان وكانت البداية فى معظم البلدان الاسلامية هى فى بناء أحياء جديدة متخامة للمدينة القديمة ممـا جذب الطبقات الموثرة وأدى الى الانفصال التدريجى بين الجديد والقديم ، وانعدمت الصيانة للقديم حتى أصبح خربا وركزت وسائل الاعلام على اظهار صور النهضـــــة بما استحدث من المستورد من العمارة ، وصار لدى الناس القناعة بالجديد ، رمزا للمدينة والعصرية على السواء ، فهجروا ماضيهم وتطلعوا الى القادم من بيئات غير بيئاتهم ، ووقفوا ينظرون باعجاب الى الأيدى المستوردة التى تبنى وتشيد وارتفعت الأمثلة الغربية فى سماء البلاد الاسلامية فاقدة الهوية غريبة فى تصميماتها وفى المواد المختارة لها ، وفى طرق تنفيذها •

We are not asking that islamic cities regress to some archaic and no longer viable system of organizing space and human relation. They have much to offer, not only to the islamic world as it modernizes, but to the rest of the world, even those parts which are considered the most advanced.

وليس عجيبا أن نجد أن رواد العمارة فى الغرب قد بدأوا فى نقد نظرياتهم ومعاييرهم بأنفسهم ، لأنها أو بعضها فشل فى تحقيق العامل الانسانى ، وكان له من الآثار السلبية فى مجالات كثيرة ، مما دفعهم الى دراسة الحضارات الأخرى فى محاولة للخروج بمفاهيم ومعايير جديدة ، بنى معظمها على المبادىء التى بنيت عليها مدن المسلمون الأوائل •

ويجب أن تكون الصحوة من ابناء البلاد الاسلامية وذلك بتكوين جيل مسلم من الرواد المعماريين ومن الصناع المهرة فى كافة مجالات الانشاء والتعمير وخدمات البيئة الأساسية infrastructure قادرين على التعامل مع المشروعات بجميـــع أنواعها أخذين بالأسباب العلمية أنى وجدوها وحيثما ناســــبتهم محققين امتداد

واستمرارية التطور التاريخى ، فهى أمانة لا تقع فقط على المعماريين والا نكون كمن وضع العربة قبل الحصان ولكنها موزعة على كافة المستويات وكل منا يقف على ثغرة، وعليه أن لا يؤتى الاسلام من جانبه ... ان العمران الاسلامى منذ مبتدأ ظهور طابعه كان من جملة الأدلة على تعلق المسلمين الأولين بالسماء وما ينزل منها معنويا وماديا من وحى والهام وتحديث وافهام وبيان واسماع وأرزاق .

ولذلك أدلة فى القرآن الكريم تحث المسلمين على البناء المتعلق بالسماء فلقد قال الله تعالى فى سورة البقرة « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا مع الله اندادا وأنتم تعلمون ». وقال تعالى فى سورة غافر « الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين » .

فجاء العمران الاسلامى مفتوحا الى السماء ومعبرا عن السماء وموجها الى السماء فالسماء جعلها الله سقفا لكل بناء فلقد قال سبحانه فى سورة الأنبياء « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » . فهى كالقبة المضروبة على الناس وهى السقف للبيت الذى يسكنون وأقسم سبحانه وتعالى بالسقف المرفوع فى سورة الطور .. ولمزيد من الايضاح للعلاقة بين العمـارة الاسلامية والسماء .

فان المسلمين الأولين كانوا يقرأون القرآن ويستنبطون معانيه ويطبقونها فى حياتهم ولذلك لما أشار سبحانه التعالى الى أنه جعل السماء بناء عرفوا أن السماء هى المنتهى فى البناء وعلا فى ذهنهم قيمتها فجاء التعبير عنها فى ثلاثة أشكال ، اختيار القبة والأقواس للتعبير عن قبة السماء الفناء المفتوح وسقفه السماء . الارتفاع الى أعلى للتوجه الى السماء والسيطرة على الأرض من السماء وذلك كما جاء من اتخاذ المآذن والمنارات والصوامع والحصون .

أما عن البيت الحرام فانه مفتوح الى السماء لا غطاء فى الطواف حول الكعبة بل ان المصلين والمطوفين سقفهم السماء مباشرة ولهذا جاءت جميع المساجد فى الفتوحات ذات فناء وصحن واسع لربط البناء بالسماء (مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط الجامع الأموى بدمشق الخ) . بل ان أول بناء قد تم تشييده بطراز اسلامى خالص وهو قبة الصخرة جاء معبرا عن نفس المبدأ اختيار القبة للتذكير بقبة السماء وجاء اختيار تلك البقعة لتشييد هذا البناء ولعلاقة الصخرة بالسماء ومنها عـــرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء فى ليلة الاسراء والمعراج .

بل ان الطراز الاسلامى فى بلاد الفتح أعطى ابتكارات فى هذا الشأن مثل الايوان فى مساجد اشفهان التى هى عبارة عن اختيار متوسط بين القبة والقوس والفناء فالايوان مفتوح على الفناء وذلج الى السماء وغطاءه يميل الى التذكير بالقبة التى هى قبة السماء .

وتكرر ورود القبة فى مساجد عديدة كالأموى والقيروان مثلا ، وجاء التعبير عنها فى شكل عظيم فى العصر العثمانى فى مساجد شتى على أيدى كبار مهندسى العصر مثل سنان واختيار القبة جاء كذلك تعبيرا عن الآية الكريمة في سورة الرعد :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » وفى سورة لقمان « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى » ٠

فالمساجد مزيج من العمد والقباب تعبيرا عن الالهام من الخالق بارتفاع سقف بدون أعمد مميزا بالقبة ٠ فالأعمدة وكثرتها فى المساجد مثل مسجد قرطبة هى تبرير عن عجز المخلوقات أمام السقف المرفوع بدون أعمدة يرونها ٠

أما عن الفناء فى المساكن فانه أول شىء يسترعى انتباه أى زائر هو مركز ثقل البناء فان المتجول فى قصر الحمراء بغرناطة أول ما يلفت انتباهه العناية التى أعطيت لأفنية القصر مثل فناء الأسود والبركة ودار أقصى وكذلك بالنسبة لجنة العريف فان كل ما ذكره المعلقون على هذا البناء طراز الحديقة الخلاب وجريان الماء بأشكال متميزة ولم يلق البناء أى التفات منهم لأن أهمية هذا البناء كانت مركزة حول المساحات المفتوحة الى السماء وتبعها شكل المساحات المبنية ٠

فعندما دعت الحاجة الى الارتفاع فى السماء قام المسلمون بابتكار أجمـــل الأشكال العمرانية لذلك مثل الملوية فى سامراء ومنارة مسجد أشبيلية ٠ أما عن الارتفاع الى أعلى فى السماء فانه تردد ذكره فى تحليل مآذن المساجد والقـــلاع والحصون ٠ والملوية فى مساجد سامراء تعبير عن محاولة الصعود الى أعلى نقطة تقرب من السماء لتغطية أكبر جزء من البناء وارتفاعها وصل الى خمسين متـــرا أو أكثـــر ٠

والارتفاع الى أعلى فى العمران الاسلامى دليل على حب المسلمين فى تلك الأزمنة الى الاقتراب من السماء لفحصها وتدبر آياتها ورصد الشمس والقمر لما يتطلبه ذلك من معرفة أوقات الصلاة وعدد الشهور والتطلع الى أبراج السماء كما قال تعالى فى سورة « ق » « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » وقال تعالى فى ســـورة النبأ « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » وقال تعالى فى سورة الذاريات « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » ان فى بناء السماء آية لقوم يتذكرون ولذلك كان العمران الاسلامى متعلقا بالسماء وآياتها ولم يكن مغلقا أو منكمشا الى الداخل بل كان مبسوطا على الأرض ومفتوحا الى السماء ومتجها اليها تمشيا مع العقيدة والشريعة السمحاء التى جاء بها الاسلام ٠

تلك العقيدة التى تلقت كل أمورها من السماء بأمر رب العالمين نزل بها الروح الأمين على سيد المرسلين وخاتم النبيين ٠ وأجدر بمخططى المدن أن يأخذوا بهـــذا المبدأ وهو الانفتاح على السماء وعدم التراكم والتزاحم وتركيز العمران واهمال الساحات المفتوحة داخل النسيج العمرانى وتخطيط الأراضى العمرانية قطعا فسيحة وعدم تخطيطها قطعا صغيرة لا تكفى لتخصيص مساحات مفتوحة داخل السكن ٠

اذ أن البناء والعمران الاسلامى كان متعلقا بالسماء فى كل معانيه ولذلك حقت عليه التسمية بالعمران الاسلامى وعلى العمران الاسلامى الحديث أن يتحرى الهداية من السماء حتى يكون معبرا ومناسبا للاسلام ٠

العناصر المعمارية ووحدات التكوين في العمارة والفنون الاسلامية :

٢/٢

قبل شرح أهم العناصر المعمارية يجدر بنا الاشارة الى عناصر التكوين أو أولا للمساجد والأبنية الأخرى كالوكالات والمنازل الربية وهى المساقط الأفقية والحوائط الخارجية والداخل والفتحات • وفيما يلى شرح لها •

● المساقط الأفقية :

كان المسجد هو أهم الأبنية فى عصور الاسلام والغاية الكبرى فى التصميم المعمارى ، ولذلك اهتم المسلمون بتصميمه ، وأهم ما يتطلبه من عناصر تكوينه هو الصحن الذى يتسع لأكبر عدد من المصلين ويلى ذلك الميضأة ••• وكان يحيط بالصحن المكشوف أروقة لحماية الناس والمصلين من حرارة الشمس وخاصة الرواق الميم شطر مكة المكرمة ، فاة أكثر عمقا من باقى الأروقة ، وفى حائطه يوجد المحراب أو القبلة التى تتجه الى الكعبة وعلى جانبها المنبر ، وعلى مقربة منه مقعد أو « دكة » المبلغ لتلاوة القرآن الكريم • كما تحتل المآذن أهمية خاصة لبعض أجزاء التصميم مثل زوايا مكان العبادة من المسجد •

وهناك نوع مختلف فى تصميم المساجد على غرار جامع السلطان حسن ، الذى يتسم بنظام المدرسة ذات الأربعة أروقة لتعليم الشريعة والمذاهب الأربعة للدين الحنيف ، وعادة ما كان يبنى قبر لمؤسس المسجد تحت قبة خلف المحراب أو القبلة • ومن ابنية التى اهتم بها المسلمون بعد المساجد ، هى «« الوكالة أو الخان » أى الفندق حيث كان يبنى فى المدن الكبيرة مثل القاهرة ودمشق والقسطنطينية • وكان يتكون من فناء داخلى مكشوف ذا سعة كبيرة تطل عليه عدة حجرات للنوم ودورات المياه اللازمة • ويتكون من طابقين لاستقبال الغرباء من التجار والزوار ، وسيأتى شرح الوكالة والربع بالتفصيل فيما بعد نظرا لأهميتها والدور الهام الذى كانت تؤديه الوكالات والربع •

أما فيما يتعلق بالمساكن فكانت بطريقة أنفرد بها الشرق وسميت بالطابع الشرقى ، وذلك بعزل بعض وحدات المبنى وتخصيصها للنساء (الحريم) وسميت بالحرملك لتمسك المسلمون بفكرة الحجاب ، وبطبيعة الحال كانت الفتحات المطلة على الطريق العام ضيقة صغيرة تحميها قضبان من الحديد ، أما الفتحات فكانت ذات سمة مناسبة تحتوى على ضيقة مغطاة بمشربيات خشبية لحمايتها من الشمس

وللحصول على الحجاب المطلوب · وسيأتي شرح المسكن العربى بالتفصيل بعد ذلك ·

● الحوائط الخارجية :

كانت الحوائط الخارجية عادة قليلة الفتحات المطلة على الطريق العام ، ولذلك اهتم العرب بتصميم الأفقية الداخلية والعناية بها ، وجعل الفتحات الهامة الرئيسية تطل على هذه الأفنية من الداخل · وكانت تبنى الحوائط على مداميك منظومة من الحجر ، وعدد من قوالب الطوب · بالتماقب أو الحجر المختلف الألوان · وتقسم الواجهات عادة الى بانوها Panels غاطسة قليلا الى الداخل ذات عقد فى الأمثلة الأولى للمبانى ، أو تتوج بعقد مستقيم كما فى الأمثلة الأخيرة منها ينشأ فوق تكوين بديع من المقرنصات (يرجى أن تنظر الأشكال الموضـــوحة) ، وليس من الضرورى جعل هذه البانوهات أو أكتافها بأبعاد ثابتة منتظمة بالواجهة ، بل كانت تتغير وفق النظام الداخلى للمبنى · وكان خلف المحرات عادة كتف عريض بفتحة دائرية صغيرة داخل برواز مربع مشغول بالحفر Low relief carving · وكانت أغلب البانوهات تحتوى على صفين من الفتحات السفلية متوجة بعقود مستقيمة ولحامات مزررة joggled flat arehes يخفف عنهـــا عقد دائرى موتور منخفض ذا لحاما محلية ومحدد أعلاه باستقامة (تنظر الشكل الموشح) · وكان الفراغ الناشىء بين العتب والعقد يغطى بمرآة من القيشانى أو ما يسمى بالعراق بالكاش الفرفورى أو فى بلاد أخرى بالفسيفساء البديع الألوان مشغول بشكل زخرفى Arabesque ويثبت لهذه الفتحات ضلف شمسية خلف مصبعات من الحديد أو النحاس ، أما الفتحات العلوية فكانت على شكل عقود مخموسة ، أو تنفتح عن نافذة ذات فتحتين ترتكز على عمود فى الوسط يعلوها فتحة دائرية كانت تملأ بالجبس أو الزجاج · وعادة كان يوجد بزوايا المبنى بالواجهات أعمدة سهلة مستقيمة أو حلزونية وتتوج الحوائط من أعلا شواهد مختلفة الأشكال والألوان بدلا من الكرانيش ·

● المداخل والفتحات :

كانت المداخل عبارة عن فتحات عميقة مستطيلة فى المسقط الأفقى ، عمقها يقرب من نصف عرضها ، وتحتل معظم ارتفاع المبنى وتنتهى بعقد مدائنى مخصـــوص ، وينتهى بعقد مستقيم يعلوه شباك صغير يغطى بمشربية أو أعمال معدنية · وكثيرا ما توضع هذه الفتحة فى بانوه على جانبيه عمودان وأعلاه حلية زخرفية على شكل شرفة · أما الفتحات فكانت أعمال النجارة فيها تحتل مكانا عاما فى الفتحة بأشكال هندسية بديعة مفرغة تحتوى على الزجاج الملون · وخاصة الفتحات العلوية فى

المبنى التى وضعت على شكل شرفات مصنوعة من الخشب المجمع المعروف باشغال المشربيات · والتى تعتبر من أهم العناصر المعمارية فى العمارة الاسلامية ·

أما أهم العناصر التذوينية فى العمارة الاسلامية فهى ما يأتى :

١ ــ المـــآذن :

ظهرت المآذن فى العمارة الاسلامية لأول مرة فى دمشق حين أذن بالصلاة من أبراج المعبد القديم الذى قام فيما بعد على أنقاضه المسجد الأموى · وكانت هذه الأبراج هى الأصل الذى بنيت على منواله المآذن الأولى فى العمارة الاســـلامية ، ولا سيما فى مصر والشام وبلاد المغرب · كان استعمال المواد فى بناء المآذن يتوقف على مادة البناء المستعملة فى الأقليم · وفى أسبانيا مثلا استعمل الحجر ، وفى المغرب الطوب ، وفى مصر الحجر ، وكذلك فى الشام واسيا الصغرى ، واستعمل الطوب فى ايران وأفغانستان · وقد أشار المقريزى عند الكلام على اعادة بناء جامع عمرو الى بناء المآذن فى مصر لأول مرة ، ولكن الثابت أن المآذن الأولى التى شيدت أبراج مربعة ، وأن هذا الطراز فى بناء المآذن انتقل الى سائر بلاد العالم الاسلامى ، ولا يزال هذا الطراز سائدا فى المغرب · وفى مصر انتشرت طرز مختلفة من المآذن حتى يمكن اعتبار القاهرة مركزا لمعظم أنواع المآذن التى عرفتها العمارة الاسلامية ولذلك سميت القاهرة بالمدينة ذات الالف مئذنة · وأقدم المآذن التى عرفتها العمارة الاسلامية مأذنة جامع أحمد بن طولون ، وهى تقع فى الرواق الخارجى وتتألف من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية عليها طبقة أخرى مثمنة ، وفضلا عن ذلك فان سلالمها من الخارج على شكل حلزونى ثم تطورت الى المآذن التى عمت فيما بعد·

كانت المآذن فى العصر الاســـلامى الأول مربعـــة القطاع حتى الشـــرفة الأولى ، ثم تستمر كذلك مربعة أو على شكل ثمانى الأضلاع ، ويلى ذلك شكل مثمن أو دائرى وتنتهى بقبة صغيرة · أما مآذن العصر الذهبى فى الاسلام فكانت تقام على قاعدة مربعة ترتفع قليلا أعلى سقف المسجد وبعد ذلك تتحول على شـــكل ثمانى الأضلاع الى الشرفة الأولى وكان يحلى كل ضلع من هذه الأضـــلاع الثمانية قبلة صغيرة مزودة بأعمدة لها نهاية مثلثة الشكل ، ويستمر هذا الشكل المثمن الى أعلى، وغالبا ما يكون قطر هذا المثمن أقل منه فى المثمن الأول · وتعالج هذه الأســـطح الخارجية بالحفر الزخرفى وأعمال الأرابسك · وفى نهاية المئذنة ظهر القطاع دائريا أو يحتوى على أعمدة لحمل الشرفة العليا ، مع تتويج نهايتها بشكل مبخرة على حلية على شكل تقوير -- Report يعلوها نهاية من البرونز ·

ومن أهم ما تتميز به المآذن فى هـــذا العصر الشرفات البارزة ذات الخمـــائل الجميلة المصنوعة من الجبس أو الحجر الصناعى ، مفرغة تحمـــل على تكوينات معمارية من المقرنصات كما فى جامع قايتباى • وأعطت هذه المآذن صفة لهـــذه الجوامع الاسلامية بجمال وشكل وسحر ، وهى ترتفع كالسهم فى الفضاء السماوى الربانى خلفها كأنها أذرع ممتدة الى الله سبحانه وتعالى تطلب المزيد من الرحمة والمغفرة • أما مآذن الدولة العثمانية ، فقد كانت من النوع المخروطى على شكل القلم Pencil point ، وهى دائرية القطاع بكامل ارتفاعها ، وتنتهى بشكل مخروطى وغالبا ما تكون لها شرفة واحدة استعيض فيها عن البرامق الحجرية بحواجز من الخشب • يرجى أن تنظر الصور والرسومات أشكال ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ص ١١٤ ، ١١٥ •

● ٢ ـ العقــود :

عرفت العمارة الاسلامية أنواعا مختلفة من العقود ، وكان كل بلد يفضل هذه العقود على البعض الآخر • ومن العقود التى استعملت فى العمارة الاسلامية بوجه عام ما يأتى :

أولا : عقد على شكل حدوة الحصان ، وهو عقد يرتفع مركزه عن رجلى العقد ، ويتألف من قطاع دائرى أكبر من نصف دائرة ـ يرجى أن ننظر الأشكال الموضحة بالرسومات •

ثانيا : العقد المخموس وهو يتألف من قوس ودائرتين وهو مدبب الشكل •

ثالثا : العقد ذو الفصوص ، استعمل خصوصا فى بلاد المغـرب ويتألف من سلسلة عقود صغيرة •

يرجى أن ينظر الصور والرسومات أشكال ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ •

٣ ـ الحليات والزخارف والمقرنصات :

هى حليات معمارية تشبه خلايا النحل ، استعملت فى المساجد فى طبقـــات مرصوصة وتستعمل فى الزخرفة المعمارية أو بالتدرج من شكل الى آخر وخصوصا من السطح المربع الى السطح الدائرى الذى تقوم عليه القباب • وهذه المقرنصات تقوم فى بعض الأحيان مقام الكوابيل ، وظهرت المقرنصات فى القرن الحادى عشر ثم أقبل المسلمون على استعمالها استعمالا عظيما حتى صارت من مميزات العمارة الاسلامية فى واجهات المساجد والمساكن وتحت القباب وفى تيجان الأعمـــدة وفى الأسقف الخشبية • واختلفت أشكالها باختلاف الزمان والمكان • وقد بلغ استعمال المقرنصات ذروته فى قصر الحمراء بغرناطة • وكان الأصل فى المقرنصات الطاقة المفردة فى كل ركن من أركان الحجرة المربعة عندما يراد أن يبنى فوقها قبة مستديرة •

كانت الحليات فى العمارة الاسلامية قليلة التأثير فى التصـــميم المعمارى ، واعتبرت المقرنصات المنظومة الصفوف كالحليات أو الكرانيس فى العمارة الكلاسيك. أما الزخارف فكانت مشتقة من روح الاسلام واصالته وتعاليمه والامتناع عن عمل التماثيل والأصنام ولذلك اختلفت زخارف العمارة الاسلامية عن مثيلاتها فى العمارة أو المعابد الاغريقية أو أقواس النصر الرومانية · واهتم المسلمون بدراسة الزخارف الهندسية واعتنوا عناية تامة بالألوان وخاصة الزاهية منها ، وخاصة الأحمر والأبيض والأزرق والذهبى والفضى ، ونشأ من تلك الخطوط والتكوينات الشكل الأرابسك ، وظهر أثر ذلك الفن فى تحسين الخطوط القديمة الكوفية وفى أعمال وأشغال المشربيات فى تجميع الأخشاب لأعمال النجارة والمشربيات والشرفات والمحرات والمنبر والتطعيم بالعاج والأبنوس والسن والصدف ·

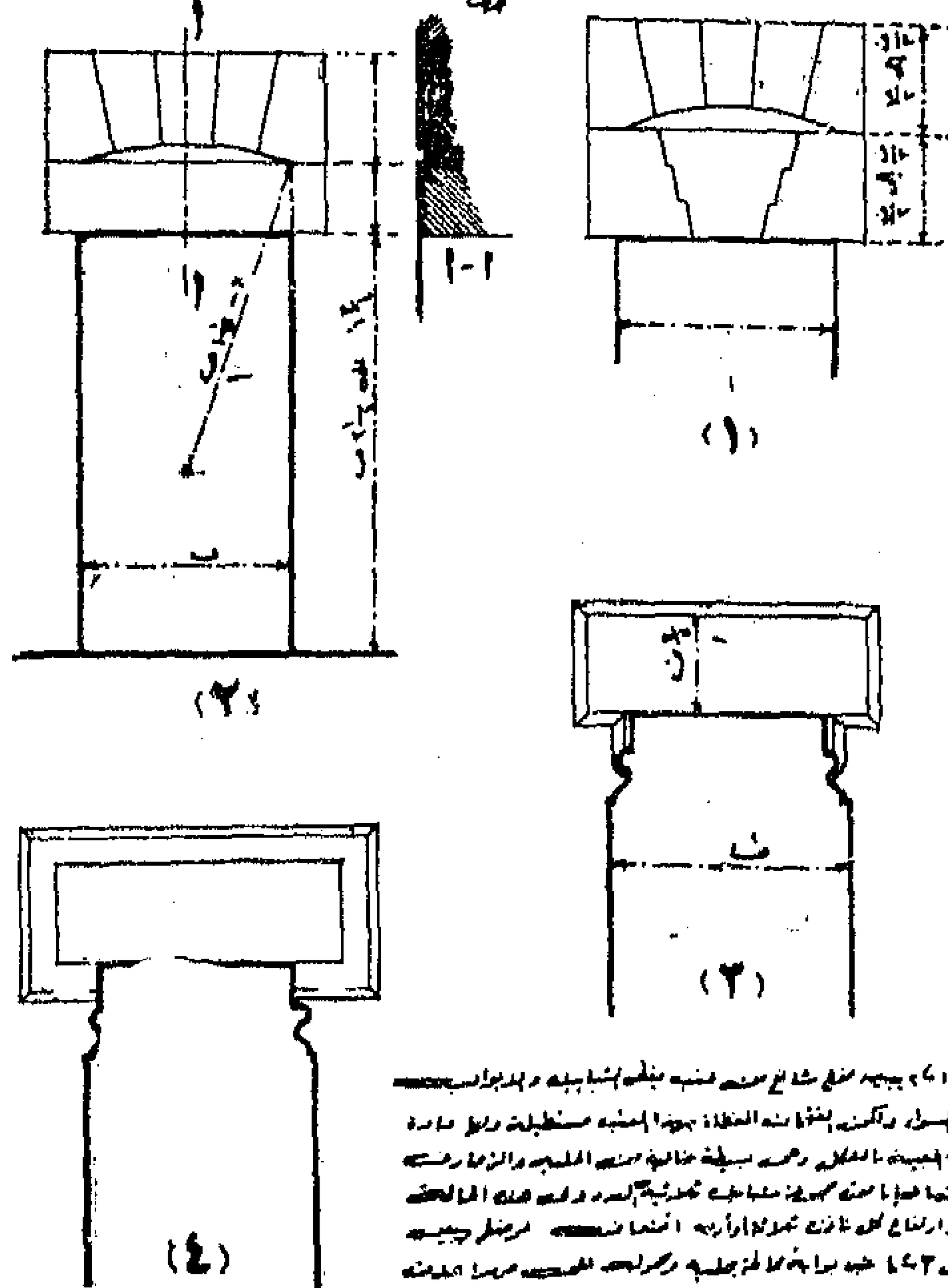
ومن الجدير بالذكر أن لزخارف العمارة الاسلامية حلاوة ينعم بها دون غيرها من زخارف الطرز الأخرى ، كما تنفرد بمشروع كامل لدراسة الألوان ، وتتميز بالبساطة التامة فى التصميم حيث كانت العمارة الالسلامية أكثر العمارات حياة وأشدها بهجة وأعظمها خلوداً · يرجى أن تنظر الصور والرسومات أشكال ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ·

٤ ــ الأعمدة والتيجان :

استعملت فى البداية أعمدة كانت تنقل من المعابد والكنائس والعمائر المزينة ، وفى جامع عمرو أمثلة من هذه العمد ، المختلفة الطراز · ثم أكتسبت العمارة الاسلامية أعمدة وتيجان مبتكرة سميت أعمدة ذات البدن الأسطوانى ، وذات المضلع تضليع حلزونى ، وذات البدن المثمن الشكل تزين أحيانا أضلاعه بالزخارف النباتية كما هو الحال فى جامع قايتباى · أما فى تيجان الأعمدة فعرفت منها تيجان بسيطة ، وتيجان تشمل على ورق عن صنف النبات قد تصل فى جزئها الأسفل ، وتتألف صفحته من الزخارف النباتية · كما استعملت تيجان من المقرنصات ، وكانت تيجان الأعمدة قد تصل أحيانا بعضها ببعض عند بدء العقد بروابط خشبية قوية لمقاومة قوة فتح العتب·

كانت أبسط أنواع الأعمدة فى العمارة الاسلامية هى التى على شكل ناقوس ، وقواعد هذه الأعمدة مثلها أيضا ، غير أنها مقلوبة أى ناقوس معكوس وتماثلها قاعدة العمود ذى التاج المقرنص وأحيانا تكون قاعدته مثل قاعدة الكورنثى · وكانت الأعمدة فى بعض الأحيان تؤخذ من مبانى بعض أطلال الأبنية الرومانية القديمة أو البيزنطية القديمة لاستعمالها فى باكيات المساجد ، ومن الطبيعى كان تأثير هذه الأنواع من الأعمـدة غريبا فى مجموعه · يرجى أن تنظر الصور والرســـومات أشكال ١٤٥ ، ١٤٦ ص ١١٢ ·

أما الأعمدة التى ابتدعها فنانوا العرب والصناع المهرة فى العمارة الاسلامية فكانت تتميز بأشكال ىليلتها الشرقية العربية الأصيلة · كانت تمتاز بالبساطة، رفيعة،



١٢٧ ـ **الفتحات :** الشكل ١ ، ٢ يوضح نوع شائع الاستعمال من عتب يغطى الشبابيك والأبواب على السواء والفتحات المغطاة بهذا النوع من العتب مستطيلة ولها نسبها المبينة بالشكل وبسيطة خالية من الحلية أو الزخارف· ويتكون أحيانا من مجموعة من شبابيك ثلاثية العدد ، وفى هذه الحالة يكون ارتفاع كل نافذة ثلاثة أو أربعة أضعاف عرضها ·

ويوضح الشكل ٣ ، ٤ عتب أبواب محاطة بحلية · والشكل ٤ ما هو الا صورة معدلة للشكل ٣ ، وهذا العتب محاط بعصابة من حجر ملون أو فسيفساء سيراميك ملون ذات حلية تشبه اطارا خارجيا ·

١٢٨ ـ **العقود :** ١ ـ عقد كثير الاستعمال فى الشبابيك والبوائك ·

٢ ـ عقد يستعمل فى النوافذ الصغيرة المتجاورة ، وتكون محصورة بين مقرنصات الاركان وأحيانا فى الجزء العلوى من حوائط المسجد · استعملت فى بواكى السلطان برقوق بالقاهرة ·

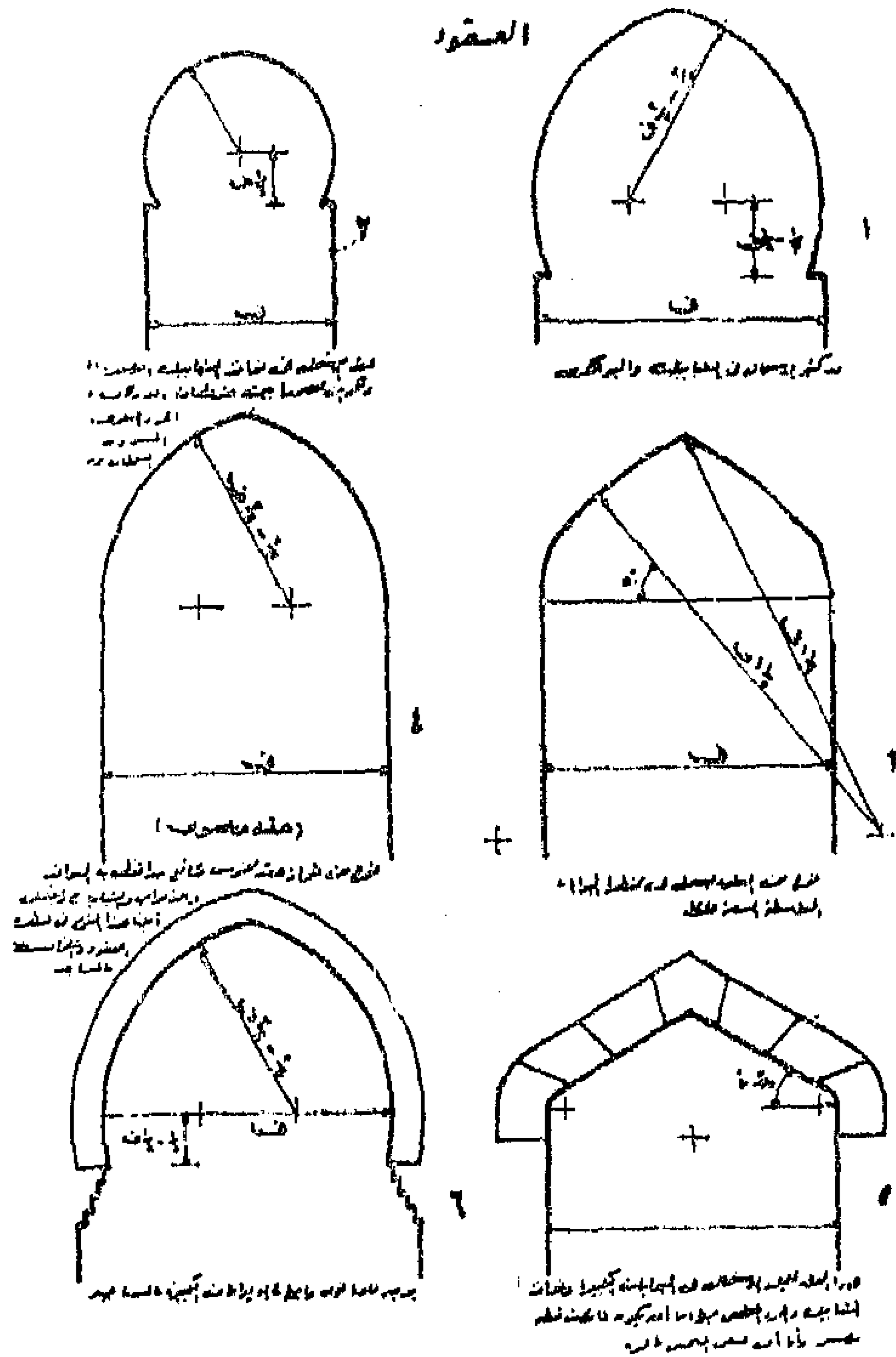
٣ ـ فرع من العقود يستعمل فى قنطرة البوابات المتوسطة السعة ·

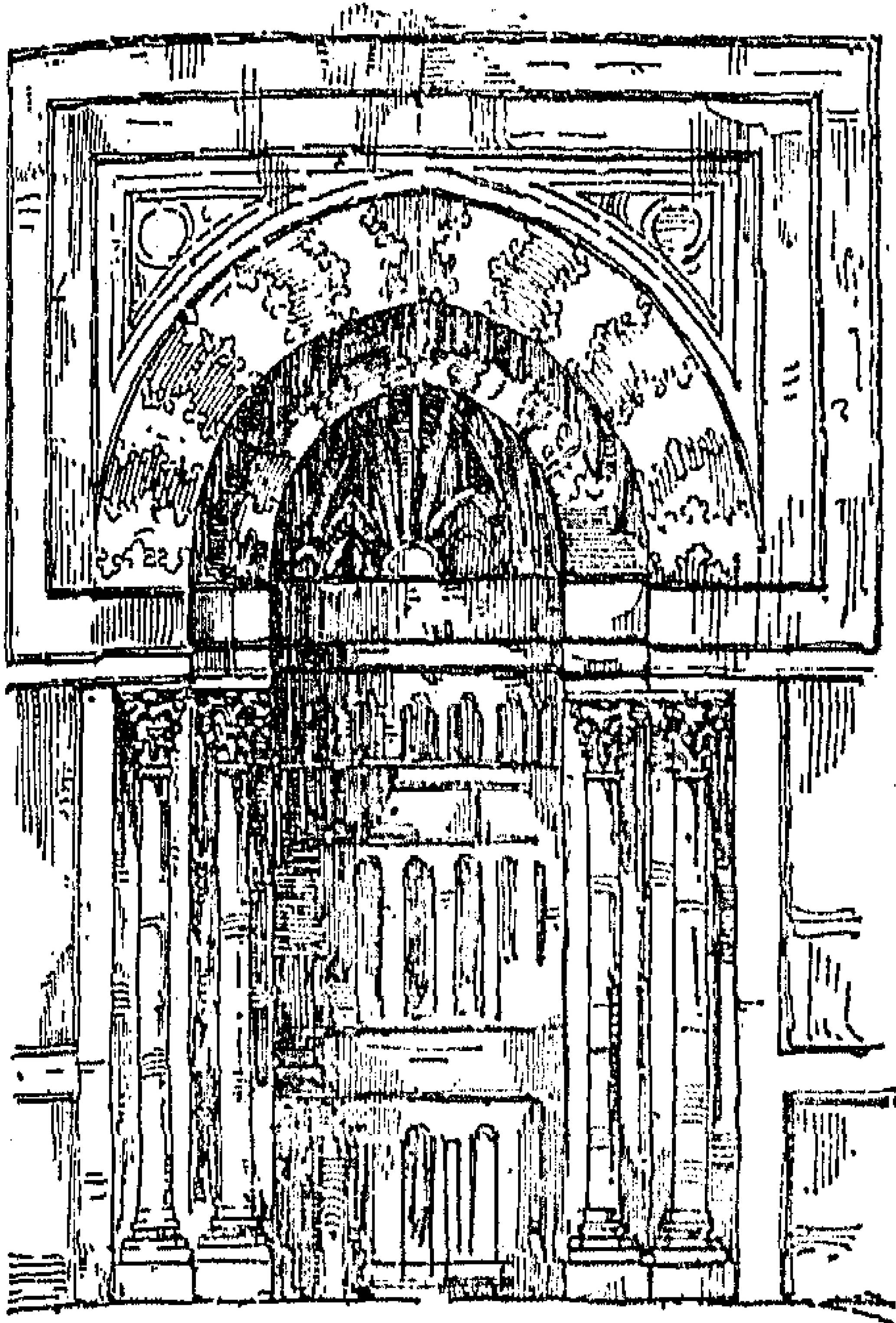
٤ ـ فرع من العقود المخموسة لتغطية الأبواب والشبابيك ، ويستعمل فى قنطرة العقود والفتحات بالمساجد ·

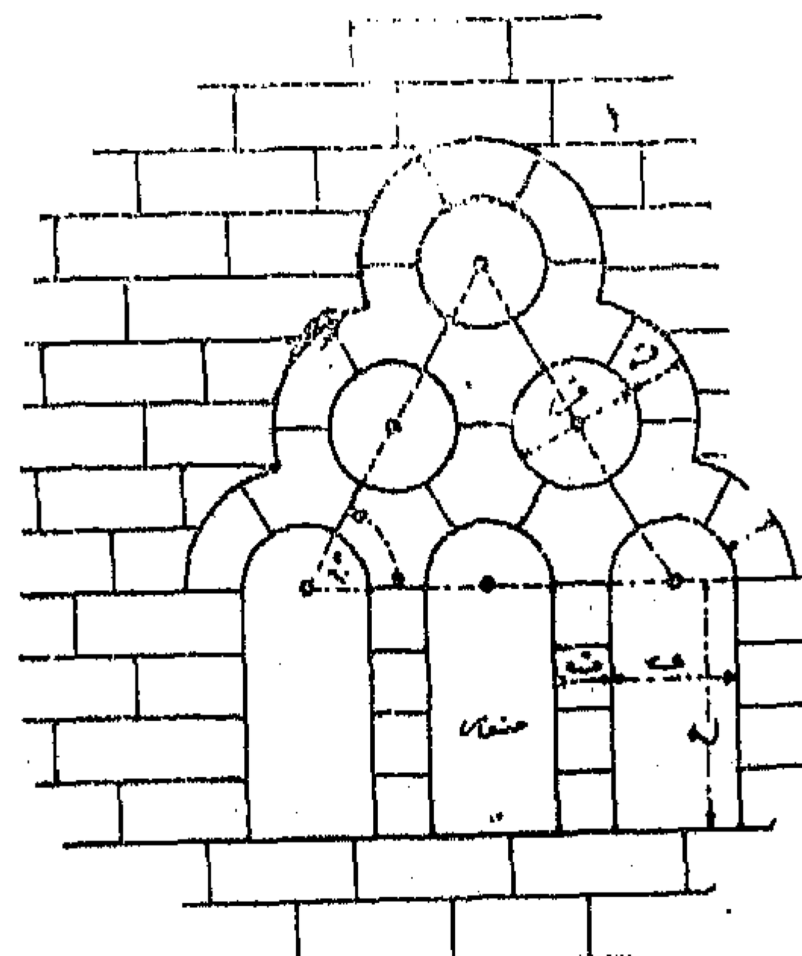
٥ ـ هذا العقد قليل الاستعمال فى الأبواب الكبيرة والشبابيك ، الجزء المنحنى فيها اما أن يكون ذا نصف قطر قصير ، واما أن يختفى ·

٦ ـ يستعمل هذا النوع من العقد فى واجهات الايوانات الكبيرة بالمساجد ·

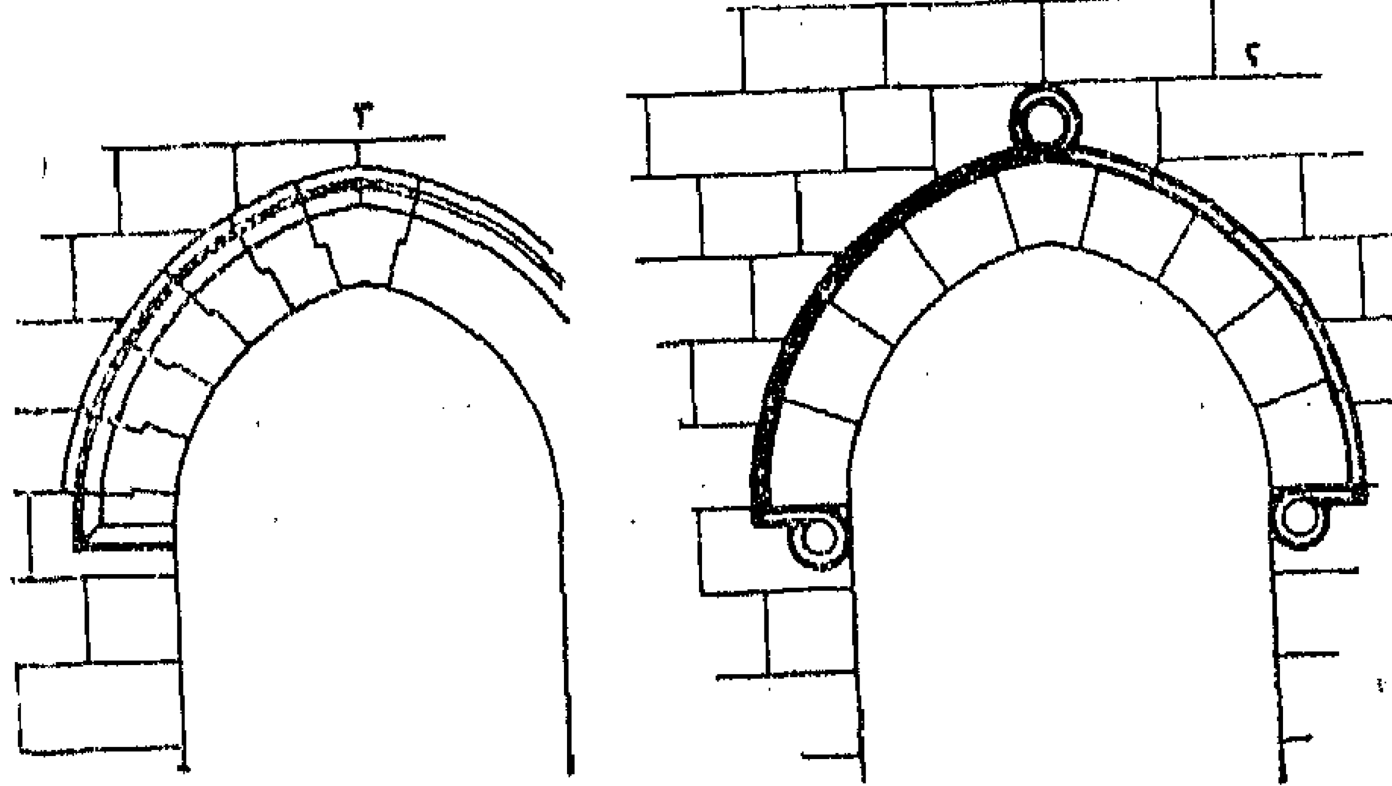
١٢٨ العمارة والحضارة الاسلامية

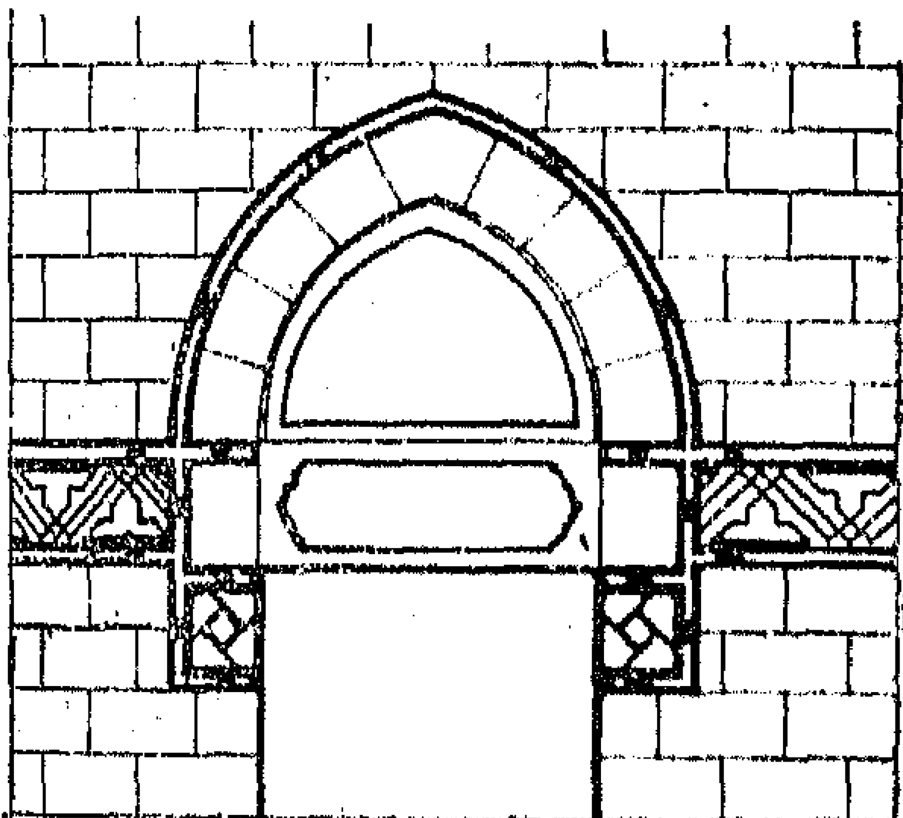


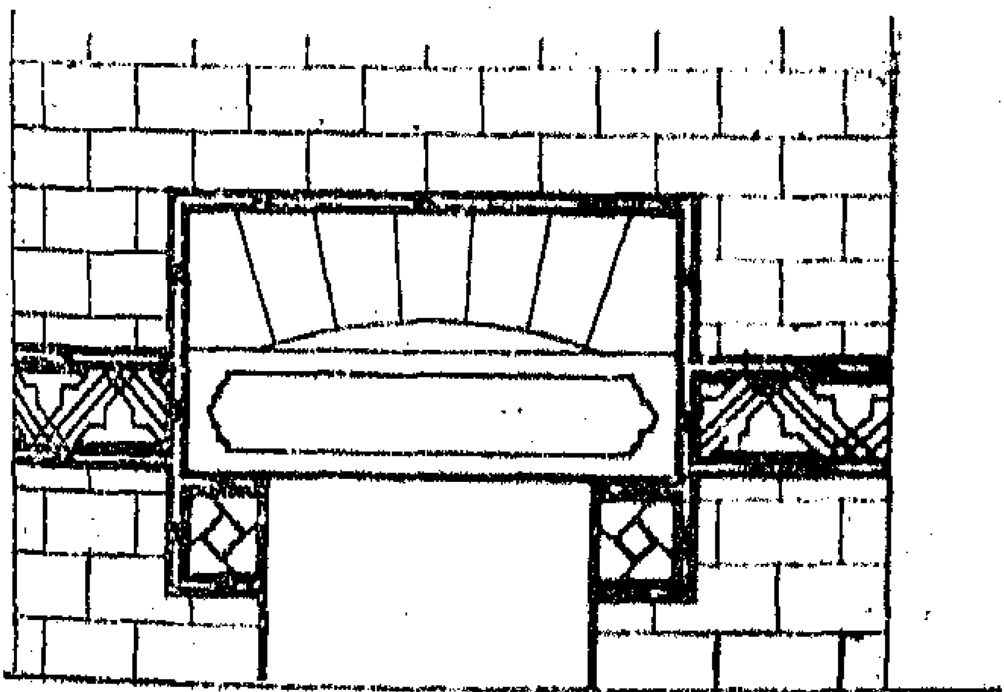




البوابات

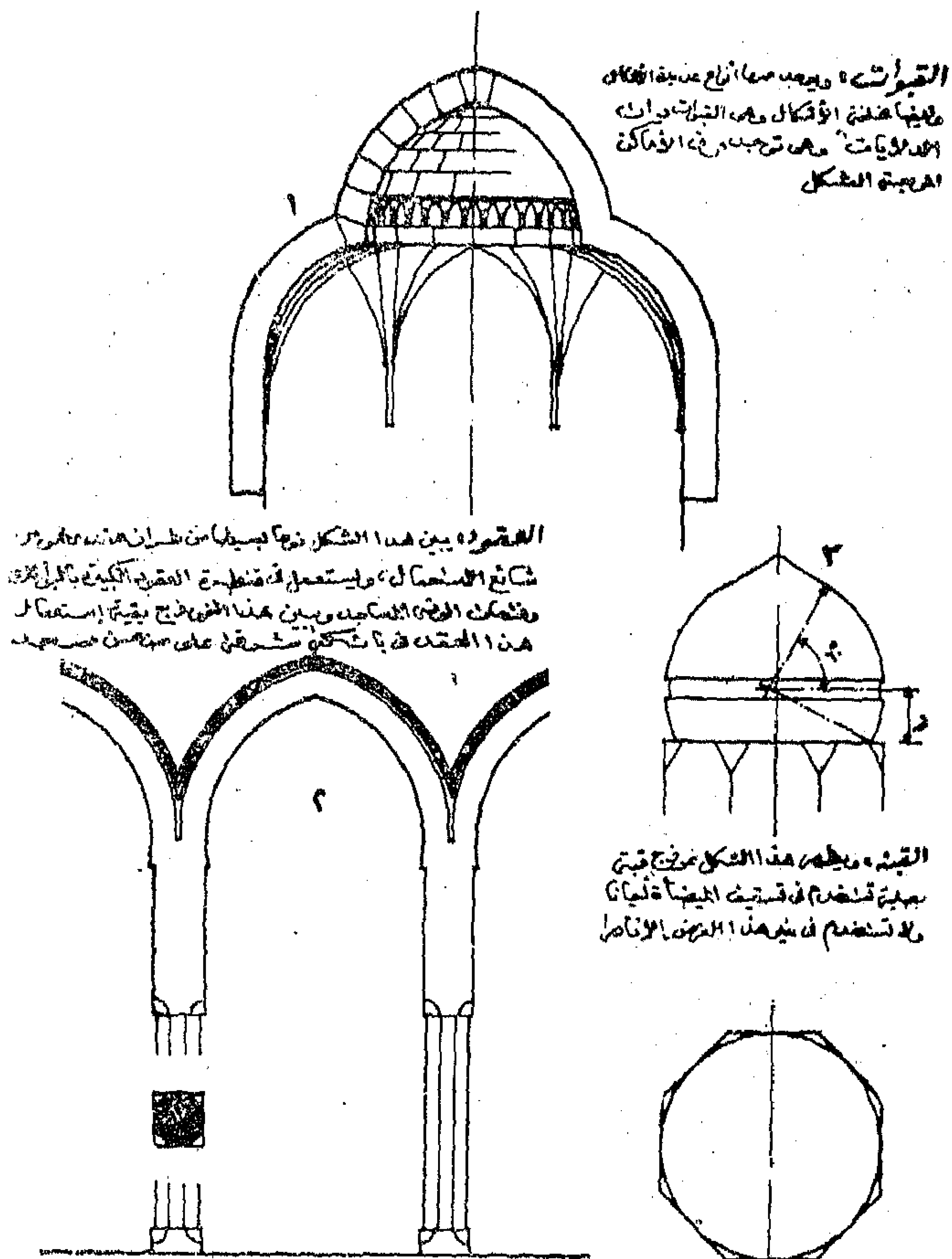


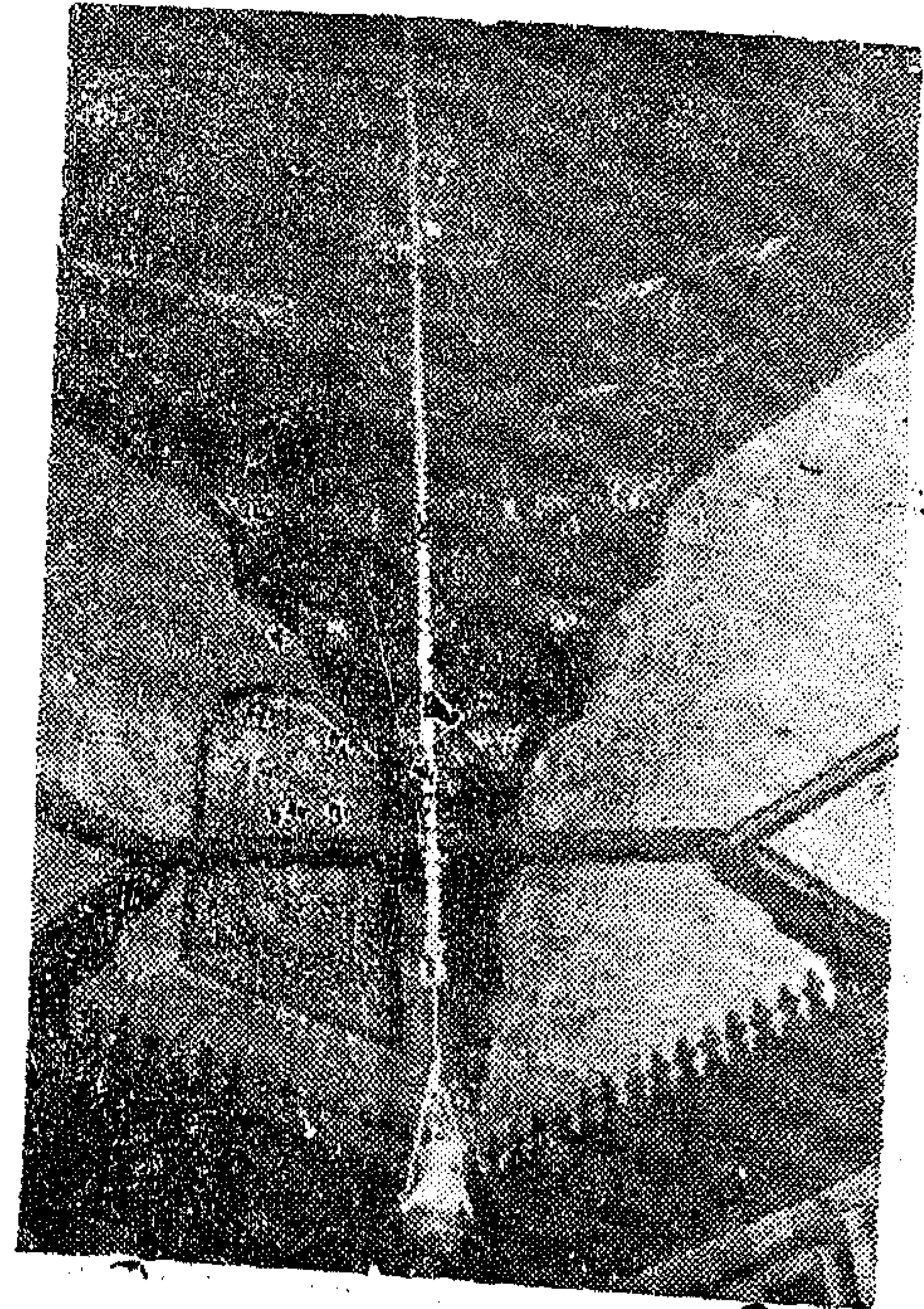




النوافذ : ١٢٩ : يوضح الشكل ١ نوعا من أنواع الشبابيك ذات الثلاث مناور ، وفى هذه الحالة تعلو المناور الداخلية مناور دائرية الشكل مجموعة على هيئة مثلث . وتوجد هذه الشبابيك عادة بين مقرنصات بجوار قبـــة ، ويلاحظ أن الارتفاع ع = ٢ ف وأن المســـافة ت = $\frac{1}{2}$ ف .

البوابات ــ ١٣٠ ، ١٣١ : يوضح الشكل ٢ ، ٣ رؤوس بوابات تحاط عادة بعصابة من الحجر الملون .

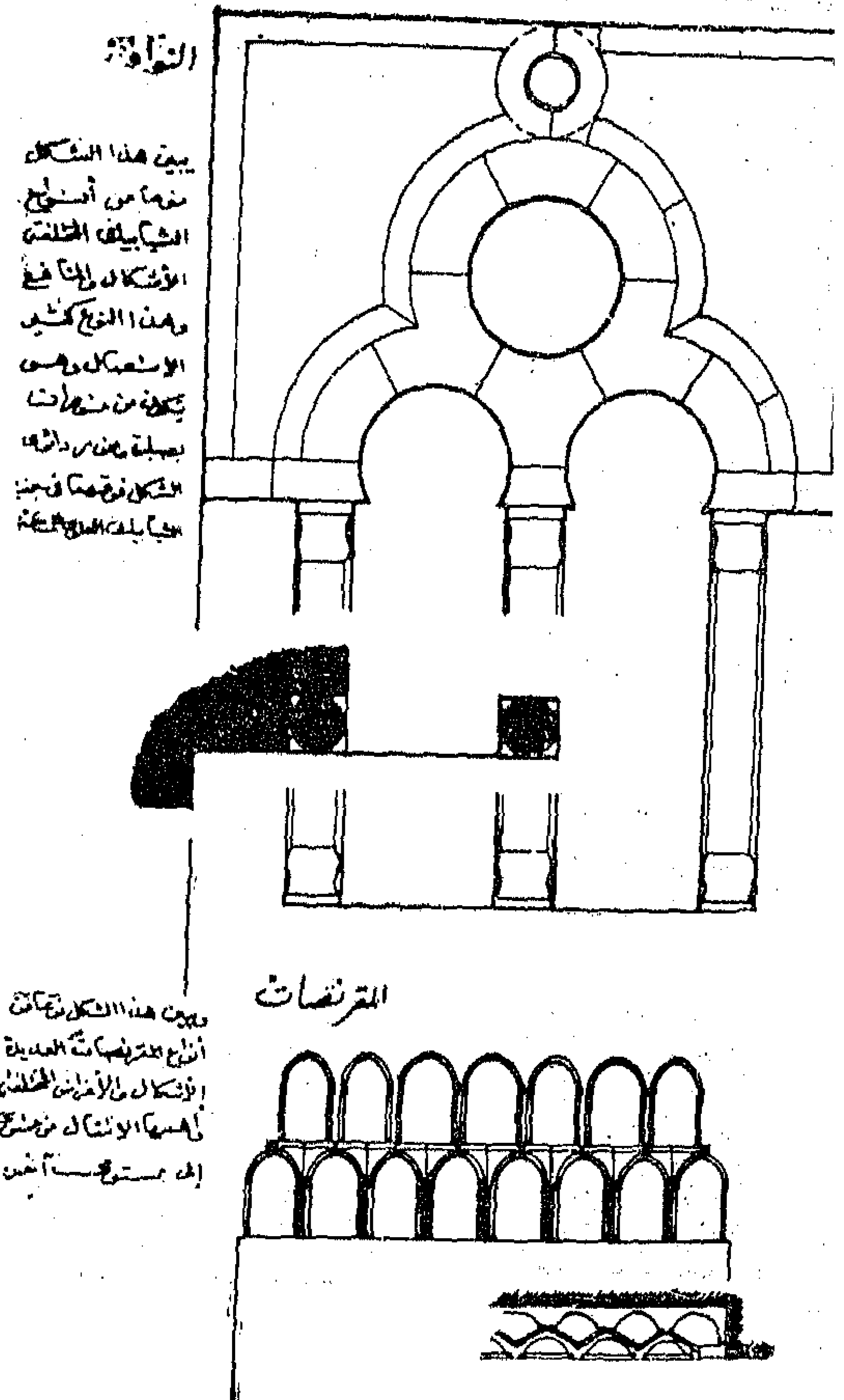




القبوات ـ ١٣٢ ، ١٣٣ : ١ ـ يوجد منها أنواع عديدة الأشكال ومختلفة ، وهى القبوات ذات الدلايات وتوجد فوق الأماكن المربعة الشكل·

العقود ـ ١٣٤ : ٢ ـ يوضح هذا الشكل نوعا بسيطا من العقد المخموس ، ويستعمل فى قنطرة العقود الكبيــرة بالبوائك وفتحات فى المساجد · ويبين هذا الشكل بقية استعمال هـذا العقد فى باكية شرفة على صحن المسجد ·

القبة ـ ٣ : نموذج قبة بصلية الشـكل تستخد فى تسقيف الميضأة أحيانا ، ولا تستخدم فى غير هذا الغرض الا نادرا ·

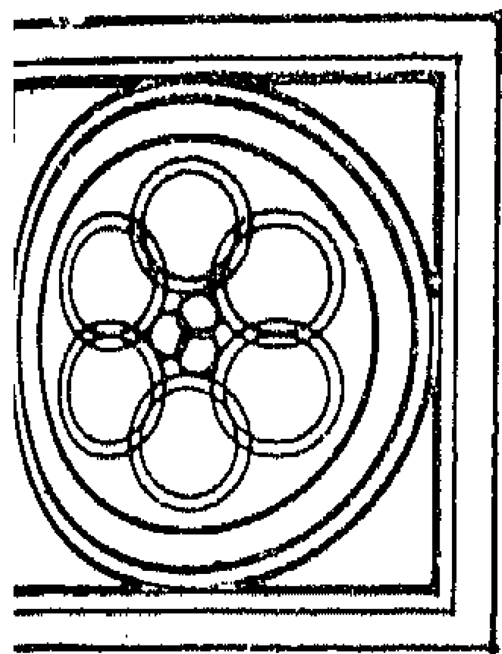
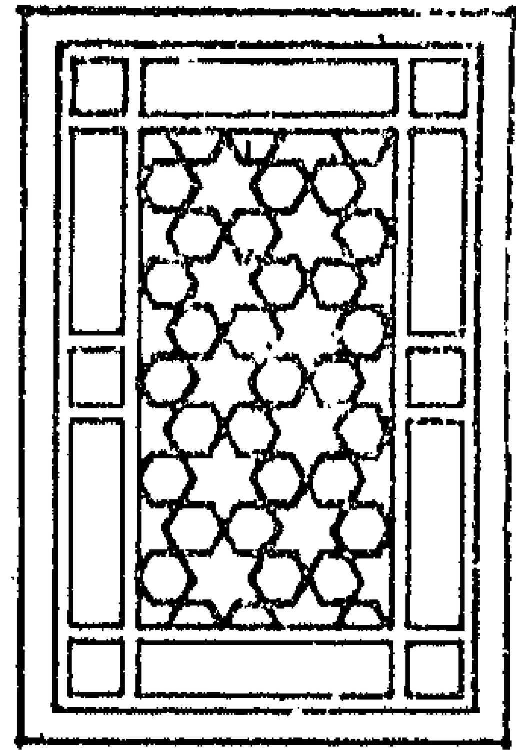
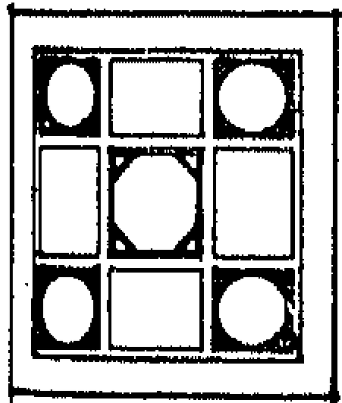
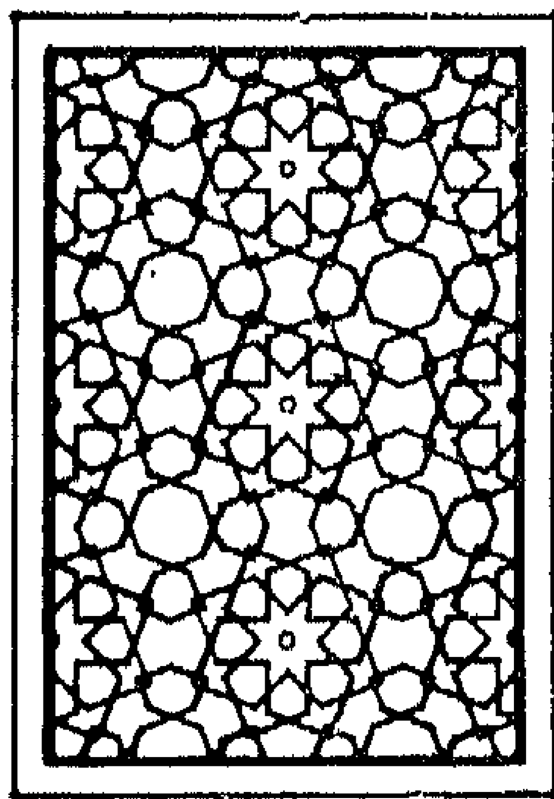
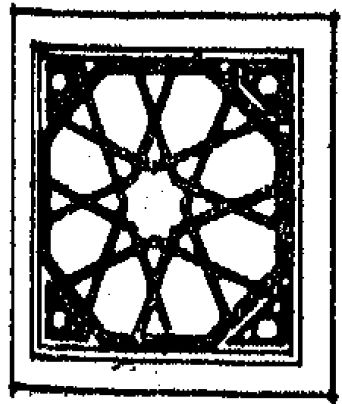


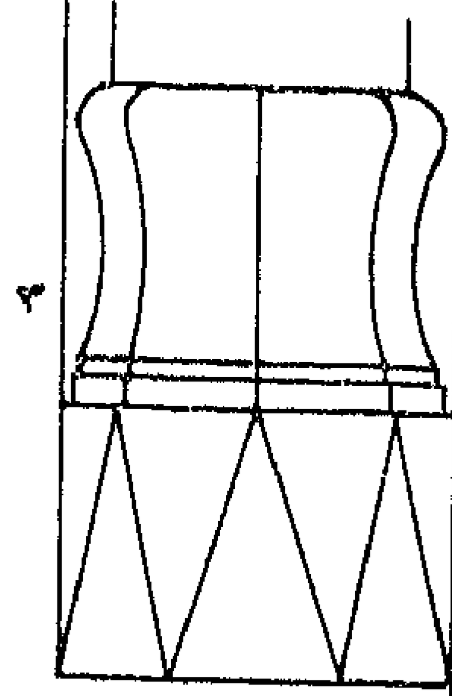
● الوحدات والعناصر المعمارية العربية

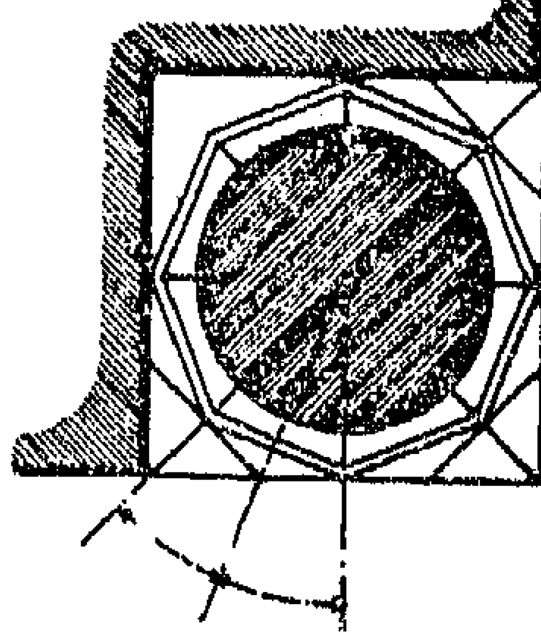
الأعمدة : ١٣٥ ــ يوضح الشكل ٣ ، ٤ واجهة ومسقط لقاعدة عمود ، وهذه القاعدة لا تخرج عن كونها تاج مقلوب · وفى هذا الشكل تظهر القاعدة عبارة عن مضلع ثمانى منتظم ، هذا الشكل له نظم فى مدرسة السلطان حسن ، تنظر اللوحة رقم ١٤٦ خاصة بالاعمدة ص٢٦٢

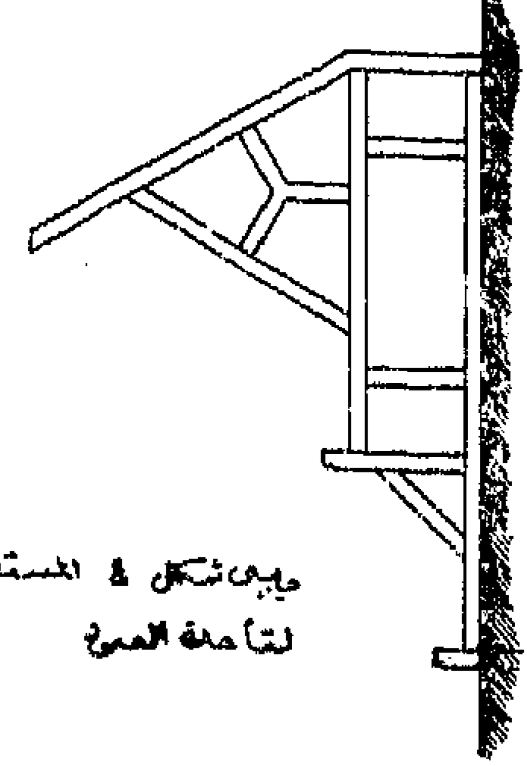
الزخارف : بعض الامثلة للزخارف الهندسية فى العمارة الاسلامية التى تتميز بالبساطة والتعبير الدقيق ·

الزخارف

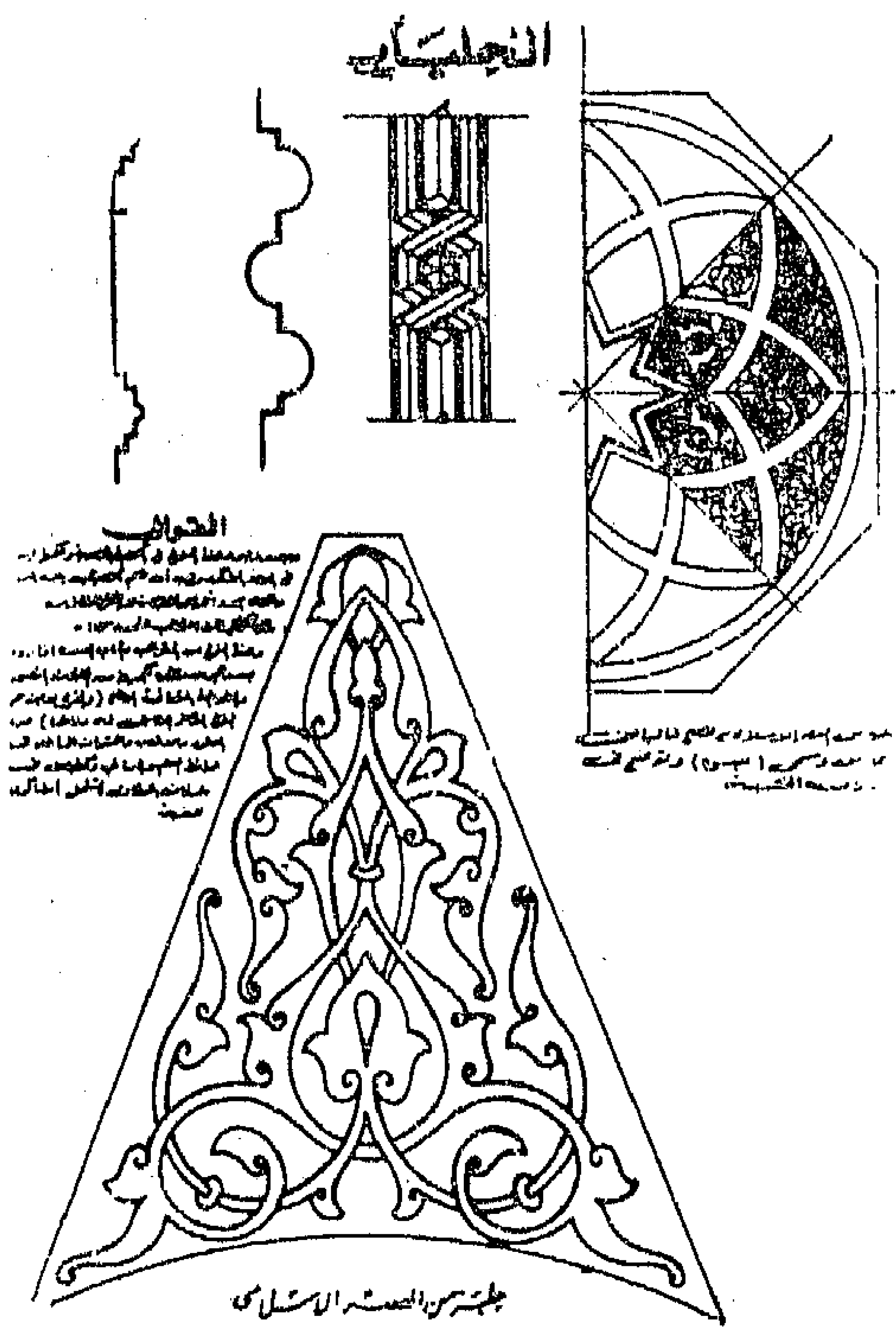






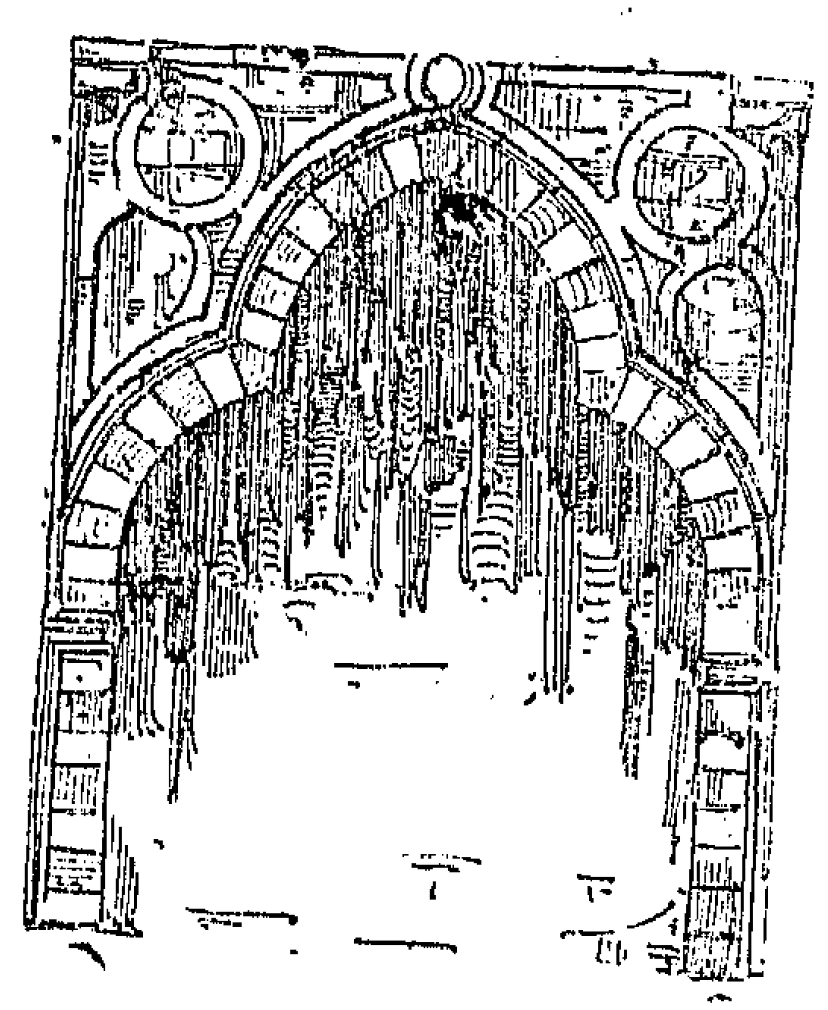




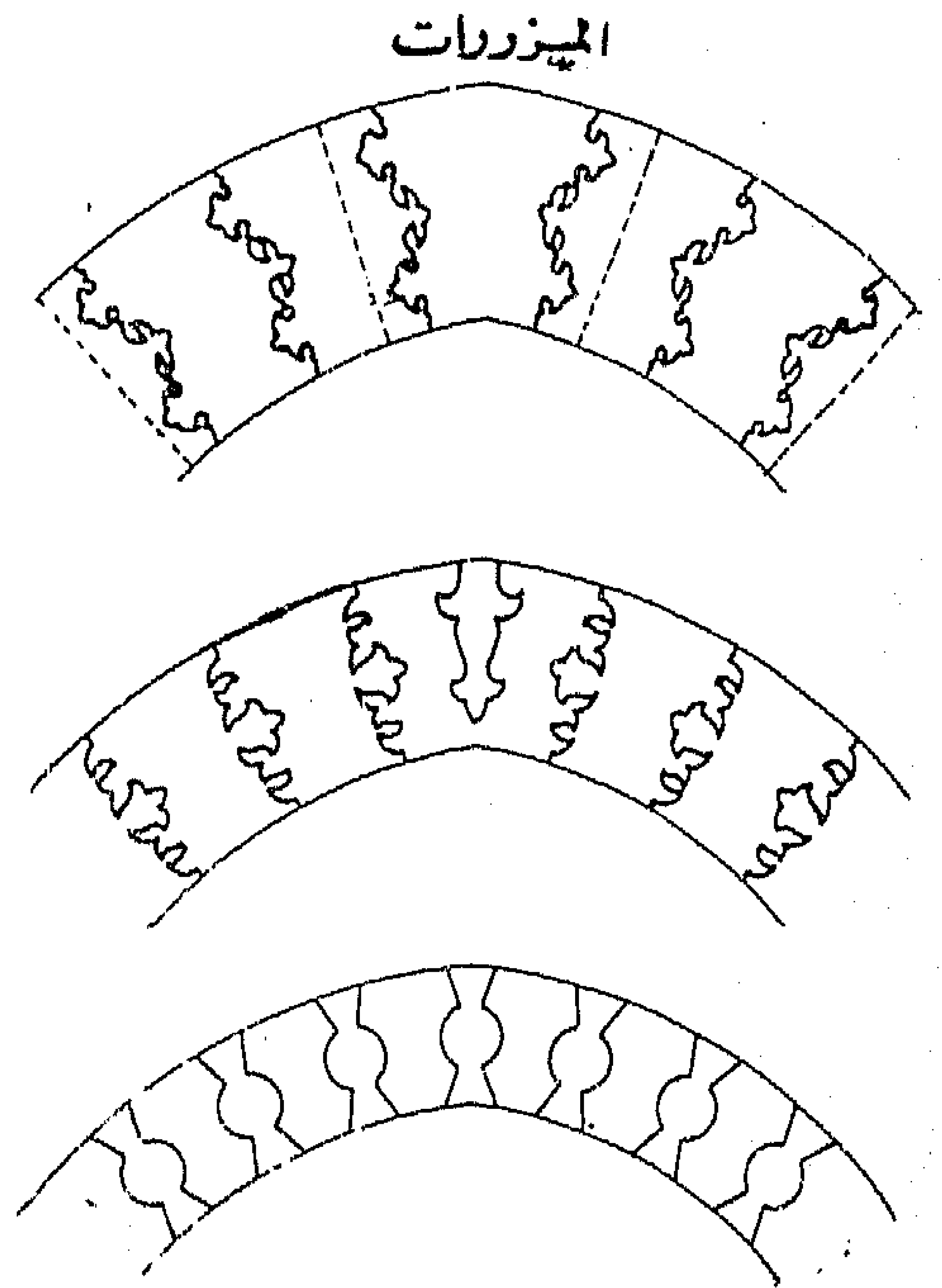



الرفارف : ١٣٦ ــ تتكون من سقف خشبى مائل محمول على كباسات « كوابيل » ويوضح الشكل ١ قطاعا لرفرف ، والشكل ٢ نموذجا كثير الاستعمال لكباس الرفارف وكلا الكباسات من طراز واحد مكون من اطار مستطيل بالحائط له أشكال تحته مائل عليه بزاوية ٤٥ واطار مثلثى اخر متصل بالمستطيل ويكون مثلث متساوى الاضلاع · وبذلك يميل السقف على الأفقى بزاوية ٣٠° ، ويظهر استخدام الزخرفة فى الاطارات الخشبية فى النوع الأول · وعدم استعمالها فى النوع الثانى · وتتكون الزخرفة من طبقتين بينهما فراغ ، وطرق اتصال الكوابيل بالحائط اما منفردة على مسافات متساوية · الا أن بعضها أو كلها تجمع فى القالب مثنى ·

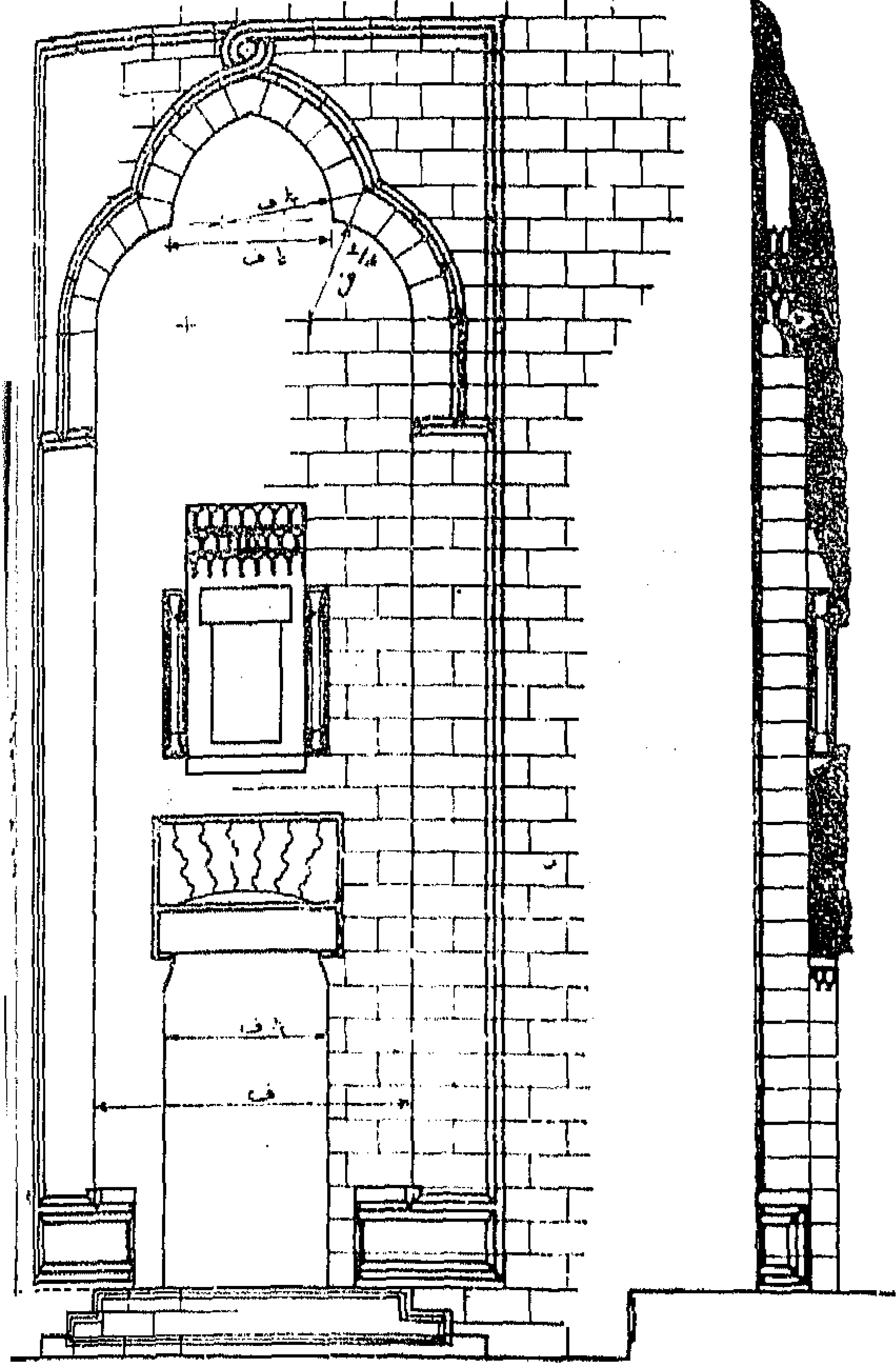


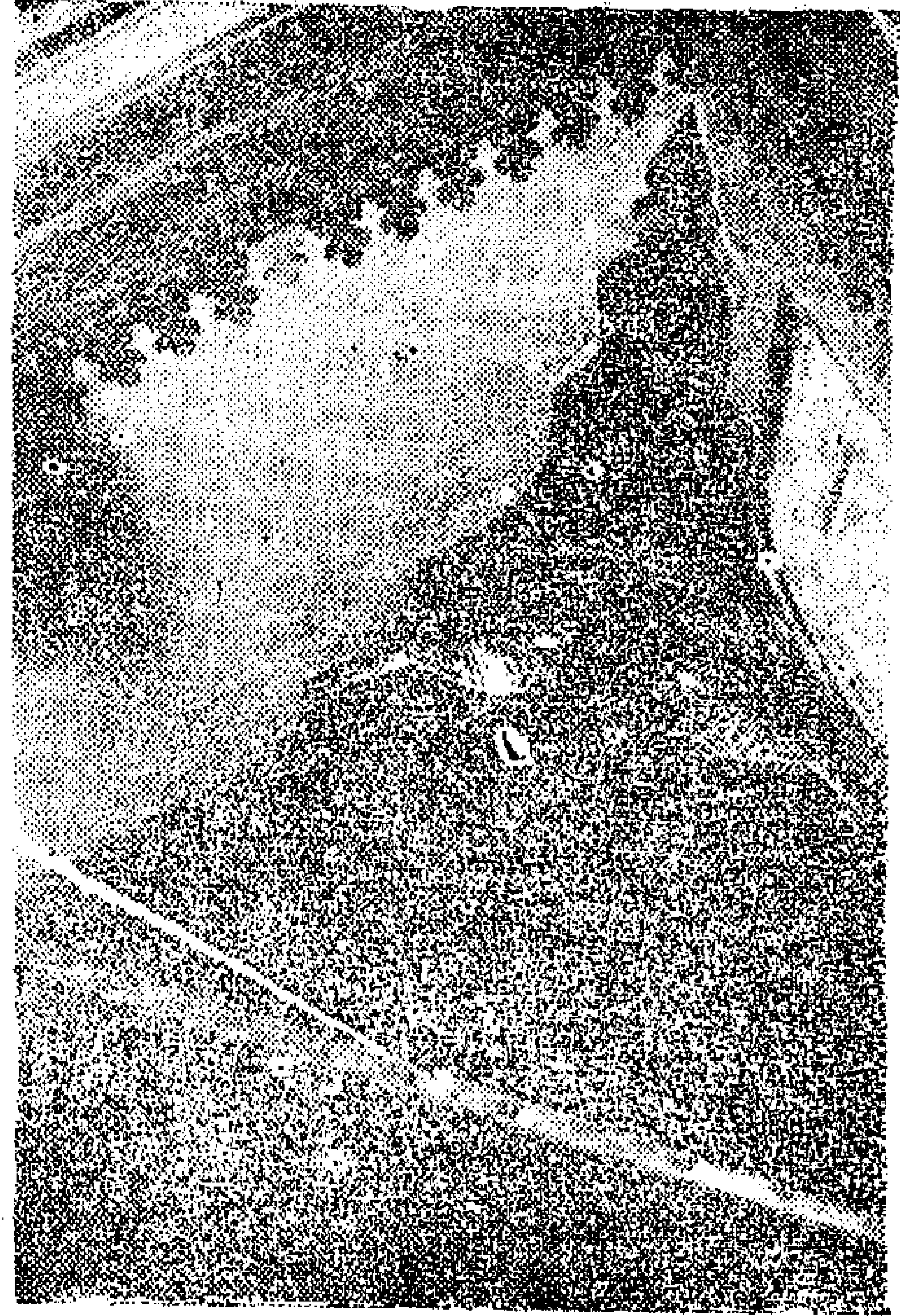


الحليات : ۱۳۷ ـ العصر الاسلامى غنى بالحليات التى تصنع غالبا من النحاس وتوضع على الأبواب الخشبية أو يتم صنعها بالحفر البارز على الخشب بأشكال هندسية مدروسة ـ يرجى أن ينظر الشرح الخاص بالحليات ٠



المزررات : ۱۳۸ ، ۱۳۹ ـ تستعمل فى العقودوالاعتاب وتسمى أجزاء العقد المكونة له « الصنج » وتستخدم لغرضين : الأول من الناحية الانشائية وهى منع انزلاق مكونات العقد ، والثانى من الناحية الزخرفية ٠ وتصنع الصنج ذات المزررات الزخرفية غالبا من لونين هما الابيض والأسود ، أو الأحمر والابيض متعاقبين ٠ وهذه المزررات الزخرفية مؤسسة على الاشكال البسيطة للاوراق التى تكون النموذج الزخرفى المستعمل فى العمارة العربية ٠









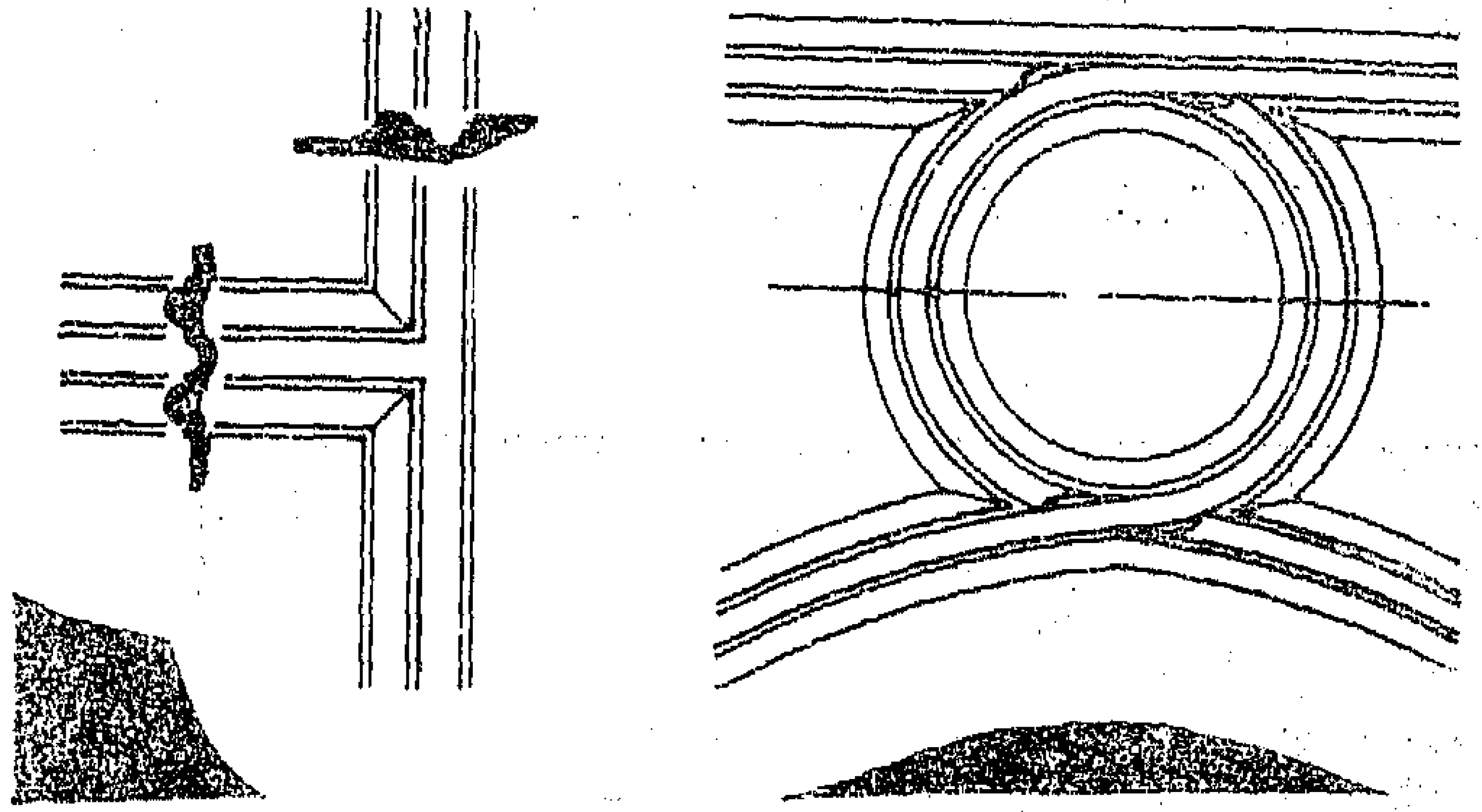
الكرادى : ١٤٠ ، ١٤١ ـ الكردى نوع من أنواع الكوابيل كثيرة الاستعمال ، ويرى فى هذا الشكل نوعا من أنواع الكرادى يحمل كمرة · ويوضح المسقط الافقى للكردى أن مقدم الكردى نصف نجمة حادة ، ويكون أحيانا قطاع الكمرة العرضى التى يحملها الكردى من نفس قطاع الكردى، وتمتد قنواته أفقيا بطول بطن الكمرة ·

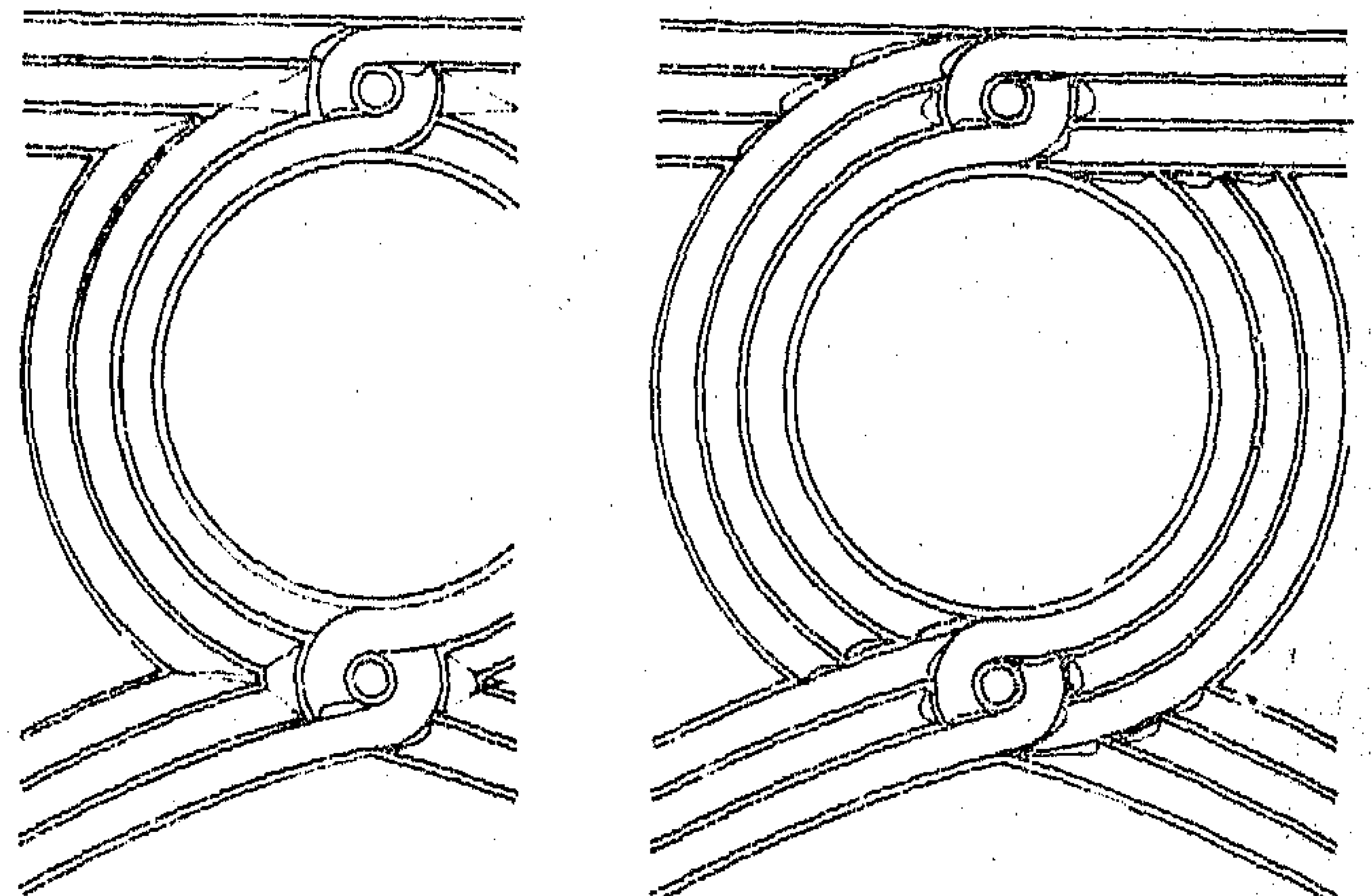
المدخل : ١٤٢ ـ هذا المدخل يعلوه عقد يسمى بالعقد المدائنى ، وقد ارتقى هذا الشكل فى أوائل القرن الخامس عشر ، وقد استخدم فى بعض الأبنية الغير دينية أحيانا مع بعض التعديل · ويرى من العقد أن الجفت المحيط به ينتهى عند حافته من أسفل · وكذلك السلم الذى أمام المدخل الموضح بالشكل فهو شائع الاستعمال ·

● الوحدات والعناصر المعمارية العربية

تتميز العمارة الاسلامية العربية عبر عصورها المختلفة بعناصر ووحدات تكوين وزخارف نابعة من البيئة والمناخ والمجتمع واتسمت بطابع وأسلوب مميز خاص بهـــا ·

القوالب





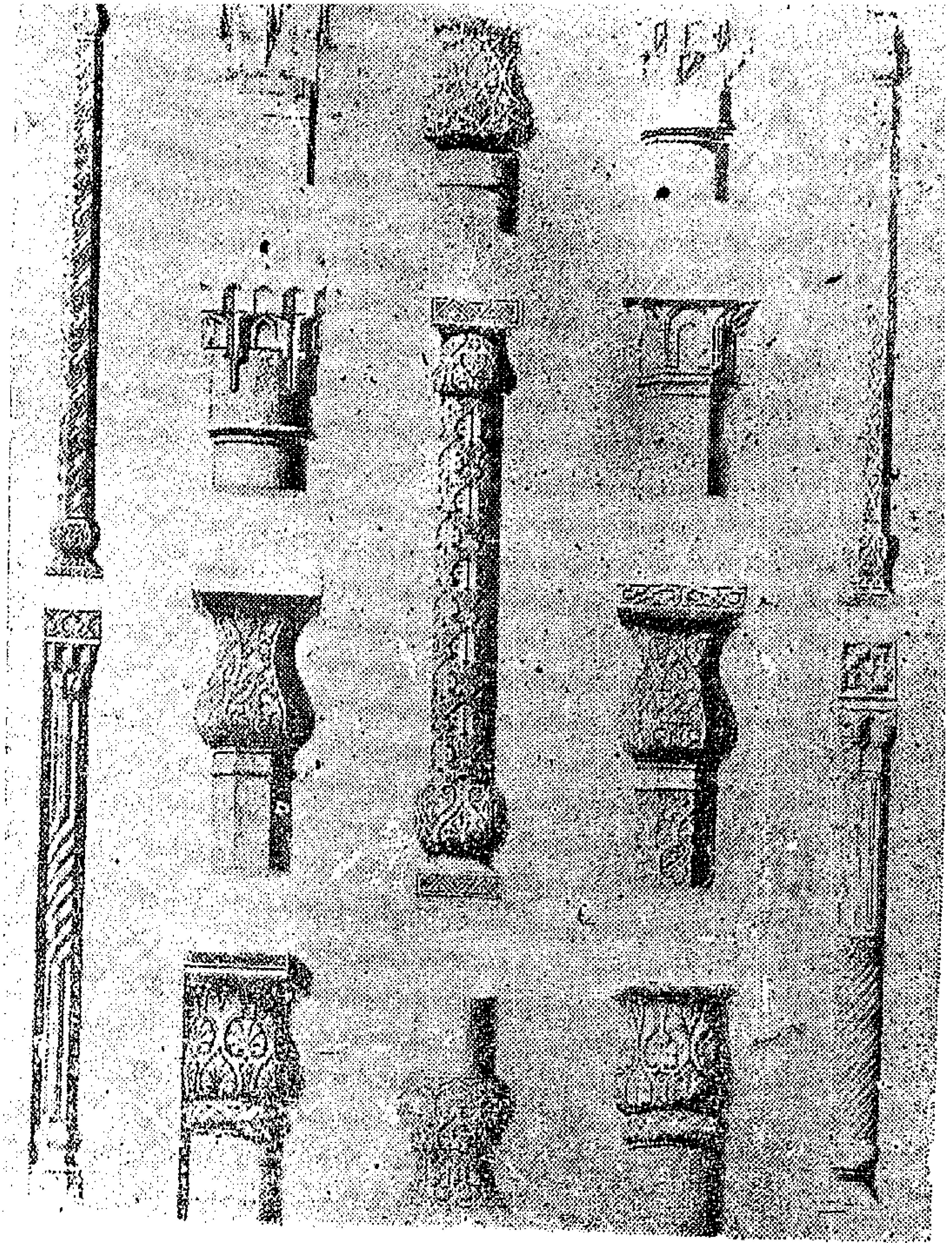
تستعمل القوالب بكثرة في الديكورات الإسلامية ويسمى النوع المبين بالأشكال عاليه باسم قالب "المجنة" ويميزه أن أحد الفروع يمر فوق جزء الحلقة التالية ثم تحتها بعكس الفرع الآخر الذي يمر تحت جزء الحلقة ثم فوقها.



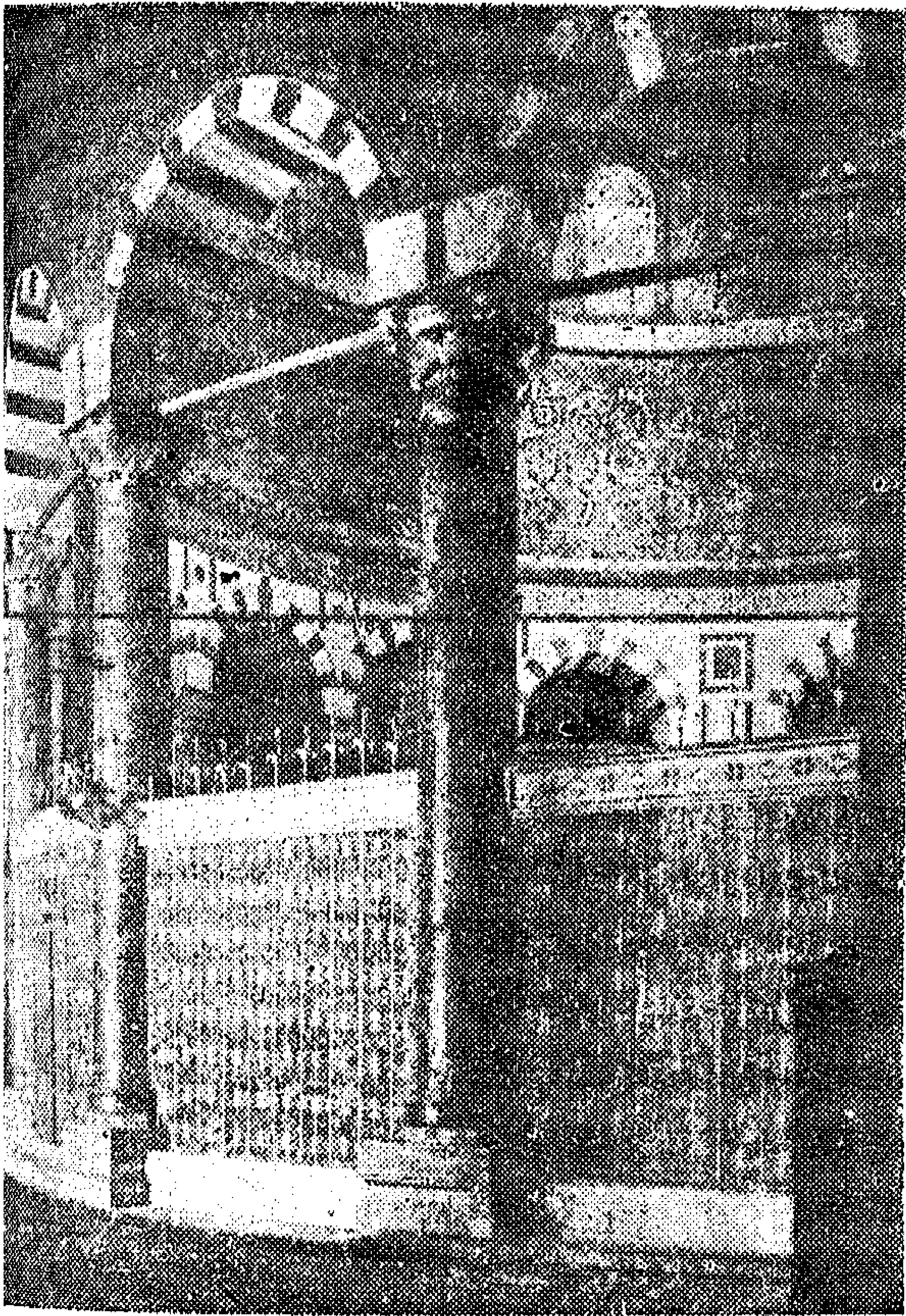
القباب ــ ١٤٣ ، ١٤٤ :

كانت القباب تستعمل كغطـــاء للاضرحة خاصة ، وكانت تستعمل كمنارة فى أسقف المساجد وردهات الدور لاضاءتها وكذلك الحمامات فانها كانت تسقف بقباب· ولم تستعمل القبــة مطلقا كمظهر خارجى للابنية غير الدينية فى العصور الاسلامية، وقد استعملت القباب لتغطية الميضأة التى أقيمت فى وسط صحون المساجد المكشوفة·

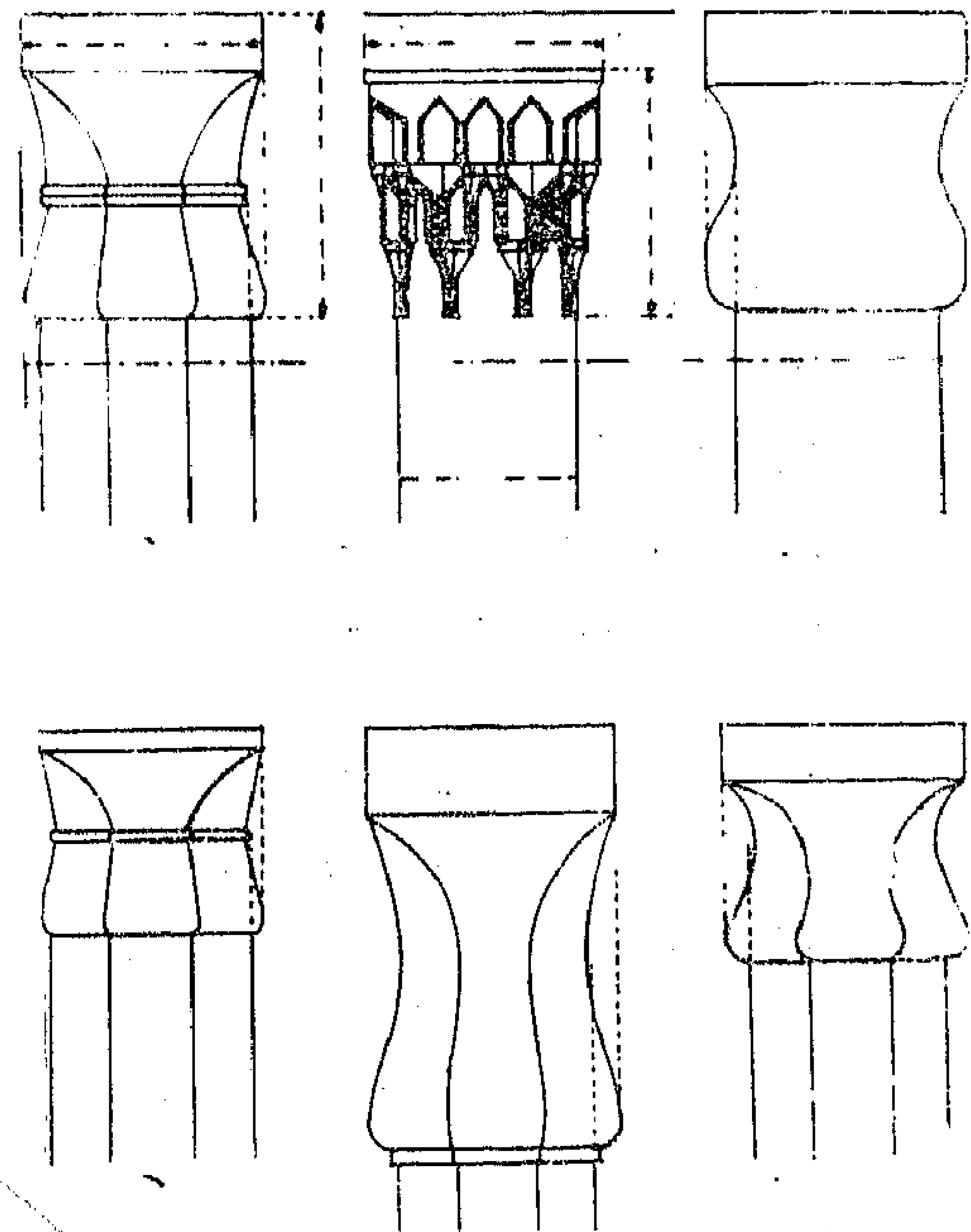
وتبين القبة بهذا الشكل نوعا من القباب الحجرية التى ظهــرت فى القرن الرابع عشر وهى غير شائعة الاستعمال وغير مألوفة فى العمارة العربية ، وهى مضلعة من الخارج كما هـــــو واضح بالتفصيلة أسفل القطاع ·

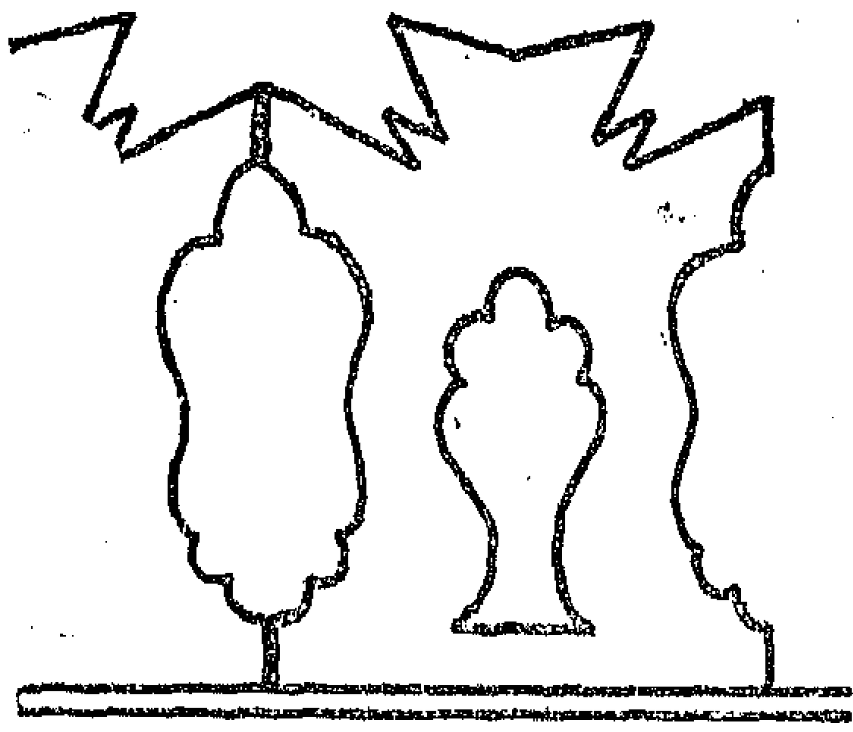


الأعمدة ١٤٥ ـ ١٤٦ يوضح الشكل ٤،٤ واجهة ور
لقاعدة عمود ، وهذه القاعدة لا تخرج عن كونهـا
مقلوب • وفى هذا الشكل تظهر القاعدة عبارة عن م
ثمانى منتظم ، هذا الشكل له نظير فى مدرسة الس
حسن • تنظر اللوحة رقم ١٤٦ خاصة بالأعمدة ص١٢

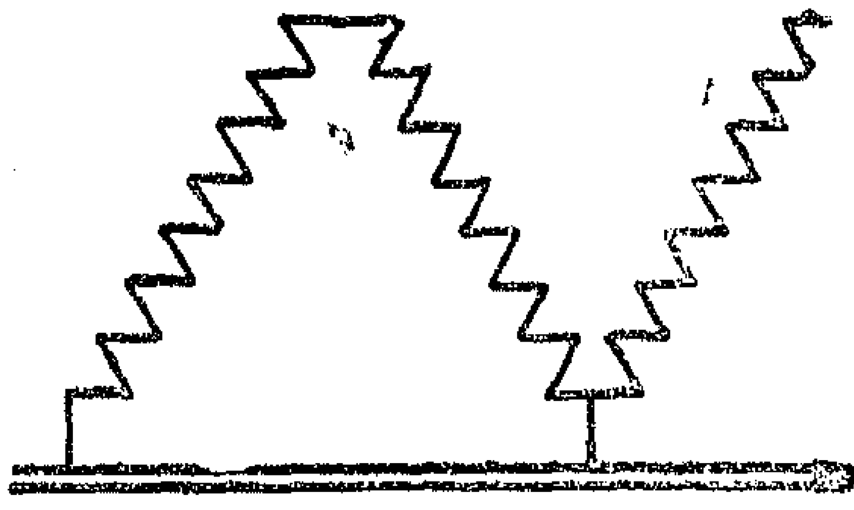


الأعمدة

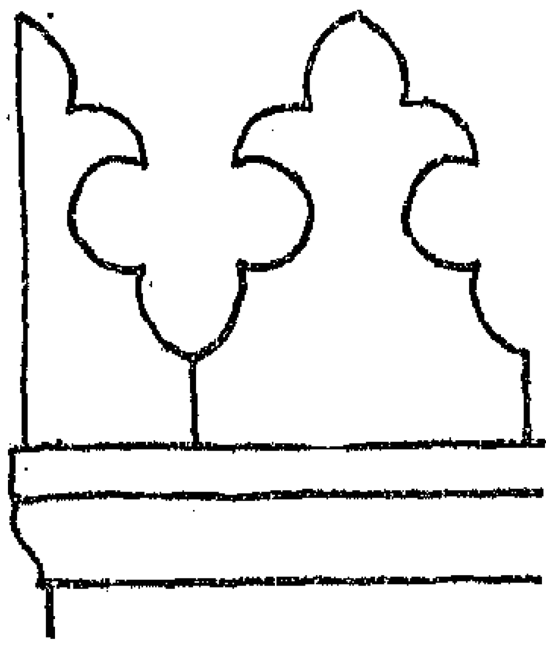




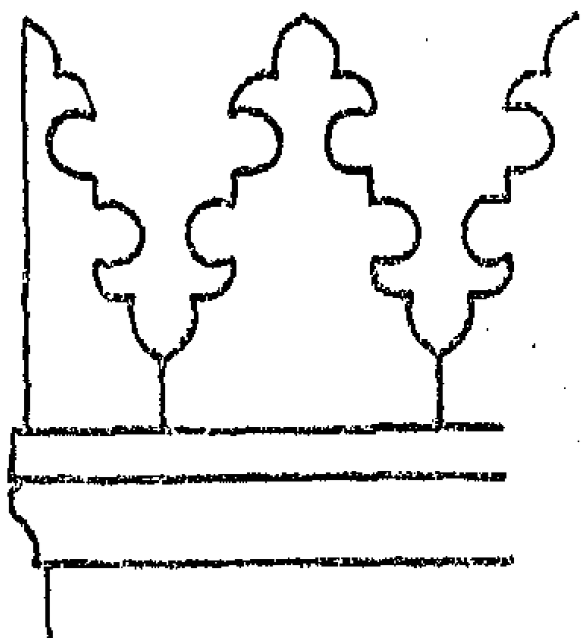
شرفات جامع ابن طولون
٢٦٣ – ٢٦٥ هـ / ٨٧٦ – ٨٧٩ م



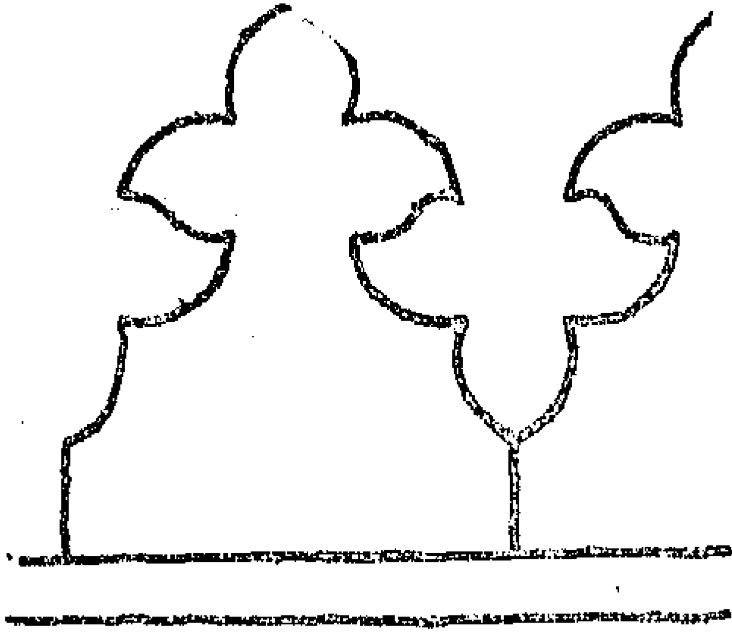
شرفات مسننة – مدفن الامام الشافعي
٦٠٨ هـ / ١٢١١ م



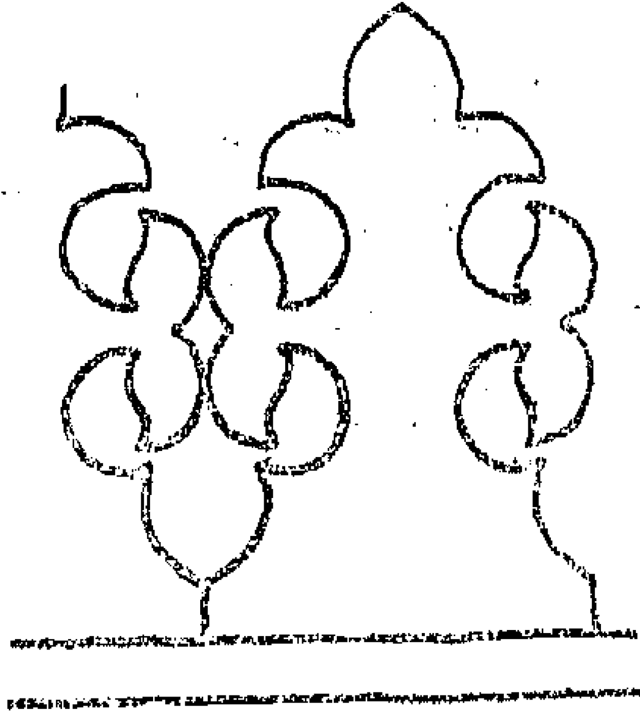
شرفة مورقة – مدرسة سنجر الجاولي
٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ – ١٣٠٤ م



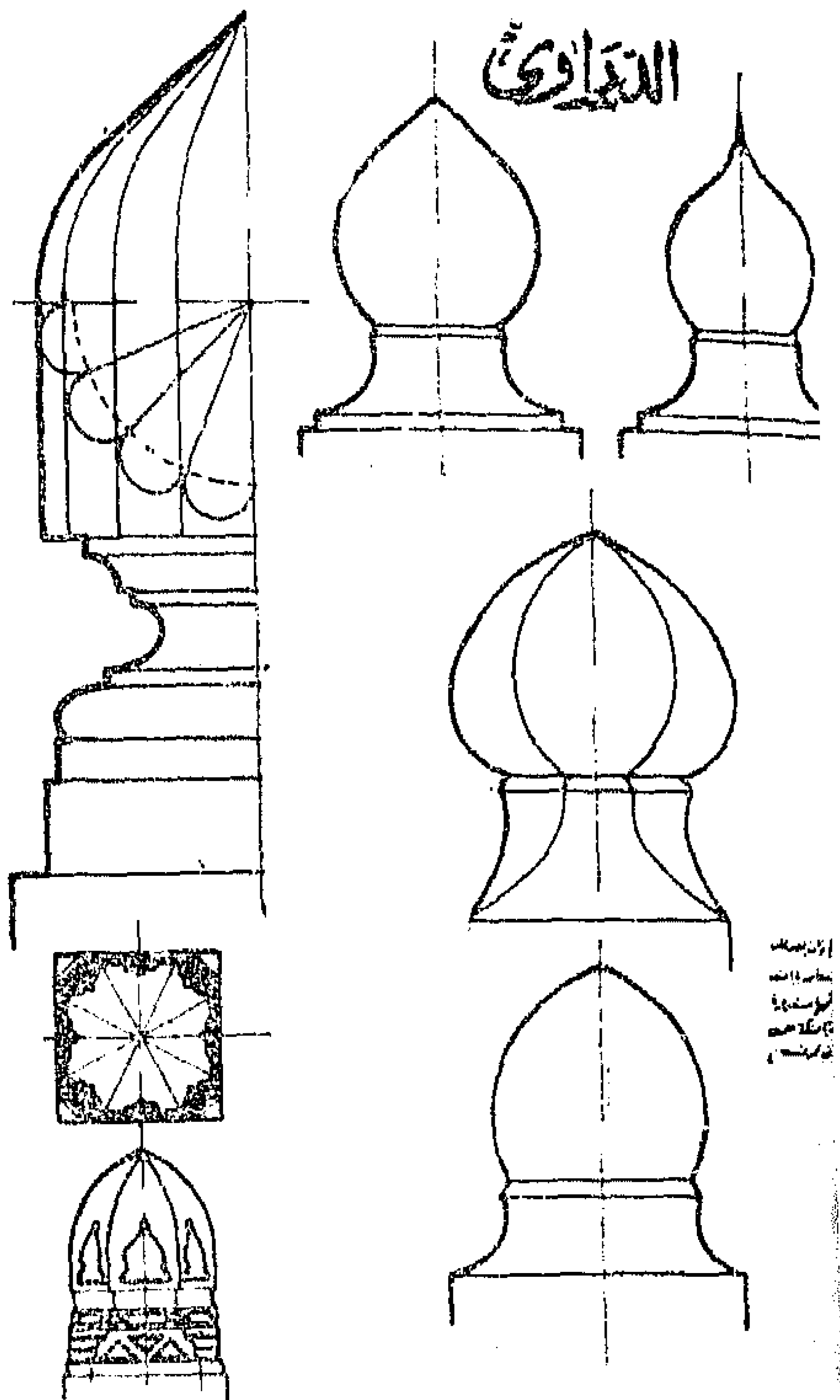
شرفة مورقة – مسجد زين الدين يحيى بولاق
٨٥٢ – ٨٥٣ هـ / ١٤٤٨ – ١١٤٩ م

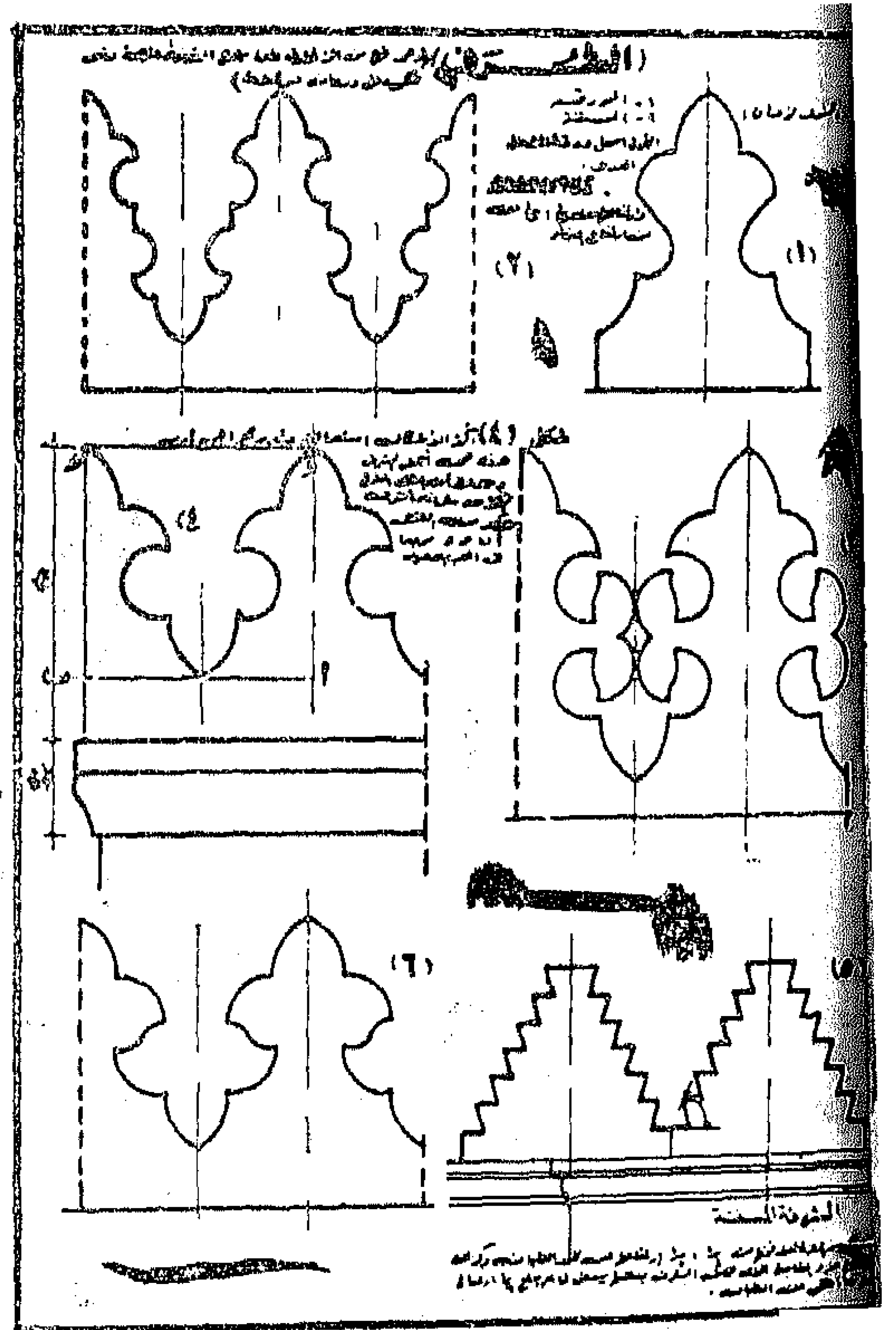


شرفة مورقة – منبر قايتباي – خانقاه فرج بن برقوق
٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م



شرفة مورقة – مدرسة الغوري
٩٠٩ – ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ – ١٥٠٥ م



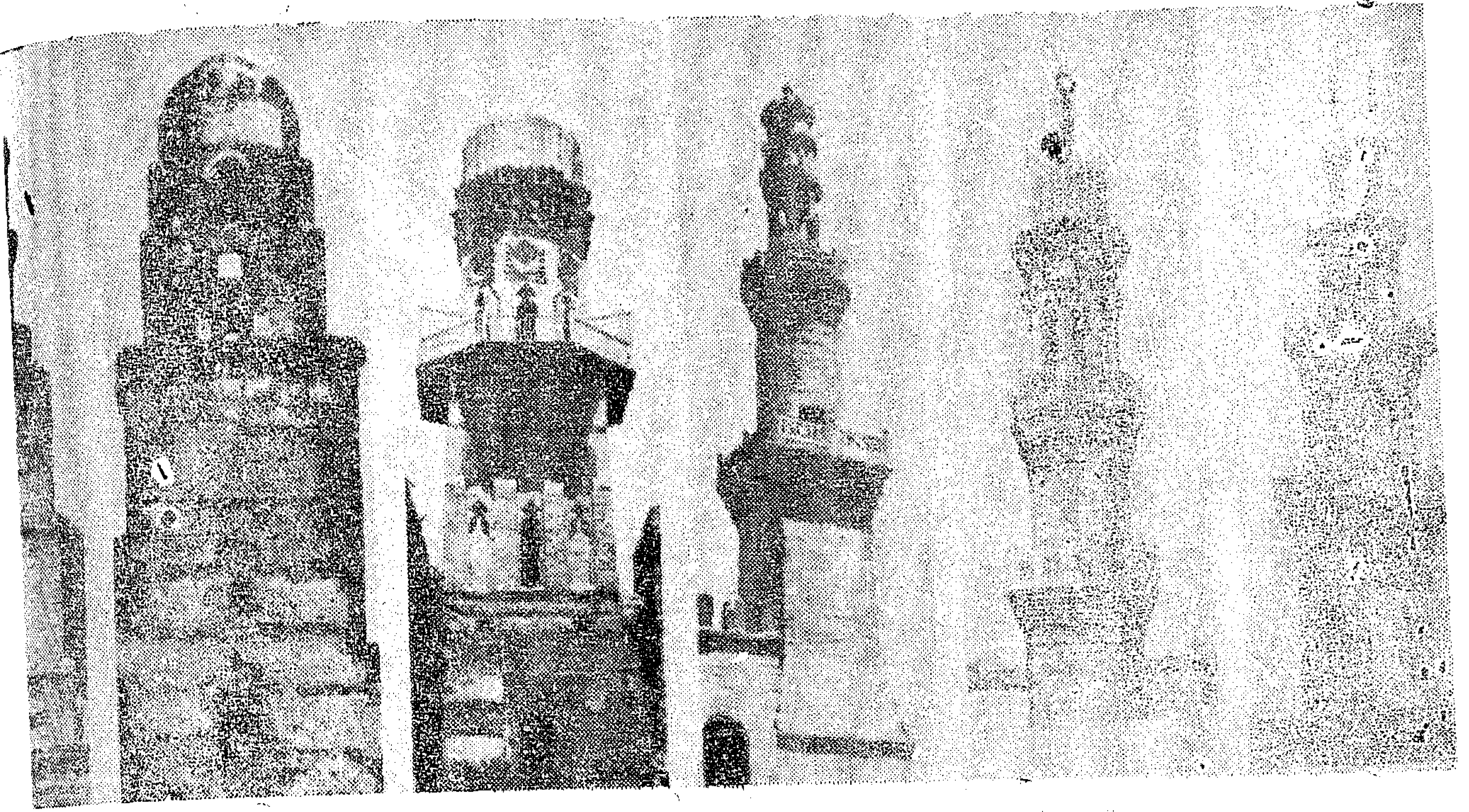


الشرف : ١٤٧ الى ١٥٠

نوع من أنواع الزخارف عادة يتوسط الابنية الهامة وهى تتكىء على دورة عالية والشرف نوعان – المورقة كشكل ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ومسننة شكل ٥ ٠

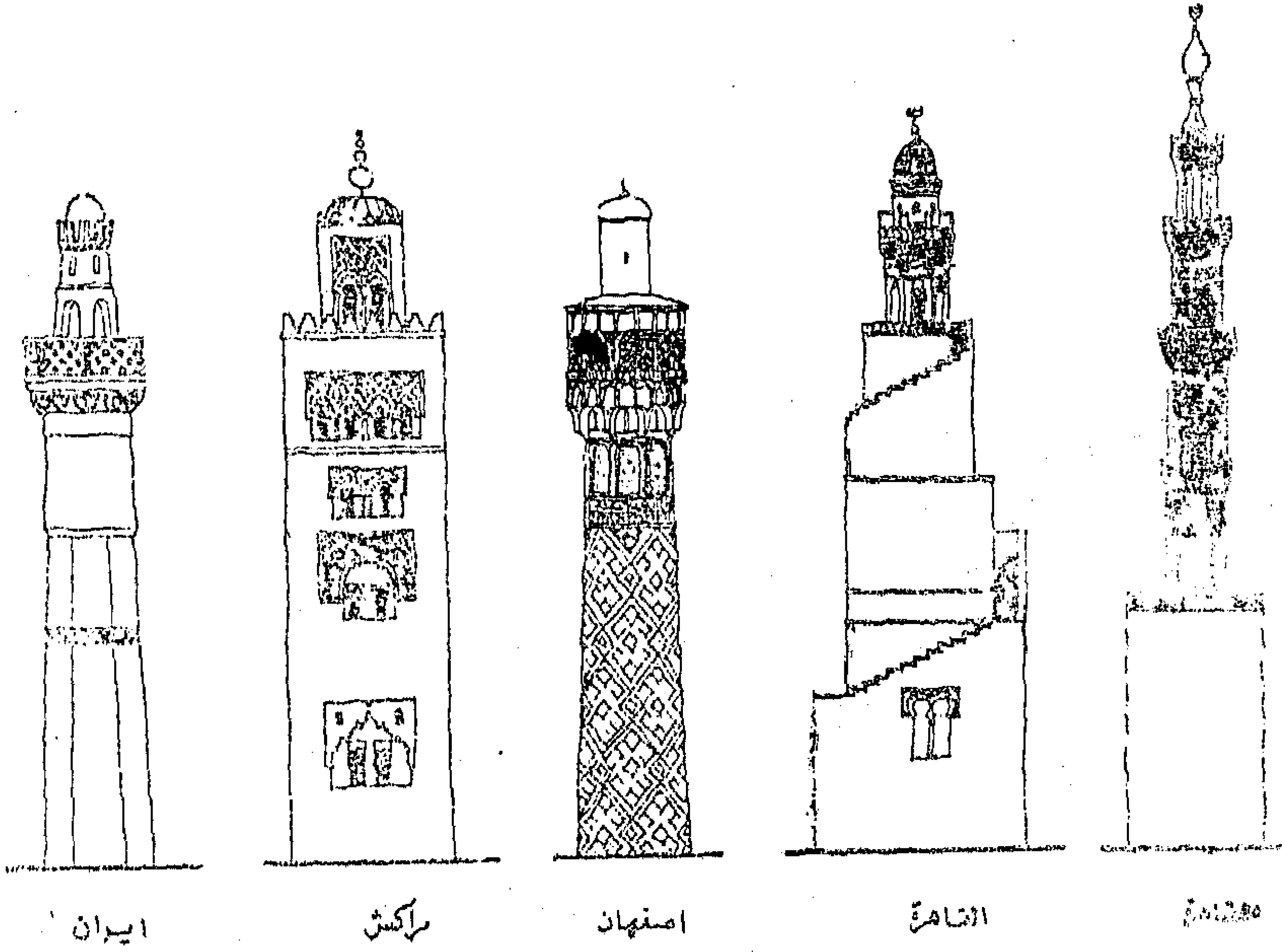
الشرف المروقة : هى أكثر الاشكال استعمالا وأجملها، ويلاحظ الشكل المفرغ يكون شرفة أخرى ويكون الشكل أ ، ب ، ج مربعا فى أغلب الاحيان – ويبلغ ارتفاع الشرفة من ٢ الى ٤ من ارتفاع المبنى ٠

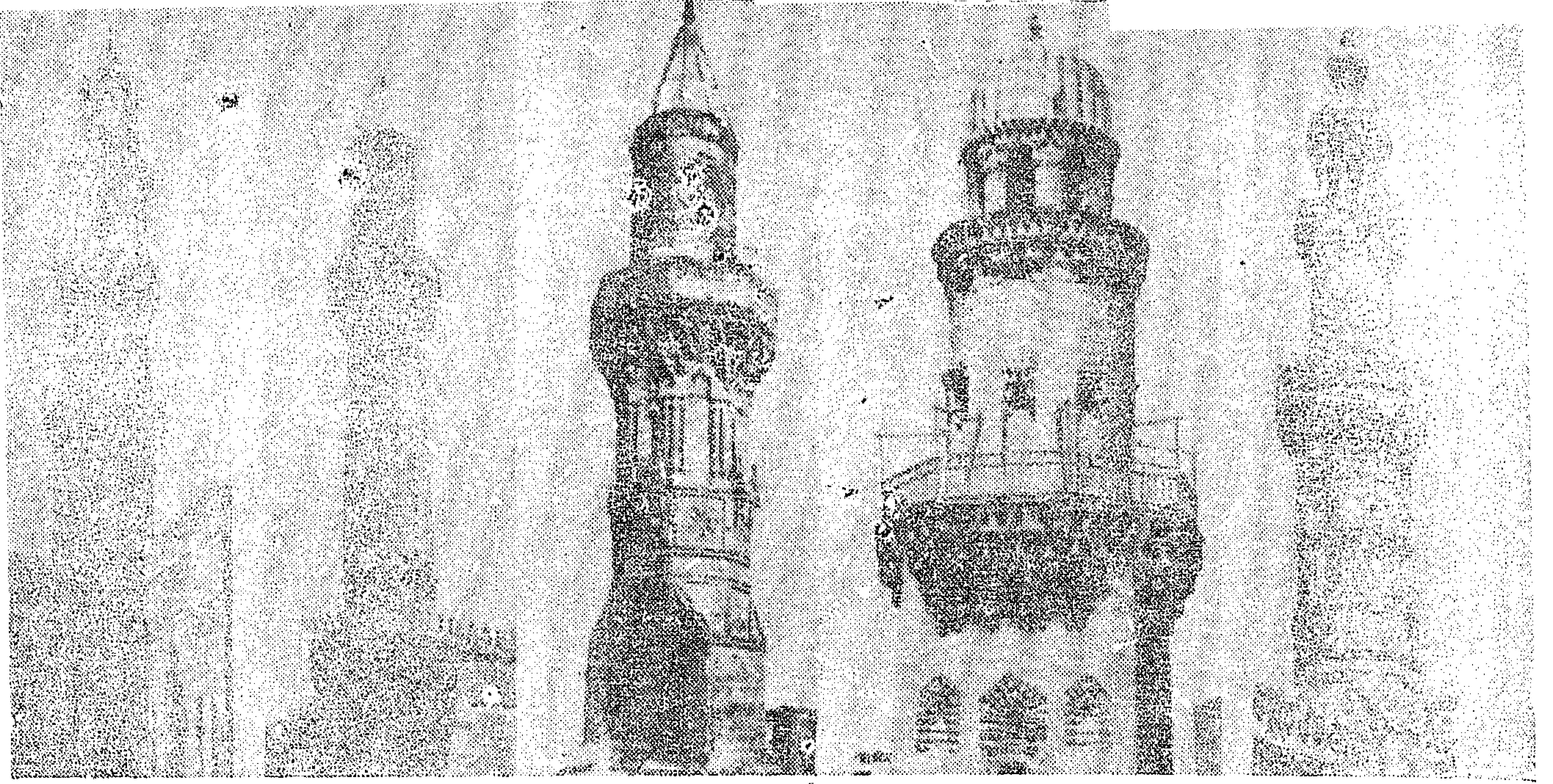
الشرف المسننة ٠ يختلف عرض الشرفة عند قمتها من ٣ الى ٤ ارتفاعها عند ظهر الطبان وكذلك ارتفاع جزء القاعدة الذى يصل الشرف بعضها ببعض فانه يبلغ ٢ ارتفاع الشرفة الكلى عن الطبان ٠

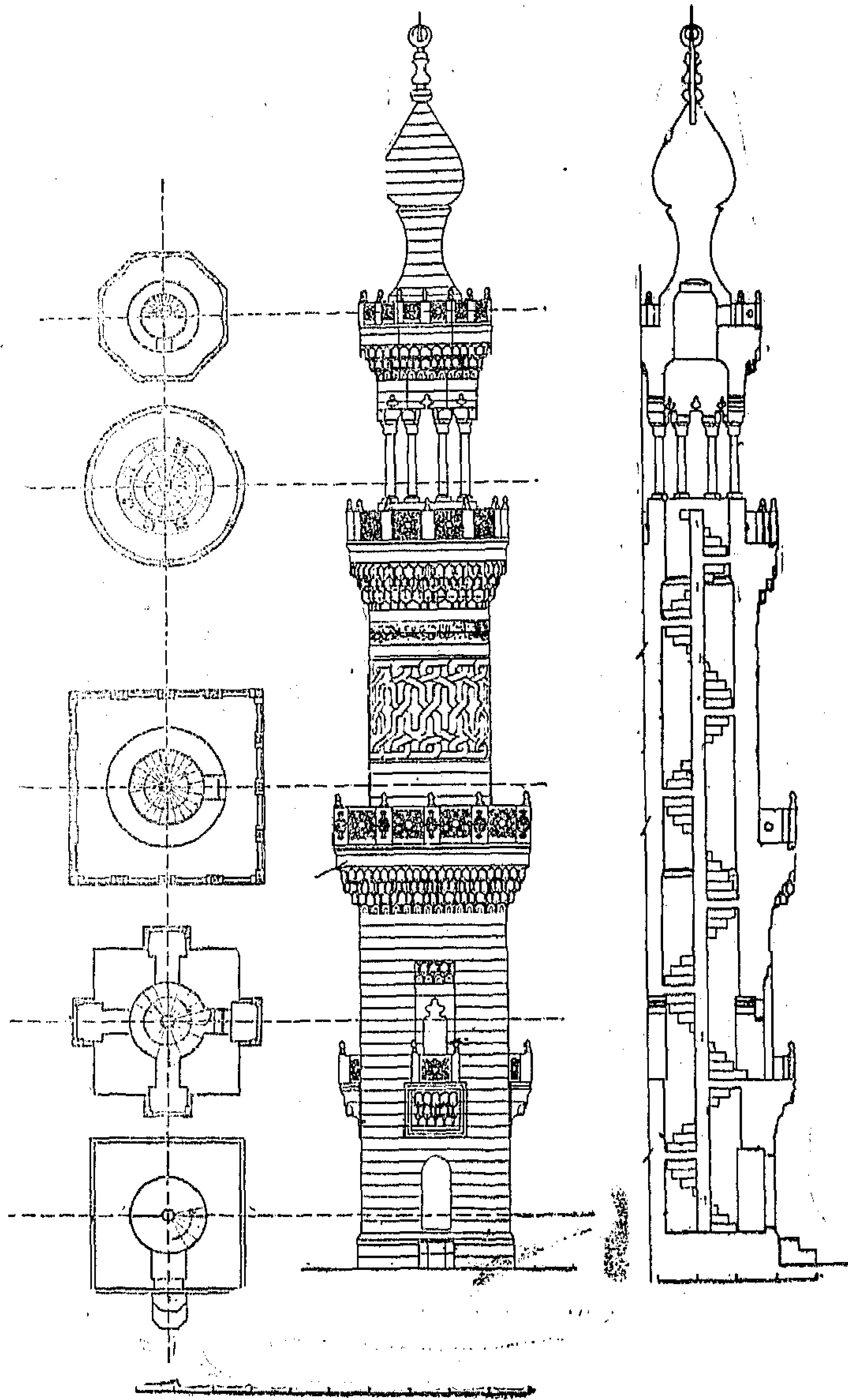


● نماذج من مختلف مآذن مساجد عبر العصور الاسلامية ٠

١٥١ ، ١٥٢ ـ نماذج من مآذن القاهرة وكأنها اذرع المسلمين ممتدة الى الله تبـــارك وتعالى تطلب الرحمـــة والمغفرة ٠٠٠٠ وسميت القاهرة المدينة ذات الالف مئذنة٠ تعبر كل منها عن العصر الذى بنيت فيه ٠







١٥٣ ـ مساقة أفقية القطاع وواجهة مئذنة خانقاه فرج بن برقوق ٨١٣هـ/١٤١١م

المئذنة : عنصر جوهرى أساسى بكل مسجد ، وهى فى الغالب مكونة من خمسة أدوار أولها وأسفلها مربع الشكل من أسفل ثم يتحول الى شكل مثمن عند القبة ٠ وفى كل مئذنة توضع النوافذ للانارة اللازمة للسلم الحلزونى كما هو موضح بالشكل ٠

ويلاحظ أنه كلما ارتفعنا بالمئذنة كلما قل القطر ٠ أما فيما يتعلق بالسلم الحلزونى فان قطره ـر٢ م وقطر الفتحة ١/٤ مويختلف ارتفاع الدرجة من ٢٠ الى ٣٠ سم وعرضها عند طرفها المتصل ببدن المنارة من ٣٠ الى ٣٣ سم ٠

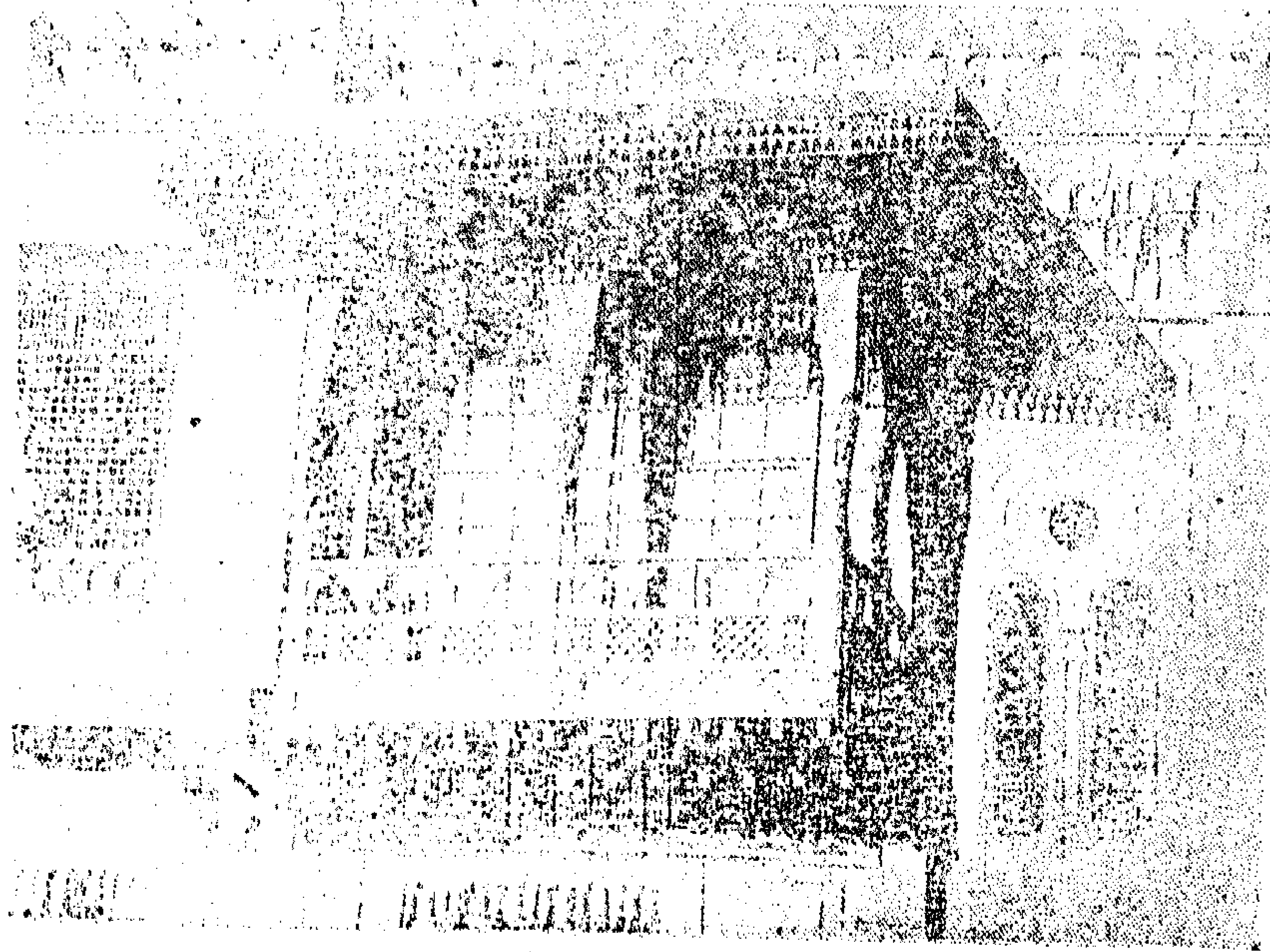
● مآذن مساجد القاهرة ـ ١٥٤

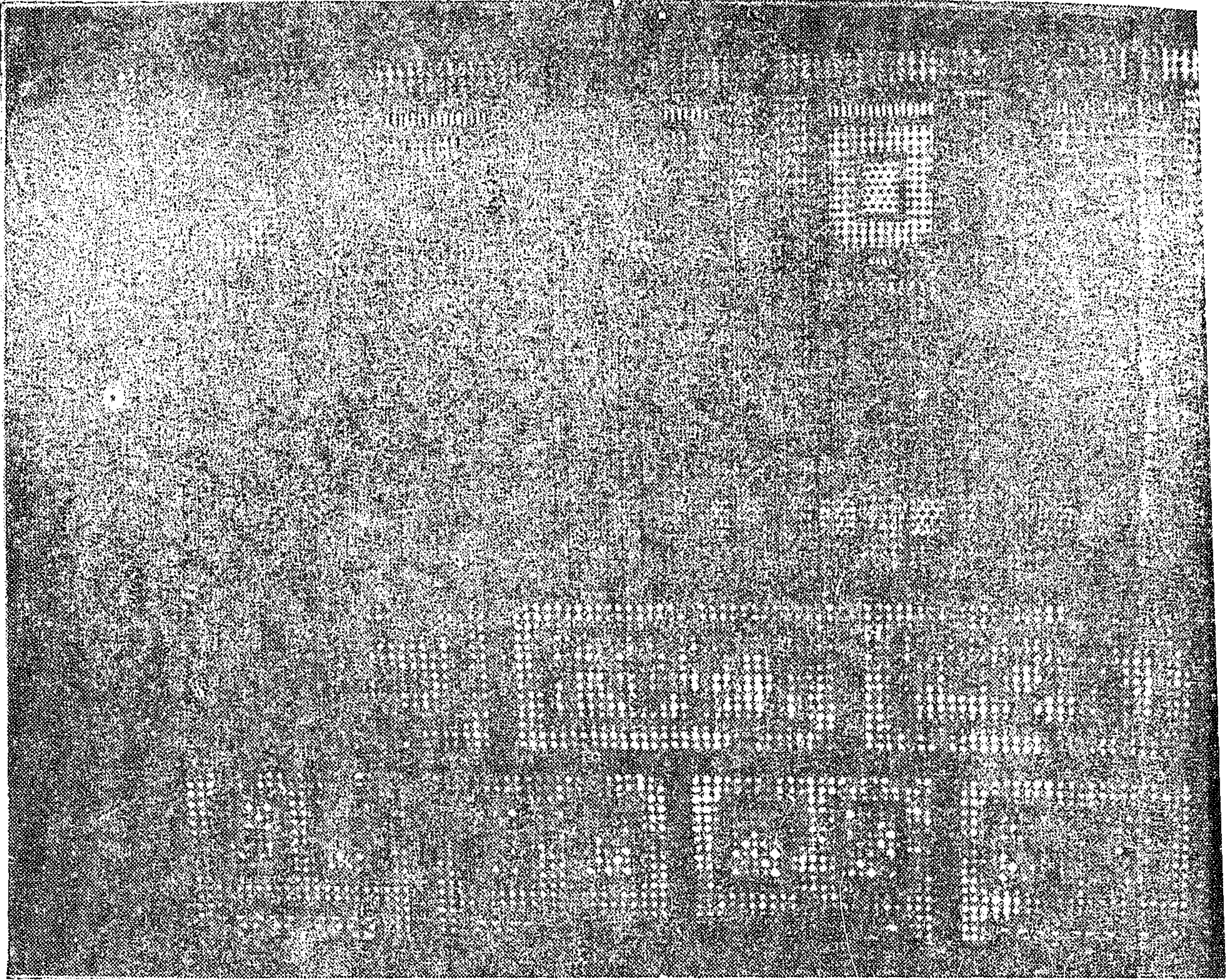
المشربية : ١٥٥ ، ١٥٦ :

المشربية : ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ :

معالجة معمارية مصرية اسلامية ، تسمح بدخول الرياح المطلقة ولا تسمح بدخول اشعة الشمس • وعادة ما توضع المشربيات لتغطى السطح الخارجى للشبابيك او البلكونات او الشكمة التى تستعمل للجلوس فى الداخل والتمتع بالخصوصية وتلطيف الرياح دون التعرض لاشعة الشمس • وتستعمل التشابيك الطبيعية « المشربيات » فى الاجزاء السفلى من المسكن لكسر حدة الضوء وتوفير الخصوصية • أما الاجزاء المرتفعة فتستعمل لها تشابيك « مشربيات » أوسع تساعد على التهوية، كما هو موضح فى اشكال الاسلامية الأصلية •

● ومما هو جدير بالذكر ان الوحدات المختلفة لهـذه المشربيات أو بمعنى أدق هذه المقاسات المطلقة لا يمكن تكبيرها أو تصغيرها حيث أن هـذه المشربية تستعمل لكسر حدة الضوء الناتج عن شدة الاستضاءة ولقد عجز معماريو الغرب عن تفهم عدق الحلول المعمارية فى الشرق واقتباسهم لاشكالها دون جوهرها • فاتت استعمالاتهم لاشكالها تؤدى عكس الغرض منها فتزيد من حدة الضوء فى كثير من الحالات •

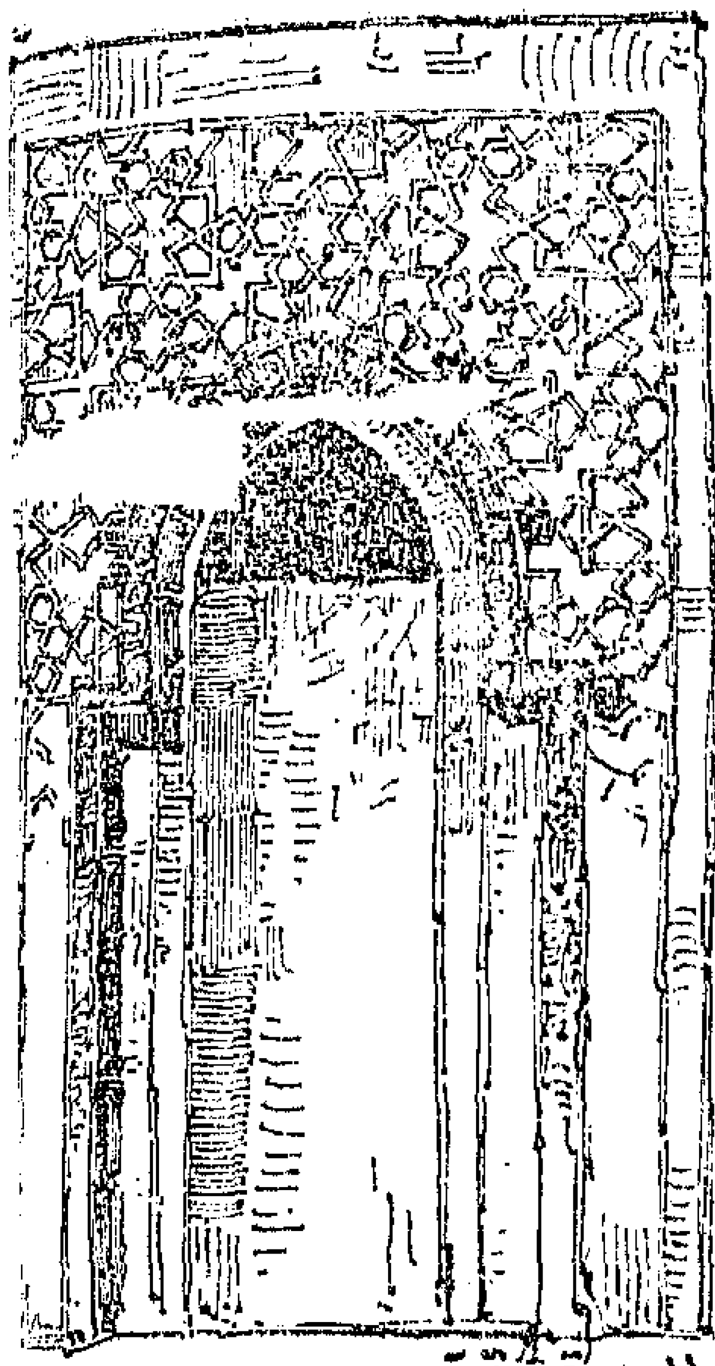


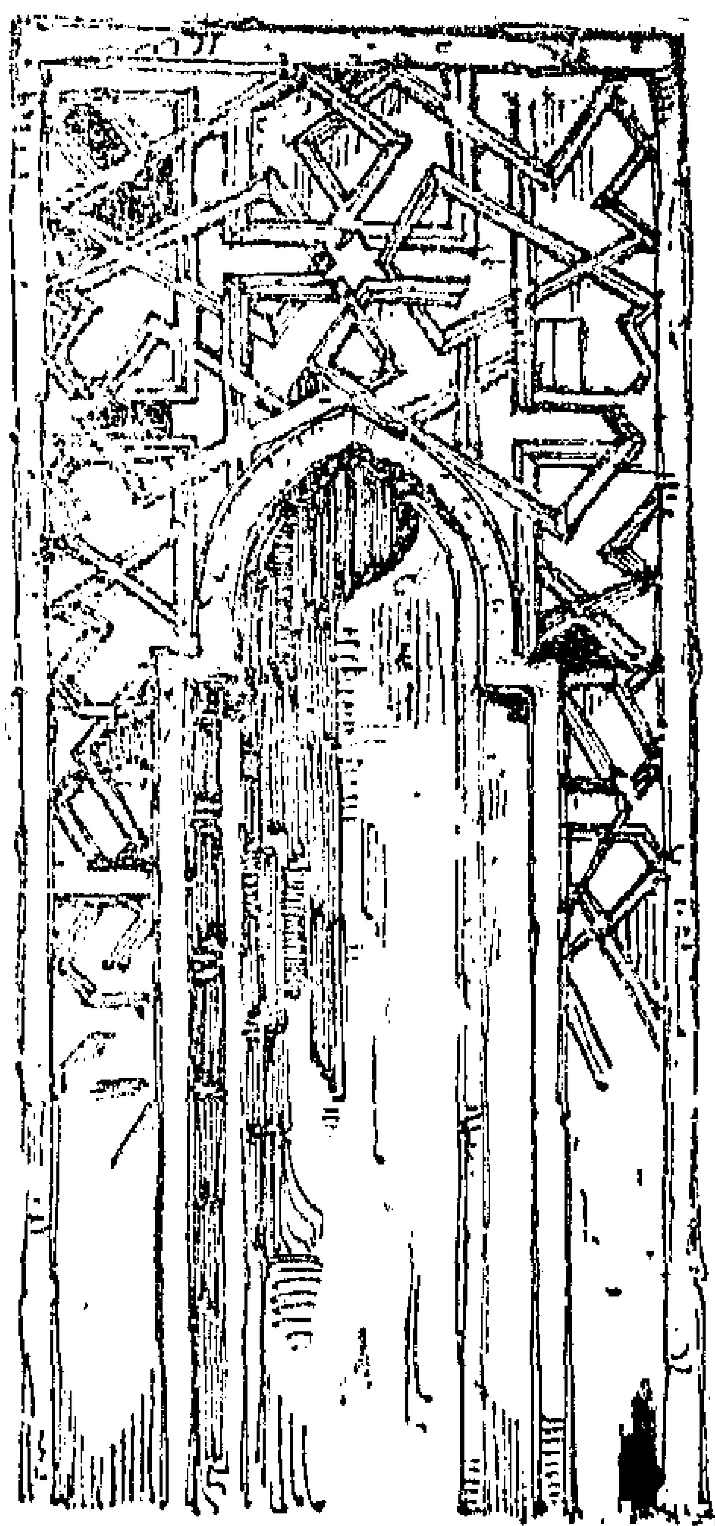


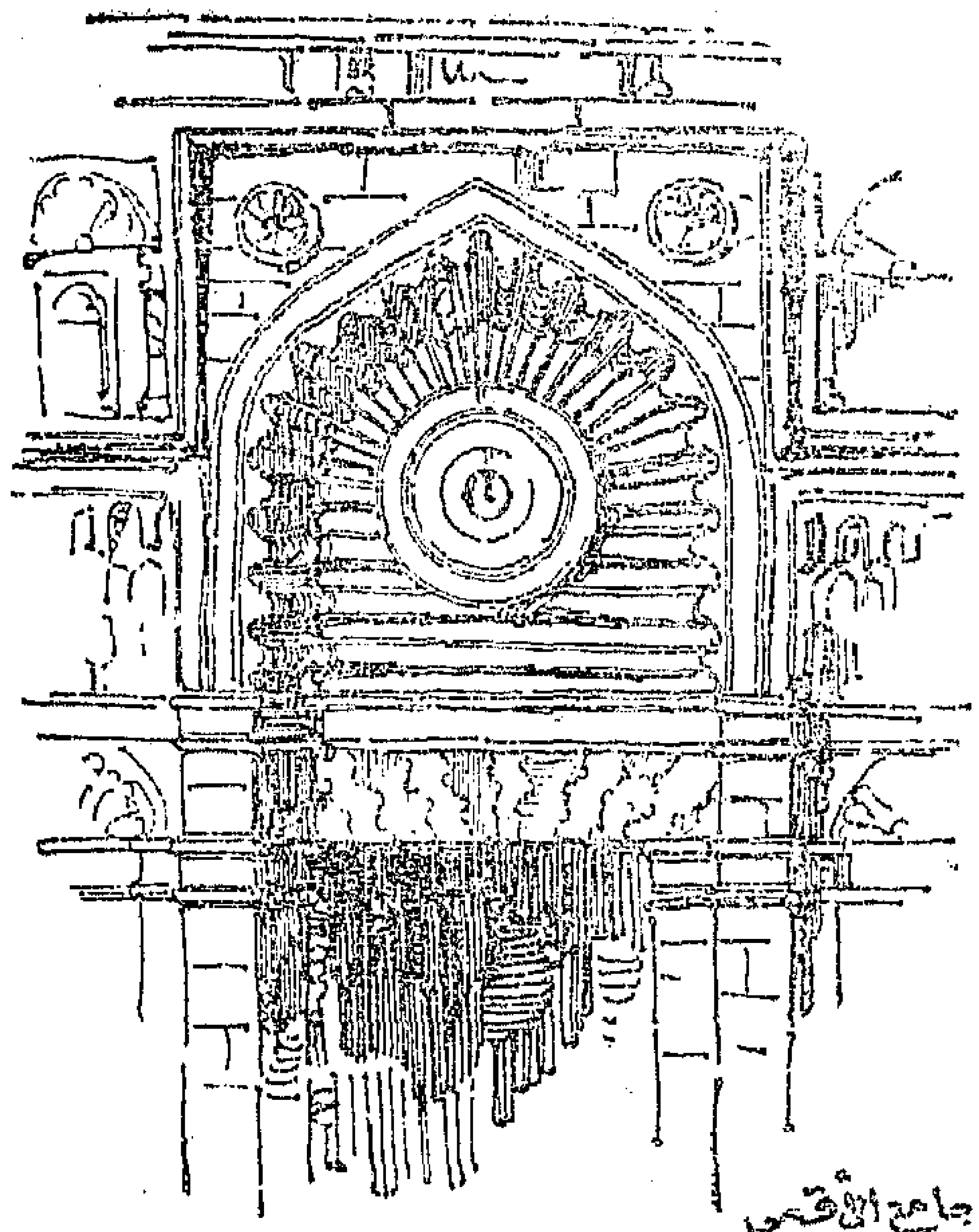
المقربية :

● امتازت العمارة الاسلامية بتنوع عقودها ، وكان كل بلد يفضل هذه العقود على الاخر، منها العقد المخموس والعقد ذو الفصوص والعقد على شكل حدوة الفرس والعقد المدبب وغيرها ٠ أما الحليات والزخارف المعمارية والتى تشبه خلايا النحل استعملت فى المساجد فى طبقـــات مرصوصة وتستعمل فى الزخرفة المعمارية أو بالتدرج من شكل الى آخر ، من السطح المربع الى السطح الدائرى الذى تقوم عليه القباب ٠ وهذه هى المقرنصات التى تقوم فى كثير من الأحيان مقام الكوابيل ، والتى أصبحت من مميزات العمارة الاسلامية ٠

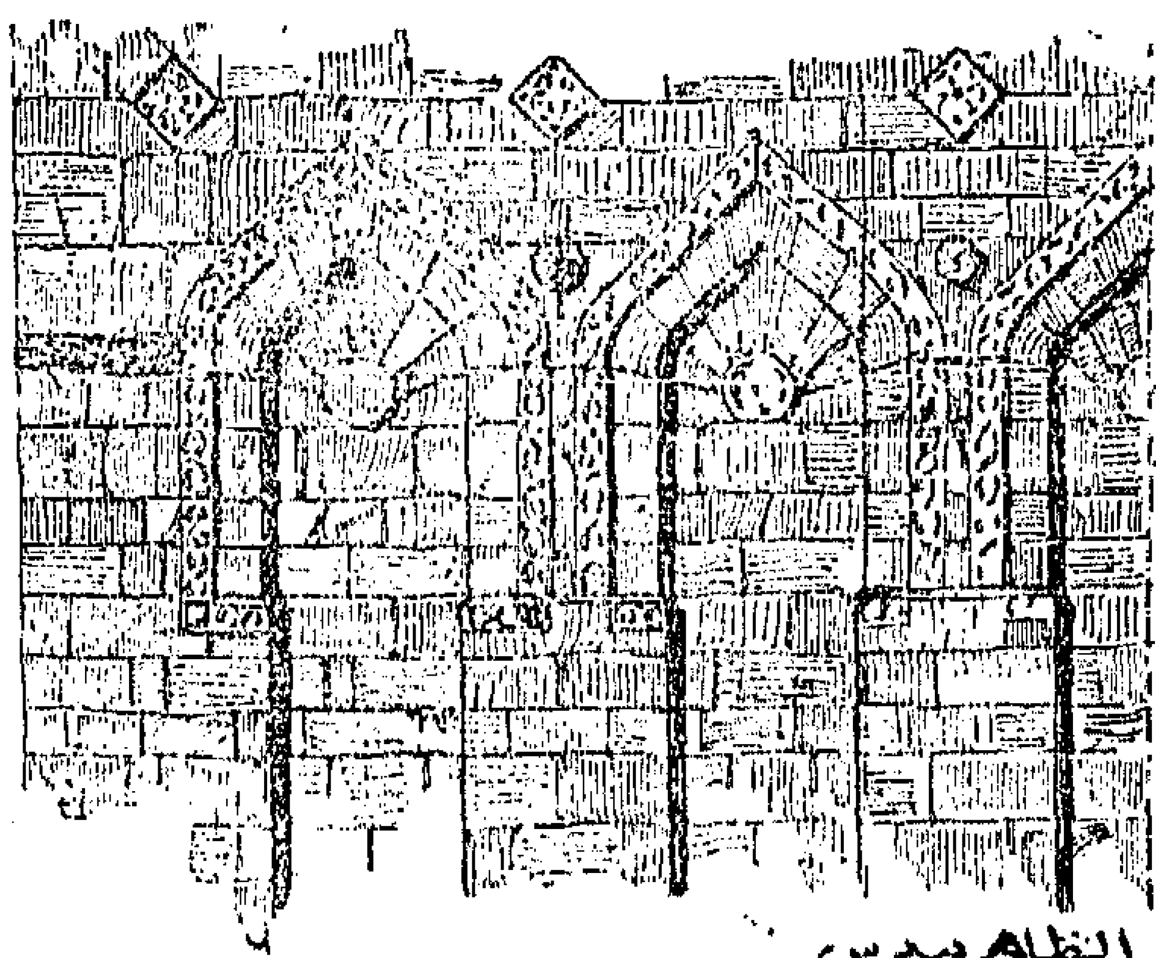
أما الأعمدة الاسلامية ذات التيجان الرشيقة المبتكرة لها أبدان مختلفة منها الاسطوانى والمضلع والمثمن ، تزين أبدانها أحيانا بالزخارف النباتية الدقيقة ٠ وتمتاز هذه الأعمدة بالبساطة والنسب الجميلة ـ نسب ارتفاعها = ١٢ مرة القطر ٠ لها تيجان جميلة ذات رقبة طويلة وصفحة مربعة مشغولة بالمقرنصات ، وعصابة مربعة محلاه بالزخارف الهندسية الجميلة ٠

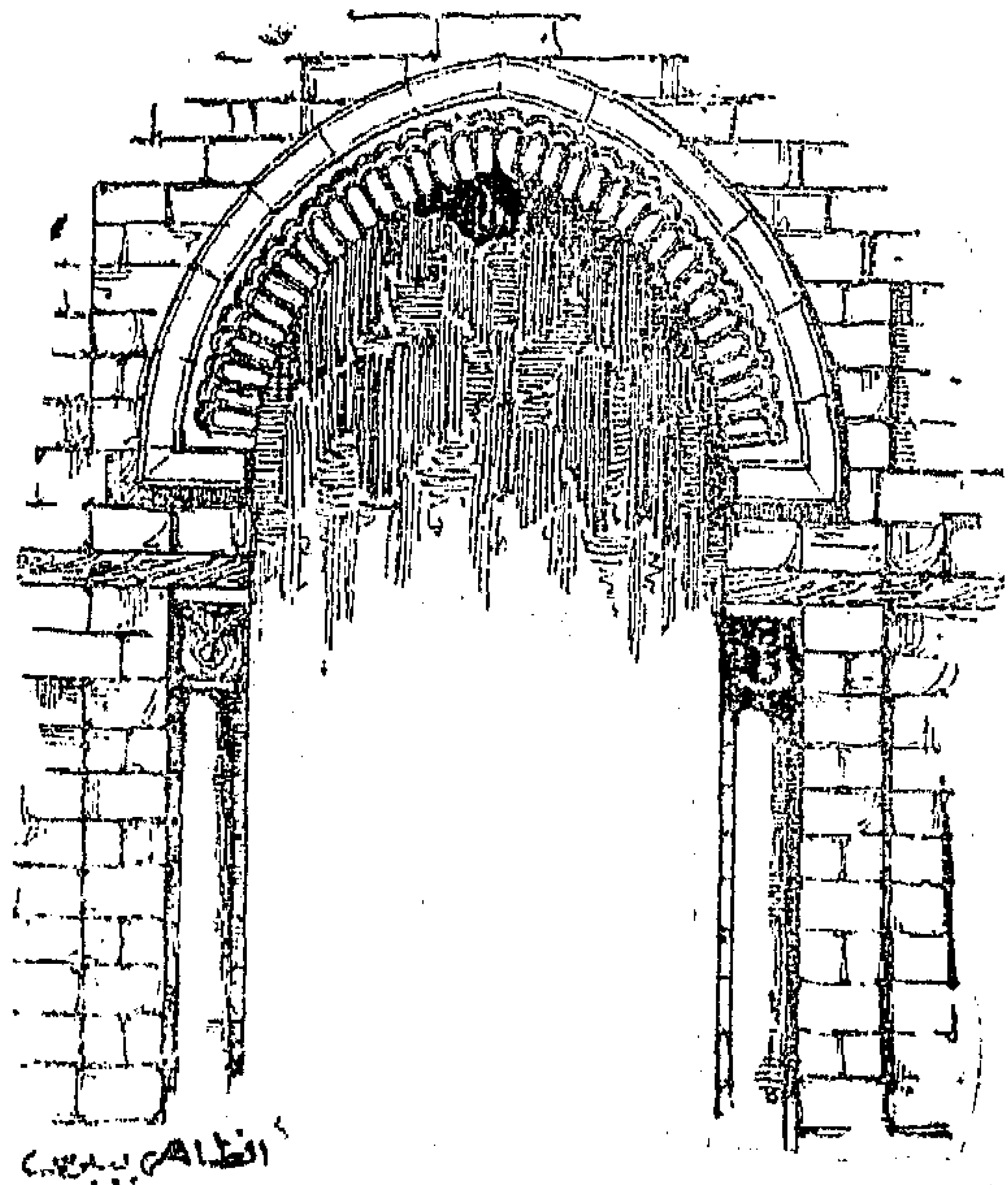






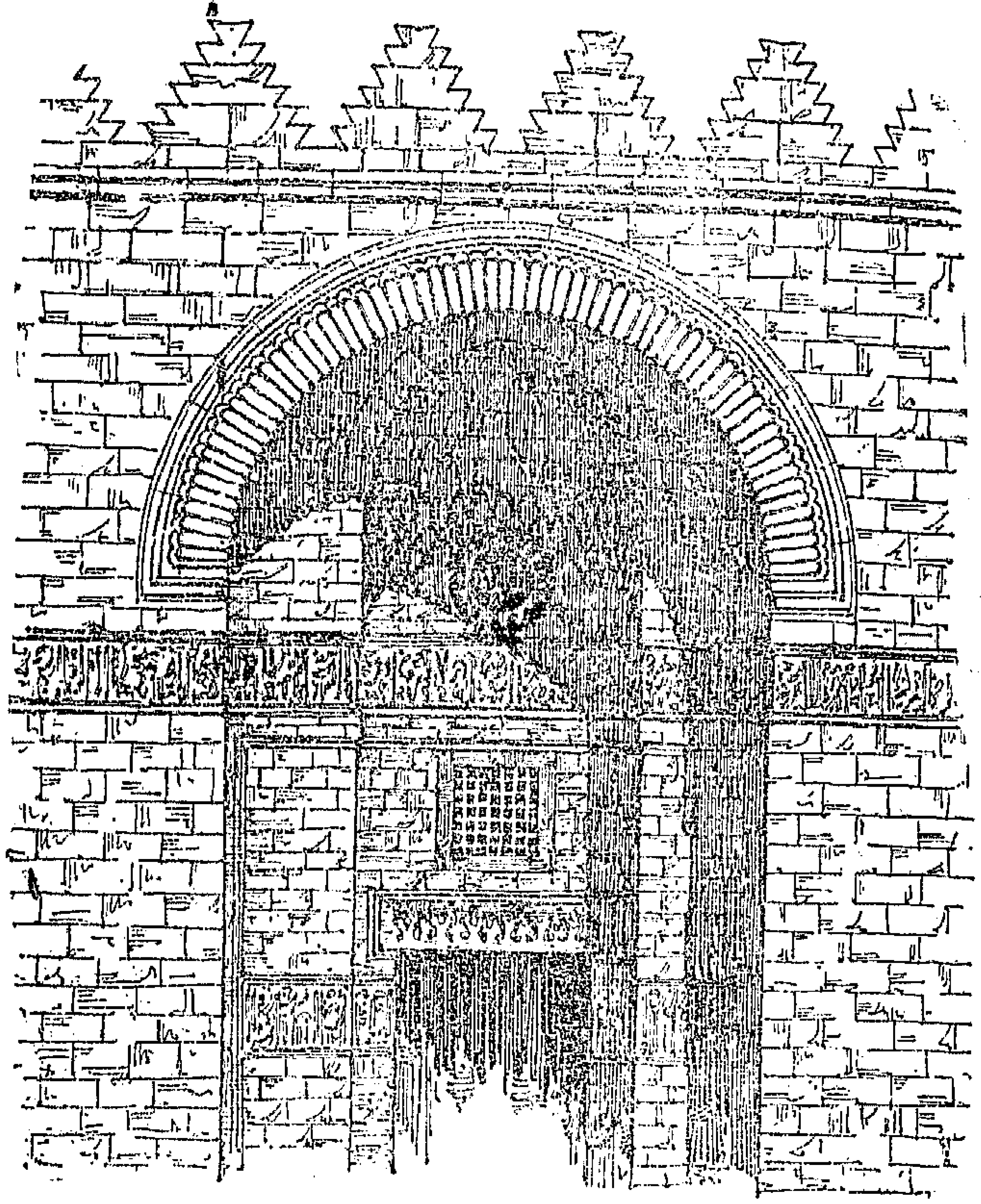
● اختلفت الزخارف والحليات فى العمارة الاسلامية عن مثيلاتها فى الطرز الأخرى كالعمارة القوطية أو المعابد الاغريقية أو أقواس النصر الرومانية · وكانت هذه الزخارف والحليات والمقرنصات وغيرها مشتقة من روح الاسلام أصالته وتعاليمه ، والامتناع عن عمل التماثيل والاصنام ، ولذا كان هذا الاختلاف · فاهتم المسلمون بدراسة الزخارف الهندسية ، واعتنوا عناية تامة بالاخراج والتكوين والتلوين ، وكان اللون الأحمر والأبيض والازرق والذهبى والفضى أحب الالوان الى نفوس فنانى العرب · ونشأ من تلك الخطوط الهندسية والتكوينات الاصيلة هذه الأشكال العربية « الارابسك » وظهر هذا الفن الجميل وأثره فى تحسين وتهذيب الخطوط القديمة الكوفية وغيرها وفى أشكال المشربيات وتجميع الأخشاب فى أعمال النجارة للشرفات والمشربيات والمحراب والمنبر ، والتطعيم بالسن والعاج والأبنوس ·





جامع الظاهر بيبرس ١٢٦٦ م :

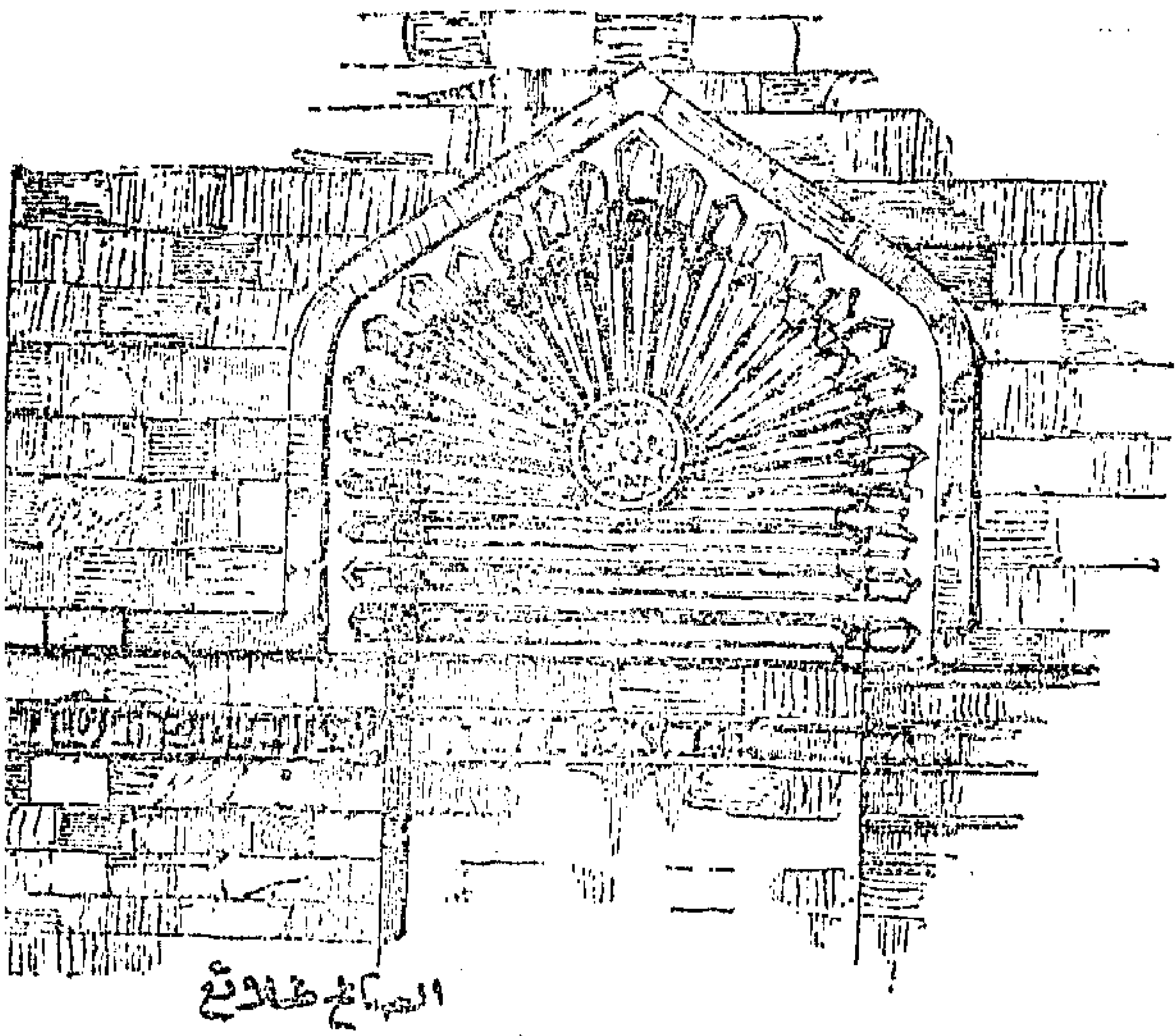
١٥٧ ـ يقع هذا الجامع بميدان الظاهر بالقاهرة ويشبه فى تخطيطه مسجد أحمد بن طولون ويتكون من صحن محاط بأروقة من جهاته الأربع ويتكون رواق القبلة من ست بلاطات بينما يتكون الاخر من اثنين فقط ويمتاز المسجد بوجود ثلاث مداخل محورية بارزة عن الواجهات الثلاث ، والمدخل الرئيسى فى منتصف الواجهة الشمالية الغربية ومعقود بعقد يكتنفه تجويفان ينتهيان بمقرنصات فى الجزء العلوى ٠



١٥٨ ـ يقع الجامع فى ميدان

جامع الصالح طلائع : ١١٦٠ م :

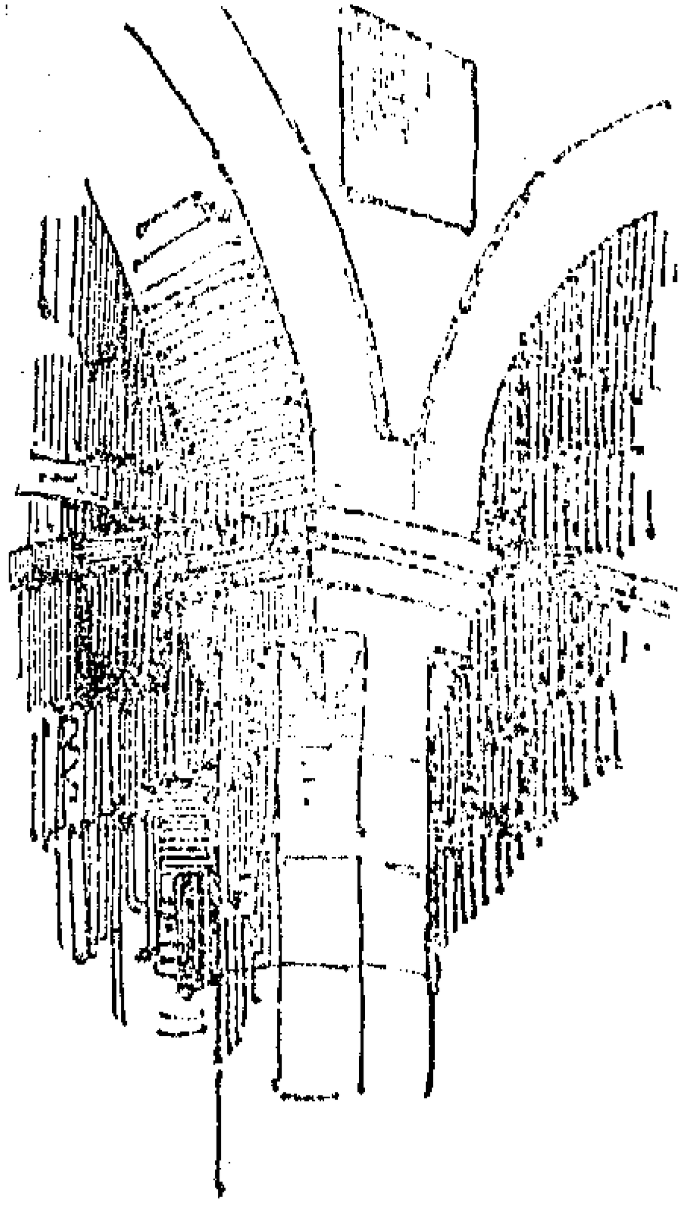
زويلة فى مواجهة أحد أبواب القاهرة الفاطمية ٠ وجامع الصالح طلائع هو آخر أثر للفاطميين فى مصر ، وقد بنى مرتفعا عن سطح الأرض بنحو ٤م وبأسفله من جهة الواجهة حوانيت، ويطلق على هذا الاتجاه فى التصميم اسم المساجد المعلقة ٠

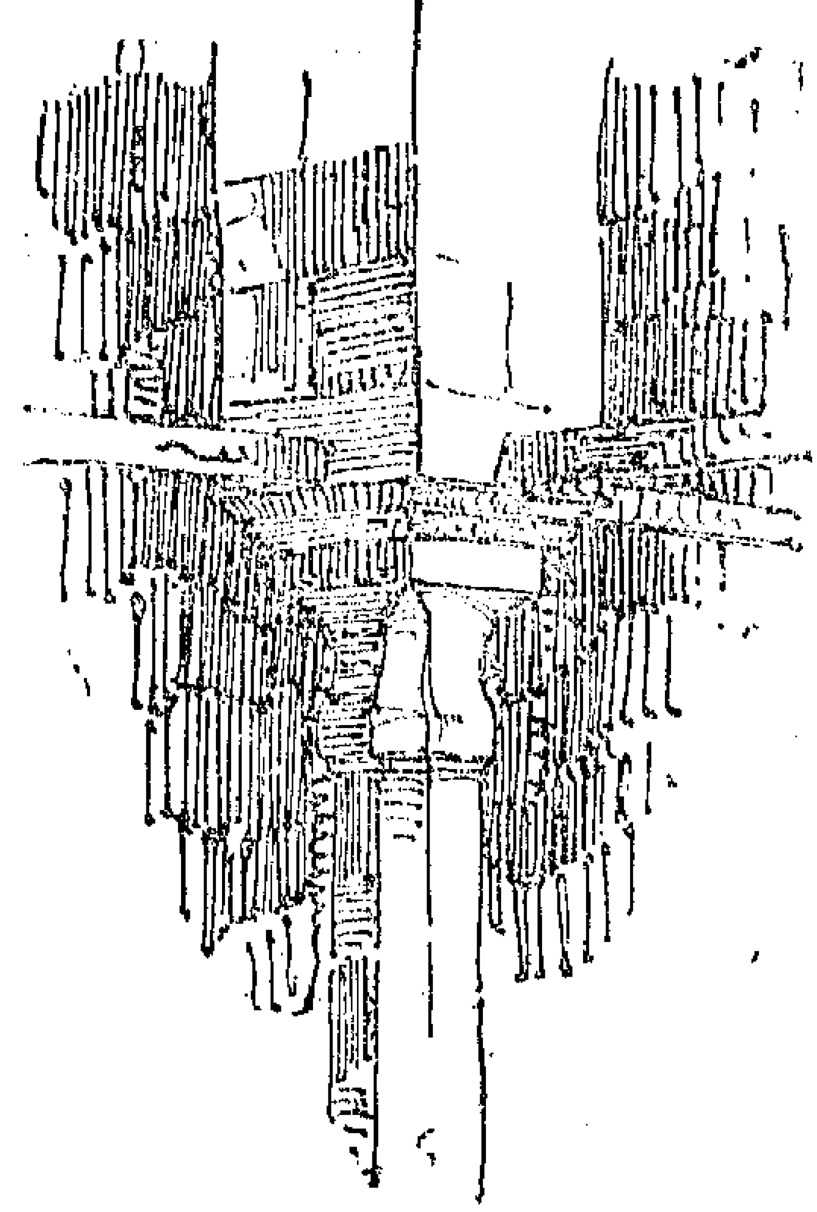


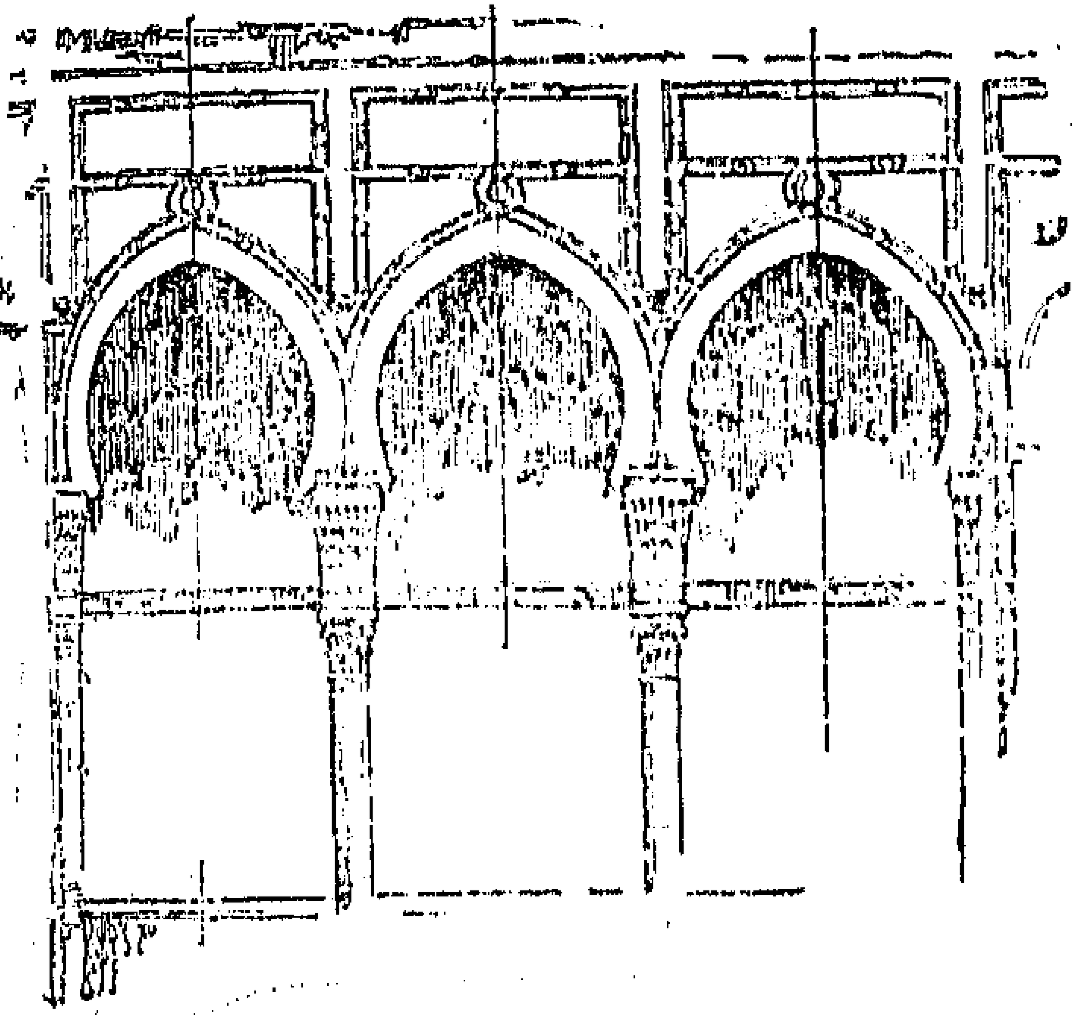
النسب ، ودقة التعبير وتدل على مهارة ودقة الفنان والصانع العربى

● وأصبحت الزخارف المعمارية والفنية الاسلامية حلاوة تنعم بها دون غيرها ، كما تنفرد بمشروع كامل لدراسة الألوان ، وتتميز بالبساطة التامة فى التصميم ٠ حيث كانت ولا تزال وستبقى العمارة الاسلامية أكثر العمارات حياة وأشدها بهجة وأعظمها خلوداً٠

والأمثلة الموضحة شكل ١٥٤ لحليات وزخارف من جامع الأقمر ، ومشهد السيدة نفيسة ، ومسهد السيدة رقية ، شكل ١٥٥، ١٥٦ ، ١٥٧ من جامع الظاهر بيبرس ، شكل ١٩٥٨ من جامع الصالح طلائع ٠ ومنها تظهر بوضوح البساطة التامة ، ورشاقة

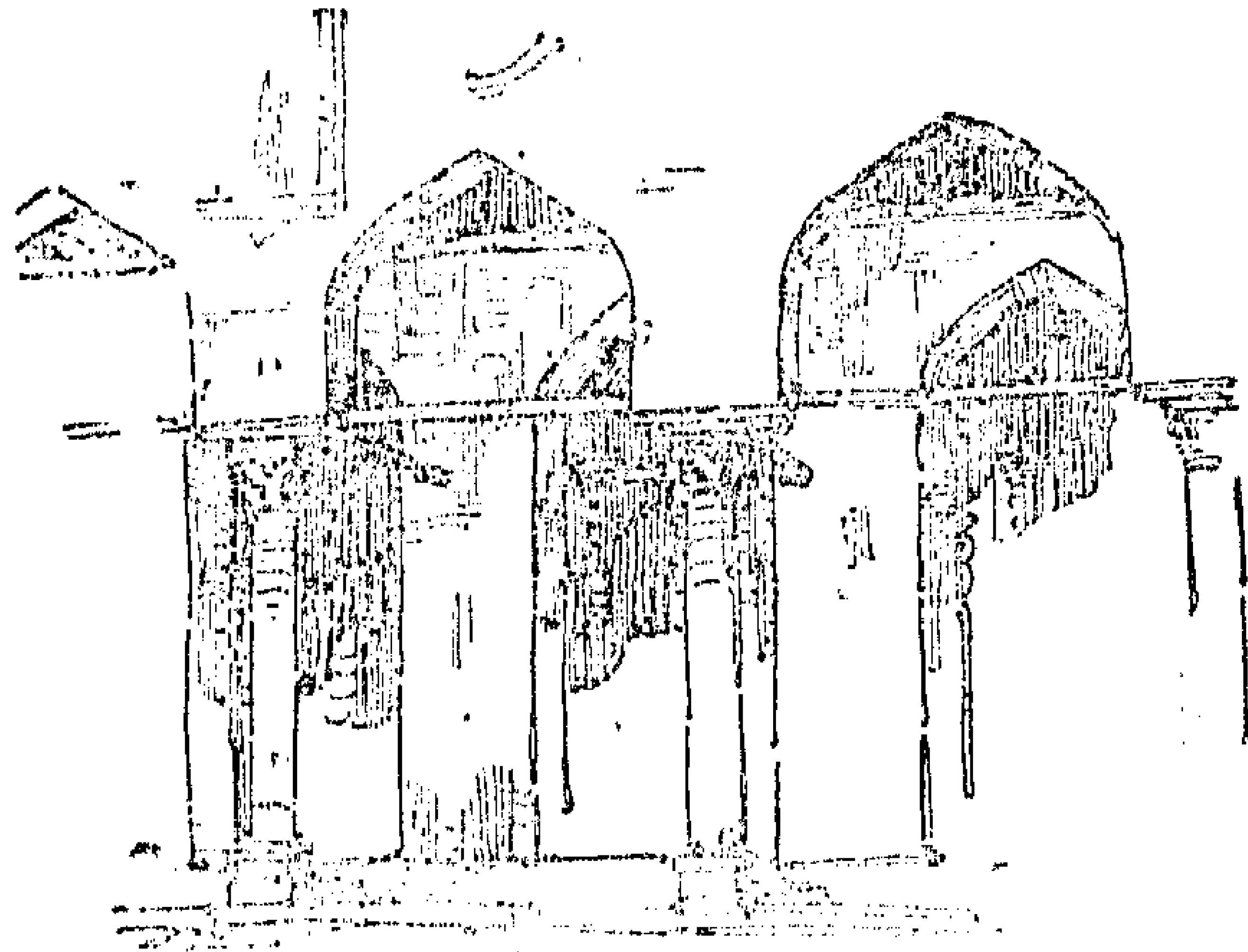






جامع الأزهر هو أول جامع انشىء بمدينـــة القاهرة ، بدء فى انشائه فى أبريل ٩٧٠ م ، وانتهى فى ٩٧٢ م ، ولكن جامع الأزهر الحالى ليس كله بالفاطمى الذى وضع أساسه جوهر ، بل هو مجموعة من الاثار ضمت اليه فى أوقات مختلفة ـ يرجى أن ينظر الشرح بالتفصيل ـ فتحت بأعلا حوائط الجامع شبابيك مفرغة بأشكال هندسية ، تتخللها مضاهيات مزخرفة عقودها مستديرة ، أحيطت بافريز مكتوب بالخط الكوفى المزهر والذى يعتبر من مميزات العصر الفاطمى ، ويشطر الايوان الشرقى مجاز متجـــه مباشرة الى المحراب ، ارتفعت عقودها وسقفه عن مستوى ارتفاعات المسجد ، وقد حليت حافة عقود هذا المجاز بكابات كوفيـــة ، وحليت خواصـــرها بزخارف نباتية مورقة مختلفة .

١٥٩ ـ عقود وأعمدة المجاز والصحن محلاة بالزخارف العربية الاسلامية .
والكتابات الكوفية بجامع الأزهر .
١٦١ : أعمدة الصحن الخارجى المكشوف بالأزهر .



نسبة ارتفاعها ١٢ مرة للقطر ، لها تيجان جميلة ذات رقبة طويلة وصفحة مربعة مشغولة بالمقرنصات ، أو عصابة مربعة محلاة بالزخارف الهندسية الجميلة البديعة الصنع الدقيقة التعبير ، مع أشغال الأرابسك التى تركز فوقها العقود العربية ٠

٥ ــ القبــــاب :

أخذ الفن الاسلامى فى بناء القباب عن الساسانيين والأقباط والبيزنطيين وأقبلوا على استعمالها فى الاضرحة حتى أطلقت جزءا على الكل وصارت كلمة قبة اسما للضريح كله ، وقد انتشرت فى العالم الاسلامى أنواعا مختلفة من القباب ، ولعل أجمل القباب الاسلامية هى الموجودة فى مصر وسوريا ويرجع أقدمها الى العصر الفاطمى، وكانت مقرنصاتها مكونة من حطة واحدة فى البداية ٠ ثم تطورت الى حطتين فى القرن الثانى عشر ، ودخل الضلع فى العصر الأيونى وزادت الزخارف الجصية فى قواعدها وقد امتازت القباب الجصية بارتفاعها وتناسب نسبها وبما على خطهـــا الخارجى من زخارف جميلة فى عصر المماليك ، وعرفت أنواع كثيرة من القباب فى العصور الاسلامية ٠

وقد كانت القباب فى العهد الأول حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى صغيرة، واقتصر استعمالها لتغطية الأمكنة أمام المحراب ، ثم انتشر اســـتعمالها للاضرحة ، وأستعين فى أول الأمر لهذا بعمل عقود زاوية Squinch Arches لتيسير الانتقال من المربع الى المثمن ، ولما أن تعددت مثل هذه العقود وصغرت ونظمت فى صفوف ، نشأت الدلايات المقرنصة التى انتشر استعمالها فى جميع القباب فى أوائل القــــرن الرابع عشر الميلادى (يرجى أن ننظر الصور والرسومات من صفحة ٩٧ الى ص ١١٢)

كانت القباب الأولى تبنى بالطوب ، وأول قبة بنيت بالحجر عام ١٤٠١ م فى القاهرة ، والشكل النموذجى للقبة القاهرية يطابق تماما شكل العقد المشهور وهو المخموس بامتداد ٠ ولتحديد شكل القبة يرسم دائرة بقطرة يماثل فتحة القبة ، ومن المركز يعين بعدا على المحور بقدر ١/٨ القطر ، ثم يرسم خطا أفقيا للماسين للدائرة فى نقطتين ، ثم يركز فى كل منهما وبفتحة تساوى ١ ١/٨ قطر الدائرة المعلومة يرسم قوسين ليتقابلا فى نقطة ٠

أما تأثير الانتقال من المربع الى المثمن فى الخارج فكان يعمل ثلاث درجات أو المستويات المائلة بالحليات ٠ واذا كانت القبة من الطوب فكان منظرها الخارجى بسيطا أو به ريش Ribs أما اذا كانت بالحجر فكانت تشغل بزخارف معوجة محلية بأشكال هندسية أو مورقة ، وكثيرا ما يظهر سطر من الكتابة حول القاعدة الاسطوانية للقبـــــة Drum ، ويعلو القبة نهاية معدنية يتوجها هلال مثلها كمثل المآذن ويلاحظ أن قباب عهد الأتراك كانت قبيحة المنظر (مفطوســـــة) خالية من الزخارف ٠

البـــاب الثالث :

- العمارة الاسلامية عبر العصور المختلفة ١/٣

- العمارة فى العصر الأموى ، أهم الأمثلة ٠٠٠ ٣/١
  - قبة الصخرة ـ القدس ٦٩٠ م
  - المسجد الأموى ـ دمشق ٧٠٧ م
  - مسجد قرطبة ـ اسبانيا ٧٨٦ م
  - المسجد الجامع بالقيروان ـ تونس

- العمارة فى العصر العباسى ٠٠ الدولة الطولونية ، وأهم الأمثلة : ٢/٣
  - المسجد الجامع : ساماراء / العراق ٨٤٨ م
  - جامع أحمد بن طولون / القاهرة ٨٧٨ م

- العمارة فى العصر الفاطمى ٠٠ وأهم الأمثلة : ٣ / ٣
  - جامع الأزهر الشريف / القاهرة ٩٦٨ م
  - جامع الحاكم بأمر الله / القاهرة ٩٩٠ م
  - جامع الأقمر / القاهرة ١١٢٥ م
  - أسوار القاهرة وأبوابها ٠

- العمارة فى عصر المماليك البحرية والجراكسة وأهم الأمثلة : ٤/٣
  - جامع السلطان الظاهر بيبرس / القاهرة ١٢٦٦ م
  - جامع الناصر محمد بن قلاوون / القلعة ١٣٣٤ م
  - جامع السلطان حسن / القلعة ـ القاهرة ١٣٥٦ م
  - مسجد وضريح السلطان قايتباى ـ العباسية ١٤٧٢ م
  - مسجد وضريح برقوق ـ القاهرة ١٣٨٣ م
  - مسجد المؤيد ـ باب زويله القاهرة ١٤٢٠ م

- العمارة فى المغرب ٠٠٠ ٥/٣
  - قصر الحمراء / غرناطة ١٣٣٢ م
  - الحمامات والأسواق ٠٠٠٠

- العمارة فى العصر العثمانى ١٤٥٠ ـ ١٨٠٠ م ٦/٣
  - المساجد التركية : مسجد ايا صوفيا ، مسجد السلطان احمد الأول اسطانبول ٠ جامع سنان باشا / بولاق ٠

- العمارة فى عصر محمد على ١٨٠٥ / ١٨٥٠ م ٧/٣
  - مسجد محمد على / القلعة القاهرة ١٨١٣ م
  - قصور محمد على بالقلعة وشبرا / القاهرة ٠

مراحل العصور الاسلامية :

البـاب الثالث

فيما يلى أهم الدول التى تتابعت فى الحكم بعد ذلك والمميزات المعمارية التى امتازت بها عصور هذه الدول الاسلامية ٠

● المرحلة الأولى ــ عصر الولاة قبل الخلفاء الراشدين :
١٨ ــ ٢٥٦ هـ ٦٣٩ ــ ٨٦٨ م

تعاقب على حكم مصر فى مدة قرنين ونصف ٩٨ واليا ٠ وكان من الواضح أن لكثرة تقلب أو عزل هؤلاء الحكام أن انشغل كل حاكم أو والى منهم فى جمع المال أو الثروة فى أقصر وقت ممكن فلم يجدوا من الوقت للانشاء أو التعمير أو التحسين ، وكانت العمارة نسيا منسيا فى هذه المرحلة سواء أكانت بقيام الدولة الأموية بدمشق أو الدولة العباسية ببغداد ٠ ويستثنى من ذلك جامع عمرو الذى أنشاه الفاتح بمدينة الفسطاط والتى خططها عام ٦٤١ م ٠ ومن أهم الأعمال التى تمت فى هذا العصر هى:

١ ــ جامع عمرو ــ أقامه عمرو بن العاص بعد الفتح مباشرة عام ٢١ هـ وحرر بقلته جماعة من الصحابة وصحن الجامع ١٧٫٥ × ٢٩٫٠ م ٠ وقد وسع أحيانا وأصلح أخرى ، وهو الآن عبارة عن ساحة مكشوفة يحيط بها ردهات ذات باكيات لأعمدة نظمت فى اتجاه عمودى على المحراب أما العقود فهى مستديرة الشكل وممتدة وتحمل سقفان من الخشب وترتكز على أعمدة اختلفت تيجانها وغالبا أنها مأخوذة من أبنية قديمة ٠ وتمتد أربطة خشبية عند مستوى نهوض العقد أو وتره لتقويتها ولحمل المصابيح المدلاة منها وقد أحاط هذا الشكل البسيط من التصميم بصحن مكشوف تحيطه أروقة مغطاة ٠ واتخذ هذا المسقط الأفقى انموذجا يحتذى به فى جميع مساجد العالم بعد ذلك ، ولعل فكرته الأولى اشتقت من الكعبة أو من المعابد المصرية القديمة فى ذلك الوقت ٠

٢ ــ مقياس النيل بالروضة / قاهرة ــ بناه أسامة بن يزيد الملقب بالمتنوخى عام ٩٧ هـ ٠

٣ ــ أطلال مدينة الفسطاط عام ٦٤١ م ٠ تعتبر مثلا لتخطيط المدن الاسلامية فى القرون الوسطى ، وأهم ما يلاحظها فيها أن طرقاتها خططت متعرجة وضيقة لتوفير الظل ووضع جامع عمرو فى قلب المدينة وحوله الأسواق والحمامات والمحال التجارية ونافورات وبساتين ٠

● **المرحلة الثانية ـ** عصر الدولة الطولونية :
٢٥٧ ـ ٢٩٢ هـ ـ ٩٠٥ م :

حكم مصر أحمد بن طولون وأنشأ فى الدولة الطولونية مبان ومساجد عظيمة الأثر من الناحية الفنية للعمارة · وأهمها الجامع الذى سمى باسمه وهو مسجد احمد بن طولون بالقاهرة ، والذى لايزال قائما محافظا على جماله ورونقه وعظمته ، وسيأتى وصفه بالتفصيل فيما بعد · ومما يذكر أن أحمد بن طولون من أهل مدينة سمراء بالعراق ، وعلى ذلك رأينا أنه تأثر كثيرا بحضارة تلك المدينة الأصلية ونقل منها الفن المعمارى الى مصر ولذلك كان تصميم جامعه يشبه تماما جامع بغداد العظيم وزخارفه تشابه زخارف جامع سمراء بمدينة سمارا وأصل اسمها ـ سر من رأى ·

وقد كان أحمد بن طولون أعظم مشجع للفنون والصناعات ، فلم تلبث المدنية الاسلامية أن خرجت على الروح البيزنطية التى كانت سارية قبل حكمه · وقد هجر العسكر وأنشأ ضاحية جديدة شمالها سميت « بالقطائع » وبنى قصره تحت قبة الهواء (القلعة الآن) كما اتخذ غربى القصر ميدانا للفروسية ولعب وسباق الخيل ، وأقيمت قصور قواده حول القصر ، وكذلك الحمامات ومستشفى للأمراض العقلية · ويعتبر جامع أحمد بن طولون الذى انشأه وسط القطائع فوق جبل يشكر عام ٢٦٣ هـ أول مثل حقيقى للعمارة الاسلامية والفن الاسلامى ومن أروع المبانى التذكارية فى الشرق ·

وخلف أحمد بن طولون ولده خمارويه فبالغ فى العمارة وفى الفن ، وتبذل فى الترف والزينة فى قصره الذى بناه حيث كسى حوائطه بالذهب الخالص ونقش عليها صور نسائه ومحظياته ، وأعد بالقصر بحيرة من الزئبق وحديقة كتب على بساطها أبيات من الشعر بالنباتات ، وبقيت جميع هذه التحف حتى جاء محمد بن سليمان ، وبأمر الخليفة العباسى دمرها ليمحو كل أثر للطولونيين ·

● **المرحلة الثالثة :**

عود الى عصر الولاة ٢٩٢ ـ ٣٢٢ هـ
ثم عصر الدولة الأخشيدية ٣٢٢ ـ ٣٥٨ هـ

عادت مصر ولاية عباسية بعد أن انقرضت الدولة الطولونية · توارد عليها الولاة من بغداد مدة ٣٠ عاما قاست فيها البلاد ، وحل بها الفوضى والاضطراب

لضعف الخلفاء أنفسهم وقوة كلمة الجيش ٠ فلم يظهر أى أثر للفن أو العمارة أو الصناعة ٠ وكذلك نفس الحال فى عصر الدولة الأخشيدية التى كثرت فيها الثورات الداخلية فى البلاد ٠

● **المرحلة الرابعة** ـ عصر الدولة الفاطمية
٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ
٩٦٩ ـ ١١٧١ م

فتح مصر جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ٠ بنى مدينة القاهرة شمال الفسطاط والقطائع ، وكانت حينذاك عبارة عن مساحة مربعة طول ضلعها يبلغ نحو ١١٠٠ متر تضم داخلها مبانى الحكومة ومساكن الجنود وقصرين أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب وغيرها من المبانى العامة ٠

وقد خطط جوهر الصقلى ليلة قدومه مدينة القاهرة شمال الفسطاط ، وبنى جامع الأزهر استعدادا لقدوم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، كما أحاط القاهرة عاصمة الفاطميين بالأسوار المرتفعة لحمايتها ووقايتها من غارات المعتدين ٠

كان الفاطميون يدينون بمذهب الشيعة ، وقد ظهر أثر ذلك واضحا على فنونهم وصناعاتهم ، وتحتفظ دار الآثار العربية الآن بآيات وتحف وحفر لصور تمثل حياتهم من مناظر للصيد أو الرقص والموسيقى ، ونقوش بديعة للغزلان والطيور والجمال تحت الهوادج ، وغير ذلك من الزخارف النباتية التى تدل على مقدار تفوقهم فى الفنون والزخارف والعمارة ، وعلى مبلغ سماحتهم وحبهم للرسم والتصوير ٠

ومن الأمثلة الرائعة التى أقيمت فى هذا العصر « جامع الأزهر » الشريف وسيأتى شرحه تفصيلا فيما بعد ، « وجامع الحاكم » أو ما يسمى بجامع الأنور بناه العزيز عام ٩٩٠ م وأتمه ابنه الحاكم عام ١٠١٢ م ، ثم « جامع الأقمر » شيده الخليفة الآمر بأحكام الأمير بدر الجمالى عام ١٢٢٥ م ٠ كما ينتمى لهذا العصر أيضا « جامع الجيوشى » على سفح المقطم بناه الأمير بدر الجمالى عام ١٠٨٥ م ، ثم الجامع الأفخر » شيده الخليفة الظافر عام ٥٤٣ هـ ويعرف الآن بجامع الفكهانى بالسكرية ٠

وأهم ما بقى من آثار « جوهر القائد » هو جامع الأزهر الشريف الذى بنى عام ٩٧٠ م الذى يشبه جامع أحمد بن طولون من حيث المسقط الأفقى ، الا أن السقف

مرفوع على أعمدة مستديرة القطاع ، يعلوها عقد مخموس فارسى ، بخلاف جامع أحمد بن طولون فان سقفه مرفوع على عمد مربعة من الطوب تعلوها عقود مخموسة.

ولما تولى « بدر الجمالى » الأمير الأرمنى الحكم عام ١٠٨٧ م بعد ذلك أعاد تحصين القاهرة وزادت مساحتها وأسوارها ، وأقام بالأسوار عدة بوابات مرتفعة ، أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة أو ما يسمى ببوابة المتولى الآن • وللسور والبوابات أهمية تاريخية معمارية حيث أنها كانت تعتبر من المبانى الحربية بمصر قبل الحروب الصليبية •

فالفاطميون هم رسل الفن الاسلامى ، وهم الذين اهتموا اهتماما بالغا بالاحتفالات بموالد أهل البيت ، واحياء الليالى المباركة • وكان بلاطهم يرفل فى حلل النعيم والبهاء ويحفل بمواكب العظمة والفخامة • وبعد ذلك ساءت الادارة وعدم اختيار الخلفاء الأكفاء والبيعة للاطفال بالخلافة ، وكانت السلطة الحقيقية بطبيعة الحال للوزراء الذين تطاحنوا على الحكم وضحوا بالدولة على مذبح شهواتهم وأطماعهم ، وشهدت القاهرة مسرحا للفتنة والقتال والمؤمرات كانت القاضية وخاتمة للفواطم •

ومن أهم ما أدخله الفاطميون على العمارة العربية المصرية الزخارف الفنية المتعددة الأشكال ، والخط الكوفى المزخرف والنجمة العربية ذات الثمانية فروع ، والتى بلغت أفرعها بعد ذلك عشرة واثنى عشر فرعا أو أكثر • ولم تتأثر العمارة بالفن العربى الفارسى كالعمارة الطولونية ، ولكنها تأثرت كثيرا بالفن السورى البيزنطى الذى ساد وانتشر وتغلب على جميع أعمال الدولة الأيوبية والمماليك بعدها مع الانتفاع الكامل بالزخارف العراقية الفارسية •

● **المرحلة الخامسة** ــ عصر الدولة الأيوبية :

٥٦٧ ــ ٦٥٠ هـ
١١٧١ ــ ١٢٥٢ م

أسس هذه الدولة « صلاح الدين الأيوبى » ومن أهم أعماله تكبير مدينة القاهرة وأحاطها بسور كبير به أبراج حربية ذات قطاع نصف دائرى وليس مربع الشكل كأبراج الدولة الفاطمية وأقام قلعة الجبل • أدخل صلاح الدين تعديلات كثيرة على مداخل المدينة ، حيث جعل هذه المداخل محدبة للخارج تحف بها مزاغل من الجانبين لشطر الجيش المهاجم الى قسمين يسهل ضربهما بالنبال من هذه المزاغل • وهذه

فكرة حربية رائعة لم يعرفها من سبقوه من قبله · كما أدخل نظام المدارس الدينية الى المبانى المعمارية ·

كانت أيام صلاح الدين ومن خلفه أيام فتن وحروب داخل البلاد وخارجها ، وكأن الدولة الأيوبية جاءت للجهاد ولتقف فى وجه أوروبا المسيحية المتعصبة · ولا غرو فى ذلك ، فمؤسس هذه الدولة « صلاح الدين » الذى رافق عمه من قبل فى الحملات الثلاث التى شنها « نور الدين » والى دمشق على مصر ، وهو بطل موقعة حطين وآخر أبطال هذه الدولة « توران شاه » بطل موقعة المنصورة ، وكللت حياتهما بالأنتصار الساحق على الصليبيين وغيرهم من الأبطال الذين ردوا غارات هذه الحروب الرهيبة والتى هدرت أرواح كثير من الشهداء ·

ولذلك نرى أن أهم ما تشتهر به هذه الدولة الأيوبية ، هى المنشآت الحربية من قلاع وحصون والتى منها قلعة الجبل بالقاهرة ، والأسوار المحصبة المنيعة ، ثم تلتها بعد ذلك المدارس للمذهبين الشافعى والمالكى · ولم يحاول صلاح الدين أن يهدم قصور الفاطميين بل تركهـا ، وطلب الى وزيره بهى الدين قراقوش ومعناه « النسر الأسود » أن يبنى له قلعة الجبل لتحصية القاهرة · فبدأها عام ١١٧٧ م ، وبنى قصراً فيها لسكنه من الأحجار التى استوردها من منطقة الأهرامات بالجيزة ·

وأهم حدث تاريخى منسوب لهذه الدولة ، هو ظهور النوع الثانى من شكل تصميم الجامع وكان صلاح الدين يدين بمذهب أهل الشيعة والجماعة ، ولكنه وجد أن مبادىء الشيعة لا زالت متغلغلة فى النفوس ، فوطد العزم على أن يعيد للبلاد ايمانها وثقتها بالدين الحنيف ، ولهذا أنشأ الكليات لتعليم الشريعة حتى تعدل بين دراسة المذاهب الأربعة فى الاسلام · فقد جاءت هذه الادارة بالتصرف بالشكل المتعامد من تصميم الجامع « Graciform plan » الذى كان حلا سهلا وطبيعيا ، وهذا النوع الثانى من التصميم هو عبارة عن صحن مكشوف يجمع حوله فى كل جانب فى جوانبه الأربع مكان مسقوف أو رواق أعد كرسيه لدراسة أحد هذه المذاهب ·

ومن آثار هذه الدولة أيضا تلك القباب الجميلة التى حليت زواياها بالمقرنصات وأشهر القباب الموجودة منها حتى الآن قبة الصالح نجم الدين ، وقبة الامام الشافعى رضى الله عنه الذى انشأها الملك الكامل عام ٦٠٨ هـ ، وقبة الملكة شجرة الدر للمقبرة التى شيدتها لنفسها أثناء حياتها · وعلى ذلك نرى أن أهم ما أدخلته الدولة الأيوبية على العمارة الاسلامية هى المبانى والمدارس الدينية والمبانى بالدبش والشوات الرخام وزخرفة المحراب وأعمال الفسيفساء (الكاش الفرفورى) والشبابيك الجبس المحلاة

بالزجاج الملون البديع الصنع ثم المقرنصات ٠

● **المرحلة السادسة ـ عصر المماليك :**

٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ
١٢٥٠ ـ ١٥١٦ م

كان حكام الدولة السابقة يكثرون من شراء المماليك ، ويعدونهم حرسا لهم أو لتدريبهم على أعمال القتال للانضمام للجيش ٠ وبهذا الشرف الذى أسند اليهم نراهم وان كانوا أرقاء وعبيدا اسما كان لهم تصرف الأحرار فعلا ٠ ولما ان شعر المماليك بشدة بأسهم وسلطانهم وعظيم أمرهم ، تحكموا فى الأمور وصاروا لأوليائهم أشبه بالسجان منهم بالأتباع الحماة ٠ وكان عدد كبير منهم يقيمون بقلعة الروضة ، ولذلك أطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » ٠

ولما غضب المماليك على الملك توران شاه ، قتلوه وولوا العرش الملكة أم خليل شجرة الدر ، حيث لم يول المسلمون امرأة للحكم قبلها ٠ استمرت فى الحـــكم ثلاث شهور ثم عزلت نفسها ، فولى المماليك صبيا فى الثامنة من عمره « الأشرف موسى » وجعلوا عز الدين أيبك التركمانى وصيا عليه ، فتزوج من شجرة الدر وخلع الطفل واستبد بالملك ، وانتهت بذلك دولة آل أيوب من مصر ٠

ولئن كان عهد المماليك فى مصر مسرحا للفتن والاضطراب ، الا أنهم ولا شـــك تركوا من ورائهم معرضا لأهم الآثار والتحف الثمينة فى القصور والجوامع ، حيث كسيت حوائطها بالرخام الجميل والقيشانى المزجج وبأبدع الالوان ٠ ونقشت الأسقف بالنقوش الرائعة المموهة بالذهب ، وآيات خطية وكأنها سلاسل من ذهب ، وأثاثاتهم صنعت بالسن والأبنوس والصدف ، وتقدم فن النقش والحفر وأشغال النحاس والمينا وغيرها من الصناعات الدقيقة ، حيث تعتبر آثار المماليك أعظم كنوز العصور الوسطى ٠ ويمكن تقسيم المماليك الى دولتين ـ دولة المماليك البحرية أو الأتراك ، ودولة المماليك البرجية أو الشراكسة ٠

● **المماليك البحرية :**

٦٤٨ ـ ٨٧٤ هـ
١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م

أدخل « الظاهر بيبرس » المداخل السورية ذات المقرنصات الجميلة التى انتشر استعمالها بعد ذلك ، وتطورت الى أن بلغت درجة من الجمال والكمال بل والاعجاز ٠ وأهم ما يمتاز به هذا العهد هو ما أدخل على العمارة العربية من القباب الكبيرة بدلا

من القباب الصغيرة » التى كانت تغطى مربعا صغيرا أقرب المحراب ، كما فى جامع الحاكم والتى استبدلت بقبة كبيرة خشبية تغطى ثلاثة بوائك أمام المحراب كما فى جامع « الظاهر بيبرس » بالعباسية عام ١٢٦٠ م ، وجامع محمد الناصر بالقلعة عام ١٣١٨ م وكذلك حدد عدد المداخل بثلاثة ، هـــذا العـــدد الذى كان يتفاءل به الســـوريون ويتباركون به ٠

ومن أهم الروائع الفنية التى أدخلت فى ذلك العصر ، هو النظام الذى اتبع فى تصميم مدرسة السلطان حسن التى بناها السلطان « الناصر حسن بن الناصر محمد ابن المنصور قلاوون » عام ١٣٥٦ م ، والتى تعتبر بحق من أهم مبانى العالم العربى بالنسبة الى عظم أبعادها وجمال خطوطها مع البساطة التامة ، حيث استخدم شكل المسقط الأفقى العام لهذه المدرسة وهو يشتمل على صحن سماوى مربع تتفرع منه أربعة ايونات معقودة بأكبرها المحراب ، وقد اتبع هذا الشكل فى بناء الجوامع بعد ذلك ٠

ومن مميزات هذا العهد ، التقليل ما أمكن من زخرفة الواجهـــات بالحشـــوات الرخام ، واستعمال الوزرات الرخام الملون داخل المساجد ، وبناء الواجهات بمداميك بيضاء وحمراء على التوالى وذلك لتجميل الواجهات ، والمأخوذ هذا النظام من الطراز البيزنطى ٠

وينقسم عهد دولة المماليك البحرية بالنسبة لآثاره الى أربعة عصور :

١ ــ عصر السلطان الملك الظاهر بيبرس : ٦٥٨ ــ ٦٧٦ هـ :

حمل على التتار وحارب الصليبيين وعزز زعامته للاسلام بتنصيبه خليفة عباسيا ٠ ومن آثاره جامعه الذى أتمه عام ٦٧٧ هـ يشبه جامع ابن طولون ولكنه متأثر بعمارة الصليبيين فى الشام كما هو واضح فى أبوابه الضخمة وشرفاته المسننة ، حوائطه الخارجية من الحجر المنحوت الملون ، وشبابيكه ذات عقود مخموسة محلاة بتشابيك من الجبس ، ومداخله الثلاثة ذات عقود مخموسة أيضا وبانوهات على الجوانب ٠ ومن أعماله أيضا مدرسة بجوار مسجد الصالح نجم الدين أيوب وقنطرة أبى المنجا (قرب قليوب) ذات العقود المخموسة منقوش عليها صورة للاسود رمزا لقوة الملك بيبرس والتى لا تزال هذه القنطرة موجودة حتى الآن ٠

٢ ــ عصر السلطان المنصور سيف الدين « قلاوون » : ٦٧٨ ــ ٦٨٩ هـ :

خرج الى التتار وردهم وبنى فى القاهرة الجامع والقبة (الضريح) ومستشفى

وتعد هذه المجموعة من اروع وأنبل ما فى القاهرة من آثار قلاوون • وسيأتى شرح ذلك تفصيلا فيما بعد •

٣ ـ عصر السلطان الناصر محمد قلاوون : ٦٩٣ ـ ٧٤١ هـ :

يعتبر أطول حكم فى سلاطين المماليك ، بلغ الفن والعمارة والنقوش العربية نهايته ، وأغلب الآثار الاسلامية الموجودة فى جميع متاحف العالم من صنع هذه الفترة حيث ثبتت فى هذا العصر أسس ونظم وأشكال العمارة والفنون الاسلامية •

وللناصر جامعين أكبرهما بالقلعة وهو من النوع الأول ذى الأعمدة وعقود داخلية تكاد تشعر أنها مخموسة ، فهى على شكل حذاء الفرس ترتكز على أعمدة قديمة يعلوها فتحات ثنائية فوق بعضها • أما الجامع الأخر بالنحاسيين فهو على نظام المدرسة ذات الأربع أروقه • وأهم ما يمتاز به الولايات ذات المقرنصات بالقبة ثم الباب الضخم الغريب الذى نقل من كنيسة القديس حنا بعكا •

والناصر هو الذى أنشأ القناطر ذات العقود التى تصل القلعة بالنيل عام ١٣١١م والتى لا تزال آثارها باقية حتى الآن •

٤ ـ عصر السلطان حسن :

السلطان هو الذى أنشأ تلك المدرسة الخالدة العظيمة بجوار القلعة والمشهورة الآن باسم جامع السلطان حسن ، وهى أحسن مثل للمدرسة ذات الأربعة ألونة ـ ايوان • ويعتبر هذا العمل الضخم أعظم وأنبل مبنى بالقاهرة ، ويشهد التاريخ بعظمة وضخامة هذا الأثر الخالد ، وكم من مرة استعمله المماليك كقلعة يحتمون فيها ، فقد لجأ اليه طومان باى عندما طارد العثمانيين ، وكذلك لجأ اليه المماليك ضد قيادة نابليون بونابرت •

● المماليك الجراكسة : ٧٦٤ ـ ٩٢٣ هـ
١٣٨٢ ـ ١٥١٦ م

لم يطرأ تغيير جوهرى على العمارة الاسلامية فى ذلك العصر ، الا ما نلاحظه من تقدم فى أعمال المقرنصات وزيادة الارتفاع الذى وصل فى بعض الأحوال الى ثلاث عشر طبقة تعلو بعضها البعض ، وادخل عليها تحسين كبيرة بأن حصرت المقرنصة الواحدة بأطار مثلث النهاية •

تقدمت صناعة القباب فى ذلك العهد ، ووصلت القباب الحجرية بجمال خطوطها ورشاقة نسبها وزخرفتها بالنقوش البارزة البديعة الصنع من الخارج والداخل الى أقصى حدود الجمال والرشاقة كما يلاحظ ذلك فى قبة « جامع برقوق » بمقابر المماليك واستخدم فى نهاية هذا العهد القطاع الصليبى الشكل فى بناء المساجد والذى كان قبل قاصرا على بناء المدارس ٠

تابع قلاوون شراء المماليك وأسكنهم أبراج القلعة ولذلك ســـموا « بالبرجية » ويختلفوا عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة ٠ ومما هو جدير بالذكر أنه أثناء هذه الفترة بالذات أكتشف الطريق الموصل الى الهند عن طريق رأس الرجـــاء الصالح ، ونمت المدن التجارية الكبرى مثل جنوا والبندقة وازداد نفوذ البرتغال ، واتسع نطاق التجارة والملاحة بين الشرق والغرب فكان لموقع مصر الجغرافى أهمية كبرى فى هذا الشأن ٠ ولكل هذه الأسباب وغيرها سارع سلاطين وأمراء هذه الدولة، وتسابقوا فى انشاء القصور والمدارس والجوامع والسبل والمعاهد الخيرية والوكالات وكثيرا من الفنادق ٠

ضاقت القاهرة بمن فيها من السكان فاتسعت غربا نحو ساحل بولاق ، وشرقا نحو القرافة الشرقية خارج المدينة بانشاء الكثير من المساجد والقباب (١) وأن الكثير من هذه الآثار والمبانى التاريخية والمســـاجد الموجودة الان بالقـــاهرة هى منأثار هذه الدولة ٠

بلغت العمارة والفنون أوج مجدها وازدهارها فى هذا العصر ، وأمتازت بجمال الذوق والروح وحسن الزخرفة وصغرت مساحات المساجد وسقفت صحونها ٠ ويعتبر هذا العصر بحق ولا شك العصر الذهبى للفنون والعمارة الاسلامية فى مصر ٠ وقد هدد التتار مصر مرة والعثمانيون مرة أخرى ، ووقعت مصر فريسة للعثمانيين عام ٩٢٣ هـ فزالت دولة المماليك وأصبحت مصر ولاية عثمانية ٠ ينقسم هذا العهد من حيث أثاره الى خمسة عصور :

١ ـ عصر برقوق : ٧٨٤ ـ ٨٠١ هـ

أنشأ مدرسته المشهورة باسم جامع برقوق عام ١٣٨٤ م فى حى بين القصرين بالقاهرة ٠ والمدرسة ذات ايوانات متعامدة مختلفة السعة وكما هو متبع فى هذا

النوع من التصميم (نوع المدارس) صمم الايوان الميمم شطر مكة أكثر اتساعا وعظمة ويكامل سعة الصحن ولكن يفصله عنه ردهتين بالبوائك صممت عموديتين على المحراب. ولهذا الايوان سقف مستو جميل يستقبل الصحن بعقد مخموس على شكل حدوة الحصان ، وينهض من نقطة قريبة من الأرض ويغطى الايوانات الأخرى أقبية أقبية مخموسة . أما الواجهة فهى مقسمة الى بانوهات تنتهى بمقرنصات من أعلى ويتوجها شواهد مشجرة فوق حلية موجة منعكسة ، وبها صفين من الفتحات السفلية منها مستقيمة والعلوية مخموسة العقود ، ومنارته تفوق صنعا وشكلا وجمالا منارة السلطان حسن .

وخلف برقوق ابنه السلطان ، فرج حيث انشأ تلك المجموعة الرائعة الساحرة فى الجزء الشمالى من المقابر الشرقية المعروفة باسم مقابر الخلفاء ، حيث تجمع فى تنسيقها بين نظام الأعمدة ذات البواكى والتصميم الجامعى ذى الأربعة ايوانات .

٢ ــ عصر المؤيد شيخ : ٨١٥ ــ ٨٢٤ هـ

وهو الذى أنشأ جامع المؤيد بجوار باب زويلة (باب المتولى) .

٣ ــ عصر الاشراف بارسباى : ٨٢٥ ــ ٨٤١ هـ

كان لمصر أسطولها القوى فاستولى على قبرص ورفع علم التجارة وامتلأت مصر بالخيرات وزادت حركة التجارة فيها . ومن أهم الآثار فى عصره جامعه المشهور بالجبانة الشرقية وجامع القاضى يحيى زين الدين على نظام المدرسة أيضا وقبة مدرسة آينال .

٤ ــ عصر قايتباى : ٨٧٣ ــ ٩٠٢ هـ

كان قايتباى محبا للعمارة والفنون ، بنى وأصلح الكثير من المدارس والمساجد . ومن أهم آثاره جامعه المعروف باسمه بالجبانة الشرقية ولقب هذا الجامع بالدرة اليتيمة فى العمارة والفن الاسلامى ومسقطه من النوع المدرسى ذى الأربعة ايوانات .

٥ ــ عصر السلطان الاشرف قانصوه الغورى : ٩٠٦ ــ ٩٢١ هـ .

ومن أهم آثاره الجامع المعروف باسمه بالغورية ، والقبة المقابلة له بخلاف جوامع أخرى ، ومنارة الأزهر الشريف المزدوجة الفريدة من نوعها ، وعدة وكالات

حيث كان محبا للفنون . وفى آخر عهده ولى ملك العثمانيين السلطان « سليم خان الأول » وكان يحقد على الغورى فخرج له والتقى الجيشان شمالى حلب ٩٢٢ ﻫ ١٥١٦م وانتصر العثمانيون ، وتولى زمام الشام السلطان سليم ، وزحف على مصر واحتلها حيث كان المماليك قد ولوا عليهم السلطان « طومان باى » فالتقى جيشه بجيش سليم بجهة العباسية . وانهزم طومان وصلبه سليم على باب زويلة . وبموته قضى على ملك مصر ودولة المماليك الشراكسة ، وأصبحت مصر ولاية عثمانية عام ٩٢٣ ــ ١٥١٧م وتنازل الخليفة العباسى عن الخلافة لسلاطين آل عثمان .

● **المرحلة السابعة ــ عهد الأتراك أو عصر الدولة العثمانية :**
٩٢٣ ﻫ ــ ١٥١٧ م الى ١٨٠٥ م

ساد حكم الأتراك كساد فنى عام ١٥١٧ م فى مبدأ الأمر فى جميع البلاد المصرية، تناول جميع الصناعات والحرف . ويرجع السبب فى ذلك الى عاملين رئيسيين أولهما ارسال رجال الفن الى الآستانة ، وثانيهما الفقر الذى حل بالبلاد من بذخ واسراف المماليك أثناء حكمهم فى حياتهم الخاصة والعامة ، وربما أقاموه من تحف فنية رائعة استنفذت ثروة البلاد وتركتها فى فقر مخيف .

استمر الحال كذلك مدة طويلة الى أن عادت للبلاد ثروتها الماليـــــة والفنية ، واستتب الأمن بعد الفوضى التى عانت البلاد من جرائها الكثير . بنى كثير من المساجد على الطراز البيزنطى التركى من حيث المساقط الأفقية والواجهات ، الا أن تفاصيلها الداخلية وزخارفها تأثرت كثيرا بالتأثير المملوكى كما يلاحظ ذلك فى « جامع سليمان باشا » الذى بنى عام ١٥٢٨ م وجامع « سنان باشا » عام ١٥٧٣ م ، وجامع « الملكة صفية » عام ١٧٠٣ م ، ومسجد الأمير عثمان كتخدا المعروف باســـم جامع الكخيا بالقاهرة حيث تم بناؤه عام ١٧٣٤ م ، وألحق به سبيل وكتاب وحمام وسيأتى شرح هذه الجوامع حين شرح عمارة عصر الدولة العثمانية فيما بعد . وأهم ما يلاحظ أنه قد ظهر تأثير الروح البيزنطية الدخيلة فى كثرة القباب واتخاذها موضعا ومكانا هاما من الجامع ، وصارت هذه البدعة تقليد فى انشاء الجوامع بعد أن كانت القبة علما على الأضرحة والمقابر فى الآثار القديمة .

وأخذ السبيل وكذا الكتاب ينشأ كل منها كوحدة مستقلة بدلا من تبعيته لمبنى آخر هام وكثرت أمثلة كل منها بانشاء العديد منها وكذلك الحمامات التى لعبت دورا رئيسيا هاما فى التصميم والتكوين الفنى والمعمارى .

● أهم المبانى التى تعبر عن العمارة الاسلامية هى المساجد . كانت الأولى فى الاسلام بسيطة فى تخطيطها ، فكانت تحاط قطعة الأرض بحوائط وكانت تحاط أيضا بخندق محفور وذلك فى الأمثلة القديمة من هذه المساجد ، وكان السقف يقام على عمد مرفوعة من جزوع النخيل أو مأخوذة من الاعمدة الحجرية للمعابد والكنائس القديمة . ولكن المسلمين وجدوا فى الأقطار التى فتحها العرب بنائين مهرة ومن ثم تطورت عمارة المساجد وزادت فيها أجزاء منقولة فى الغالب من بعض أجزاء العمارة المسيحية كالمآذن التى نقلت من الأبراج ، والمحراب الذى نقل من القبلة فى صــــدر الكنيسة متهجة فى معظم الأحيان الى الشرق . وأصبح للمساجد الاسلامية نظام من حيث العناصر المعمارية لا تكاد تخرج عنه ، فكان لمعظمها جزء يسمى بالصحن وقد يكون مكشوفا أو مسقوفا وتحيط به أربعة أجزاء أخرى تسمى أروقة ، ثلاث منهـــا بواكيها متساوية فى العدد . والباكية هى جزء من الرواق المحصورة بين صفين من الأعمدة أو الأكتاف ، أما الرواق الرابع فاوسعها وهو رواق القبلة وفيه المحراب . وتغطى الأورقة بصفوف مستوية محمولة على العقود أو أقواس تقوم على عمد من الرخام أو الحجر أو على أكتاف من المبانى .

●● وقد ظهر التطور فى تشميم المساجد عندما ظهر نظـام المدارس فى الاسلام ، ولكى يمكن أن نتفهم هذا النظام ، نذكر أن المدارس كانت فى العصر الاسلامى الأول مركزا للتدريب والتعليم ، ثم رأى السلاطين السلاجقة فى القرن الحادى عشر أن يشيدوا عمائر خاصة للتدريس الدينى على مذاهب السنة ، وكانت هذه المبـــانى الخاصة أو المدارس مساجد جعلت وقفا على العلم الى جانب اقامة الشعائر الدينية فيها ، ولكنها تمتاز عن المساجد الأولى بما أضيف الى تصميمها من ملحقات شيدت لايواء الطلبة والأساتذة . وقد كانت المذاهب الأربعة الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى تدرس كلها أو بعضها فى تلك المدارس . أما تصميم المدارس فكان يشمل معظم الأحيان صحنا مكشوفا يحيط به أربعة ايونات فى شكل متعامد ، وكانت الأركان الواقعة بين الخلفين فى هذا الشكل الصليبى تشتمل معلى المدخل وفيها سلم يوصل الى الدور العلوى ، كما تشمل على مساكن وملحقات الأساتذة والطلبة من وحدات الخدمات اللازمة لهم .

والمعروف أن المساجد الأولى ذات الأورقة كانت لا تمكن بعض المصليين بسماع

الخطب ورؤية الامام ولا سيما اذا كان السقف محمل على أكتاف كما فى جامع ابن طولون مثل ، بينما كان ذلك أيسر فى المدارس ذات الأيونات المتعامدة ، ولذلك أصبح عدد وافر من المساجد يبنى على نظام المدارس منذ القرن الثامن عشر ، وكان بعض السلاطين المماليك يشيد مسجدين أحدهما على نظام المدرسة ويبنى فى قلب المدينة قريبا من الطلبة والآخر على النظام القديم ، وهو نظام الأروقة ويبنى فى أطراف المدينة لغرض الصلاة • ومن المدارس الجميلة فى مصر مدرسة أو جامع السلطان حسن • ومن العمائر فى فن العمارة الاسلامية عدا المسجد والمدرسة ، الضريح أو المشـــهد وهو الفناء الذى كان يقام على رفات والى أو امام أو أمير ، ويسمى أحيانا قبة وكان صاحب الضريح يدفن فيه • وكثيرا ما كانت أضرحة تبنى للسلاطين والأمراء ملحقة بالجوامع أو المدارس التى يشيدونها ، وكانت أغلب الأضرحة أبنية مربعة عليها قبة ذات قطر معين محدود محلاة بالمقرنصات •

وعنى المسلمون باهتمام كذلك ببناء الأسبلة فى أركان المساجد وفى المســاجد وفى الطرق ، ثم بنائها مستقلة فى عصر الأتراك العثمانيين ، وكذلك بناء الأسواق التى امتازت بقبواتها العظيمة وعقودها الضخمة ، كما أنه كان للحمامات شأن خطير فى الأقطار الاسلامية وقد شيدت بكثرة فى جميع أنحاء العالم الاسلامى • وفيما يلى شرحا تفصيليا لأهم الأمثلة للمبانى الباقية حتى الآن للعمارة والفنون الاســـلامية فى العصور المختلفة •

● العمارة فى العصر الأموى : ٣/١ ــ ١

أول وأقدم طراز أو طابع أو نسق أو أسلوب معمارى فى الفن الاسلامى هو الطراز الأموى • ازدهر فى عصر بنى أمية فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، وقد كان استيلاء بنى أمية على الخلافة وانتقال عاصمة الدولة الاسلامية الى دمشق خاتمة لعصر الخلفاء الراشدين ، وعاش الأمويون فى الشام حيث ازدهرت من قبلهم مدارس من الفنون الهيلنستيكية والمســيحية الشرقية التى تأثرت ببعض الأساليب الساسانية وقد تأثر الفن الاسلامى بهذه المخلفات الاسلامية ، وبدأ المسلمون يفكرون بتشييد مساجد توازى فى العظمة والروعة الكنائس المسيحية • وقد عنى الأمويون بتجديد بعض المساجد التى أنشأت فى عصر الخلفاء الراشدين مثل جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع عمرو ، ولكن ازدهار فن العمارة ظهر على يديهم بما شيدوه من مساجد جديدة كالجامع الأموى فى دمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، حيث تعتبر قبة الصخرة من أجمل العمائر الاسلامية الأموية فى بيت المقدس •

١ ـ قبة الصخرة : بيت المقدس ٦٩٠ م

كانت القدس تعرف منذ آلاف السنين قبل الميلاد باسم « يبوس » نسبة الى اليبوسيين وهم من أصل عربى ، وقد نزحوا اليها من الجزيرة العربية ضمن القبائل الكنعانية الذين كانت لغتهم سائدة فيها ٠ ثم خضعت القدس للاحتلال الرومانى ثم البيزنطى الى أن دخلها عمر بن الخطاب عام ٦٣٨ م ٠ وبعد ازدهار الاسلام دخلت فلسطين الدين الجديد عام ٦٣٧ م على أثر استسلام الحاكم الرومانى وتسليم مفاتيح القدس الى الخليفة عمر بن الخطاب ٠

وفى الفترة ما بين عامى ١٠٩٩ ، ١١٨٧ م وقعت القدس فى أيدى الصليبيين الى أن حررها صلاح الدين الأيوبى ٠ وفى عام ١٥١٧ م ضمها العثمانيون حتى نهاية عام ١٩١٧ م حيث استولى عليها الجيش البريطانى بقيادة اللنبى ٠ وأصبحت القدس مقرا للحاكم العسكرى البريطانى ثم مقرا للمندوب السامى لفلسطين وشرق الأردن منذ عام ١٩٢٠ وحصلت الأردن على استقلالها بعد ذلك ٠

وعمل حكم الانتداب على تحقيق وعد بلفور ، فيسر للمهاجرين اليهود حق امتلاك الأرض خارج أسوار المدينة المقدسة حيث أقاموا ضاحية عرفت بالقدس الجديدة ٠ وعلى هذه الأرض المقدسة ، أرض القدس الطاهرة يقع المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ومقدسات الأديان وأقدس الآثار الاسلامية والمسيحية ٠

قبة الصخرة فى الحرم الشريف ببيت المقدس ، وقد كانت المنطقة مقدسة عند المسلمين والمسيحيين واليهود وظلت منزلتها الدينية عظيمة ٠ وتم بناء هذه القبة سنة ٧٢ هـ على يد الخليفة عبد الملك بن مروان ٠ ويغلب على الظن أن الخليفة الأموى كان يرمى من وراء ذلك غرض معين ، وهو تعظيم الصخرة المقدسة والحفاظ عليها من عبث العابثين واحاطتها بسياج ، هذا فضلا عن أنه أراد أن يبنى بناءا ينافس الكنيسة المجاورة لها والتى تحتفظ بالضريح المقدس ٠ وقد يكون منهدس قبة الصخرة قد نقل تصميمها من قبة كنيسة القيامة القريبة منها والتى تساويها فى الحجم ، ولكنه بالغ فى زخرفتها وتنميقها فى استعمال الموازييك (الفسيفساء) والفصوص ذات الألوان اللامعة ٠ يرجى أن تنظر الصور والرسومات الخاصة بقبة الصخرة ٠

اختار الخليفة عبد الملك بن مروان أكثر المواضع ارتفاعا من ساحة الحرم الشريف ببيت المقدس لبناء قبة الصخرة ، وهو المكان الذى قيل أن ابراهيم عليه السلام افتدى فيه أبنه ، وهو المكان الذى صعد منه الرسول عليه الصلاة والسلام الى السماء على

البراق ليلة الاسراء · والصخرة حجر أزرق اللون ، لم يطأها بقدمه ، وفى ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض كأن انسانا سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه ، وعليها آثار سبع أقدام ، وقد كان هناك سيدنا ابراهيم عليه السلام وكان اسماعيل طفلا فمشى عليها وهى آثار أقدامه ·

أراد الخليفة الأموى أن يقيم بناءا يعتز به الاسلام بين روائع العمارة المسيحية فى بلاد الشام فى ذلك الوقت · ولقد جاء بناء قبة الصخرة المشرفة فى وقت كان الاسلام محتاجا فيه الى أبنية رائعة ليجارى الكنائس الرومانية العظيمة · وقد وفق الخليفة فى بنائها توفيقا عظيما · فكانت قبة الصخرة بحق تحفة اسلامية لجمالهـــا وابداع زخارفها وبساطة تصميمها وتناسق أجزائها · وظل تصميمها فريدا فى العمـــارة الاسلامية فى عصورها المختلفة ، لأن نظام المساجد لا يتفق اطلاقا مع نظام البناء المثمن · وليس معنى هذا أن الاسلام لم يستخدم هذه الأبنية المثمنة ، فقد كانت هناك أبنية اسلامية ذات تصميم مركزى ، ولكنها اتخذت لأغراض أخرى ، وكانت وقفا على الأضرحة ·

وقبة الصخرة بناء حجرى مثمن الشكل ، قوامه مثمن خارجى من الحوائط يليه مثمن داخلى من الأعمدة والأكتاف وداخل هذا المثمن دائرة من الأعمدة والأكتاف أيضا ، وفوق الدائرة قبة مرفوعة على اسطوانة فيها ١٦ نافذة ، والقبة مصنوعة من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص ومن الداخل طبقة من المصيص ، وضلع المثمن الخارجى طوله نحو ٢٠ر٥ متر وارتفاعه نحو ٩ أمتار ، وفى الجزء العلوى من كل ضلع فى هذا المثمن نوافذ ليصل منها النور الى داخل البناء وفى الجوانب المقابلة للجهات الأربعة الأصلية من المثمن أربعة أبواب وفى وسط هذا البناء الصخرة المقدسة · وقد كان استخدام القباب معروفا عند المسيحيين الشرقيين قبل بناء قبة الصخرة ، كما كان فى الشام كنائس ذات قباب فوق النيف مثمنة الشكل فليس غريبا أن يفكر عبد الملك بن مروان فى هذا النظام ــ يرجى أن ينظر مزيد من الشرح والصور والرسومات أشكال من ١٦٨ الى ١٧٢ ــ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ·

فالأروقة الدائرة حول المثمنين الداخليين للصلاة يمر فيها الناس حول الصخرة الذى يبلغ طولها ١٨ متر وعرضها ١٣ متر ، وهى غير منتظمة الشكل وأقصى ارتفاعها عن الأرض ٥ر١ متر والأقواس الدائرة فى البناء نصف دائرية وكذلك أقواس فتحات النوافذ والأعمدة المستعملة فيه قديمة قد جلبت من عمائر قديمة فاختلفت فى طراز أبدانها وتيجانها ، واستعملت الروابط الخشبية الضخمة بربط هذه التيجان بعضها بعض لتزيد قوة احتمال العقود ·

وكان الجانب الخارجي من حوائط البناء مغطى بالموزاييك التى تزين كثيرا من أجزائها الداخلية ، وهى مؤلفة من رسوم الأشجار والفواكه والأوانى التى تخرج منها فروع نباتية ، وفى قبة الصخرة كتابة كوفية يبلغ طولها ٢٤٠ متر بالفص المذهب على أرض زرقاء ، وقوام هذه الكتابة آيات قرآنية ، وتضم أيضا عبارة تشير الى تاريخ انشاء هذا المبنى ونصها : « بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين فى سنة ٧٢ هـ »

وهذه العبارة مكتوبة بخط يخالف الخط المستعمل ، فضلا عن أن سنة ٧٢ هـ لا تقع فى حكم المأمون بل فى حكم عبد الملك بن مروان وهو الذى شيد هذا البناء ٠ ويتبين من ذلك أن تغييرا حدث فى هذه الكتابة فى عهد المأمون ولكن الصانع فاته أن يغير التاريخ بعد أن غير الاسم ، ولا شك لقبة الصخرة مكانة ممتازة فى فن العمارة الاسلامية تمتاز خصوصا ببساطة التصميم وتناسق الأجزاء ودقة النسب ، ولكن هذا الشكل المثمن لم يظهر مرة أخرى فى تصميم الجوامع الاسلامية وظلت قبة الصخرة فريدة فى نوعها ــ يرجى أن تنظر الصور والرسومات ٠

٢ ــ المسجد الجامع : دمشق ٧٠٧ م :

أو ما يسمى بالجامع الأموى ، شيده الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٧ الى ٧١٤ م واستخدم له الصناع والعمال من شتى البلاد الاسلامية ٠ ويقوم هذا المسجد فى منطقة مقدسة كان بها معبد وثنى قديم له برج مربع فى كل ركن من أركانه الأربعة ٠ وقد استعمل المسلمون هذه الأبراج فى الآذان ولا تزال احداها قائمة فى الركن الجنوبى الغربى ٠ ويتألف المسجد من صحن كبير مستطيل الشكل وايوان رئيسى طوله ١٣٦ متر وعمقه ٣٧ متر ، وفى هذا الايوان ثلاثة أروقة موازية للقبة ومحملة على أعمدة رخامية وفوقها أقواس أصغر منها ، وفى وسط هذه الأروقة رواق معترض يقسمها قسمين وتقوم فوقه قبة حجرية أضيفت فى عصر متأخر ، وفى طرفه أى فى وسط الايوان الجنوبى للايوان نرى المحراب ، وارتفاع هذه الأروقة بأقواسها الكبرى والصغرى حوالى ١٥ متر ولكن ارتفاع الرواق المعترض يصل الى ٢٣ متر ٠ ولهذه الأروقة أسقف خشبية على هيئة الجمالون ، ويحيط بالصحن أروقة أخرى تحددها أقواس محملة على دعائم بعضها مدبب وبعضها على شكل نعل الفرس وفوق هذه العقود صف من النوافذ مستطيلة الشكل وجزئها العلوى نصف دائرى ، وتقع كل نافذتين منها على عقد من العقود ، وفوق الأروقة الشمالية الجانبية سقف خشبى منحدر ٠ وقد كان المسجد فى وقت من الأوقات مفروشا بالمرمر وكانت حوائطه مغطاة بلوحات من الرخام وذلك الى ارتفاع ١٫٧٠ متر عن الأرض ، وفوق هذه اللوحات

زخارف من الموازييك الملونة والمذهبة ولا يزال جزء من هذه الموازييك باقيا فى الرواق الغربى ، ومن المحتمل أن يكون تصميم الجامع الأموى متأثرا بنظام الكنائس السورية وأن تكون واجهة رواق القبلة تشبه واجهة القصور البيزنطية · وفى هذا الجامع بعض النوافذ من الرخام فيها أقدم النماذج من الزخارف الهندسية فى الاسلام ، ويعتبر هذا الجامع من أبدع ما أخرجته العمارة الاسلامية ·

ومن الجوامع الوثيقة الصلة بالطراز الأموى جامع قرطبة الذى تم تشييده سنة ٤٨٥ م ثم زيدت مساحته الى الضعف فى القرن الثانى عشر وكان له رواق كبير يضم احدى عشر رواق بكل منها عشرون عمودا منقولة من المبانى القديمة ، وكانت تعلو هذه الأعمدة عقودا على هيئة نعل الفرس ولكن ارتفاعها لا يناسب مساحة الرواق ، فشيد صف ثانى من العقود الأولى وتصله بهذه العقود الأولى أعمدة صغيرة ، ويمتاز هذا الجامع بقبلته المزينة بالموازييك الممتاز ·

يعتبر القرن الثامن أهم فترة ازدهرت فيها العمارة الاسلامية ، ومن أهم معـالم هذا الازدهار المسجد الأموى بدمشق حيث اجتمع عدد من الحرفيين المهرة من مصر وسوريا والعجم وبيزنطة ممن اشتهروا بمزاولة الفنون العربية الاسلامية واكتسبوا خبرة ومرانا فى هذا المجال ·

بنيت حوائط المسجد الأموى الخارجية على موقع كان الأصل مقام عليه معبد رومانى قديم وكسيت حوائط المسجد بموازيك زجاجى بيزانطى الأصل · ويظهر أن الخليفة « الوليد » حينما بنى المسجد كان من رأيه أن يضفى لى حوائط الزخارف التى تمثل الطبيعة لكى يتأثر بها العرب المسلمين ولكى تطغى على الكنائس الصغيرة التى كانت مقامة فى تلك الفترة ، فقرر الوليد بن عبد الملك أن يقيم مسجدا جامعة للمسلمين لا يقل عظمة عن الكنائس البيزنطية الكبرى يحدثنا المؤرخون أن الجامع الأموى يقوم على موضع كنيسة يوحنا التى أقامها الأمبراطور بنودوسيوس داخل معبـد الاله جيويتار الدمشقى ، وهو معبد وثنى قديم ، احتفظ الكنيسة بجدانه الخارجية وأوبراجه الصماء الأربعة ·

وتتألف المسجد الأموى بدمشق من صحن مستطيل مكشوف وآخر مستوف طوله ١٣٦ م وعرضه ٣٧ ، ويتكون هذه الجزء المسقوف من ثلاثة بلاطات تمتد من الشرق الى الغرب بحذاء جدار القبلة ، يفصل فيما بينها ثلاثة صفوف من عقود نصف دائرة، يقوم على أعمدة من الرخام ويعلو كل عقد طاقتان مقصورتان · ويعلو البلاطة الوسطى السقف تحته حجرة ضخمة وأسقف هذه البلاطات منشورية ·

وجامع دمشق أول جامع استخدمت فيه المادية ، وتبعه بعد ذلك جامع عمر بن العاص الفسطاط ، ومنه أيضا انتشر نظام المآذن المربعة بصفة خاصـــة فى المغرب والأندلس • أصيب الجامع بأضرار بالغة ، فقد أحرق خمس مرات، وأعيد بناؤه وتجديده وفقد كثيرا من عناصره الأولى ، ولكنـــه لا يزال يحتفظ بتخطيطه الاول فى العصر الأموى • يرجى أن ينظر الصور والرسومات الخاصة بالمسجد رقم ١٦٥ ، ١٦٦، ١٦٧.

أرضية المسجد والحوائط بارتفاع ٢ م كسيت كلها بالرخام المجزع ، وباقى ارتفاع الحوائط حتى السقف مكسوة بالموازيك الملون الذهبى بها صور أشجار طبيعية وكتابات ورؤوس الأعمدة مطلية بالذهب ، وعقود الأروقة مغطاة بالموازيك الملون ، والأسطح كلها مغطاة باصاص •

٣ ـ مسجد قرطبة : اسبانيا ٧٨٦ م :

ولو أن هذا المسجد تحول فيما بعد ذلك الى كنيسة بعد استرداد البلاد من حكم العرب سنة ١٢٣٦ م الا أنه لا يزال يحتفظ بالطابع الاسلامى • فالمسقط الأفقى لهذا المسجد وضع أساس التصميم المبسط لمسجد سمارا • وبعد نصف قرن تم تكبير المسجد وزيادة سعة الممرات ، ثم أضيفت زيادات أخرى للمرة الثانية فى سنوات ٩٦١/٩٦٥م• وبعد عشرون عاما أضيفت ٨ ممرات أخرى للمسجد من الجهة الشرقية حيث تقرر عمل هذه الاضافات من الجهة الجنوبية لوجود جسر نهر بالمنطقة •

وتوضح لنا هذه المراحل المتعددة من الاضافات للمسجد المرونة التامة فى تصميم المساقط الأفقية للمساجد التى جعلت من اليسير زيادة المسطحات دون الخروج عن النموذج الأصلى لمسجد يواجه الداخل الى المسجد غابة من الاعمدة حيث تقـــوده الممرات وترشده الى القبلة • ويتألف سقف المسجد من ألواح خشبية مصفوفة عرضا، وتكسو الألواح والعوارض الطولية زخراف هندسية ملونة منقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات ، ويحيط بالسقف ازار خشبى منقوش بالآيات القرآنية •

عقدت بين العمد الرخامية على أعلى رؤسها عقود أقواس متجاورة نصف دائرية تقوم مقام الأوتار الخشبية ، وظيفتها ربط الأمدة ، وأقيمت فوقها عقود مثلها تحمل السقف وتزيد فى الوقت نفسه من ارتفاع السقف • وتستند هذه العقود العليا على دعائم من الحجر تتكىء بدورها على كوابيل مؤلفة من ٣ أو ٤ فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر ، وجميع العقود العليا ملونة باللون الأصفر الشاحب والسفلى باللون الأحمر •

ويتألف كل عمود من تاج وبدن وقاعدة من الرخام ٠ وجميعها استخدمت من الكنائس الخربة فى المسجد الجامع حيث تمثل هذه الأعمدة غابة من النخيل ، وتوحى عقودها المتتابعة بالطبيعة الحية ، يتسلل الضوء من شبكات النوافذ ، فيصل ضعيفا باهتا يحدث تأثيرا قويا فى النفوس ، فيستشعر المرء نفسه بعيدا عن نطاق الحقيقة ، ويظل مستغرقا مهيأ للتطلع الى ما وراء الحس فى صلاة خاشعة الى الله تبارك وتعالى٠

وتقوم قباب الجامع على هياكل من عقود بارزة متشابكة فى أشكال هندسية رائعة ، تؤلف نجوما يتوسطها قباب صغيرة مفصصة ، وكسيت الفراغات بين العقود البارزة بزخارف نباتية جميلة لى أرضية من الموازيك المذهب ٠ ومما لا شك فيه نرى أن هذه القباب أوحت الى ابتكار القبوات القواطية ـ يرجى أن ينظر المسقط الأفقى للجامع والرسومات الموضحة ٠ أرقام من ١٧٩ الى ١٨١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ٠

أما المحراب فهو أجمل عنصر معمارى فى الجامع ، حيث اعتنى به باعتباره أنبل مكان بالمسجد فأقيمت القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامى ، ونقش المحراب من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينت عضاداتة بلوحات رخامية حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفر غائر ٠

٤ ـ مسجد القيراون : تونس :

يرجى أن ينظر الشرح والرسومات الخاصة بهذا المسجد الجامع بالقيروان فى تونس بالصفحات المخصصة لهذا الباب من صور ورسومات ٠

● العمارة فى العصر العباسى : ٣/١ ــ ٢

يمتاز الطراز العباسى فى العمارة الاسلامية باستخدام الطــوب الظاهر فى الواجهات وبالتأثير بالأساليب المعمارية الساسانية ، وبظهور واســتخدام الاكتاف والدعامات والركائز فى حمل الأعتاب ، كما يمتاز أيضا بالاقبال على استخدام مواد الكسوة اللامعة ذات الألوان الجميلة المتجانسة فى كسوة المبانى . وأهم ما خلفه لنا هذا الطراز من آثار سجلها التاريخ لنا ما يأتى :

١ ــ المسجد الجامع : سمراء ــ العراق ٨٤٨ م :

شيده المتوكل بين ٨٤٨ ، ٨٥٢ م ولكن لم يبق منه الآن الا سوره الخارجى ، وكان فيه رواق كبير فى اتجاه القبلة وقروقة أصغر حجما فى أروقة الصحن الباقية ، ولهذا الجامع منارة حلزونية تشبه كثيرا منارة جامع ابن طولون حتى يعتقد أن الأخيرة منقولة عنها ، وكان هذا المسجد مستطيل الشكل كبير المساحة ٢٤٠ × ١٥٨ م ليسع ٨٠ ألف من المصلين . وكان سقفه يقوم على أكتاف متصلة بها أعمدة من الرخام ، وكان سوره العظيم مدعما بأربعين برجا قطر كل منها حوالى ٤ر٥ متر وبروزه عن الجدران ٢ متر ، وأكبر الظن أن جدرانه كانت مزينة بموازييك من الفصوص الزجاجية . يرجى أن ينظر شرح المقارنة بين المسجد الجامع فى سمراء وجامع أحمد بن طولون بالقاهرة ، كما يرجى أن تنظر الرسومات الخاصة بالمسجد شكل ١٧٩ ، ١٨٠ .

أما مدينة سامارا فهى المدينة التى ازدهر فيها الطراز العباسى بأجلى مظاهره ، وقد شيدت شمالى بغداد بأمر من الخليفة المعتصم سنة ٨٣٦ م واتخذها عاصمة للخلا فةونمت نموا سريعا بعد أن جمع لها المعتصم من انحاء الدولة الاسلامية بنائين من أصحاب المهن ورجال الصناعات الدقيقة . وشيد المعتصم وخلفاؤه القصور وأنشأوا فيها البساتين والبحيرات والميادين . وعندما تركها الخليفة المعتصم وانتقل ببلاطه وحكومته الى بغداد سنة ٨٨٩ كان ذلك ايذانا بخراب سامرا . اذ سقطت أبنيتها الواحدة بعد الأخرى ولم يبق منها الا المسجد الجامع وظلت قرية صغيرة حتى جلبت المنقبين عن الآثار فى بداية القرن الحالى ، وغزت بفضل جهودهم ايذانا بحفائر اسلامية غنية بما كشف النقاب عنه من بدائع الطراز العباسى فى الفنون الاسلامية . على أن سامارا لم تكن ذاعت شهرتها فى العصور الوسطى وأن تكن أهميتها فيما نعرفه عن تاريخ العصور الاسلامية لا تساوى أهمية بغداد ، وذلك بفضل الحفائر الدقيقة التى جعلت عاصمةم المعتصم مصدرا خصبا لكل ما نعرفه عن الطــراز العباسى . وكان تصميم بغداد على يد الخليفة أبو جعفر المنصور فى سنة ٧٦٢ ــ ٧٦٦ م بعد أن استقدم من شتى الأقاليم الاسلامية الخبراء فى المساحة وتخطيط المدن والمهندسين والصناع

وجعل المنصور فى وسط المدينة قصره والمسجد الجامع ، وأمر بأن يبنى لها سورين سور داخلى به أبراج وسور خارجى كبير الحجم ، حول السور الخارجى خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التى تتسرب من النهر • ومن الظواهر المعمارية الهامة فى أبواب بغداد ذلك المدخل المنحرف بمعنى أن الداخل من الباب لا يصل الى الساحة التى تليه مباشرة بل لابد له من الانحراف ، فالمدخل ملتوى على شكل زاوية قائمة •

٢ ـ جامع حمد بن طولون : القاهرة ٨٧٨ م :

● تم بناء الجامع الطولونى سنة ٨٧٨ م ، وهو يتكون من صحن مربع مكشوف وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة وتقع القبلة فى أكبر هذه الأروقة وهناك ثلاثة أروقة خارجية بين جدران الجامع وبين سوره الخارجى وتسمى بالزيادات ، والراجح أنها بنيت عندما ضاق الجامع على المصلين ، وكانت مثل هـذه الزيادات موجودة فى المسجد الجامع بسامرا • وقد شيد جامع ابن طولون بحجر أحمر داكن ، وأقواس الأروقة محمولة على أكتاف أو دعامات ضخمة من الطوب تكسوها طبقة سميكة من الحصى ، ولهذه الدعائم أعمدة من الطوب أيضا مندمجة فى زواياها الأربع، ولكنها للزينة فقط لأن الثقل واقع على الدعائم نفسها • ومنارة الجامع الطولونى تتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية وعليها طبقة أخرى مثمنة ، أما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزونى وأبنية الجامع الطولونى مغطاة بطبقة سميكة من الجص ، وعلى أجزاء كبيرة منها زخارف هندسية وبنائية جميلة • وفيما يلى شرحا تفصيليا لجامع أحمد بن طولون بالقاهرة •

● كان القرن الأول الهجرى عصر فتوحات وانتصارات للمسلمين • ورغم انصرافهم الى هذه الفتوحات فقد تخلف منها ثروات فنية بالغة الأهمية فى الأقطار الاسلامية منها الجامع الأموى ، بدمشق ، وقبة الصخرة ، والمسجد الأقصى بفلسطين، وجامع عمرو بن العاص ، يلى جامع عمرو جامع العسكر فى القرن الثانى الهجرى ، ومقياس النيل بالروضة فى القرن الثالث الهجرى ثم قناطر المياه بالبسـاتين التى أنشأها أحمد بن طولون • وفى عام ٢٦٥ هـ ـ ٨٧٨ م أنشىء الجامع الطولونى والذى يعتبر حتى الآن أقدم أثر معمارى اسلامى كاملا محتفظا بتفاصيله المعمارية الرابض فوق جبل يشكر ما يقرب من أحد عشر قرنا • وقد رؤى التوسع فى شرح تفاصيله لما لهذا المسجد من أهمية خاصة فى العمارة الاسلامية •

● ويعتبر مسجد أحمد بن طولون من أكبر المساجد ، حيث تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصف وهو مربع الشكل طول ضلعه ١٦٢ مترا يشغل منه المسجد مستطيلا مساحته حوالى ١٧٢٤٣ مترا مربعا ، ويتكون هذا المستطيل من صحن مكشوف مربع

طول ضلعه نحو ٩٢ مترا ، تحيط به أروقة على جوانبه الاربعة · ويحيط به أروقة غير مسقوفة من جوانبه الثلاث القبلية والبحرية والغربية وتسمى بالزيادات ، ذات أسوار مرتفعة فتحت فيها أبواب تقابل أبواب الجامع التى يبلغ عددها ٢١ بابا ، حيث يقع كل باب أمام سوق من اسواق التى كانت تحيط بالمسجد حيث كانت التجارة رائجة حوله فى تلك الأيام · يرجى أن ينظر الصور والرسومات أرقام من ١٨١ الى ١٨٦ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ·

● ويشتمل المسقط الأفقى للمسجد على خمسة أروقة فى الشرق ، ورواقين فى كل من الايوانات وتتكون هذه الأروقة من دعائم بالطوب مقاس ٥٠ر × ٣٠ر١ مترا ، مخلق فى قواطيعها الأربع عمد ذات قواعد وتيجان تحمل عقودا تظهر لثانى مرة فى العمارة الاسلامية ، زينت حافاتها بزخارف نباتية مورقة من الجبس ·

وواضح أن المهندس المعمارى لجأ الى التخفيف من ظهر العقد بفتح شـــبابيك خلقت بأكتافها عمد رشيقة وزينت حافاتها بزخارف نباتية مختلفة · ويعلو العقود أفريز من الجبس يعلوه ازار خشبى به آيات قرآنية من سورة البقرة وآل عمران ثم السقف · ويحيط بحوائطه الأربع من أعلا ١٣٠ شباكا من الجبس مفرغة بأشـكال هندسية وأخرى نباتية تنوعت أشكالها واحتفظت جميعها بزخارف جميلة الصنع ·

بالمسجد ستة محاريب كلها بايوان القبلة أهمها الموجود بجوار المنبر حيث يسود تصميم هذا المحراب الطراز البيزنطى من حيث الزخارف والتيجان والقيشانى المذهب والفسيفساء أو أعمال الموزاييك الملون · ومما هو جدير بالذكر أن المنبر الحالى يعتبر من أقدم وأجمل المقابر الاسلامية الموجودة فى مصر ، وتسربت بعض حشواته الى الخارج وأحضرت فى الأيام الأخيرة وركبت فى أماكنها الا أنه لا يزال هناك واحدة فقط من هذه الحشوات بمتحف فيكتوريا بلندن ·

● ويبلغ ارتفاع المئذنة نحو ٤٠ مترا ، وهى أول مئذنة انشئت فى مصر ، وهى من حيث المسقط الأفقى مربعة يحيطها سلم حلزونى ، ثم يعلو الجزء المربع جزء اسطوانى القطاع · والمئذنة كلها من الحجر بخلاف المسجد نفسه فحوائطه من الطوب تعرف باسم « الملوية » وقد أخذت ملوية « سر من رأى » شكلها من المعبد الفارسى ومما يلاحظ أن المئذنة فى تصميمها وصكلها تشبه تماما جامع سامرا العظيم والتى « الزيجوات » أو « الآنش جاء » أى بيت النار ، والمئذنة ذات سلم خارجى وتتكون من أربع طبقات الأولى مربعة ، والثانية أسطوانية ، والثالثة على شكل مثمن ، أما الطبقة الرابعة فتعلوها طاقية مضلعة تكون معها شكل مبخرة ·

وقد أنفق السلطان لاجين على العمارة والاصلاحات التى أقامها فى جامع أحمد ابن طولون وهى ترميم المئذنة واقامة الميضأة وعمل المنبر الخشبى ما يزيد على العشرين ألف دينار من ماله الخاص ، كما أوقف عليه قرية « منية أندونة » فى مديرية الجيزة ليدفع من ايرادها مرتبات المدرسين والموظفين وخدمة المسجد ، ورتب فيه دروسا للحديث والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة ومدرسا للطب وأنشأ مكتبة وسبيلا ٠ ويقال أن السبب فى اهتمام السلطان « لاجين بمسجد أحمد بن طولون يرجع الى نذر نذره حينما اختفى فى مغارته وهو خرب ، وذلك على اثر فتنة قتل السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون » ، وقد وفى بنذره ٠

● العمارة فى العصر الطولونى : ٣/١ ـ ٢

امتازت العمارة الاسلامية بمصر بميزتين أولاهما أن جميع العصور التى تعاقبت على حكم مصر ممثلة فيها والثانية انها تنفرد بتفاصيل عمارية لم يشاركها فيها قطر آخر كل ذلك مع الجمال والرشاقة ٠ وقد تخلفت منها مجموعات غنية بشتى الفنون تجلت فيها عبقرية المهندس كما ظهرت فيها مقدرة الصانع المصرى ٠

كان القرن الأول الهجرى عصر فتوحات وانتصارات على طول الخط للمسلمين ٠ ورغم انصرافهم الى هذه الفتوحات فقد تخلفت منها ثروات فنية فى الأقطار الاسلامية منها الجامع الأموى بدمشق وقصير عمرة ببادية الشام وقبة الصخرة والمسجد الأقصى بفلسطين وجامع عمرو بن العاص بمصر ٠

وجامع عمرو وأن كان أول جامع انشىء بديار مصر عام ٢١ من الهجرة (٦٤٢ م) ـ الا أن عوادى الزمن والاصلاحات المتتالية التى عملت به جعلت منه مسجدا جديدا اللهم الا بعض بقايا فاطمية وأخرى مملوكية لا تساعد على تتبع تطور العمارة الاسلامية بمصر ٠ يلى جامع عمرو جامع العسكر المنشأ فى القرن الثانى الهجرى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) وهذا لم يبق منه شىء كما لم يصلنا شىء من وصفه ٠ وعلى ذلك نخرج من القرنين الأول والثانى من تاريخ مصر بدون أثر عمارى كامل ٠

وفى سنة ٢٤٥ ـ ٢٤٧ هـ (٨٥٩ ـ ٨٦١ م) أنشىء المقياس الجديد بالروضة الذى أمر بانشائه الخليفة المتوكل على الله بمعرفة المهندس البارع أحمد بن محمد الحاسب الفرغانى ٠ وقد طرأ عليه أيضا تغيير كثير أضاع ملحقاته ولم يبق منه سوى بئر المقياس بعقودها وعموده ٠ ثم قناطر المياه الذى انشأها ابن طولون جهة البساتين ومنها بقايا وسنتناولها بالبحث حينما نتكلم عن المنشآت المائية ٠ أعقب ذلك الجامع الطولونى المنشأ عام ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م ـ ٠ وبما أنه لا يزال حافظا لتفاصيله العمارية

فهو اذن أقدم أثر اسلامي كامل بمصر ولذلك نفتتح سلسلة ابحاثنا عن الآثار الاسلامية بمصر بهذا الأثر العظيم الرابض فوق جبل يشكر قرابة أحد عشر قرنا ٠

● أحمد بن طولون :

الأمير أبو العباس أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية قدم مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨) نائبا عن الأمير بكباك فعين على الفسطاط وأسيوط وأسـوان فتغلب بحسن تدبيره على من كان حوله فعظم شأنه بينهم وخضعوا لسطوته ٠ ولما توفى بكباك وهبت مصر للامير ماجورحمى ابن طولون فابقاه فى منصبه ٠

وفى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢م) قلده الخليفة المعتمد على الله الخراج على مصر والولاية على الثغور الشامية فكان لقسوة ابن طولون وسـطوته خير أثر فى مصر فسادت السكينة البلاد ونمت ثروتها ونجح فى الاستيلاء على حكم مصر وجعله وراثيا فى أسرته وظلت البلاد خاضعة له ولذريته من بعده حوالى أربعة وثلاثين عاما تجلى فيها الترف والبذخ ٠ وتوفى الى رحمة الله سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) وقبره مجهول الآن٠

وكان محبا للعلم كثير الصدقات شغوفا بالعمارة فقد أصلح منارة الاسكندرية ومقياس النيل وأنشأ حصن الجزيرة ومسجد التنور ومدينة القطائع والقصر والميدان وقناطر المياه والمارستان والجامع الكبير ٠

● العمارة فى العصر الفاطمى : ٣/١ ـ ٣

العمارة الفاطمية بمصر من أزهى عصور العمارة وأغناها ٠ فهى دولة بذخ وترف لها من عقائدها فرجة هيأت للفنان أن يطلق لخياله العنان ، فضور حياتهم العامة وحفلات طربهم وحلبات صيدهم على منشآتهم وطرقهم ٠ ومما يؤسف له أن التعنت السياسى طغى على منشآتهم ومخلفاتهم الدنية فأبادها وحرمنا منها ٠ ولكنه أبقى على منشآتهم الدينية وبعض طرفهم الأثرية ٠

وجولة بين الآثار الدينية المخلفة من عصرهم ٠ وزيارة لدار الاثار العـربية لشاهدة الطرف المخلفة فى شتى فنونهم ٠ تجعلنا نؤمن بما كتبه وتوسع فيه المؤرخون عن ثراء هذه الدولة التى كانت أيام حكمها مواسم وأعياد لمصر ٠

● الدولة الفاطمية سنة ٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ ـ ٩٦٩ ـ ١١٧١ م :

انقرضت الدولة الطولونية وخلفتها الدولة العباسية ، التى قبضت على الأزمة

الدينية والسياسية بمصر ، ولكنها لم تلبث إلا قليلا حتى زالت سلطتها كما زالت دولة بنى طولون من قبل ، وذلك لأن أبا بكر محمد بن طغج النائب عن الخليفة الراضى بالله استضعف مولاه فاستقل بالبلاد فى سنة ٣٢٤ هجرية ــ ٩٣٥ م ٠ وتلقب بالاخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة ٠

ومع أن الدولة الاخشيدية عمرت زهاء ٣٥ سنة ، فانهـا لم تترك وراءها أثرا معماريا ، وذلك بسبب الاضطرابات السياسية ٠

ولما أبلغ المعز لدين الله حالة مصر واضطرابها ، حشد جيشا لفتحها على رأسه قائده العظيم جوهر الصقلى ٠ وما أن علمت بقدومه عساكر الاخشيد حتى هربت قبل وصوله ، فدخل مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ٦ يوليو سنة ٩٦٩ م وأقيمت الدعوة للخليفة الفاطمى المعز لدين الله ٠ وفى الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ــ ٩٧٣ م وصل الخليفة المعز لدين الله القاهرة ، ونزل هو وحاشيته بالقصر الذى انشأه له جوهر ، فوجده كاملا مهيأ من فرش وسلاح وبيت مال وجميع ما يصلح لاستقبال الملوك ، وأصبحت مصر دار خلافة بعد ان كانت دار امارة ٠

● سـور القاهرة :

كانت باكورة أعمال جوهر ند حلوله القاهرة احاطتها بسور لتصير حشنا له من القرامطة ، فشرع فى بنائه ليلة الاربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٧ م وكون منه مربعا منتظما تقريبا تواجه أضلاعه الجهات الأربع الأصـلية ، فيواجه الجانب الجنوبى منه الفسطاط ، ويسير الغربى محازيا للخليج ، ويواجه الشرقى المقطم ، والشمالى الخلاء ٠ وفتح فى السور أبوابا فجعل فى الجهة الشرقية بابى البرقية والقراطين (الباب المحروق) وفى الجهة البحرية بابى النصر والفتوح ، وفى الجهة القبلية بابى زويلة والفرج ، وفى الجهة الغربية بابى القنطرة وسعادة ، وركب على هذه الأبواب أبوابا مصفحة بالحديد ٠ وكان بناء هذه الأسوار من اللبن الكبير البالغ مقاسه ½ ذراع ، كما كان عرض السور كبيرا بحيث يسع مرور فارسين ٠

غير أن هذه الأسوار لم تلبث كثيرا ، فقد جددها وزاد فيها وبناها بالأحجار هى وبعض الأبواب الوزير بدر الجمالى سنة ٤٨٠ هـ ــ ٤٨٤ هـ ١٠٨٧ ــ ١٠٩١ م وهذه الأبواب باقية حتى الآن ، وهى بابا النصر والفتوح سنة ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م وباب زويلة سنة ٤٨٤ هـ ــ ١٠٩١ م وهذه الأبواب الثلاثة أشرف على بنائها ثلاثة اخوة قدموا من الرها ، وهى مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ، وتعرف عند الأتراك باسم أورفا وقد تجلت فى هذه الأبواب الضخمة الهيبة والعظمة لما حوته من دقائق

فنية قل أن توجد فى غيرها ، ويمكن القول بأن هذه الأبواب قـــد تكون منقولة عن استحكامات قريبة من الامبراطورية البيزنطية والعراق ٠

● القصر الكبير الشرقى :

وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة وضعه أساس السور ، وقد تلاشى هـــذا القصر عقب سقوط الدولة الفاطمية وأقيم على رقعة من أرضه المدارس : الصالحة والظاهرية وسبيل محمد على (مدرسة النحاسين) وقصر بشتاك وقسم الجمالية وما حوله ، كما تلاشى القصر الصغير الغربى الذى كان تجاهه وحل محله منشآت المنصور قلاون ، والناصر ابنه ، والظاهر برقوق ، والمدرسة الكاملية حتى الخرنفش ٠ ورحم الله المؤرخ الجليل المقريزى ، فقد وصف هذه القصور وما ألحق بها من خزائن وقاعات وايوانات وصفا خلابا اعتماداً على المراجع التاريخية التى أدركها ، كما أن ناصر خسرو والرحالة الفارسى عاين هذه القصور ووصفها ٠ كما عاينها أيضـــا بعض الرحالة الأوروبيين ٠

ويستخلص من هذه الأوصاف ، أن واجهات هذه القصـــور ، بنيت بالحجر ، وزخرفت بصور الطيور والحيوانات ، وأن القاعات حليت بالرخام والنقوش الملونة والفساقى التى تنساب فيها المياه ٠ هذا غدا الاستار الحريرية والبسط المصـــورة والأرائك المطعمة بالذهب ٠ وقد ربطت أجزاء القصور وملحقاتها والمناظر القريبة منها بسراديب يمشى فيها اناث الحمر بخدمها النساء ٠

انقرضت هذه القصور قبل الأوان ضحية للتعنت السياسى ، وتخلف منها بعض المصاريع وبعض الأخشاب المحلاة بنقوش بارزة تمثل حفلات الرقص والطرب وحلبات الصيد ، وبها الطيور والحيوانات ، وكلها تدل على مقدرة الصانع وتقدم الصناعة ، كما تخلف منها ألواح رخامية بها صور طيور وحيوانات عثرنا عليها أخيرا فى خانقاه برقوق بالصحراء ، وهذه المصنوعات خشبية كانت أم رخامية دلت دلالة واضحة على أن صناعها أنتجوا بدائع غاية فى الجمال وقوة التعبير ٠

أهم ما بقى من فن العمارة فى العصر الفاطمى الى الآن هو جامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع الأقمر فضلا عن أسوار القاهرة ٠ وفيما يلى وصف تفصيلى لهذه الروائع المعمارية الاسلامية من العصر الفاطمى ٠

١ ـ جامع الأزهر الشريف : القاهرة ٩٦٨ م

من أهم معالم الفاطميين الباقية حتى اليوم هو جامع الأزهر الذى يعتبر أول عمل فنى معمارى أقامه الفاطميون فى مصر · ويقع جامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من قاهرة المعز لدين الله · وقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بناء هذا المسجد وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه خلال القرون الماضية ، وأضيفت اليه زيادات واضافات عدة ، مما جعل معرفة التخطيط الأصلى للجامع من الأمور الصعبة التى يتعذر الاهتداء والاطمئنان اليها ·

واذا كان الجامع لا يزال يحتفظ ببقية من النقوش والكتابات الكوفية المزهرة ، والعقود الفارسية المدببة والتى تعد من مميزات العمارة ، فان كل أجزائه الحالية من عصور متأخرة بقى الأزهر يشغل المكانة الرفيعة فى العالم الاسلامى ، فقد كان منار العلم ومئل المتعلمين حتى جاءت الدولة الأيوبية فبدأ نجمه فى الأفوال ، فقد عمل الأيوبيون على محاربة الشيعة ونشر المذهب السنى ومن ثم أبطلت الخطبة فى الجامع الأزهر واكتفى باقامتها فى الجامع الحاكم عملا بالمذهب الشافعى وظل الحال على ذلك مدة قرن من الزمان حتى العصر المملوكى ·

● انشىء الجامع الأزهر ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ومقرا لدعوتها الدينية ورمزا لسيادتها الروحية · أما فكرة الدراسة بالأزهر فقد كانت حدثا عارضا ترتب على فكرة الدعوة المذهبية · وغلب الحادث العارض شيئا فشيئا على صيغته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعى الخالد · والى جانب المكانة العلمية التى يتمتع بها الأزهر فقد كانت له أهمية رسمية خاصة ، ففيه كان جلوس قاضى القضاة فى أيام معينة ، وفيه كان مركز المحتسب العام ، وفيه كان يعقد الكثير من المجالس الخلافية والقضائية ·

ويعتبر العصر المملوكى الذهبى للازهر من حيث الانتاج العلمى الممتاز ، ومن حيث تبوئه مركز الزعامة · وكان الفتح العثمانى أقصى ضربة أصابت المدينة الاسلامية ، منذ أن قضى التتار على الدولة العباسية فى القرن السابع الهجرى · فأصاب الأزهر ما أصاب الحياة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، الا أنه استطاع أن يغدو ملاذا أخيرا لعلوم الدين والفقه ومعقلا حصينا للغة العربية ·

وربما كانت هذه الرسالة السامية التى ألقى القدر زمامها الى الجامع الأزهر فى تلك الأوقات العصيبة فى حياة مصر والعالم الاسلامى بأسره ، وهى أعظم ما أدى الأزهر من رسالة ، وأعظم ما وفق لاسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل ·

● كانت أماكن التعليم فى صدر الاسلام مقصورة على المساجد ، فقد كان هو الدافع الى العلم والتعليم • وأتخذ الخلفاء الراشدون من المساجد مواطن لكثير من شئون الدولة • ففيها كانت تقام الصلاة ، والفصل فى الدعاوى والحكم بين الناس ومبايعة الخلفاء ، واللقاء الخطب السياسية والحربية ، وما اليه حالة الأمة العربية وحالة جيوشها • وكان الأزهر أهم معهد من معاهد التعليم بالاضـــافة الى جامع عمرو بن العاص الذى بنى بالفسطاط عام ١١ هـ عندما فتح المسلمون مصر ، وجامع أحمد بن طولون الذى بنى فى القرن الثالث الهجرى •

تطورت مواد الدارسة فى الأزهر ، ونبغ فى القرون الاسلامية الأولى كثير من العلماء والحكماء والفلاسفة والرياضيين والفلكيين ، وظهرت مؤلفات لها قيمة ، وأنشأ هارون الرشيد بيت الحكمة لتدريس العلوم الطبية والطبيعية والرياضية • وناصر المأمون هذه العلوم واعتنى بها وألحق ببيت الحكمة مرصدا فلكيا ، وأضاف الى المكتبة آلاف من كتب الفلسفة والطبيعة والرياضة والفلك بلغات مختلفة منهـــا العربية والهندية والقبطية ، ونبغ فى عهده كثير من العلماء فى الفلسفة والفلك والطب والرياضة كالخوارزمى فى الجبر ، ويحى بن أبى منصور والعباس والجوهرى وغيرهم من فطاحل علماء العرب •

● وكان بمكتبة الأزهر ماية ألف كتاب ، منها ستة آلاف فى الطب • وكانت تحتوى على كرتين سماويتين من الفضة صنعهما بطليمـــوس الفلكى وعلى خريطة جغرافية من الحرير الأزرق دقيقة الصنع عليها صـــورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها ومساكنها وجميع الأماكن المقدسة مكتوبة طرائفها بالذهب وغيرها بالفضة والحرير • حيث وصفها « الجبرتى » مؤرخ العصر وهو من علماء الأزهر • كما وصف دار الكيمياء وما شاهد فيها من التجارب والاختراعات ودار التصوير وما فيها من صور جميلة متقنة لكبار العلماء وصـــور الطبيعة والحيوان والنبات والتاريخ الطبيعى •

مرت فترة بعد ذلك أن هجرت العلوم التى اخترعها الأمم الاسلامية الأولى ، وقد جاء عددها طبقا لما ورد فى « كشف الظنون » عن ١٩٠ علما • ولكن على الرغم من هذا التأخير العلمى فان سماء الأمم الاسلامية ما كانت تخلو بين الحين والحين من نجوم ثواقب ، تشرق بأنوار علمها على حالك الجهـــل ، وتقاوم بما فى طاقتها وتجاهد لاعادة حالة العلم والمتعلمين الى ما كانت عليه أيام عزة المسلمين ومجدهم •

● أول جامع أنشىء فى القاهرة ، بناه جوهر الصقلى باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وتم بناؤه عام ٩٧٢ م • وقد زاد مساحة هذا الجامع حتى بلغت

ضعف مساحته الأولى · وأضيفت اليه زيادات جعلت أجزاؤه المختلفة معرضا للعمارة الاسلامية المصرية منذ العهد الفاطمى الى عصرنا هذا وأهم أجزاءه التى ترجع للعقد الفاطمى العقود التى تحيط بالصحن ، وعقود المجاز ذى السـقف العالى والعقود المرتفعة عن مستوى الأرض بارتفاع الأيوان – ويؤدى هذا المجاز (الممر) الى المحراب القديم الموجود فى ايوان القبلة · ومن الأجزاء الفاطمية أيضا الزخارف والكتابات فى المجاز وفى المحراب القديم ، ثم بقايا الزخارف بالحوائط الوبلية فالبحرية والشرقية وتشهد هذه الأجزاء بأن الجامع الأزهر كان يضم كثيرا من العناصر المعمارية التى عرفناها فى جامع بن طولون ، وعلى أهم المنشآت الأخرى فى الجامع الأزهر ترجع الى عصر المماليك ، واليه ترجع المدرسة الطبريسية على يمين المدخل من الباب الغربى الكبير ، والمئذنة الجميلة التى شيدها السلطان قايتباى على يمين الباب الواقع بين المدرستين ثم المدرسة الجوهرية · والمئذنة ذات الرأسـين التى أقامها السـلطان الغورى ، والى الأمير عبد الرحمن كتخدا يرجع الفضل فى اضافة الايوان الشرقى خلف المحراب القديم ، وفى بناء باب الصعايدة وفى بناء باب المزينين وهو الباب الكبير ويطل الآن على ميدان الأزهر ·

وفيما يلى شرحا تفصيليا للمسقة الافقى والتخطيط العام للجامع وعناصر تكونه والزيادات التى طرأت عليه ·

● تخطيط وتصميم جامع الأزهر :

كان المسقط الأفقى للجامع وقت انشائه مكون من ثلاث ايوانا تحول الصحن الشرقى ، منها مكون من خمسة أروقة شكل ١٧٥ · المشرف منها على الصحن قائم على أكتاف بينما الأروقة الأخرى من عمد رخامية ، وبكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاث أروقة المشرف على الصحن قائم على أكتاف أيضا ، أما الجدار الغربى فلا أروقة به ويتوسطه الباب العمومى · وكانت تعلوه المنارة ، ولعله كان بارزا عن الواجهة كى تحمل فوقه المنارة أسوة ببروز باب المسجد المهدية بالقرب من القيروان ، وكما هو موجود أيضا فى جامع الحاكم ·

وقد فتحت بأعلى الحوائط شبابيك من الجبس مفرغة بأشكال هندسية بديعة ، يتخللها مضاهيات مزخرفة عقودها مستديرة ، أحيطت بأفريز مكتوب بالخط الكوفى مازالت موجودة حتى الآن ومما يذكر أن الخط الكـوفى كان من مميزات العصر الفاطمى استعمل فى النصوص التاريخية والآيات القرانية ، بل كان أساس لعناصر زخرفية جميلة · تنظر الأشكال أرقام من ١٨٧ الى ١٩٧ الخاصة بزخارف جامع الأزهر ·

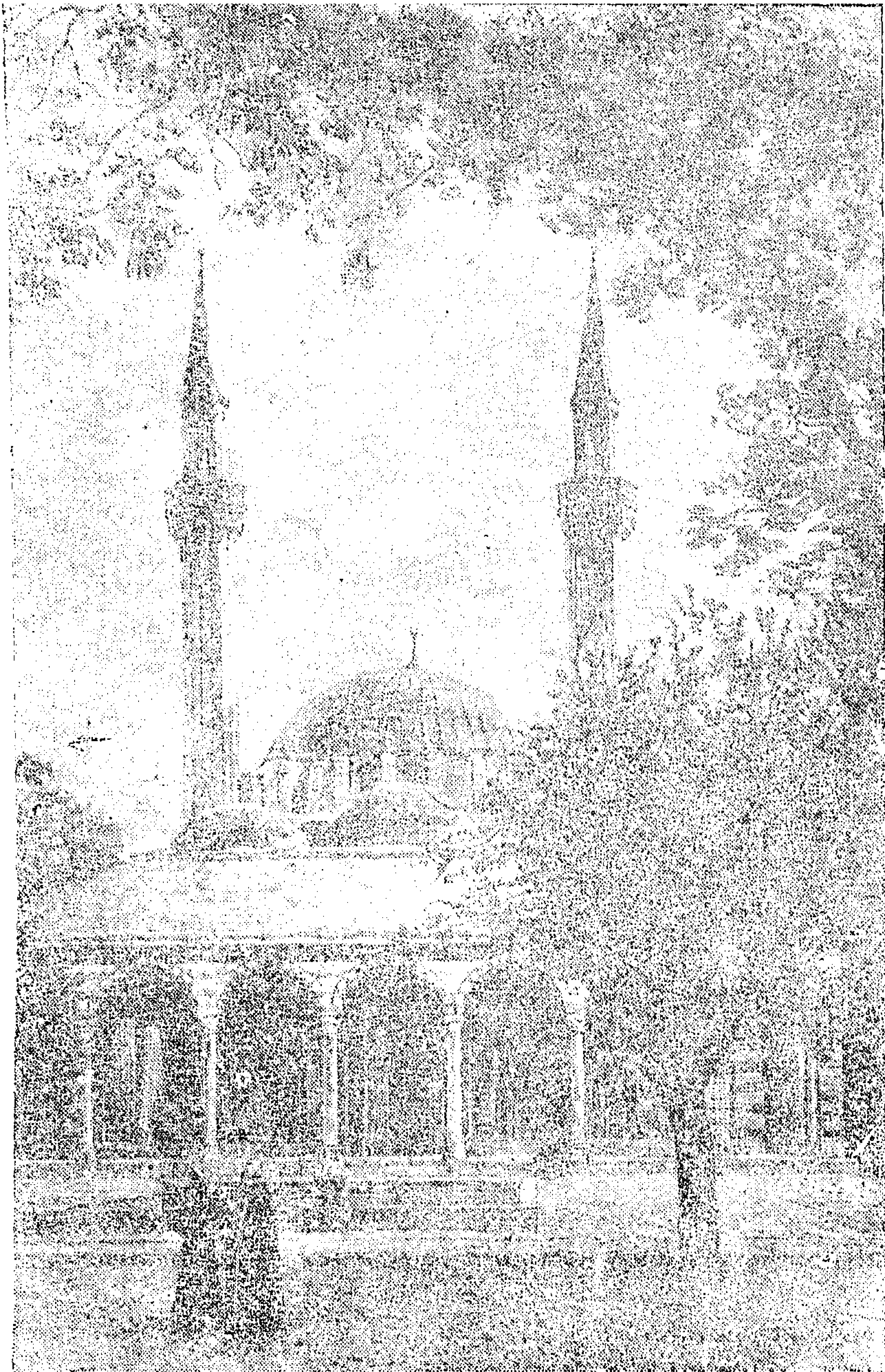
ويشطر الايوان الشرقى مجاز (ممر) متجه مباشرة الى المحراب ، ارتفعت عقوده عن مستوى ارتفاعات المسجد محلاة بكتابات كوفية وزينت خواصر العقود بزخارف على أشكال نباتية مورقة جميلة . وهذا المجاز لا يوجد له مثيل فى مصر الا جامع الحاكم ، ويغلب على الظن أنه مقتبس من العمارة فى المغرب حيث يوجد مثله فى مسجدى عقبة بالقيروان ، والزيتونة بتونس . وينتهى هـذا المجاز الى المحراب القديم الحافل بالزخارف والكتابات الكوفية ، أما كسوة الرخام والزخارف الجبسية اعلاه فأحدث عهدا منه . ويعلو المحراب قبة حلت محل القبة القديمة .

وفى عام ١١٢٩ ــ ١١٤٩ م أضيف للصحن رواقا يحيط به من جوانبه الأربعة مكونة من عمد رخامية فوقها عقود فارسية وقبة رشيقة بأول المجاز (الممر) .

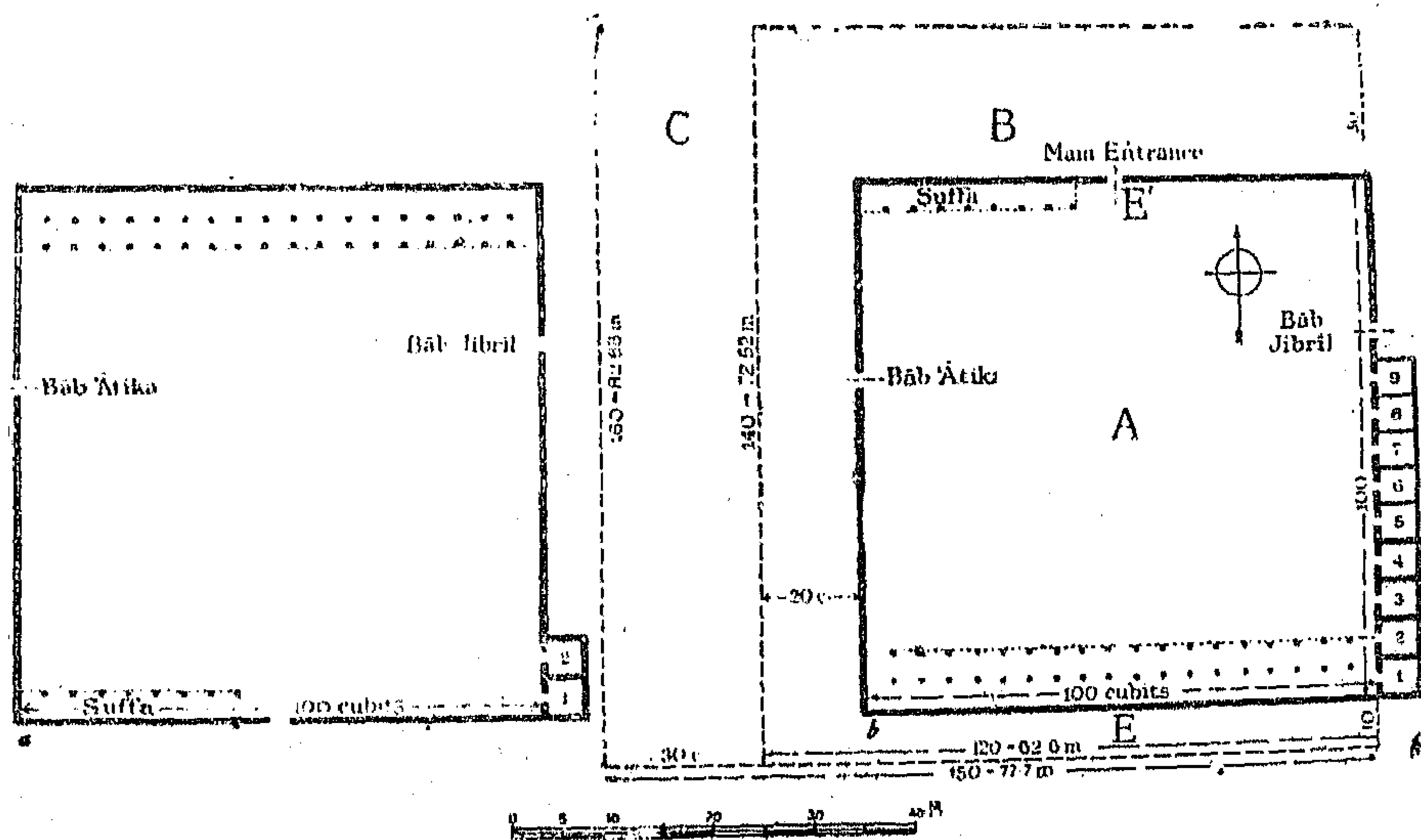
وفى عام ١١٢٥ م أمر الخليفة الآمر بأحكام الله أن يعمل للجامع محرابا من الخشب فتم عمله وهو موجود الآن بدار الآثار العربية . محراب رشيق حمل عقده الفارسى على عمودين رشيقين ، نقش العضم بأفرع زخرفيـة متعرجة ، وحشواته مستطيلة من خشب نبق بها زخارف نباتية مورقة وبأعلاه لوح خشبى به ستة أسطر بالكوفى المزهر تضمنت صدور أمره بعمل المحراب . ومما يذكر أن فى دار الآثار العربية محرابان من الخشب أحدهما كان بمسجد السيدة نفيسة والآخر من مسجد السيدة رقية ، وكانت المحاريب الخشـبية من مميزات العصر الفاطمى حيث كانت محاريب متنقلة . يرجى أن تنظر الصور والرسومات أشكال من ١٨٨ الى ١٩٧ ص ١٦٣ الى ١٦٨ .

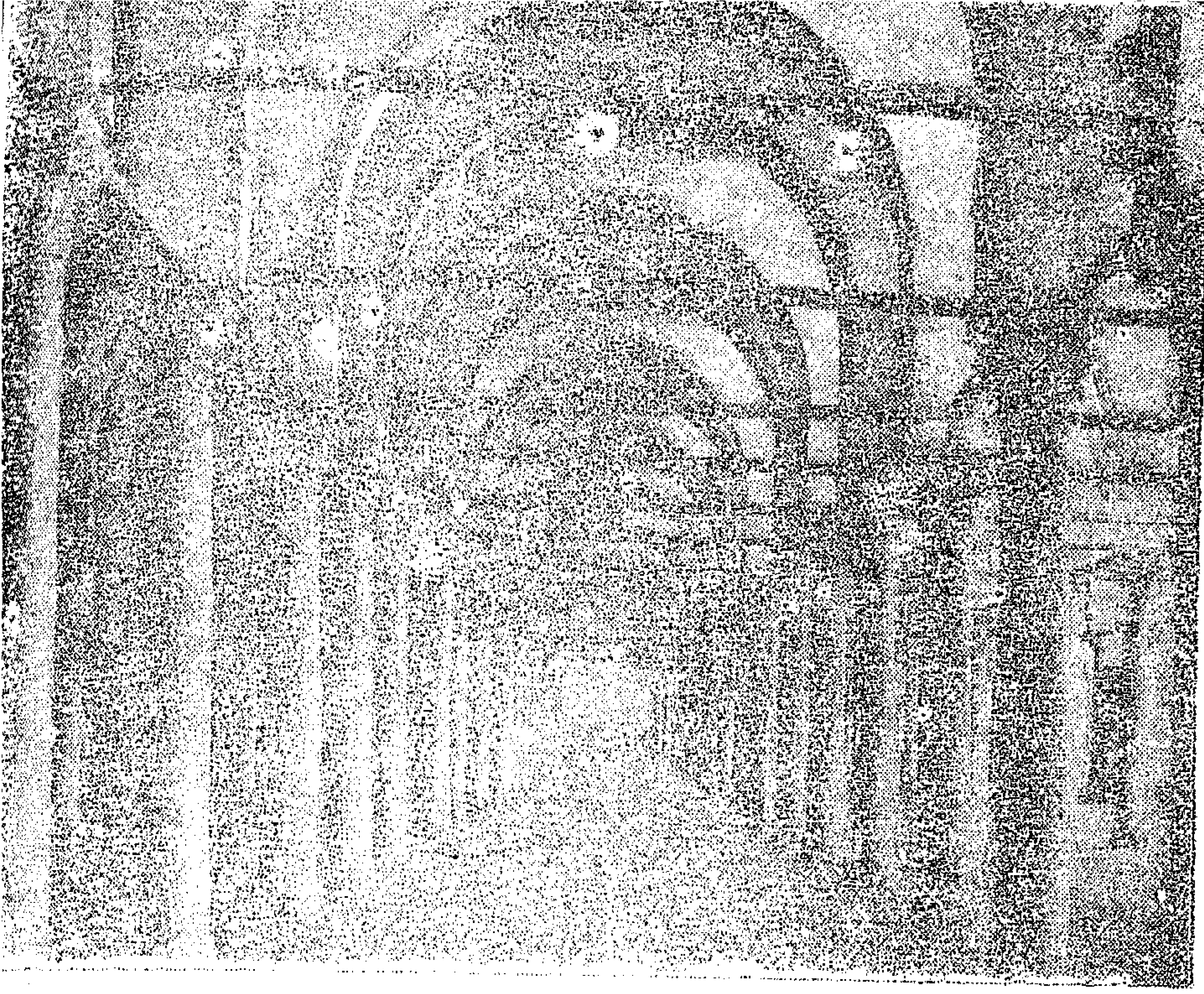
وبمقارنة تخطيطه نجد أن جامع الأزهر اشترك مع جامع أحمد بن طولون فى الصحن المكشوف والايوانات المحيطة به من حيث تخطيطه ، كما شاركه فى أنه لم تفتح شبابيك سفلية بل فتحت فى أعلى الحوائط مثل ذلك فى باقى المساجد الفاطمية . وكما ازدانت حافة العقود بالجامع الطولونى بالزخـارف فانها ازدانت فى جامع الأزهر بكتابات وحليت التواشيح بزخارف ، وامتاز جامع الأزهر بالمجـاز المتجه مباشرة الى المحراب الذى يشطر . الايوان الشرقى الى شطرين والمحمولة عقوده على عمد مزدوجة ــ يرجى ان تنظر الصور والرسومات أشكال من ١٨٦ الى ١٩٥ .

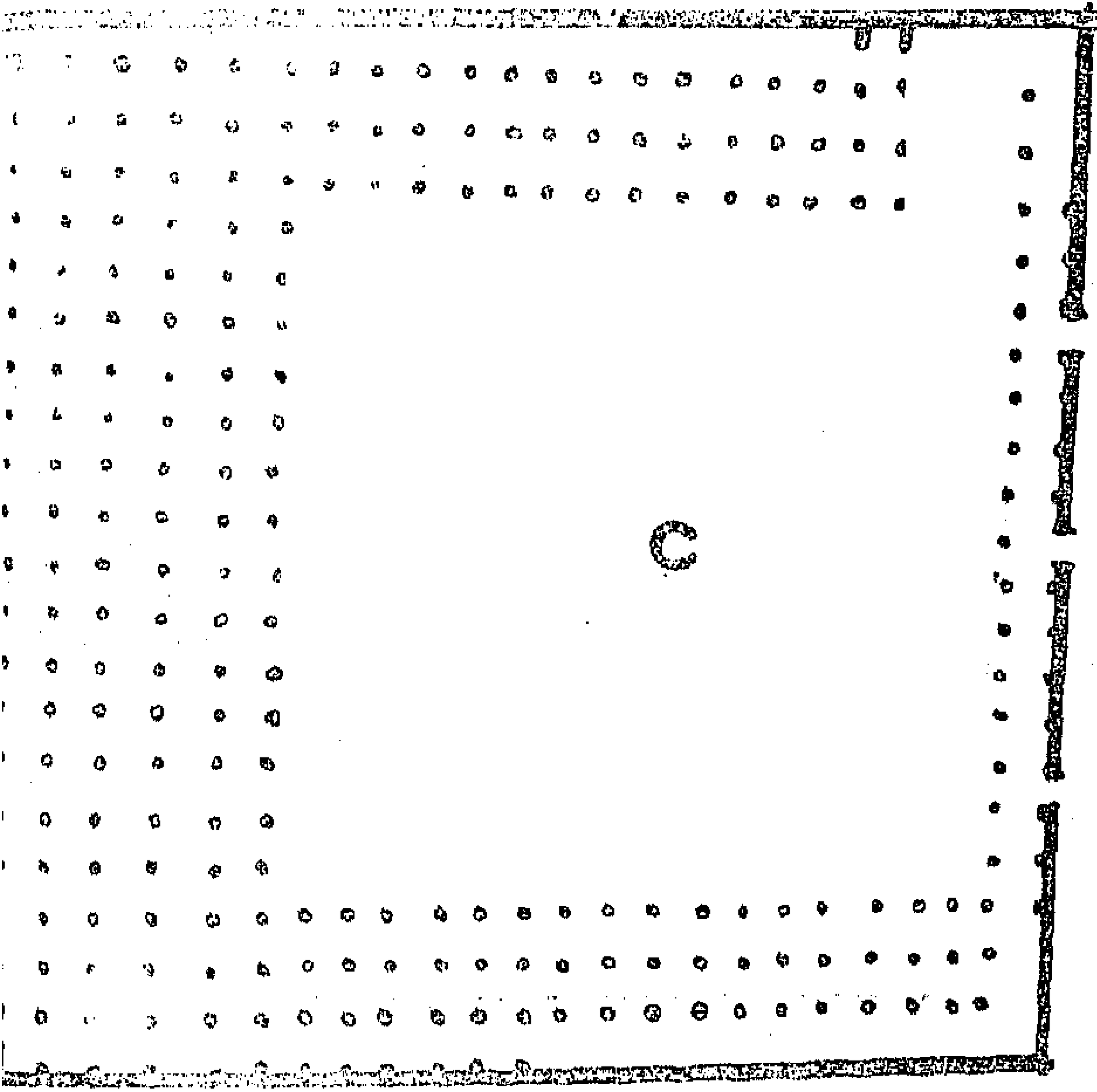
أما فيما يتعلق بالزخارف فقد زينت الحوائط من أعـلاها فى محيط الايوان الشرقى فى واجهاته الشرقية والبحرية والقبلية بشبابيك ومضاهيات من الجبس حليت بكتابات كوفية وزخارف . وكذلك المحراب حليت عقوده بزخارف نباتية مذهبة على أرضية زرقاء وكذا عقود المجاز وجميع هذه الزخارف ترجع الى عهد انشاء المسجد . أما أكتاف مؤخر هذا الايوان من الداخل فقد حليت بكتابات وزخارف طغى التجديد



بة حلب / سوريا · أول مبنى اسلامى الأيوبى ····
قط الأفقى العام لمنزل ومسجد الرسول صلى الله لعيه وسلم ·



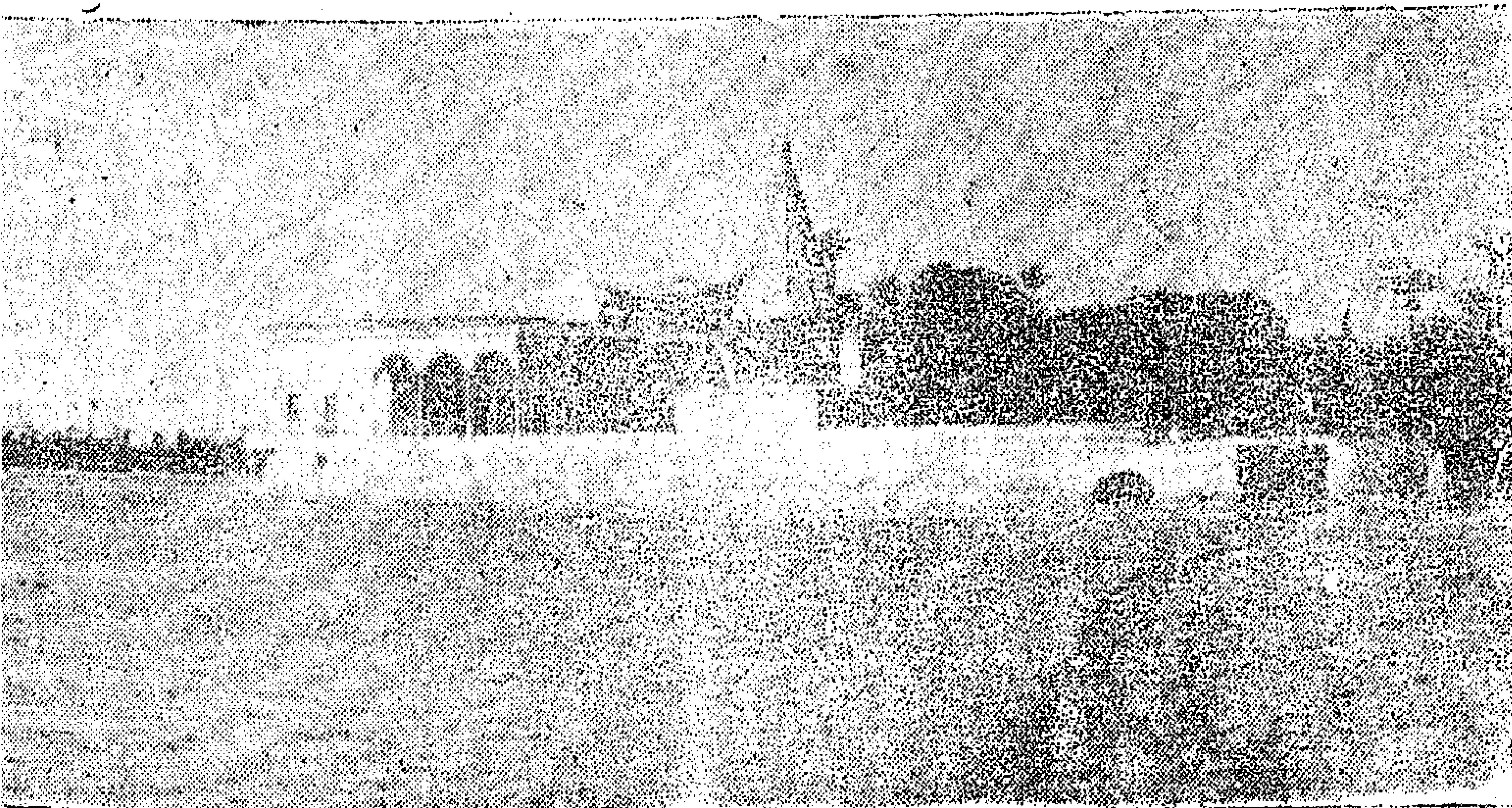




جامع عمرو بن العاص / القاهرة

ومما يذكر بأنه تم تجديد واعادة بناء هذا المســـجد العظيم الذى يعتبر أول مسجد انشىء فى مـــدينة الفسطاط وفى افريقيا وأعيد الى حالته الأولى بعـــد ترميمه واعـــادة بنائه معماريا وفنيا وأقيمت شعائر صلاة الجمعة اليتيمة فى شهر رمضان عام ١٩٨٦ م

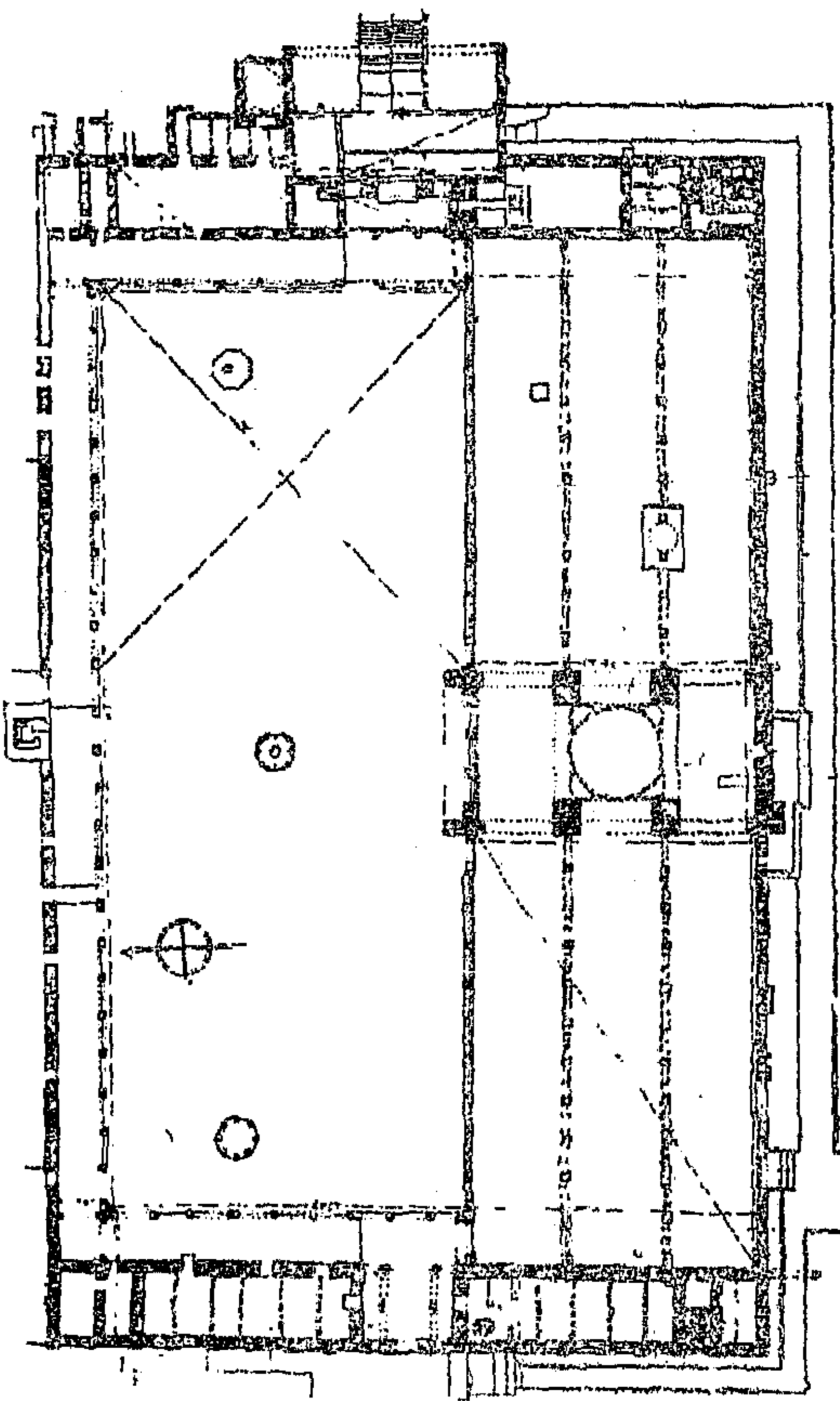
١٦٢ : مسجد عمرو بن العاص / الفسطاط
١٦٣ : المسقط الافقى للمسجد
١٦٤ : مقياس النيل بالروضة



⊛ العمارة فى العصر الأموى :

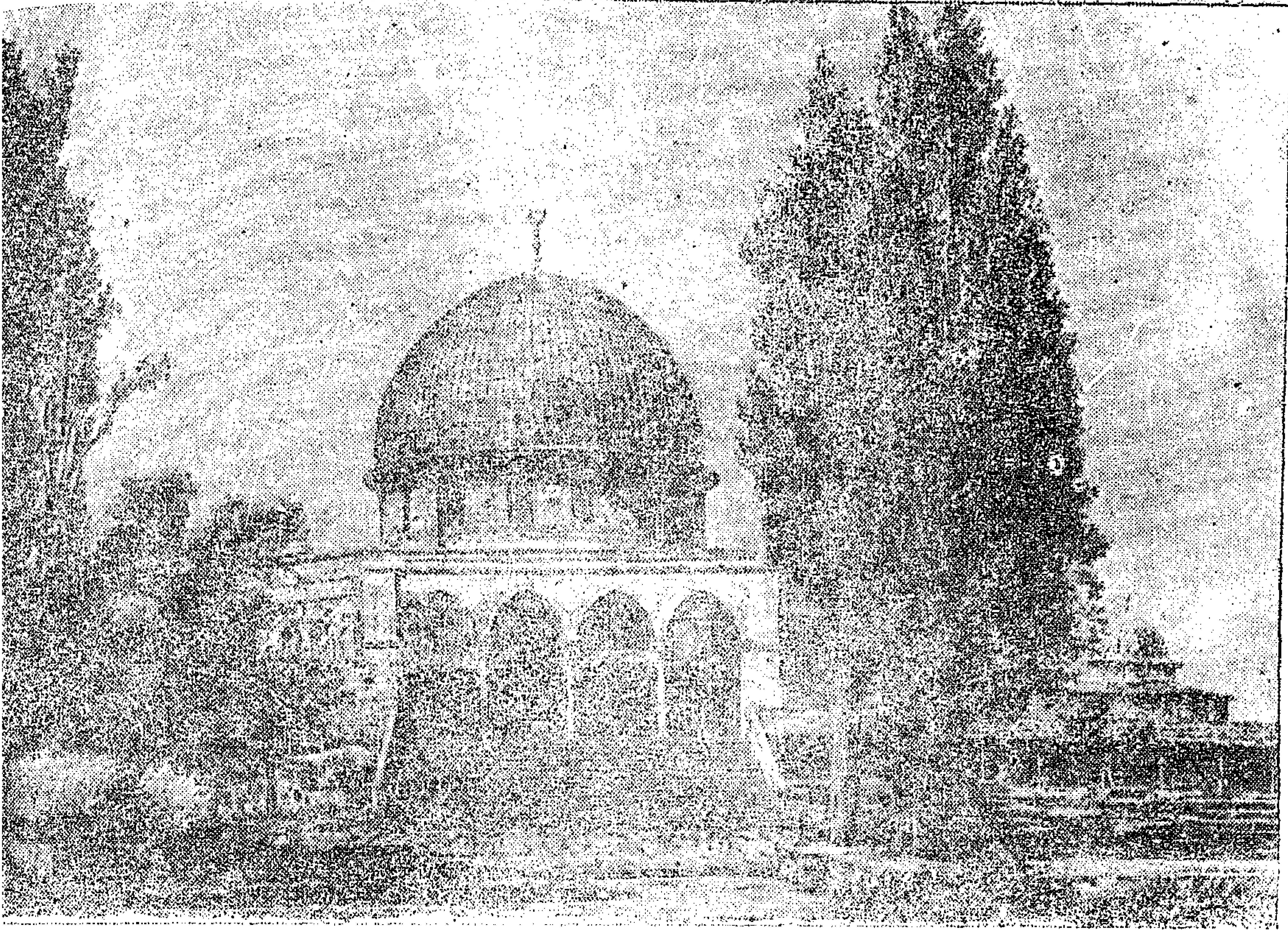
الجامع الأموى / دمشق ٧٠٦ ـ ٧١٥ م





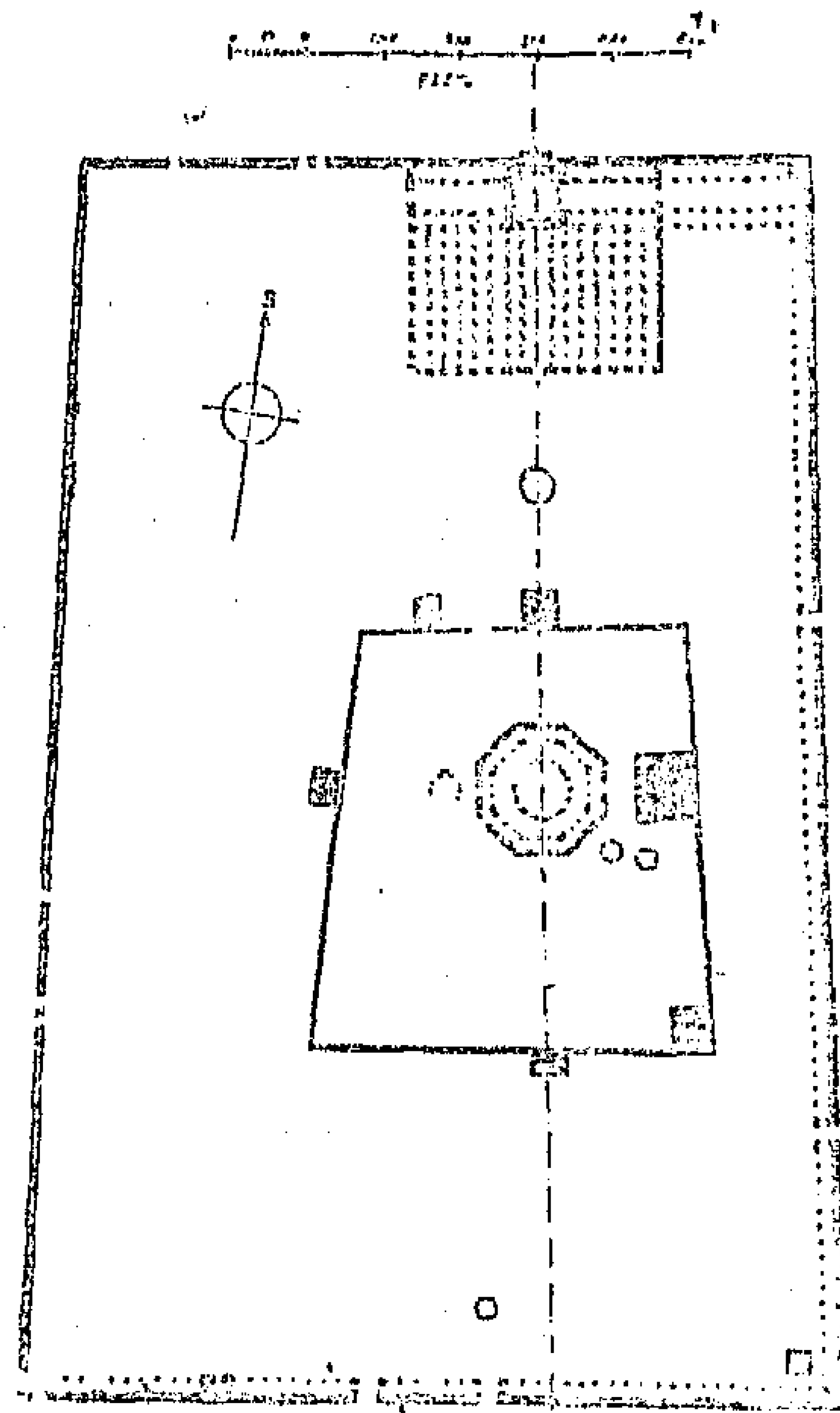
⊕ العمارة فى العصر الأموى

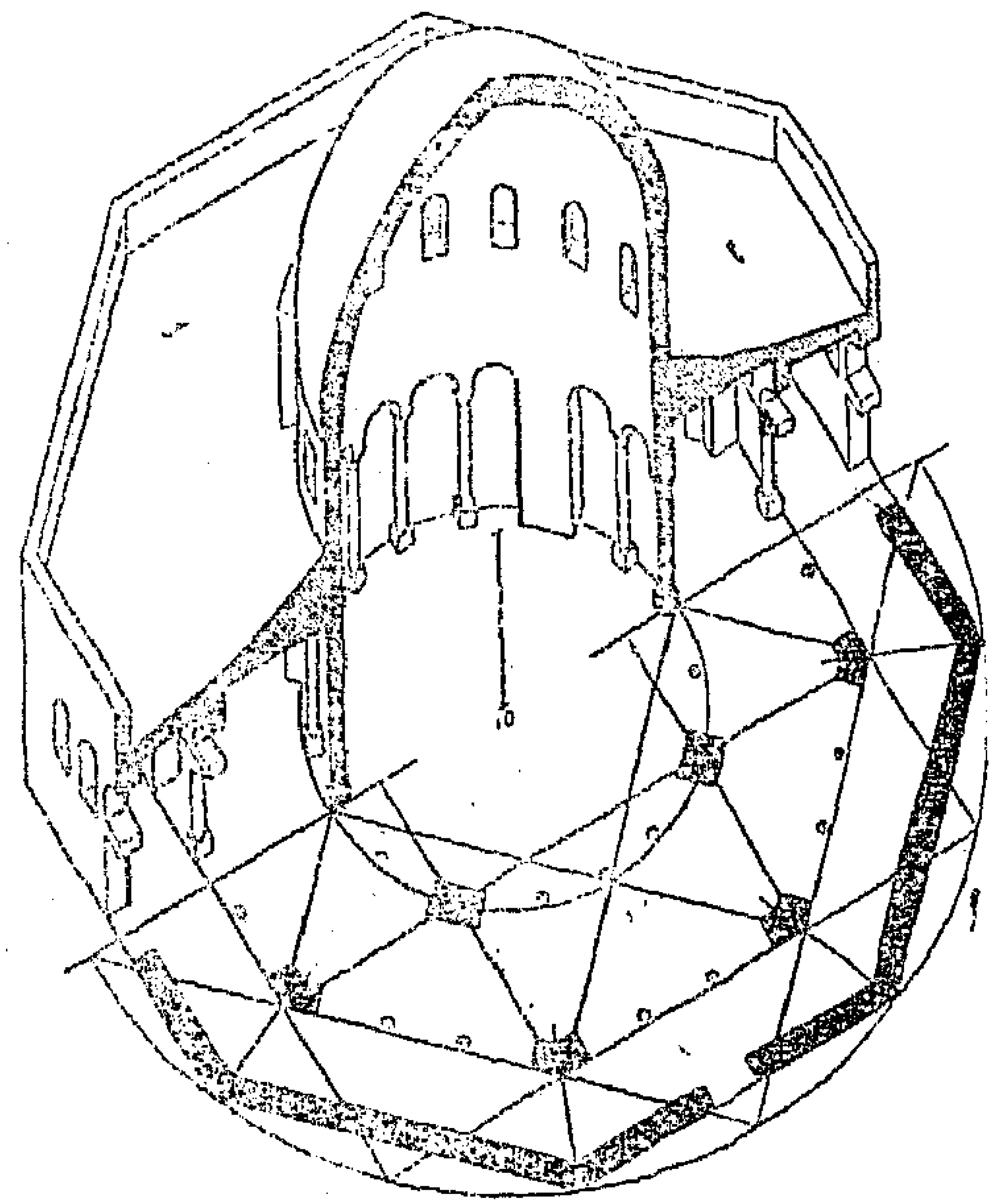
١٦٥ ـ المسجد الأموى من الداخل ·
١٦٦ ـ المسقط الافقى العام للمسجد ·
١٦٧ ـ الصحن الداخلى المكشوف للمسجد ·

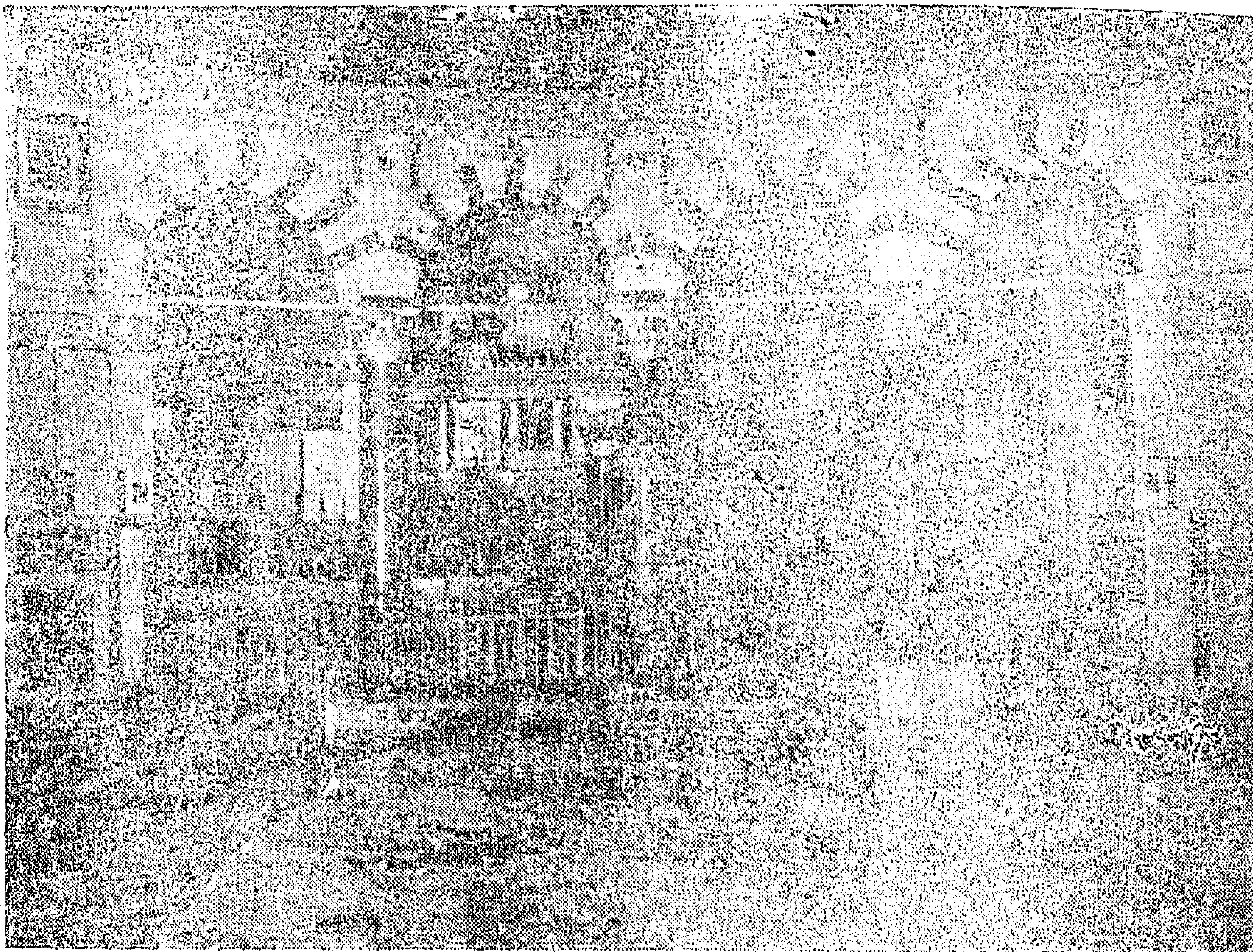


قبة الصخرة -

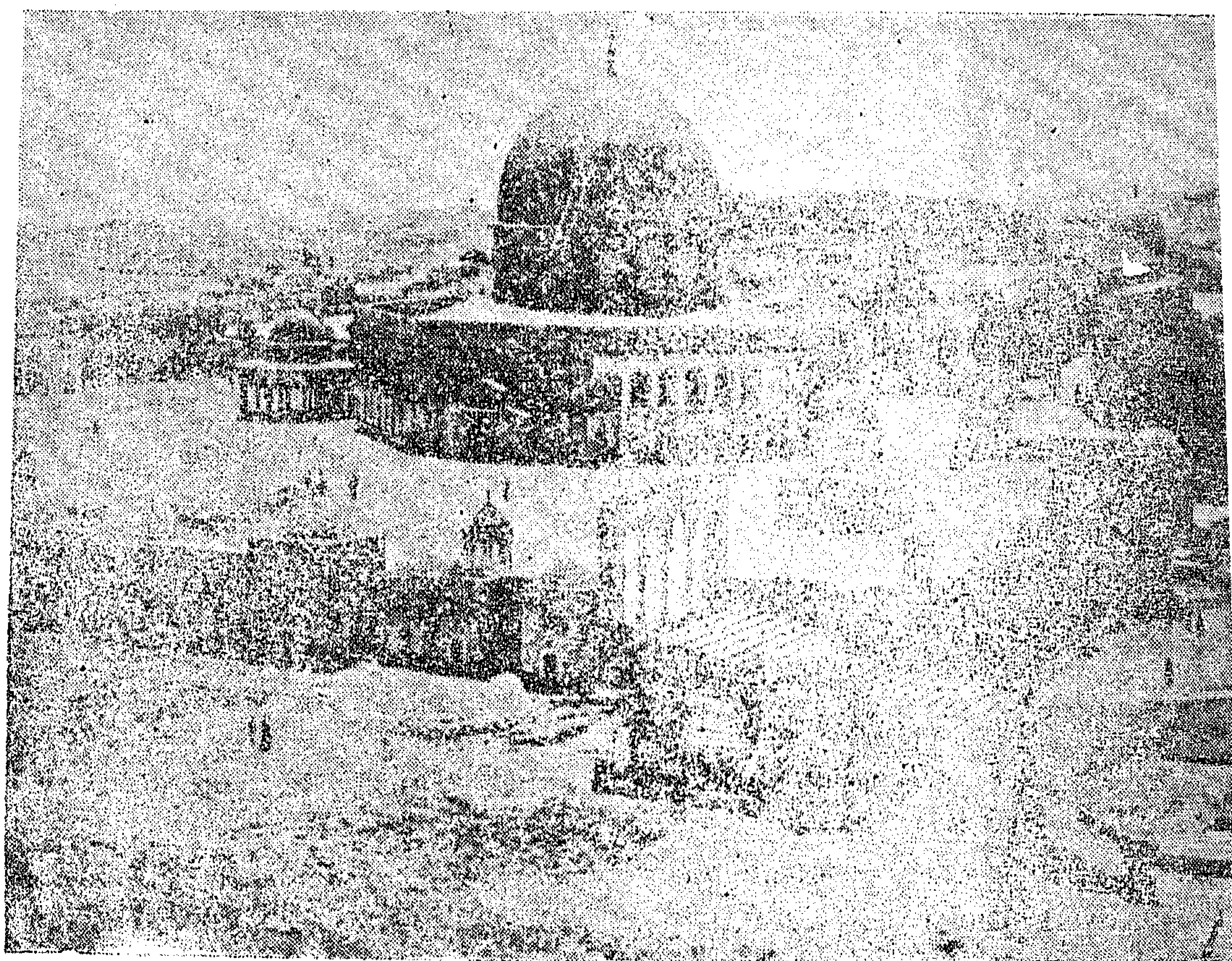
١٦٨ : منظور عام لقبة الصخرة المشرفة -
١٦٩ : المسقط الافقى لقبة الصخرة (عن كريز
١٧٠ : قطاع رأسى مارا بالقبة (عن كريز
١٧١ : الصفحة المقابلة ـ منظور داخلى
١٧١ : الواجهة الغربية والجنوبية الغربية
ترميمها عام ١٨٧٣ م (عن كريز







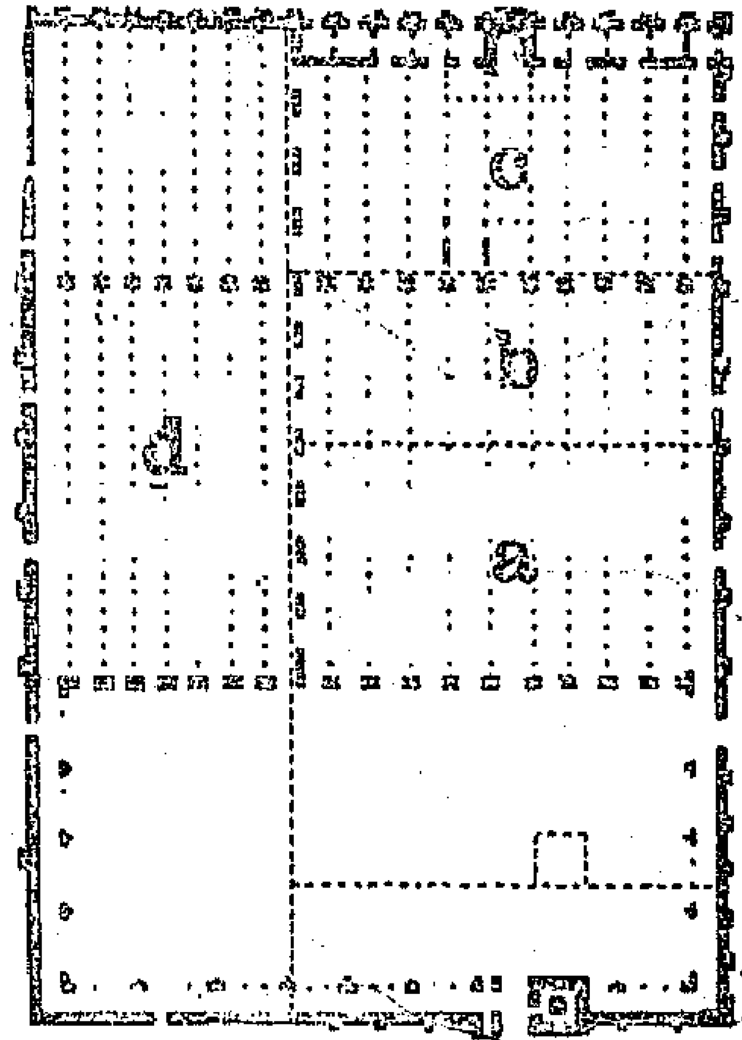
قبة الصخرة المقدسة





١٧٩ : أروقة المسجد من الداخل ·

١٨٠ : المسقط الافقى للمسجد ·



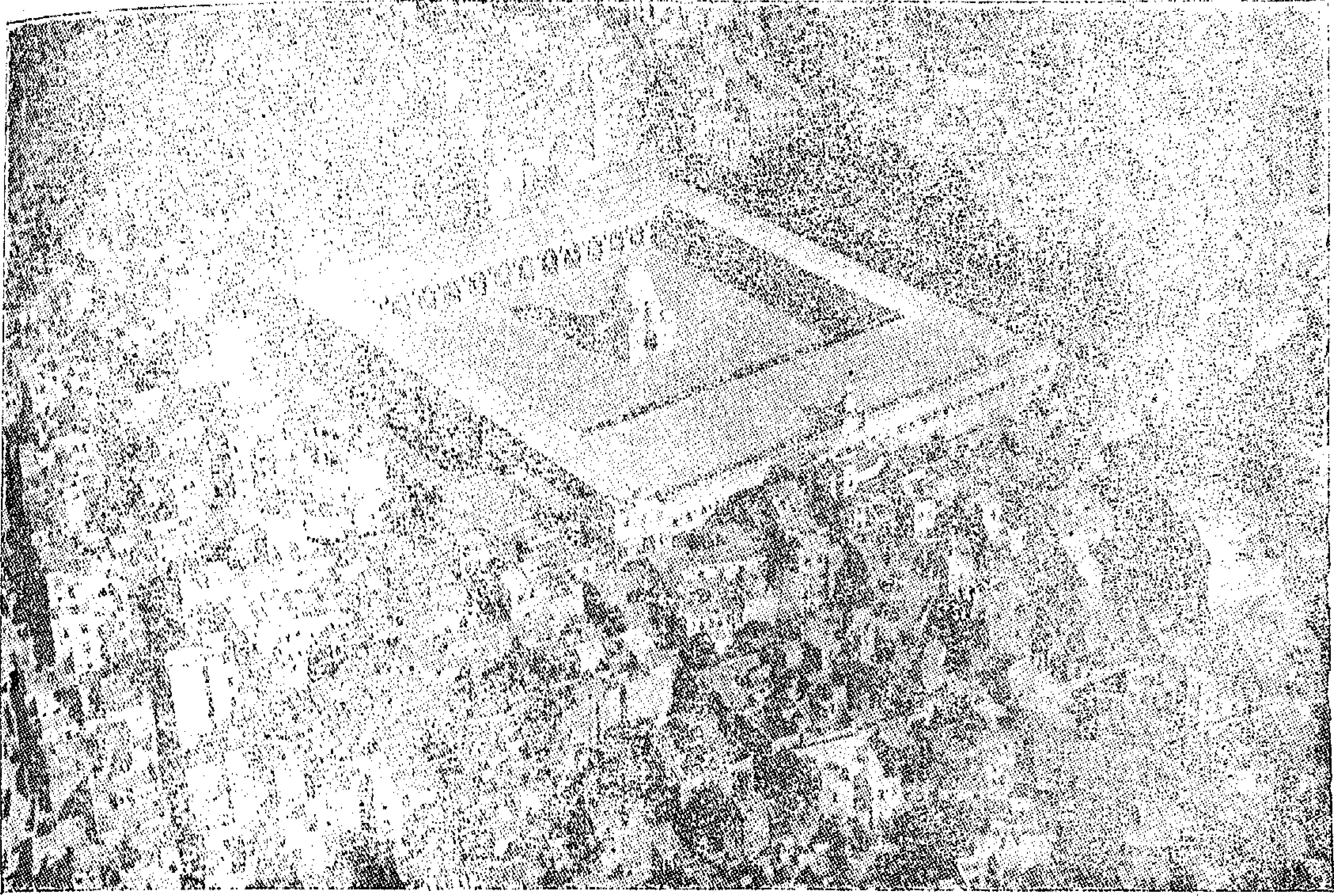
● سقطت قرطبة فى يد فرناندو الثالث عام ١٢٣٦ م وتحول المسجد الى كنيسة عرفت سانتا ماريا الكبرى · ومما هو جدير بالذكر أن لجامع قرطبة تأثير كبير على العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء ، فقد انتشر هذا التأثير فى أسبانيا المسيحية · ومنها الى مقاطعات فرنسا ف الجنوب ، ومن قباب الجامع استلهم الفرنسيون الحل المعمارى للقبوات القوطية المصلبة ؛ كذلك نقلوا عن زخارفه وحلياته بعضها الى كنائسهم · وانتشر العقد الثلاثى الفصوص ، والعقد المتعدد الفصوص ، وعقد حدوة الفرس · أما تأثير جامع قرطبة فى العمـارة الاسلامية فتظهر واضحة فى مساجد المغـرب وتونس والجزائر وفى مصر فى عهد المماليك ·

● على أثر استيلاء الأمويين على الخلافة وانتقال عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة المنورة الى دمشق ظهر الفن الاسلامى والذى يعتبر أول الطرز المعمارية الاسلامية· وقد بنى المسلمون فى ذلك العصر عدة آثار اسلامية هامة لاتزال قائمة حتى الان · أهمها قبة الصخرة ببيت المقدس ، والمسجد الأموى بدمشق وعدة قصور بناها الأمويون فى الشام ، وكان بعضها يشبه الحصون الصغيرة ويزين جدرانها وأسقفها نقوش آدمية ذات ألوان زاهية يظهر فى أساليبها المؤثرات البيزنطية وفى بعضها التقاليد الايرانية ·

● وبظهور الدولة العباسية انتقلت العاصمة الى بغداد ، وتغيرت أساليب العمارة وغلبت الأساليب الفنية الفارسية على الفنون الاسلامية · وقد شيد الخليفة المنصور سنة ٧٦٢ م مدينة بغداد ذات التخطيط المستدير على نهر دجلة فى وسطها القصور والجامع تحيط بها الأسوار الخارجية · وكان للمدينة أربعة مداخل هى باب الشام وباب خراسان وباب الكوفة وباب البصرة · وفى سنة ٨٣٦ م شيد الخليفة المعتصم مدينة سمراء على الضفة اليمنى من نهر دجلة شمال بغداد · وقد نشأ أحمد بن طولون فى هذه المدينة والتى كانت تسمى « سر من رأى » سمراء ، ويرجع اليه الفضل فى نقل أساليب العمارة العراقية الى مصر حينما انتقل اليها وتأسيسه الدولة الطولونية فيها · وقد بنى ابن طولون جامعه المشهور على نمط مسجد سمراء بالعراق وهو يمتاز بمئذنته الفريدة فى مظهرها ، وهى من غير شك متأثرة بمئذنة مسجد سمراء المعروفة باسم « الملوية » ·



١٨١ ـ مسجد قرطبة



جامع أحمد بن طولون / القاهرة
٢٦٣ م / ٨٧٦ م

ولد أحمد بن طولون : ببغداد سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م وتلقى علومه ونشأ وترعرع فى مدينة سامراء ، دخل مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م وعهد اليه الخليفة المعتمد على الله بأمر الخراج على مصر والولاية على ثغور الصام حيث ظلت البلاد خاضعة له ولذريته من بعده حوالى ٣٨ عاما ، ثم توفى عام ٨٨٣ م حيث دفن بالقرافة الصغرى . ومن أهم أعماله ما يأتى :

١ ـ تأسيس مدينة القطائع سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م
٢ ـ انشاء قصر الميدان بميدان الرميلة .
٣ ـ انشاء دار الامارة التى كانت ملاصقة لمسجده .
٤ ـ البيمارسان ـ المستشفى ـ بمدينة العسكر سنة ٢٥٩ هـ/٧٨٢م
٥ ـ قناطر البساتين لنقل المياه جنوبى الفسطاط الى مدينته الجديدة
٦ ـ مسجد ابن طولون سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٨ م .
٧ ـ انشاء ميناء عكا سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م .

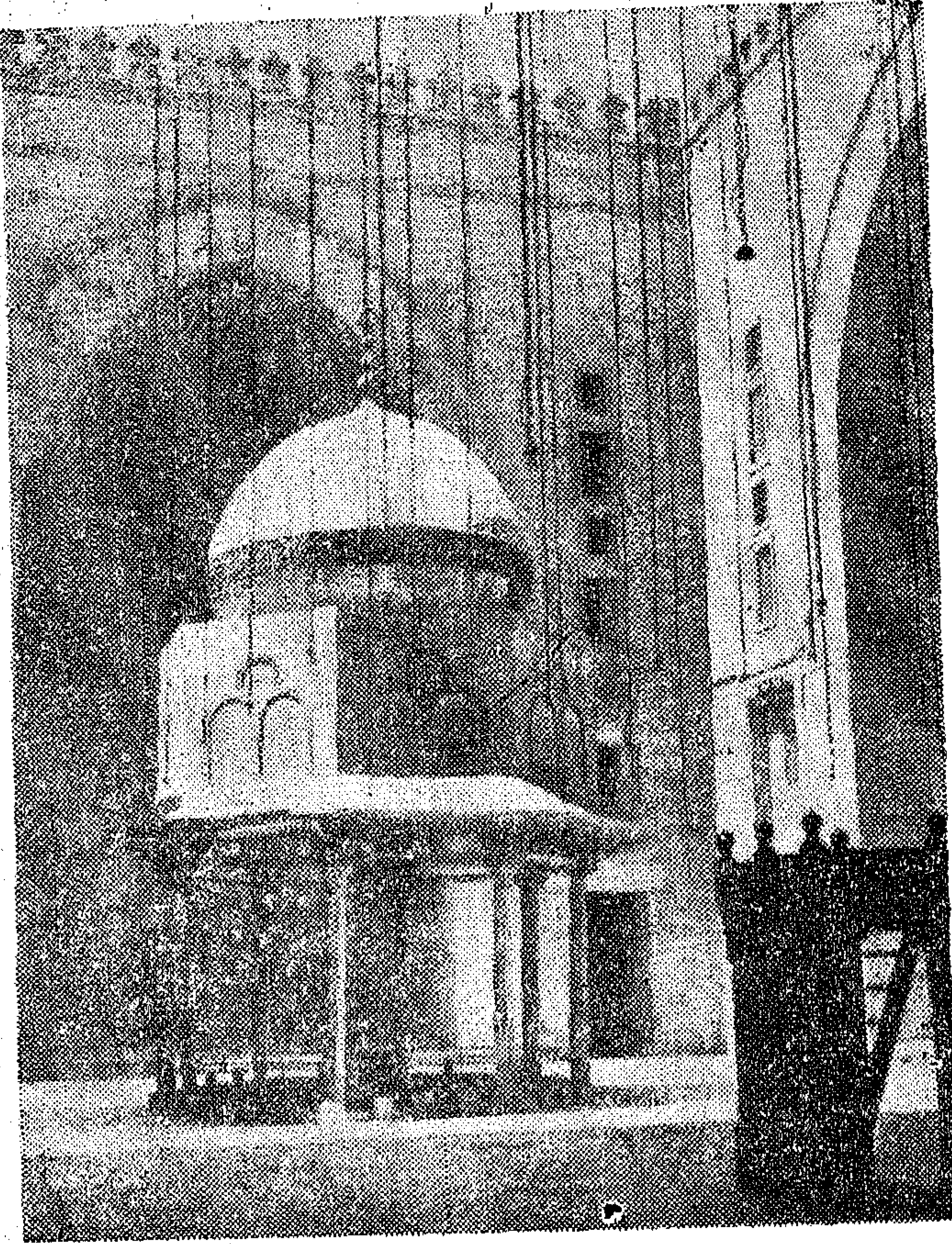
١٨١ : منظور عام للمسجد
١٨٢ : رواق الايوان الشرقى للمسجد
١٨٣ : منظور عين الطائر للمسجد

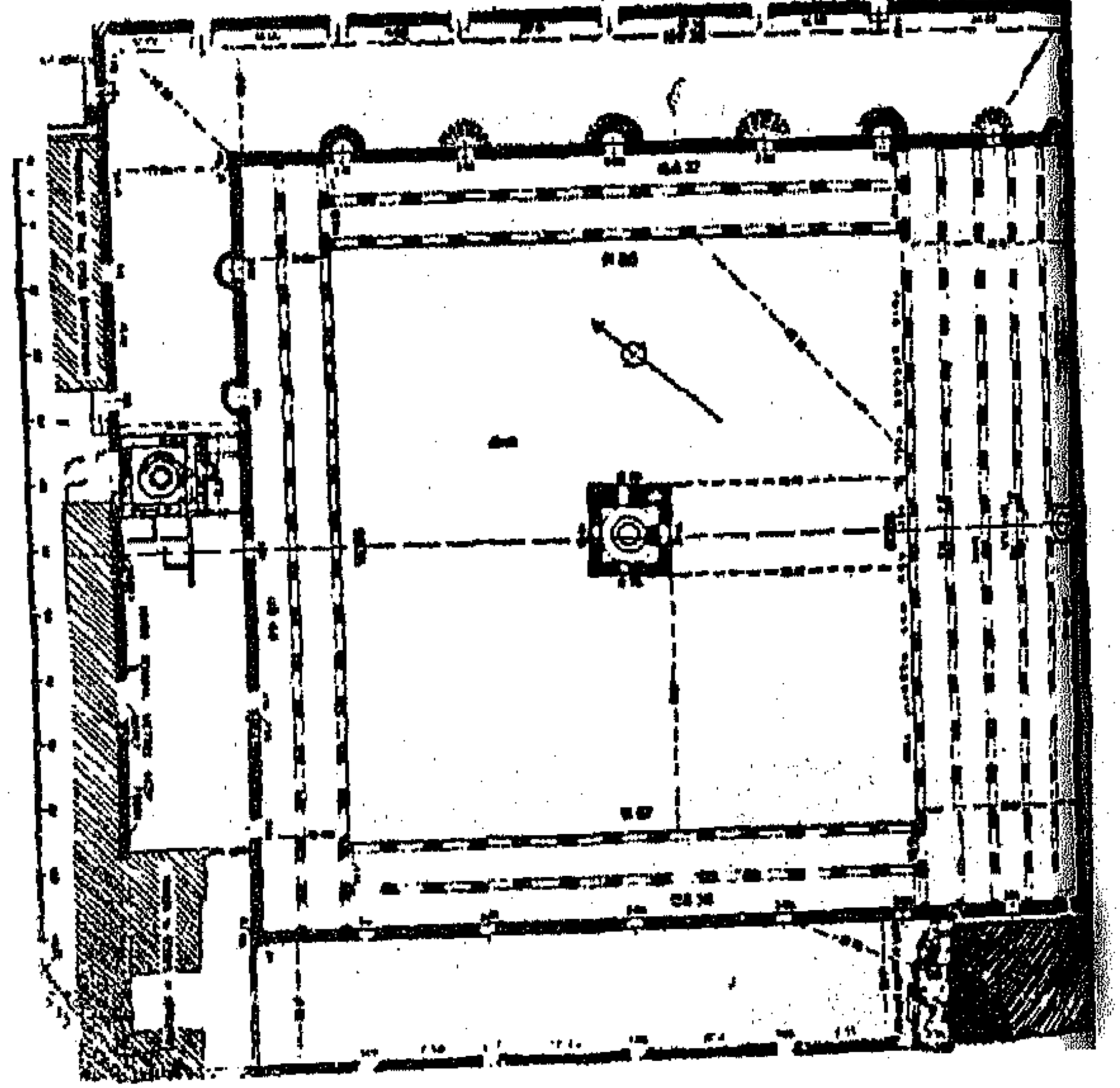
١٨٤ : أحد الأروقة وبه دكة المبلغ
١٨٥ : يسار : المسقط الأفقى العـام
يمين : واجهة احدى البوائك

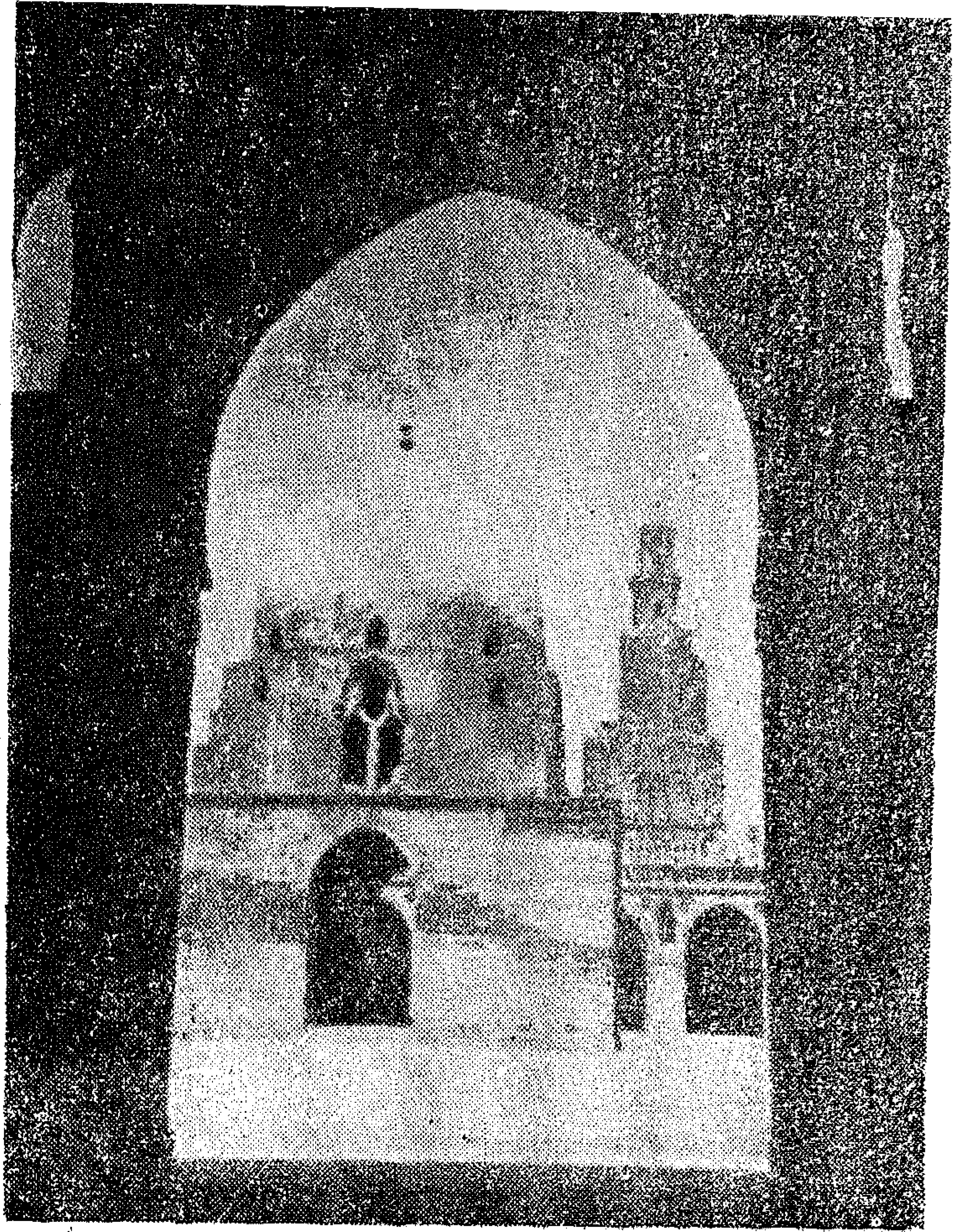
مسجد احمد بن طولون ـ القاهرة :



من أجمل المساجد الاسلامية العربية ، ذا نسب جميلة ، ويشبه فى خطوطه جامع عمرو · ويلاحظ أن جامع ابن طولون لا يحتوى على أعمدة كما هو الحال فى المساجد الاخرى ، بل يحتوى على اكتاف بدلا من الأعمدة وعلى ذلك لا يمكن القول بأنه تأثر بالطراز الرومانى أو البيزنطى · وتحمل الأكتاف عقود مدببة متجهة بانحناء قليلا الى الداخل والذى تحول هذا العقد بعد ذلك الى شكل دوة الفرس : والحوائط بالطوب الاحمر ومغطـــاة بالبياض · والكتـابة والآيات القـــرآنية بالخط الكوفى ذات الألوان البديعة ، وذا مئذنة تعتبر من أقدم المآذن فى مصر · وهى فريدة من نوعها حيث تشبه مئذنة جامع سامراء والمعروفة باسم « الملوية » ·





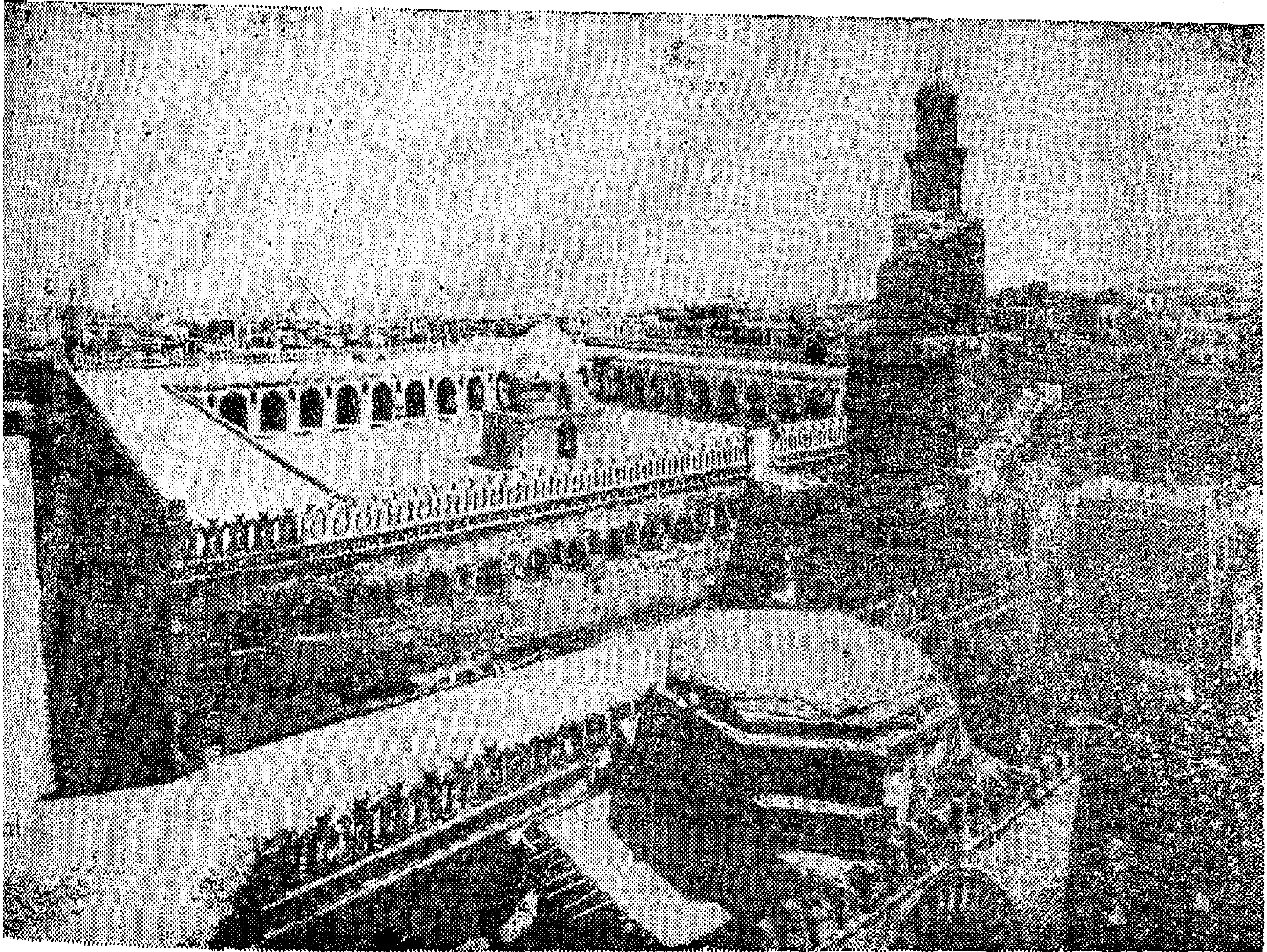


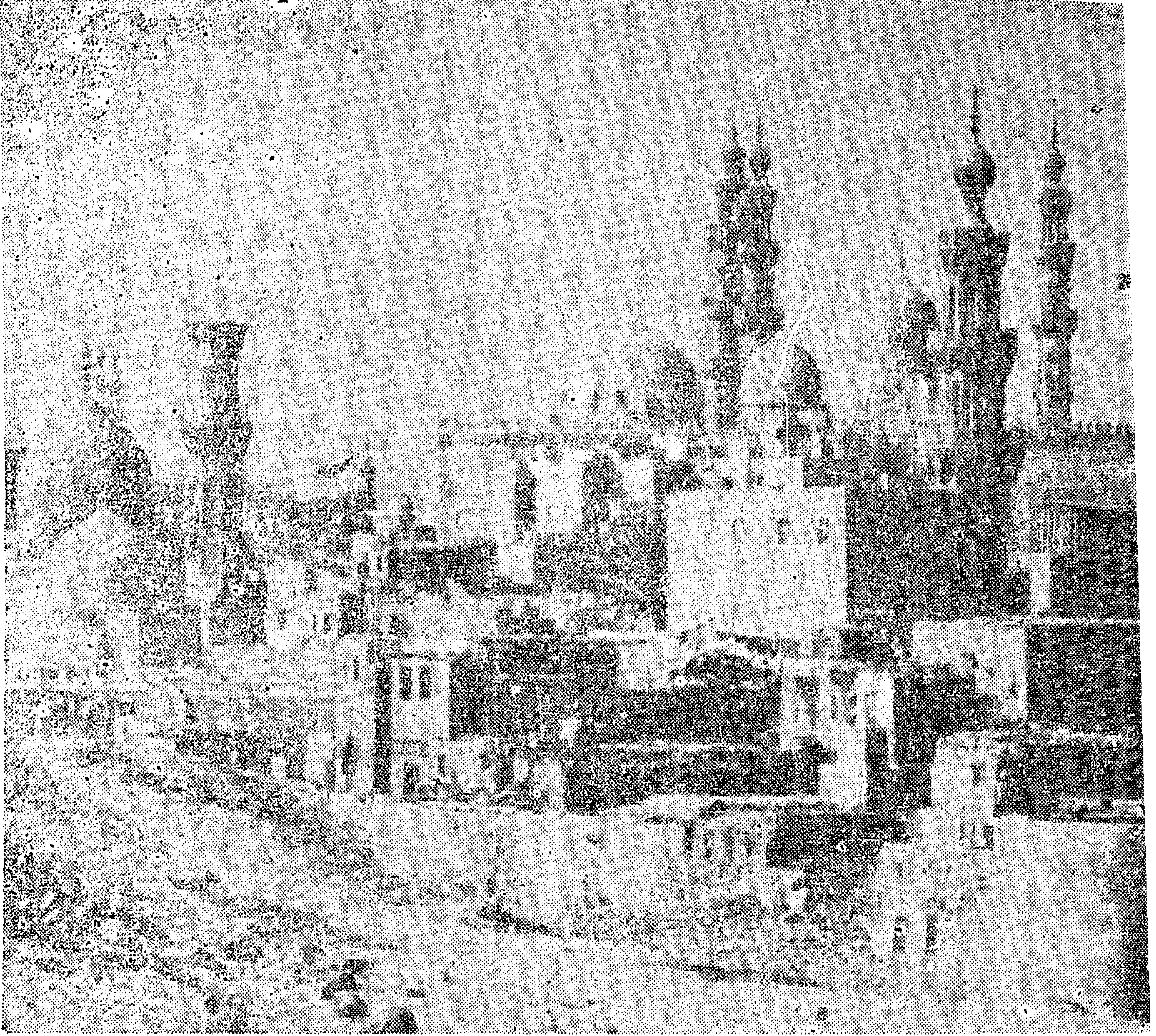
مسجد أحمد بن طولون

القاهرة ٨٧٩ م

١٨٦ أ : يمين الصحن الداخلى ويرى المئذنة التى أخذت مكانا وأسلوبا فريدا عن مثيلاتها من المآذن المتبعة فى ذلك العصر ·

١٨٧ ب : أسفل منظور عام للمسجد ·

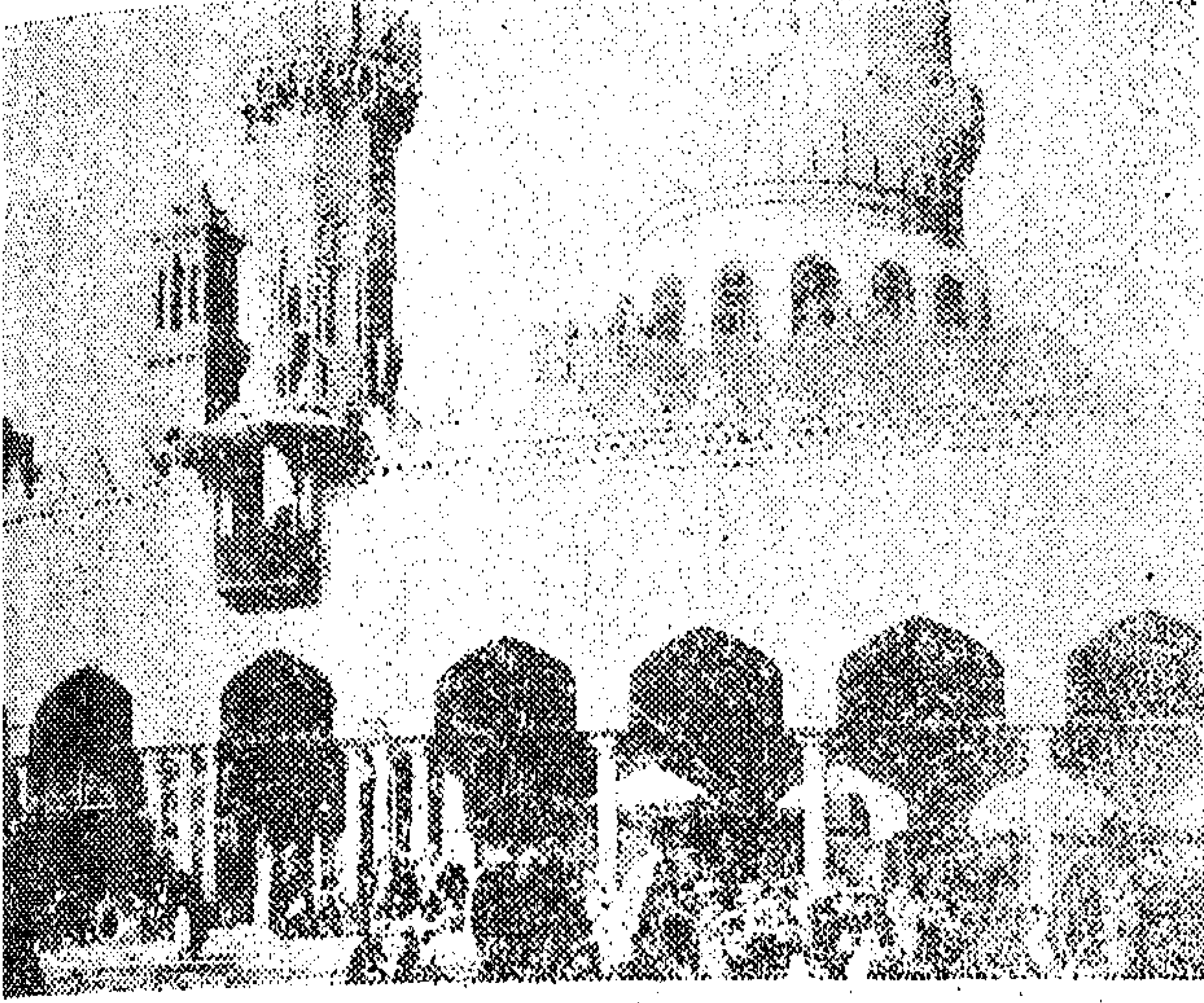




جامع الأزهر
٣٥٩ هـ ـ ٩٧٠ م

● الأزهر ... من أقدم مساجد القاهرة ، وأشهر جامع اسلامى ، وأجل معهد دينى ، وأعظم جامعة اسلامية لتدريس الدين والشريعة والعلوم والفنون والاداب . بناه جوهر الصقلى أيام فتح الفاطميين لمصر عام ٣٥٩ هـ . وسمى بالأزهر اشارة الى السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنتساب الفاطميين اليها .

انشىء الازهر ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، ومقرا لدعوتها الدينية ، ورمزا لسيادتها الروحية .

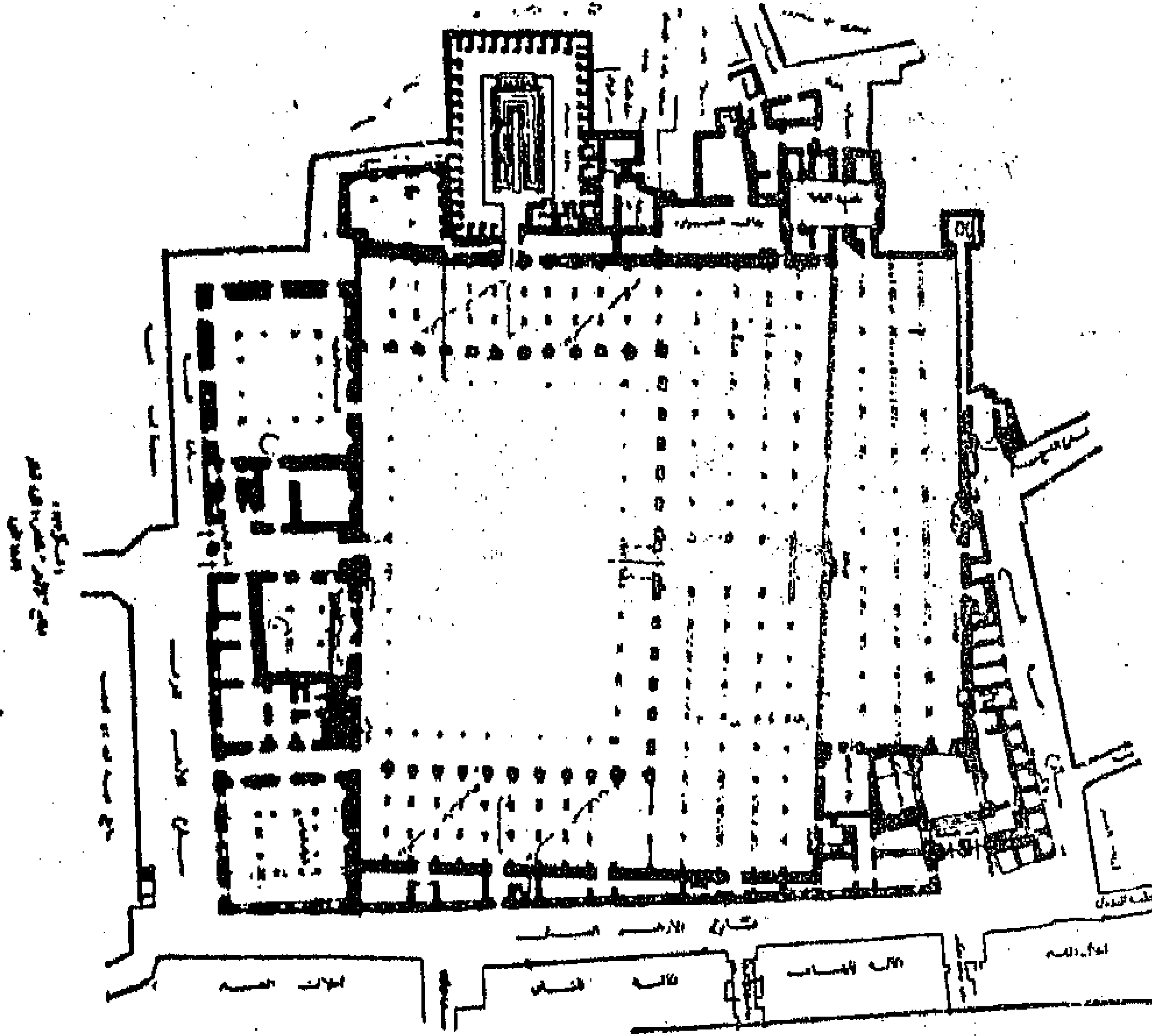


● جامع الأزهر الشريف :

١٨٩ : اعلا ــ منظور داخلى لساحة المسجد ٠

١٩٠ : يسار صحن المسجد ٠

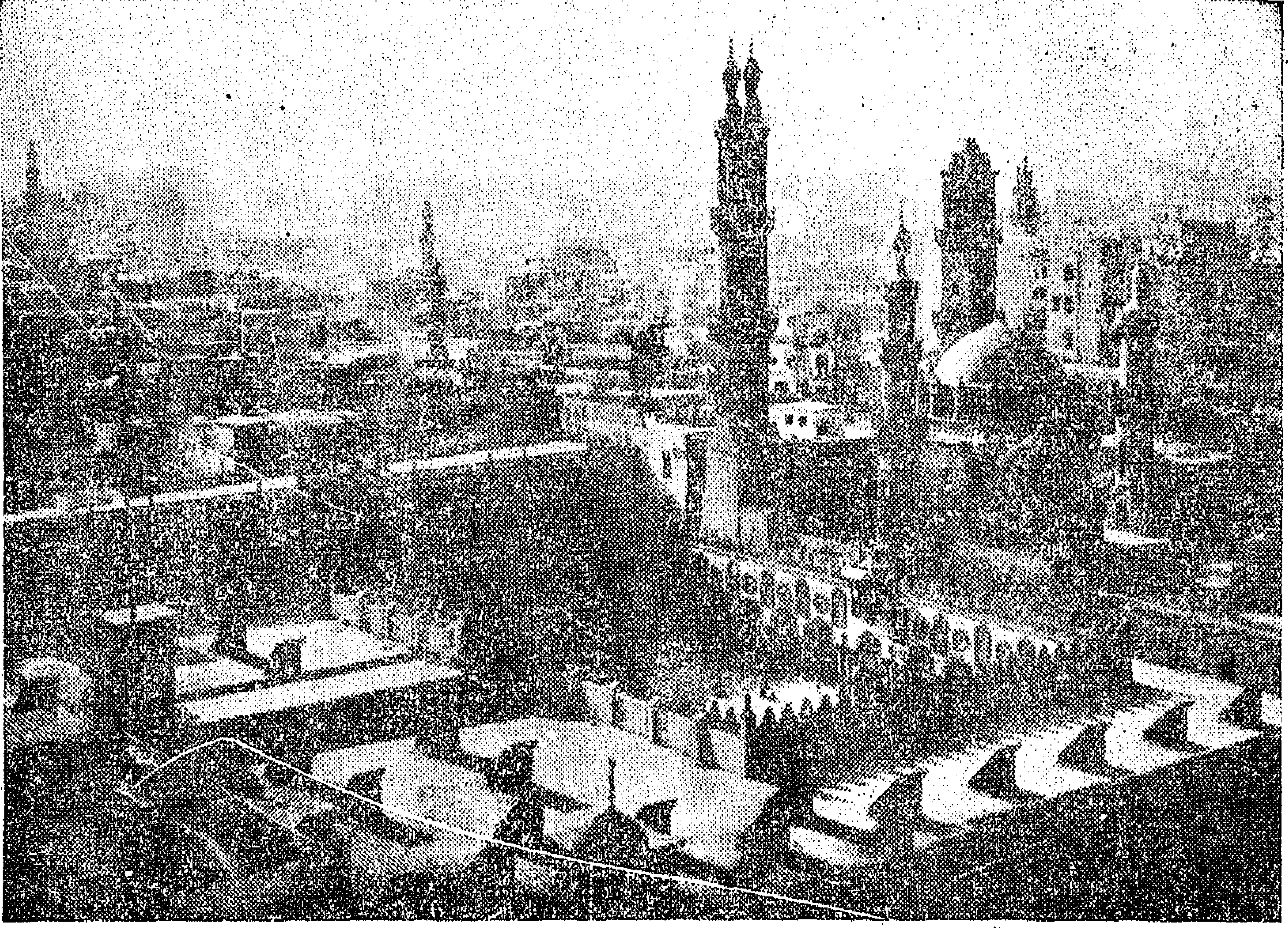
١٩١ : أسفل : المسقط الافقى العام للمسجد ، موضحا به الزيادات والاضافات التى ادخلت عليه فى العصور المختلفة ٠



١٨٩

● كيف كان التخطيط الاصلى للازهر :

تبلغ المساحة المعقدة الحالية للجامع الان ١٢٠ م طولا ومثلها عرضا ، ولكن اذا استبعدنا المدرسة الطيبرسية وأعمال قايتباى المعمارية وأعمال الغورى وعبد الرحمن كتخدا والرواق العباسى وغيرها ، يتبقى لدينا جامع يبلغ طوله ٧٥ م وعرضه ٦٩ م وله مدخل فى وسط الجانب الشمالى الغربى ومدخلا الى اليمين والى اليسار قد فتحا بوسط الضلع الايمن والايسر بحيث يكونان فى مقابل منتصف جانبى الصحن ٠٠ ويتألف رواق القبلة من خمس بلاطات تسير يمينا ويسارا بموازاة حائط القبلة ويقطعها عند وسطها مجاز قاطع بحيث يصبح لدينا فى كل بائكة تسعة عقود تتجه يمينا وأخرى مثلها يسارا ٠ وتعتمد عقود الجامع على عمد من الرخام نقلت اليه من مبان قديمة ، وتستند البوائك عند نهاياتها ناحية الحائط على أكتاف ٠

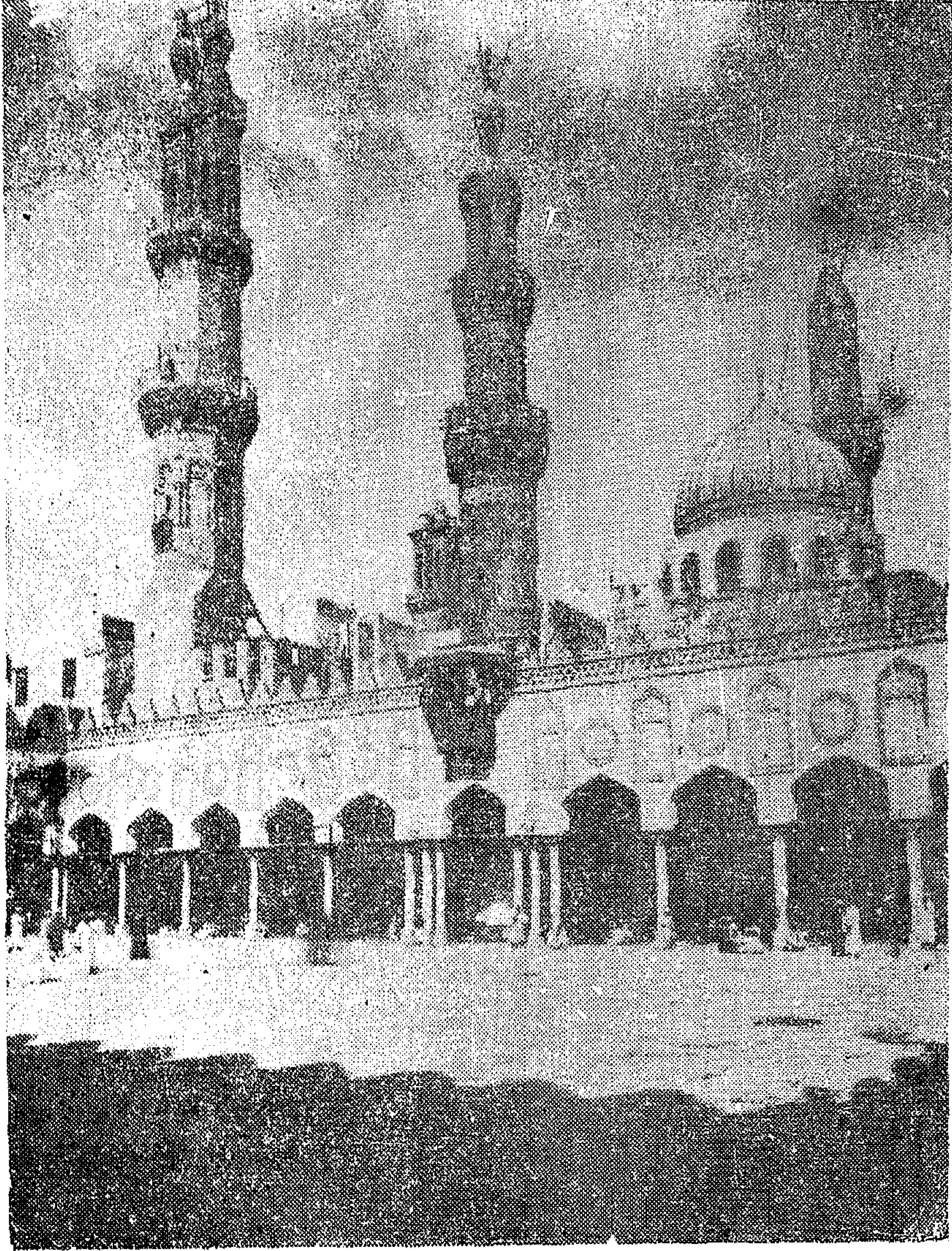


١٩٠ : مئذنة جامع الازهـــــر الشريف ذات الرأسين
يلتفت حولها كثير من مآذن المساجد المجاورة

● ونظر لأن الاعمدة كانت قصيرة، فان ارتفاع السقف يبلغ ٦ر٩٢ م ، فى حين زاد ارتفاعه فى المجاز القاطع فيما بعد بمقدار ١ر٩٦ م وذلك ليتخذ هيئة منور للمجاز . ومن الملاحظ أن الزخارف الجميلة من المراوح النخيلية الى اليمين واليسار فوق الاعمدة ، والزخارف الأخرى عند النهاية الشمالية للمجاز فوق عقد المدخل كلها زخارف أصلية وفى حالة جيدة من الحفظ ، وهى تشبه الزخارف الاخرى فى حشوتين عند النهاية اليمنى للحائط الخلفى .

ويصف بروفسر كريزويل الاروقة الجانبية للجامع فيقول : فى ضوء ما نعرفه الان عن المساجد الجامعة الكبيرة بقرطبة والقيروان وتونس وغيرها من أنها لم تكن لها فى الاصل أروقة جانبية فى ثلاث جهات من الصحن ، فاننا لا نستطيع أن نجزم بأنه كان للازهر هو الاخر فى الاصل مثل هذه الاروقة . ومن المؤكد أنه لم يكن للازهر عند انشائه رواق من الناحية الشمالية الغربية .

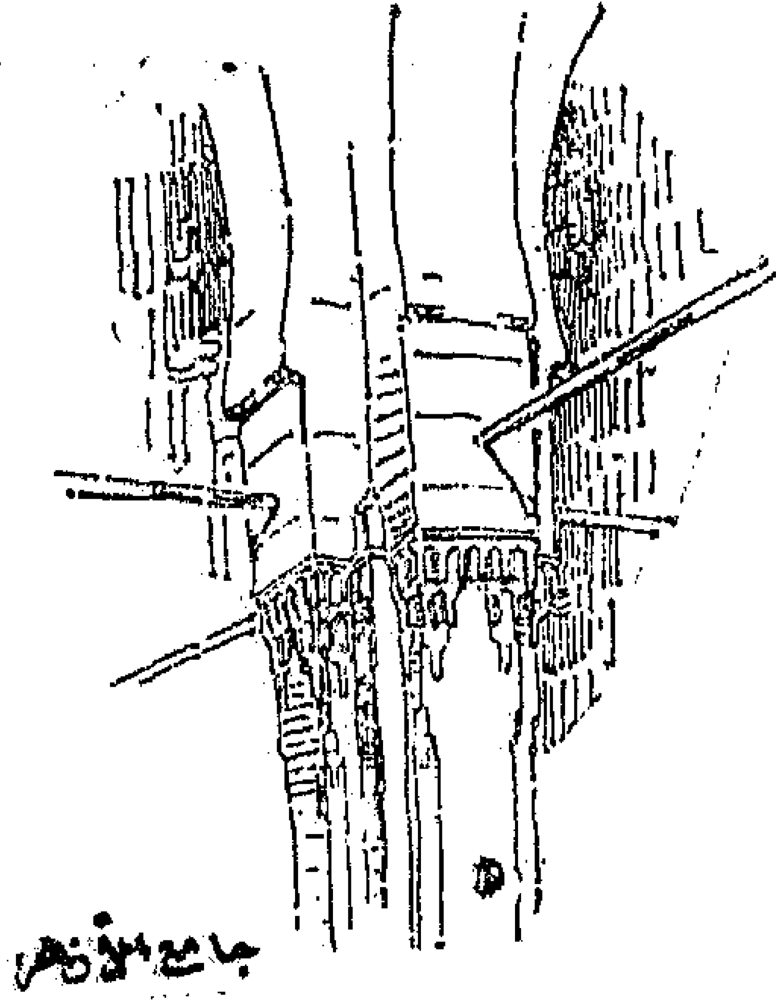
الازهر .. أو جامعة الازهر أول مشروع فى العالم يهدف فى صراحة وعزم الى تحقيق التآخى بين الرسالات السماوية مع ما تتطلبه من حرص على المثل العليا والقيم الاخلاقية وعلوم الدين والدنيا فانه حقا عمل ضخم اقتضته رسالة ضخمة

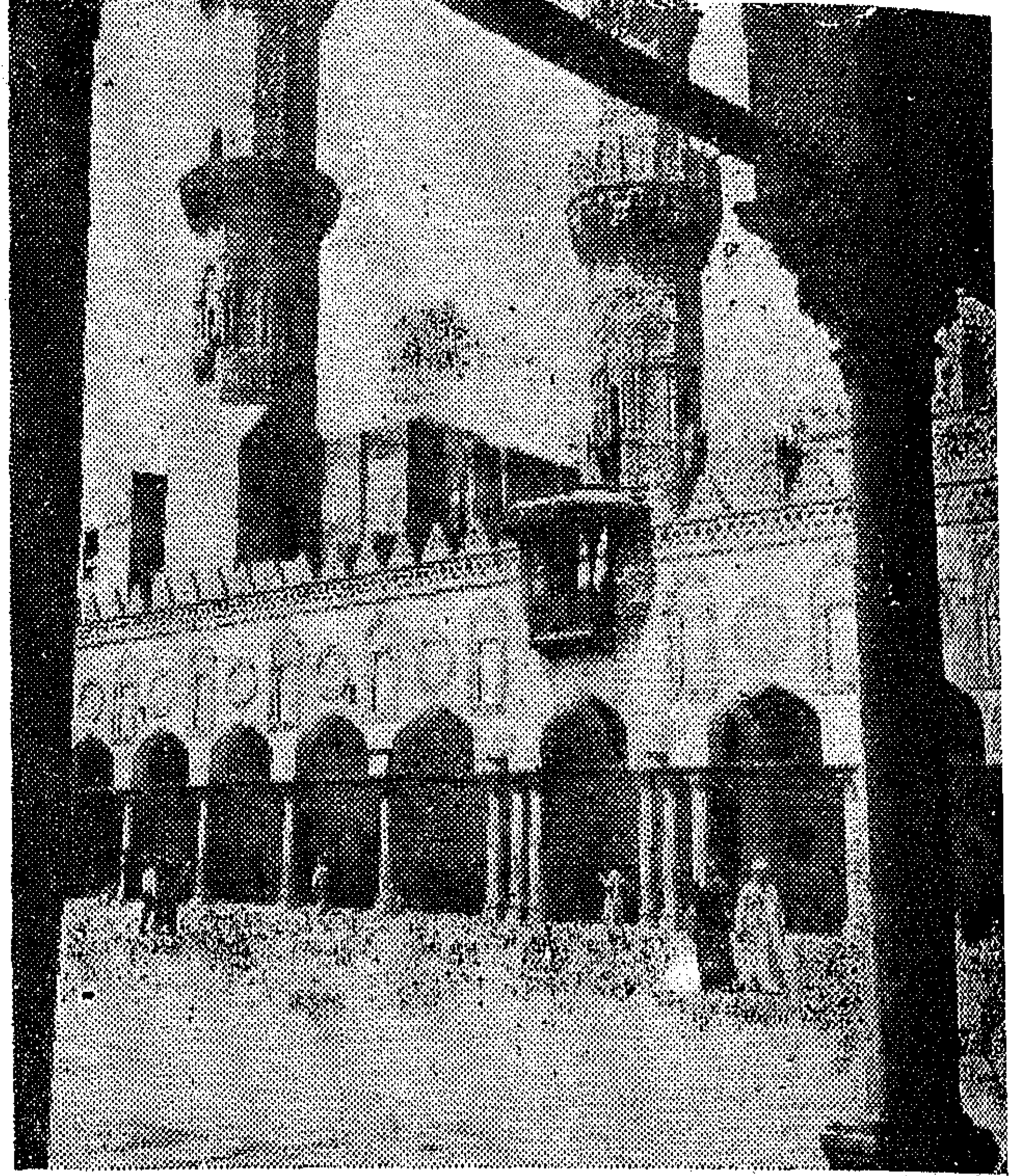


١٩٢ : صحن الازهر الفاطمى وتبدو فيه العقود المطلة على الصحن فوق أعمدتها ، كما تطل المئذنة الجميلة ذات الرأسين التى أنشأها السلطان الغورى والتى تعد فريدة من نوعها .

لم يكن الغرض الاساسى من انشاء الازهر اقامة مدرسة أو جامعة علمية اسلامية لتلقين علوم أصول الدين والشريعة والدراسات الاسلامية ، ولكن بنى ليكون مسجدا للقاهرة الفاطمية الجديدة سنة ٩٧٠ م أسوة بالجامع الطولونى فى « القطائع » وجامع عمر « بالفسطاط » ، وليكون معهدا لفئة معينة من الطلاب المتأثرين بالدعاية الفاطمية يتلقون فيه مذهب الدولة الفاطمية وهو المذهب الشيعى ، على أساتذة شيعيين أهل السنة . وجاء صلاح الدن الايوبى سنة ١٧٧٠ م وقضى على الدولة الفاطمية ، وأسس الدولة الايوبية وبقى التعليم فى الازهر معطلا الى عهد المماليك البحرية ١٢٥٠ م فعادت اليه شهرته الدينية الاولى .

ثم أضيفت الى الازهر عدة اضافات هامة مختلفة من أروقة ومدرسة ومكتبة ومآذن ، منها المئذنة المشهورة ذات الرأسين التى أنشأها « الملك الاشرف قنصوه الغورى » سنة ١٢١٤ م والتى تعتبر أبدع وأجمل مئذنة فى العالم . وهنا دخلت مصر فى حيازة الدولة العثمانية ، فعنى بالجامع الازهر وصرف لفقراء الطلاب طعاما ، وكان ذلك سببا فى زيادة الاقبال على الجامع من جميع أنحاء الدول الاسلامية .

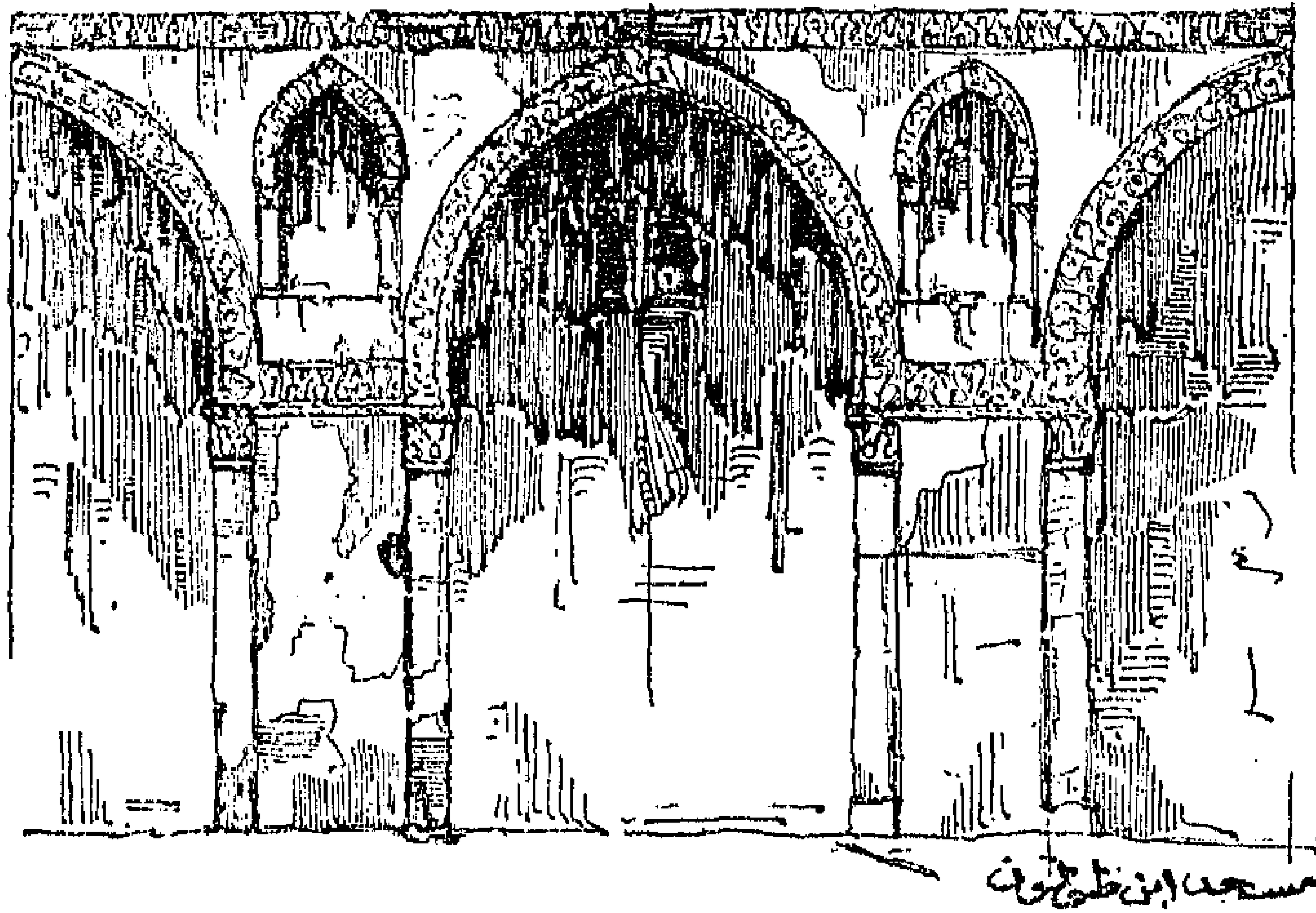


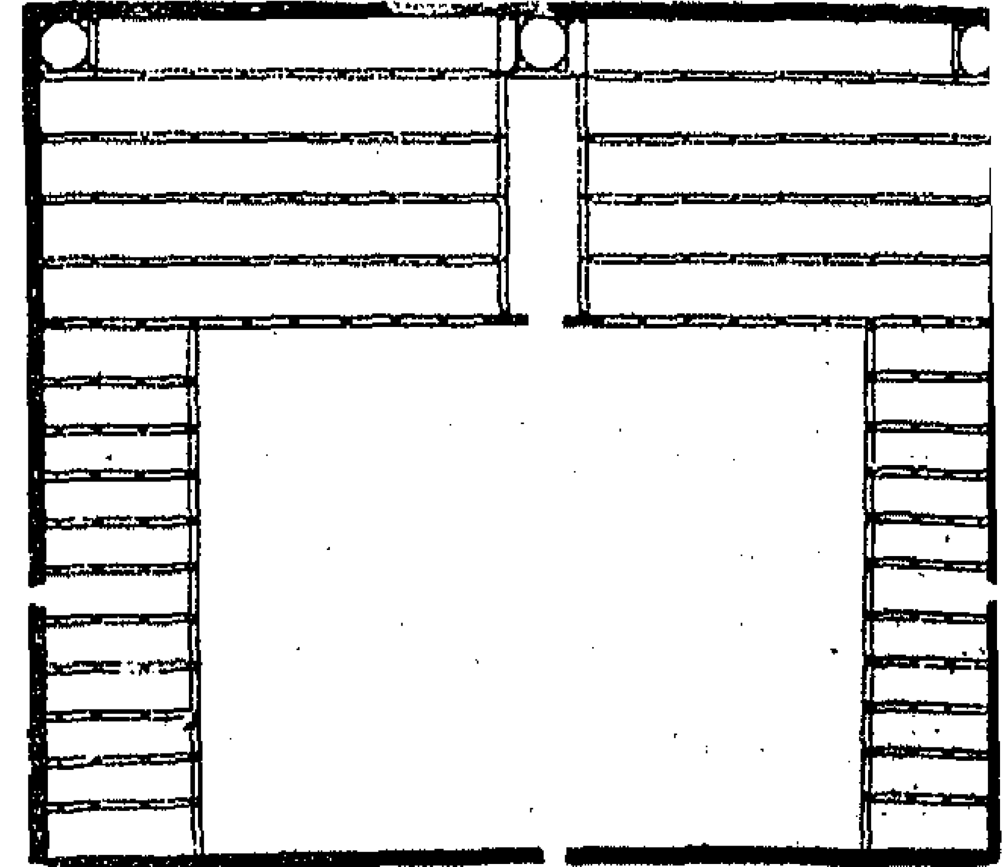


١٩٣ : أعلا اليمين ـ الصحن الداخلى المكشوف للجامع ٠

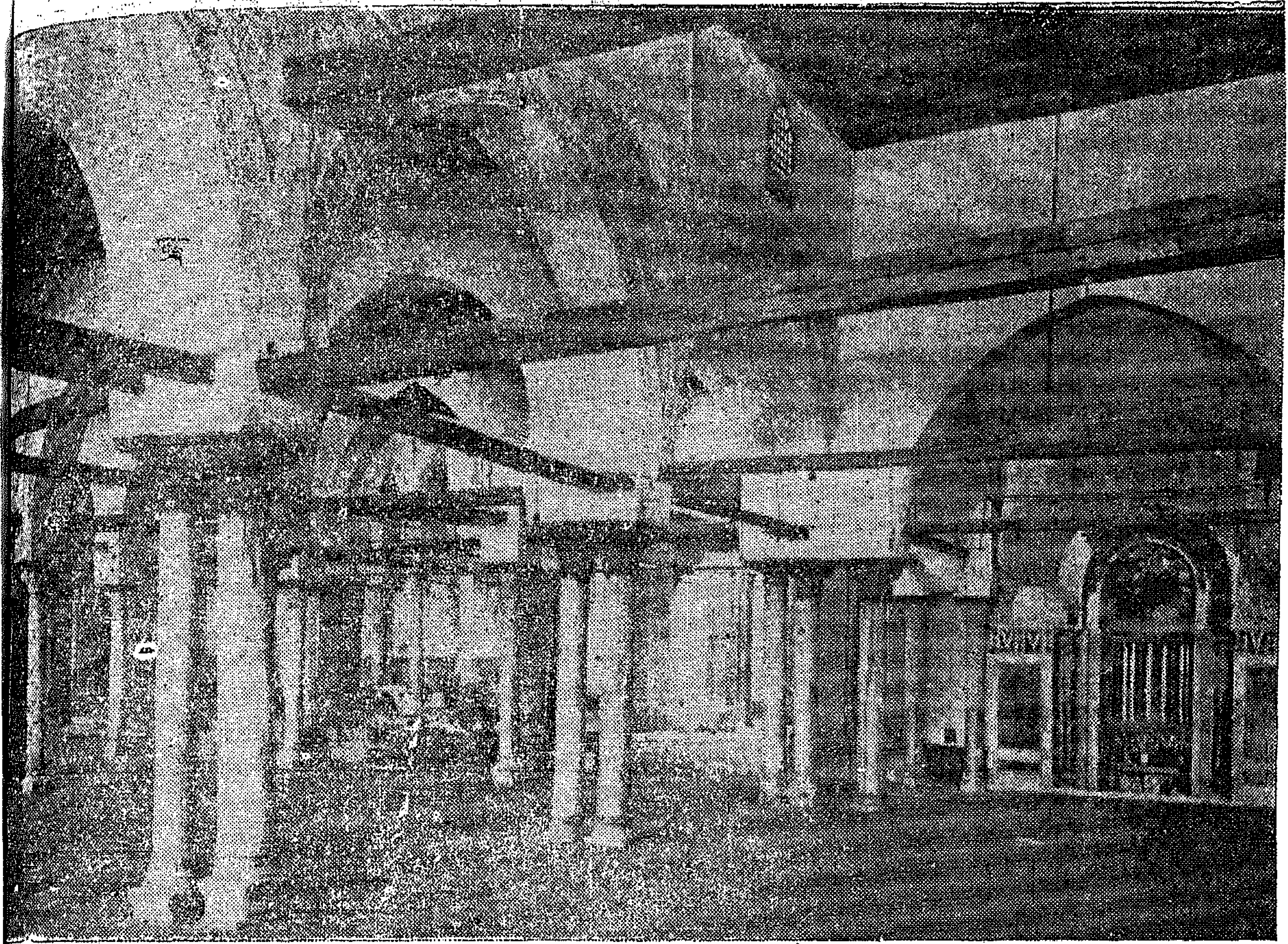
١٩٤ : أسفل يمين ـ المسقط الافقى لجامع الازهر الشريف فى السنوات الاولى لتنفيذه قبـــل الزيادات التى أدخلت عليه ٠

١٩٥ : أســـفل يسار ـ تفاصيل معمـــارية لبعض العناصر والوحدات للزخارف والعقود والاعمدة والبوائك ٠





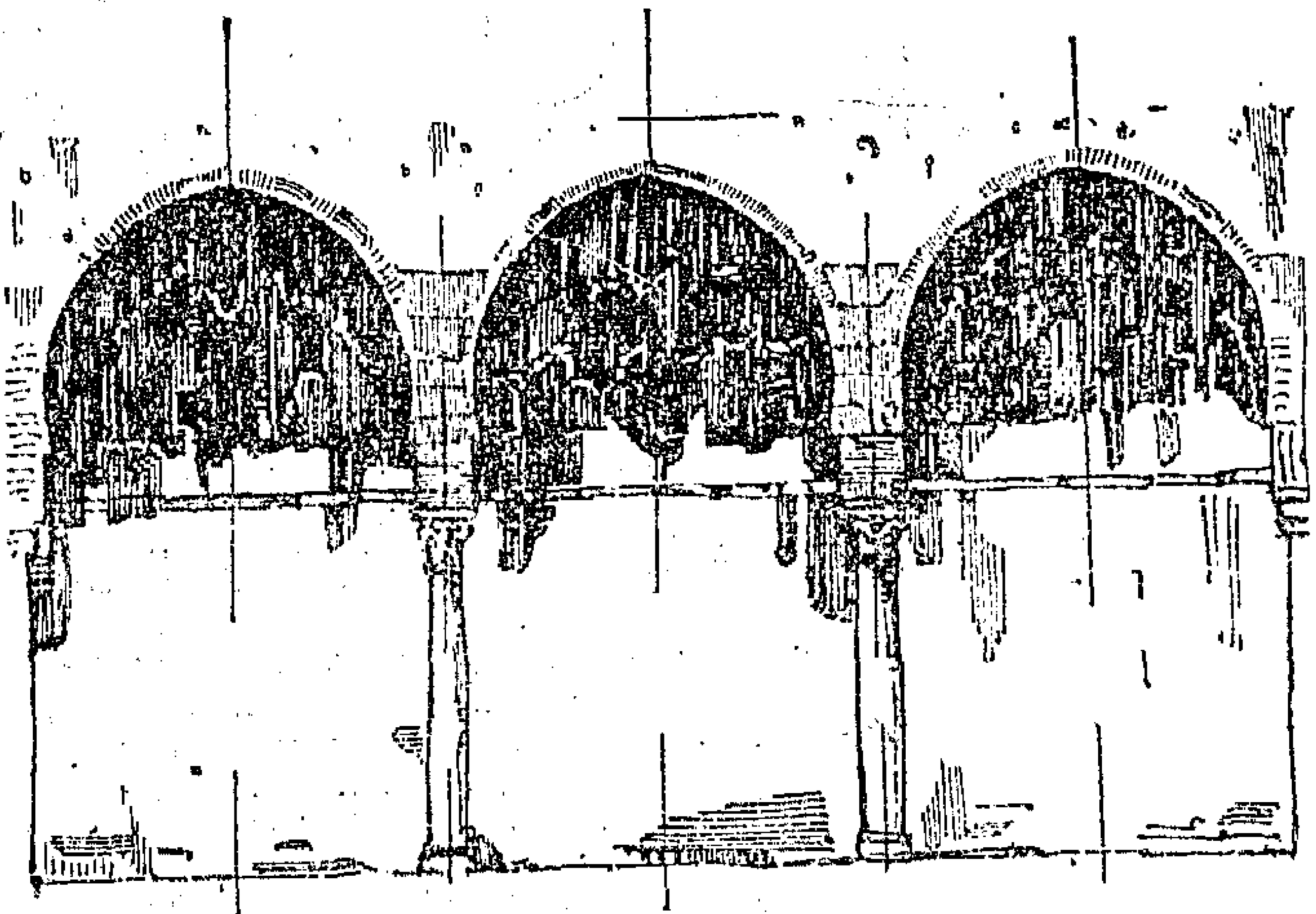
وفى السنوات التى تلت بعد ذلك اهتم المسلمون بالجامع الازهر الشريف ، فجددوا الاروقة والمحاريب وبذلوا الجهد والمال فى العمل على الاصلاح ٠ ويسجل التاريخ بانه تخرج من الازهر علماء فى الطب والكيمياء والرياضيات واللغات بخلاف العلوم الدينية ، فجمع اذن تحت سيطرته علوم الدين وعلوم الدنيا كما سجل التاريخ أيضا أن العرب أحرزوا تقدما عظيما فى العلوم الرياضية وفى الطب والعلوم الطبيعية ، كما استحدثوا علوما جديدة كعلم الجبر وعلم الكيمياء، وهذان الاسمان عربيان ٠ كما استبدلوا الاحرف الرياضية الحالية من الجمال الفنى بالاحرف العربية ، ومما يدل على ما كان للعرب من فضل السبق فى علوم الفلك ، أن كثيرا من الكواكب تحمل أسماء عربية مازالت تعرف بها حتى الان ٠ ان مصر العربية الاسلامية هى التى علمت شعوب العالم كيف تكون الحضارة وكيف تكون العمارة منذ ألف عام ٠



١٩٦

جامع الأزهر الشريف
٣٥٩ هـ ـ ٩٧٠ م

١٩٧



١٩٧

● في سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م تحول الازهر من مسجد جامع الى جامعة هى أقدم جامعات العالم ، ويحدثنا بروفسر ك٠ أ٠ كريزويل بما ياتى ـ يزعم البعض أن هذا التحول قد استدعى احداث تغييرات معمارية فى الجامع ولكنه لا أساس من الصحة لهذه المزاعم ٠٠ وذلك أنه قبل ظهور النظـام المعمارى الخاص بالمدرسة حيث كانت تدرس العلوم الدينية، كان يفضل اعطاء هذه الدروس فى بيت الصلاة فى رواق القبلة ٠ حيث كان يجلس كل شيخ الى عمود من أعمدة المسجد ليواجه تلاميذه الجالسين له فى هيئة حلقة ٠

وفى سنة ٣٧٩ هـ/١٣٠٠ م أنشئت المدرسـة الطيبرسية ملاصقة للجانب الشمالى الغـربى من واجهة الجامع الى يمين الداخل ، ولذلك اختفى جزء من واجهة الازهر الشمالية الغربية ٠ وفى ٧٣٤ هـ/ ١٣٢٣ م أنشأ الامير أقبغا المدرسة الاقبغاوية ملاصقة لا حائط الشمالى الغربى الى يسار الداخل ٠ وهكذا أيضا اختفى جزء آخر من واجهة الازهر ٠

على معظمها ، فهى ترجع الى عصر الحاكم لاتقان كثير من زخارفها مع زخارف جامع الحاكم . أما زخارف القبة بالصحن بأول المجــاز فهى من عصر الحافظ لدين الله حوالى ١١٢٩ ـ ١١٤٩ م وتعتبر أقدم قبة حلى داخلها بزخارف وكتابات من الجبس.

٢ ـ جامع الحاكم بأمر الله ـ القاهرة ٩٩٠ م :

بدأ فى تشييده عام ٩٩٠ م الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، ولكنه لم يتم الا فى عصر ابنه الحاكم بأمر الله عام ١٠١٣ م . ويبدو هذا الجامع كأنه بنى على مثال جامع بن طولون فكلاهما شيد بالطوب ما عدا المآذن فهى من الحجر ، وليس فى رواق القبلة مجاز ظاهر الى المحراب ، وعقودها حدوية مدببة تقوم على أكتاف مندمج فى زوياه الأربعة أشباه أعمدة وصحن فى كليهما يحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة ، ولكن هذا الايوان الأخير يمتاز فى جامع الحاكم بأن فى طرفيه قبتين بينهما قبة ثالثة فوق المحراب . ويمتاز جامع الحاكم عدا ذلك بأن فى طرفى واجهته البحرية مأذنتين من الحجر يتوسطها المدخل ، لأن هذا المدخل شــيد من الحجر وبارز عن الواجهة ، وبأن الأزار الجصى تحت السطح يشهد بما وصل اليه الفنانون فى العصر الفاطمى من اتقان الزخارف النباتية والتوفيق فى استعمال الكتابة الكوفية كعنصر زخرفى . وقد تهدمت أجزاء من مأذنتى الجامع على الرغم من أن قاعدة وهمية بنيت حول قاعدة كل منهما التدعيمه وذلك عام ١٠١٠ م . احدى المأذنتين سقطت بسبب زلزال عام ١٣٠٣ فأعيد بناء مأذنتيه فى الســنة التــالية على يد الأمير بيبرس الجاشنكير .

وتصميم هذا الجامع يشــترك مع الجــامع الطولونى فى كثير من العناصر المعمارية، ، فقد اتفق معه فى شكل عقود على أكتاف من الطوب ، خلقت بنواصيها الأربع عمدا ، وفى أروقته المحيطة بالصحن وفى الاطار الجبسى المكتوب بالكوفى بأزار السقف ، غير أنه هنا بالجبس وهناك بالخشب ، كما شاركه فى وجود زيادة به فى الجهة **القبلية** .

وامتاز عليه بوجود ثلاث قباب بالايوان الشرقى . اثنتان فى طرفيه ، والثالثة أعلا المحراب امتاز عليه بوجود منارتين بطرفى الواجهة الغربية وبالمجاز الذى يشق أروقة المدخل الشرقى مثل جامع الأزهر . وكما طرأ على الجامع الأزهــر تغييرات كثيرة وتخريب ، غير أن بقاياه الفاطمية أغزر بكثير من بقايا الجامع الأزهر ، ولكنه رغم تخريبه فقد دلت التفاصيل الباقية به على مقدار عظمته . ورغم تهدم أروقة ايواناته فقد احتفظ الايوان الشرقى بعقوده الستينية المحمولة على أكتاف ، كما احتفظ

بإزاره المكتوب بالخط الكوفي وبعض أوتاره الخشبية المنقوشة • وبطول الواجهة الغربية كما سبق القول منارتان حجريتان ، احدهما القبلية مربعة القاعدة مكتوب عليها آيات قرآنية وزخارف متنوعة واسم الحاكم وتاريخ انشائها • والمنارة الثانية بدنها مستدير ، أنشأها العزيز بالله وأتمها الحاكم بأمر الله ، ومكتوب حولها آيات من القرآن بها كثير من الزخارف • وان جمال هاتين المنارتين وما اشتملتا عليه من زخارف وكتابات جميلة يدلان على مقدار ما بلغته الزخارف من الحجر من الرقى والجمال • وقد نقش على بدن هاتين المنارتين (المئذنتين) زخارف نباتية وهندسية غاية في الدقة كما حليت بأشرطة كتابية بالخط الكوفى المزهر – يرجى أن تنظـــر الأشكال الهندسية والصور رقم ١٩٨ ص ١٧٩ •

٣ – الجامع الأقمر : القاهرة ١١٢٥ م : ٩١٥ م – ١١٢٥ م :

تولى الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٤٩٠ هـ الحكم بعد وفاة والده المستعلى بالله الفاطمي وهو طفل عمره خمس سنين ، فقام بتدبير شئون الدولة الوزير الأفضل شاهنشاه بن الجمالى • وبعـــد وفاته تولى الوزارة أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائجى ، الملقب بالمأمون ، واليه يرجع الفضل فى كثير من المنشآت المعمارية التى تمت فى عهد الخليفة الآمر •

وقد راجعت فى مصر الحالة الاقتصادية والتجارية فى عهد الآمر ، مما أدى الى ظهور فكرة الضيافة المصطنعة • فأنشئت فى أيامه فنادق وخانات ووكالات القاهرة خصصت للوافدين من العراق والشام وغيرهما من تجار البلاد الأخرى • كما أمر الخليفة الآمر بتعمير مدينتى تنيس ودمياط على اعتبار أنهما من الموانى التى تستقبل التجار الوافدين من الشام •

بناه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله عام ١١٢٥ م ولعل أبدع ما فى هـــذا المسجد الصغير واجهته الغربية الحجرية الغنية بشتى أنواع الزخـــارف والتى لم يبق منها الا نصفها الأيسر ، وبها حنايا تنتهى بطاقات وعقود ومقرنصات وأخرى تحف بها أعمدة صغيرة وبعضها حلزوانى فى جزئها العلوى أما فى داخل المسجد فقوامه صحن مكشوف تحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة والعقود فارسية تقوم على أعمدة من الرخام ، والسقف مغطى بايوانات صغيرة •

ويعتبر الجامع الأقمر من أجمل المساجد الفاطمية ، له واجهـــة من المزدان بالزخارف والكتابات الكوفية والمقرنصات • فهى واجهة فريدة من نوعها ، دلت على

عبقرية وحسن ذوق وتناسب فى الأجزاء . وفى هذه الواجهة باب له معبرة من الخشب حفرت بها زخارف متعرجة تمتاز بالبساطة والجمال . وعلى يسار الباب المنارة وهى ليست فاطمية جددها يلبغا السالمى عام ١٣٩٦ م .

وجامع الأقمر يعتبر من مفاخر العمارة الفاطمية وهو من المساجد المعلقة ؛ وكان يصعد اليه بدرج توجد تحته مجموعة من المحلات التجارية . المسجد صغير الحجم يبرز بابه الرئيسى عن الواجهة ويؤدى الى صحن مكشـــوف يحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة ، ويتكون من ثلاثة أروقة محملة على عمد من الرخام مغطاة بقبطاب صغيرة . وفى صدر هذا الايوان يوجد محراب مكسو برخام ملون دقيق تعلوه لوحة تذكارية للعمارة التى أجراها يلبغا السالمى فى عهد السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق عام ٧٩٩ هـ .

وحول العقود التى تحيط بالصحن شريط من الكتابة بالخط الكوفى المزهر والتى تعتبر من مميزات الزخارف الفاطمية . يقرأ منها الآن « بسم الله الرحمن الرحيم الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولم تمسسه نار نور على نور ... » .

٤ ـ مسجد أبى العلاء بالقاهرة :

أنشىء مسجد « أبو العلا » عام ٨٩٠ هـ أى فى عصر قايتباى وهو عصر ازدهرت فيه العمارة الاسلامية . وقد توالت على المسجد يد الأصلاح والتجديد والتعمير ، مما أحدث كثير من التغيرات به . وتبلغ مساحة المسجد الآن ١٢٦٤ م٢ وله ثلاثة أبواب ، ويتكون المسجد من أربعة ايوانات أسقفها محمولة على عقود من الحجر الأحمر والأبيض ، وترتكز العقود على عمد من الرخام تحيط بصحن المسجد المغطى بسقف مذهب . وتحيط بمربع الصحن شبابيك جميلة من الجبس ، ومنبره من الخشب المنقى المطعم بالعاج ، ومحرابه مكسو بالرخام .

كان الشيخ الصالح حسين أبى على المكنى « بأبى العلا » صاحب مكاشفات وكرامات عديدة سكن فى خلوة بزاوية بالقرب من النيل فى بولاق فى القرن التاسع الهجرى ، وكان للناس وخاصة أهل بولاق فيه اعتقاد ، فكثر مريدوه وأتباعه .
كانت بولاق منذ نهاية العصر الفاطمى حتى أوائل العصر المملوكى قطعة فسيحة من الأرض يكسوها البوص والحلفا ، والتلال الرملية ، وتنزل فيها مماليك السلطان للرياضة ورمى الرمح والنشاب ، وعرفت هذه المنطقة منذ ذلك الحين بأسم « بولاق » .

فلما كان القرن الثامن الهجرى أقبل أهل القـــاهرة على عمارتها لما بدا من عناية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بها · فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة ، حتى لم يبق بها موضع بدون عمارة ، وأصبحت شوارعها مسلوكة ، وأزقتها مطروقة وقصورها عامرة وبساتينها ناضرة · واستمرت بولاق ثغرا لمدينة القاهرة حتى القرن التاسع عشر حيث أفتتح أول خط حديدى بين القاهرة والاسكندرية ، فأخذت أهمية هذا الثغر تقل تدريجيا حتى أصبحت مقصورة على المراكب التجارية والترسانة·

ولما ازدحمت بولاق بسكانها طلب ولى الله « أبو العلا » من أحد تجارها الخواجة (أى السيد بالفارسية) نور الدين على البراسى أن يجدد زاويته وخلوته التى كان يتعبد فيها حتى تتسع لزائريه ومريديه · فسر التاجر لهذه الرغبة الكريمة ، فبادر بتغييرها وأنشأ المسجد المعروف باسم « أبو العلا » وألحق قبة دفن فيهــا الشيخ أبو العلا عام ٨٩١ هـ · وقد بلغ من اهتمام الدولة بمسجد أبو العلا أن مدت جسرا وسط الأراضى الزراعية التى كانت تمتد من بولاق حتى شارع رمسيس الحالى يوصل الى السلطان أبو العلا ، أى مكان شارع ٢٦ يوليو الحالى ·

٥ ـ جامع الصالح طلائع :

هذا الجامع آخر جامع فى الدولة الفاطمية ؛ أنشاه طلائع بن زريك ، وتم انشاؤه سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م ، وهو من أجمل المساجد الفاطمية اذ تبلغ مساحته ١٥٢٢ مترا· وقد اشتمل على مميزات معمارية قل أن تتوفر فى مسجد فاطمى آخر ، فلهذا المسجد وجهات أربع مبنية بالحجر ، أهمها الواجهة الغربية وبها الباب العمومى ، وقد أقيم أمام هذا الباب رواق محمول على عمد رخامية ، تحمل عقودا حليت بالزخارف على هيئة مروحة مخوصة نقشـــت بافريزه آيات من القـــرآن ، وكتبت بالخط الكوفى المزخرف · ولهذا الرواق سقف بديع جددته ادارة حفظ الآثار العربية وأدمجت فيه بقايا قديمة منه ·

ومركب على هذا الباب مصراعان غشى وجههما بالنحاس المفرغ بأشـــكال هندسية ، عمل طبقا لبابه القديم المحفوظ بدار الآثار العربية ، والمتعبـــر أقدم باب نحاسى فى الآثار العربية بمصر ·

وفى أسفل وجهاته الثلاث الغربية والقبلية والبحرية ، حوانيت حلى أفريزها العلوى بمربعات جحرية تنوعت زخارفها · وتعتبر الثانية من نوعها ، اذ الأولى فى منارة الحاكم · وتوجد نماذج أخرى مثلها أو أجمل منها فى الدولة الايوبية ، فى برج الظفر ، وباب الثعالبة ، فادارس الصالحية ·

وكانت منارته القديمة تعلو الباب الغربى ، وقد هدمت فى وقت ما ، وحلت محلها منارة حديثة هدمت سنة ١٩٢٦ لخلل طرأ بها ٠

والجامع يتكون من أربع ايوانات يتوسطها صحن مكشوف مساحته ٤٥ر٤٥٤ مترا ، به صهريج كان يملأ بالماء وقت الفيضان من الخليج المصرى ٠

وأهم هذه الايوانات ، الايوان الشرقى الكبير ، اكـــون من ثلاثة أروقة ذات عقود فارسية محمولة على عمد رخامية ٠ وقد حليت أطراف العقود وأرجلها بكتابات كوفية مزهرة جميلة للغاية ٠ وفتح بخواصر العقود شبابيك جصية صغيرة مفرغة ٠ وكانت جدران الأروقة محاطة بهيئة عقود جصية نقشت عليها آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى ٠

وقد حليت الطبالى الخشبية التى بأعلى تيجان العمد بزخارف متنوعة ، كما حليت الاوتار التى بين العمد بنقوش وكتابات كوفية ٠

ويوجد فى أعلى جدار المحراب شبابيك جصية ، أطرها الخارجية بها كتابات كوفية وزخارف فاطمية غريبة فى نوعها ٠ أما الشبابيك الجصية فانها حديثة ما بين مملوكية وعثمانية ، لأن القديم منها كان يشتمل على كتابات كوفية مثل الصـــباك المحفوظ فى دار الآثار العربية ٠

والمحراب تسوده البساطة ، فقد كسى غطاء عقده بالخشب المنقوش أثناء عمارة بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ ١٢٩٩ م ، وهو الذى عمل المنبر الحالى ٠ ولعل المحراب القديم كان من الجص مثل باقى المحاريب الفاطمية ، أو عقده من الجص وكسوته من الرخام ، لأنه ثبت أن الفاطميين استعملوه فى كســـــوة محاريبهم ، كما استعملو الفسيفساء المذهبة فى الجدارن ٠

أما ايواناته البحرية والغربية والقبلية ، فكل منها مكون من رواق واحد يتوسطه باب يؤدى الى الصحن ٠

وفى أثناء عمارته الأخيرة ، عثر على شرفات مسننة حلى وجههـــا بزخارف نباتية ، هى بلا شك مختلفة من عمارته سنة ٦٩٩ هـ ٠ لأن للشرفات الفاطمية طرزا آخر غير هذا ٠

وللجنة حفظ الآثار العربية كل الفضل فى احياء هذا الأثر الجليـــل ، كما أن

لأستاذى الجليل محمود بك أحمد مدير حفظ الاثار العربية ، كل الفخر فى عنايته بهذا الاثر ، ومواصلة الاهتمام به ، حتى بعثه من العدم ، وأصبح تحفة فنية رائعة ٠

٦ ـ مسجد الجيوشى :

هذا المسجد بأعلى المقطم ، أنشأه الأفضل شاهنشاه سنة ٤٩٨ هـ و ١١٠٤ م ، ورغم صغره فقد اشتمل على مميزات معمـــــارية طريفة ٠ هذا فضــــلا عن غرابة مسقطه الأفقى ٠

وامتاز أيضا بأن منارته كاملة ، اذ المنارة الأولى الكاملة منارة والده بدر الجمالى ، التى أنشأها باسنا سنة ٤٧٠ هـ و ١٠٧٧ ميلادية ٠ ونجتزىء عن وصفه بنشر مسقطه الأفقى وقطاع له ٠

ويسترعى النظر فيه عدا تخطيطه ، أن وجه ايوانه الكبير مكون من عقد كبير محمول على عمد مزدوجة يكتنفه عقدان صغيران ٠ ويعلو المحـــــراب قبة يكتنفها ايوانان ٠ وهذه القبة مقرنصها من طاقة واحدة ، يحيط بمربعها العلوى سطر مكتوب فيه بالخط الكوفى آيات من القرآن الكريم ، وباقى والقبة تسودها البساطة ، شأن القباب الفاطمية الى هذه الحقبة ٠ والمحراب حافل بشتى الزخــــارف والكتابات الكوفية ، وأستطيع الجزم بأنه فريد بين الآثار الفاطمية ٠

نكتفى بهذا القدر من المساجد الفاطمية ، بعد أن وقفنا على أنواع مختلفة من التخطيط ٠ ونظرا لأن الدولة الفاطمية وجدت مشاهد فاطمية أخذت تصميما خاصا تنوعت أشكاله ، كما وجدت بها قباب مفردة تنوعت أشكالها ، فاننا ننتقل الى شرح بعض هذه الأنواع بشىء من الايجاز ٠

٧ ـ مشهد اخوة يوسف (الأسباط) :

هذا المشهد بسفح المقطم ، ومسقطه الأفقى غريب ، ومبانيه من الحجر والآجر، ونجتزىء عن وصفه أيضا بنشر مسقطه الأفقى ٠ وقد تنوعت عقودها ما بين مقببة ومصلبة ، وقباب صغيرة ٠ وبهذا المشهد قبة كبيرة بصدرها محراب كير ، يكتنفه محرابان صغيران حليا بزخارف وكتابات فى الجص تجلت فيها براعة الصانع ٠

وشاهدنا تعدد المحارب فى بعض المساجد الفاطمية مثل مسجد قوص ، وفى

المشاهد الفاطمية كالسيدة رقية ويحيى الشبيه ، وقد انتقل الى بعض المساجد العثمانية في الوجه القبلى • وهذا المشهد يرجع الى أبنية النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى لمطابقة زخارف الجصية لزخارف المحراب المستنصر بالجامع الطولونى حوالى سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م ، وكلا المحرابين يعطى فكرة عن جمال صناعة الجص التى سادت المحاريب الفاطمية • وباقى القبة تسوده البساطة ، فالمقرنص من طاقة واحدة وسطحها خال من التضليع • ويسترعى النظر فيها عقود شبابيكها الصغرة بمثمن الرقبة ، فان عقودها من نوع غريب الأول أو الثانى ، حيث يوجد عقد مداينى نظيره فى القباب السبع المعاصرة لها • وبهذه القبة شباك جصى من خطوط متقاطعة لعله الوحيد من نوعه •

٨ ـ القباب المفردة :

وكما وجدت مشاهد كبيرة ، وجدت مشاهد صغيرة عبارة عن قباب مفردة ، نذكر منها على سبيل المثال ، القباب السبع التى بالقرافة الكبرى • وهى أربع قباب مختلفة من سبع قباب ، أنشئت فى القرن الخامس الهجرى على مشاهد سبعة من بنى المغربى الذين قتلهم الخليفة الحاكم •

وهذه القباب متجاورة وليست على ست واحد ، بل احدهما أكبر من الثلاث الأخرى ، وكلها على طراز واحد • فالقبة مكونة من ثلاث طاقات ، السفلى مربعة ومبنية بالدبش ، تنتهى من أعلاها بافريز مستقيم وبها أربع فتحات متقابلة جوانبها الأربعة • والطاقة الثانية مربعة أيضا ومبنية الطوب ، وبها ثمانى فتحـات عقودها مدببة ، وتعتبر أقدم ما وجد من نوعها • وباركان المربع الأوسط مقرنص من طاقة واحدة ، وبأحد هذه القباب محرابان يكتنفان احدى فتحات القاعدة ، بينما خلت القباب الثلاث من المحاريب • وقد هدم غطاء القباب الأربع ، ويحتمل أنه كان بسيطا أيضا أى غير مضلع •

وكذلك وجدت قباب صغيرة ، مثل قبتى عاتكة والجعفرى بحوش السيدة رقية ، المنشأتين حوالى سنة ٥١٤ ـ ٥١٩ هـ و ١١٢٠ ـ ١١٢٥ م فقد كانت قبة عاتكة باكورة تطور للقبة الفاطمية ، من حيث ظهور التضلع بها من الداخل والخارج وتحسـين طرازها ، كما كانت النموذج الثانى أو الثالث لانتقال المقرنص من طاقة واحدة الى طاقتين حيث ظهر انتقاله فى قبة بدر الجمالى خارج باب النصر حوالى سنة ٤٨٠ هـ و ١٠٨٧ م •

٩ ـ مشهد السيدة رقية :

ومن المشاهد الغنية بشتى الفنون ، مشهد السيدة رقية بشارع الخليفة . المعروف بأنه مشهد السيدة رقية ابنة أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وهو من مشاهد الرؤيا التى أنشأها الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٢٧ هـ ١١٣٢ م . وقد فقدت بعض الأبنية الخارجية لهذا المشهد كما يبدو فى التخطيطات المعمولة عنه . والباقى منه الآن رواق خارجى واجهته مكونة من ثلاثة عقود محمولة على عمد مزدوجة . وبهذا الرواق محرابان من الجص يكتنفان الباب المؤدى الى القبة . وتصميم هذه القبة برواقها الخارجى مقتبس من مسجد الجيوشى ، وعنهما أخذ الصالح طلائع تصميم واجهة مسجده .

ويكتنف القبة ايوانان بكل منهما محراب من الجص حافل بالزخارف والكتابات، يتوسطهما محراب كبير جصى ذو تجاويف محازية مزخرفة ، بأطرافه حول العقد مقرنص من طاقتين : العليا منهما كبيرة بتواشيحها ، وأعلاها زخارف وكتابات كوفية دقيقة . ويرى فى أعلا تجويف أحراب شريط من الرخام الخردة الدقيق ، وبقيه التجويف كان مكسوا بالرخام وأزيل فى وقت ما ، وبقى أثره فى الجص .

وهنا نتساءل ، هل كان المحراب وقت انشائه مكسوا بالرخام ؟ هذا مالا نستطيع الجزم به ، فيحتمل أن يكون كذلك ، ويحتمل أن يكون من أثر عمارة أجريت به فيما بعد ، ولكن ليس معنى هذا التشكك ، أن الرخام لم يستعمل فى المحاريب الفاطمية . فقد ثبت أن المحراب الكبير ومحراب المجلس الجديد بجامع عمرو بن العاص فى سنة ٤٤٤ هـ ١٠٥٢ م كانا من الرخام . كما أن الحافظ لدين الله كسا محراب مسجد السيدة نفيسة سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م بالرخام .

ويعلو المحراب قبة مضلعة من الداخل والخارج مقرنصها من طاقتين ، تعتبران ثانى نموذج فى تطور القبة ، لأن القبة الفاطمية ظلت على بساطة مظهرها من الداخل والخارج الى مبدأ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، ثم بدأت تتطور بأن أدخل عليها التضليع من الداخل والخارج . وأول ما شوهد ذلك فى قبة السيدة عاتكة بجوار هذا المشهد ، وتبعهما قبة يحيى الشبيه . وتضليع القبة وان ظهر بمصر متأخرا الا أنه لازم قباب تونس والقيروان منذ نشأتها ، حيث تراه فى القبة المنشأة سنة ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م فوق المحراب بجامع الزيتونة بتونس ، وكذا البهو بالجامع المذكور وكذلك نرى زخارف المحراب وتكوينه مبدأ لتطور زخارف المحراب الفاطمى ، وهذا المحراب مقتبس من محراب قبة الحصواتى السابقة له ببضع سنوات . ثم شارع فى

كان يخرج من النيل شمال الفسطاط وتخترق مدينة هوليوبوليس القديمة وتواصل المجرى لتلتقى بالبحر الأحمر على مقربة من السويس ، وقيل أن هذا القائد فى الليلة التى تم له فيها النصر ودخل عاصـــمة البلاد موقع القصر التى أجمع على تشييده لاستقبال مولاه الخليفة المعز لدين الله واتخذ حوله منازل الجند والموظفين والأتباع، وجعل حول ذلك كله سورا كان عرضه عدة أذرع ويسمح أن يمر به فارسان جنبا الى جنب ، وسميت هذه الضاحية فى ذلك الوقت (المنصورية) وهو الأسم الذى كانت تحمله قبلها الضاحية التى أسسها الخليفة الفاطمى المنصور بالله والد المعز ، والتى كان يطلق على بابين من أبوابها باب زويلة وباب الفتوح ، وهما الأســـمان اللذان أطلقا أيضا على بابين من أبواب القاهرة ولم تعرف الضاحية الجديدة باسم القاهرة الا بعد أربعة سنوات حين قدم المعز الى مصر عام ٩٧٣ م وكان للسور الذى شيده جوهر سبعة أبواب باب زويلة فى الجنوب ، باب الفتوح وباب النصر فى الشمال ، والباب المروق فى الشرق وباب الفرج وباب السعادة · ثم أضيفت لهذه الأبواب باب سابع بعد عامين من تأسيس القاهرة وهو باب القنطرة ، وقد سمى بهذا الاسم لأنه كان على مقربة من القنطرة التى أقيمت فوق الخليج · ومهما يكن من الأمر فقد تهدم هذا السور فجدده المستنصر عام ١٠٨٧ · وذكر المقريزى أن المهندسين الذين بنوا السور الجديد وأبوابه الثلاثة الباقية حتى اليوم كانوا ثلاث اخوة جاءوا من مدينة الرهـــــا ويمتاز هذا السور الذى لا يزال بعض أجزائه قائما من الحجر وأن أبوابه التى تعرف منها اليوم باب النصر والفتوح وزويلة كبيرة ذات عقود دائرية ويحف بكل منها برجان عظيمان وقباب · يرجى أن تنظر الأشكال والرسومات ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ·

ــ يقع باب النصر بين برجين نقشت على أحجارها رسوم تمثل بعض آلات القتال ، وفوق الباب فتحة أعدت لصب المواد الكاوية على العدو المهاجم ، وفيه سلم يوصل الى أجزاء وحجرات فى جزئه العلوى تحتوى على عقود من الحجر ويتوج الباب بافريز تعلوه المزاغل ·

ــ باب الفتوح يحف به برجان مستطيلان فى كل منها طاقة تدور حول عقدها حله معمارية مكونة من تضليعات أسطوانية متتالية ذاع اســـتخدامها بعد ذلك فى زخرفة دوائر العقود ·

ــ باب النصر وباب الفتوح متصلان بطريقين أولهما فوق السور والثانى ممر معقود تحت السور ، ومن مظاهرها المعمارية تغطية السقف بقبوات صغيرة · أما باب زويلة فقد هدم المهندس الذى بنى جامع المؤيد الجزء العلوى منه وأقام منارتى المسجد حين شيده عام ١٤١٠ م ·

ويلاحظ فى عمارة سور القاهرة أبوابها الفاطميـــة أنها متأثرة الى حد كبير

محاريب يحيى الشبية ٠ ثم اقتبس للمحاريب الايوبية مع تحويرات بسيطة اقتضاها التطور ٠ ويتوسط القبة تابوت من الخشب أمرت بعمله السيدة علم الآمرية سنة ٥٣٣ ـ ١١٣٨ م ، وهو من نفائس صناعة النجارة ، كتب عليه آيات من القرآن واسم منشئته بالخط الكوفى المزهر ٠

وكذلك أمرت هذه السيدة بعمل محراب من الخشب ، نقل من المشهد وأودع دار الآثار العربية ، وهو من خشب قروتركى مزخرف بحشوات مجموعة من ساج هندى وخشب زيتون ، زخارفه على شكل نجوم ورسوم أخرى هندسيا ٠ والجانبان والظهر من حشوات كبيرة ، والكل تتخلله زخـــارف متناسقة وغصـــون نباتية وعناقيد عنب ٠ وفى المحراب والتابوت تجلت صناعة النجارة فى الدولة الفاطمية، فأبدع فيهما الصانع أيما أبداع ٠ ولا عجب فالآمـــر بعملهما سيدة لســـيدة ٠ هذه لمحة موجزة عن تاريخ العمارة الفاطمية ، وجـــولة قصيرة بين نفائســـها ، لم أقصد بها الأتيان على جميع نواحيها ، فهذا ما تنفرد له مجلدات ، وانما قصدت بها المامة عامة لهذا التراث الفنى العظيم ٠

١٠ ـ أسوار القاهرة :

بعد أن ضم جوهر الصقلى مصر الى حوزة الفاطميين ، انشأ مدينة جديدة شمال القطائع وضع أساسها ليلة ١٧ شـــعبان سنة ٣٥٨ هـ وأطلق عليها اســـم « المنصورية » تقربا من الخليفة المعز لدين الله الفاطمى باحياء ذكر والده المنصور ٠ وظلت تعرف بذلك الاسم حتى قدوم المعـز الى المصر بعد أربع سنوات فســـماها « القاهرة » ٠ وقيل أنها سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها وحـــاول الخروج على أميرها ٠ يرجى أن تنظر الصور والرسومات أشكال من ١٩٩ الى ٢٠٤ ص ١٨١، ١٨٢ ، ١٨٣ ٠

واستمرت القاهرة حينا بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية ، فلم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوها وهى مدينة ملكية الا بعد أن يؤذن لهم ٠ وكان مفوضـــوا الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويسيرون نحو القصر بين صفين من الجنود ٠ ولكن سرعان ما اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموا سريعا ملحوظا وتبوأت مكانتها المرموقة فى ظل الخلفاء الفاطميين ، واتصلت مبانيها بمبانى مدينة الفسطاط ، وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الاسلامية فى العصور الوسطى ٠

وأهم المبانى المدنية التى خلفها الطراز الفاطمى هى أسوار القاهرة والمعروف أن جيش جوهر القائد عسكر بعد دخوله الفسطاط عام ٩٦٩ م فى الســهل الرملى الواقع شمالها الذى يحده من الشرق تلال المقطم ومن الغرب القناة أو الخليج الذى

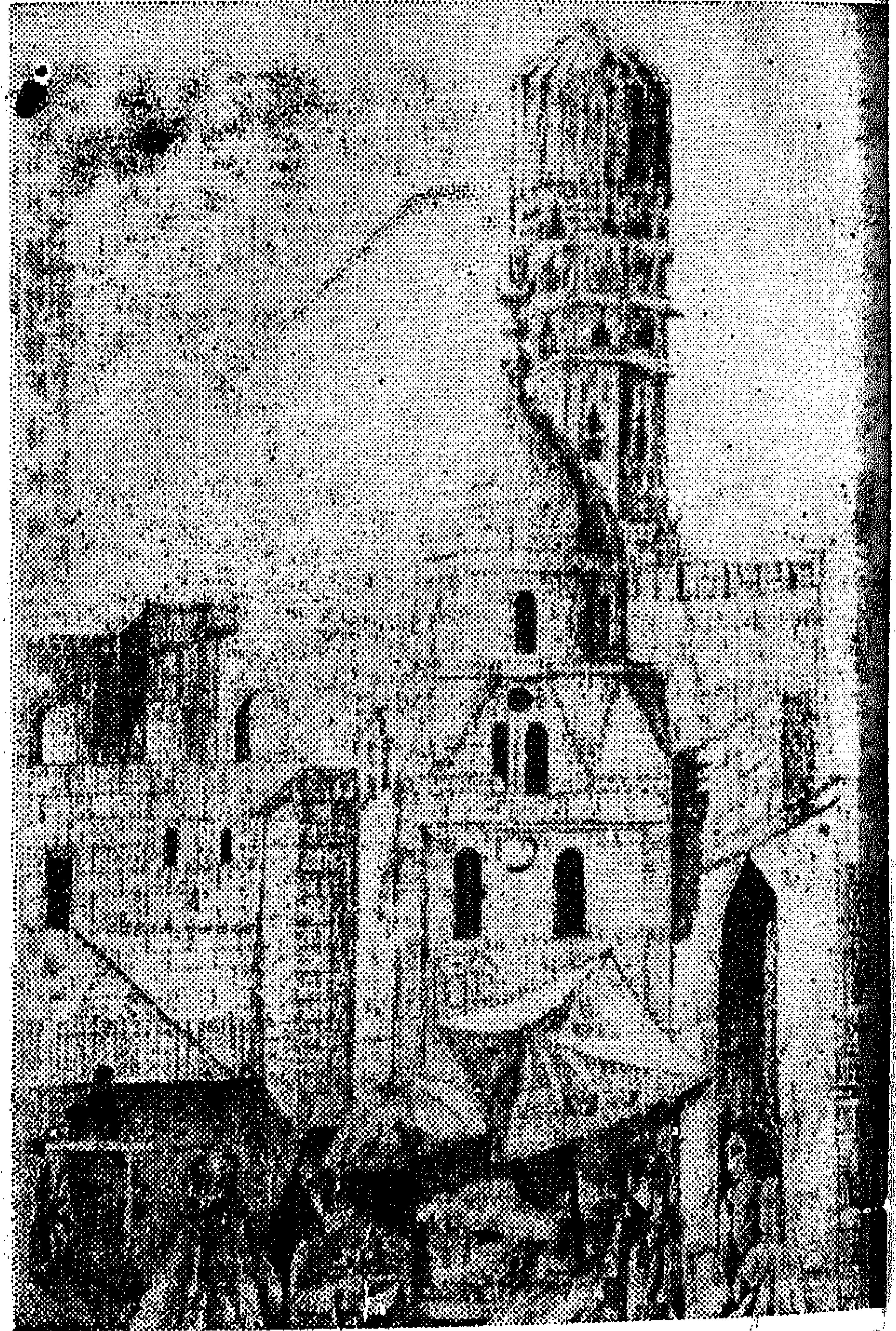
جامع الحاكم : ٣٨٠ هـ ـ ٩٩٠ م

بدء فى بناء جامع الحاكم فى عهد العزيز بالله ٩٩٠ م ، ثم فى عهد الحاكم بأمر الله، وكان فى بادى الامر خارج باب الفتوح الاول ، ولما نقل بدر الدين الجمالى سور القاهرة الى الشمال أحاط السور الجديد بحائط المسجد وأصبح فى داخل المدينة الجديدة ٠

يتوسط الجامع صحن مكشوف تحيطه أربعة أروقة ترتكز عقودها على دعائم من الطوب كما هو الحال فى جامع ابن طولون ٠ ويقطع رواق رواق القبلة مجاز ، كما يوجد ثلاث قباب برواق القبلة مثل تصميم رواق القبلة الاول فى جامع الازهر ٠ وتوجد فى ركنى الواجهة منارتان والمدخل الرئيسى بارز عن الواجهة وهو أول مثل من هذا النوع أخذ فكرته الفاطميون من شمال أفريقيا عن مسجد المهدية فى تونس ٠ يرجى أن ينظر الشكل رقم ١٩٥ مئذنة جامع الحاكم وجزء من السور الشمالى لمدينة القاهرة ٠

● ان الحجر كمادة أساسية لبنــاء الحوائط استعملت على الاخص لزينة جوامع القــاهرة واعتنى بزخارفها وخاصة فى معالجة المسطحات وصنع العرايس٠ فنلاحظ مثلا تلك الوردة البديعة المحفورة المفرغة فى جامع الاقمر ، ترينا مدى التفوق الفنى على ما كان عليه فى مدينة القاهرة، كما تظهر نفس الروح أيضا فى الزخارف المصنوعة من الجبس داخل الابنية فى الافارين وفى المسطحات والمحاريب وحواشى القباب والنوافذ وغيرها ، ومساهمة الزخارف الكتابية على الاخص٠ وهى التى تظهر فى كل مكان بالخط الكوفى المنمق المتشابك فوق أرضية رقيقة من الارابسك ٠

ومن الامثلة التى تدل على هذا الامتزاج تلك الاشرطة من الجبس التى تزين العقود فى جامع الصالح طلائع على سبيل المثال ، والتى تشبه أمثالها فى جامع بن طولون ، عبارة عن أشرطة من كتابات زخرفية فوق قاعدة مورقة لا يمكن انكار أصلها القرطبى ٠ أما حائط المحـــراب فيزخرف بطبيعة الحال بالزخارف التى تتجلى فيها الزخرفة أوفر ماتكون ،كمحراب السيدة نفسية



: مساقط أفقية وقطاع لمنارة جامع الحاكم بالقاهرة ٠

١٩٥ : منارة جامع الحاكم وجزء من الســـور الشمالى لمدينة القاهرة ٠

: المسقط الافقى لجامع الحاكم موضحا به سور بدر الدين الجمالى وباب الفتوح وباب النصر

جامع الأقمر : ٩١٥ هـ ـ ١١٢٥ م

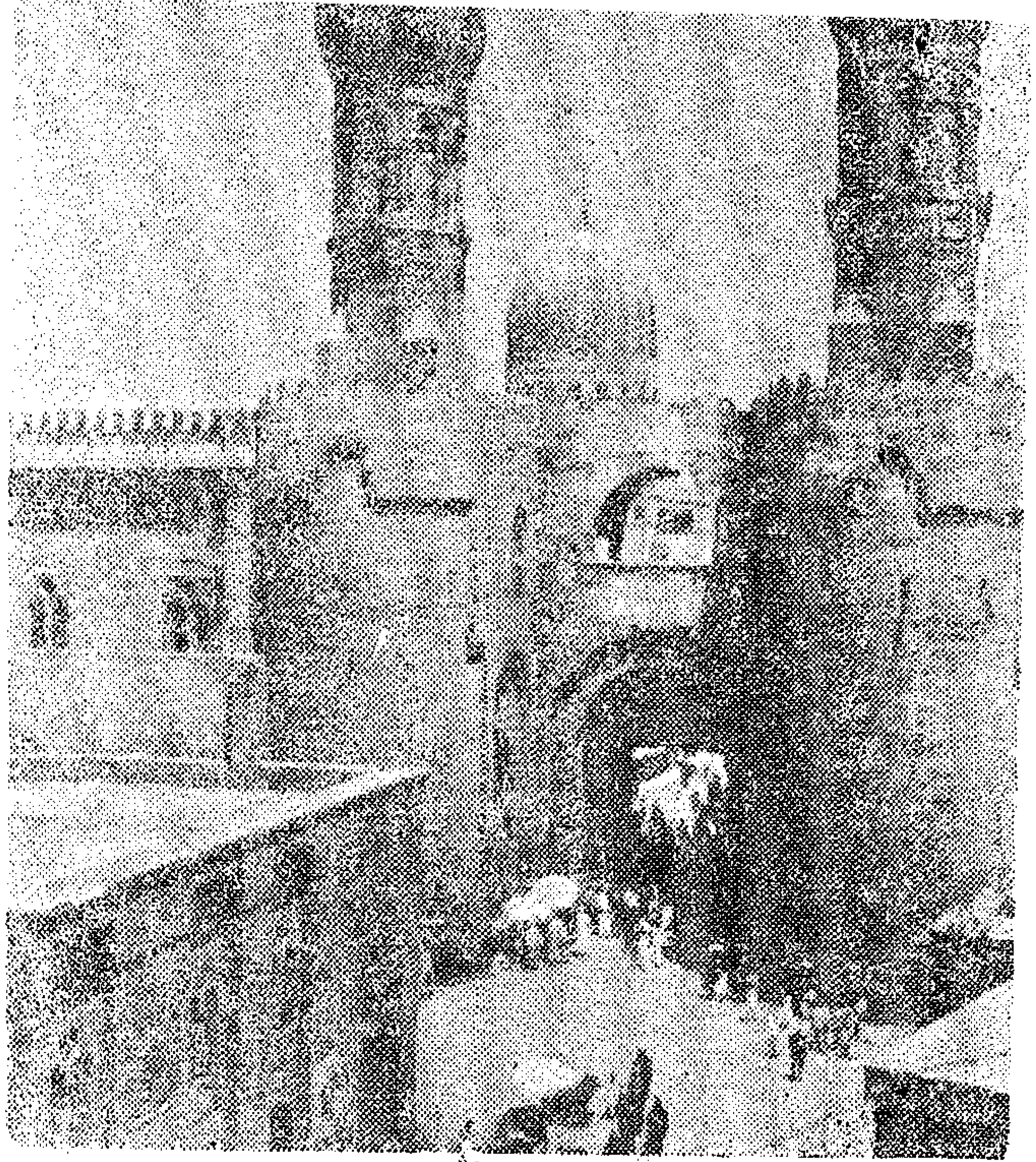
يقع هذا الجامع بشارع المعز لدين الله ـ النحاسين سابقا ـ أنشأه الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على المنصور ـ ويعتبر جامع الاقمر من أجمل المساجد الفاطمية حيث يمتاز بزخرفة واجهته كما أن الوجهة منحرفة بالنسبة لاتجاهات واجهات الصـــحن مثلها فى ذلك واجهة السلطان حسن ،ويشاهد فى واجهة الجامع أول استقبال للمقرنصات كعنصر من عناصر الزخرفة الاسلامية٠

وبالمسجد صحن تحيط به أربعة أروقة مكونة من قباب منخفضة محمولة على مثلثات كروية ، وتظهر هنا حلقة جديدة فى كيفية تغطية الازوقة فى مساجد مصر ، كما يظهر التأثير البيزنطى واضحا فى طريقة انشاء القبة ٠

● أسوار القاهرة

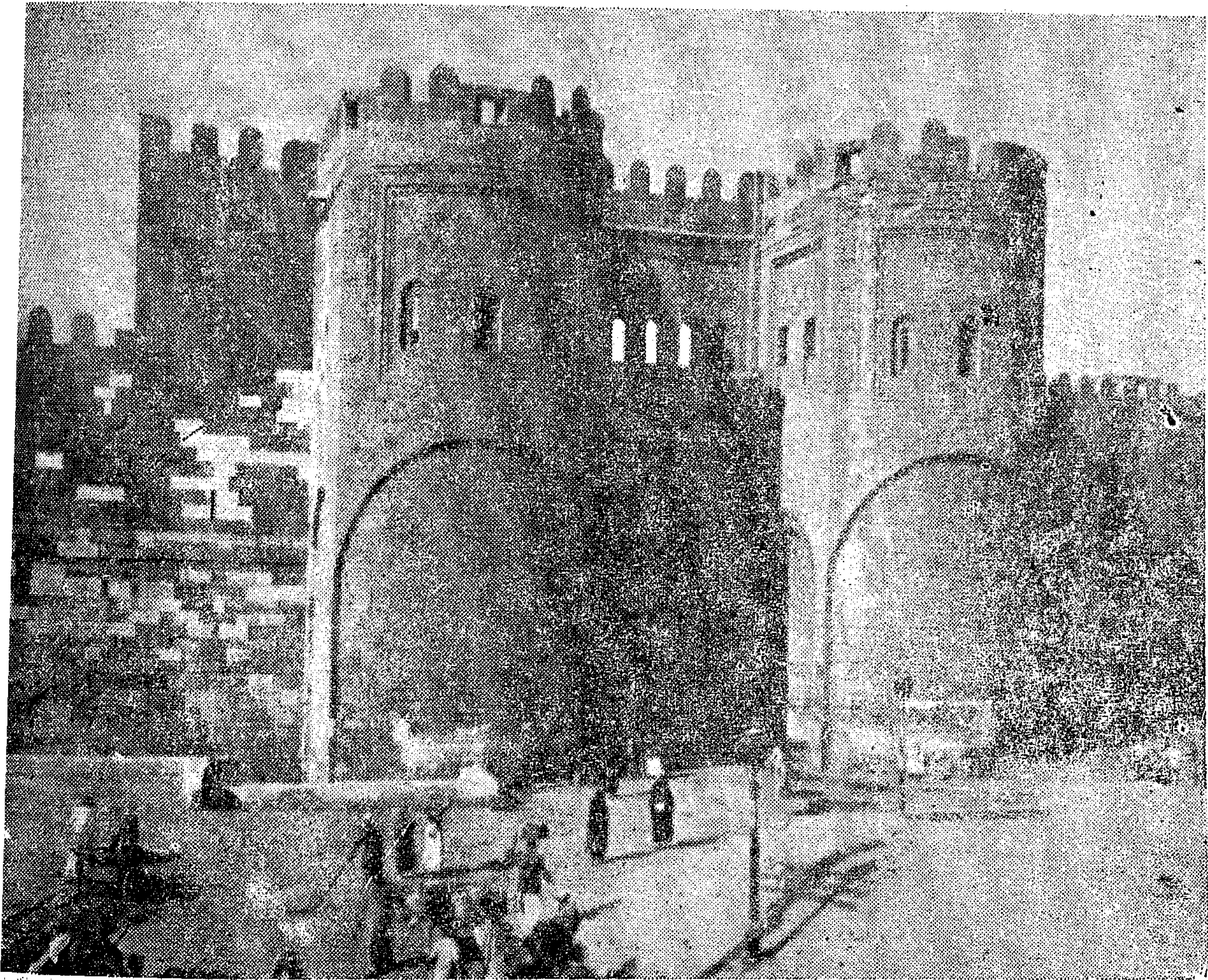
فى عصر الفاطميين أنشئت مدينة القاهرة ، وشيدت الاسوار الحربية للدفاع عنها ويكتنفهـا أبراج للدفاع وبوابات ضخمة ، منها باب النصر وباب زويلة وباب الفتوح . وفى عهد الفاطميين بنى الجامع الازهر وعدة مساجد أخرى كجامع الحاكم والأقمر والصالح طلائع .

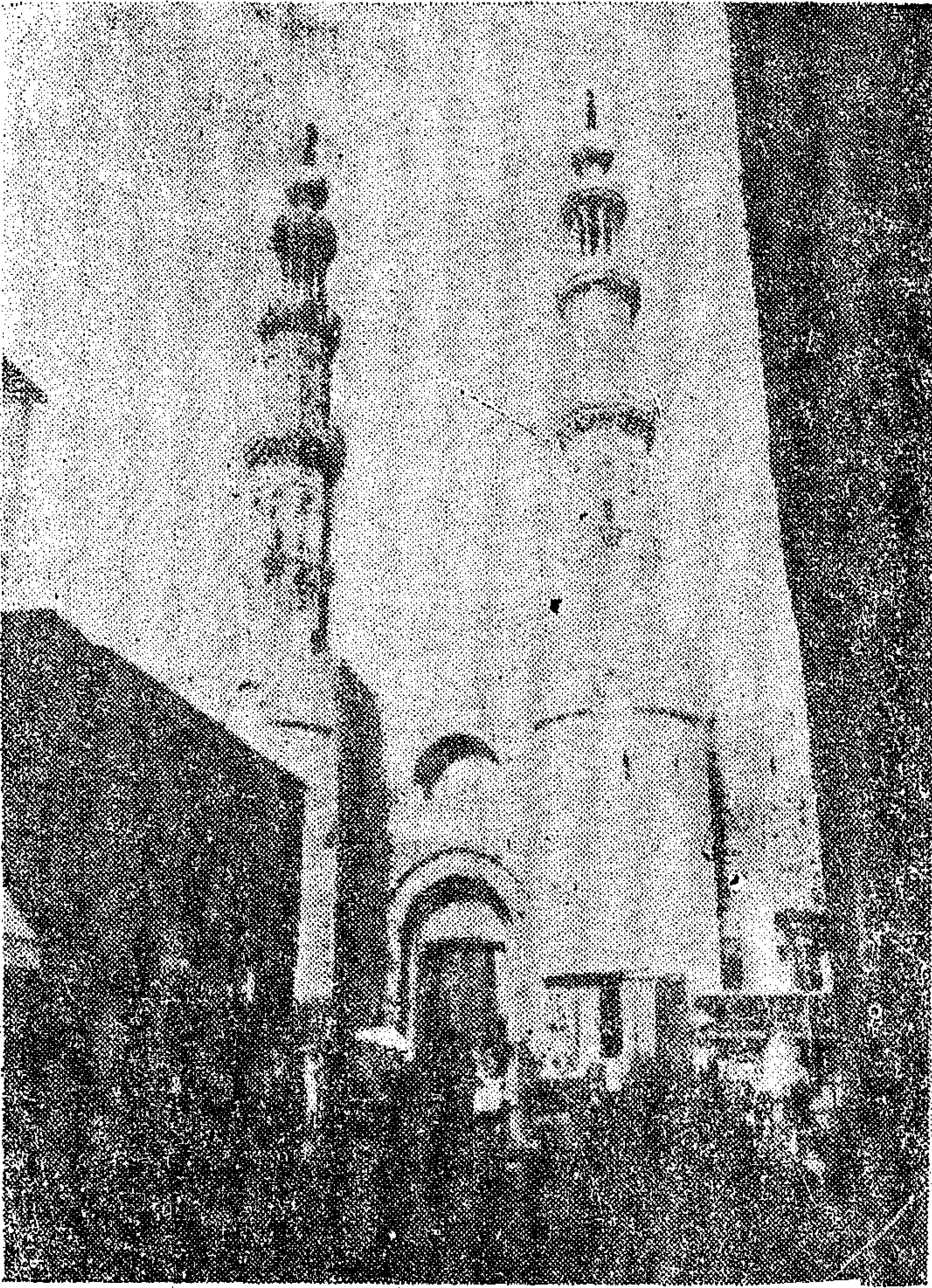
والصورة ١٩٩ ـ باب الفتوح ، والصورة ٢٠٠ ـ باب النصر وباب الفتـــوح وباب زويلة ـ والصـــورة ٢٠١ ـ المسقط الافقى للبوابات الثلاثة .



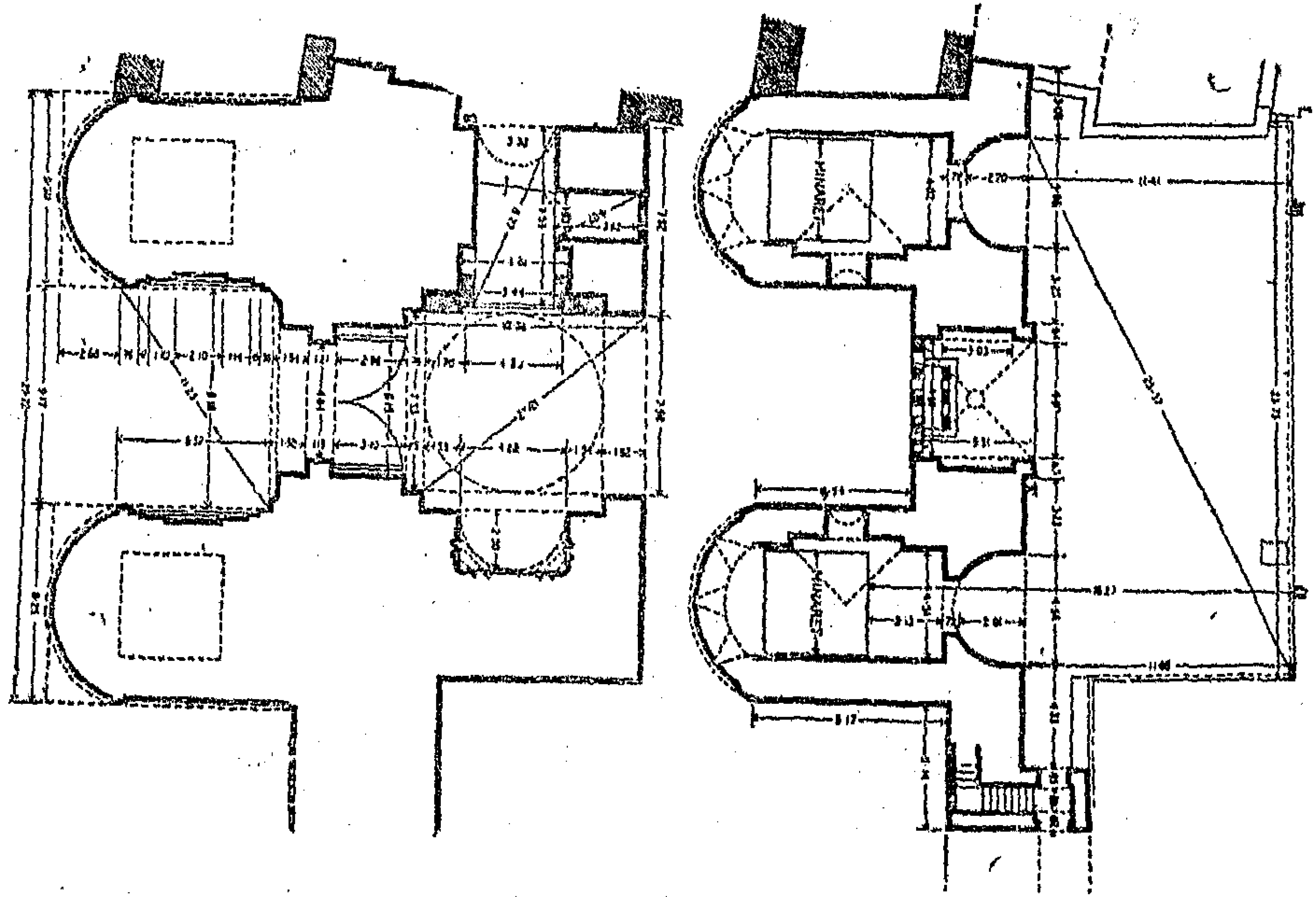
١٩٩

٢٠٠

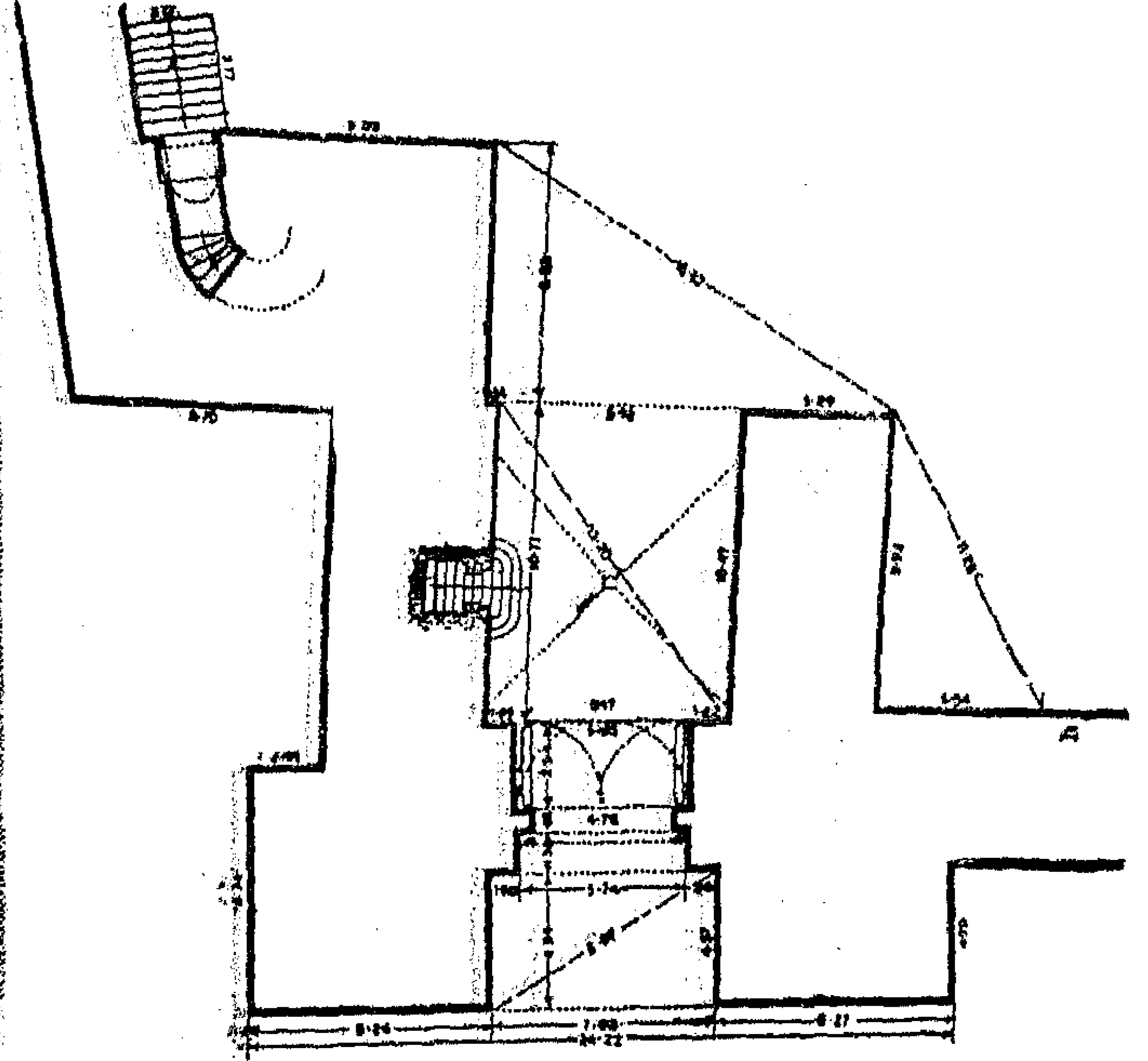




٢٠١ يسار : باب زويلة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م
٢٠٢ أسفل : المسقط الافقى للطابق الارضى والاول ٠







لوحة ١٩١ – باب النصر – المسقط (CRESWELL) ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م

٢٠٤

٢٠٣

ـ المسقط الافقى ـ باب النصر ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م

بالأساليب الفنية البيزنطية ٠ وكان استيلاء صلاح الدين الأيوبى على مقاليد الحكم فى مصر فاتحة عصر جديد فى تاريخهـــا ازدهر فيه عنصران من عناصر العمارة الاسلامية ٠

الأول : المدارس التى شيدت فى عصره لنشر المذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى ٠

الثانى : تطور بناء الأسوار والاســتحكامات وكان صــلاح الدين يخشى الشيعة الفاطمية فى مصر وفكر فى أن يتخذ لنفسه ولأسرته معقلا ، وأمر عام ١١٧٦م ببناء سور يحيط بالقاهرة وبتشييد قلعة الجبل ٠

وجدير بالذكر بمناسبة مرور ألف عام على انشاء مدينة القاهرة وجعلها عاصمة للبلاد أن نذكر أن أول عاصمة مصرية كانت منف (البدرشين حاليا) منذ أكثر من ٥٠٠٠ عام ، ثم تغير مكانها فصعدت جنوبا الى اهناسيا (بنى سويف حاليا) ومنها صعدت مرة أخرى الى طيبة (الأقصر) لتصبح عاصمة مصر والامبراطورية ، ثم عادت شمالا الى الاسكندرية ومنها جنوبا الى بعض من عاصمتنا الحالية ٠٠٠ مصر القديمة (بابليون) حيث دخل عمر بن العاص مصر وأنشأ عندها أول عاصمة لمصر العربية : الفسطاط عام ٦٤١ م ٠ وبعده أقام صالح بن على بالقرب منها عاصمته : العسكر ، ثم جاء من بعده أحمد بن طولون ليقيم : القطائع ٠٠٠ قبل أن يحضر جوهر الصقلى لينشىء عاصمته ويؤسس القاهرة « القاهرة » الفاطمية فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ ٦ يونيو ٩٦٨ م ويتم بناء سورها عام ٩٦٩ م ـ ٣٥٩ هـ ٠

العمارة الاسلامية فى العصر الايوبى : ٣/٤
٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ
١١٧١ ـ ١٢٥٠ م

الآثار الايوبية الباقية بمصر قليلة ومخربة ولكنها مع قلتها اشـــتملت على تفاصيل معمارية هامة تعتبر أساسا نسج على منوالها فى كثيـــر من الآثار التى أعقبتها ٠ وكانت باكورة لتطور كثير من التفاصيل المعمارية التى دقت وتهيت فى كثير من الفنون الفرعية ٠ وفيها ظهرت بمصر المدرســـة ذات التخطيط المتعامد plan cruiforme ثم شاعت بعدها فى دولتى المماليك كما أنهـــا امتازت بالعمائر الحربية و سيما القلاع والأسوار ٠

وفيها ظهر على العمائر والطرف الخط النسخى واتخذ أساسا للنصـــوص التاريخية واستعمل الخط الكوفى بجانبه للايات القرآنية ٠

ومن مميزاتها تطور المنارة وظهور طرز مخصوص للقبة وتعدد حطات المقرنص وبناء الايوان مفردا فوق القبور بدل القباب ٠ وفيها كان ظهور الخـــوانق لاقامة الصوفية ٠

وفى هذا العصر انصرف الفنانون عن رسوم الانسان ٠ والحيوانات وأبدعوا فى الزخارف النباتية والهندسية ٠ وقد أفلحوا فى هذا الميدان حتى أصبحت العناصر الزخرفية التى أبتدعوها طابعا لفنونهم ٠

● **صلاح الدين يوسف بن أيوب :**

انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر زهاء قرنين وخلفت وراءها ثروة فنية ٠ ولكن أكثر خلفائها لم يكن لهم من الخلافة الا اسمها ٠ ولم يأت النصف الأول من القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى الا وأصبح الأمر والنهى فى أيدى وزرائهم الأقوياء فاستطاع أحدهم أن يخلع الخليفة وأن يقضى على بقية الفاطميين عاملا جهده لاحياء المذهب السنى وذلك فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ذلك هو صلاح الدين يوسف بن أيوب خصم الصليبيين وقاهرهم الذى أخذ على عاتقه هو وأفراد أسرته أن يقف للفرنج بالمرصاد وأن يكون حجر عثرة فى سبيل الصليبيين ٠ ولكن هذه الأسرة تطرق اليها الضعف بسبب تقسيم دولها بين خلفاء صلاح الدين لأن

الذين كانوا يحكمون منهم فى سوريا لم يقبلوا فى سهولة وهدوء أن يخضعوا للنفوذ الفرعى الذى بقى بمصر من الأسرة ٠

وقد ظلت مصر خاضعة للايوبيين نحو ثمانين عاما ازدهرت فيها العمـــارة والفنون الاسلامية ولكن نأسف لفقدان أكثرها بمصر ووجود عـــدد قليل من تلك الآثار ٠ ولكنها مع قلتها أعطتنا فكرة صريحة عن مقدار ازدهار الفنون فى هذه الدولة وكان من أهم أغراض صلاح الدين القضاء على مملكة اللاتين الصليبيين فى الشام وعلى المذهب الشيعى ولذلك بذل كل مجهده فى أبطال مذهب الشيعة بديار مصر وأقام بها مذهب الامام الشافعى ومذهب الامام مالك فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بديار مصر وأول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع المذكور ثم أنشأ المدرسة السيوفية التى بالقاهرة وحل محلها الآن جامع المطهر ثم المدرسة الصلاحية وحل محلها مسجد الشـــافعى ٠

ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين ملوك أسرته وأمرائها فى بناء المســـاجد والمدارس بالقاهرة ومصر وغيرها من أعمال مصر والشام والجزيرة فانشأوا كثيرا منها ٠ ولكن الغريب الذى لم أوفق لتعليله أنه رغم عناية ملوك الدولة الايوبيـــة وأمراؤها بمصر ومباراتهم فى أنشاء المساجد والمدارس وأنشائهم الكثير منها قد اندثرت ولم يبق منها الا النذر اليسير ، ولما كان صلاح الدين رجل حرب يميل الى العمارات الحربية فقد كانت باكورة أعماله تحصين مصر والقاهرة وانشائه القلعة ٠

● **قلعة الجبـــل :**

كان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ٠ وفى عهد الدولة الطولونية كان تحتها ميدان أحمد بن طولون ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد الى ان أنشأها الملك الناصر صلاح الدين ٠

السبب فى انشائها :

لما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية بمصر وولى الملك لم يتحول من دار الوزارة بالقاهرة وقسم القصرين الفاطميين على أمرائه وأنزلهم فيهما ٠ غير أنه كان يخشى غارة شيعة الفاطميين بمصر ومن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ٠ وباستيلاء أخيه على ممالك اليمن ووفاة نور الدين اطمأن من ناحيـــة المنازعات الخارجية ٠

ولكى يأمن الفتن الداخلية من الفاطميين أمر ببناء القلعة لتكون له حصـــنا واختار لها هذا الموقع لارتفاعه عن مصر والقاهرة ولأنه من المواقع الصحية فعهد الى الأمير بهاء الدين قراقوش فى القلعة وبناء سور يجمع القاهرة والفسطاط فابتدأ فى العمل سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) وهدم الاهرامات الصغيرة التى كانت بالجيزة وأخذ أحجارها فى بناء القلعة والسور · وفى أثناء العمل توفى صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ قبل أن يتم البناء ثم أوقف العمل الى ان كمل فى سلطنة السلطان العادل ســنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ومن ذلك الوقت اتخذت دارا للملك وأقام بها الملك الكامل ومن بعده من ملوك مصر حتى عصر المغفور له اسماعيل باشا خديوى مصر فانه اتخذ سراى عابدين العامرة مقرا للملك · ولذلك زيد فى مبانى القلعة تباعا وانشئت بها القصور والمساجد ·

ولم يبق من بناء القلعة الأيوبية سوى بعض الأسوار بابراجها وبعض الأبواب وأهمها باب المدرج ومثبت عليه لوح رخامى نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروســة القاهرة بالعزمة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجى الى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن ايوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمس مائة ·

وقد ادخلت على الأسوار وعلى كثير من الابراج تعديلات وزيادات فى أزمنة مختلفة منذ الدولة الايوبية حتى عصر المغفور له محمد على باشـــا وسنتناولها وسنتناولها بالتفصيل فى البحث الذى سنفرده عن التحصينات الحربية بمصر ·

وفى هذه الأسوار نلمس عظمة الحصون المنيعة بأبراجها النصف مستديرة والمربعة كما نلمس فيها التأثيرات السورية ·

● **مدارس صلاح الدين :**

عمل صلاح الدين جهده فى القضاء على مذهب الشيعة وانعاش مذاهب السنة بمصر وانشاء المدارس لفقهائها وغير ذلك من الوسائل التى حملت لمذهب الشافعى الحظ الأكبر من عنايته فخص به القضاء لكونه مذهب الدولة · ولم يقتصر صلاح

الدين على نشر مذهب الامام الشافعى حتى عنى بقبره فجدده وفى ذلك يقول السبكى المؤرخ فى حوادث سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) عن صلاح الدين أنه لما عاد من الاسكندرية أمر ببناء تربة الشافعى والمدرسة الصلاحية بجوارها • وقد تخلف من عمارته بقبة الشافعى تابوت فاخر من الخشب مستطيل غطاؤه هرمى حافل بالنقوش والكتابات الكوفية والنسخية وجميع وجوه هذا التابوت مكونة من أطباق عربية كبيرة منقوشة بزخارف نباتية دقيقة من غصون مفرعة وأوراق مفرقة فى مجاميع متماثلة يتخللها أشكال نجمية ومثلثة • يحيط بهذه الحشوات اطارات محلاة بكتابات كوفية ونسخية بارزة يتخللها فروع زخرفية • وأهم هذه الكتابات النص المشتمل على تاريخ صناعة التابوت واسم الصانع فى نهاية الغطاء الهرمى للتابوت بما نصه :

عمل هذا الضريح المبارك للامام الفقيه أبى عبد الله بن محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ن عبيد بن عبد يزيد بن الهاشم بن المطلب بن عبد مناف رحمة الله • صنعت عبد النجار المعروف بابن معالى عمله فى شهور سنة أربع وسبعين وخمس مائة رحمة الله ورحم من ترحم عليه ودعا له بالرحمة ولجميع من عمل معه من النجارين والنقاشين ولجميع المؤمنين •

وقد رأيت منبر نور الدين محمود بن زنكى بالمسجد الأقصى ممهورا باسم صانعيه على باب المقدم بما نصه • عمل محمد بن ظافر (صنعة سلمان بن معالى) ولا شك أن صانع تابوت الشافعى أسرة (سلمان بن معالى) العريقة فى هذه الصناعة •

وكذلك تخلف من المدرسة الصلاحية التى حل محلها مسجد الشافعى نصا تاريخيا مؤرخا ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) مودع بدار الآثار العربية ـ وقد دفن بقبة الشافعى أيضا من أسرة صلاح الدين ابنه الملك العزيز عثمان وأمه الملكة شمسة • غير أن قبريهما بالقبة غير محدودين •

● مدرسة المشهد الحسينى :

كذلك أنشأ مدرسة بجوار المشهد الحسينى حل محلها المسجد الحالى ولم يتخلف منها شىء وفقط استخرجت من طبقة أسفل القبة تابوتا نفيسا من الخشب فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وهو ان كان خال من النصوص التاريخية الا أنى أرجح جدا أن صلاح الدين عند بنائه هذه المدرسة عمل هذا التابوت كما فعل بقبر الشافعى ولم

يكتب اسمه على كلاهما · يعزز هذا الرأى عندى دقة صناعة التابوت واشتماله على كتابات كوفية ونسخية واتفاق صناعته مع صناعة تابوت الشافعى ·

وهذا التابوت مكون من جنب ورأسين ويبلغ طول الجنب ٨٨ر١ × ٣٣ر١ متر ومقاس كل من الرأسين ٣٣ر١ × ٣٣ر١ متر مما يؤيد أنه كان معدا لوضعه لصق جدار كما وجد ·

وجميع حشواته مجمعة ومزدانة بزخارف نباتية ومورقة دقيقة بها عناقيد عنب داخل اشكال مسدسة · وقد احيطت هذه الحشوات باطارات مكتوب بعضها بالخط الكوفى المزخرف وآخر بالخط النسخ الأيوبى تتخله فروعا زخرفية كما احيطت بعض الحشوات المسدسة المستطيلة بكتابات كوفية منها نصر من الله وفتح قريب · الملك لله · التوفيق بالله· توكلت على الله ·

وقد روعى فى اختيار الآيات القرآنية ما يناسب تابوتا أعد لجثمان طاهر من فرع الدوحة المحمدية فيقرأ عليه مما هو مكتوب بالخط الكوفى الجميل (بسم الله الرحمن الرحيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد) الآية ·

وقد تفنن الصانع فلم يصنع حشوة تماثل أخرى ولعمرى انها لعبقرية وتفوق، وهاتان الطرفتان الغاليتان تابوت الشافعى وتابوت المشهد الحسينى يعتبران مثلا كاملا لازدهار صناعة النجارة ودقتها فى مبدأ العصر الأيوبى · وفيهما نرى مدى التأثير الواقع عليهما من العصر الفاطمى · فقد دقت وتجملت النجارة فى آخــــر العصر الفاطمى كما نراه فى محراب وتابوت السدية رقية ومنبر طلائع بقوص فقد بلغت فيهما الدقة منتهاها ·

● أبراج الظفر :

من أهم الأجزاء فى سور القاهرة الثالث الذى بدأ صلاح الدين فى عمارته (سنة ٥٦٦ هـ ــ ١١٧٠ م) وهو وزيرا للعاضد لدين الله الفاطمى فلما كانت (سنة ٥٦٩ هـ ــ ١١٧٣ م) وقد استولى على المملكة عهد الى بهاء الــــدين قراقوش فى تكملته وأن يجعل السور يحيط بالقاهرة ومصر فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن فزاد فى سور القاهرة القطعة من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر ، وزاد فى سور القاهرة أيضا قطعة مما يلى باب النصر امتدت الى القرب من القلعة ولم يتم بناء السور لوفاته ، وبرج الظفر هــــذا واقع فى الزاوية

الشرقية البحرية لباب النصر ويمتد منه سور الى باب النصر والقسم القبلى منه يمتد الى باب الوزير وبه عدة أبراج نصف دائرية ما بين صغيرة وكبيرة وأبواب مطمورة كان يصلها ببعضها ممرات فى سمك السور · والبرج المذكور تعلوه قبة من الحجر وله سلم بالجدار القبلى ومقسم من داخله الى ثمان أضلاع باركانها مقرنص من حطة واحدة وزخارف حجرية وبه سلم يوصل الى اعلى البرج المشتمل على ممرات معقودة تحيط به · ويجاور هذا البرج من قبلى باب يوصل الى خارج السور كتب على عقده بالخط الكوفى بسملة وآية الكرسى الى قوله تعالى : لا تأخذه سنة ولا نوم ، وعقد الممر الذى يغطى هذا السلم حافل بالزخارف الجميلة يحف به من جانبيه افرايز به ترابيع وصرر مدقوقة أويمة مقتبسة من مسجد الصالح طلائع الفاطمى ·

● سور الفسطاط :

أنشأة صلاح الدين لأنه أراد أن يجمع بين القلعة والطرف الجنوبى للفسطاط ولم يتم له ذلك وفاته ، ومنه الآن بقايا مبنية بالأحجار الجيدة النحت من مداميك منظمة محدبة الوسط بقجة ومحاطة باطار وهى من مميزات أبنية صلاح الدين ·

● مسجد اللمطى :

ومن المساجد الأيوبية المحتفظة بكثير من تفاصيلها مسجد اللمطى بالمنيا المنشأة سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) فهذا المسجد متأثر الى حد كبير بالعمارة الفاطمية فالتخطيط تخطيط المسجد الجامع أربعة ايوانات حول صحن مكشوف وعقوده أقرب الى العقود الفاطمية وطبالى منقوشة مثل ما هو موجود فى مسجد الصالح طلائع · غير أن ما يسترعى النظر بالجامع كسوة جانبى الباب البحـــــرى بقطعتين كبيرتين من الجرانيت وكذلك العتب المنقوش المرجح انه كان مركبا على احدى فتحـــات بناية رومانية ثم نقل الى الباب المذكور ووضع فوق فتحته بعد اعداده بما يناسب سعتها·

وهنا نقدم لقراء « العمارة » زميلا قديما لهم نفذ عمارة هذا المسجد ونقش اسمه على هذا الباب بما نصه :

« هذا المسجد المبارك صنعه مرتفع بن مجلى بن سلطان المصرى رحم الله من قرأ فدعا له ولوالديه بالرحمة » ·

● قبة الامام الشافعى :

من القباب الكبيرة الحافلة بشتى الفنون انشأها السلطان الملك الكامل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) لما دفن امه هناك قبل أن يلى السلطنة واثبت تاريخ هذا البناء فى نص تاريخى نقش على عتب خشبى أعلى الشباك البحرى نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الكامل محمد بن مولانا السلطان الملك العادل ابى بكر بن ايوب خليل أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك فى يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الآولى من سـنة ثمان وستمائة ٠٠٠ الله ٠٠٠

وكذلك على بابين احدهما باق بالقبة والآخر بالامام الليث ٠ ولا شك أنها من أجل وأجمل القباب بمصر فكما تفنن المهندس فى زخرفتها ونقوشها كذلك بذل قصارى جهده فى تخفيف كتلة البناء الضخمة التى سيحملها مربع القبة فعمد الى التخفيف بايجاد الممرات بين جدرانها مما يساعد على الوصول الى الشبابيك لاصـلاحها ونظافتها ٠ ويلاحظ أن مربع الحطة الأولى للقاعدة انتهى من الخارج بشرفة منقوشة ذات شكل غريب ثم قامت فوقه حطة ثانية ارتدت عنها نحو ٦٠ر٠ سنتى حلى وجهها بزخارف جصية على هيئة محاريب محاريه حفلت خواصرها والقوائم بينها بنقوش وكتابات كوفية ونسخية ويعلوها افريز مفرغ ثم شرفة مسننة منقوشة تعتبر أولى الشرفات المسننة ٠ وكذلك فرغ ما بين جدران هذه الحطة وأوجد سلالم فى زواياها الأربع توصل الى سطحها الذى يعادل ظهر المقرنص ٠ وعلى سطح هذه الحطة قامت القبة الخشبية المكسوة بصفائح الرصاص وهى أولى القباب الخشبية بمصر تلتها قبة الظاهر بيبرس بجامعه بالظاهر ٠

أما داخل القبة فقد كسيت جدرانها بالرخام الذى يرجع الى تجديد السلطان قايتباى فى القرن الخامس عشر والسلطان الغورى فى أول القرن السادس عشر الميلادى ٠ وبجدارها الشرقى ثلاثة محاريب طواقيها خشبية أكبرها أوسـطها ثم محراب رابع أحدث لتصويب القبلة ٠

ويحيط بالمربع أعلى الوزرة افريز خشبى منقوش بزخارف بارزة كما يحيط بها افريز آخر خشبى أسفل رجل المقرنص مكتوب به آيات قرآنية بالخـط الكوفى وتفرعت منه قوائم خشبية لتعليق سلاسل الاضاءة كتبت ونقشت ثم المقرنص من ٣ حطات مخوصة مزخرفة وهو مبدأ لتطور تعدد طاقات المقرنص التى كانت من حطتين فى نهاية العصر الفاطمى ٠

وجدران القبة منقوشة ومكتوبة جدد نقوشها علي بك الكبير سنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢ م) كما جدد ما بلى من أخشاب القبة وكسوتها الرصاصية وحافظ على الكتابة الكوفية الأندلسية المحيطة بجدران القبة وهى أولى نماذج هذا النوع من الكتابة بمصر ٠

ويوجد بهذه القبة تابوت آخر لا يقل أهمية من تابوت الامام الشافعى حليت أجنابه الأربع بحشوات دقت بالأويمة ذات الفروع النباتية تتوسطها حشوات نجمية اثنى عشرية بداخلها أخرى مسدسة ملئت بفروع زخرفية آية فى الدقة والجمال وقد قسم الى ثلاث مناطق الوسطى ارتفاعها أربعة أمثال كل من العليا والسفلى ٠ وقد فقدت الكتابة الكوفية المربعة التى كانت بالمنطقة العليـــا ولم يبق منها ســـوى جزء بسيط ٠

أما المنطقة السفلى فهى مكونة من حشوات كبيرة مربعة ومســتطيلة محلاة بزخارف يفصل بعضها عن بعض قوائم كتب بها وبالقوائم المحيطة بالتابوت بالخط النسخى المزخرف ما مضمونه ٠ أن هذا قبر الشهيدة والدة محمد ولد السلطان الملك العادل المتوفاة يوم الأحد ٢٥ صفر سنة ٦٠٨ هـ ٠

ومحفوظ بدار الآثار العربية باب من مصراعين بهما زخارف نحاســية مخرمة على هيئة نجمة ثمانية الزوايا كان موجودا بالقبة ويعتبـــر ثانى باب نحاسى فى الآثار العربية بمصر ٠

● **تربة ابن ثعلب :**

هذه التربة فيما بين الامامين الشافعى والليث ٠ انشأها الشريف السيد الأمير فخر الدين أبو منصور اسماعيل بن ثعلب فى رجب سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) وتتكون من باب وايوان احدثت بينهما ابنية حديثة والباب مبنى بالحجر له عتب مزرر احيط بترابيع دقت بها كتابات كوفية وزخارف منوعة وهى بلا شك مقتبسة من مثيلاتها فى واجهة جامع الصالح الطلائع الفاطمى ٠ وقد اقيم فوق القبر ايوانا كبيرا مبنيا بالطوب بصدره محراب من الجص طاقيته مخوصة وافريز ه الخارجى مقرنص يبدو فيه بوضوح التأثير الفاطمى فهو مقتبس من محاريب مشـــهد يحيى الشبيه المبنى فى نهاية العصر الفاطمى ٠ ويتوسط الايوان تربة كانت قاعدتها مكسوة بالرخام ومنتهية من أعلى بافريز خشبى مكتوب ومنقوش مودع بدار الآثار العربية ٠

وظهور الايوان مفردا فوق التربة بدأ بمصر فى الدولة الايوبية وهـــذا أول نموذج له ٠

● **المدرسة الكاملية :**

أول مدرسة خصصت لدراسة الحديث الشريف بمصر انشأها الملك الكامل محمد بن الملك العادل سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) ٠ وقد تخربت هذه المدرسة ولم يبق بها سوى بقايا الايوان الغربى ٠ وقد نقل منها الى دار الآثار العربية بقايا زخارف جصية بها كتابات كوفية عليها مسحة الزخارف الأندلسية تعطى فكرة عما كانت عليه هذه المدرسة من زخرف وجمال ، غير ان الذى يهمنا الان من هذه المدرسة انها أقدم نموذج لتخطيط المدرسة المتعامد الذى نسج على منواله فى انشاء المدارس فيما بعد ٠

● **منارة المشهد الحسينى :**

من الاصلاحات التى ادخلت على المشهد الحسينى فى الدولة الايوبية تجديد المنارة أعلى باب المشهد المعروف بالباب الأخضر أوصى بانشائها الحاج أبو القاسم بن يحيى السكرى المعروف بالزرزور ونفذ بناءها ابنه فانتهت فى شوال سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) كما هو مثبوت فى لوحتين تاريخيتين عليها ٠ ولم يبق منها سوى باقيا شرفة جميلة وقاعدتها المربعة المحلى وجهها فى ثلاث مستطيلات بزخارف جصية دقيقة ذات فروع نباتية أوراقها مشرشرة وكتابات نسخية وكوفية عليها مســـحة الزخارف الأندلسية بلغت حد الدقة والاتقان وهى بلا شك انموذج صادق لما بلغته الزخارف الجصية أيضا فى هذه الدولة من روعة وبهاء ٠

المدرسة الصالحية ـبشارع النحاسين :

انشأها الملك الصالح نجم الدين ايوب على رقعة من أرض القصر الكبير فى محل باب القصر المعروف بباب الزهومة لا تقل مساحتها عن ستة آلاف متر وفرغ من بنائها سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) واعدها لتدريس المذاهب الأربعة ٠ وكانت هـــذه المدرسة مكونة من بنائين احدهما قبلى والآخر بحرى يتوسطهما الباب العمومى تعلوه المنارة وكان كل من البنائين يشتمل على ايوانين كبيرين شرقى وغربى بينما الجانبين البحرى والقبلى كل منهما مكون من عمد تحمل عقودا المرجح انها كانت تحمل فوقها حجرات للطلبة ٠

وقد تخربت ايوانات المدرسة القبلية كما هدمت المنارة الثانية للمدرسة عام ١٨٨٢ م ولم يبق بالمدرسة البحرية سوى الايوان الغربى وهو عقد كبير مبنى بالطوب أما الايوان الشرقى فقد تهدم ومنه بقايا وبين الايوانين بقايا عمد وعقود .

والقسم الهام المحتفظ بتفاصيله الواجهة الغربية البالغ طولها حوالى ١٠٠ متر وفى هذه الواجهة نرى تطورا جديدا فى الوجهات فاقتبس للمدخل كثير من مدخل الجامع الأقمر ومن الصالح طلائع الفاطميين ·

وقد بذل المهندس جهده فى تجميل هذا المدخل فقد حلى العتب بمزررات حبست بافريز مسنن مزخرف يعلوه عتب آخر حليت صنجه بدوائر مزخـــرفة يكتنفه من الجانبين صفتين يعلوهما اخريتين وفوق ذلك سطر مكتوب به القاب السلطان ثم آخر حافته مقرنصة من خمس حطات يتوسطه مستطيل كتب فيه تاريخ الانشاء ويعلو الباب منارة قاعدتها مربعة حتى الدورة الأولى فوقها مثمن حليت اضلاعه بطاقات مخوصة يعلوها دورى طاقات على هيئة شرفات ثم ترس مسنن فطاقية مضلعة وهى أقـــدم نموذج كامل لمنارة أيوبية وقد نقل الباب الخشبى الى دار الآثار العربية وما زالت معبرته الخشبية موجودة وهى من خشب مكونة من قصع تعتبر ثانى نموذج اذ الأول فى الشباك الغربى لقبة الشافعى ·

وعلى جانبى المدخل فتحت الشبابيك فى أسفل الجدران لأول مرة بعد ان كانت تتفح فى اعلاها · نعم توجد شبابيك أسفل واجهة الصالح طلائع ولكنها تؤدى الى حجرتين ·ويسترعى النظر فى هذه الشبابيك على كثرتها تنوع مزرراتها وزخارف عقودها بحيث اشتملت على مجموعة قيمة لم تتوفر فى مسجد آخر · ومع عناية المهندس بزخرفة المدخل واسرافه فى نقش اعتاب الشبابيك فانه اهمل غطاءها من أعلى وجعلها تنتهى بشطف بسيط لا تناسب بينه وبين ما تحته · وتنتهى الواجهة بشرفة صغيرة غريبة الشكل ووحيدة ·

● قبة الصالح نجم الدين :

هذه القبة ملاصقة للايوان الغربى للمدرسة الصالحية وكان موضعها قاعة شيخ المالكية تجاه مدرسة المنصور قلاوون امرت بانشائها ملكة مصر شجر الدر ونقلت اليها جثة سيدها الملك الصالح نجم الدين من قلعة الروضة فى يوم ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٥٣ م) ·

وهذه القبة خارجة عن سمت واجهة المدرسة الصالحية وتتكون واجهتها من

الباب يجاوره ثلاث شبابيك أكبرها الأوسط مغطاة بعقد فارسى تتوسطه سرة يعلوها افريز مزخرف محمول على كوابيل صغيرة يعلو ذلك شرفة مسننة تعتبر الثانية فى الآثار العربية وعتب الباب العمومى مزرر بالرخام على هيئة شرفات ونأسف كل الأسف لهدم ما كان يعلوه لأن بقاياه البسيطة تدل على انه كان مشحونا بالزخارف والكتابات الكوفية ٠

وللقبة باب خشبى روعيت فيه البساطة مع الجمال وكذا الحال فى نجـــارة مصاريع الأبواب والشبابيك والدواليب بداخلها ٠ ويتوسط القبة تابوت خشبى كتب باطاره آيات من القرآن تتخللها فروع زخرفية وباقية من حشوات صغيرة دقت بها زخارف تنوعت اشكالها ٠

ومبانى القبة من الداخل والخارج تسودها البساطة وأهميتهـــا تنحصر فى تطور المقرنص فيها وزيادة حطاته وتغييرها تغييرا كليا عن القبة الفاطمية من جميع نواحيها ٠ ويحيط بمربع القبة أعلى الشبابيك طراز من الخشب به بقايا كتابات يقرأ منها بسم الله الرحمن الرحيم ٠ ادخلوها بسلام آمنين ٠٠ الآية ٠٠ سنة سبع واربعين وستمائة ٠

ويغطى فتحات الشبابيك شبابيك من النحاس صبت اجزاؤها وجمعت وهو أول نموذج للشبابيك النحاسية المصبوبة يليه المدرسة الطيبرسية بالأزهر ٠

وبالمحراب فسيفساء مذهبة تدل بقاياها على أنها من النماذج القيمة وهى أقدم قطعة لم تكن معروفة من قبل ، يليها محراب قبة شجرة الدر ثم محراب مدرســـة قلاون وتربة الأشرف خليل ومحراب لاجين المنصورى بالجامع الطولونى فمحراب المدرستين الطيبرسية والاقبغاوية بالجامع الأزهر ثم محراب مسجد حدق ٠ ومن الغريب ان ترى هذه النماذج وجدت بمصر فى فترة مائة عام بدئت بسنة ٦٤٧ هـ وانتهت سنة ٧٤٠ هـ ــ ١٣٤٠ م ٠

وليس معنى هذا أن الفسيفساء لم تستعمل بالآثار العربية بمصر ٠ لا فقـــد علمنا من وصف البشارى من علماء القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ان جامع عمرو كان فى حيطانه فسيفساء وان برجوان خلع كثيرا من هذه الفسيفساء فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ٠ وهى صناعة بيزنطية استعان المسلمون بعمال من الروم لصناعتها فكانوا يستقدمون الى دمشق والقدس والاندلس مع خاماتها لصناعتها ٠ وفى تلك البلدان نماذج ممتعة وخاصة بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة وصحن المسجد

الأموى ومحراب وقبة الجامع الكبير بقرطبة • ثم تعلمها عمال الشام فأنتجوا منها قطعا دون الأولى فى الدقة •

وبعمودى المحراب تاجين وقاعدتين نقوشها عربية من أجمل التيجان والقواعد واندرها والحمد لله فقد تورع المهندس عن نقلها من العمارات السابقة وأوجد لنا تاجا اسلاميا مصريا •

● قبة الخلفاء العباسيين :

هذه القبة خلف المشهد النفيسي وقد ضمت رفاة أفراد من الخلفاء العباسيين الذين وافتهم منيتهم بديار مصر فى القرنين السابع والثامن الهجرى وأولاد الظاهر بيبرس البندقدارى • غير أنه للآن لم تعرف هوية منشئها • وهى على أعظم جانب من الأهمية لما حوته من زخارف جصية بلغت منتهى الدقة ومن كتابات كوفية على الجص والخشب • وهى وان تضاربت الأقوال فى تحديد تاريخها الا انى ارجح الى حد بعيدا انها أيوبية من تفاصيلها المعمارية •

ولما كانت القبة تشتمل على عدة قبور فان أقدمها هو القبر الكبير الذى يضم رفاة ابى نصلة هاشم بن على المرتضى بن الأمير السيد العلوى الحسنى سفير الخلافة المعظمة العباسية المتوفى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) اذن فالقبة انشئت سى هذا التاريخ أو بعده بسنة على الأكثر للاسباب الآتية •

أولا ـ طرز القبة الغريب الذى نسجت على منواله شجرة الدر فى بناء قبتها سنة ٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م واتفاق زخارف العقود الأربع أعلى المحراب والشبابيك مع زخارف قبة شجر الدر وكذلك اتفاق المقرنص فيها •

ثانيا ـ اشتمال الكتابات على نصوص كوفية ونسخية فى الطراز الخشبى بقبر سفير الخلافة • وقد يكون هذا فى أثر غير أيوبى ولكن ثمة قرينة هامة اتفقت فيها هذه التربة مع تربة اسماعيل بن ثعلب المنشأة سـنة ٦١٣ هـ ـ ١٢١٦ م فكلاهما قاعدة التربة كسيت بالرخام وافريزها العلوى بالخشب •

ثالثا ـ الزخارف الجصية الموجودة فى وجه قاعدة القبة من الخارج واتفاق قبة شجر الدر معها وهى فى كلاهما على هيئة شبابيك عقودها محارية ذات عقد منكسر وحولها صرر منها ما هو مستدير والبعض على هيئة معين والزوايا مشطوفة وينتهى الشطف بمقرنص •

وأقدم زخرفة من هذا النوع استعملت فى قواعد القباب وجدتها بسيطة فى قبة فاطمية تعرف بقبة الحصواتى ثم غنية جدا فى قبة الشافعى فهـــذه القبـــة فشجر الدر ٠

كما ان طرز هذه القبة نسج على منواله فى قبة شجر الدر ثم فى قبة معاذ المعروف عنها الى الآن أنها ومنارتها فاطمية ٥٥٢ هـ ــ ١١٥٧ م ولكنى ممن لا يميل للاخذ بهذا الرأى واعتبرها أيوبية فقبة الفارس اقطاى التى هدمت ولا خامس له فى قباب مصر ٠

والقبة من الداخل اشتملت على قبور أخرى ٠ ويسترعى النظر فيها دقة وجمال الزخارف الجصية واستطيع الجزم بأنها أدق زخارف جصية رأيتها ٠ ولها مقرنص من حطتين به زخارف بارزة مذهبة يعلوها أفريز كتب فيه بالخط الكوفى الأندلسى آية الكرسى ٠ ونظير هذا الخط فى قبة الشافعى ٠ وباطن القبة محلى بزخارف من نوع زخارف المقرنص مازالت بقاياها موجودة ٠ وعلى العموم فان هذه القبة على جانب عظيم من الأهمية وانها ايوبية بلا شك ٠

● **قبة شجر الدر :**

أعتبر كثير من المؤرخين ان شجرة الدر أولى ملوك دولة المماليك البحرية ولكنى اميل الى متابعة ابن اياس المؤرخ فى أنها خاتمة الدولة الأيوبية خصوصا وانها جارية الصالح نجم الدين وزوجته وأم ولده خليل وانه كان يرجع اليها فى كثير من شئون الدولة كما وانها لعبت دورا هاما فى تاريخ مصر حينما توفى الصالح أثناء محاصرته للفرنسيين وعلى رأسهم لويس التاسع فى دمياط فقد عملت جهدها فى اخفاء موته ولم تشعر أحدا بوفاته الا بعض خواصه حتى كتب الله لهم النصر ٠ ولذلك اختتم بقبتها آثار العصر الأيوبى ٠

هذه القبة بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية امرت بانشائها شجر الدر كى تدفن بها عند وفاتها وبناؤها على طرز قبة الخلفاء العباسيين فهى ذات قاعدة مربعة حليت قاعدتها بزخارف جصية على هيئة شبابيك عقودها محاريه ذات عــقد منكسر وحولها صرر منها ما هو مستدير والبعض على هيئة معين ٠ والزاويا مشطوفة وينتهى الشطف بمقرنص ٠ أما من الداخل فقد حلى أعلى الفتحات الثلاث الباب والشباكين بعقد منكسر بداخله تجاويف محارية تنتهى بمقرنص من حطتين ٠ وتواشيح العقد والقضبان المحارية كلها من الجص المزخرف يحيط بها من الخارج افريز كتب به

آيات من القرآن · وعقد المحراب أيضا من الجص مثل الفتحات أعلى الشبابيك غير ان حطات المقرنص زادت الى ثلاث واستبدلت التجاويف المحـــارية بكســـوة من الفسيفساء المذهبة تعد الثانية من نوعها · يلو ذلك طراز من الخشب يحيط باجناب القبة مكتوب عليه اسم شجر الدر والقابها وقت ان كانت ملكة بما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم عز الستر الرفيع والحجاب المنيع عصمة الدنيا والدين والدة الملك المنصور خليل بن مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى المظفر أيوب بن مولانا الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد بن أبى بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين قدس الله روحه ونور ضريحه التى خطبت الاقلام بمناقبها على منابر الطروس وشهدت لها المفاخر بالمجد الثابت فى أعلى العزبين الورى وأصبحت شموس المملكة بها طالعة وأواء الأمراء لأمرها مطيعة وسامعة وأعز الله انصارها وضاعف اقتدارها وأعلى منارها وجعل النيرين فى العلا الأعلى خدامها · ولم تزل مؤيدة متصورة على مر الليالى والأيام بمحمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين الكرام ·

وهناك طراز آخر من الخشب المحلى بنقوش من الأويمة الدقيقة مكتوب فيه بالخط الكوفى آيات من سورة الفتح يحيط بتجويف المحراب وبالجدران الأربعة · والمقرنص من حطتين حليت طاقاته بزخارف بالبوية · ويتوسط القبة بقايا تابوت من الخشب ·

بقى تحديد وقت انشاء القبة والذى أرجحه أنها انشأتها فى فترة توليتها على مصر سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠) يؤيد ذلك كتابة القابها والدعاء لها بطراز القبة بخط نسخى أيوبى ينطبق على هذا التاريخ ·

هذه خلاصة موجزة لجميع الآثار الأيوبية بمصر وقد لمسنا فيها الدقة والجمال اللذين كانا لهما أكبر أثر فى عمارة دولة المماليك البحرية التى اعقبتها ·

عصر المماليك البحرية ٣/٥

٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م

دولة الظاهر بيبرس البندقدارى

ان حق لنا أن ننعت كل عصر من عصور العمارة الاسلامية بمصر بنعت خاص وجب أن تنعت عصر المماليك البحرية بالعصر الذهبى وكيف لا نعده عصرا ذهبيا وقد ازدهرت فيه العمارة الاسلامية وتنافس الملوك والأمراء فى تشييد المنشئات

المعمارية من خيرية بأنواعها الى مدنية حتى أن الملك الناصر محمد بن قلاون أنشأ فى دولته (ديوان الأشغال) واذا كان قد ثبت بالمأثور أن فى دولة الوليد بن عبد الملك كان الناس اذا التقوا ساءل بعضهم بعضا عن البناء والصناع فقد كان عصر هذه الدولة كذلك ٠

ودولة المماليك البحرية عمرت بمصر زهاء ١٣٦ سنة كانت الحالة السياسية فيها موفقة الى حد ما وقام بالحكم فيها أكثر هذه المدة أسرة واحدة توارثت الحكم وعلى رأسها المنصور قلاون ٠ وفى عهد هذه الأسرة تأثرت العمارة ببعض التأثيرات السورية كما أنها بسبب مصاهرة بعض ملوكها للمغول وقعت على بعض الاثار بعض التأثيرات الفارسية ٠ وهذا التأثير لم يكن عاما فى جميع العمارات بل فى بعضها وخاصة فى عصر الناصر محمد بن قلاون وهذا ما سنعالجه فى حينه ٠

ولم تلبث العمـــارة فى هذا العصر أن تمصرت وأخــــــذت طابعـــا خاصا لها ميزها بين شتى الفنون حيث تركزت قواعدها وترقت أبنيتها فأتت بأحسن النتائج على الصنائع وسرى الترقى التدريجى فى وضع الواجهات المتقنة الصنع من حجر النحت ذو اللونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وجعلت فيها المزررات البديعة فوق نوافذ الأبواب والشبابيك من هذا الرخام ٠ وتطور القبة والمنارة وتنوعت أشكالها واتخذت من الحجر بعد أن كانت تبنى بالطوب ٠

وفى هذا العصر كثر انشـــاء الخوانق والربط والقصـــور والوكالات والبيمارستانات والمدارس والجوامع والحقت القبة بالمدرسة لدفن المنشىء كما الحق السبيل والكتاب بالمدرسة والمسجد ٠ وقد بلغت صناعة الرخام أوج مجدها وتهذبت صناعة النجارة والتطعيم فى الخشب والأويمة كما بلغت صناعة الجص حد الكمال وقد وقع على بعضها أيضا تأثيرات ـ أندلسية ٠

أما صناعة النحاس فقد بلغت حد الاتقان وخاصة فى الابواب والشبابيك والتنانير والكراسى والآنية ومنها ما هو مكفت بالذهب والفضة ٠

ومن مميزات هذا العصر كذلك صناعة الزجاج وخاصة ما كان منه مشغولا بالمينا ويخصنا منه المشكاوات التى أعدت لاضاءة المساجد ٠هذا عدا الصناعات الفرعية مثل النقش والتذهيب والخزف والتكفيت والتجليد ٠

وسنعالج من بين آثار هذه الدولة تاريخ مجموعة من الآثار الهامة مجهولة المنشىء بطريقة المقارنات المعمارية لتحديد عمرها ٠ وهذه الطريقة وان كانت وعرة المسلك الا أنها غزيرة المادة ٠ المماليك البحرية : المماليك رقيق مما كان يباع بأسواق الجركس والقوقاز وأواسط آسيا ٠ يجلبون الى مصر ليباعوا الى كبارها الذين يدربونها على القتال ويتخذونهم حرسا لهم لذلك نرى أنهم كانوا أرقاء اسما فقد كانوا يتصرفون تصرف الأحرار فعلا ٠

كما كان يعنى بتعليمهم وتثقيفهم وتمرينهم على الشئون الحربية والفروسية والصيد حتى نبغ منهم أفراد كثيرون فى العلوم والاداب واجادة الخط والشعر والتاريخ حتى وصلوا الى مرتبة الملك ٠ وقد امتاز بعض هؤلاء السلاطين بقوة التفكير والهمة مثل بيبرس البندقدارى ـ الذى حارب الصليبيين وظفر بهم وسعدت مصر فى أيامه ٠ وكذلك قلاون هماما وهو الذى تم له تأليف أسرة ملوكية من ولده وكان كفوؤا للسلطنة ضد التتار وحفظ مصر من هذه الطامة الكبرى وعقد بينه وبين ملك اسبانيا عرى التواصل ففى سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) ٠ جاء اليه من قبل الفونس دراغون سفير قامت على يديه بين الدولتين معاهدة عادت بالخير على البلدين ٠

وعلى العموم فقد حكموا فى القرن الرابع عشر فترة خطيرة ازدادت فيها ثروة البلاد زيادة هائلة وكان المماليك يعيشون سى ترف أبرمت لا حد له وفى قصور مملوءة بالأثاث النفيس وأسباب الراحة والنعيم ٠ وعلى رغم وجود اضطرابات داخلية فانها استطاعوا أن يشيدوا العمارات الضخمة وأن يعضدوا الفنون ويبعثوا فى وادى النيل صناعات دقيقة متنوعة دقيقة وغنية بمنتجاتها ٠

المدرسة الظاهرية : هذه المدرسة بشارع بين القصرين بجوار قبة الصالح نجم الدين وتجاه قبة المنصور قلاون أمر بانشائها الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ٠

كان موضعها من القصر الكبير الفاطمى يعرف بقاعة الخيم ٠ ومما دخل فيها أيضا باب الذهب من أبواب القصر الفاطمى ٠ فلما وقع الاختيار على هذا الموقع عهد

واشتريت الى القاضى كما الدين طاهر إبن الفقيه نصر **وكيل** بيت المال فقوم قاعة الخيم **واشتريت** لحساب السلطان الذى أمر بهدمها وانشاء المدرسة على أرضها وذلك فى ٢ **ربيع الاخر** سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) وفرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) وقبل الشروع فى النباء أمر السلطان باعداد كتاب وقفها وكان بالشام وأخطر به الأمير جمال الدين بن يغمور وشدد عليه بأن يدفع الاجور كاملة ٠

ولما كملت احتفل بافتتاحها بحضور العلماء والقراء ونصبت حلقات التدريس كل طائفة فى ايوان فالشافعية فى الايوان القبلى والحنفية الايوان البحرى وأهــــل الحديث بالايوان الشرقى والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى وةقرأوا كلهم الدروس وتناظروا فى علومهم ثم مدت الموائد فأكلوا وامتدحه الشعراء ٠

كما أنه أنشأ بها خزانة كتب اشتملت على نوادر المخطوطات من العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لهم الجرايات والكسوة وأوقف عليها ريع السلطان خارج باب زويلة فيما بين باب زويلة وباب الفرج ويعرف ذلك الخط الى اليو مبه بخط تحت الربع ٠ وختم المقريزى وصفه لها بقوله ٠

« وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة الا أنها قد تقادم عهدها فرثت وبها الى الان بقية صالحة ٠

وصف المدرسة : اذا كان المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) ختم كتابته عنها بأنها تقادم عهدها فرثت وبها بقية صالحة فمعنى هذا أنها أخذت فى الاضمحلال ـ بعد انشائها بمقدار ١٨٣ سنة ٠ غير أنها ظلت محتفظة بالكثير من تفاصيلها الى سنة ١٨٢٩ حيث ادركها دافيد روبرتس الرحالة فصورها ، ورحالة آخر سنة ١٨٥٠ نصور لواجهتها صورة قيمة نقلناها هنا ٠

ولما فتح شارع بيت القاضى بعد سنة ١٢٩٠ هـ شطرت المدرسة شطرين وقضى على البقية الباقية منها ٠ وقد نقل مسيو مهرن ما كان مكتوبا على بابها ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة مولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر السيد الأجل العامل العالم المجاهــــد المرابط المؤيد المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين مالك رقاب الأمم سيد ملوك العرب والعجم أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين أعز الله أحكامه وأدام أيامه ونشر فى الخافقين بالنصر والتأيد ألويته وأعلامه بمحد وآله وصحبه وذلك فى شهور سنة ستين وستمائة » ٠

وقد تلاشت هذه الكتابة أيضا ولم يبق سوى جزء من أولها باحدى عضادتى الباب ٠

هذه هى تطورات المدرسة التى كتب عليها بالتدمير بينما معاصراها والمنشآت السابقة لها باقية الى الآن ٠

والبقية الباقية منها لا تعطى فكرة ما عن تخطيطها فهى عبارة عن عضادة باب وشباك فى الجهة الغربية وشباكين فى الجهة القبلية احداهما كامل وعليه رنك المنشىء والشباك الآخر باقية بعض تفاصيله ٠

ولكن نستطيع من وصف المقريزى المؤرخ الجليل أن نعتبرها مدرسة على الطراز المتعامد cruciforme ونظرة الى الصورة الزيتية المأخوذة عن الواجهة سنة ١٨٥٠ م تسمح لنا بالتفكير فى أن مدخلها كان مطابقا لباب مدرسته التى أنشأها بدمشق وهو مدخل فخم بمقرنصاته وطاقيته وكتاباته ٠

وفى تفاصيل البقايا البسيطة هذه ما يشعر بفخامة هذه المدرسة فالأعتاب حليت بزخارف دقيقة متنوعة يعلوها صنج منقوشة فريدة الأولى من نوعها وعلى نفيس احداهما رنك المنشىء أسدين متقابلين كذلك صناعة النجارة كانت من الأمثلة الجميلة فقد تخلف منها ضلفتا شباك وحلق حشواتها من أويمة دقيقة ٠

وأريت بدار السفارة الفرنسية ضلفتين مغشيتين بالنحاس بهما صرر ناتئة ويعتبران من أدق وأجمل الأبواب النحاسية ومكتوب عليهما (الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبى الفتح بيبرس أدام الله أيامه وأعز أحكامه سنة ٦٦١ هـ) ٠

وقد كتب التاريخ بالأرقام الهندية فاذا صح أن هذا الباب منقول من هذه المدرسة وهو ما أرجحه وكانت هذه الكتابة قديمة اعتبرت أول تاريخ كتب على الاثار بالأرقام الهندية ٠ يليه تاريخ قبة حسن صدقة سنة ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) وقد رسم هذا الباب باسكال كوست وبريزدفين أيضا فى مؤلفاتهما القيمة ٠

ومن جمال هذه البقايا ودقة تلك التفاصيل نستطيع أن نعتبر أن هذه المدرسة كانت من محاسن العمارة الاسلامية ولكن على أى شكل كانت المنارة ؟ العلم عند الله ٠ ولعلها كانت أقرب شبها بمنارة الصالح نجم الدين المجاورة لها والقريبة العهد منها ٠

وقبل أن ننتهى من هذا البحث أحب أن أشير الى الكتاب الذى ألحقه بالمدرسة

لم يكن الأول من نوعه فقد سبقه القاضى الفاضل فى انشاء سبيل وكتاب ألحقهما بالمدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) كما سبقته المدرسة الفخرية التى أنشأها الأمير فخر الدين أبو الفتح عثمان سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) وبعد ذلك شاع الحاق الكتاب والسبيل بكثير من المدارس ولكن شيوعهما كان أكثر فى دولة المماليك الجراكسة بل وكان من مستلزمات العمارة ٠

قناطر أبو المنجا : عرف الخليج ببحر أبى المنجا الذى حفره الأفضل بن أمير الجيوش سنة ٥٠٦ هـ (١٢١٢ م) وكان مشرفا على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودى فعرف به ٠ ولما عرف الأفضل جملة نفقاته استعظمه وقال غرمنا هذا المال جميعه والاسم لأبى المنجا فغير اسمه ودعى بالبحر الأفضلى فلم يستمر ذلك ولم يعرف الا بأبى المنجا ولما ولى المأمون البطائحى وزارة الآمر بأحكام الله بعد الأفضل تحدث الآمر معه فى أمر فتح هذا الخليج والاحتفال به كخليج القاهرة ٠ ثم أنشأ هناك قنطرة واستمر الاحتفال بفتح هذا الخليج الى عصر الدولة الأيوبية ٠

وقد جرت العادة بأن يسد هذا البحر ولا يفتح الا فى ١٢ توت فتروى منه البلاد وفى سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٦ م أنشأ الظاهر بيبرس البندقدارى ست قناطر على هذا الخليج سعة كل منها ٩٫٥٠ مترا كى يعبر الناس عليها وهى قناطر محكمة البناء مبنية بالحجر ومنقوش أعلاها رنك المنشىء ٠وفى سنة٨٩٢هـ ـ ١٤٨٦م جددها السلطان قايتباى باشراف المهندس البدرى حسن بن الطولونى ونقش اسمه عليها ٠ ومن البحث الذى أجرى عند اصلاح هذه القناطر تبين أن الباقى من عهد بنائها فى عهد الظاهر قليل بسبب تجديد قايتباى لها فلم يبق من عهد تأسيسها سوى السباع وهى رنك المنشىء ٠

أعمال الظاهر بالجامع الأزهر : ومن أعماله بالجامع الأزهر أن فى عهده أى فى يوم الجمعة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر بعد أن ظل مائة عام معطلا منها منذ تولية صلاح الدين ملك مصر كذلك تبرع الأمير عز الدين ايدمر الحلى بشىء كثير من ماله ومن مال الظاهر بيبرس لعمارة الجامع فعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيضه وأصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه حتى عاد حرما وسط المدينة وعمل به مقصورة خشبية ٠

وهذه العمارة ذكرها المقريزى مقتضبة فلم يذكر صراحة الظاهر بل خص بالذكر عز الدين ٠ أما مؤلف كتاب فتوح النصر فقد ذكر أن السلطان الظاهر صلى بالأزهر بعد أن كان مشعثا وتغيرت رسومه فأمر السلطان بمعارته وتجديده واقامة الخطبة فيه ٠

وقال ابن خلدون انه بعدما رجع من غزو طرابلس أمر بتجديد الجامع الأزهر واقامة الخطبة فيه وكان معطلا منذ مائة سنة وتخلف أيضا من هذه العمارة منبرا أقامه الظاهر برسم الجامع لم يشر اليه أحد من المؤرخين وقد نقل مسيو فان برشم فى مجموعة الكتابات العربية ما هو مكتوب على لوحة باقية ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمل هذا المنبر المبارك لجامع مولانا السلطان الملك الظاهر المجاهد المرابط المؤيد المنصور ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين بالديار المصرية أعز الله أنصاره بتاريخ الثالث عشر من ربيع الأول سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية ٠

وانى أرجح الى حد كبير أن الزخارف الجصية بتواشيح المحراب القديم وأعلاه والكسوة الخشبية المنقوشة التى كانت تغطى طاقية المحراب الفاطمى القديم من عمله أيضا ٠

ولعل معترضا يقول ولماذا لم تكن أعمال الزخارف فى هذا المحراب ترجع الى ما بعد ذلك ٠ وردى عليه انى أعود بالكسوة الخشبية وهى مرتبطة بالزخارف الجصية الى هذا العصر لأن طاقية المحاريب فى الدولة الأيوبية وأول حكم المماليك كانت من هذا النوع مثل الامام الشافعى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) وكذلك كسوة محراب الجامع الطولونى التى عملها لاجين المنصورى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وكذلك كسوة طاقية محراب الصالح طلائع وهى ترجع الى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) وأيضا كسوة محراب قبة قرا سنقر المنصورى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) ٠

جامع الظاهر : هذا الجامع بميدان الظاهر المعروف قديما بميدان قراقوش ويعرف أيضا بجامع العافية ٠ أنشأه الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وعهد الى الأمير فارس الدين اقطاى المستعرب والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا بالاشتراك مع المهندسون فى اختيار مكان صالح لبناء الجامع ٠ ففى يوم الخميس ٨ ربيع الآخر سنة ٦٦٥ هـ (يناير سنة ١٢٦٧ م) انتقل السلطان ومعه المهندسون والأمراء الى ميدان قراقوش الذى وقع الاختيار عليه للاطلاع على رسم الجامع على الطبيعة فأقره وأشار بأن يكون بابه مثل باب المدرسة الظاهرية وأن تقام على محرابه قبة بقدر قبة الشافعى وكتب الى البلدان باحضار العمد الرخامية والأخشاب والحديد ٠ وشرع فى العمارة فى منتصف جماد الآخر سنة ٦٦٥ هـ (مارس سنة ١٢٦٧ م) وفى أول جماد الآخر سنة ٦٦٦ هـ (يناير سنة ١٢٦٨ م) سافر السلطان الى الشام فنزل على مدينة يافا واستلمها بأمان يوم الأربعاء ٢٠ جمادى

الآخر سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) وشرع فى هدمها وقسم أبراجها وقلعتها وأخذ كثيراً من أخشابها ورخامها وشحنها الى القاهرة ورسم بأن يعمل من الأخشاب مقصورة فى الجامع القاهرى والرخام يعمل بالمحراب ولما عاد الى مصر فى ذى الحجة سنة ٦٦٦ هـ (أغسطس ١٢٦٨ م) بعد أن فتح يافا وطرابلس وأنطاكية وغيرها أقام الى أن هلت سنة سبع وستين وستمائة فلما كملت عمارة الجامع فى شوال انتقل اليه لمشاهدته فرآه فى غاية الحسن وأعجبه انجازه فى أقـــرب وقت وكان المشرفان على بنايته الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر السرورى متولى القاهرة ٠

وصف الجامع : لا شك أن هذا الجامع قبل العبث به كان من أجمـــل جوامع القاهرة فقد بلغ مقاسه ١٠٦ × ١٠٣ متر وصحنه ٦٠ × ٧٠ متر مبنى على مثـال المساجد الجامعة أربعة ايوانات يتوسطها صحن مكشوف ٠ فالايوان الشرقى يشتمل على ستة أروقة وبكل من الايوانين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة أما الايوان الغربى فيشتمل على رواقين ٠

وعقوده المشرفة على الصحن محمولة على أكتاف خلق فى أجناب بعضها عمدا أربعة ومثلها عقود الرواق الثالث من الايوان الشرقى أما بقية عقود الجامع فمحمولة على أعمدة من الرخام ٠

ويعلو المحراب قبة كبيرة بكل من قواعدها الثلاث ثلاثة عقود أكبرها أوسطها مبنية بالطوب تتخلل مداميكها ميد خشبية وبنواصى الأكتاف الحاملة للعقود عمـــد رخامية من الداخل والخارج ٠ ولعلها أكبر قبة أقيمت فوق محراب حيث يبلغ قطرها ١٥٫٥٠ متر يتصدرها محراب شاهق فقدت كسوته يعلوه لوح من الرخـــام مكتوب به ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القبة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين فى سنة ست وستين وستمائة ٠

ونأسف لهدم القبة وعدم معرفة شكلها أو نوع المواد التى كانت مستعملة فيها ولكن فقدها لا يمنعنا من التفكير فى شكلها فقد علمنا أن السلطان بيبرس أمر أن تكون هذه القبة على قدر قبة الشافعى ٠ فهل كانت مثلها اتخذت من الخشـــب وكسيت بالرصاص هذا هو المرجح أما شكلها فقد نشر لها برزدفين صورة فى مؤلفه سنة ١٨٧٧ أقرب شبها بشكل قبة شجر الدر وأميل الى موافقته واعتبارها قبة أصلية لأن

هذا الطرز كان شائعا فى قباب هذه الفترة كما سبقت الاشارة اليه فى مقالى عن العمارة الأيوبية ٠

والمحراب خال من الزخرف ولكنا علمنا أيضا أنه أرسل لهذا المحراب رخاما من قلعة يافا ٠ والذى أستطيع أن أتخيله لهذا المحراب أن كسوة التجــويف كانت من أشرطة ملونة والطاقية من الخشب المنقوش والمكتوب يعلوه تواشيح ومستطيلات من الجص موجودا بالجامع الأزهر ٠

كذلك فقدت مقصورته المحولة أخشابها اليه من قلعة يافا ونستطيع أن نتخيل أنها كانت تفصل الايوان الشرقى عن الصحن مثل ما نرى فى مسجدى الأزهر والماردانى أو كانت تفصل الرواق الأول أمام المحراب مثل ما كانت فى جامع الاقمر ٠وقد تخلف بجدران الايوان الشرقى على يسار المحراب مجموعة من الشبابيك الجصية يربطها ببعضها ويحيط بها أفريز مكتوب به بالخط الكوفى آيات من سورة الأنعام أسفله أفريز به زخارف جصية مورقة آية فى الابداع ٠ ونرى فى هذه الشبابيك تنوعا يدل على مهارة الصانع فقد اشتملت على رسوم هندسية وأخرى بها أوراق نباتية مشرشرة ٠

غير أن الأفريز والكتابة اقتصرت على الجدار الشرقى وجانبيه حتى الرواق الثالث ٠

أما باقى الشبابيك المحيطة بجدران الجامع فانى أرجح أنها كانت خالية من الكتابات والافريز الموجود الآن فى الايوان الشرقى كما أنها مركبة على وجه الحلق مباشرة يحيطها افريز رفيع زخارفه متنوعة وأنها أطول قليلا من الأخرى بينمـــا الشبابيك المحاطة بالكتابة مرتدة للداخل نحو ١٠ر٠ تقريبا ٠

وواجهات الجامع الأربع وشرفاته المسننة وأبوابه مبنية بالحجر يسترعى النظر فيها الابراج الأربعة القائمة بنواصى الجامع والمستعمل احدها وهو الغربى القبلى سلما الى السطح للوصول الى المنارة ثم الدعائم القائمة خارج وجهتيـــه الشرقية والغربية لمقاومة الدفع الأفقى لعقود حبال الطارات ٠ أما من الداخل فالبناء بالحجر الثلاثات عدا عقود الجامع والقبو والشبابيك فانها بالطوب ٠

وللجامع ثلاثة أبواب بارزة عن مستوى الوجهات حافلة بالنقوش والكتابات كما حليت أجنابها بزخارف مربعة ومستديرة وصفف ذات عقد منكسر ٠

فما هو مكتوب على الباب القبلى ·

« بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بانشاء هذا الجامع المبارك تقربا الى الله العظيم واظهارا لقوة الدين القويم مولانا وسيدنا السلطان الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين صاحب القبلتين الآمر ببيعة الخليفتين خـــادم الحرمين الشرفين أبو الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة ·

والباب البحرى يعلوه لوح رخامى نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم اللهم أعز الاسلام وجنده وانصره نصرا لا غلبة بعده ببقاء الأمر بعمارة هذا الجامع المبارك مولانا وسيدنا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس الصالحى قســـــيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه وذلك بتاريخ الرابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وســـتمائة ·

وبدائر العقد الستينى بالباب المذكور بسملة فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه الى قوله تعالى بغير حساب ·

وكان يعلو الباب الغربى منارة لم يبق منها سوى أثر قاعدتها المربعة كما أن الحملة الفرنسية وبريزدقين لم يدركا منها سوى قاعدة مربعة بها شباك مزخرف وانى أرجح أن شكلها كان مطابقا لاحدى منارتين منارة الصــــالح نجم الدين أو منارة زاوية الهنود ·

وجدران المسجد مرتفعة وقد فتحت شبابيكه أسفل السقف ولم تفتح بأســـفل جدرانه تأثرا بالمساجد الفاطمية · مع أن المدارس الأيوبية فتحت بها شبابيك سفلية بالوجهات ·

وقد أقيمت دعائم سانده لعدم رفص العقود فى الوجهات وهى غير شائعة فى الآثار بمصر بينما نراها بكثرة فى مسجد قرطبة وفى مسجد عقبة بالقيروان كذلك نرى المبانى تتخللها ميد من الرخام مثل ما هو موجود فى ميناء المهدية وفى أبواب القاهرة وفى وجهات مسجد الصالح طلائع ·

وممن عنى بالجامع فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) الملك الظاهر جقمق فقد جاء فى ترجمته ·

أنه جدد جامع الظاهر حيث لم شعثه بالبياض والبلاط ونحو ذلك ٠

وفى سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧ م) اتخذه الجيش الفرنسى قلعة وأطلق عليه اسم حصن شولكوسكى واتخذت منارته برجا ووضعت على أسواره مدافع وسكن به طائفة من الجند وبنوا فى داخله عدة مساكن ٠ وفى سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) اتخذ المغفور له محمد على باشا عسكرا من طائفة التكرور وجعل معسكرهم به ٠ وفى شهر ذى القعدة ١٢١٣ هـ (يناير ١٨٠٨ م) أمر المغفور له محمد على باشا بعمل مصنع للصابون به تحت اشراف السيد أحمد بن يوسف فخر الدين ٠

وذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٢٧ هـ أن الشيخ الشرقاوى لما أنشأ رواق الشراقوة غربى المدرسة الجوهرية بالأزهر نقل اليه الحجارة والعمد الرخام من جامع الظاهر ٠ وذكر بريزدقين أن كثيرا من العمد أخذ لمقصر النيل ثم اتخذه الجيش البريطانى مخبزا ثم مذبحا الى أن اعترض على ذلك اللورد كرومر فى تقريره عن الادارة المصرية سنة ١٨٩٥ ملحق رقم ٥ حيث احتج مستر لين بول الواضع للملحق المذكور على انتهاك حرمة المسجد فقال :

وصحنه الواسع محشو بالتخاشيب الحديثة القبيحة المنظر الآيلة للسقوط وشدد فقال ومن الواجب تخليصه من هذه الأشياء الكريهة وأجراء ما فيه اصلاحه بغاية الاعتناء ٠

وظل كذلك الى أن طلبت لجنة حفظ الآثار العربية اخلاءه فتسلمته فى سنة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ وأنشأت به مصلحة التنظيم حديقة وأعدته متنزها عاما ٠

وفى سنة ١٩٢٨ تم اعداد نصف الايوان الشرقى وأصلحت عقوده والسقف وأقيمت به الشعائر الدينية ٠

مهندس الظاهر : نأسف جد الأسف لخلو الآثار الاسلامية بمصر من أسماء مهندسيها وان كان قد وصل الينا شىء من أسماء المهندسين الاسلاميين فمن كتب التراجم ومن حسن الحظ وجود اسم مهندس للظاهر على المدرسة الظاهرية بدمشق مكتوب فى طاقة مقرنص الباب العمومى بما نصه :

(عمل ابراهيم بن غنائم) ٠

وهذا المهندس هو ابراهيم بن غنائم ابن سعيد أحد مهندسى القرن السابع الهجرى ٠ كان متصلا بالملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى وهو الذى بنى له أبنيته بدمشق ٠

وذكر ابن طولون الصالحي فى كتابه ذخائر القصر لتراجم نبلاء العصر • قصر بناه هذا المهندس للملك الظاهر بمرجة دمشق سنة ٦٦٨ هـ ، ١٢٦٩ وقرأ عليه اسمه بما نصه :

(عمل ابراهيم بن غنائم المنهدس) • وقد بلغ من شهرة هذا المهندس أن أبناءه وحفدته صاروا يعرفون بعده ببني المهندس •

واذا كان هذا المهندس اختص بالاشراف على عماراته بالشام فيحتمل أن يكون أشرف على عماراته بمصر •

منارة زاوية الهنود : هذه المنارة بشارع التبانة تجاه مسجد السلطان شعبان وعرفت بالهنود لمجاورتها لتكية صغيرة لهم • وهى مجهـــولة المنشىء غير أنه من فحصها ومقارنة تفاصيلها وجدت تشترك مع منارة الصالح نجم الدين المنشأة سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٢ م) فى كثير من التفاصيل فقاعدة كل منهما مربعة تنتهى بدورة مربعة محمولة فى كلاهما على كوابيل خشبية وقد تماثلتا فى المراوح المحارية بالمثمن المتخذة من الجص وفى الخوذة العليا المضلعة • غير أن هذه المنارة امتازت عن زميلتها بوجود الزخارف الجصية بين تواشيح المراوح المحارية •

ولذلك فانى أرجح أنها منشأة فى عصر الظاهر بيبرس البندقدارى قبل سنة ٦٧٠ هـ ١٢٧١ م •

مدفن مصطفى باشا : هذا المدفن فى شارع القادرية جهة السيدة عائشة خلف مدفن جاني بك عرف بهذا الاسم نسبة الى مصطفى ماهر باشا المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) وهو مجهول التاريخ والمنشىء •

وقد وردت شذرات صغيرة فى كتب المزارات الخاصة بخطط القرافتين يفهم منها أنه كان رباطا من انشاء الأمير ازدمر الصالحى كما يفهم مما كتبه عنه ابن الزيات أنه عرف بتربة الشيخ يوسف العجمى العدوى أحد أصحاب الشيخ عدى بن مسافر من أجداد زين الدين يوسف القريب منه كما ذكر السخاوى أيضا أنه دفن بهذه التربة الشيخ محب الدين أبو الفرج المعروف بابن الصقلى المدرس بدار الحديث الكاملة المتوفى سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) مما يؤيد وجود هذا البناء قبل سنة ٦٧٢ هـ•

وهذا البناء غريب فى تفاصيله وزخارفه فالباب بارز ومعقود بالحجر وامتاز

عقده بأن جفته المحيط به متداخل فى بعضه بشكل يحيط به افريز على شكل عادالة مفردة لها شبيه فى المدرسة العادلية بدمشق ولا شك أن هذا الباب متأثر بالعمارة السورية حيث نرى مثل هذا العقد فى محراب المدرسة السلطانية بحلب المنشأة سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٤ م) وفى محراب قبة السلسلة بالقدس الشريف ٠ وهذا الباب يؤدى الى طرقة معقودة على يمينها باب يؤدى الى طرقة مستطيلة على يمينها باب يوصل الى باقى القسم المطل على الواجهة حجراته معقودة ٠ وهذه الطرقة تؤدى الى صحن كبير يكاد يكون مربعا به بالجانب الشرقى صف من الخلاوى الكبيرة ٠

وفى الجهة الشرقية للصحن يوجد ايوان فسيح مرتفع محرابه منحرف حليت توشيحه بزخارف جصية مورقة يحف بها أفريز مكتوب بالخط الكوفى ٠ ويعـــلو المحراب سطر آخر مكتوب به بالخط النسخ آيات من القرآن يعلوه شبابيك من الجص يحيط بها زخارف مورقة حولها كتابات كوفية وزخارف مورقة عليها مسحة أندلسية يحف بجميع ذلك افريز مكتوب بالخط النسخ ينتهى عند مفتاح العقد برنك (هدف النبلة) ويجاور هذا الايوان حجرة أخرى بصدرها محراب منحرف أيضا يكتنفه محرابا صغيران حليت عقودها وتواشيحيها بزخارف وكتابات جصية عليها أيضا المسحة الأندلسية ٠

والبقايا المخلفة من الواجهة الشرقية متوجة بشرفات مماثلة للشرفات الموجودة بالسور القديم القائم حول قبة الخلفاء العباسيين المنشأة فى نهاية العصر الأيوبى ٠

ولذلك فاننا نأخذ مطمئنين برأى جناب الأستاذ كويسويل أستاذ الآثار الاسلامية بجامعة فؤاد الأول بأن تاريخ بناء هذه التربة لا يمكن أن يكون متأخرا عن ســـنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م) ٠

دولة المماليك البحرية ٣/٤

● عصر الناصر محمد بن قلاون :

السلطان الملك الناصر أبو الفتح ناصر الدنيا والدين محمد بن المنصور قلاون ولد يوم السبت ١٥ محرم سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م بقلعة الجبل ٠ وولى ملك مصر ثلاث مرات ٠ الأولى فى ١٤ محرم سنة ٦٩٣ هـ ١٢٩٣ م وهو صبى وعمره تسع سنين

ثم خلع لحداثة سنه وذلك فى المحرم ٦٩٤ هـ ١٢٩٤ م وولى بدلا منه مملوك أبيه زين الدين كتبغا المنصورى ٠ ثم أعيد إلى الملك للمرة الثانية بعد قتل المنصور لاجين يوم الاثنين ٦ جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ ١٢٩٨ فأقام عشر سنين وخمسة أشهر وستة عشر يوما ثم ترك الملك سنة ٧٠٨ هـ ١٣٠٨ م وسار الى الكرك فولى من بعده الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ٠ ثم عاد الى السلطنة للمرة الثالثة سنة ٦٠٩ هـ ١٣٠٩ م وبقى بها الى أن توفى فى ليلة الخميس ٢١ ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ ١٣٤١م ودفن بقبة أبيه المنصور قلاون بالنحاسين ٠

كان رحمة الله محبا للعمارة فعمر كثيرا من الاثار كما أنشأ كثيرا من القصور والمساجد والقناطر ٠ فقد بلغت نفقات العمائر كل يوم من أيامه ٣٥٠٠ دينارا هـذا سوى من يسخر فى العمل من المسجونين ٠ وفى عهده أنشىء (ديوان للعمارة) وتأثرت بعض العمائر بتأثيرات فارسية وأندلسية ٠

ولقد تابعه أولاده وأمراؤه ووزراؤه فى انشاء المساجد والمدارس والقصور والربط والخوانق ٠ فامتد العمران ٠ وقد ساهم النساء بنصيب كبير فى هذا المضمار مما ساعد على ازدهار العمارة وانتشارها ٠

المدرسة الناصرية (١) هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله (النحاسـين) ٠ أنشئت على جزء من أرض القصر الصغير الفاطمى بدأ فى انشائها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى فقد وضع أساسها وأدخل فى عمارتها بابا رخاميا كان أحضره الملك الأشرف خليل من احدى كنائس عكا عند فتحه لها سنة ٦٩٠ هـ ١٣٩٠ م ٠ وارتفع بناؤها الى الطراز المكتوب بواجهتها وذلك فى سـنة ٦٩٥ هـ ١٢٩٥ م ثم خلع من الملك قبل أن يتمها ٠

ولما عاد السلطان الملك الناصر محمد إلى ملك مصر للمرة الثانية شترى هذه

---

(١) المدرسة : نشأت المدرسة بمصر فى نهاية الدولة الفاطمية وقت اضمحلالها ٠ أنشأها صلاح الدين الايوبى **لمقاومة الشيعة وانتشار السنة** ٠

والمدرسة تختلف عن الجامع فى التصميم ٠ فالجامع مكون من أربعة ايوانات ذات عمد وعقود يتوسطه صحن مكشوف ٠ أما المدرسة فقد بدأت بايوانين متقابلين بينهما حجرات ثم تطورت الى أربعة أيوانات متقابلة وهو المعروف بالمتعامد cruciform يتوسطها صحن طورا يكون مكشوفا واخر مسقوفا ٠ هذا عدا اختلاف فى المدخل ٠ وبها مساكن للطلبة محدقة بالصحن ٠ وهى كالمسجد تقام فيها الصلاة والايوانات تعقد بها الدروس ٠ وقد تكون لمذهب واحد أو لمذهبين أو لاربعة مذاهب ٠ وامتازت المدرسة بالقبة التى ألحقت بها لدفن المنشىء ٠

المدرسة وبنى بها قبة فكملت فى سنة ٧٠٣ هـ ١٣٠٣ م وعين بها المدرسين لمذاهب الأربعة وألحق بها مكتبة حافلة . ثم نقل الى القبة رفات والدته . كما دفن بها بنه أنوك المتوفى فى ١٧ ربيع الأول ٧٤١ هـ ١٣٤١ م .

وصف المدرسة : وجهة هذه المدرسة صغيرة ولكنها غنية بتفاصيلها فقد توسطها باب تعلوه منارة تجاوره قبة . يكتنف الباب من اليسار شباك للايوان الشرقى ومن اليمين شباكا القبة عقودها مزخرفة بزخارف مورقة يعلوها طراز مزخرف من حافتيه مكتوب به ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بأنشاء هذه القبة الشريفة والمدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبى المعالى محمد أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره بمحمد وآله الطاهرين فى شهور سنة خمس وتسعين وستمائة وصلى الله على محمد » .

ويسترعى النظر فى هذه الكتابة وجود تاريخ سنة ٦٩٥ بجانب اسم الملك الناصر محمد . لأنه معلوم أنه كان معزولا عن الملك فى هذه السنة . وكان الملك وقتئذ منشىء المدرسة (زين الدين كتبغا المنصورى) ومما لاشك فيه أن اسمه كان موجوداً فى هذا الطراز فمحاه الناصر بأن غير الأحجار المشتملة على اسم وألقاب كتبغا وابدلها بأخرى كتب بها ألقابه ولم تساعده المسافة الموجودة فكتب اسمه (محمد) فى فراغ حرف الياء من لقبه (أبى المعالى) ثم ترك باقى الكتابة عمدا لأنها عبارة عن دعاء كما ترك التاريخ باعتباره تاريخا للبدء فى البناء ولعدم اعترافه بمشروعية تولى غيره الملك فى تلك الفترة كما فعل فى الكتابة الموجودة بطراز واجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير فقد محا منها صفة الملك المقرون بها اسم بيبرس وترك اسمه . والا فما كان يصعب عليه تغيير التاريخ أيضا .

والباب جميعه من الرخام وهو دخيل على البناء ومن طراز غوطى لأنه كما أسلفنا القول من كنيسة بعكا وهو باب لطيف يكتنفه من كل من جانبيه أربعة عمد رشيقة مثمنة لها تيجان تحمل طيات العقد المتداخل بعضها فى بعض وقد أدخلت عليه تعديلات بسيطة بأن أحيط العقد الأخير بشرفات رخامية صغيرة وانتهى من أعلى بميمة بها لفظ الجلالة . كما حلى العتب بمزررات رخامية باللونين الأسود والأبيض يعلوه عتب آخر مكتوب عليه ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القبةالشريفة والمدرسة المباركةالسلطان الأجل الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى قدس الله روحه ونور ضريحه وذلك فى شهور سنة ثمان وتسعين وستمائة .

ويعلو الباب منارة قاعدتها مربعة غشيت جميعها بالزخارف والكتابات النسخية والكوفية بلغت حد الكمال اذ لم يترك بها فراغ بدون زخرفة أو كتابة وتتكون هذه الزخارف من عقود ودوائر وترابيع تسودها روح الزخارف الأندلسية ٠

والدورة الثانية مثمنة حليت بعقود وجفوت وانتهت بمقرنص أما الخودة الحالية فعثمانية ولعلها كانت مضلعة على مثال ما هو موجود فى قمة منارة الصالح نجم الدين والتى شاعت فى منارات النصف الثانى من القرن السابع الهجـرى وأوائل الثامن الثالث عشر ـ الرابع عشر الميلادى ٠

وباب المسجد يؤدى الى طرقة مستطيلة بها سقف جميل منقوش مذهب على يسارها شباك للايوان الشرقى للمدرسة ٠ وعلى يمينها باب القبة وقد اقتبس هذا الوضع من مدخل قبة ومدرسة قبيه المنصور قلاون ٠

ونأسف لهدم القبة وقد كانت خشبية ٠ ويحيط بمربع القبة طراز خشبى محفور به زخارف يعلوه طراز آخر كان مكتوبا ٠ وطاقية المحراب خشبية مكتوبة يكتنفــه عمودان من السماق الأحمر كما يتوسط جدارها الغربى فتحة يكتنفها عمودان على مثال ما هو موجود فى قبة أبيه المنصور قلاون ، ولا شك أنها كانت مغطاة بحجاب خشبى اذ كانت تؤدى الى أبنية ملحقة بالقبة ومازالت بقاياها حـــافلة بالزخاف الجصية ٠

هذا وتنتهى الطرقة الى صحن المدرسة وقد احتفظت بايوانها الشرقى والغربى ٠

أما الايوانان البحرى والقبلى فقد تخربا ولكنهما كانا صغيرين معقودين يربطهما من الجانبين بالايوانين الشرقى والغربى حجرات صغيرة معقودة تعلوها حجرات أخرى كما تنبىء بذلك البقايا الموجودة والا يوان الشرقى أكبرها يتوسطه محراب حلى من أسفل بأشرطة رخامية وحليت طاقيته وحافته وتواشيحه وأعـلاه بزخارف جصية بارزة مفرغة بها تأثير الزخارف الفارسية وفوقه شباك جصى حادث حل محل شباك لا شك أنه كان على جانب من الأهمية كى ينسجم مع مجموعة الزخارف حوله والتى لا نظير لها فى أثر آخر بمصر ٠

وكانت واجهة هذا الايوان محلاه بزخارف وكتابات وعقود محارية مازالت بقاياها موجودة مما يرجح أن وجهات الايوانات على الصحن كانت غنية بهذا النوع من الزخارف ٠

ويصدر الايوان الغربى شباك أحيط بزخارف وكتابات من نوع الموجود بالايوان الشرقى .

وعلى يسار هذا الايوان استطراق معقود بالطوب بمصلبات صغيرة ارتكزت من جانبها الأيمن على عقود محكمة البناء بالطوب الأحمر المنسق وقد أفقد التخريب الذى طرأ على هذه المدرسة والاغتصابات التى وقعت عليها الكثير من تفاصيلها . ولكن تلك البقايا دلت على مقدار ما كانت عليه من روعة وبهاء . ويرى الأستاذ كريسويل انها أقدم مدرسة كاملة باقية بمصر أنشئت على الطرز المتعامد .

جامع الناصر محمد بالقلعة ـ القاهرة :

● هذا الجامع ثانى جوامعه الباقية . وهو بداخل القلعة . شرع الملك الناصر محمد بن قلاون فى انشائه سنة ٧١٨ هـ ١٣١٨ م محل مسجد قديم ثم تراءى له توسيعه فى ٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م فهدمه وأعاد بناءه .

وقد عنى به وبزخارفه اذ كان بمثابة مسجد القصر الخاص ، وعمل به مقصورة من الحديد الزخرفى لاشك أن صناعتها كانت دقيقة بحكم المكان المخصص لها والغرض الموضوعة لأجله اذ كانت توضع بجوار المنبر على يمين المحراب ليؤدى السلطان فيها الصلاة منفردا . أما باقى الأمراء خاصتهم وعامتهم فيصلون خارج المقصورة على يمينها وشمالها .

وكذلك أقام مقصورة من الحديد الزخرفى على وجه أروقـــة الايوان الشرقى لتفصله عن الصحن أسوة بما هو موجود فى الجامع الأزهر وفى جامع الماردانى . ولعل هاتين المقصورتين هما الوحيدتان اللتان اتخذتا من الحـــديد اذ المألوف أن تكون خشبية .

ولهذا المسجد أربع وجهات مبنية بالحجر شرعت بأعلاها شبابيك جصية تدل بقاياها القليلة على مقدار جمالها ، كما فتح له بابان أحدهما بالواجهة البحرية على يساره منارة والآخر بالواجهة الغربية وعلى يمينه منارة أخرى .

أما تخطيطه من الداخل فانه يشتمل على أربعة ايوانات يتوسطها صحن كانت به ميضاة . وأكبر هذه الايوانات الشرقى اذ يتكون من أربعة أروقة توسطها قبة كبيرة حملت على عشر عمد ضخمة من الجرانيت . ولهذه القبة طراز خشبى به آيات من القرآن الكريم يعلوه مقرنص خشبى . تعلوه قاعدة أخرى بها شبابيك جصية .

وكانت هذه القبة مكسوة بقاشانى أخضر • ولذلك عرفت بالقبة الخضراء وعلى ذلك تكون أول قبة بمصر كسيت بالقاشانى على ما أعلم • ولعلها احدى التأثيرات الفارسية الواقعة على المسجد •

وقد هدمت هذه القبة ثم جددها السلطان قايتباى سنة ٨٩٣ هـ ١٤٨٧ م كما عمل للجامع منبرا رخاميا • ثم هدمت هذه القبة أيضا وجددتها أخيرا ادارة حفظ الاثار العربية •

وقد لونت صنج العقود باللونين الأسود والأبيض وفتحت فى خواصرها فتحات مستطيلة للتخفيف غذها نرى مثلها فى المساجد الأموى بدمشـــق والأقصى بالقدس وطولون بمصر •

ويحيط بالصحن من أعلى شرفات مسـنـــنة تنتهى فى زواياه الأربع بخوذة محمولة على قاعدة مقرنصة رأيناها لأول مرة فى الجامع الطولونى ثم الجامع الأزهر مع تنوع فيها ثم رأينا مثلها فى مسجدى الماردانى وشيخون •

وهذا الجامع وان كانت تسوده البساطة من الخارج فلا مقرنصات ولا زخارف ولا كتابات الا أنه من الداخل كان غنيا بشتى الصناعات كما تدل على ذلك بقاياه • فقد كسيت الجدران الىارتفاعنحو خمسة أمتار بوزرة رخامية دقيقة طعمت بالصدف•

وكان محرابه مكسوا بالرخام المحفور به زخارف دقيقة كما كان مكونا من أربعة أدوار بها طاقات مخوصة ومقرنصة محمولة على عمد رخامية يتوسطها سطر مكتوب فيه قوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجـــوههم من أثر السجود) •

وكانت السقف مكونة من دوائر (قصع) محلاة بزخارف ملونة باللونين الأزرق والأبيض والذهبى مازالت بقاياها موجودة بالمسجد وقد قامت ادارة حفظ الآثار العربية أخيرا بتكملتها واصلاحها • وهذا النوع من السقف وان كان بدأ فى الدولة الأيوبية الا أنه امتاز به عصر المنصور قلاون وابنه الناصر محمد وابنه السلطان حسن • وكذلك كانت جميع الأرضيات مفروشة بالرخام الملون • وبهذا الجامع منارتان حجريتان الأولى على يسار الباب البحرى وهى مكونة من قاعدة مربعة تنتهى بقمرنص الدورة الأولى التى تحيط بها شقق درابزين مفرغة ثم بدن مستدير فالدورة الثانية بمقرنصاتها ثم ٦ أكتاف حجرية كسيت وقمتها ذات الخودة المضلعة بقاشانى أبيض

وأزرق مكتوب . والمنارة الثانية على يمين الباب الغربى وهى ذات بدن مستدير محلى بزخارف على شكل دالات أفقية الى الدورة الأولى الحافلة بالمقرنصـــات وشقق الدرابزين المفرغة ثم بدن الدورة الثانية المستديرة والمحلى بزخارف على شكل دالات رأسية حتى الدورة الثانية ثم خوذة مخوصة كسيت بالقاشانى .

وطرز هاتين المنارتين يظهر لأول مرة بمصر كما أن كسوتهما القاشانية تعتبر الثانية اذ الأولى منارة خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م . وظهور هذا النوع من المنارات بجانب القبة التى كانت مكسوة بالقاشانى أيضا يجعلنا نفكر فى جنسية المعمارى الذى وضع تصميم هذا المسجد . ولكن أمامنا مســألة جديدة بالنظر فان الأمير قوصون صهر الناصر محمد حينما أنشأ مسجده بالسروجية سنة ٧٣٠ هـ ١٣٣٠ م استعان بمعمارى فارسى قدم من تبريز فبنى له مئذنتى المسجد على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير السلطان أبو سعيد فى جامعه بمدينة توريز من بلاد فارس . وليس ببعيد أن يكون هذا المعمارى بقى بمصر واستعين به فى بناء منارتى الناصر محمد بن قلاون وهو المرجح .

زاوية زين الدين يوسف :

● هذه الزاوية بشارع القادرية ،وقد اجتمع فيها من المميزات المعمارية مالم يتوفر فى غيرها أنشئت سنة ٦٩٧ هـ على قبر الشيخ زين الدين يوسف المتصل نسبه بعدى بن مسافر أحد أقطاب اليزيدية . وكانت وفاته يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ م . وهذه الزاوية منخفضة عن مستوى الشارع وأمامها حوش كبير محدود بباب آخر أنشىء سنة ٧٣٦ هـ ١٣٣٦ م يعتبر من ملحقات الزاوية ولها وجهتان مبنيتان بالحجر احداهما الشرقية فى نهايتها البحرية باب له مقرنصات جميلة مثبت عليه لوح من الرخام كتب فيه نسب زين الدين وتاريخ وفاته وبناء القبة سنة ١٩٧ هـ وبها أربعة شبابيك تنوعت قودها ومقرنصاتها وقد حليت صنج عقود أحد هذه الشبابيك بزخارف جميلة مورقة مقتبسة من مثليتها فى المدرسة الظاهرية بالنحاسين والواجهة الثانية القبلية بنهايتها الغربية القبة . وتتكون من خمس فتحات توجت نهاية أربعة منها بعقود على هيئة مروحة بها مقرنصات وبثلاثة منها شبابيك صغيرة باعتابهـا زخارف وكتابات . وقد تنوعت زخارف صنج عقودها الصغيرة وتواشيحها تنوعا متقنا . والباب العمومى يؤدى الى دركاة مربعة يصدرها صفة على يمينها ويسارها عقدان مثلثان الأيسر منهما يوصل الى دركاة معقودة مصلبة يتوصل منها الى الايوان البحرى للزاوية والى الصحن المستطيل الذى تحدق به أربعة ايوانات معقودة قـــد تفاوتت مقاساتها ويحيط بجدران هذه الايوانات مع الصحن أفريز جصى محلى بكتابات

تتخللها نقوش نباتية وتتوسطها دوائر على هيئة عش النحل تنوعت أشكالها . وفتحة الايوان القبلى الشرقى ترتكز على عمودين وبصدره محراب منحرف من الجص حافل بالزخاف والكتابات وبالجهة الشرقية لهذا الايوان آخر صغير معقود أقيمت فتحته على عمودين أيضا .

وفى الركن الغربى القبلى القبة وهى من القباب الهامة جـــدا بنيت قاعدتها بالحجر وانتهت بشرفة مسننة وبابها كسى بالرخام سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٥ م . وقد كسيت جدرانها بوزرة رخامية القسم المكتنف للمحراب منها مكتوب بالخط الكوفى المربع « محمد » مكررة . وكان يتوسطها تابوت خشبى مطعم حرق سنة ١٩٠٧ كان مكتوبا عليه **ما نصه :**

هذا ضريح السدي الامام العالم العارف الشيخ زين الدين يوسف بن الســـيد الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الشيخ شمس الدين الحسن ابن السيد الامام الشيخ شرف الدين عدى بن أبى البركات بن صخر بن مسافر بن اسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم الأموى قدس الله روحه ونور ضريحه انتقل الى رحمة الله يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستمئة .

ذنوبى غزار لا أطيق لحصرها   وعفـــوك يامولاى أوفا وأزيد
وما هى ذنوبى أن أخافوأنت لى   الها ولى يوم الشفاعة أحمــد

ومقرنص هذه القبة مكون من ٣ حطات كلها منقوشة وبها كتابات كوفية وكذلك تضليعها الداخلى منقوش وبها مجموعة من الشبابيك الجصية الدقيقة وبرقبتها من الداخل والخارج كتابات نسخية .

والقبة مضلعة من الخارج والداخل وقد أحيطت أضلاع قاعدتها بزخارف كما وجد افريز صغير فوق طراز الرقبة به كتابة كوفية وهذا النوع من القباب يعتبر باكورة لتطور جديد للقبة كما يعتبر أغنى نوع منها فقد حلى بالزخارف من الداخل والخارج وظل هذا النوع من القباب حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجـرى الرابع عشر الميلادى بينما نراها بعد ذلك قلت زخارفها واقتصرت على كتابه بالرقبة من الداخل أو من الخارج فقط . وهذا ما سنعالجه باستيفاء فى بحث تطور القبة .

الخانقاه الجاولية :

● هذه الخانقاه بشارع مراسينه بنيت على ربوة عالية من الصخر عرفت بالكبش .

وهى منسوبة الى منشئها الأمير علم الدين سنجر الجاولى الذى خدم المنصور قلاون وابنه الناصر محمد الى أن توفى يوم الجمعة ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ يناير ١٣٤٥ ٠

وهذا الأثر نعته المقريزى بمدرسة ولكن تصميمه شاذ عن تصميم المساجد والمدارس فلا هو تصميم مسجد ولا تصميم مدرسة ٠ كما أن النصوص التاريخية الموجودة فيه لم تحدد ذلك وعندى أنه أقرب الى تصميم الخوانق يؤيد هذا الظن أن سنجر الجاولى بعد أن توفى ذكر ابن تغرى بردى المؤرخ أنه دفن بالخانقاه المجاورة لمنزله بالكبش ٠ وهى مبنية على الصخرة مباشرة وبابها العمومى على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف من مستوى الشارع وهو يؤدى الى دركاة معقودة بها باب مثلث يؤدى الى سلم مكون من ٢٣ درجة ٠ يوصل الى الخانقاه ٠

ومسقطها الأفقى غير منتظم ويبلغ مسطحها ٧٨٠ مترا مربعا والواجهة البحرية لهذا الأثر فريدة فى بابها فقد اشتملت على قبتين أحداهما أكبر من الأخرى تجاورهما منارة ثم الباب العمومى ٠ وبواجهة كل من القبتين ثلاثة شبابيك أكبرها أوسطها حلى عتبة بنقوش جميلة كما غطيت بمقرنصات مختلفة ما بين بلدية وحلبية ثم شرفة مسننة ٠

والقبتان مبنيتان بالطوب حليت أضلاع قاعدتهـــا بأفاريز من الجص المنقوش وبخاريات صغيرة منقوشة ثم رقبة بها شبابيك من الجص الدقيق فطراز به كتابات جصية تتخللها زخارف مورقة يعلوها أفريز آخر صغير به كتابة كوفية ٠ والشبه بين هاتين القبتين وقبة زين الدين يوسف السابقة لها بقليل متوفر وخاصة من الخارج ٠

ويجاور القبة الكبيرة المنارة المبنية قاعدتها بالحجـــر حتى الدورة الأولى أما دورتاها العلويتان فقد بنيتا بالطوب ٠ ويلاحظ فى القاعدة المربعة تنوع عقود الشبابيك كما يسترعى النظر فيها بابها المعقود ذو المكسبـــلتين وهو الأول من نوعه يليه باب منارة بشتاك ٠

وبدن الدورة الثانية مثمن وقد حلى بعقود محارية ، وبدن الدورة الثالثة مثمن أيضا وينتهى بترس فوقه خوذة مضلعة وهى من مميزات المنارات الايوبية والمملوكية فى النصف الثانى من القرن السابع وأوائل الثامن الهجـــرى ـ الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادى ٠ اذ نراها فى منارات الصالح نجم الدين فزاوية الهنود والجامع الطولونى وقمتى منارتى الحاكم وبيبرس الجاشنكير ٠

ويجاور المنارة باب المسجد المغطى بمقرنص من ٣ حطات ومكتوب عليه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله » · عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة ·

وهذا الباب يؤدى الى طرقة مصلبة بها عقد مثلث ثم سلم مكون من ٢٣ درجة توصل الى طرقة مربعة بها باب المدفن وباب المصلى ويعلو هذه الطرقة منور حجرى مستدير به أربع زوايا · والمصلى مكونة من قسمين بحرى وبه محراب وسقف حديثان · وبهذا القسم ايوان غربى معقود ·

والقسم القبلى على حالته الأولى به فى الجنب الشرقى ثلاث خلاو للصوفية يعلو باب اثنين شباكان من الحجر المفرغ · والجنب القبلى منه به ايوان معقود ويكتنفه خلوتان يعلوهما شباكان صغيران مفرغان يعلو هذا الجنب شبابيك صغيرة خشبية محلاة بزخارف محفورة ويحيط بها طراز جصى مكتوب ومزخرف ·

ونظام هذا الايوان يعزز أن هذا أنشىء ليكون خانقاه ومدفن · وباب المدفن يؤدى الى طرقه طولها ١٥ مترا وعرضها ٣ أمتار معقودة بثلاث مصلبات ويفتح على هذه الطرقة بابا القبتين وشبابيكهما المحلاة أعتابها بزخارف جميلة · فالباب الأول يوصل الى القبة الكبيرة ومدفون فيها الأمير سلار ومكتوب على عتب الباب ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام هذه تربة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين » « سلار نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصرى المنصورى المستغفر من ذنبه الراجى عفو ربه رحم الله من دعا له بالرحمة ولجميع المسلمين » « عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ·

والأمير سلار المدفون بهذه القبة من أمراء المنصور قلاون وكان من أعيان مماليكه ثم انتقل الى خدمة الملك الناصر محمد بن قلاون فعينه نائب السلطنة فى دولته واقتنى ثروة كبيرة ، وكان حسن السيرة ورشح للسلطنة أثناء اقامة الناصر محمد بالكرك ولكن فاز بها زميله بيبرس الجاشنكير ·

ولما عاد الناصر محمد الى الملك خشى بأسه بسبب ترشيحه الى السلطنة فاعتقله وحبسه ومنع عنه الطعام الى أن مات جوعا سنة ٧١٠ هـ ١٣١٠ م ويتوسط هذه القبة تابوت خشبى به بقايا حشوات مدقوقة بالأويمة وبها محراب محلى برخام دقيق كما

يحيط بمربع القادة أفريز مكتوب به آيات من القرآن الكريم ثم مقرنص القبة تتخلله شبابيك جصية ثم الرقبة وبها عشرون شباكا من الجص والزجاج ٠

والقبة الثانية أصغر من الأولى ومكتوب على بابها بالطرقة ما نصه (١) :
بسم الله الرحمن الرحيم « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجـــلال والاكرام ، هذه تربة العبد الفقير الى الله تعالى المستغفر من ذنبه الراجى عفو ربه سنجر الجاولى أستاذ الدار العالية الملكى الناصرى المنصورى رحم الله من دعا له بالرحمة ٠ فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة ٠ وهذه القبة من الداخل أقل زخرفا من قبة سلار ويتوسطها تابوت رخامى ، ومحرابها حجرى حليت طاقيته بمقرنصات ٠

وفى النهاية الغربية لهذه الطرقة توجد قبة صغيرة من الحجر خالية من النقوش ومقرنصها من حطتين وهى تعتبر أول قبة حجرية باقية فى الآثار ثم أعقبتها قبة سنجر الظفر سنة ٧٢٢ هـ ١٣٢٢ م ، ولعل المدفون بها الأمير بشتاك المقتول بالاسكندرية سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م ثم نقل الى هذا الأثر ، والجدار القبلى للتربة أمام القبتين به ثلاث فتحات كل فتحة منها غطيت بشريحتين من الحجر فرغتا بأنواع مختلفة من النقوش المورقة حليت من الداخل والخارج وقد بلغت حد الاتقان ولا ثانى لها فى أثر آخر ٠

وأمام هذه الشبابيك صحن مكشوف به بقايا قبور ، بجداره الشرقى محراب يتصل به سطر مكتوب فيه بالجص المحلى بالزخارف آيات من القرآن الكريم تتخللها زخارف ودوائر على هيئة عش النحل ٠ وخلف هـــذا الجدار فى الجزء المعرف فى المسقط الأفقى « بمحلات متخربة » خلاو للصوفية مازال موجـــودا أعلى باب أحدها شباك حجرى مفرغ مثل الموجود أعلى الخلاوى الداخلية تعلوها خلاو أخرى تتصل بالخلاوى المشرفة على صحن المصلى كما يوجد فى الجنب الغربى بقايا خلاو ، وكل هذا يؤيد وجهة نظرى أن هذا الأثر أنشىء ليكون خانقاه ٢) ٠

وفى النهاية الشرقية القبلية لهذه البقايا يوجد باب محلى بالمقرنصات يوصل الى قلعة الكبش كى ينتفع به صوفية الخانقاه وليدخل منه سنجر الجاولى اذ كانت داره مجاورة للخانقاه من هذه الناحية ٠

---

(١) هذا النص تاكلت آخر سطوره ففقد بعض كلماته وقد أدركه فان برشم وعنه نقلته كاملا٠
(٢) خانقاه كلمة فارسية معناها بيت الصوفية ٠

● مدرسة السلطان حسن ــ القاهرة :

السلطان حسن : السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوة ولد سنة ٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م • وسمى أولا قمارى ولما ولى ملك مصر اختار اسم حسن فعرف به • ولى السلطنة فى ١٤ رمضان سنة ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م وعمره ١٣ سنة • ولصغره ناب عنه فى تدبير الدولة الأمير يلبغاروس نائب السلطنة وأنعم على الأمير منجك اليوسفى واستقر فى الوزارة الاستادارية • وفى سنة ٧٥١ هـ ١٣٥١ م أثبت القضاة انه بلغ الرشد • ثم قبض على الأمير منجك وعلى يلبغاروس • مما دعا الأمراء الى التآمر عليه وخلعه فى ٢٨ جمادى سنة ٧٥٢ هـ ١٣٥١ م وعينوا أخوه الصالح صالح •

وفى شوال سنة ٧٥٥ هـ ١٣٥٤ م أعيد الناصر حسن الى ملك مصر فاستبد بالمملكة وصفت له الدنيا وتزايدت عظمته وكثرت مماليكه • غير أن الفتنة بينه وبين الأمير يلبغا الخاصكى اشتدت وحاول السلطان حسن الفتك به فلم يوفق مما دعا يلبغا أن يهاجمه فى القلعة فهرب السلطان حسن ثم قبض عليه هو ومن معه جهة المطرية وذلك فى سنة ٧٦٢ هـ ١٣٦٢ م • وهنا يقول غالب المؤرخين فكان آخر العهد به ممن قائل أنه خنق وألقى فى البحر ولم يعرف له قبر ما عدا أبى الفلاح المؤرخ فى كتابة شذرات الذهب فانه يقول أنه دفن فى مصطبة فى داره • وكان ملكا حازما شجاعا رحمه الله وعفى عنه •

مدرسة السلطان حسن : ان حق لمصر الفرعونية أن تفاخر باهرامها فان لمصر الاسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة السلطان حسن التى لا يعادلها بناء آخر فى الشرق بأجمعه • فقد جمعت الفنون فيها •

موقع المدرسة : كان موقعها يعرف بسوق الخيل وكان به قصر من القصور العظيمة أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون للامير يلبغا اليحياوى سنة ٧٣٨ هـ • ١٣٣٨ م وقد بقى هذا القصر حتى هدمه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاون ليبنى محله هذه المدرسة • ففى سنة ٧٥٧ هـ بدأ هذا السلطان فى بنائها وعنى بهـا عناية زائدة واستمرت العمارة جارية فيها يصرف عليها بسخاء حتى أنه رصد للصرف عليها يوميا عشرين ألف درهم • ونسب الطواشى مقبل الشامى الى السلطان حسن

---

(١) الاستاذ حسن عبد الوهاب مفتش الاثار المصرية
بحث نشر بمجلة العمارة بالعدد ٦/٧ ــ ١٩٥٤

أنه قال « لولا ان يقال ان ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه » • وليس بمستبعد أن يقول ذلك فالبناء شامخ يدل على العظمة والجبروت وعلى المقدرة الفنية كما يدل على كثرة النفقات فقد ابتكر مهندسه فى هذا البناء الضخم الكبير زخارف دقيقة من كتابات ونقوش ونحاس مكفت مما جعله آية فى الحسن والبهاء • ويصفة المقريزى المؤرخ بقوله « فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع وقبته التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها وقد أجمع على هذا الرأى جميع المؤرخين والرحالة الذين زاروها فيقول عنها غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى « ليس لها نظير فى الدنيا فقد حكى أن الملك الناصر حسن لما أمر بعمارتها طلب مهندسين من أقطار الأرض وأمرهم بعمارة مدرسة لم يعمر أعلى منها فعمرت وهى عجيبة من عجائب الدنيا • ويقول الورثلانى الرحالة المغربى وقد زار مصر فى القـــــرن الثانى عشر الجهرى • « أنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء والارتفاع وأحكام اتساع حناياه وسعة مدخله فكأنه جبال منحوتة تصفق فيها الرياح كما تفعل فى شواهق الجبال » •

وقد وضع تصميمها على طريقة التعامد cruciform الذى يشتمل على أربعة ايوانات يتوسطها صحن مكشوف • وكان مقرر لها أربعة منارات فرغ بناء ثلاث منها اثنان يكتنفان القبة بالواجهة الشرقية والثالثة كانت على يمين الباب العمومى وقد سقطت فى يوم السبت ٦ ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ ١٣٦١ م فأبطل السلطان بناء الرابعة التى كان مقررا لها الكتف الأيسر للباب المذكور واكتفى بالمنارتين وفى شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ قتل السلطان حسن قبل أن يتم المدرسة فأتمها من بعده الطواشى بشير الجمدار •

أعمال بشير الجمدار : لقد قام الطواشى بأعمال تكميلية كثيرة بهذه المدرسة ولم يتمها أيضا • منها أعمال الرخام بالوزرات والأرجنات ولذلك نراها بسيطة جدا ويدخل فيها الكسوة الرخامية لأبواب المدارس بالصحن ولذلك يقرأ على كل منها ما نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر حسن بن مولانا السلطان الشهيد المرحوم الملك الناصر محمد بن قلاون وذلك فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة • مع ذكـــــر المذهب المخصصة له • كما أكمل قبة الفسقية بالصحن سنة ٧٦٦ هـ ١٣٦٥ م • كذلك أكمل بناء القبة الكبيرة وكتب بطرازها آية الكرسى ثم كان الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة) •

وأظن أنه لم يتمم القبة كما كان مقررا لها من بناء عظيم يتناسب مع الجدران الضخمة التى أعدت لحملها بل أقامها من الخشب وغطاها بصفائح من الرصاص · هذه هى أعمال بشير الجمدار أما الزخارف فقد تركها دون أن يكملها كما تركهـا السلطان حسن ·

لكن وفاة السلطان حسن قبل اجراء باقى الأعمال التكميلية ليس معناه ان المدرسة لم تفتتح فى حياته · لا – فقد احتفل السلطان حسن بافتتاحها وصلى بها الجمعة وأنعم على البنائين والمهندسين وأقيمت بها الدروس فى حياته أيضا وحرر لها وقفية فى رجب سنة ٧٦٠ هـ ورصد عليها وعلى غيرها عقارات وأراضى تغل للصرف عليها وعين بها الخدم والبوابين والقراء وفرشها وعلق بها المشكاوات – الجميلة وعين لها اماما كما عين بكل مدرسة من المدارس الأربع اماما خاصا ·

وصف المدرسة : ان المطلع على رسم هذه المدرسة يرى فى وضعها ازورار بل ويصعب عليه تحديد شكلها وغاية ما ينتهى اليه الوصف انه شكل كثير الاضلاع ممتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ·

وتبلغ مساحتها ٧٩٠٦ مترا ان امتدا د أكبر طول ر١٥٠ مترا ، أطول عرضى ٠ر٦٨ مترا ولها أربع وجهات شرقية وبها القبة ومنارتان أقدمهما القبليـة اذ يبلغ ارتفاعها عن صحن الجامع ٦٠و٨١ متر وبحرية وقد جددت بعد سنة ١٠٧٠ هـ وقد حليت أعتاب شبابيك القبة بمقرنصات وعقود عربية وحليت نواصيها بعمد من الحجر ظريفة · ويتجلى منظرها من ميدان صلاح الدين ومن أعلا القلعة : وأخرى قبلية وبها مدرستى الحنابلة والحنفية وغربية وتحتها الدورة وأمامها الساقية التى كانت توصل المياه الى المدارس والى المسجد بواسطة مجراة كوابيل باقية حتى الآن وبحـرية ويبلغ ارتفاعها ٧٠ر٣٧ متر وهى الواجهة وبطرفها الغربى الباب العمومى وهذا الباب طرفة أثرية فقد حلى من جانبيه بالزخارف المتنوعة الممتدة الى أعلاه · أكثرها لم تتم الى الآن · كما ان أجزاءا كثيرة منه كان مزمعا تلبيسها بالرخام ولم يتم · ويكتنف هـ ذاالمدخل حنيتان لبستا بالرخام الأخضر بأشكال هندسـية وكتب أعلاهما بالخط الكوفى المزهر « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله » يعلوهمـا تربيعتان كتب باحداهما بالكوفى المربع « لا اله الا الله محمد رسول الله وبالأخرى أبو بكر مكرره » وقد كان مركبا على هذا الباب مصراعان من الخشب مغشيان بالنحاس من أنفس الأبواب النحاسية نقلهمما السلطان المؤيد شيخ الى مسجده بالغورية سنة ٨١٩ هـ ويغطى هذا الباب بمجموعة كبيرة من المقرنصات رأينا هرتس باشا يأخـذ على مهندسها بعض الهفوات فى وضعها ويحلى نهاية الوجهاتكرنيشمقرنص ارتفاعهست

مداميك وبارزا ٤٠ر١ أضيفت اليه شرفة مورقة فى وقت ما وقد قامت ادارة الاثار العربية بازالتها من الواجهة البحرية ٠

وهذا الباب يؤدى الى مدخل مربع الشـــكل مكون من ثلاثة ايوانات مغطاة بمقرنصات يتوسطها قبة ٠ ويصدر هذا المدخل صفة حلى صدرها بالرخام الملون الملبس فى الحجر وشباك من الجص ودوائر ومستطيلات زخرفية دقت فى الحجـر لا تقل دقة عن الأويمة فى الخشب ٠ ومن هذا المدخل يتوصل الى ســلم ذى خمس درجات يؤدى الى دهليز ينثنى دفعة واحدة الى اليسار وينتهى الى صـــحن كبير مفروش بالرخام الملون مساحته ٦٠ر٣٤ متر فى ٠٠ر٣٢ متر يتوسطه فسقية يعلوها قبة محمولة على ثمانية أعمدة مكتوب بدائرها آية الكرسى وتاريخ الفراغ منها ٠ وحول الصحن أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة وهو ايوان كبير لا نظير له فى سعته وارتفاعه اذ تبلغ فتحته ٢٠ر١٩ يحيط به افريز نادر من الجص مكتوب به بالخط الكوفى المزهر ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ٠ (انا فتحنا لك فتحا مبينا) الى قوله تعالى (فوزا عظيما) ويتخلل الكتابة زخارف دقيقة ٠ويتوســـطه دكة من الرخام يلفت النظر فيها تلبيس عمد الرخام فى نواصيها ٠ وبصدره المحراب المغشى بالرخام الملون والمحلى بزخارف مورقة تتخللها عناقيد العنب ٠ ويجاور المحراب منبر من الرخام له باب من النحاس المخرم ويكتنف المحراب بابان يوصلان الى القبة خلف المحراب أحدهما قبلى مغشى بالنحاس المكفت بالذهب وعليه اسم الســـلطان حسن والآخر فقدت كسوته والقبة مربعة طول كل ضلع من أضلاعها ٠٠ر٢١ مترا وارتفاعها ٠٠ر٤٨ مترا وبها محراب من الرخام محلى بزخارف دقيقة مرتفعة نحو ثمانية أمتار يعلوها طراز به كتابة بارزة نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم ٠ آية الكرسى) (وكان الفراغ من هذه القبة المباركة فى شهور سنة ٧٦٤ هـ وصلى الله على محمد) ٠ يعلو ذلك مقرنصات خشبية محلاة بزخارف ملونة ومذهبة ٠ وغطاء القبة الحالى ليس هو القديم فقد كانت القبة خشبية مكسوة بالرصاص وأيضا فقد زار مصر السائح بترودى لافالليه وكتب رحلته سنة ١٠٢٤ هـ ٠ ومن وصفه للقبة يعتبر طرزها كطرز القباب السمرقندية ٠ كذلك ذكر بريس دافين أن القبة سقطت سنة ١٠٧١ هـ ٠ وكانت أعظم ارتفاعا وباطنها حافل بالنقوش ثم جددها ابراهيم باشا سنة ١٠٨٢ هـ ٠ ويتوسط القبة تركيبة من الرخام كتب عليها انها أنشئت سنة ٧٨٦ هـ برسم تربة السلطان السعيد الشهيد الملك الناصر حسن وذريته ٠ ولكن السلطان حسن لم يدفن فيها كما شرحناه فى ترجمته ٠ وقد أودع بهذه القبةكرسى المصحف المكون من حشوات سن وأبنوس وخشب دقت بالأويمة الدقيقة ٠

ووضع القبة خارج عن سمت جدار المحراب وخارج عن المسجد يعتبر وضعا

شاذا سبقه فيه المشهد الحسينى ونسج على منواله فيما بعد فى مساجد المحمودية والتى برمق بمصر وبعض مساجد الوجه البحرى · ويتدلى من عقـــود الايوانات مجموعة من السلاسل النحاسية كانت معدة لحمل مشكاوات زجاجية مشغولة بالمينا وعليها اسم السلطان حسن وقد حفظ ما تبقى منها وعددها ٣٤ مصباحا مع الثريات النحاسية بدار الآثار العربية ·

ويحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة تعتبر من تصميمها مساجد صغيرة محدقة بالجامع الكبير أكبرها المدرسة الحنفية اذ تبلغ مساحتها ٨٩٨ مترا ويتكون كل منها من ايوان وصحن تتوسطه فسقية ثم أربعة أدوار تشرف على صحن المدرسة وعلى الوجهات ·

نظام المدارس : وقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدرسين ومراقبين وعين لهم مرتبات نثبتها فيما يلى : قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدون وعين مدرسا لتفسير القرآن وعين معه ثلاثين طالبا عهد الى بعضهم بعمل الملاحظة وعين مدرسا للحديث النبوى ومقرئا لقراءة الحديث وثلاثين طالبا يحضرون يوميا عهد الى بعضهم بوظيفة النقيب والى الآخر بوظيفة داعى السلطان عقب الدروس · ثم عين بالايوان القبلى بالجامع شيخا عالما مفتيا ورتب معه مقرئا مجيدا للقراءة على أن يحضر أربعة أيام من كل أسبوع منها يوم الجمعة فيقرأ المقرىء ما تيسر من القرآن وما تيسر من الحديث الشريف · وعين مدرسا حافظا لكتاب الله عالما بالقراءات الســـبع ليجلس كل يوم ما بين صلاة الصبح والزوال بالايوان القبلى وقارئا آخر يجلس معه ليلقن القرآن لمن يحضر عنده ثم عين اثنين من المراقبين لمراقبة الحضور والغياب أحدهما بالليل والآخر بالنهار · وأعد مكتبة عين لها أمينا والحق بالمدرسة مكتبين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط وقرر لهم الكسوة والطعام فكان اذا أتم اليتيم القرآن حفظا يعطى له خمسين درهما ويمنح مؤدبه خمسين درهما مكافأة له ·

وعين طبيبين مسلمين أحدهما باطنى والآخر للعيون يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد ليداوى من يحتاج من أرباب الوظائف والطلبة رتب طبيبا ثالثا جراحا · وقد أرصد فى وقفيته بيان مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين وقيمة ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وكذا فى سائر الأعياد ·

المدرسة كقلعة : لوقوع هذه المدرسة أمام قلعة الجبل اتخذها المماليك حصنا يدافعون به عن أنفسهم أمام القلعة فحينما تقع فتنة بينهم يصعد الأمراء وغيرهم الى

أعلا مدرسة السلطان ويضربون القلعة ٠ ففى سنة ٧٧١ هـ ١٣٦٩ م نصبت مكحلة أعلى المدرسة ورمى بها على باب السلسلة فهرب المماليك ولذلك أمر السلطان الظاهر برقوق فى ٨ صفر سنة ٧٩٣ هـ ١٣٩١ م بهدم السلم الموصل الى السطح وسد ما وراء الباب النحاسى الكبير ثم فتح شباك من شبابيك أحد المدارس ليتوصل منه الى داخل الجامع ٠ وفى رمضان سنة ٨٢٥ هـ ١٤٢١ م صرح بالآذان فى المنارتين وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الذى أخذه المؤيد ٠ ولما عاد الأمراء الى مهاجمة القلعة من منارات المدرسة أمر السلطان جقمق بهدم السلالم الموصلة الى المنارات وذلك فى سنة ٨٤٢ هـ ١٤٣٨ م ٠ وفى سنة ٩٠٢ هـ ١٤٩٦ م كانت موقعة اقبردى وحاصر القلعة وضربها من أعلا المدرسة بمكحلة أصاب أول حجر منها باب السلسلة فقوبل الاعتداء بمثله وصوبت المكحلة المعروفة بالمجنونة على من فى مدرسة السلطان حسن فأصاب المدفع شباك المدرسة فقتل ثلاثة من المماليك ٠ وفى هذه السنة حاصر طومانباى القلعة ونصب المكاحل ووقف الرماة على المدرسة ٠ ولما ولى ملك مصر أمر باصلاح جدران المدرسة واصلاح ما تلف منها لسبب محاصرتها للقلعة ٠ وفى سنة ٩٠٦ هـ ١٥٠٠ م هدم الأشرف جان بلاط جزءا بسيطا خلف محراب القبة بصعوبة ثم أوقف الهدم ٠ وفى سنة ١٠٨٢ هـ جدد المسجد حسن خزيندار الوزير ابراهيم باشا (ولعل المنارة البحرية والقبة من آثار هذه العمارة) ٠

ولما زار مصر الرحالة المغربى الورثيلانى سنة ١١٧٩ وجد جدارا كبيرا مهدوما من المسجد وكان العمل جاريا فى رفع انقاضه وبعودته من الحج بعد سنة ونصف وجدهم قد فرغوا من ترميمه ٠ ولعل هذه العمارة من أثر المعركة التى قتل فيها احد عشر أميرا فى بيت محمد بك الدفتردار سنة ١١٤٩ هـ وتسبب منها سد الباب الكبيرة ثانيا لمدة ٥١ سنة الى سنة ١٢٠٠ هـ حيث أصلح المسجد سليم أغا وفتح بابه الكبير وأزال الدكاكين التى أحدثت بأسفله وبنى له سلالم ومصاطب جديدة فازدحم المسجد بالمصلين ٠ ومن هذه الحوادث نرى كيف كافحت هذه المدرسة وصـــمدت أمام تلك التقلبات وبقيت محتفظة بكيانها أكثر من القلعة ٠ وقد قيض الله لها لجنة حفظ الآثار العربية فبذلت فى اصلاحها مجهودا جبارا فأكملت بناء منارتيها وأصلحت جدرانها ورخامها ونجارتها وأرضياتها حتى أعادت اليها رونقها بعد أن صرفت عليها ٤٠ ألف جنيه ٠ تحت اشراف المرحوم هرتس باشا كبير مهندسيها وصاحب الفضل على الكثير من الآثار العربية بمصر ٠

عصر المماليك الجراكسة :

سنة ٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ
سنة ١٤٨٣ ـ ١٥١٧ م

● دولة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج :

وصفنا العمارة فى دولة المماليك البحرية بالعصر الذهبى لأنها تركزت وتحصرت تفاصيلها ٠

وفى هذه الدولة أخذت العمارة زخرفها وازينت ٠

وقد تغلب انشاء المدرسة على المسجد ، وازدادت المنارة رشاقة وزخرفا ،وبلغت القبة ذروة مجدها ، فقد حفل سطحها بنقوش هندسية وأخرى مورقة ، وأصبح الغالب فى بنائها الحجر بدل الطوب ٠

وتقدمت صناعة النجارة ورقت ، وأدخل على تطعيمها نوع آخر من الزخرف بجانب الأويمة وهو الزرنشان ٠

وصناعة الرخام وان كانت زاهية جدا فى دولة المماليك البحرية فانها ظلت على تقدمها وشمل هذا التقدم الوزرات والأرضيات ٠ وثمة ظاهرة أخرى وعلى الكتابات الكوفية المزهرة التى استعملت فى أفاريز الوزرات وشيوع الخط الكوفى المربع فى الأبواب العمومية (١) ٠

وكذلك اطرد التقدم فى صناعة السقف الخشبية كما تطورت المقرنصات وشاع الزخرف فى الوجهات وفى طاقات المقرنص وفى صبج العقود من الداخل ٠

وقد تقدمت صناعة الأبواب النحاسية ورقت زخارفها ٠

وبقدر التقدم فى التفاصيل المعمارة بقدر التأخر فى الزخارف الجصية التى عوضت بتقدم بالغ فى صناعة الشبابيك الجصية والتوفيق فى اختيار الوان زجاجها ٠ وأصبح السبيل والكتاب من الملحقات الضرورية للمدرسة ، وظهر لأول مرة السبيل والكتاب كأثر مستقبل ٠

المماليك الجراكسة :

● أصلهم رقيق جلب الكثير منهم من سيبريا ،وعنى سادتهم بتعليمهم وتثقيفهم

---

(١) بحث الاستاذ حسن عبد الوهاب مفتش الاثار المصرية
نشر بمجلة العمارة والفنون بالعدد ٩/١٠ ـ ١٩٥٤

حتى شغل الكثير منهم وظائف كبيرة فى الدولة ، وبعضهم ولى ملك مصر ٠ وامتاز فى هذه الدولة ملوك وأمراء بما قاموا به من أعمال جليلة وشغف بالعمارة الاسلامية أخص بالذكر منهم الملك الظاهر برقوق والملك المؤيد شيخ المحمودى والملك الأشرف برسباى والملك الأشرف قايتباى والملك الأشرف قانصوه الغورى ٠

وأول ملوك هذه الدولة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنس ، فقد كان مملوكا للأمير يلبغا العمرى الذى اشتراه فى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٤ م) وأعتقه وجعله من مماليكه ثم تقلب فى جملة وظائف الى أن تبوأ عرش مصر فى رمضان سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢م) ٠ وكان ملكا حازما أبطل كثيرا من الضرائب وضربت النقود باسمه واتسعت مملكته ٠

انتقل الى رحمة الله تعالى فى ليلة النصف من شوال سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) ٠

وقبل الدخول فى منشآت هذه الدولة أتناول بالبحث قبتين هامتين نسبتا خطأ الى هذا العصر ، اذ نسبت الأولى الى أنس والد برقوق والثانية الى خديجة أم الأشرف ٠ وكلاهما من منشآت آخر عصر المماليك البحرية ٠

قبة يونس الدوادار (أنس) :

هذه القبة بحرى غربى خانقاه فرج بن برقوق بالصحراء ، وهى معروفة باسم أنس والد برقوق لأنه لما توفى سنة ٧٧٣ هـ (١٣٦٨م) دفن بهـا ونقش على عتب الشباك الغربى ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ٠ لما كان بتاريخ يوم السبت ١٨ شوال سنة ٨٧٣ توفى المقر المرحوم الشرفى أنس تغمده الله برحمته والد المقر الأشرف العالى السيفى برقوق أتابك العساكر عز نصره » ٠

وهذا هو السبب فى نسبتها خطأ اليه وادخال بعض التعديل على فتحاتها وكسوة بعض جدران قاعدتها بالحجر ، ولكن الحقيقة أن هذه القبة مخلفة من خانقاه أنشأها الأمير يونس الدوادار قبل سنة ٨٧٣ هـ (١٣٦٨م) لأن ابن تغرى بردى وابن حجر العسقلانى المؤرخين يؤكدان أنه لما توفى أنس والد برقوق دفن فى تربة يونس الدوادار ٠

ونظرا لخلوها من النصوص التاريخية لجأت الى تحـديد عصرها بالمقارنات المعمارية مبتدئا بوصفها فنيا ٠ فهى مبنية بالطوب وقاعدتها مبنية بالحجر تعلوها

شرفة مورقة نعتبرها من بواكير الشرفات المورقة التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى · ويتصل بها طرف رباط يعزز أنها مخلفة من بناية كبيرة لعلها مدرسة أو خانقاه وقد كسى سطح القبة بنقوش هندسية عبارة عن قنوات مستطيلة متقاطعة تربطها ميمات · هذا من الخارج ومن الداخل لها مقرنص من حطتين يتفق كثيرا مع مقرنصات قباب منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ·

ونظرة الى تقاسيم سطح القبة تحملنا على الاعتقاد بأن هذا الطرز من الزخرف هو الأول من نوعه فى القباب وكان ظهوره فى أوائل النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى) وتبعه ما بعده من شكله فى المنارات وفى القباب فى النماذج الخمس الآتية حسب سلسلتها التاريخية :

١ ــ منارة مسجد آسنغبا البوبكرى بدرب سعادة سنة ٧٧٢ هـ (١٣٧٠م)·

٢ ــ منارة خانقاه فرج بن برقوق بالصحراء سنة ٨٠١ ــ ٨١٣ هـ (١٣٩٨ ــ ١٤١٠ م) ·

٣ ــ منارة الأشرف برسباى بالأشرفية سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ م) ·

٤ ــ قبة تغرى بالصليبة سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) بشارع الصليبة ·

٥ ــ منارة مسجد قراقجا الحسنى بدرب الجماميز سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م) ·

ونظرا لأن تفاصيل هذه القبة تتماشى مع تفاصيل قباب منتصف القرن الثامن الهجرى من حيث بنائها بالطوب ومن تفاصيل المقرنص وأن زخرفة سطحها ظهرت كذلك فى بدن منارة آسنبغا المنشأة سنة ٧٧٢ هـ (١٣٧٠ م) فان عصر انشاء هذه القبة يرجع الى الربع الثالث من القرن الثامن الهجرى ·

مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق :

هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله (بين القصرين) (١) أمر بانشائها الملك

---

(١) لشارع بين القصرين ذكريات تاريخية مجيدة لازمت حضارة القاهرة فى أزهى عصورها الاسلامية فقد عرف بهذه التسمية لوقوعه بين القصرين الفاطميين الشرقى الكبير وقد حل فى قسم من أرضه المدرسة والقبة الصالحية والمدرسة الظاهرية القديمة وسبيل محمد على وسوق السلاح القديم وقصر بشتاك والقصر الصغير الغربى · وقد حل فى قسم من أرضه مدرسة وقبة وبيمارستان قلاوون ومدرسة ابنه الناصر محمد والمدرسة الظاهرية (برقوق) ومدرسة الحديث الكاملية · ثم جددت هذه التسمية فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بسبب انشاء قصر الامير بيسرى وقصر الامير بشتاك تجا وقد ضاع الاول ·

الظاهر أبو سعيد برقوق وعهد الى الأمير جركس الخليلى بالاشراف على تنفيذها فهدم خان الزكاة الذى كان موجودا هناك وشرع فى البناء فى شهر رجب سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) واستحضر لها الأحجار الضخمة وأعد لها العجول لسحبها على عجل خصص لنقلها من الجبل • ومن ذلك الحين أطلق المعماريون على الحجارة الكبيرة اسم « عجالى » •

واستمر العمل سائرا بهمة كبيرة حتى انتهى فى مستهل شهر ربيع الأول سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) • وفى ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) نقل رفاة والده أنس وابن له من تربة يونس الدوادار الى قبة هذه المدرسة • وفى يوم الجمعة ١٠ رمضان سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) أقيمت صلاة الجمعة فيها واحتفل بافتتاحها •

وصف المدرسة : قبل الدخول فى وصفها نلقى نظرة على واجهتها الرئيسية المشرفة على الشارع فنرى واجهة عالية مبنية بالحجر يبتدىء طرفها القبلى بالباب العمومى المكسى بالرخام الملون الملبس بطريقة فنية نماذجها قليلة اقتبست من مسجد أصلم السلحدار فى مثل هذا الوضع وأجمل منهـا وأدق فى محراب المدرسـة الطيبرسية بالأزهر •

وينتهى الطرف البحرى بقبة تجاورها منارة عظيمة من ثلاث دورات امتازت بتلبيس الرخام فى بدن دورتها الثانية ، وهو أول نموذج لتلبيس الرخـام فى بدن المنارات بمصر ، فقد سبقه تلبيس الحجر الملون فى المنارات السابقة لها •

ويتوسط الواجهة شبابيك من النحاس بأعتابها مزررات من الرخام وخلقت فى أكتافها عمد من الحجر نقشت تيجانها ، يعلوها شبابيك غطيت بمصار من الخشب المجمع بأشكال هندسية آية فى الابداع ، وغطاء الشبابيك بمصـاريع خشبية بـدل الجصية نماذجها معدودة أقدمها فى سبيل للناصر بالنحاسين فى مدرسـة بيدمر البدرى • وتتوج الواجهة بطراز كتب فيه اسـم المنشىء وألقابه وتاريخ الفـراغ من العمارة •

نترك الواجهة لنجتاز الباب الرئيسى وقد ركب عليه مصراعان مغشيان بالنحاس المفرغ بنقوش دقيقة ومكفت بالفضة وقد كتب عليهما اسم المنشىء أيضا وهما أقرب المصاريع شبها بمصراعى مدرسة السلطان حسن بجامع المؤيد وكلاهما من أنفس المصاريع النحاسية • وهذا الباب يؤدى الى طرقة مربعة غطيت بقبة صغيرة على يمينها باب يؤدى الى طرقة مستطيلة فرشت أرضيتها بدوائر الرخام الملون الى صحن

المدرسة وقد أحيطت به المدارس الأربعة التى غشيت مصاريع أبوابها بالنحاس وحليت أعتابها بالرخام ويعلو كل باب شباك صغير من النحاس المفرغ بأشكال هندسية لعلها النموذج الثالث لشبابيك النحاس المصبوب • اذ الأول فى قبة السالح نجم الدين والثانى فى المدرسة الطيبرسية •

ويكتنف الباب الغربى بابان أحدهما يؤدى الى الخانقاه التى تخربت •

وبوسط الصحن ميضأة عليها قبة أقيمت على ثمانية أعمدة جددتها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣١٤ هـ حلت محل سابقتها القديمة الباقى منها فوارتها •

أما تصميمها فهو كبقية المدارس : أربعة ايوانات بصحن مكشوف • أما ايوان القبلة فقد فرشت أرضه بالرخام المقسم ، الأمامى منه على هيئة محاريب مقتبسة من مثيلتها فى خانقاه بيبرس الجاشنكير ، وكلاهما مقتبس من فكرة الحصر الفاطمية ذات المحاريب التى انتشرت فيما بعد فى السجاد •

وكسيت الجدران بوزرة بسيطة • وبصدره المحراب ، وهو من أدق أعمـــال الرخام فى هذه المدرسة •

وعلى جانبى هذا الايوان ايوانان صغيران كل منهما أقيم على عمـــودين ضخمين من الجرانيت ، ولهما سقف صغيرة مذهبة ذات دلايات • أما سقف القسم الأوسط فهو مستو ويتوسطه صرة مخوصة وقد حفل بالنقوش الملونة • وقد حاكاه فيما بعد الأشرف برسباى فى سقف الايوان الغربى بمدرسته بالأشرفية • والمنبـــر تسوده البساطة ، ومنشئه الملك الظاهر أبو سعيد جقمق واسمه منقوش عليه ، وبطرف هذا الايوان دكة من الرخام •

وفى الطرف البحرى القبة تلاصق الايوان الشرقى وأمامها طرقة مربعة يحدق بها أربعة أبواب حفرت مصاريعها بزخارف نباتية مورقة بشكل مبتكر ظريف يعد الأول من نوعه له مثال ثان فى المدرسة الجوهرية • وهذه القبة غنية بزخارفها فى الرخام وفى المحراب والنقوش ، ويتوسطها قبر والد المنشىء وأولاده ، ويحيط بمربعها افريز مذهب كتب عليه اسم المنشىء وألقابه ثم مقرنص مشحون بالزخارف •

أما غطاء القبة فانه جديد من انشاء لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) •

المهندس :

قل أن نعرف اسم المهندس الذى شاد تلك المنشآت المعمارية العظيمة اللهم الا النزر اليسير · ومن حسن الحظ أن نعرف اسم مهندس هذه المدرسة وهو شـــهاب الدين أحمد بن الطولونى ، وهو مهندس ابن مهندس من أسرة اشتغلت بالهندسة وقامت بأعمال معمارية فى مصر والحجاز· وقد بلغ من اعجاب الملك الظاهر برقوق به وتقديره له أن صاهره فى ابنته · ويعلق المغفور له تيمور باشا على تلك المصاهرة بأنها تدل على ما كان للمهندسين ونحوهم من المكانة العظيمة بين الناس بحيث لا يترفع السلطان عن مصاهرة أحدهم ·

وسنقف فيما يلى من هذه السلسلة على أسماء مهندسين من هذه الأسرة شادوا بنايات على جانب عظيم من الأهمية ·

مسجد الكردى :

هذا المسجد بشارع الخيمية ، أنشأه الأمير جمـــال الدين محمود بن على الاستادار سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) وكان به مكتبة من أنفس مكتبات القاهرة ·

تخيرت هذا المسجد من مساجد هذا العصر مع عدم اشتهاره كغيره لميزات بنية اختص بها ، فترى واجهته الغربية وهى الرئيسية اشتملت على شبابيك نحاسية هامة · كما نرى منارته الرشيقة تعلو مدخله بعكس الرأى السائد أن المنارات فوق المداخل وقفت عند المماليك البحرية وندرت فيما بعدها · وانى أقرر أن المنارات فوق المداخل امتدت حتى العصر العثمانى ·

وكذلك الباب النحاسى فاننا نرى فيه لونا جديدا من دقة الزخرف فى صناعة الأبواب النحاسية ·

وتصميم المسجد جمع بين تصميم المدرسة والخانقاه · فايواناه الشرقى والغربى عقدان كنظام المدارس ، أرجح أن الشرقى منهما كانت تعلوه قبة لم يبق منها سوى مقرنصاتها الخشبية · أما الغربى فله سقف من زخارف بيضاء على أرضية ذهبية وبالجانبين القبلى والبحرى حجرات على ما نراه فى الخوانق وقد حليت نوافذها ببارزات خشبية مفرغة بأشكال زخرفية ومدقوقة بالأويمة مقتبسة من مثيلاتها فى خانقاه سنجر الجاولى المنشأة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) وكلاهما ظريف ونادر ·

وفى الطرف القبلى الغربى القبة المبنية بالحجر وسطحها مغطى بزخارف دالية ، وهى قبة صغيرة لها أهمية عظيمة لأنها تعتبر باكورة لتطور الزخرف فى القباب الذى أخذ يتدرج بعد ذلك حتى بلغ القمة ·

قبة كزل :

هذه القبة بشارع السلطان أحمد بصحراء قايتباى ، أنشأها الأمير كزل بن عبد الله الناصرى الظاهرى أحد أمراء الناصر فرج بن برقوق ، والمتوفى سنة نيف وعشرين وثمانمائة ·

وكان الفراغ من انشائها فى ١٠ جمادى الاخرة سنة ٨٠٥ هـ ـ (١٤٠٢ م) ·

وهذه القبة وان كانت قد أنشئت فى دولة المماليك الجراكسة الا أنها متأثرة بقباب دولة المماليك البحرية ، فقد بنيت قاعدتها بالحجر ويتصل بها بقية جدران تنبىء عن ملحقاتها التى فقدت وأحيطت القاعدة بشرفة مورقة تعلوها قاعدة مربعة مدرجة النواصى بجوانبها الأربع شبابيك مثلثة ثم رقبة مثمنة تعلوها أخرى أسطوانية بها شبابيك صغيرة بعضها مفتوح والأخرى مضاهية نسبة ١ الى ٢ تعلوها أخرى أسطوانية كانت بها كتابة جصية بها آية الكرسى منها بقية ثم القبـــة المضلعة من الخارج فقط ·

وكل هذه التفاصيل توفرت فى قباب دولة المماليك البحرية لا الجـــراكسة ، خصوصا وأن مقرنصها من حطتين ، فلم تتعدد حطاته كما وجد فى غيرها من قباب هذه الفترة ·

لا شك أن عصر دولتى المماليك ١٢٥٠ ـ ١٧١٥ م هو العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الاسلامية فى مصر · فقد كان الاقبال عظيما على تشييد المبانى الدينيـــة والتذكارية والعامة من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات وأسبلة ووكالات ، كما ظهر التنوع والأناقة فى شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنائر وقباب وزخارف جبس أو رخام · وقد روعى فى تصميم بناء المسجد تصميم المدرسة والأضرحة بدون أن يترك تماما تصميم الجوامع المستقلة ذات الايوانات والأعمدة والأكتاف · وأهم جوامع عصر المماليك يأتى :

١ ـ جامع السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٦ م :

وهو مربع تقريبا ، وقوام تصميمه صحن يحف به أربع ايوانات أكبرها ايوان

القبلة وبعض عقود محمولة على أكتاف والبعض الأخر على أعمدة من الرخام ، وقد بنيت واجهاته الأربع بالحجر بينما أبنيته الداخلية من الطوب وأبوابه الثلاثة بارزة ومزينة بزخارف جميلة ٠ والمجاز الأوسط فى ايوان القبلة يظهر أكثر عظمة وقوة حيث يعلوه قبة فوق المحراب قاعدتها مربعة وطول ضلعها ٢٠ مترا - يرجى أن تنظر الصور والرسومات ٠

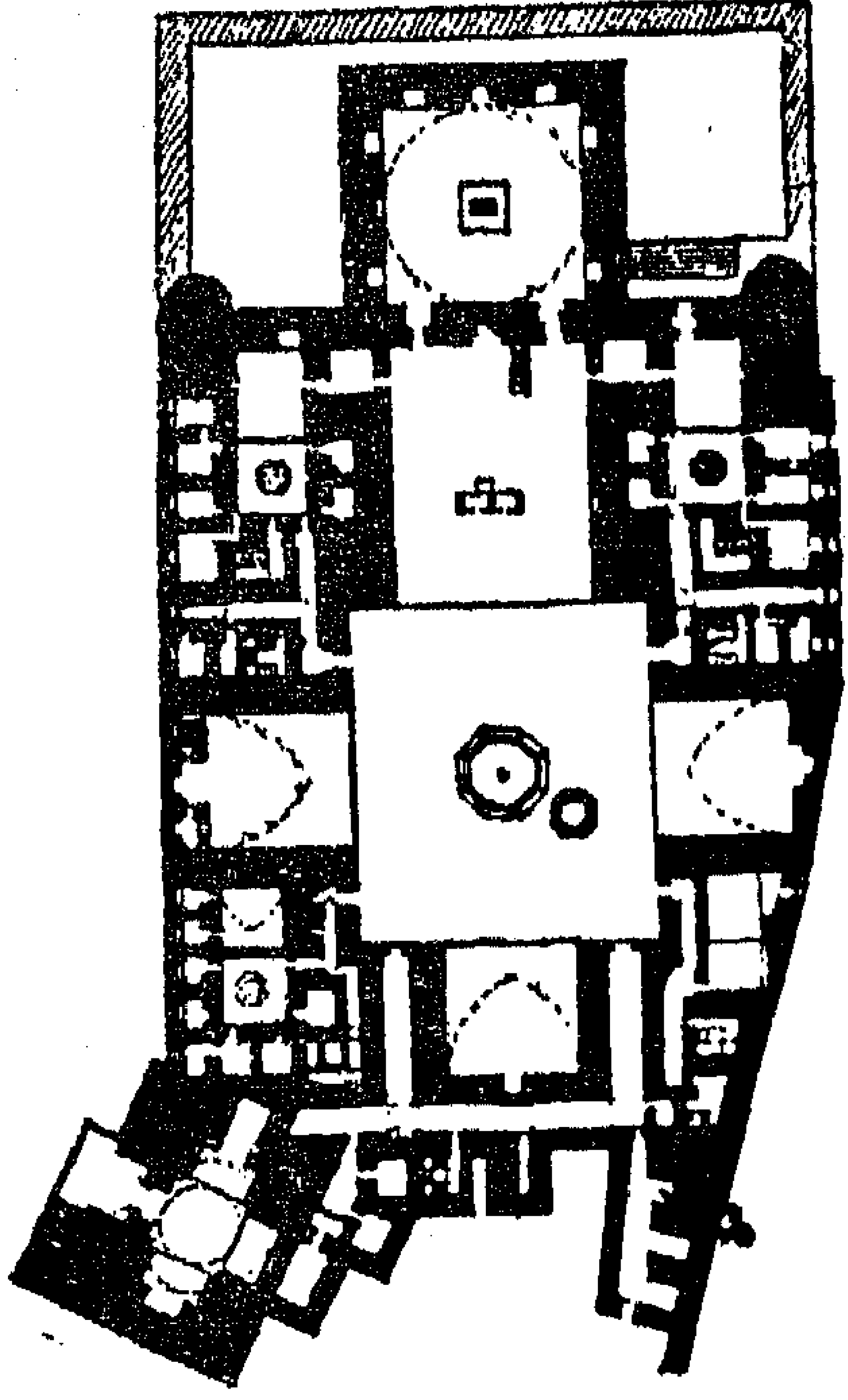
٢ - جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة ١٣٣٤ م :

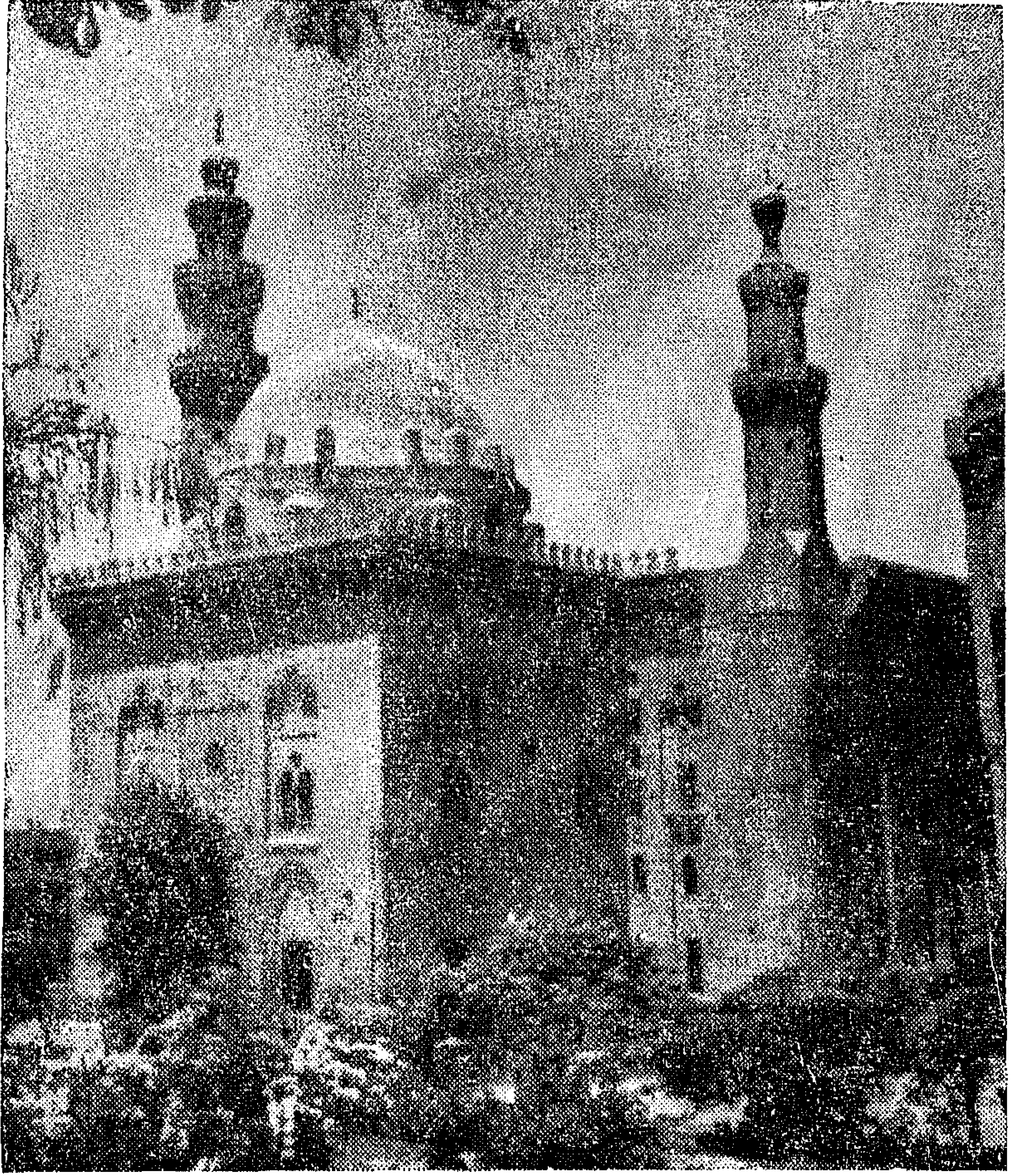
كان قوام تصميمه صحن يحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة ، وأمام المحراب قبة كبيرة محمولة على أعمدة ضخمة من الجرانيت الأحمر ، كما أن عقوده محمولة على عمد أيضا ٠ أما فى العمائر التى روعى فيها تصميم المدرســـة ذات الايوانات المعقودة المتقابلة على شكل صليب فقد زيد فى مساحة البناء ليكون مدرسة ومسجد فى نفس الوقت ، بل أن الأسمين يطلقان معا ، وكثيرا ما كان يضاف اليه ضريح للمنشىء ٠ وكان ايوان القبلة فى هذه المدارس والمساجد أوسع من ســـائر الايوانات حيث تبدو هذه كأنها حنيات فى الجدران وهى فى ذلك على عكس المدارس الايوانية التى اتبعت فى تصميمها التماثل التام ٠

٣ - جامع السلطان حسن : القاهرة ١٣٥٦ م :

لا ريب أن أجمل الجوامع الاسلامية فى مصر والشام ذلك الجامع الضخم الذى يقوم فى سفح القلعة بالقاهرة ، والذى أمر الســـلطان المملوكى الناصر حسن بن الناصر محمد بتشيده فى الفترة الثانية من حكمه ، فبدأ بناؤه عام ١٣٥٦ م بعد وفاة السلطان حسن بعامين ٠ ولهذا الجامع مظهر جديد أو ساحة هائلة وتصميمها عجيبا وحدودا مترامية ، وقبة عظيمة وأبواب فخمة ، وايونات عالية وزخارف لطيفة ، ولهذا مما جعله أجمل العمائر الاسلامية فى العصر المملوكى ونال شهرة عالية تمثل مجد الاسلام ٠ وقد فطن مؤرخو العصور الوسطى الى جمال هذا المسجد الذى شـــيد بالحصن المنيع ، ان السلطان أعياه الانفاق على تشييده ، وكان اليأس يدب فى نفسه لولا أنه خشى أن يقال أن سلطان مصر غير قادر على اتمام بناء شرع فى اقامته ٠

● ومساحة هذا الجامع لا تقل عن ٧٩٠٠ متر مربع ، وطـوله ١٥٠ متر وعرضه ٧٨ مترا وارتفاعه عند بابه ٣٧ مترا ٠ أما تصميمه فهو على نمط المدارس التى كانت تشيد لتدريس المذاهب السنية فضلا عن اقامة شعائر الدين ٠ فكان صحن المسجد صليبى الشكل قوامه صحن حوله أربعة ايوانات للدرس ، وفى الزوايا الأربع



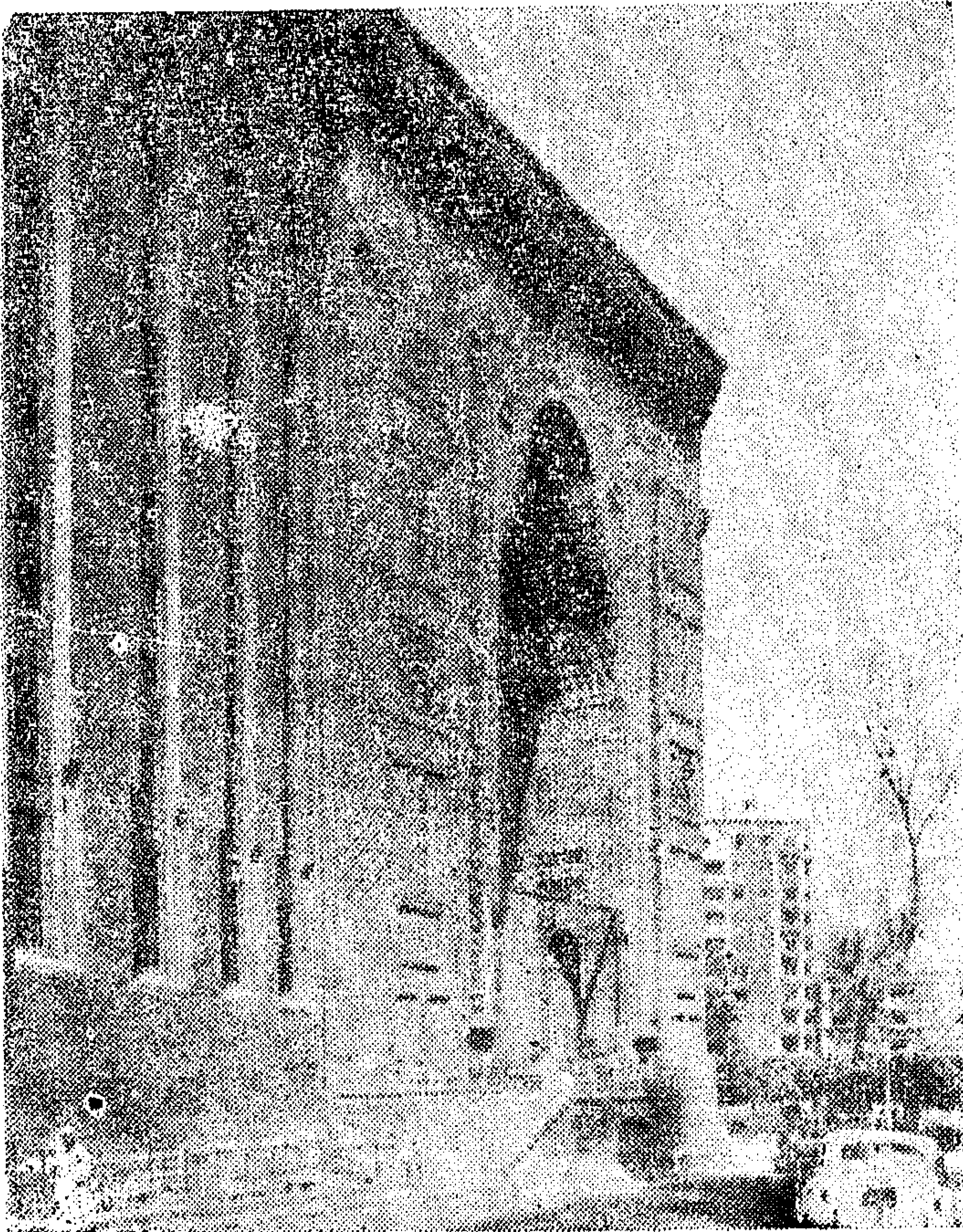


٢٠٣ ـ المسقط الافقى لمسجد السلطان حسن
٢٠٤ ـ منظور عام والواجهة الرئيسية ٠
٢٠٥ ـ المدخل العمومى للمسجد ٠

جامع السلطان حسن : ١٣٥٦ هـ ـ ٣٦٢٠ م

فى ميدان صلاح الدين بالقاهرة أنشأ السلطان الملك المعاصر حسن بن محمد بن قلاوون هذا الجامع ويعتبر من أجمل الآثار الاسلامية فى مدينة القاهرة حيث أنه يجمع بين قوة البنـــاء وعظمته ودقة الزخارف وجمالها ٠

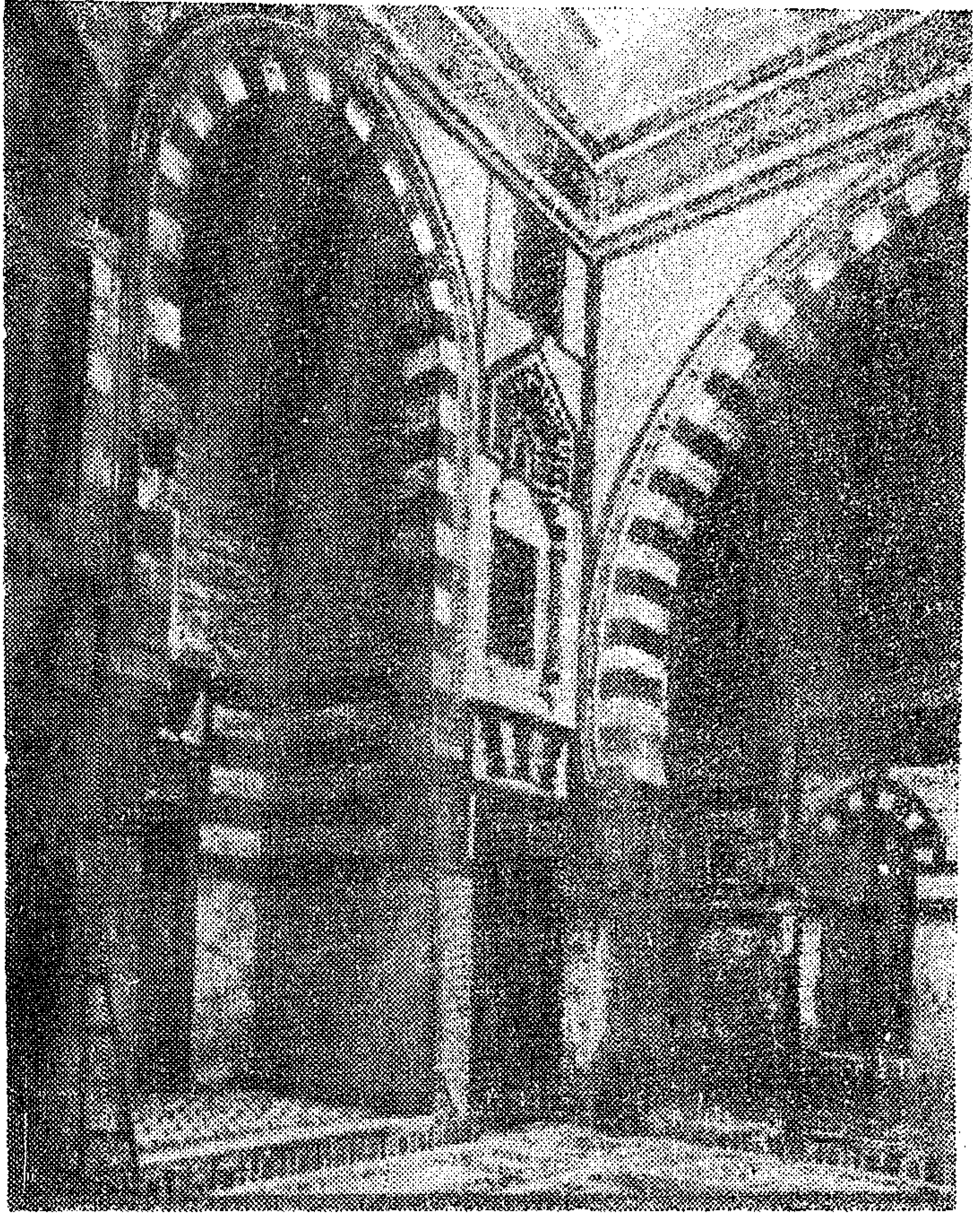
يتكون المسقط الافقى من صحن مربع يتوسط العدسة ويحيط به أربعة ايوانات للمذاهب الاسلامية الاربعة ـ حنفى ، شـــافعى ، مالكى وأبو حنيفة ـ وأكبر الايوانات ايوان القبلة حيث يوجد الضريح خلفه ويتكون من قاعة مربعة تعلوها قبلة محمولة على ستة صفوف من المقرنصات ، ويكتنف جدار محراب المسجد من الخارج مئذنتان رشـــيقتان ، ارتفاع الجنوبية ٦٠ر٨١ م وتبلغ مساحته حوالى ٧٩٠٠ م وارتفاع المدخل ٨٠ر٣٧ م بدء فى انشـاء هذه المجموعة عام ١٣٥٦ م لتكون مسجدا ومدرسة للمذاهب الاسلامية الاربعة ، وألحق بها مســاكن للطلبة ، وتوفى السلطان حسن عام ١٢٦٣ م قبل أن تستكمل ولم يدفن تحت قبتها بل دفن فيها ابنهالشاب أحمد الذى توفى سنة ١٣٨٦ م ٠



السلطان **قايتباى** ، هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى الجركسى ، ولدعام ١٤٢٣ م وبويع بالسلطنة عام ١٤٦٨ م ،وظل ملكا على مصر نحو ٢٩ سنة ،أقام كثيرا من من المنشئات المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر ، وعنى بالعمارة الحربية وبالحصون والقلاع ،فأنشأ قلعة بالاسكندرية وأخرى برشيد وينسب اليه ما يزيد عن سبعين أثرا معماريا اسلاميا . وتوفى سنة ١٤٩٦ م .

وتعتبر مجموعة قايتباى بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية فى مصر الاسلامية وترجع أهميتها الى جمال تنسيق المجموعة مع بعضها والتى تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وضريح وكتاب ومئذنة . وقد لعبت دقة الصناعة وجمال النسب والتكوين الهندسى المعمارى دورا هاما فى ابراز جمال هذا الاثر الفنى المعمارى .

ويتكون المسقط الافقى من صحن مربع ، محاط بأربعة ايوانات ، أسقف الايوان الرئيسى من الخشب المزخرف المحلى بالنقوش المذهبة . وكان الصحن فى بادىء الأمر مغطى بسقف من الخشب يعلوه منور مثمن . والمدخل الرئيسى معقود بعقد ذى ثلاث فصوص والى يمين المدخل توجد المئذنة وتعتبر من أجمل المآذن المصرية المعروفة بنسبها الجميلة والزخارف البديعة . والى يسار المدخل يوجد السبيل ويعلوه الكتاب ، ويعلى الواجهة افريز من الشرافات النباتية .

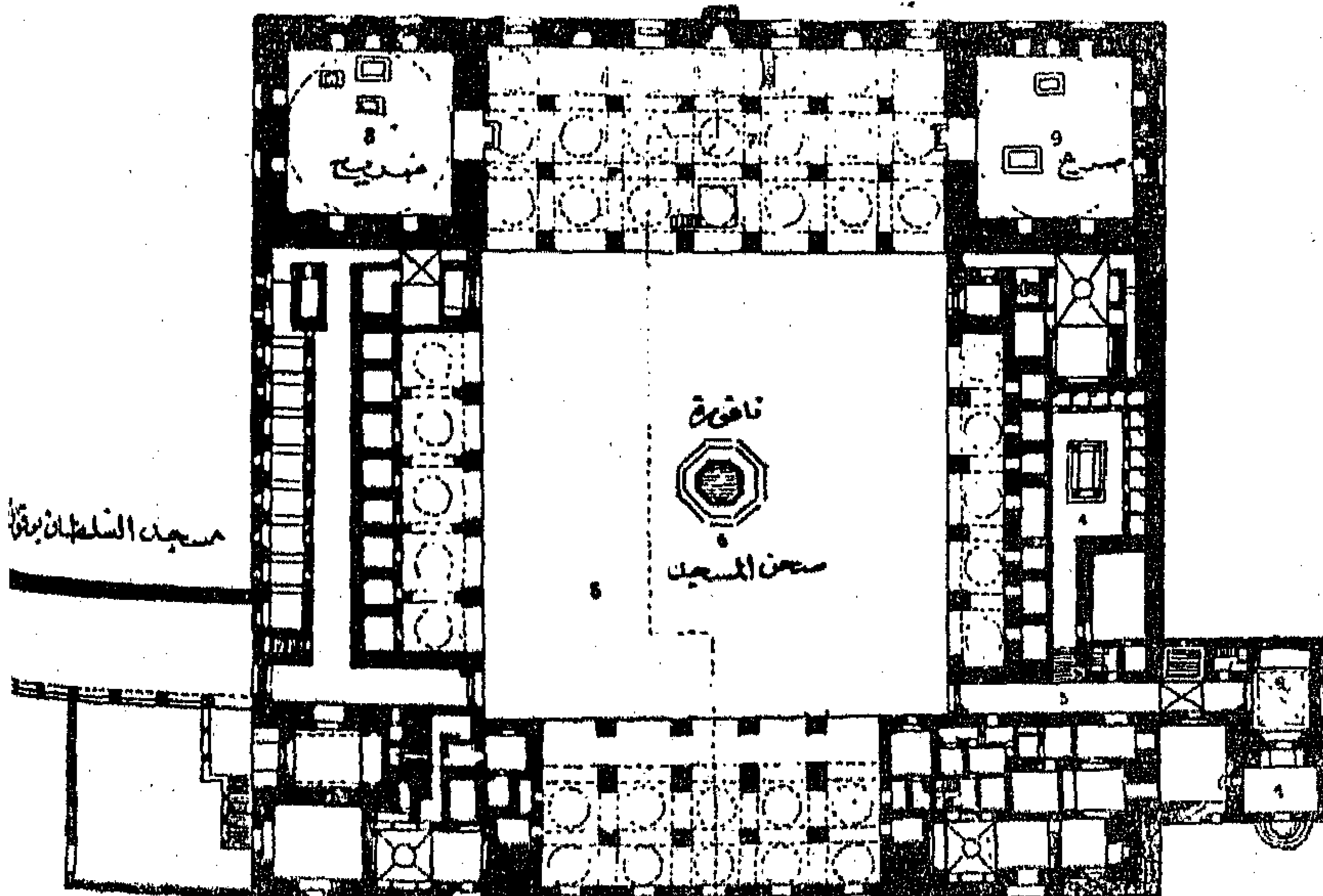


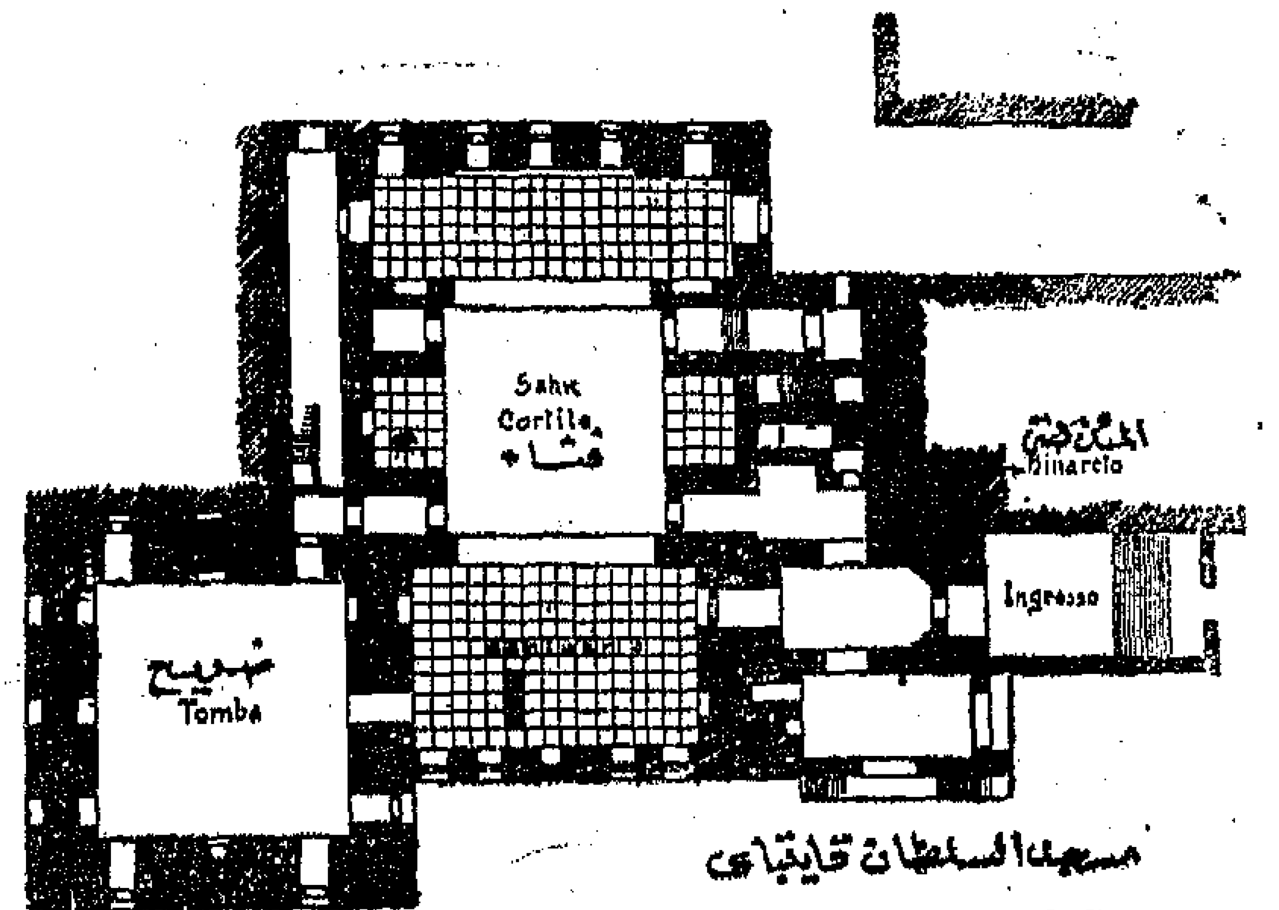
٢٠٦

مسجد وضريح السلطان قايتباى

العباسية ـ القرافة الشرقية : ١٤٧٢ م

٢٠٧





٢٠٦ ـ مسجد قايتباى والضريح

٢٠٧ ـ المسقط الافقى للمسجد والضريح

٢٠٨ ـ المحراب والمنبر فى المسجد

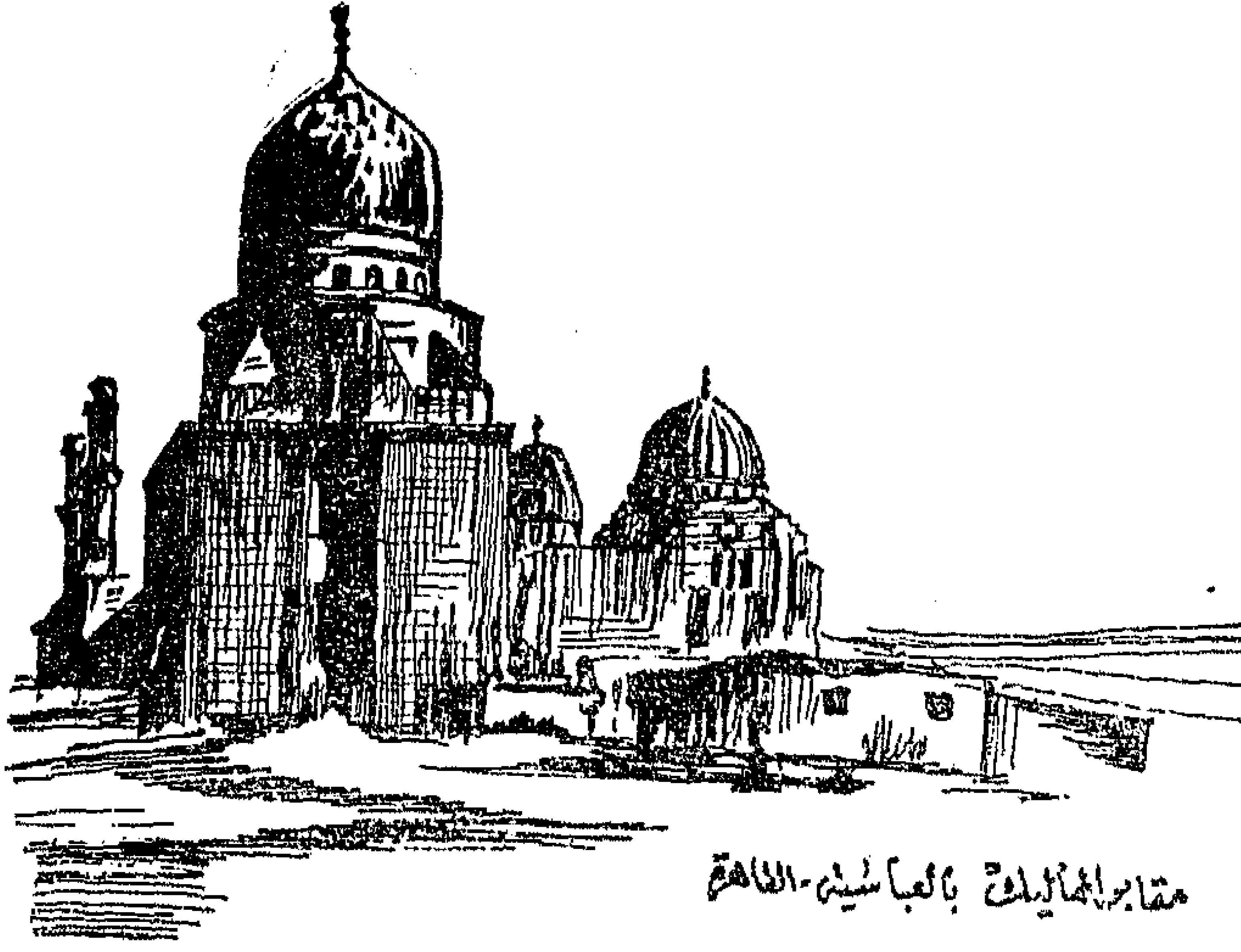


مسجد وضريح وخانقاه
السلطان برقوق : ١٣٨٣

٢٠٩

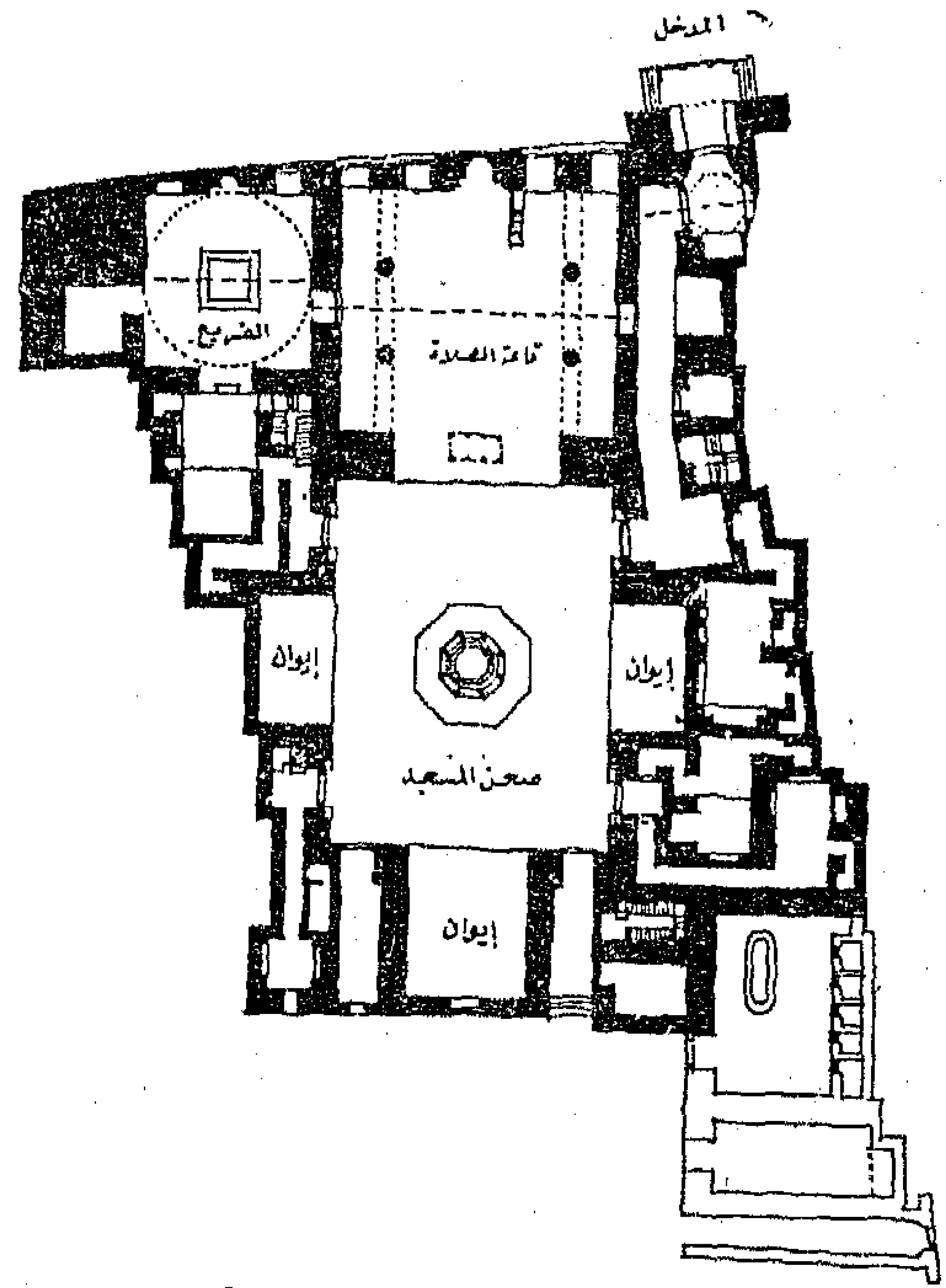
● التخطيط العام مربع الشكل لهذه المجموعة يتوسطه صحن بعقود مدببة محمولة على دعائم حجرية · ويتكون رواق القبلة من ثلاث بلاطات ، والرواق المقابل له من اثنتين ، أما الرواقان الجانبيان فيتكون كل منهما من بلاطة واحدة ، وبرواق الصلاة على الجانبين غرفتان مربعتان عبارة عن ضريحين ، الشرقية منهما بها رفاة السلطان برقوق وابنه فرج والمقابلة لها بها رفاة ثلاث سيدات من الأسرة المالكة فى ذلك الوقت ، وخلف كل من الرواقين الصغيرين وكذا فى الركن الغربى توجد غرف الخانقاه ·

● وبجوار المدخل الرئيسى المغطى بعقد طاقيته محمولة على مقرنصات يوجد سبيل يعلوه كتاب لتحفيظ القرآن أضيفا بعد انشاء المبنى · ويوجد مئذنتان فى الواجهة الشمالية الغربية تتكون كل منهما من ثلاث طبقات السفلى مربعة والوسطى اسطوانية والعلوية مفرغة بأعمدة · وتعتبر هذه المجموعة المعمارية التى تتكون منها هذه الخانقاه من أكبر المجموعات التى أنشئت فى قرافات مصر لخدمة أغراض مختلفة ، فهى تجمع بين بناء مسجد لاقامة الصلاة وخانقاه لاقامة الصوفية ومدافن للسلطان الظاهر برقوق وأفراد أسرته ومدرسة لتلقى العلم وحفظ القرآن وسبيل للشرب، أى أنها مجموعة كاملة متكاملة من المبانى تخدم عدة أغراض مختلفة ، وهو ما يتبع الان فى تخطيط وتنظيم العمارة الحديثة فى هذا العصر ·

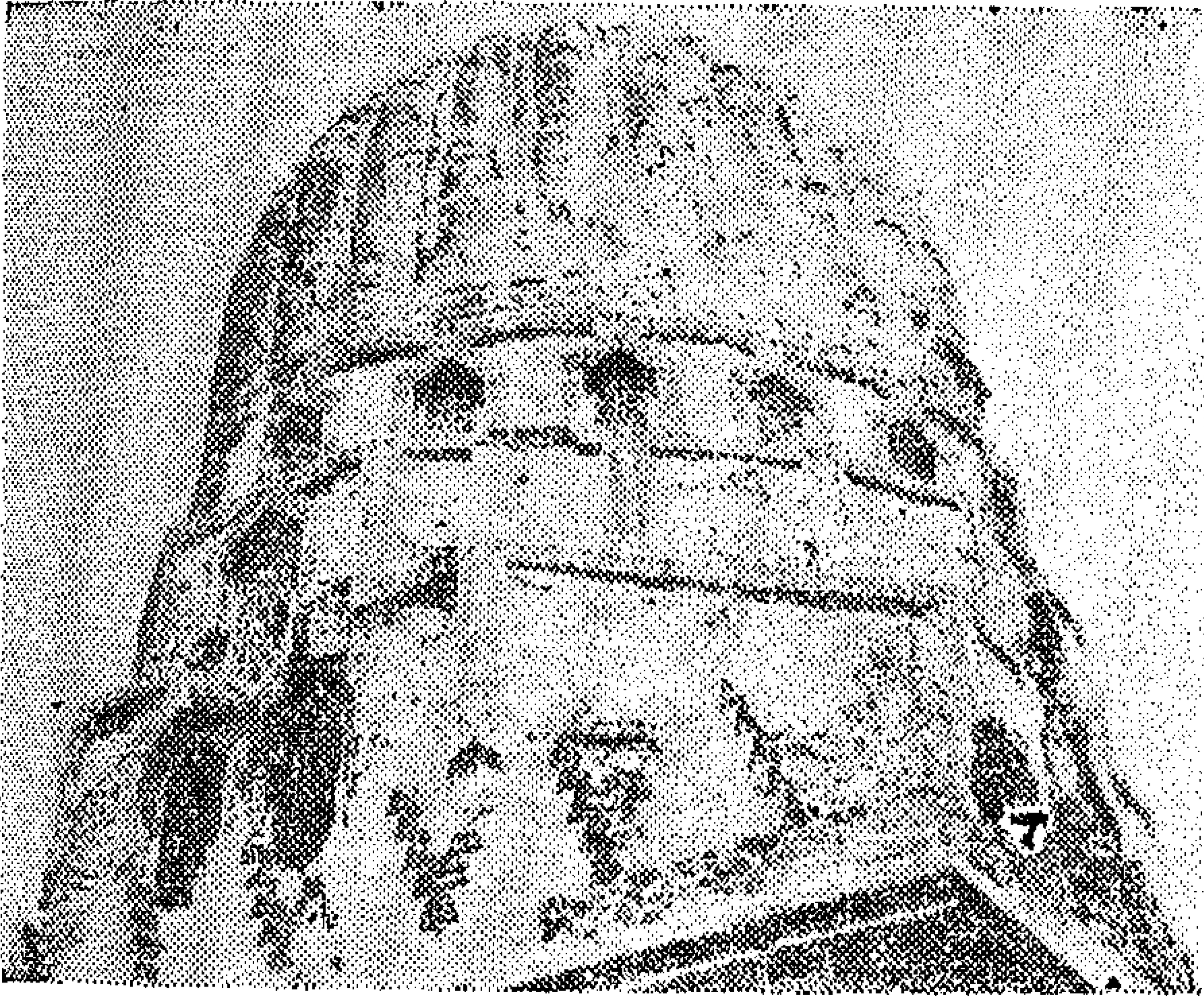


٢١٠ : منظور اسكتش المقابر والمماليك بالعباسية
٢١١ : منظور عام من الطبيعة لمقابر المماليك
٢١٢ : قبة جامع برقوق الحجرية من مقابر المماليك

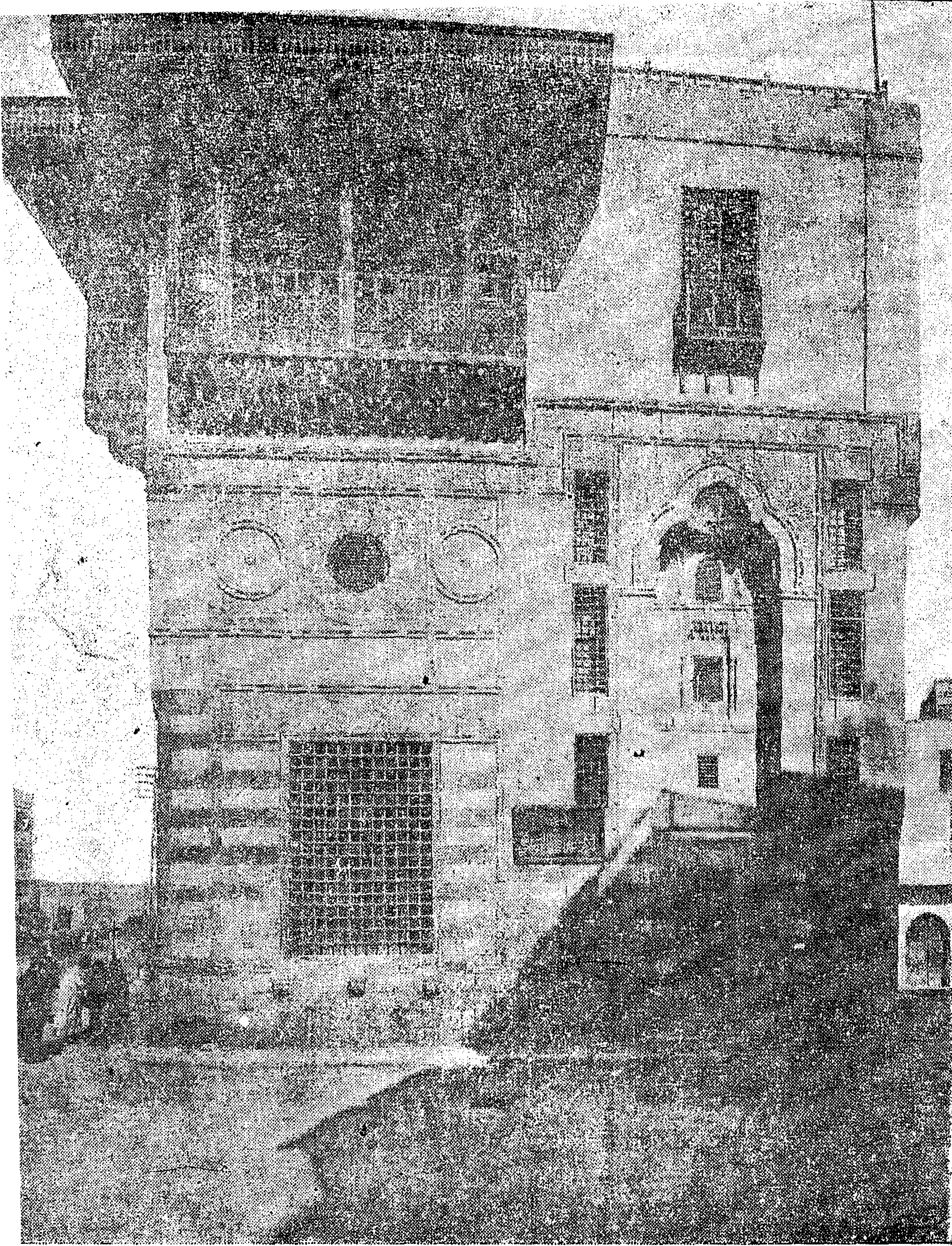
٢١٠ ٢١١



فى عصر المماليك ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م كثر انتشار بناء المدافن الكبيرة ، وهى تتشابه فى تصميمها الى حد كبير . ولا ريب أنها تشبه فى كثير من العناصر المعمارية ما عرف عنها فى الاضرحة فى التركستان ، ولكن ارتقى تصميمها فى مصر مع تطور ملحوظ فى البناء . وتفخر القاهرة بأن بها مجموعة كبيرة من الاضرحة تعرف خطأ باسم قبور الخلفاء وهى فى الحقيقة قبور المماليك ، وأجملها مدفن برقوق وقايتباى . حيث تقدمت صناعة القباب الحجرية فى عصر المماليك ووصلت بجمال خطوطها ورشاقتها وزخارفها بالنقش البارز من الخارج والداخل الى أقصى حدود الرشاقة والجمال .



٢١٢

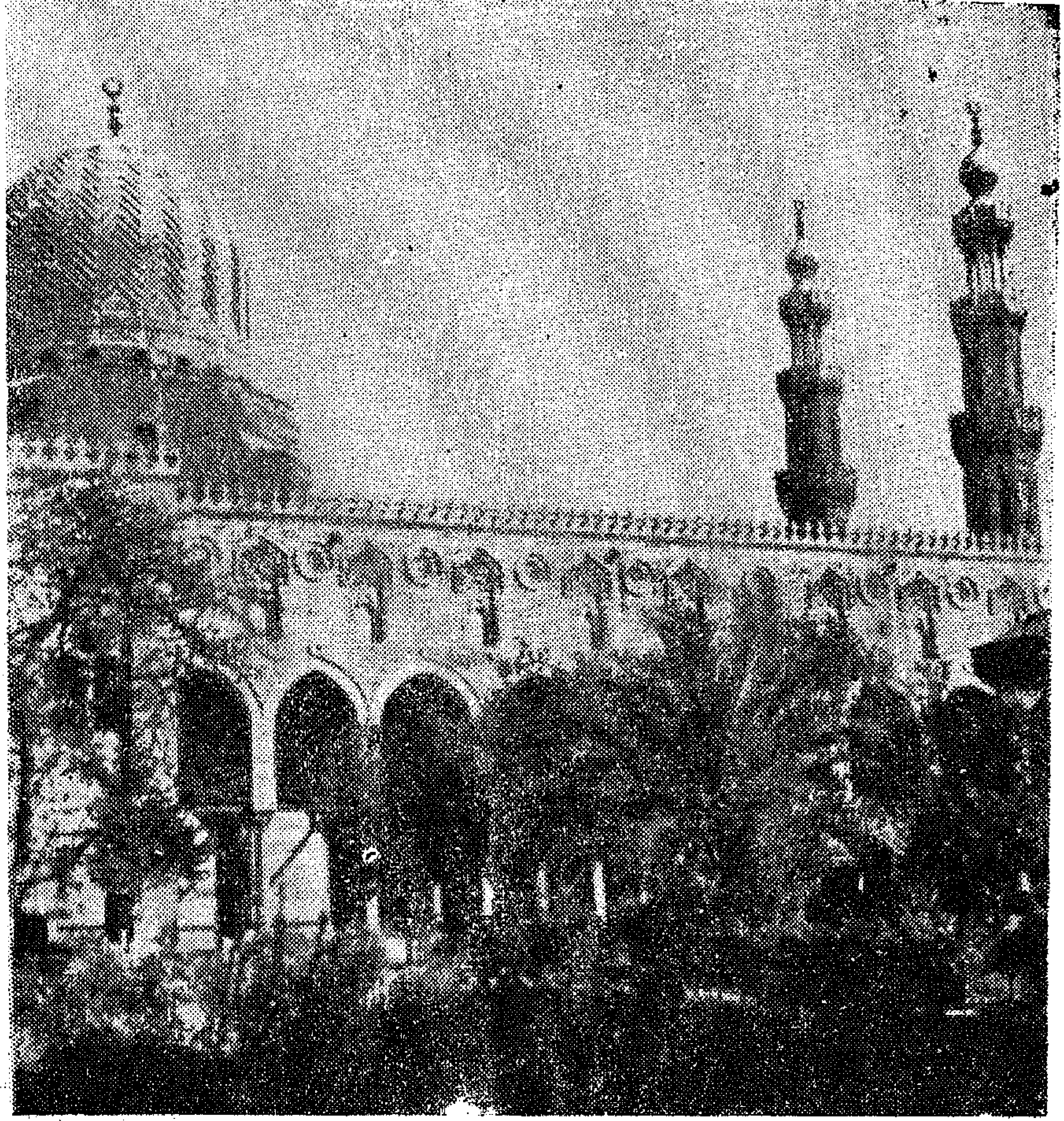


مدرسة السلطان قايتباى
القاهرة : ١٤٧٢ :

٢١٣

● ان العالم العربى يزخر بثروا ت طائلة من العلوم والثقافة والآداب بالاضافة الى التراث الانشائى والطابع المعمارى المميز ، كما يزخر بكنوز وثروات مادية ظاهرة وباطنة ، وان مفاتن الشرق لا تحصى ولا تعد · ولو أخذنا مثلا اللغة العربية بلهجاتها المتعددة الحديثة واللغة الكلاسيكية بقواعدها وشعرها وأدبها ونثرها ومرادفاتها فسوف تدهشنا هذه الناحية وحدها لما يمتاز به العالم العربى · فما بالنا اذن بالتراث المعمارى الاسلامى والطابع العربى ·

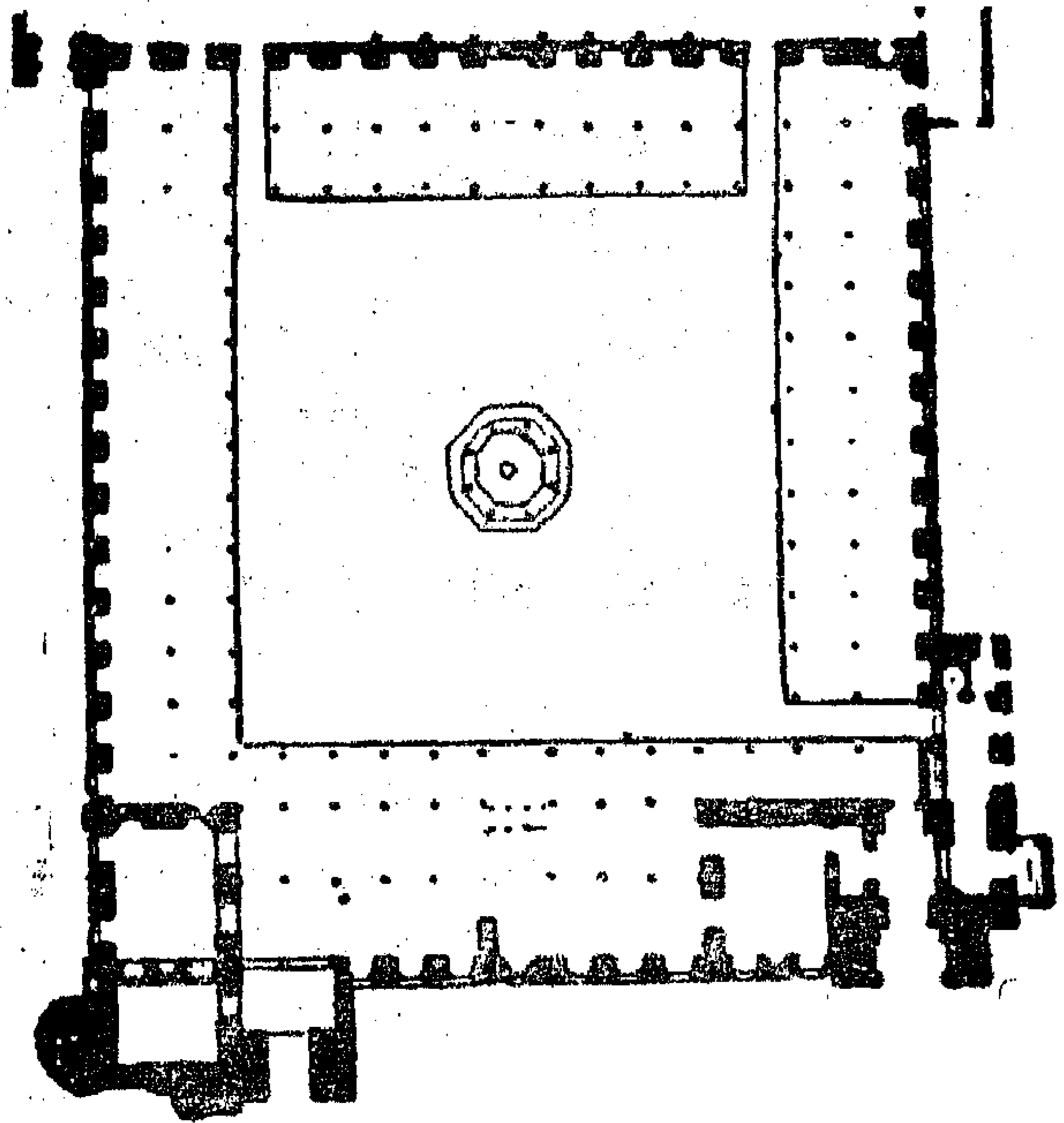
● أما الكتابة العربية بتنويعاتها وحيويتها فى تجريداتها الشكلية ، وما تبديه من براعة فى التركيب وسيطرة على الفراغات ، فى الامكان أن تضاهى بصفوف النحت البارز من الفن القديم ، وكأنها أصداء لها من بعيد هذه الاشكال الهندسية المجردة ، والتى تتفتح أحيانا فى هيئة أوراق الشجر أو الزهر تحتفظ ـ حتى حين لا تتفتح فى هذه الاشـــكال ـ كما لاوراق والازهار بسر الحياة ·



القاهرة : ١٤١٥ ــ ١٤٢٠ م

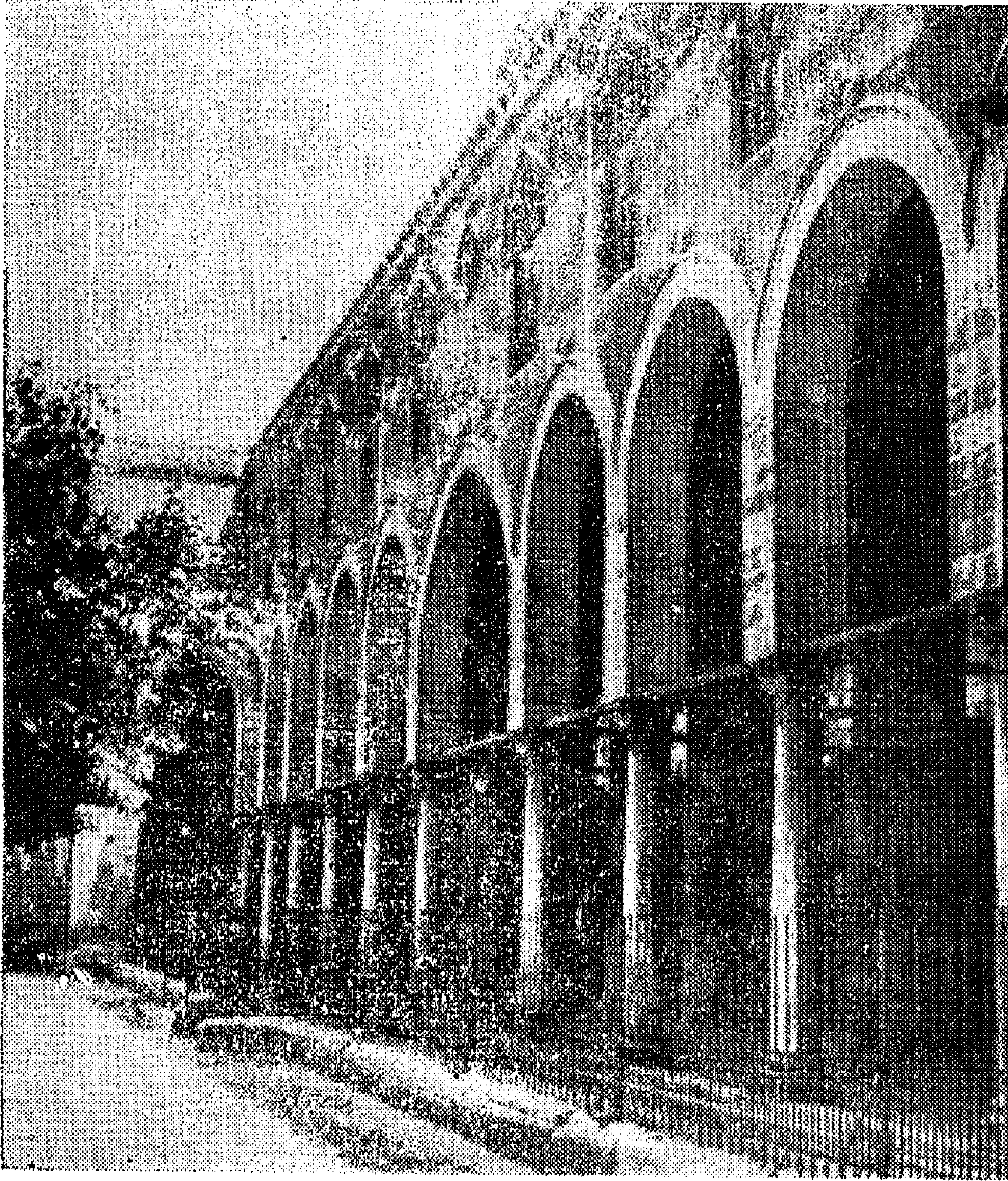
مسجد المؤيد : باب زويلة

٢١٤



● تخطيط هذا المسجد المجاور لباب زويلة على نظام الصحن المربع المحاط بأربعة أروقة ، أكبرها رواق القبلة · ويجاور المدخل غرفة الضريح تعلوها قبة من الحجر تشبه فى شكلها الخارجى شكل القبتين بخانقاه برقوق بصحراء المماليك · أما المدخل فهو منقول من مدرسة السلطان حسن ، ومئذنتا المسجد أقيمتا أعلا البرجين المكونين لمدخل باب زويلة ·

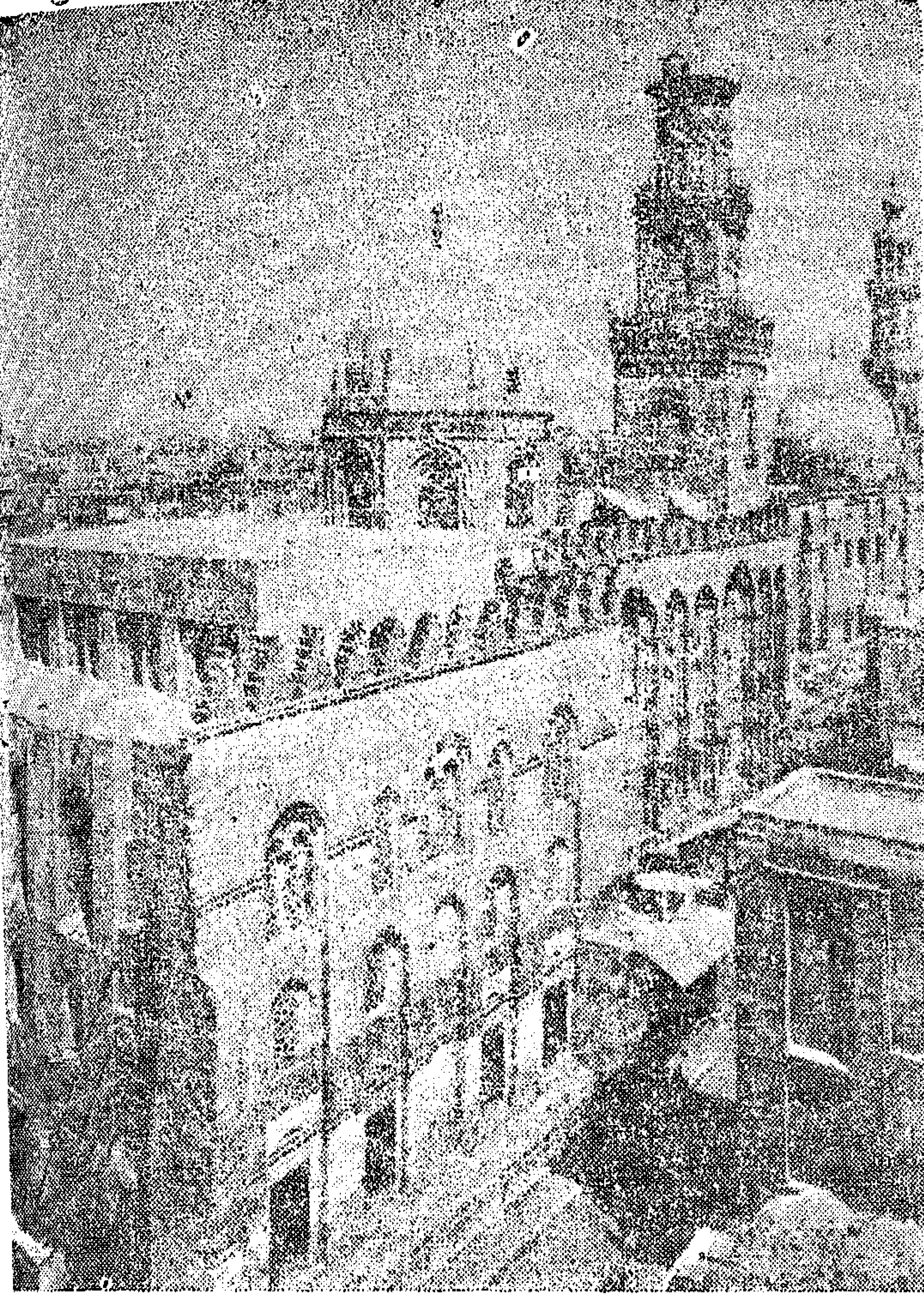
● كان السلطان المؤيد شيخ ، والذى تولى الملك سنة ٨١٥ هـ مولعا بالفنون مغرما بالعمارة ، فقد أنشأ مئذنته بالجامع الازهر · وجدد مسجد المقياس بالروضة ، وأنشأ الكثير من المســـاجد والمكاتب والاسبلة والمناظر بمصر والشام ، وهو الذى أنشأ البيمارستان المؤيدى ــ المستشفى ــ الذى يقع بقسم الخليفة بالقاهرة ، حيث كانت تعالج فيـــه جميع الامراض البدنية والنفسية والعقلية كما كان يدرس فيه الطب · أما مسجده المعروف باسمه فهو من أهم آثاره ·



٢١٤ : رواق الجامع المطل على الصحن ٠
٢١٥ : المسقط الافقى العمومى للجامع ٠
٢١٦ : رواق المحراب بجامع المؤيد ٠

٢١٦

ويعد مسجد المؤيد ٨١٨ ــ ٨٢٤ هـ ، ١٤١٥ ــ ١٤٢٠ م من الروائع المعمارية فى دولة المماليك الجراكسة ٠ فقد وصفه المؤرخ « السخاوى » بأنه لم يعمر فى الاسلام أكثر منه زخرفة ولا أحسن ترخيما بعد الجامع الاموى ٠ ويقول « المقريزى » أنه الجامع لمحاسن البنيان الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه ، ان منشئه سيد ملوك الزمان ٠ يحتضن الناظر له منذ مشاهدته عرش بلقيس وايوان كسرى أبوشروان ، ويستصغر من تأمل بديع اسطوانة الخوارنق وقصر اشمدن ــ باليمن ٠



٢١٧ : منارتى جامع المؤيد ـ القاهرة

● من تاريخ العمارة الاسلامية فى مصر ، يعتبر عصر المماليك أرقى العصور فهما للفن الاسلامى وتقديرا للعمارة الاسلامية . وأنشىء عدد كبير من الابنية الدينية كالجوامع والمدارس والاضرحة ، ومن الابنية العامة لخدمة الشعب كالحمامات والاسبلة والوكالات ، وانتشر بنـــاء المدافن الكبيرة، ولعل أبدعها وأجملهـــا مدفن وخانقاه برقوق وقايتباى وبارسباى بالصحراء الشرقية بالقاهرة .

٢١٧ ● واهتم المماليك فى هذا العصر بواجهات المســـاجد ودراستها حتى تنبوأ المكان المناسب لها والملائم لذلك العصر المملوكى . فتتابعت طبقات أو مداميك أفقية من أحجار صفراء وأخرى حمراء داكنة ، أو فى عمل تجاويف أو حنايا عمودية تفتح فيها النوافذ أحيانا ، وتنتهى أعلاها زخارف معمارية من المقرنصات وتظهر ذلك فى أشروط الزخارف والكتابات القرآنية أو التاريخية وفى شرفات مسننة تتوجها الواجهة.

● وامتازت المآذن المملوكية بالرشاقة وجمال النسب ، كما امتاز هذا العصر المملوكى بالزخارف الجميلة بالرخام الملون والموزايك والصـــــدف فى الارضيات والوزارات والمحارب ، وأعمال النجارة الدقيقة فى صناعة الاخشاب .

تقوم مساكن الطلبة والشيوخ • والقادم الى هذا الجامع يعجب بحوائطه العالية الفخمة والتاج الذى يتوجها • ويمتاز بما فيه من زخارف معمارية تشبه خلايا النحل تخدع النظر وتبدو الحوائط أعلى ما هى عليه فى الحقيقة ، ويرى النـــاظر الى الواجهات تجاويف الحوائط عمودية طويلة وضعيفة ، وقد شكلت هيئة النوافذ فيها على ٨ أدوار •

● أما المدخل الرئيسى البارز عن الواجهة البحرية له فتحة كبيرة تعلوها المقرنصات ، يسير منها الداخل الى المدرسة الصغيرة والمشيدة فى احــدى زوايا المسجد وهى ذات ثلاثة ايوانات وصحن فوقه قبة • ثم يسير الداخل الى اليســار فى طريق ضيق حتى يصل الى صحن المسجد ، وطول ضلع الصحن ٣٢ × ٣٤ متر وفى وسطه حوض كبير للوضوء فوقه قبة محمولة على ٨ أعمدة من الرخام •وعلى جوانب الصحن ايوانات مسقفة كل منها بعقد مدبب جليل المنظر ، وأكبرها ايوان القبلة فى الواجهة الجنوبية الشرقية • وتقام الصلاة فى الايوانات أو التدريس فى المدارس المشيدة فى زوايا الجامع والتى يوصل اليها باب فى كل زاوية من زوايا الصحن ومن الطبيعى أن يكون ايوان القبلة أغناها وأعظمها دقة فى الزخارف • ويعتبر جامع السلطان حسن من المبانى الاسلامية النادرة التى تجمع بين دقة الزخرفة وجمالها ودقة البناء وعظمته • يرجى أن تنظر الصور والرسومات أشكال ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ص ٢٣٣ •

● وحوائط هذا الايوان مكسوة بالرخام والأحجار الملونة ، وعليها شريط من الكتابة الكوفية الجميلة تقوم على أرضية من الفروع والزخارف النباتية من الجبس ونص هذه الكتابة آيات قرآنية من سورة الفتح • والمنبر من الرخام الأبيض وله باب من الخشب مصفح من النحاس فى زخارف من أشكال متعددة الاضلاع ومرتبة فى أوضاع نجمية على النمط الذى ذاع فى عصر المماليك أما المحراب المجوف فتزينه قطع من النقوش الذهبية والرخام المطعم ويحف به عمودان من الرخـــام فى جانب من جانبيه ، وبين تيجان الأعمدة وشريط الكتابة مستطيل فيه عقد المحراب فتزيده ظهورا• وفى هذا الايوان قاعدة من الرخام تقوم على دعائم بينها ٨ أعمدة ، وفى حائط القبلة بابان يوصلان الى القاعدة ذات القبة العظيمة التى أعدت لدفن السلطان ، ولكنه قتل ولم يعثر على جثته ويحيط بهذه القاعدة سكون وظلام يبعثان الرهبة والخشوع ، وهى مربعة الشكل • وهذه الحوائط مكسوة بالرخام بارتفاع ٨ أمتار وفوق هذه الكسوة الرخامية شريط من الخشب عليه كتابة تاريخية بالخط النسخ •

وفى وسط القاعة توجد مقصورة من الخشب تفتح تابوتا من الرخام ، وقد كان للبابين الموصلين للقاعة كسوة من النحاس المموه بالذهب والفضة ، ولا يزال أحد هذين البابين يدل بكسوته على ما وصل اليه الفنانون المسلمون فى القرن الرابع عشر من مهارة واتقان فى صناعة المعادن وزخرفتها برسوم منقوشة بالذهب والفضة٠

● وللجامع منارتان عظيمتان فى الجانب القبلى الشرقى ، ويبلغ ارتفاع أكبرها ٨١ متر ، وقد كان المقصود فى البداية أن يكون للمسجد أربع مآذن ، ولكن لما سقطت المأذنة الثانية بعد اتمام بنائها اكتفى السلطان بالمأذنتين ، ولعل جزءا كبيرا من عظمة هذا المسجد يرجع الى توافق أجزائه واتزانها وتناسبها ، فان المهندس لم يبتكر فيه كل عناصر تكوينه ، وانما جمع كل الأساليب الشائعة ومزجها على نمط تجلت فيه عبقريته ، واستطاع بواسطته أن ينتج أثرا فنيا لا يقل عن أبدع العمائر جمالا وتماسكا ووحدة ٠ يرجى أن تنظر الصور والرسومات أشكال ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ص ٢٣٣ ٠

٤ ـ جامع قايتباى بالروضة :

أنشأ قايتباى هذا المسجد عام ٨٨٦ هـ وأقام حوله المبانى والعمارات والحدائق وقد احترق المسجد فى القرن الثالث عشر الهجرى بسبب انفجار مواد مفرقعة وقضى على جميع أخشابه ونقوشه الأثرية ولهذا السبب فهو أقل المساجد قايتباى زخرفة ٠ ويتكون المسجد من أربعة ايوانات متعامدة يتوسطها صحن مكشوف يحيط به أربعة أبواب مكتوب عليها آيات قرآنية ، شبابيكه مزخرفة بنقوش مخـــرمة جميلة من الجبس ٠ والمحراب من الحجر حفرت فى طاقية عقده زخارف معمارية على شكل مقرنصات ودلايات غاية فى الدقة والابداع ٠ وعلى يســار المدخل الرئيسى توجــد المئذنة التى تلفت النظر برشـــاقتها وكثرة زخارفها المنحـــوتة فى الحجر ودقتهـــا ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ص ٢٣٤ ٠

٥ ـ جزيرة الروضة بالقاهرة :

عرف سلاطين مصر ابتداء من السلطان برقوق باسم دولة المماليك الجراكسة، نسبة الى بلاد جركس موطن برقوق الأصلى ٠ ومن أشهر سلاطين هذه الدولة هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى الذى بويع له بالسلطنة عام ٧٨٢ هـ ٠ كان ملكا صالحا جليلا من خيرة ملوك الجراكسة وأطولهم مدة من حيث حكم مصر

٢٩ عاما ٠ كان مغرما بالعمارة وتخطيط المدن ، وقل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو اقليم من أقاليم مصر أو قطر من الأقطار الاسلامية الا وله اثر لامع ٠ ومن آثاره فى القاهرة مجموعة من المساجد والمدارس والوكالات والمنازل والأسبلة ، ومن بينها مسجده بجزيرة الروضة الذى سبق شرحه ٠

وكانت جزيرة الروضة منذ فتحها العرب وكأنها روضة من رياض الجنة ، فقد سكنها الملوك والأمراء ٠ وكانت عامرة بالدور والقصور منذ عهد عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل الدولة الأموية ، فلما استقل بن طولون بحكم مصر ، أعاد بناء أسوارها وحصونها ـ التى كان عمرو بن العاص قد دكها ـ وجعلها مقـــرا لخزائن أمواله واتخذ فيها القصور لنسائه ٠ ثم جاء محمد الاخشيدى وبنى فيها قصرا وبساتين سماها « المختار » يحدد موقعها الآن شارع المختار بالروضة كما كانت بجزيرة الروضة دار لصناعة السفن والمراكب الحربية « ترسانة » ولكنهـــا أحرقت فى عهد الاخشيد ٠ وفى أيام الفاطمين أصبحت جزيرة الروضة من المتنزهات انشئت فيها الفيلات الكثيرة أشهرها فيلا أو « منظرة » الهودج ، أنشأها الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية بجوار قصر المختار المشار اليه ٠

وفى العصر الأيوبى بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة على الجـــزء الجنوبى منها ، وأسند حراستها الى المماليك من جنده وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية ٠ كما أنشأ الملك الصالح جسرا « كوبرى » يصل الجزيرة بالفسطاط لا يزال يعرف باسمه حتى الآن ٠ أما فى العصر المملوكى فقد حظيت الجزيرة بالكثير من المنشآت المدنية والريفية منها جامع قايتباى ٠ وسيأتى شرح تأسيس مدينة القاهرة بالتفصيل فيما بعد ٠

٦ ـ مدفن برقوق ١٤١٠ م :

كثر وانتشر بناء المدافن الكبيرة فى عصر المماليك ، وهى تتشابه فى تصميمها الى حد كبير ولا ريب فى أنها تشبه فى كثير من العناصر المعمـــارية ما عرف من الأضرحة فى بلاد التركستان ولكن ارتقى تصميمها فى مصر وتطور بنائها ٠ وتفخر القاهرة بأن فيها مجموعة من هذه الأضرحة وتعرف خطأ باسم قبور الخلفاء ،وهى فى الحقيقة قبور المماليك وأجملها مدفن برقوق وقايتباى شكل ٢٠٩ ص ٢٣٦ ٠

أمر بانشائه الملك الظاهر برقوق قبيل وفاته ، ولكنه تم على يد ابنه الناصر فرج عام ١٤١٠ م وروعى فى تصميمه أن يكون فى نفس الوقت مســـجدا كبيرا

وضريحا للظاهر برقوق وأفراد أسرته وقد اجتمعت فيه عناصر معمارية متكاملة • ايوان القبلة يشبه ايوان جامع الحاكم ، اذ ينتهى طرفه بقبتين يتوسطه قبة ثالثة فوق المحراب وهى أصغر منهما حجما ، وسطح القبتين كبيرتين محلى بزخارف بارزة من الحجر تسمى الدلايات • وفى كل من الطرفين البحرى والقبلى فى الواجهة الغربية سبيل يعلوه مدخل • وتقوم على يمين المدخل البحرى وعلى يسار المدخل القبلى مأذنتين جميلتين ويتألف المسجد فى هذا البناء المركب من صحن يحف به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة • وأسقف الايوانات أربعة مغطاة بقبوات نصف كروية من الطوب ، ومحملة على عقود مرفوعة مدببة وأطرافها متكئة على أكتاف حجرية أبدانها مثمنة وتيجانها وقواعدها مربعة •

٧ ــ مدفن قايتباى ١٤٧٤ م :

من أعظم المدافن المملوكية شهرة ، وهو فى الصحراء الشرقية بالقاهرة وقد تم بنائه عام ١٤٧٤ م ويتكون من مجموعة رشيقة متناسقة الأجزاء تتألف من مدرسة وسبيل ومدفن وقبة • وتصميم هذا المدفن عادى ولكن جمال النسب ورشاقة المآذن والقبة مع زخارفها وتنوع رسوم الأرضية الرخامية ورسوم الأسقف ومجموعة الشبابيك الجصية ، كل ذلك يكسب المجموعة أهمية خاصة فى تاريخ الطراز المملوكى • وصحن هذا المدفن مغطى بسقف ذى شخشيخة وحوله أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة وواجهة هذا الايوان عقد حدوى مدبب ، ويقع المدخل قبل هذا الايوان ، وقبة منقوش بها رسوم هندسية ونباتية جميلة •

الصفات المميزة فى العمارة المملوكية :

ــ زيادة العناية بواجهات المساجد وهى العناية التى بدأت فى أبنية الطراز الفاطمى وأصبحت بعد ذلك قاعدة متبعة فى عصر المماليك • وتتجلى أحيانا فى طبقات المداميك الأفقية عن أحجار صفراء وأخرى حمراء داكنة ، وتتجلى أحيانا أخرى فى تجاويف أو حنايا عديدة قد تفتح فيها نوافذ وقد تنتهى أعلاها بزخارف معمارية أو مقرنصات ، كما تتجلى فى أشرطة وكتابات قرآنية وتاريخية وفى شرطان تتوج بها الواجهة • ونلاحظ أن المهندس كان يحرص كل الحرص فى ابراز الواجهة بما فيها من تجاويف وحنايا ، وكان يفضل الا يكون المدخل فى وسطها بل يكون فى ركن منها • وأن يكون مرتفع بعض الارتفاع فيصعد اليه بسلم مرتفع بضع درجات • ومن الوسائل التى أدت الى ابراز الواجهة طريقة اتخاذ المأذنة بدون قاعدة مستقلة لها ، وكأنها قائمة فوق شرفات المسجد ومن أمثلة ذلك مئذنة وقبة قلاوون ، ومأذنة جامع الناصر محمد بن قلاوون بقلعة الجبل ، ومسجد الظاهر برقوق •

— وامتازت المآذن فى العصر المملوكى برشاقتها واعتدال ارتفاعها وبأن معظمها ذو قاعدة مكعبة وبدن مثمن ودورة علوية اسطوانية الشكل ٠

— أما أبواب المساجد المملوكية فامتازت برخازفها الاسلامية على نحو يذكر بما نعرفه من العمائر السلجوقية ٠ وازدهرت العمائر الاسلامية بزخرفة الوزارات والأرضيات بالرخام الملون ، وكانت المحاريب ميدانا لابداع فن الموازييك الرخامى ، فانها لم تكن تصنع من الخشب أو تزخرف بالجبس كما كان الحال فى العصر الفاطمى ، بل أصبحت فى أغلب الأحيان تصنع من الرخام الملون والصدف كما فى جامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق ، وأصبحت المنابر تصنع من الرخام فى كثير من الأحيان أو الحجر ذات الألوان الجميلة ٠

قمة الفن الاسلامى فى عصر المماليك :

● أجمعت كلمة مؤرخى الفن الاسلامى على أن عصر المماليك والذى امتد ٤ قرون متواصلة « من القرن السابع حتى القرن العاشر الهجرى » بلا شك ذروة الفن المعمارى والفنى ٠ هذه العمائر (٣٠ تقريبا) تقع فى منطقة جنوب شرق القاهرة على شكل مساجد ومدارس ، قصور أو زوايا أيضا قاعات ومارستانا ٠

حى الظاهر يتوسطه جامع صاحبه الظاهر بيبرس (مملوك بحرى) وقت بنائه كان فخما نقوشه رائعة الا أن الأيام عصفت به ٠، حولته الحملة الفرنسية الى ثكنة لعسكرها وأصبحت المئذنة برجا للمراقبة أما السور فقاعدة للمدافع ٠ بعد انسحاب الفرنسيين باع ناظر المسجد الانقاض وحوله الى مصنع للصابون ٠ احتله الانجليز بعد ذلك وأصبح مذبحا وسلخانة ٠٠ ولم يعد مسجدا ثانيا الا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ٠ أروع منظر سى العمائر الاسلامية هى بلا شك واجهة مدرسة قلاوون وأيضا قصر الأمير بشتاك الذى قال عنه المقريزى « أفخم مكان لمشاهدة القلعة والنيل والبساتين » هل تصدق أن جامع المارداني الجميل (الدرب الأحمر) بناه صاحبه فى عام واحد !! وأن جامع الناصر محمد بن قلاوون جدرانه الداخلية مغطاة بالرخام على ارتفاع ٦ أمتار ومئذنته محلاة بالقشانى وكسيت جدرانه بالقشانى الأزرق الجميل ٠

اشترى الأمير عثمان كتخدا القزد على قصرا أوقفه للخير والبر ثم دخل القصر فى « التنظيم » عند فتح شارع بيت القاضى فتحول القصر الآن الى قسم الجمالية ولم يبق منه الا قاعة سقفها شاهق حافل بالنقوش ٠

أما مجموعة قلاوون الجميلة فكانت أصلا دار للاميرة ست الملك ابنة العزيز بالله الثانى الفاطمى ثم آل الى الأميرة مؤنسة الأيوبية بعدها تحول الى مسجد مدرسة قلاوون بالقرب من قسم السيدة زينب يقع مسجد جميل أيضا صاحبه مملوك عربى اسمه سلار جعله خانقاه لايواء الفقراء ٠٠ زخارفه جميلة وكذلك قبتاه ٠

أما أفخم مسجد فى مصر قاطبة فهو مسجد السلطان حسن فيقف شـــامخا ويعتبر أحسن مساجد مصر شكلا أيضا مساحته ٧٩٠٦ امتار ٠ احدى مئذنتيه ترتفع ٨٢ مترا ٠ القبة مساحتها ٧٥١ مترا مربعة الشكل ترتفع ٤٨ مترا ٠٠ ويضم المسجد أقدم كرسى للمصحف فى مصر مصنوع من الخشب النقى وحشواته أى الزخارف مصنوعة من الأبنوس المطعم بالعاج ٠

العمارة والفنون فى العصر السلجوقى ٠٠٠ ٦/٣

المرحلة السادسة

السلاجقة قبائل من التركمان قدموا من اقليم القوقاز فى آسيا الوســـطى ، واستقروا فى الهضبة الايرانية وأصبح العنصر التركى ذا شأن فى الشرق الاسلامى٠ فمن ذلك الحين وكان السلاجقة من أتباع المذهب السنى ، وأخذوا على عاتقهم حماية الخلافة العباسية ، ولكن الخليفـــة لم يكن له أمامهم أى نفوذ حقيقى ٠ واستطاع طاغرليك أن يدخل بغداد عام ١٠٥٥ م ونصب نفسه سلطانا للدولة ، ثم وحد الشرق الاسلامى تحت حكمه ٠ ولكن امبراطورية السلاجقة الواسعة لم تلبث أن تمزقت وآل حكمها الى أسرته الصغيرة أسسها بعض أفراد أسرتهم أو كبار قوادهم الأتراك، ثم قضى عليها المغول فى القرن الثالث عشر ٠ وكان أمراء السلاجقة يشملون الفنون برعايتهم فى آسيا الصغرى وفى العراق وايران ، ولكن العنصر التركى الذى ينتمون اليه يظهر تأثيره فى العمارة والتحف الفنية فى عصرهم لأنهم كانوا يستخدمون أبناء البلاد فى الأقاليم الاسلامية المختلفة ويشجعونهم بما يكلفونهم به من أعمـــال أو يشترونه من تحف فنية ٠ ومع ذلك كله فقد نشأ تحت رعايتهم طراز قائم بذاته امتاز بفخامة المبانى واتساعها ومظهرها القوى ، كما امتاز أيضا باستخدام رسوم الكائنات

الحية وصور من الطبيعة عرفته الفنون الاسلامية : ومن مميزات الطراز السلجوقي عدا ذلك كثرة استخدام الزخارف ولا سيما على الواجهات الخارجية للمبانى ٠

وأهم الآثار الفنية هى التى خلفها هذا الطراز فى موطنها آسيا الصغرى وأيضا الجزائر والشام ففى آسيا الصغرى غلب سلاجقة الروم الدولة البيزنطية على أمرها، وازدهرت دولتهم بعد القرن الحادى عشر وخضعت لها بلاد الأناضول فى القرن الثالث عشر ، وأصبحت عاصمتهم قونية أعظم مراكز الحضارة الاسلامية فى عصر علاء الدين الأول سلطان السلاجقة عام ١٢١٩ ـ ١٢٣٦ م ٠

وقامت فى الشام وبلاد الجزيرة دويلات بنى أرتق وبنى زنكى ، وكان أمرائها أكرم دعاة الفنون فى البلاد الاسلامية ، ويبدو أن الأســـــاليب التى مهدت للطراز السلجوقى قامت فى بلاط محمود الغزنوى عام ٩٨٨ م وارتدت منه الى ايران والهند وكانت مرحلة الأنتقال الى الأساليب الفنية فى مدن العالم الاسلامى ذيلا للاساليب الساسانية الى الطراز السلجوقى ، ولا عجب فان الغرتوميون من عنصر تركى ولكنهم القو بأنفسهم فى أحضان الحضارة الايرانية وتأثروا بفنونهم ٠ وكذلك بالأساليب الهندية القديمة ، بل قام على يدهم فى مدينة دلهى طائفة من العمـــــائر فى القرنين الثالث والرابع عشر وظلت أساليبهم الفنيـــــة فى مدينة بكتريا بالهنـــــد محفوظة بشخصيتهم حتى القرن الخامس عشر ولم تطغ عليها الأساليب التى ازدهرت فى ايران على يد المغول ٠

● **الأضرحة والمقابر :**

مما يلاحظ فى العمائر الدينية السلجوقية أنها لم تكن مقصورة على المساجد، كثر بناء الأضرحة على شكل أبراج اسطوانية أو زادت أضلاع أو على شكل عمائر ذات قباب ، وقد نشأ هذا الطراز من الأضرحة فى خراسان وانتشر منها الى سائر أنحاء الشرق الاسلامى ٠ وكانت المدافن المشيدة على هيئة أبراج بسيطة من نوع العمائر التى ذاعت قبل الاسلام ثم أقبل السلاجقة على بنائها من الطوب ، مع الابداع فى اكتسابها كثيرا من الفخامة والأناقة وأقدم هذه الأبراج فى العصر السلجوقى برج صيدر قابوس فى اقليم مرجان ، وتصميمه منحنى الشكل بطبيعته يضيق قليلا فى أعلاه ، وينتهى بقمة مخروطية الشكل ، وعليه كتابة تاريخية بالخط الكوفى فى شريط عند المدخل مؤرخة من عام ١٠٧٠ م وقد انتشرت هذه الأبراج فى آسيا الصغرى ، وكانت فى معظم الأحيان بسيطة ومتعددة الأضلاع وخالية من الزخارف الفنية التى تراها فى ايران ، وكان المدخل العادى يغطى فى بعض الأحيان ببرج من هذه الأبراج،

كما ترى فى قبر جـــلال الدين الرومى فى قونية ويرجع تاريخه الى القــــرن الثالث عشر ٠

أما الأضرحة ذات القباب فاكبر الظن أنها مشتقة من المنازل ذات القباب التى ذاع تشييدها فى المدن الصحراوية فى خراسان منذ العصـــور القديمة ، تطورت عمارتها حتى أصبح فوق القاعدة المربعة مثمن ورقبة تحمل القبة ٠ وأعظم أمثلة هذه الأضرحة قبر السلطان سلنجن ويرجع الى النصف الثانى من القرن الاثنى عشر ، وامتاز البناء بأنه ذى حنايا بسيطة برقبة طويلة تعلوها القبة ٠

● المدرسة والجامع :

أدخل السلاجقة بناء المدارس لتعليم المذاهب الســـنية ، والواقع أن مذهب الشافعى كان له أتباع كثيرون متفرقون فى بعض بقاع ايران ، ولكن هذا المذهب الذى لم يصبح له صفة رسمية الا على السلاجقة ، ولا سيما الوزير نظام الملك الذى شيد له المدارس الفخمة ٠ وكانت المدرسة تختلف عن دار العلم أو الجامعة فى أن الأولى كانت وقفا على تعليم المذاهب السنية واعداد الموظفين للدولة وقد فتح نظام الملك مدارس فى فيسابور وبغداد ، وتبعه غيره من عظماء الدولة ، ففتحـــوا المدارس ورصدوا لها الأوقاف الغنية ٠ على أن ما شيد له من ايراد من تلك المدارس لم يبق منه شىء ، وكان كله لتدريس المذهب الشافعى بينما مذهب ابن حنبل على المدارس التى شيدت فى العراق ٠ وغلب مذهب بنى حنيفة على المدارس التىأقامها بنو زنكى فى سوريا وبلاد الجزيرة ٠ أما المذهب المالكى فى بلاد المغرب فقد حدث بعد ذلك أن الخليفة العباسى المستنصر بالله شيد المدرسة المستنصرية ببغداد ١٢٢٧ ـ ١٢٣٢ م وجعلها لتدريس المذاهب الأربعة ، ولم يبق من المدرسة الا أطلال تستطيع أن نتبين منها المعالم الأولى ، وكان قوام تصميمها مستطيل فى منتصف كل ضلع من أضلاعه ايوان عرضه ٦ متر ٠

وفى آسيا الصغرى عدد كبير من دور العلم السلجوقية غير فخمة فى انشائها كما هى فى ايران وكانت مشكلة القباب فيها جديرة بالاهتمام ٠ يفرق فيها بين نوعين كانت القاعدة فى كليهما ربط المدرسة بغير صاحبها وبانيها ٠ الأولى ذات ايوان يسبقه رواق ، والثانية ذات قاعة تعلوها قبة وحوض ميـــاه ذى النافورة بدلا من الصحن ٠ وهناك أمثلة من هذا الطراز فى قونية العاصمة القديمة ـ نوع بسيط بين التبقية التركية الصريحة فى مكان الدفن ـ انتقال من المربع الى المثمل فى منطقة مؤلفة من مثلثات تتقارب وتتباعد ـ حيث ظل هذا النوع من الانشاء شائع الاستعمال فى الأناضول عد أماكن قليلة استعيض عنها بالقباب البيزنطية القديمة ٠

أمر نور الدين ببناء المدارس فى سوريا وفى دمشـــق وحلب وحماة وبعلبك وغيرها • وقد نقل صلاح الدين من جانبه هذا الطراز المعمارى الى مصر • وحدث أن ظهر البناء المركزى الذى تم على هذه الصورة مرتبطا بانشاء القبة ، وأن أتيح لهذ االانشاء ينقله الى الجامع امكانيات جـــديدة للتطور فى اتجـــاه العمارة التذكارية Monumental .

● **قاعات الطلبة :**

أما قاعات الطلبة فكانت مكونة من طابقين وتقوم بين هذه الايوانات ، وكانت لها بوائك محمولة على أكتاف • ولا تزال بعض المدارس السلجوقية فى آسيا الصغرى معظمها يجمع بين المدرسة وضريح منشئها • ومن أبدع أمثلة المدارس السلجوقية فى الأناضول مدرسة صمير جالى ، وقد شيدت عام ١٢٤٢ م كما يثبت من كتابة تاريخها على مدخلها ، وقوام هذه المدرسة ايوان ذو محراب يحف به قاعتان لكل منهما قبة • وفى هذه المدرسة كما فى معظم المدارس السلجوقية فى آسيا الصغرى تقوم القبة على منحنى فوق القاعدة المربعة ، ويكون الانتقال من القاعدة المربعة الى المثلثة بواسطة مثلثات من البناء يقوم أحدهما على قاعدته والآخر على احدى زواياه • وتمتاز هذه المدرسة بما فيها من زخارف من الموازيكو الخزفى ، ومما يرجح أن كسوة الحوائط بالموزايكو بطبقات خزفية قد نقله صناع من الايرانيين الى آسيا الصغرى ، وأغلبه عرف منذ القرن الثالث عشر قبل أن ينتشر انتشارا كبيرا فى المبانى العثمانية منـــذ القرن الثالث عشر •

والواقع أن هناك أمثلة ترجع الى القرنين الرابع والخامس عشر • وقد شهد العصر السلجوقى فى ايران تقدما عظيما فى بناء العمائر ذات القباب والأقبية كما ترى جزء الذى هدم فى مسجد الجمعه فى مدينـــــة اصفهان فى عصر الســـلطان السلجونى الكبير أو الفتح ملك شاه ، والمعروف أن هذا الجامع قد أدخلت عليه فى العصور التالية تعديلات كثيرة ولكن القبـــة والايوان الواقع أمامهـــا من العصر السلجونى • وفى قاعدة القبة القائمة فوق ايوان الصلاة شريط دائرى بالخط الكوفى البسيط ذى الحروف الكبيرة البارزة بالطوب ، على أن الناس فى الجزيرة والعراق خلال العصر السلجوقى ظلوا يقبلون على العمائر ذات الأيوانات والأعمدة والأكتاف • ولم يتأثروا الا قليلا بالأساليب المعمارية السلجوقية بايران وآسيا الصغرى والشام• واحتفظت المساجد السلجوقية فى سوريا بالتصميم ذى الأيوان والصحن ، وظلت القباب وقفا على الأضرحة الى أن شيدت المدرسة الدمشقية بدمشق عام ١٣٢٣ م • اذ أن فيها صحنا ذا قبة ، وذلك كان الحال فى آسيا الصغرى حيث استخدمت فى

البداية أعمدة من الخشب ثم استعملت بعد ذلك الأعمدة والأكتـــاف من الحجر ٠ وامتازت معظم العمائر السلجوقية بالواجهات الجميلة ذات الأيوانات الضخمة الفنية الغنية بالزخارف والمقرنصات التى تحف بها النوافذ والأشرطة الزخرفة والكتابات التاريخية ٠

القلاع والاستحكامات :

كان من الطبيعى أن يعتنى السلاجقة ببناء الأسوار والقلاع وسائر الاستحكامات الحربية ، فانها كانوا دولة حربية بطبيعتهم ، وكان الكفاح بينهم وبين الروم الصليبيين أكبر حافز لهم على تحصين مدينتهم ٠ ومن أجمل أعمالهم فى هذا الميدان بناء سور دمشق وقلعتها على يد قدران بن ذنكى ، والى هذا الأمير أيضا يرجـع الفضل فى تشييد قلعة حلب ، وقد جددت فى القرن الثالث عشر ، ولكنهـــا احتفظت بكثير من معالمها الأولى ٠ وشيد عدد كبير من الحصون والقلاع فى سوريا على يد صـــلاح الدين، وكان له الفضل فى صد هجمات الصليبيين وشيد علاء الدين عام ١٢٢١م سور المدينة القديمة الذى كان مدعما بأبراج يزيد عددها عن ١٠٠ برج ، ولكن هذا السور هدم ولم يبق منه الا أطلال ٠ ومن الأسوار الهامة التى شيدت فى عصر السلاجقة سور مدينة أسد ، وقد ظلت محل عناية الأفراد طول القرنين الحادى عشر والثانى عشر فأقبلو على تدعيمها بالأبراج وسائر الاستحكامات ٠

وكذلك جدد السلاجقة سور بغداد الذى ظل قائما حتى منتصف القرن الماضى ، ثم هدم ولم يبق منه الا بابان منهما باب الظلم والذى نسفته الحكومة التركية حين احتلت بغداد عام ١٩١٧ فى الحرب العالمية الأولى ٠ والذى يلفت النظر بوجه خاص فى زخارف العمائر السلجوقية هو الأقبال على رسوم الكائنات الحية ، ولعلهم تأثروا فى هذا الميدان بالأساليب الفنية التى تسربت اليهم من بلاد التركستان ٠ ولم تكن موضوعات الكائنات الحية وقفا على الرسوم فى المخططات والتصميمات ومختلف نواحى الفنون التطبيقية ، وانما عرفت عمائر ذلك العصر بتماثيل شبه مجسمة من الجبس تمثل جنودا أو حراسا أو أمراء وكانت تزين بها القصور ومعظم هذه التماثيل من ايران ، ولكن هذه التماثيل البارزة كانت تصنع من الحجر أحيانا كما هو الحال فى باب الظلم فى بغداد ، حيث ترى تمثالا يرمز الى خليفة المسلمين مقيدا أعدائه ٠ وكانت مثل هذه التماثيل أكثر انتشارا فى الأناضول حيث ترى نقوشا بارزة تضم تماثيل حيوانات فى مراع ٠ ويحتوى قصر السلطان فى قونية على تماثيل سباع غير متقنة ، وكذلك سور تلك المدينة نحت برسوم لحيوانات بارزة ٠

العمارة فى المغرب العربى :

كانت الأندلس فى عصر الدولة الأموية الغربية مركزا للاشـــعاع الثقافى فى المغرب ،ولكنها انتقلت الى مراكش منذ ضم المرابطون بلاد الأندلس الى بلادهم منذ عام ١٠٩٠ م ، فكان ذلك ايذانا بتغيير أساليب الفنون الاسلامية فى المغرب • وكان « المرابطون » أهل التقشف والبساطة فلم يلق الفن على يدهم عناية كبيرة • ثم خلفهم « الموحدون » وهم الذين قام على يديهم الطراز المغربى الأندلسى فى منتصف القرن الثانى عشر • ثم ظل يزدهر حتى بلغ ذروته فى قصر الحمراء فى غرناطة القرن الرابع عشر وتوقف تطوره منذ القرن التالى • ولكن مراكش ظلت وفية لهذا الطراز الى الوقت الحاضر ، وان كان مظهره فيها لا يزيد على تقاليد الأساليب الفنية القديمة والمحافظة على مظهره وعلى تراث الصناع المسلمين فى العصور الوسطى • ويلاحظ فى الطراز المغربى أنه لم يتأثر بغيره من الطرز الاسلامية تأثيرا كبيرا ، وان تطوره كان بطيئا بالنسبة الى تطور سائر الطرز الاسلامية • وكانت أهم المراكز الفنية لهذا الطراز اشبيلية وغرناطة ومراكش وفاس • ولم يأت الطراز المغربى بجديد فى تصميم المساجد فظل على ما عرفناه فى القيروان وقرطبة متبعا فى تصميم هذا الطراز • وبقى الصحن والايوانات والمجاز العريض والمرتفع الذى يؤدى الى المحراب فى ايوان القبلة ، ولكن انصرف القوم عن استعمال الأعمدة وأقبلوا على بنـــاء الأكتاف من الطوب وهى مسننة الأركان أى غير دائرية ، وعقود على هيئة حدوة الفرس مستديرة تماما أو مدببة قليلا ، وكانت هذه العقود فى معظم الأحيان منخفضة مما كان يكسب ايوانات المسجد طابعا من الجلال والهيبة •

أما المنارات فكانت تبنى فى معظم الأحيان من الطوب أيضا على شكل برج مربع تعلوه شرفات كأسنان المنشار ، ثم برج أصغر منه حجما ، وفى جوانب البـــرج أو المنارة صفوف من النوافذ ذات الحليات المعمارية الجميلة • وكانت المنارة تشيد عادة فى وسط الجهة المقابلة لأيوان القبلة ، ولكنها كانت تقوم بجوار جدار المحـــراب • ومما يلاحظ أن بعض الجوامع فى أنحاء العالم الاسلامى لها مئذنتان أو ثلاث أو أربعة ، ولكن مساجد المغرب ليس لها الا مأذنة واحدة • وخير مثـــل لهذه المنارات منارة مسجد الكتبية فى مراكش ، وكانت المحاريب تعلوها قبة فوق مقرنصات ، كما كانت واجهات المساجد تضم فى معظم الأحيان مظلة من الخشب تبرز فوقها • ويمكن القول بوجه عام أن المساجد فى المغرب كانت تتألف من صحن داخلى واسع تحف به البوائك ، وفى وسطه فسقية وقد يزين بالشجيرات والنبات كما تكسى حوائط الأروقة بالموزاييك وفى بعض الأحيان بألواح القيشانى • وأدخل سلطان الموحد بن يعقوب المنصور بناء المدرسة فى المغرب والأندلس فى نهاية القرن الثانى عشر ، ولكن المدارس

فى تلك البلاد ظلت وقفا على التدريس ، ولم تؤثر عمارتها على تصميم المساجد أى تأثير - يرجى أن ينظر المسقط الأفقى لمسجد الكوتبية والصحن ٠

اشتهرت مدينة فاس بكثرة ما شيد فيها من المدارس فى القرن الرابع عشر ، وكانت كل المدارس فى المغرب وقفا على تدريس المذهب المالكى ، فلم تكن قد تمت الحاجة للتفكير فى تصميم أى مسجد يساعد على جمع الطلبة لغير هذا المذهب ، وكان تصميم المدارس محققا للغرض المادى منها ٠ فكانت تشتمل غالبا على عـــدة غرف للطلاب وعلى قاعة كبيرة للمدرس ٠ وكان بناء المدرسة مكون من طابقين وفى وسطه صحن مكشوف فيه فسقية أو حوض ماء ٠ وكانت بعض المدارس متصلة بالمساجد والمجاورة لها ، بينما كان البعض الآخر مستقلا وله محرابه ومنارته ٠ والواقع أن أهم مبانى المدارس المغربية انما هو ما فيها من زخارف غنية ورسومات فنية هندسية٠

وانتشرت فى بلاد المغرب قبور الأولياء ومعظم القائم منها حتى الآن لا يرجع الى قرون مضت ، ولكن يظهر من اسلوب بنائه وقبته أنه منقول عن قباب أو أضرحة أقرب عهدا ٠ وأكثر أنواع هذه القبور انتشارا يوجد فى مدافن المدن وعلى مقربة من أبوابها ، ويتألف من قبة نصف كروية على قاعدة مكعبة ، وقد تفصلها رقبة تقوم عليها القبة وقد تكون جدران القاعدة مفتوحة من الجوانب بواسطة عقود على هيئة حدوة الفرس ٠

ولم تكن قبور الأمراء مختلفة كل الأختلاف عن قبور الأولياء ، ولكنها كانت أكثر فخامة ، وقد اختفت قبور ملوك غرناطة وكذلك قبور ملوك بنى مرين فى فاس فلم يبق منها الا أطلال مبعثرة ٠ ولكن قبور الأشراف السديين فى مراكش لا تزال قائمة ، وهى ترجع الى القرنين السادس عشر والسابع عشر ٠ وتتألف من صحن وعدة أضرحة ، وتمتاز بزخرفها الفنية ٠ أما المبانى المدنية فكان نصيبها من العناية ضئيلا فى عصر المرابطين ، اذ كانوا أهل بساطة وتقشف وحروب ، وكان مقرهم فى مراكش يسمى دار الأمة ، ولكن لم يكن له شأن كبير من الناحية المعمارية ، وكذلك انصرفت عنايتهم الى العمائر والمبانى الدينية أكثر من القصور ، ولذلك لا نعرف عن قصورهم شيئا يذكر فى هذا المجال وسنكتفى بشرح قصر الحمراء فى غرناطة ٠

١ - قصر الحمراء - غرناطة : ١٣٣٢ م

مثل رائع من قصور ملوك الأندلس وهو قصر الحمراء ، واسم القصر مشتق من بنى الأحمر وهم بنو قصر الذين كانوا يسكنون غرناطة بين عامى ١٢٣٢ ، ١٤٩٢ م.

وقيل أيضا أن أصله التربة الحمراء التى يمتاز بها التل الذى شـــيد عليه القصر ٠ ومهما يكن من الأمر فقد بدء فى تشييد هذا القصر فى القرن الثالث عشر ٠ وترجع بعض أجزائه الى القرن الخامس عشر ، ولكن معظمها يرجع الى القرن الرابع عشر وينسب الى يوسف الأول بين ١٣٣٢ الى ١٣٤٥ م ومحمد الخامس بين عامى ١٣٤٥، الى ١٣٥٩ م ٠ وقوام هذا القصر ٣ أقسام ، الأول هو القسم المشور الذى يعقد فيه الملك مجلسه ويصرف أمور الدولة ويسمع تظلمات رعاياه ، والثانى قسم الاستقبالات الرسمية ويشمل الديوان وقاعة العرش ، والثالث قسم الحريم ويضم المساكن الخاصة بالملوك ونسائهم ٠

ومن أبدع أجزاء هذا القصر فناء الريحان وتطل على فسقية هذا الفناء قاعة العدل وقاعة السفراء الداخلة فى برج القمارش ويتصـــل بهذا الجزء من القصر صحن يطلق عليه اسم صحن السباع ، وهو أوســـع ما فى القصر ، وقد بنى فى منتصف القرن الرابع عشر وفى وسطه فسقية رخامية من عدة احواض أكبرها قائم على تماثيل سباع من الرخام عددها عشرة وليست هذه السباع متقنة الصنع وانما هى محوره من الطبيعة شأن الفنون الاسلامية فى تصـــوير الكائنات الحية أو تجسيمها ٠ وأرض الصحن مقسمة أربع مناطق ومغطاة بالرمل وتفصلها لوحات من الرخام وطوله نحو ٢٨ متر وعرضه ١٦ وتحيط به بواكى ذات عقود تامة الدائرة فيها نقوش بديعة ودقيقة والمساحة التى تعلوها وتقوم محزمة على أعمدة اثنين اثنين أو أربعة أربعة أو ثلاثة ثلاثة ولا يكاد الوصف يكفى لبيان ما فى الأعمدة والبواكى من ثروة زخرفية آية فى الدقة والأبداع ولا يساويها الا ما نشاهده فى قاعة الأختين وقاعة بنى سراج وهما القاعتان اللتان تطلان على هـذه الصحن ٠ وهاتان القاعتان غنيتان جدا بزخارف المقرنصات والنقوش النباتية والكتابات العربية، ومن الأجزاء الطريفة فى قصر الحمراء المسجد الصغير والحمام ـ يرجى أن تنظر الصور والرسومات ٠ والأشكال الخاصة بقصر الحمراء ٠

أما المسجد فعمارته وزخارفه تشبه سائر أجزاء القصر ، والحمام به غرفة أولى ذات ـ مسطبتين وضعا بعيدتين تتوسطهما فسقية رخامية محيطة بها ٤ أعمدة من المرمر تحمل سقفا ٠ وفى الدور العلوى شرفات وهذه القاعدة مذهبة ومزينة برسوم جميلة ٠ أما قاعدة الحمام الداخلية فبسيطة الزخرف نسبيا وفيها قبة من الجص بها فتحات المنور مثبت عليها قطع من الزجاج ، وفى هذه القاعة حوضان يسير اليها الماء فى أقنية تدخل من الجبل ٠ ومن أفخم أجزاء القصر قاعدة الســـفراء ، فان ابداع الطراز المغربى ممثل فى نقوش جدرانها وفى قبتها الخشبية ذات النقوش المذهبة وفى زخارفها الجميلة ٠ والملاحظ بوجه عام أن قصر الحمراء ليس له تصميم مخصوص ،

دائما تدل أجزاءه المختلفة على أنها أضيفت من حين لاخر بدون أن يؤلف وحدة كاملة متناسبة التوزيع ، وفضلا عن ذلك فأن الغالب على هذا القصر وهـــو الأسراف فى الزخرفة وعدم العناية بمتانة البناء ، فلا عجب اذا تهدمت بعض الأجـزاء وأصلحت أو بنيت غيرها عوضا عنها • وعلى مقربة من قصر الحمراء آثار قصر صغير آخر كان ملوك غرناطة يقضون فيه فصل الصيف ، وهو معروف باسم جنة العريف • وقد يكون المقصود بالعريف هنا المهندس • ويرجع هذا القصر الى بداية القـــرن الرابع عشر ولا تزال بعض أجزاءه القديمة قائمة ، وهو بستان كبير تتخلله ينابيع المياه تنحدر اليه من الجبل وتتدرج حدائقه فى ثلاث مناطق ، كل واحدة أعلى من الأخرى ببضعة أمتار ، وقوام كل حديقة منها بحيرة كبيرة مستطيلة من الرخام حولها نافورات من الماء • ويشرف على هذا البستان أيوان وقصر صغير للحـــريم لا يختلفان كثيرا فى طراز البناء والزخرفة عما رأيناه فى قصر الحمراء •

٢ ـ الحمامات والأسواق :

ومن الأبنية الغريبة التى ذاع صيطها فى العصور الوسطى هو المارستان شيده فى مراكش أبو يوسف يعقوب المنصور فى القرن الثالث عشر ، وقد اشـــتهر بعظم ساحته وجمال عمارته وزخارفه فضلا عن حسن استعداداته بمرافقه الصحية • وكان بناء الحمامات فى الطراز العربى كما كان قبل ذلك فى الطراز الأموى متأثرا بأساليب بناء الحمامات عند الرومان ، فكان قوام الحمام قاعة رئيسية لخلع الملابس ، وبها قبة تقوم على الأعمدة وقاعة أخرى للماء ذى الحرارة المتوســطة Tapialerius وثالثة للماء الجارى البارد Colderum ، وكان سقف كل منها على هيئـة سقف نصف اسطوانى به فتحات صغيرة ينفذ منها الضوء •

أما الأسواق فى الطراز العربى فكانت تقام على مقربة من المســجد الجامع ، ولا تزال بعض أجزائها قائمة فى تونس وترجع الى القرنين الثالث والرابع عشر ، وكانت أسقفها من أقبية طويلة نصف اسطوانية مصنوعة من الطوب وتحملها أعمدة رشيقة ، أما الأسوار والحصون والقلاع فىهذا الطراز فلسنا نعرف منها فى عصر المرابطين شيئا يستحق الذكر • بينما شيدت الأسوار والقلاع فى عصر الموحدين ، وظلت الأساليب المستعملة فى بنائها متبعة طوال الزمن الذى ازدهر فيه الطـــراز العربى ، فحلت الأبراج المضلعة محل الأبراج المستديرة ، وزادت العناية بابراز الأبواب وزخرفتها وقل بناء الحوائط بالحجر والأسمنت ، بينما زاد الاقبال على استعمال الدبش الدقشوم فى تشييد الحوئط أما العقد المفضل فكان العقد الحدوى المكسور •

٣ ـ الأســوار :

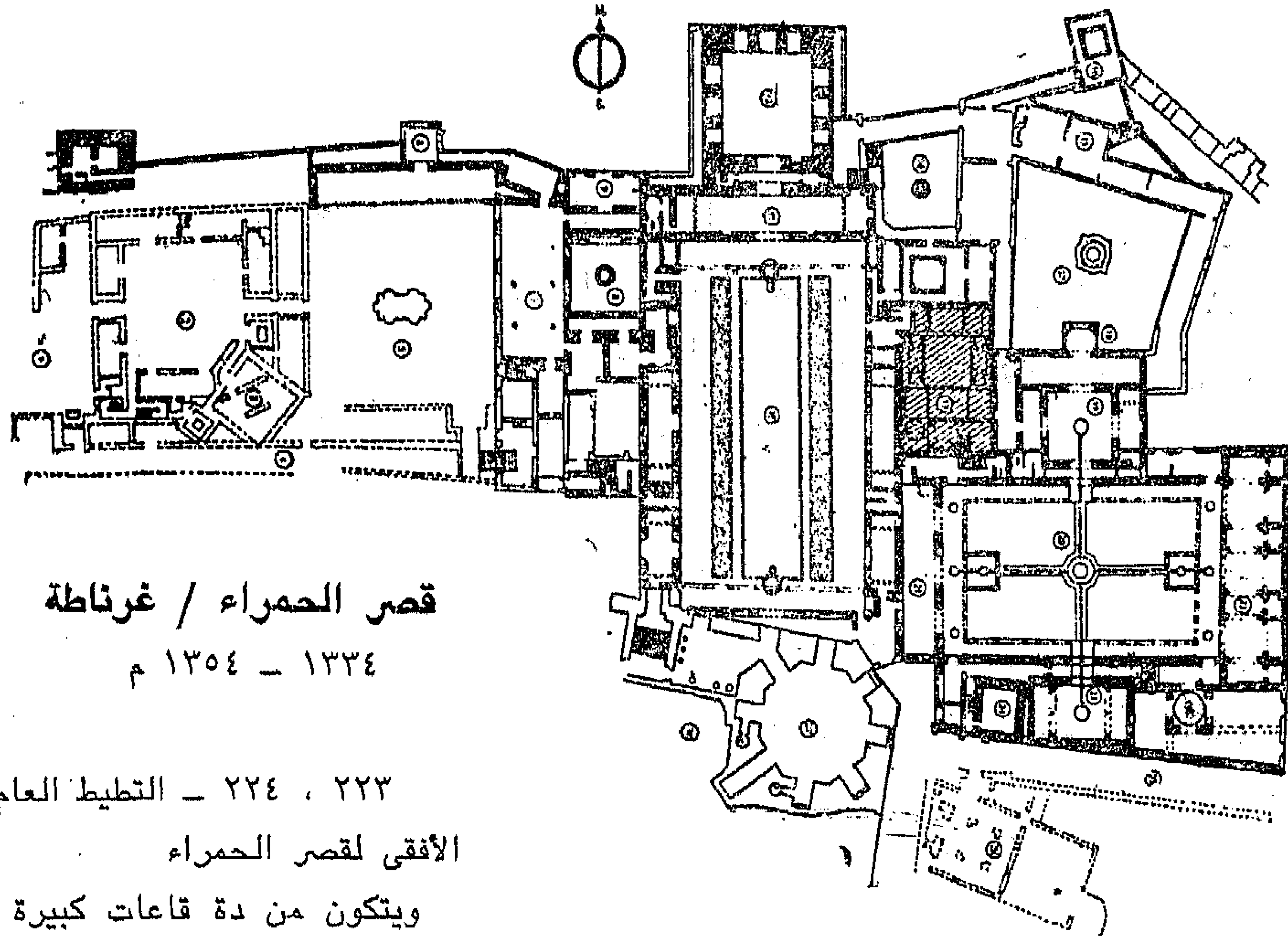
ومن الأسوار التى ترجع معظم أجزائها الى عصر الموحدين أسوار مدينة فاس القديمة ومدينة مراكش ، وكان لمدينة الرباط سور محصن ثم حلت محله قلعة تسقط منحدراتها رأسيا نحو المحيط الأطلسى ، ولها بابان كبيران بعدهما ردهة تقوم فوق كل منها قبة ، ولا يزال هذان البابان قائمان الى اليوم ٠

● الطابع المعمارى المغربى :

أن أول ما يجب ملاحظته فى الطراز المغربى هو الأسراف فى زخرفة المبانى ، ولم يظهر هذا الاسراف فى عصر الموحدين ظهورا تاما وانما كان واضحا كل الوضوح فى مبانى القرن الرابع عشر وهى المبانى التى تعرف أحيانا باسم طراز الحمراء ٠ لأن المعروف أن الفنانين يستخدمون من غرناطة الى سائر المدن الأندلسية والمغربية ، نقلوا اليها الأساليب التى عرفوها فى قصر الحمراء ٠ والعنصر الفنى الأول فى هذا الطراز الذى ينسب الى قصر الحمراء هو تغطية المساحات بالزخارف التى بلغت فى الغنى والدقة والتوزيع حدا يستحق الأعجاب ٠

وكانت كل العناصر المعمارية الأخرى ثانوية بالنسبة الى تلك الزخارف الدقيقة ولا سيما ما كان منها محفورا بالجبس أو مصنوعا فيه ٠ وكان للمقرنصات شأن عظيم فى زخارف هذا الطراز كما امتازت أيضا بتكرار شــــارة ملوك غرناطة وهى عبارة « لا غالب الا الله » ، وبعض الزخارف الكتابية بالخط الكوفى ذى الحروف المتشابهة ٠

ومن الأساليب الفنية المتصلة بالطراز المغربى طراز المدنيين وهم المسلمون الذين عاشوا بالمدن الاسلامية بعد أن استردها المسيحيون ، وعمل الفنيون من أولئك المدنيون على الاحتفاظ بقسط وافر من أساليبهم الفنية الموروثة ولكنهم أدخــــلوا عليها بعض التحوير المناسب لذوق الحكام المسيحيين ٠ ولما سقطت المدن الاسبانية فى يد المسيحيين الذى حدث فى أوقات مختلفة فأن طراز المدنيين نجده غير مقيد بفترة معينة ، ولكنه يمثل مرحلة فى تطور الفن الاسلامى من الطراز المغربى الى الطراز الذى سادت فيه منذ عهد النهضة ـ يرجى أن تنظر الرسومات والأشكال الخاصة بقصر الحمراء غرناطة أرقام من ٢٢٣ الى ٢٢٨ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ٠



قصر الحمراء / غرناطة

١٣٣٤ ـ ١٣٥٤ م

٢٢٣ ، ٢٢٤ ـ التخطيط العام ـ المسقط الأفقى لقصر الحمراء

ويتكون من دة قاعات كبيرة مصممة لأغراض متلفة

ينسب قصر الحمراء الى أبى الحجاج يوسف الأول ٣٤ ـ ١٣٥٤ م . فأنشأ البرج والقصر والحمام الملكى وباب الشريعة وبرج الأسيرة والمصلى . ولما قتل أبو الحجاج لفه ابنه محمد الخامس فاكمل بناء القصر وبهوى الريحان والسباع .

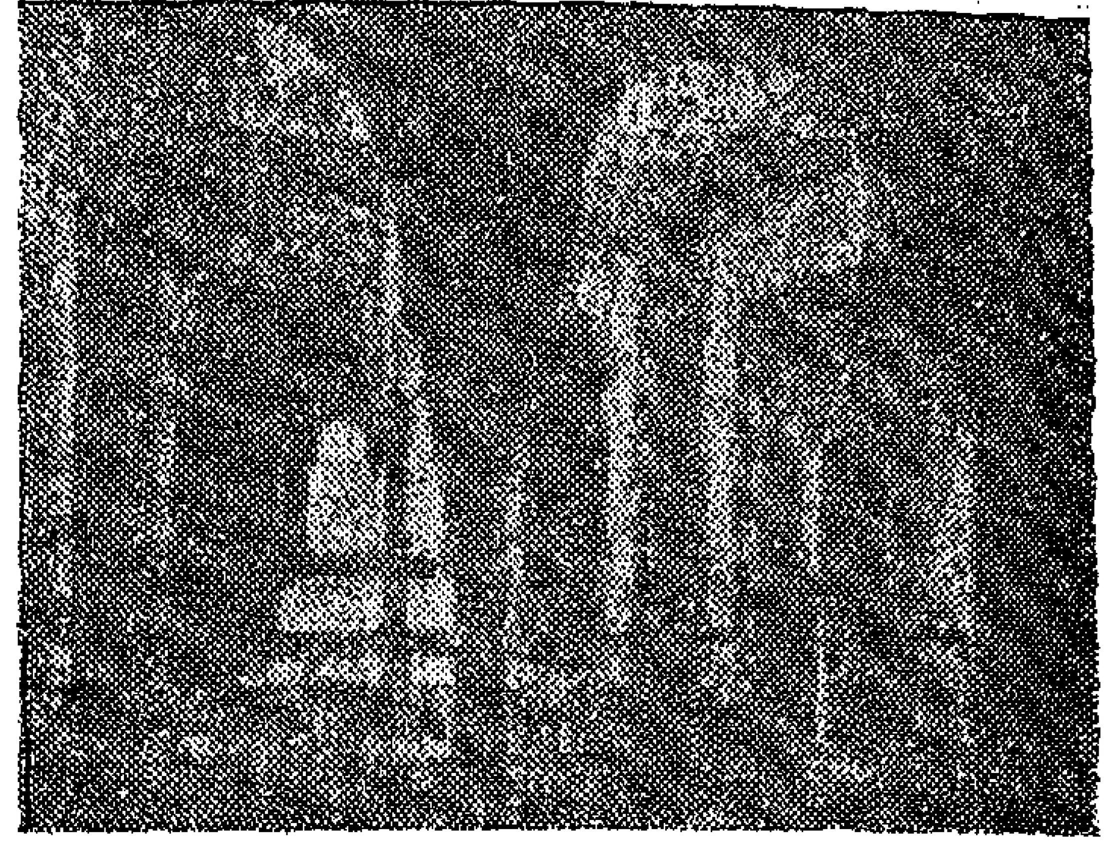
زخارف هذا القصر يعجز عنها الوصف ، تتألف من زخارف هندسية ونباتية وكتابية ملونة. يعلوه سقف خشبى يعرف باسم رواق البركة . وتطل على بهو الريحان بائكة مكونة من سبعة عقود ، الأوسط منها أكثرها ارتفاعا . وهو أروع مثل للبهو الأندلسى ، اذ تشغل وسطه بركة تحف بها أشجار الريحان ولذا سمى ببهو البركة .

يحتوى القصر على قاعات كبرى ، منها قاعة السفراء وقاعة الاسرة وقاعة المجلس ، بالاضافة الى القاعة الأساسية للحمامات ومجموعة قصر السباع . والواقع أن هذا القصر جديد فى تاريخ العمارة عامة والغرناطية اصة . ويتوسط بهو السباع هذا نافورة تقوم على حوض استدار اثنى شر أسدا تمج المياه من أفواهها . ويدور بالبهو أربع بوائك ، تقوم على عمدها الرشيقة عقود نصف دائرية تعلوها حوا ئط مكسوة بالأعمال الزرفية الجميلة بنقوش عربية بديعة والبهو مستطيل الشكل طوله ٥٠ر٢٨م تطل عليه قاعات فسيحة منها قاعة الملوك أو قصر العدل وقاعة بنى سراج ـ وبها حوض من الرخام به آثار بقع حمراء يقال انها من دماء بنى سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بنى نصر ـ وقاعة الأختين نسبة الى لوحتين كبيرتين من الرام متماثلين تماما فى الشكل تكسوان الأرضية . وتعلو هذه القاعة ـ كما تعلو القاعات الأخرى ـ قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة تشبه خلايا النحل ، وجميع الحوائط مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية البديعة تتخللها كتابات كوفية .

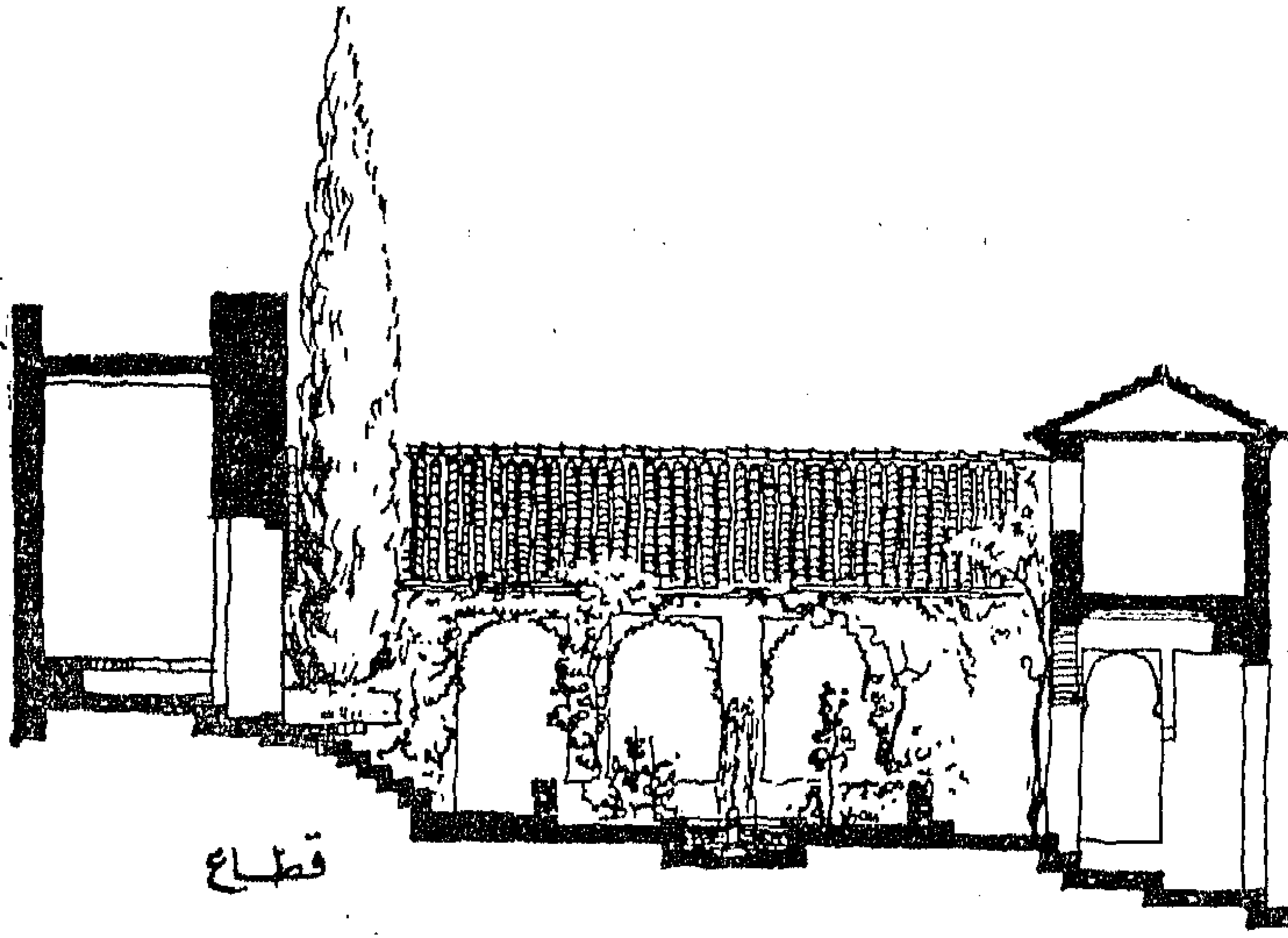
ونلاحظ أن الفن المعمارى بقصر الحمراء هو فن دنيوى على نقيض فن المرابطين المعمارى حتى المساجد التى أنشأها بنى نصر لم تكن الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدى المسيحيين ، فقد كانت هذه المساجد تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تسبح فى زخارفها الأبصار مستقبله فى غده . وهكذا كانت المبانى التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لا مثيل لجماله وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب وهذا التمتع .

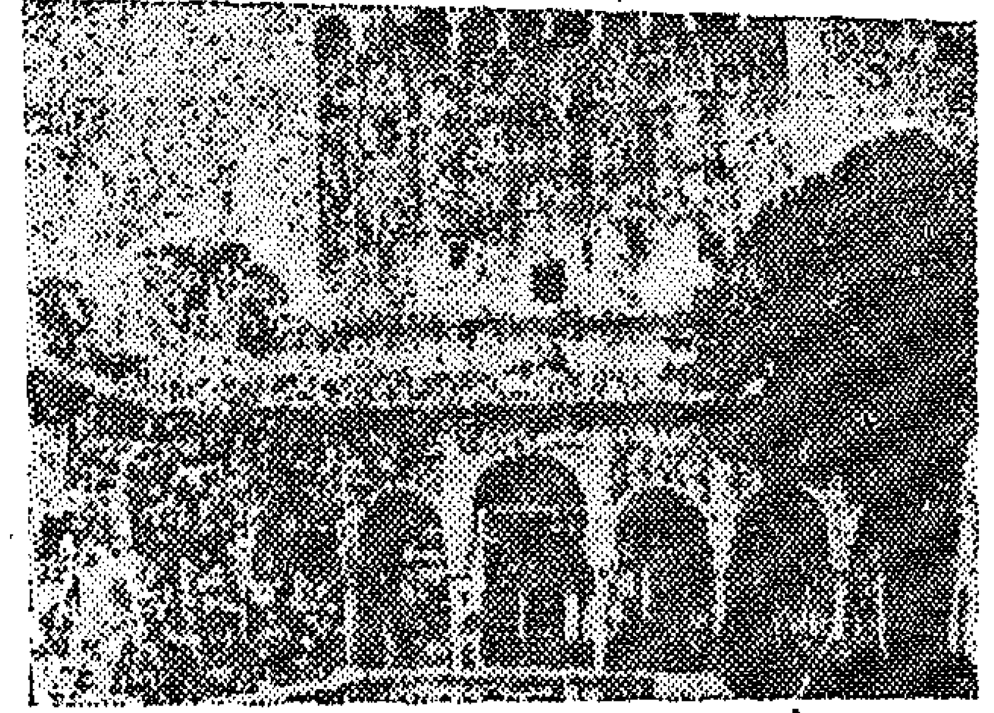
ونجح عرفاء بنى نصر فى احداث تأثير جمالى يصحب من توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة فالحمراء تجلو لنا أروع أمثلة هذا الفن · بل هى واحة نضراء فى اقليم قاحل جاف تحرقه الشمس · ولا تدع غابة الحمراء التى تحيط بالقصر أى مجال لنفاذ أشعة الشمس · كما أن هذه البسمات المنعشة التى تهز الاشجار ترطب الوجوه المحترقة ، والمياه التى تنساب بين الصخور ، والطيور التى تغرد على أغصان الشجر · وكل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا، يحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لا يفكر فيه الا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات ·

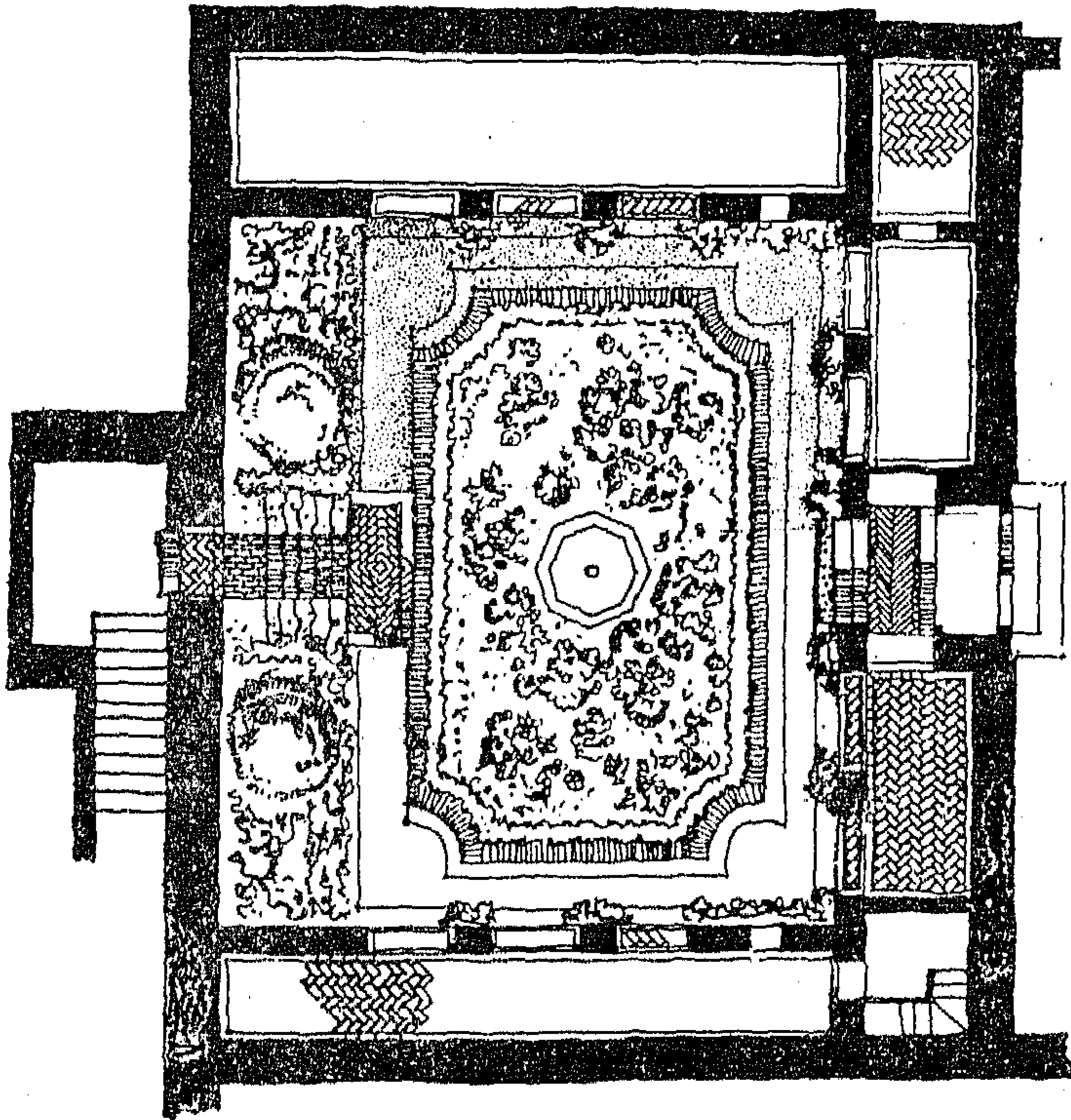
وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شىء اعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقة التى لا سبيل الى التغافل عنها وهى انتهاء دولة الاسلام فى الاندلس ·



٢٢٥ ـ قاعة الأختين بقصر الحمراء ـ غرناطة
٢٢٦ ـ التخطيط العمومى ، وقطاع طولى
٢٢٧ ـ تفاصيل أحد أعمدة قصر الحمراء







فناء داخلى بقصر الحمراء بغرناطة

فى بداية القرن الرابع عشر أغار المغول على دول السلاجقة فى آسيا الصغرى، وصمموا على القضاء عليها · وأفاد من ذلك عثمان بن أرطغول جد الأتراك العثمانيين، فاستقل بالمنطقة التى كان السلاجقة يملكونها · وهكذا قامت الدولة العثمانية وعملت بعد ذلك على مد سلطانها فى آسيا الصغرى ثم فى البلقان ، فسقطت فى أيديهم مدينة غاليبولى · وتقدم العثمانيين فى أراضى البلقان ثم توجـــوا انتصـــاراتهم بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م وقضوا بذلك على الدولة البيزنطية وأصبحت شبه جزيرة البلقان جزءا من امبراطوريتهم العظيمة :

ثم اتجه العثمانيون الى الشرق والجنوب فبسطوا سلطانهم على بلاد الجزيرة والشام ومصر ، وما لبثوا أن اتخذوا لقب الخلافة الاسلامية ، وخضعت لهم جزيرة العرب وامتد نفوذهم الى شمال افريقيا · وزادت هيبة الدولة العثمانية ، وازدهرت الفنون فيها · ولكن دب الضعف الى هذه الامبراطورية فى نهاية القرن الثامن عشر، وعمل الروس على الافادة من ذلك حماية للشعوب المسيحية التى كانت تخضع للاتراك فى البلقان وفى السعى للاستيلاء على القسطنطينية والاستيلاء على المضايق للوصول الى البحر المتوسط ، وشهد القرن الماضى تفكك الامبراطورية العثمانية وزوال معظم أملاكها الأوربية · وقد انتشر الطراز التركى فى الأقاليم الاســـلامية التى فتحها العثمانيون · ويظهر أن الأتراك ساروا على سنة معروفة فى البلاد التى فتحوها فكانوا ينقلون الى استانبول بعض أعلام الصناع والفنانين منها ، وينقلون اليها من بلادهم متاعا وفنانين ليحلوا محلهم ·

وقد حدث ذلك فى مصر اذ بعث السلطان سليم الى استامبول نخبة من أرباب الصناع من كل منهة ، وطبيعى أن المبانى الدينية العثمانية ، وكانت فى بداية أمرها حلقة انتقال من الطراز السلجوقى الى الطراز العثمانى الذى ازدهر فى استامبول وانتشر منها الى سائر أقطار الامبراطورية العثمانية · ويبدو ذلك جليا فى المساجد التى شيدت فى القرن الرابع عشر ، وقوامها أروقة فيها أكتاف وعليها قبابصغيرة·

أما المساجد الصغيرة فكانت تتألف من قاعة كبيرة عليها قبة وتسبق القاعة ردهة مسقوفة ولكن عمارة الجوامع الكبرى تأثرت بعد ذلك ببناء كنيسة آيا صوفيا بعد أن أصبحت مسجدا ، ويبدو ذلك واضحا فى مسجد المحمدية أو مسجد محمد

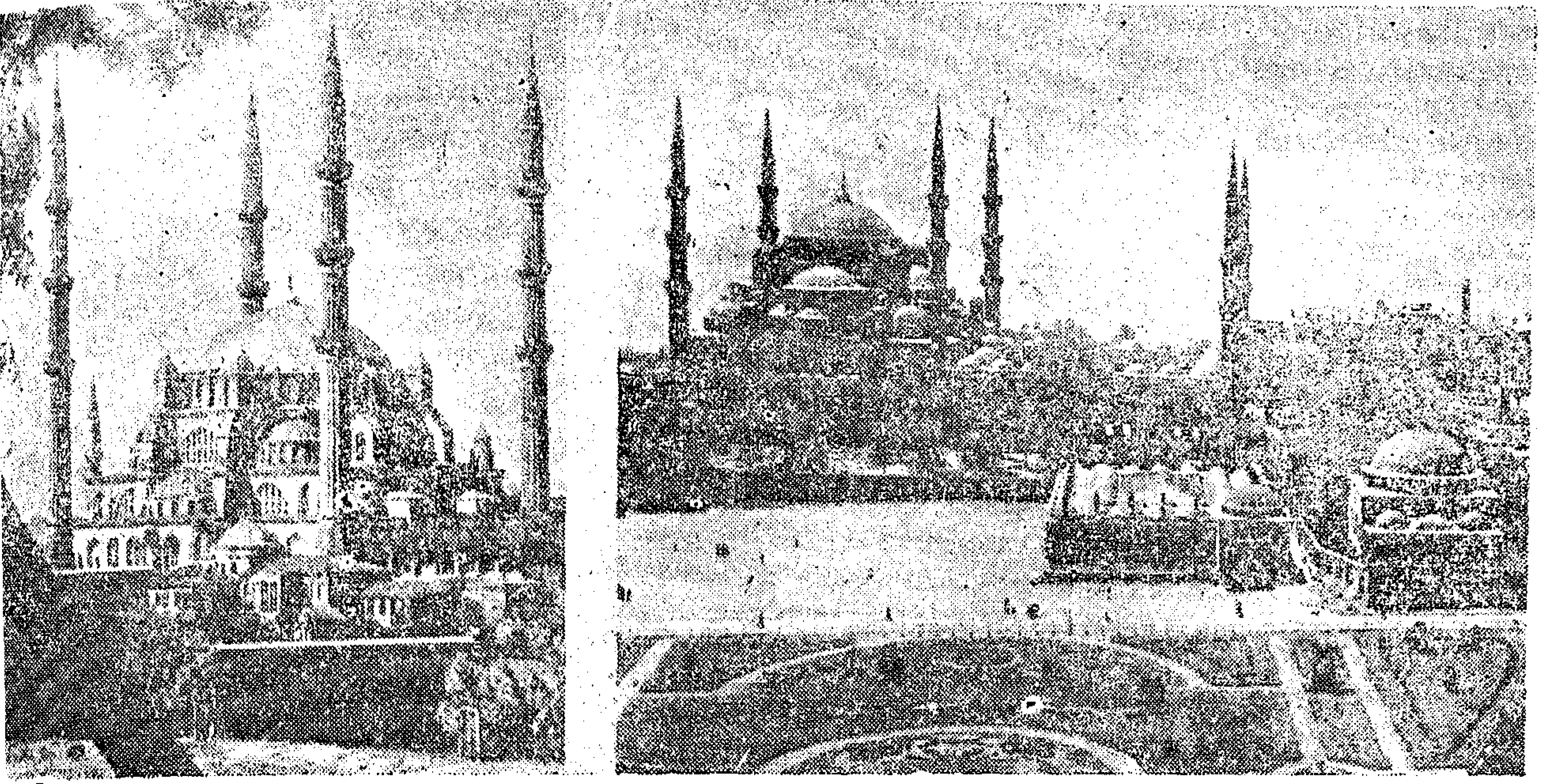
الفاتح الذى شيد بين عامى ١٤٦٣ ، ١٦٦٩ م وكان تخطيطه ينسب الى المهندس اليونانى كريستودولوس ، ولكن هذه النسبة أصبحت موضع الشك ، وعلى كل حال فقد نقل مهندس المحمدية عن عمارة آيا صوفيا نظام القبة والتصميم المتعامد ، كما أنه صدر المسجد بصحن كبير ذى فسقية مشتقة أيضا من آيا صوفيا ، ويدور فيها رواق ذو عقود وقباب ٠

● المساجد التركية :

ومن المساجد التركية التى تأثرت بعمارة آيا صوفيا تأثرا كبيرا مسجد السلطان بايزيد الثانى ، والذى بناه المهندس خيرى الدين عام ١٥٠٧ م ، ولهذا المسجد رواقان جانبيان كما هو الحال فى آيا صوفيا ، وعلى كل منهما أربع قباب صغيرة ، وله منارتان ممشوقتان انحدر شكلها من المآذن السلجوقية اذ كان العصر الذهبى للعمارة العثمانية على يد المنهدس سنان فى القرن السادس عشر ٠ وقد ولد سنان فى نهاية القرن الخامس عشر فى الأناضول وذاع صيطه فى الحملة التركية على اقليم ولاية تركية ، اذ وكل اليه عمل قنطرة كبيرة على نهر السطونة ، وكان التوفيق حليفه فى هذا المشروع ، ولكنه منذ ذلك الحين كرس حياته الطويلة للعمارة ، وأشرف على تشييد أغلب المبانى فى استامبول وفى غيرها من المدن التركية وسائر الأقطار العثمانية ٠ وقد دفن بعد وفاته سنة ١٥٧٨ م فى الضريح الذى كان قد أعده لنفسه بجوار جامع السليمانية الذى يعد من أبدع منشآته ٠

وقد اختلف الناس فى أصله : هل هو يونانى أو ألبانى ٠ وليس لهذا أهمية تاريخية فى عمله الذى ظل تركيا أصيلا ٠ ولا أدل على مراحل تطوره من ثلاثة مبان قال هو نفسه عنها : أنها تدل على شخصيته وتدل عليه صبيا وعريفا ومعلما ٠

ولا شك أن سنان طبع عصره بطابع نبوغه فى العمارة ، وتتجلى مراحل نشاطه فى ثلاثة أبنية هامة تمثل نشأته الفنية ثم استكمال نبوغه وهو مسجد شاه زاده ١٥٤٣ م ، ثم مسجد السلطان سليمان بالسليمانية باستامبول ١٥٥٠ م ، وأخيرا مسجد شاهزاده يتأثر بتخطيط مسجد المحمودية ، ولكنه ينجح فى أن يكسب القبة وداخل المسجد طابعان هما الرشاقة وجمال النسب ٠ أما فى السليمانية فيتأثر بتخطيط آيا صوفيا ٠ ويضم مسجد السليمانية صحنا خارجيا ثم المسجد نفسه ، ثم حديقة ويحميها كلها سور واحد تقوم حوله المبانى التابعة لها كالمدرسة والحمامات ومطعم الفقراء والمكتبة ٠ ويمتاز المسجد نفسه بقبة رئيسية كبيرة يحف بها نصفا فيه أصغر حجما ويخرج من كل منها نصف قبة صغيرة ، أما مسجد السليمانية فى أدرنه فانه



مسجد آيا صوفيا

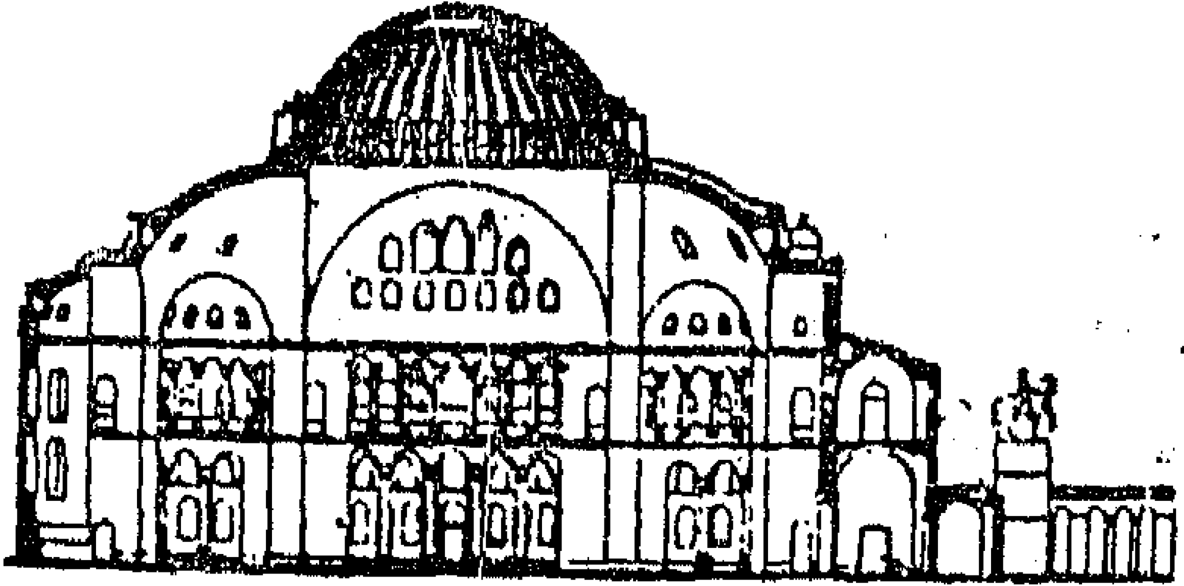
القسطنطينية / ١٥٣٧ م

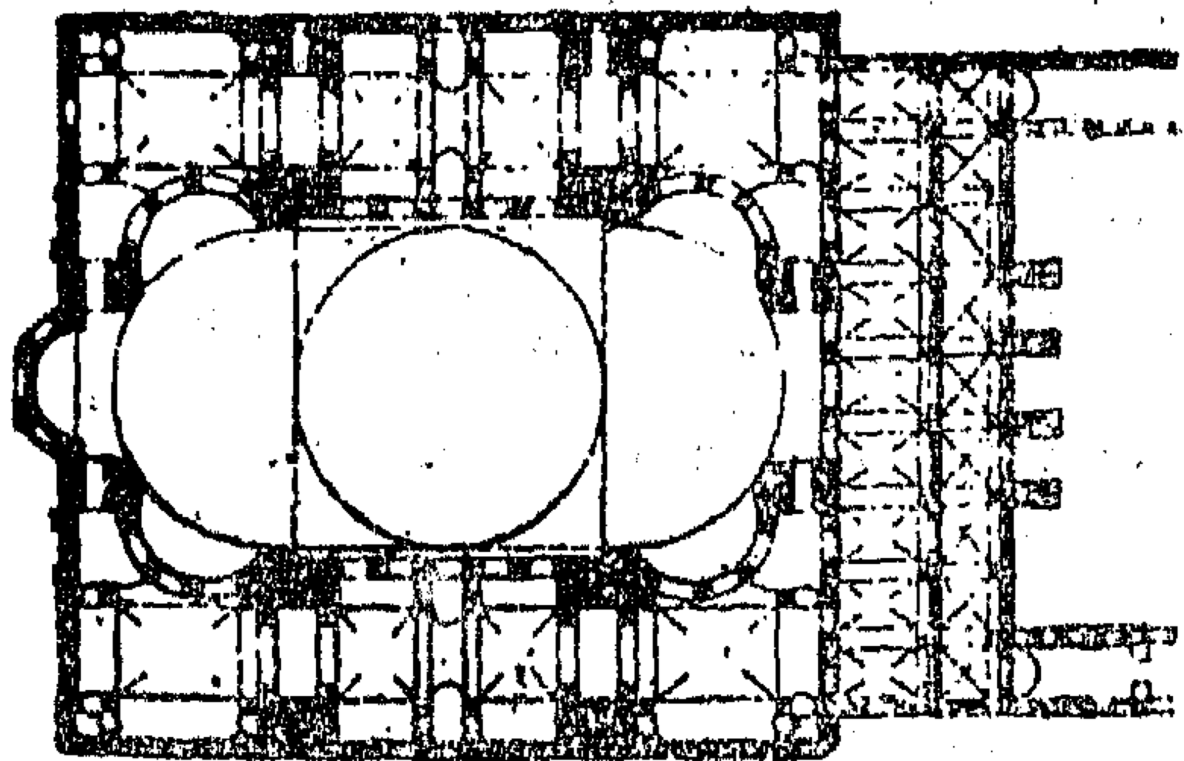
تعتبر كنيسة أيا صوفيا / القسـطنطينية ٥٣٢ ـ ١٢٧ م ومعناها بالحكة المقدسة تحفة معمارية فى القرن السادس · تحولت هـذه الكنيسة الى جامع بعد الغزو التركى وأضـيف اليها ٤٠ مآذن · وقد اتخذ التصميم أساسا أو انموذجا للمساجد التركية الهامة التى انشئت بعد ذلك ·

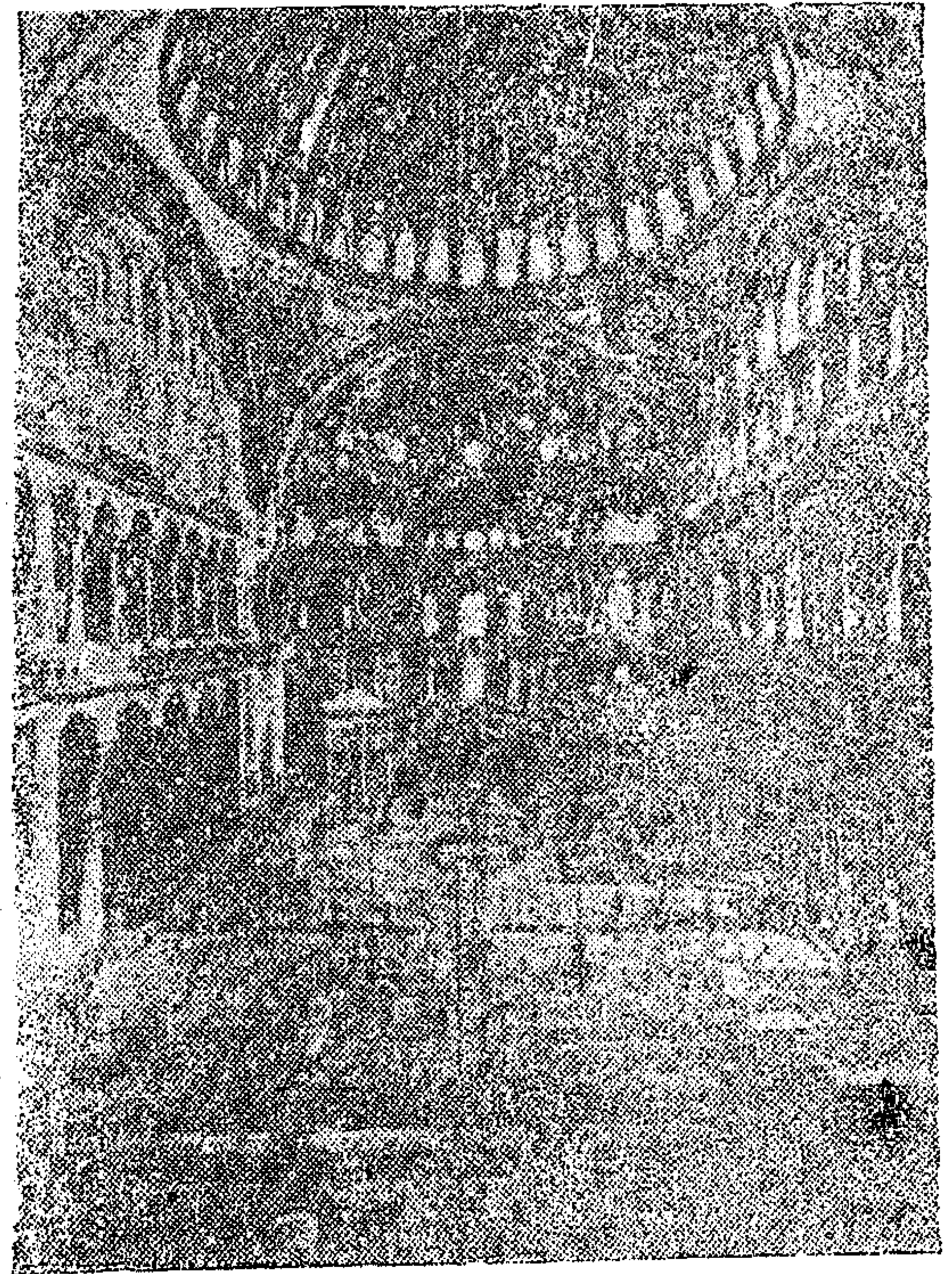
٢٢٩ ـ منظور عام للجـامع ويلاحظ ذلك التكوين المعمارى الجميل ·

٢٣٠ ـ منظور داخلى للجامع ·

٢٣١ ـ قطاع رأسى · المسقط الأفقى ·

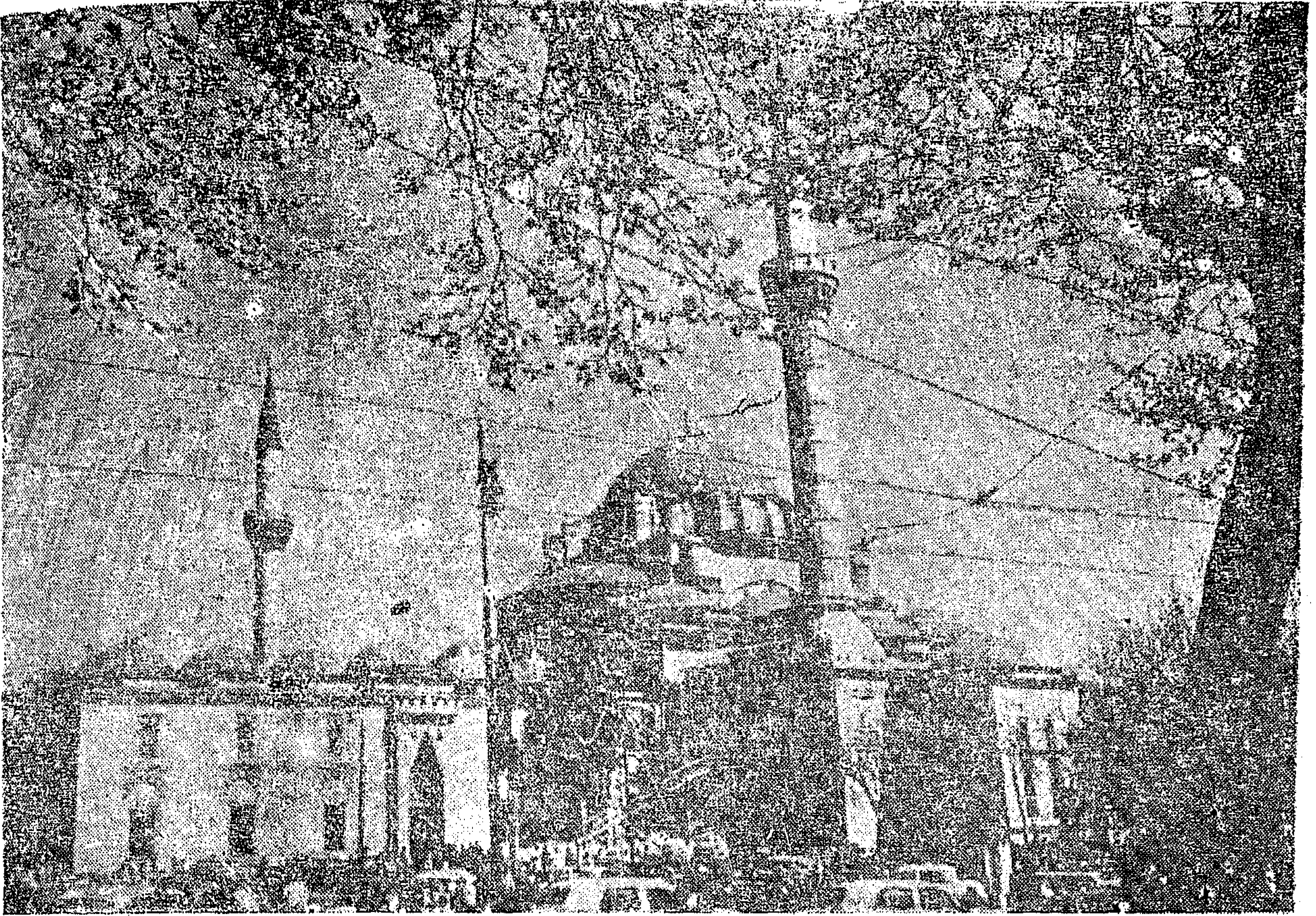


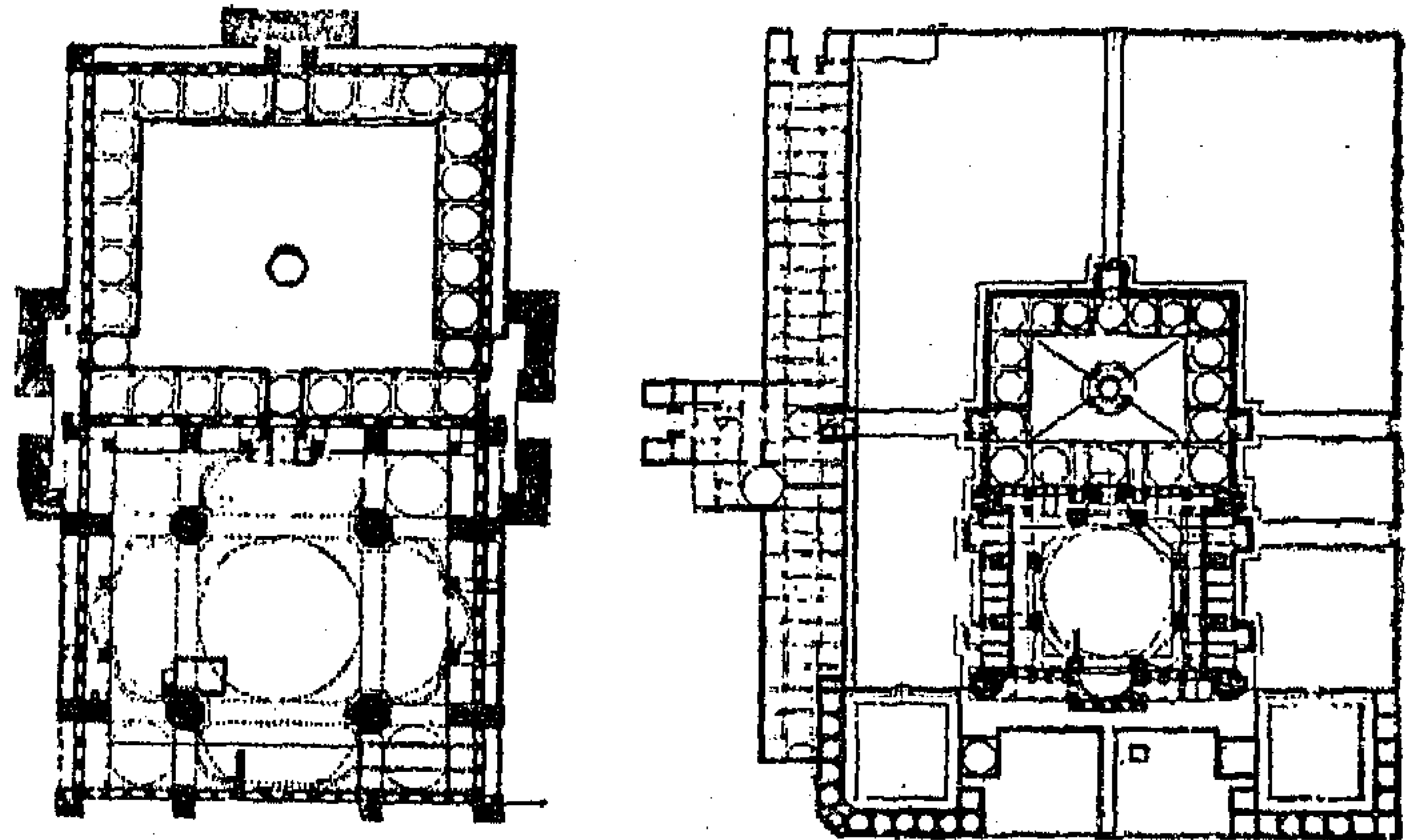






مسجد أيا صوفيا / القسطنطينية ١٥٣٧ م





جامع السلطان أحمد الأول

اسطامبول ١٦٠٩ ـ ١٦١٦ م
٢٣٢ ـ منظور عام للمسجد
٢٣٣ ـ المسقط الأفقى للمسجد

● تمتاز المساجد التركية بمآذنها الرفيعة والطويلة ذات الرؤوس المدببة المخروطية Pencil Point وبها عدة شرفات ، وتصميمها غالبا ما يشبه تصميم كنيسة أيا صوفيا · فهى ذات قاعدة مربعة تعلوها قبة مستديرة يحيط بها أنصاف قباب صغيرة مثل جامع السلطان احمد ومسجد السليمانية فى مدينة اسطامبول · وبنى الأتراك كثيرا من المساجد والأسبلة والقصور حيث كانت للعمارة التركية الاسلامية أثرها على العمارة الاسلامية فى مصر وخاصة أيام محمد لى ، كما يتضح ذلك فى مسجده بالقلعة وفى عصر الباشوات الأتراك من قبله فى مسجد الملكة صفية بشارع محمد على ومسجد سنان ببولاق ·

ومن أهم مميزات جامع السلطان أحمد الأول ـ وهو تصميم سنان الذى بنى ما لا يقل عن ٣٠٠ مبنى فى تركيا ـ أنه يمتاز بموقع جميل مرتفع ترتفع مآذنه الست شاهقة الى السماء وكأنها أذرع ممتدة تشير الى الله تبارك وتعالى تطلب الرحمة والمغفرة للناس ·

أظهر أقصي براعته في اظهار القبة الضخمة على ثمانية أكتاف كبيرة ، وفى الاكتاف يوجد من النوافذ والفتحات الكثيرة لتخفيف من ضغط البناء وثقل مظهره ٠

● مسجد السلطان أحمد الأول : استانبول ١٦٠٩ م :

وقد كان لسنان تأثير كبير فى تطور العمارة العثمانية ، وقد نسج على منواله المهندسون وظهرت شخصيته فى الأجيال التالية وما يشهد بهذا الأثر البالغ مسجد السلطان أحمد الأول باستامبول ، ويعتبر من أجمل مساجد الآستانة وأفخمها ٠ وتدل الكتابة التاريخية المنقوشة على أحد أبوابه على أنه شيد بين عامى ١٦٠٩ ــ ١٦١٦ م، أما مهندسه فهو محمد أغا أشهر المعماريين الأتراك بعد سنان باشا ٠ ويقع هذا الجامع جنوب آيا صوفيا وشرقى ميدان السبق البيزنطى القديم ٠ وله سور مرتفع يحيط به من ثلاث جهات ، وفى السور خمسة أبواب ، ثلاث منها تؤدى الى صحن المسجد ، واثنان الى قاعة الصلاة ، أما الصحن ففناء كبير يسبق المسجد تحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة من الجرانيت ، ولها تيجان رخامية ذات مقرنصات وفوقها نحو ٣٠ قبة صغيرة وفى وسط الصحن ميضاءة سداسية الشكل تقوم على ستة أعمدة ٠ وأكبر الأبواب التى تؤدى الى الصحن هو الذى يتوسط الجانب الغربى ، ويظهر فيه التأثير بالأساليب الفنية الايرانية ٠ ومسقط المسجد مستطيل طول ضلعه ٦٤ متر ، ٧٢ متر ، وتتوسطه قبة كبيرة محمولة على أربعة عقود مدببة تتكىء على أربعة أكتاف ضخمة تشبه الأعمدة فى شكلها الأسطوانى ذى التجاويف ٠ ويحف بالقبة أربعة أنصاف قباب فى كل واجهة نصف قبة فضلا على أن كل ركن من أركان المسجد مغطى بقبة صغيرة ٠ وتدور فى ثلاث جوانب المسجد ثلاثة أروقة مرتفعة تقوم على أعمدة ٠ وفى القباب والجدران عدد وافر من النوافذ يجلب الى حرم المسجد ضوء وافرا يزيده فخامة ٠ الحوائط مغطاة بالقيشانى الأخضر والأزرق والأحمر ، وكذا النوافذ العليا ، أما المحراب والمنبر فمن المرمر وزخارفها فاخرة جدا ٠ ويحف بالمحراب شمعدانان كبيران ٠ وللمسجد ستة مآذن عالية ، ويقال أن السلطان أحمد كان يريد أن يضارع مسجده هذا كنيسة آيا صوفيا ، وكثيرا ما كان يلحق بالمساجد الكبيرة التى يشيدها السلطان ضريح لأفراد أسرته ، وكان لهذا الضريح قاعة ذات قبة ، ولكن لم يكن لها فى معظم الأحيان شأن معمارى كبير ٠ كما كان يلحق بتلك المساجد أيضا مكتبة ومدرسة أو حمام أو مطعم للفقراء أو مستشفى ــ يرجى أن ينظر الرسومات أشكال ٠٠

ومن أمثلة المساجد التركية الطراز الجامع الذى شيده محمد على باشا فى قلعة الجبل بالقاهرة ، وقد بدئ فى انشائه عام ١٨٣٠ م على يد المهندس التركى يوسف بوستان فنسج فى تصميمه على منوال تصميم جامع السلطان أحمد فى استامبول ، وسيأتى شرح هذا الجامع فيما بعد ٠

الطابع المعمـــارى العثمانى فى مصر :

بعد أن سقطت دولة المماليك الجراكسة ودخلت مصر فى حـــــوزة العثمانيين واستولى السلطان سليم الثانى على مصر عام ٩٢٣ هـ ــ ١٥١٧ م وقضى على النشاط المعمارى والفنى والصناعى بسبب أنه جمع المهندسين والفنانين والصناع المهرة وأهل الخبرة المصريين وأرسلهم الى تركيا بحجة الاستعانة بهم للقيام ببعض المنشـــآت فى استامبول ٠

وما أن تولى (*) حكام أتراك يحكمون البلاد باسم السلطان حتى أدخلوا أساليب جديدة على العمارة الاسلامية لم تكن مألوفة فى مصر ٠ فقد أنشأ مسجد سليمان باشا بالقلعة عام ١٥٢٩ م على نظام مساجد الآستانة المستوحى من نظام الكنائس البيزنطية٠ فالمسجد عبارة عن قبة كبيرة أمامها فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات قباب صغيرة ، الا أن مئذنته تأثرت بالمآذن الاسلامية المصرية ، شكل ٢٣٤ ٠ وكذلك الحال فى مسجد الملكة صفية عام ١٦١٠ م ٠ وكذا مسجد سنان باشا فى بولاق الذى أنشىء عام ١٥٧١م، الا أنه استعيض عن الفناء المكشوف بأروقة معقودة حول واجهاته الثلاث ، كذلك وجدت عدة تصميمات جديدة للمساجد ٠ فمن مربع تتوسطه أربعة عمد تحمل السقف ، الى مستطيل مكون من ايوانين وتتوسطه قاعة ، الى مساجد مثل المساجد الجامعة يتوسطها صحن مكشوف ٠

ووجدت أيضا عناصر جديدة للزخرفة لم تكن شائعة ، وهى كســـوة الحوائط والقباب بالقيشانى ٠

ومع بداية القرن السابع عشر الميلادى وجدنا أن قل انشاء المســاجد ، وانتشر انشاء السبيل يعلوه الكتاب منفردا غير ملحق بالمساجد ، كما انتشر انشاء الدور ذات المقاعد والمشربيات الجميلة كما سيأتى شرحه تفصيلا بعد ذلك فى الجــــزء الثالث المخصص للعمارة والفنون الاسلامية ٠ وفى الوقت الذى نرى فيه هـــذا التنوع فى العمارة وفى تفاصيلها ودخول عناصر جديدة فى المنشئات والأبنية فى ذلك العصر ، نجد أن العمارة اتخذت طريقا آخر فى بلاد الوجهين البحرى والقبلى فى مصر لا يمت بصلة الى الطراز الذى كان سائدا فى هذا العصر ، بل بقيت تقتبس من طـــرز دولتى المماليك البحرية والجراكسة بشكل تسوده البساطة ٠

(*) المرحوم الاستاذ حسن عبد الوهاب / مفتش الآثار العربية ــ مجلة العمارة ١٩٤١/٤/٣

ويعتبر سنان باشا من أشهر ولاة مصر فى العصر العثمانى ، فقد عين عليها واليا مرتين · وكان قائدا فى الجيش التركى وعهد اليه بفتح اقاليم كثيرة من العالم الاسلامى فقد أرسله السلطان الى اليمن لقمع ثورة الزيديين بها ، واستطاع أن يقضى على الفتن وفتح البلاد · وفى عهد السلطان سليم الثانى ، قام على رأس جيش كبير وفتح تونس واستخلصها من أيدى الأسبان ، وبذلك توطد النفوذ التركى فى شمال أفريقيا بخروج الأسبان من معظم أجزائها ، وعلى ذلك عينه السلطان رئيسا للوزراء ·

وفى صدر العصر العثمانى كانت القاهرة تزخر بالأسواق والوكالات والفنادق التى تطلبتها حالة الرواج التجارى فى عصر المماليك ، حتى بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحويل جزء كبير من تجارة الشرق اليه · ولكن القاهرة فقدت كل ما كان يمكن أن تجنيه من تجارة الهند بها وذلك عندما منح السلطان سليمان الثانى « فرمان » الامتيازات الأجنبية لحماية التجار الفرنج ، الذين لم يكتفوا بحماية تجارتهم فحسب ، بل أخذوا يفرضون ارادتهم على حكومة مصر ويتحكمون فى مرافقها العامة ·

وبالرغم مما أصاب البلاد من تدهور سياسى واقتصادى ، فان بعض الولاة عنوا عناية خاصة بالأبنية والمنشئات الخيرية والدينية ، فقد أنشأ سنان باشا الكثير منها ، فبنى فى الاسكندرية مسجدا وحماما وسوقا وخانات ووكائل ، واليه يرجع الفضل فى اعادة خليج الاسكندرية (مكان ترعة المحمودية حاليا) · كما تزخر مدينة القاهرة بكثير من منشئاته التى تقع معظمها فى حى بولاق ، والتى ما يزال باقيا منها حتى الآن خان وحمام والمسجد المعروف باسمه ·

● **جامع سنان باشا : ببولاق القاهرة ١٥٧١ م :**

شارع السنانية (وكالة البلح) القاهرة حيث يعتبر ثانى مسجد أنشىء بالقاهرة بالأسلوب العثمانى · حيث يختلف الطراز العثمانى عن الطرز السالفة اختلافا بينا فى انشاء المساجد ، فبينما كان المسجد فى القرون الأولى الستة للاسلام يتكون من صحن تحيط به الأروقة التى تعتمد عقودها على العمد أو الدعائم من جهاته الأربع ، أو كما كان فى العصر الأيوبى والمملوكى يتكون من أربعة ايوانات متعامدة ، نجده فى الطراز العثمانى يتكون من جزئين هامين وهما ، ايوان القبلة وتغطيه قبة كبيرة ثم تحيط بهذا الايوان أو تنفصل عنه باقى الايوانات وهى مغطاة بقباب صغيرة ضحلة ·

ويتكون مسجد سنان باشا الذى يرجع تاريخ انشائه الى عام ١٥٧١ م من قاعة فسيحة مربعة تسقفها قبة على الطراز البيزنطى تنهض من دلايات ذات تكوين القرنصات

وكل ركن من أركان هذه القبة الحجرية الأربعة يوجد المقرنص كتب عليه لفظ الجلالة بالحجر الأصفر على أرضية من الحجـــر الأبيض • ويحيط بالقبة من ثلاث جهات الايوانات المكونة من عقود تعلوها قباب ضحلة نصف كروية • وتعلو العقود دوائر من الجبس مفرغة بأشكال زخرفية من الداخل والخـــارج مكتوب على البعض منهـــا « الله ربى » •

وفى النهاية الجنوبية الشرقية توجد المئذنة ، وهى عبارة عن اسطوانة يقـــوم سلمها مع قاعدتها المربعة وتنتهى بشكل مخروطى ، وهى تمثـل المآذن العثمانية التى يطلق عليها اسم « المسلة » أو القلم الرصاص وهو أحسن تمثيل • ويوجد بالمسـجد مزولة لمعرفة الوقت مثبتة فى النهاية الجنوبية الغربية للايوان الخارجى • أما واجهته فقد اشتقت من جامعى قايتباى والغورية شاملة على صف واحد من الفتحات •

● مسجد عثمان كتخـدا أو « جامع الكخيا » القـــاهرة ١٧٣٤ م •

نشأ كتخدا نشأة حسنة ، صالحا ورعا ، يحب الخير ويعطف على الفقـــراء والمحتاجين أخذ يتقلب فى الوظائف حتى عين كتخدا ، أى وكيلا مفوضا للامير حسن جاويش • واستطاع بفضل ذكائه وحرصـه ونشـاطه أن يجمع ثروة طائلة مكنتـه وابنه عبد الرحمن من بعده من اقامة الكثير من الأبنية والمنشـئات الخيرية والدينية • ومن أعماله تلك الاضافات والتحسينات التى أجـريت للجـــامع الأزهر فى العصر العثمانى حيث بنى زاوية للعميان خارج الأزهر ، وأنشأ رواق الأتراك ورواق السليمانية « الأفغانيين » فزاد فى رواق الشام • ويقول الجبرتى أنه رتب للازهر مقررات خيرية ، كذلك أنشأ مسجدا بجوار قبة حسام الدين طرنطاى المنصورى ، بدرب سعادة (بباب الخلق) •

يقع هذا المسجد عند تقاطع شارع « ابراهيم باشا » الجمهورية حاليا وشارع قصر النيل ويطل على ميدان الأوبرا حيث تم بناؤه عام ١٤٤٧ هـ ـ ١٧٣٤ م • وقد وفق الأمير عثمان توفيقا كبيرا فى اختيار مكانه ، اذ كانت هذه المنطقة كلها المعروفة فى ذلك الحين باسم « حى بركة الأزبكية » فى حاجة شديدة الى هذا المسجد • وكان حى الأزبكية عبارة عن قرية صغيرة تعرف « بام دنين » ، وكانت مياه النيل تغمرها سنويا ويتخلف بها بعد الفيضان بركة • وقد عنى حكام مصر الاســـلامية منذ عهد الدولة الأخشيدية بهذه المنطقة فشقوا فيها الترع والقنوات لتصريف مياهها فى هذه البركة وحولوها الى بساتين مزدهرة • وفى عهد السلطان قايتباى قام قائده « أزبك » بتعمير

هذه المنطقة ، ومن ثم أخذت البركة والمنطقة اسم معمرها وعرفت « بالأزبكية » ... وفى القرن التاسع عشر ردمت البركة وأنشئت فيها حديقة الأزبكية ، وكانت مساحتها تبلغ نحو عشرين فدانا أما باقى المساحة فقد أقيمت عليهـــا دار الأوبرا والميـــدان والشوارع المحيطة بها .

ويتكون المسجد من صحن مكشوف تحيط بها الأروقة من جهاته الأربع . وقـد غطيت أرضية الأروقة جميعها بالرخام الأبيض تحيط بها افاريز هندسية من الرخام الملون . والايوان الشرقى أكبرها ، اذ يتكون من ثلاثة أروقة ، أما الايوانات الثلاثة الأخرى فكل منها عبارة عن رواق واحد . وترتكز عقود الأروقة الحجرية على عمـد رخامية . أما السقف فقد زخرف بنقوش زيتية مذهبة متعددة الألوان . وفى صـدر الايوان الشرقى يوجد المحـراب وهو من الرخام الدقيق الصنع يكتنفه عمودان بالرخام الأخضر ، وزخرف تاجها بزخارف نباتية محـورة . ويعلوا المحـراب شـباك مستدير كتب عليه « الله محمد ــ أبو بكر ــ عثمان » . ويقع المدخل الرئيسى للمسجد فى الواجهة البحرية ، مبنى بالحجـر وحلى ببلاط من القيشانى ويصعد اليه بعد درجـات من الرخـام . أما المئذنة فتقع فى الطرف الشمالى الشرقى ، وهى مئذنة أسطوانية حـلى بدنها بخطوط وينتهى على شكل المسلة . وملحق بالمسجد سبيلاً وكتابا وحماما .

٢ ــ ٣/٧ العمارة فى مصر بعد عصر الولاة العثمانيين

من ١٨٠٥ الى ١٨٥٠ م ــ عهد محمد على المرحلة السابعة

كان لنظام الحكم فى مصر فى عهد الولاة العثمانيين أســوأ الأثر فى النواحي الأدبية والاقتصادية حيث رأينا كما سبق شرحه أن إضـــمحلت الصناعات والفنون والآداب ، وتأخرت الزراعة وقلت موارد البلاد وثروتها العامة . ولما تولى محمد على الحكم ووجد ما أحاط البلاد من هذا التدهور الفنى والعلمى والزراعى والاقتصادى ، استطاع بحسن سياسته النهوض بها . فشق الترع وأصلح الجسور ، وأنشأ المدارس والمصانع ، وأصلح القلاع والحصون وأهتم بتحصين البلاد ، وأنشأ الترسانة البحرية، والأسطول المصرى والمصانع المختلفة لشتى الصناعات .

وكان من أثر رعايته بنهضته هذه أن دبت الحياة فى مصر بما اســـتقدمه من الأخصائين الأجانب الذين لم ينتفع بعبقريتهم وعلمهم فحسب ، بل انتفع بهم أيضا فى تعليم طائفة من المصريين اشتركوا معهم فى العمل بعد ذلك ثم حلوا محلهم ، وبعد تعليم الصناع الوطنيين كان لا يلجأ الى صانع أجنبى الا اذا ثبت أنه لا يوجد من الصناع الوطنيين من لا يستطيع القيام بهذا العمل ، فقد جاء فى الوثيقة التركيـــة رقم ٢١٩ المؤرخة ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٤ ما نصه :

من ديوان البحر الى ديوان الأبنية :

« جاءنا أمر من جناب الكتخدا بتاريخ ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٢٦٤ ورقم ١٤٥ يقول فيه أنه قد كتب الى حضرة البك » « أمير الجمرك » فى خصوص اصطفاء عدد من النجارين الأفرنج والأروام اللازم استخدامهم فى أشـــغال القصر الجارى انشاؤه برأس التين » « جديدا وفق ما جاءت فى الصورة العربية المقدمة طى الكتاب التركى المحرر فى ٩ من جمادى الأولى سنة ١٢٦٤ على أن لا يستخدموا الا فى » « الأشغال التى تدعوا الضرورة الى استخدامهم فيها اذ لا يحسنها النجارون الوطنيون وأن يسرحوا عندما يستغنى عنهم وأن يصرف اليهم » « المبلغ المخصص لتأدية مرتبهم شهرا فشهرا عملا بالكشف الذى سيرسل اليه ٠٠٠٠٠٠ » ٠

وفى الوثيقة رقم ٢٠٥ المرؤخة ٨ جماد ثانى سنة ١٢٥٠ أمر كريم الى أحمد افندى ناظر أبنية الاسكندرية ، بارسال أربعة بناءين ومهندس الى الخواجا فتينا لقياس الثغر وعمل الخريطة ، على شرط أن يكون الأربعة بناءين والمهندس من المصريين ٠

هذا عدا ارسالة البعثات العلمية الى أوربا كى تنتهل من موارد علمها ٠

وكان لاستعانته بمهندسين وعمال أجانب وأروام ايجاد عناصر جـــــديدة فى العمارة والزخرفة لم يسبق وجودها بمصر ، فقد وجدت تصميمات جديدة للقصور ذات السلالم المزدوجة والأبنية الخشبية المجللة بالبياض ٠ والصالات الكبيرة المحدق بها من أطرافها حجرات كبيرة ٠ وامتازت الوجهات بالكرانيش المخضرفة بنهاية الوجهات ، والشبابيك البيضاوية والعمد الرشيقة من الرخام ٠ واستعمال الرخام الملون الدقيق وحل محله الرخام الأبيض الاسلامبولى والمستورد من بنى ســـويف ، كما انعدمت المشربيات وحلت محلها الشبابيك الحديثة ، وكثر انتشار التماثيل كما نقشت صور الأسماك حول الفساقى ٠ وفرشت أرضيات الحدائق بالزلط الملون برسوم هندسية ونباتية ٠

كذلك انعدمت الأسقف ذات البراطيم والمربوعات المقسمة تقسيما جميلا وحلت محلها أسقف جملونية حليت زواياها وأواسطها بحليات زخرفية مذهبة ٠ وقد تأثرت المساجد المنشأة فى عصره بالطرز العثمانية فنرى مسجده الكبير أنشىء على مثـــال تصميم مسجد السلطان أحمد بالاستانة ، كما أقام المسجد الذى أنشأه بالخانكة على الطرز التركى أيضا ٠

وأنشأ سليمان باشا السلحدار مسجده سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) على الطرز التركى البحث من الداخل والخارج ٠

وفى هذا العهد ظهرت لأول مرة زخارف تمثل زهورا وعناقيد عنب وستائر ومناظر طبيعية ومنازل ومتنزهات وحدائق ومناظر داخلية · وهذا النوع من الزخرف شاع فى تركيا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، ويعرف عند الفنيين باسم روكوكو (Rococo) وقد دخل اليها بعد انتشاره فى أوروبا على أيدى فنانين من جنوبى ايطاليا ومن صقلية ·

غير أن الفنان التركى لم يتقبله بحذافيره ، بل هذبه حسب الذوق المحلى مراعاة للتقاليد الدينية ، فلا نرى فى المناظر الطبيعية أشخاصا أو حيوانات · كما أن المراكب تبدو خالية من النوتية · وقد ثبت لدينا أن العمال الذين قاموا بأعمـــال النقش فى قصور محمد على كانوا أتراك وأيضا مصريين وروم أتراك وأجانب ممن اشتغلوا باستانبول وتأثروا بالفن التركى وتقاليده فى نهاية القرن الثامن عشر ·

وشاع فى عهده وفى عهد أسرته انشاء نوع جديد من الأسبلة المكسوة جدرانها بالرخام والمحلاة بزخارف من نوع الروكوكو ، وكتابات بخط كبار الخطاطين ، مما ساعد على وجود طائفة من نوابغ الخطاطين الأتراك نهضوا بهذا الفن الجميل ·

وكذلك استعان محمد على بمهندسين فرنسيين ، لانشاء المصانع والحصـــون والقصور كما ثبت من الوثائق الرسمية والى ذلك أشار مسيو ادوار جوان فى كتابه مصر فى القرن التاسع عشر بقوله :

« ان فرنسا هى التى أعارت مصر خلاصة الانجـــاب من علمائها وضباطهـــا وصناعها وأطبائها ومهندسيها ليأخذوا بيدها فيما اعتزمت أن تقطعه من أشواط فى ذلك السبيل · وعهدت مصر فى ادارة شئون الكثير من مصـــالحها ، كالجيش ودور الصناعة والصحة العامة ، الى الاخصائيين من الفرنسيين » ·

وعندما ظهر هذا النوع من البناء والزخرف فى قصور محمد على · أخذ ينتشر فى أنحاء العاصمة · فأنشىء على غراره قصر لكريمته زينب هانم بالأزبكية وآخـــر لكميمته نازلة هانم على ســـاحل النيـــل هدمه المرحوم سعيد باشا وبنى محـــله قشـــلاق قصر النيـــل ·

وقد حذا حذوه فى انشاء العمارات على هذا الأسلوب بنوه وكبار موظفيه ، فبنى المرحوم سر عسكر ابراهيم باشا قصر القبة كما بنى فى جزيرة الروضة والمقياس قصرا عرف بقصر المغارة اذ عمل فيه مغارة رصعت جدرانها بأنواع الودع الملون على أشكال بديعة ، وبنى القصر العالى · ثم بنى المرحوم عباس باشا قصرا بالخرنفش آل فيما بعد الى أسرة البكرى وما زال موجودا وبه مقر مشيخة الصوفية ·

وبنى أحمد باشا يكن دارا عظيمة فى عطفة عبد الله بك ، كما بنى أخوه ابراهيم باشا يكن دارا بسويقه اللالا • وبنى أحمد باشا طاهر قصرا فى الأزبكيـــة • وبنى خورشيد باشا السنارى دارا فى عابدين ، كما أنشـــأ المرحـــوم شريف باشا قصره بجهة الهدارة • وعرفت المبانى التى من هذا النوع فى ذاك الوقت بالمبانى الرومية ، وكثرت فى داخل القاهرة وضواحيها • وفى زمن المرحوم عباس باشا الأول بنيت عدة قصور على هذا الطرز ، بالحلمية والباسية وبنها وبركة السبع والدار البيضاء بطريق الســـويس •

وفى عصر الخديو اسماعيل باشا بدأ التهذيب والتغيير يدخل على هذا الطرز • وشاع فرش طرقات الحدائق بالزلط الملون برسوم جميلة ثم سرى الطرز الأوروبى فى المبانى رويدا رويدا حتى طغى على هذا الطرز واحتل مكانه •

ونورد فيما يلى أهم منشآت محمد على الباقية والتى يتجلى فيها هذا الطرز :

وكان أن استقدم المهندسين والأخصائيين الأجانب من الخارج للانتفاع بعلمهم وفنونهم ، هذا بالاضافة الى ارساله المبعوثين المصريين للخارج فى بعثات علميـــة • وبطبيعة الحال كان لاستعانته بمهندسين وصناع وعمال اجانب الاروام ، أن ظهرت عناصر جديدة فى العمارة والفنون ، والزخرفة لم يسبق وجودها فى مصر •

ظهرت تصميمات جديدة للقصور ذات السلالم المزدوجة والأبنية الخشـــبية مع كسوتها من الخارج والداخل بالبياض ، ظهرت الصالونات الكبيرة المتصـــل بها من أطرافها تلك الحجرات الضخمة ، كما ظهرت كرانيش بنهايات الواجهات وشـــبابيك بيضاوية الشكل وعمد رشيقة من الرخام ، كما استعمل الرخـــام الملون والأبيض • وجدنا أيضا انه انعدمت المشربيات الاسلامية الأصيلة وحلت محلها تلك الشـــبابيك الحديثة كما كثر انتشار التماثيل ، ونقشت صور الاسماك على حوائط وأرضـــيات الفساقى • وفرشت أرضيات الحدائق بالزلط الملون برسومات هندسية ونباتية •

كذلك انعدمت الأسقف ذات الكتل الخشبية والمربوعات المقسمة تقسيما جميلا ، وحلت محلها تلك الأسقف الجمالونية وزينت زواياها وأواسطها بحليات زخرفية مذهبة• وقد تأثرت المساجد التى أنشئت أيام حكمه بالطرز العثمانية ، فنرى مسجده الذى أنشىء باسمه على غرار تصميم مسجد السلطان أحمد بالآستانة ، والمسجد المقام بالخانكة على طراز تركى ، وكذلك مسجد سليمان باشا السلحدار ، الذى أنشىء عام ١٨٣٩ م على طـــراز تركى •

مسجد محمد على بالقلعة القاهرة : ١٨٣٠ م

بعد أن أتم محمد على اصلاح القلعة وفرغ من بناء قصوره ودواوين المالية والجهادية وعموم المدارس ودار الضرب بها • رأى أن الحاجة ماسة لانشاء مسجد لأداء الفرائض وليكون مدفنا له ، فعهد الى المهندس التركى (١) (يوسف بوشناق) بوضع تصميم له فوقع اختياره على مسجد السلطان أحمد بالاستانة ، فاقتبس منه مسقطه الأفقى بما فيه الصحن والفسقية مع تحويرات طفيفة • نأسف لعدم العثور على وثيقة رسمية باسم مهندس المسجد وفقط عثرت على اسم مساعد له اسمه « على حسين » ألحق بعمارة المسجد سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م بوظيفة منظم أحجار (٢) •

وكذلك عرفنا من بين رسامى هذا المسجد ، المعلم ابرام وحكاكيان أفندى • ولعله يوسف حكاكيان الذى تولى نظارة مدرسة المهندسخانة وأحد خريجى البعثات ، وبعض المهندسين المصريين (١) وان من قام بعمل رسم الشبابيك النحاسية أسطى رومى (٢) ، أما النحاتين والحجارين فقد كانوا مصريين عرفنا منهم اثنين نحاتين ، حسين محرم ، وابراهيم حسن ، ولأنه مقررا على عمد النحاتين المصريين أن يورد كل منهم ثمانية نحاتين يختارهم بنفسه من مهرة الصناع وتدفع لهم أجورهم حسب تقديرهم ومن الحجارين الأسطى حسين ، والحاج ابراهيم الانبعاوى •

وقد قام بأعمال الرخام عمال مصريون بمقاولة الخواجا سيمون وتحت مباشرة يوسف ضيا أفندى وشاكر أفندى والقبطان هدايت والمعلم يوسف • كما عهد بأعمال الاهلة النحاسية وطلاؤها بالذهب الى الخواجا بيرون وقرابيت النحاسين بالموسكى (وثيقة رقم ٤٥٢ دفتر ١٦ بتاريخ ٢ رجب سنة ١٢٦١) • أما عمال تكسيه الرصاص لقباب المسجد ومسلة المنارة فقد أحضر لها عمال من الآستانة (٣) • هذه هى الهيئات الفنية التى استطعنا الحصول عليها •

---

(١) ذكر جناب مسيو فييت مدير دار الاثار العربية فى كتابه يوسف مساجد القاهرة أن اسمه بوشناص ٣٤٤ جـ ١ •

(٢) الوثيقة العربية رقم ٣٣٥٣ المؤرخة ٧ جمادى الثانية ١٢٦٣ •

(١) دفتر ٧٤ معيه تركى بتاريخ ١٦ ربيع الاخر سنة ١٢٥٢ •

(٢) دفتر ٤٩ معيه تركى ١٠ جمادى الاولى سنة ١٢٤٨ •

(٣) وثيقة رقم ٣١٦ بتاريخ ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٦١ •

تاريخ انشاء المســـجد :

كان الشروع فى انشائه سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م واستمر العمل سائرا بلا انقطاع حتى توفى محمد على الى رحمة الله تعالى سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٨ م فدفن فى المقبرة التى أعدها لنفسه بداخل هذا المسجد ٠

انتقل الى رحمة الله تعالى ٠ وكان بناء المسجد كاملا من أسوار وقباب ومنارات وكتابات تعلو الشبابيك الخارجية بما فيها كسوتها الرخامية على ماهى عليه الآن ٠ أما أعمال كسوة الرخام بالواجهات فلم يتم منها الا القسم الأسفل حتى الباب القبلى للصحن ، وكان التصميم يشمل القسم أعلا المربع أيضا فلم يعمل منه سوى الافريز حول الشبابيك النحاسية ٠

ولما تولى المرحوم عباس باشا الأول سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م أمر باتمامه ٠ وقـد تناولت أعماله النقش والتذهيب وبعض أعمال الرخام بالمسجد ، ثم أمر بعمل تركيبة رخامية ومقصورة نحاسية كما أمر بتعيين القراء ورصد الخيرات على هذا المسجد ٠

ولما ولى المرحوم محمد سعيد باشا سنة ١٢٧٠ هـ ١٨٥٣ م رصد له خيرات كثيرة وقرر احتفالات رسمية لخمس ليال من السنة ، هى ليلة المعراج وليلة نصف شعبان ثم ثلاث ليال فى رمضان هى ليلتا ١٣ و ١٤ الأولى ذكرى وفاة محمد على بالاسكندرية ، والثانية ايداعه مقره الأخير بمصر ، ثم ليلة القدر ٠ وما زالت هــذه الحفلات تقام حتى الآن ٠

كذلك عنى به المغفور له اسماعيل باشا سنة ١٣٨٠ هـ ١٨٦٣ م فعمل له أبوابا جديدة بسماعات نحاسية وأحاطه بأسوار وأنشأ له دورة مياه ٠ ثم عنى به المغفور له توفيق باشا سنة ١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م فأمر باصلاح رخام الصحن واعادة رصاص القباب٠

عناية الملك فؤاد بالمســـجد :

وكانت أكبر عناية نالت هذا الجامع عناية المغفور له الملك فؤاد الأول ٠ فما أن وصل الى مسامعه نبأ الخلل الجسيم الذى تطرق اليه واكتشفه سعادة محمود باشا أحمد مدير ادارة حفظ الآثار العربية حتى أصدر أمره بتكوين لجنة من كبار المهندسين وطنيين وأجانب لفحصه ووضع مشروع لاصلاحه فكونت هذه اللجنة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ ٠ وكانت نتيجة الفحص ضرورة ازالة قبته الكبيرة وما حولها من أنصاف قباب وقباب صغيرة واعادة بنائها بعد عمل صلبة عبارة عن هيكل من الصلب المجمع

يكون فى مجموعة عدة أبراج مستقلة وعقود تشيد بنسب معينة لتحمل القباب والعقود، وقد بلغ وزنها ٦٥٠ طنا قدرت تكاليفها بمبلغ ١٦١١٠ جنيه • فما أن تم عملها حتى ضرب أول معول فى هدم القبة الكبيرة فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٥ وما حولها من قباب وأنصاف قباب •

وقد كشفت عملية الهدم عن كثير مما كان مستترا من عيوب وكسور داخـــل الحوائط • كما وجدت قطعا كبيرة من الخشب مبعثرة هنا وهناك فى وسط المبانى وهى فى حالة عطب كبير • وجدت قضبان حديدية علاها الصدأ فأحدث تمددا فى أليافها نتج منه ضغطا كبيرا على أجزاء البناء نشأ عنه فى النهاية حدوث التصدع • كما ظهر أيضا خلل الدعامات الرئيسية •

وقد روعى فى تصميم اعادة العقود وغيرها أحجامها وأبعادها المعمارية الأصلية واستدعى ذلك تسليحا خاصا للعقود • كما أن القباب القديمة وقد كان سمكها نحو ٨٠ر٠ متر احتفظ فيها بهذا البعد وذلك بعمل قباب مفرغة بالبعد المطلوب بحيث تحتفظ بشكلها القديم تماما • وكذلك روعى عند اعادة الزخارف أن تكون طبق الأصل فقـد احتفظ بنماذج متعددة من الزخارف القديمة • كما عملت نماذج جديدة ملونة قبـل الهدم وأخذت رسوم وصور فوتوغرافية لشتى أنواع الزخارف مما ساعد على اعادة هذه الزخارف طبقا لأصلها •

وقد بلغت تكاليف أعمال الهدم والبناء ٦٠٠٠٠ جنيه • ونفقات البياض والزخرفة والتذهيب ٤٠٠٠٠ جنيه فجاءت من أجل الأعمال المعمارية التى نفذتها ادارة حفـــظ الآثار العربية • يرجى أن تنظر صور ورسومات المسجد أرقام ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ص ٢٧٧ ، ٣٧٨ ، ٢٧٩ •

وصف المسجد :

ان موقع هذا المسجد من أجمل المواقع اذ يشرف على القاهرة مطاولا السماء بمنارتيه الرشيقتين وقبته الكبيرة ترمقه العيون من جميع نواحيها • فكما أن الأهرامات رمز مصر القديمة فهذا المسجد رمز مصر الحديثة ، وفى الوقت نفسه فهما صنوان فما من زائر أجنبى يهبط أرض مصر الا ويحج الى أهراماتها ثم يعرج على مسجد السلطان حسن ومحمد على • وكثيرا ما يقنع بعض زائرى مصر فى الفترات القصيرة بهاتين الزيارتين • والمسجد فى مجموعه مستطيل البناء وينقسم الى قسـمين : القسـم الشرقى وهو المعد للصلاة ، والغربى وهو الصحن تتوسطه فسقية للوضوء • ولكل من القسمين بابين أحدهما قبلى والاخـر بحرى •

ومهندس الجامع وان كان اقتبس من مسجد السلطان أحمد بالاستانة التصميم والواجهات وشكل المنارات الا أنه لم يقتبس منه زخارفه ولا من زخارف عصره ، بل اقتبس من الزخارف التى راجت فى تركيا فى القرن الثامن عشر الميلادى وهى تمثل جدائل مخضرة بزهورها الملونة وبعض الفواكه وهو ما نراه شائعا فى زخرفة هـذا المسجد ، اذ اشتملت مجموعة هذه الزخارف على أوراق نباتية وزهور ملونة وعناقيد عنب ، وتكاد تكون وحداتها مكررة ٠

وقد حليت زوايا القباب بلفظ الجلالة ، محمد رسول الله ، وأسماء الخلفـــاء الراشدين بخط الخطاط المشهور (أمين أزمرلى) ٠

وفى الركن القبلى قبر محمد على عليه تركيبة رخامية حولها مقصورة نحاسية مذهبة جمعت بين الزخارف العربية والتركية والمصرية وعلى طرفى الواجهة الغربية للصحن منارتين رشيقتين بارتفاع ٨٤ مترا من مستوى أرضية الصحن بكل منهما ٢٥٦ درجة الى نهاية الدورة الثانية خلاف درج المسلة ٠

ومن الباب الذى يتوسط الجدار الغربى للمسجد يتوصل الى الصحن وهو فناء كبير مساحته ٥٣ × ٥٤ مترا يحيط به أربعة أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية تحمل قبابا صغيرة منقوشة من الداخل ومغشاة من الخـــارج بألواح من الرصاص مثل القبة الكبيرة ، وبدائر الايوانات المذكورة ٤٦ شباكا تشرف على خارج الجامع من الجهات الثلاث البحرية والغربية والقبلية ٠

أما الجهة الشرقية فتشرف على الجامع وبها ثمانية شبابيك ٠ ومكتوب على أعتاب هذه الشبابيك آيات من القرآن بالخط الفارسى الجميل بقلم الخطاط المشهور (سنكلاخ) سنة ١٢٦٢ ٠ وبوسط الصحن قبة أنشئت سنة ١٢٦٣ هـ مقامة على ثمانية أعمدة من الرخام تحمل عقودا تكون منشورا ثمانى الأضلاع فوقه رفرف به زخارف بارزة ٠ وباطن هذه القبة محلى بنقوش تمثل مناظر طبيعية ٠ وبداخل هذه القبة قبة أخرى رخامية ثمانية الأضلاع نقش على أضلاعها عناقيد عنب وبها طراز مكتوب به بالخط الفارسى قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين) وقال صلى الله عليه وســلم (الوضوء سلاح المؤمن) سنة ١٢٦٣ ٠

ويتوسط الرواق الغربى بالصحن برج من النحاس المخرم والزجاج الملون بداخله الساعة الدقاقة التى أهديت الى المغفور له محمد على باشا من ملك فرنسا لويس فيليب سنة ١٢٦٢ هـ ١٨٤٥ م ٠ فقد جاء ضمن الوثائق الرسمية أمر صادر من محمد على الى ديوان المبيعات والتجارة فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٦٢ بصرف مبلغ من المال الى الأوسطى الذى أحضر الساعة المهداة من ملك فرنسا اليه ٠ وأمام الوجهتين القبلية والبحرية للقسم الشرقى رواقين بهما عمد رخامية تحمل قبابا صغيرة ٠

● **قصور محمد على :**

أنشأ محمد على عدة قصور مختلفة بالقاهرة والقلعة وغيرها ، حيث كانت على جانب كبير من الأهمية مثل قصر شبرا الذى أنشىء عام ١٨٠٨ ، وألحق بالقصر بستانا استوردت له الزهور من مختلف انحاء العالم ، حيث أنشىء فى وسط هذه الحديقة النادرة كشك الفسقية الموجود حتى الآن ٠ وكذلك قصر الحرم بداخل القلعة الذى أنشىء عام ١٨٢٧ م ٠ والكشك المعروف باسم « قصر الجوهرة » الـذى انشىء عام ١٨١٣ م قبلى المسجد ويشرف على القاهرة والصحراء والمقطم ٠ وقد كان هذا القصر مخصصا للاستقبالات ومقرا للحكم ، وجميع حوائطه وأسقفه منقوشة بنقوش رائعة أهمها ما يرمز الى قوة الاسطول المصرى ٠ ثم قصر راس التين بالاسـكندرية الذى انشىء عام ١٨٣٤ م ، وغير ذلك من القصور والدور العديدة التى أنشئت فى عهـد محمد على ٠

ـ قصر محمد على بشبرا :

كانت شبرا فى عصر المغفور له محمد على باشا من أجل منتزهات ضـواحى القاهرة ٠ وكان الطريق من باب الحديد الى شبرا البلد متسعا محفوفا بالأشـجار المظللة ، وبه قصور عظيمة وبساتين كثيرة لامراء البيت المالك وأعيان مصر ٠

ومن أعظم تلك البساتين البستان الكبير الذى أنشأه المغفور له محمد على باشا فقد عنى به واستورد له مختلف الزهور من أنحاء العالم ٠ وأوجد به الأشجار المثمرة وسائر النباتات التى نسقت بأشكال هندسية ، وغرس بها أشجار الآس التى كانت تقص بعناية خاصة فكونت أشكالا مختلفة منها الهرمى ومنهاما كان على شكل قباب متنوعة٠ وأنشأ به الجبلاية ٠ ويصفها المرحوم نافع بك بأنها رياض صغيرة مربعة فى وسط بعضها ترتفع كل روضة عن الأخرى ، وفى وسط آخر روضة كوشك صغير مفروش بالرخام الأحمر وفيه نافورة ، ويبلغ ارتفاعه عن الأرض نحو عشرة أمتار وفيه أنواع الطيور المغردة ٠ فكان من أعظم بساتين العالم ، وكان من أهم العوامل على تقدم زراعة النباتات والفواكه والزهور بمصر ، وأنشأ غربى هذا البسـتان قصرا كبيرا

خاصا بالحرم • حفلت جدرانه وسقوفه بنقوش رسامين من اليونان • وقد جدد هذا القصر بعد وفاته ثم تلاشى •

وفى الوقت الذى عنى فيه بانشاء هذه المجموعة أى بعد سنة ١٢٢٣ هجرية ١٨٠٨ م أنشأ فى وسط هذا البستان كوشك الفسقية الباقى الى الآن • وهو بناء مستطيل مسطحه ١٣٥٣٠ مترا تسود وجهاته البساطة ، ويتوصل الى داخله من أربعة أبواب متقابلة فى وجهاته • يتوسط هذا الكوشك بركة ماء كبيرة من الرخام بوسطها جزيرة مستديرة من الرخام تحملها تماثيل من التماسيح ومحاطة بسياج من الرخام• وكان يتوصل الى هذه الجزيرة بزورق مذهب • وفى الأركان الأربعة للبركة أسود رابضة تخرج المياه من أفواهها • وفى أرضية المثلثات التى ربضت عليها هـــذه الأسود حفرت أنواع الأسماك بحركاتها المختلفة وهى تسبح فى الماء •

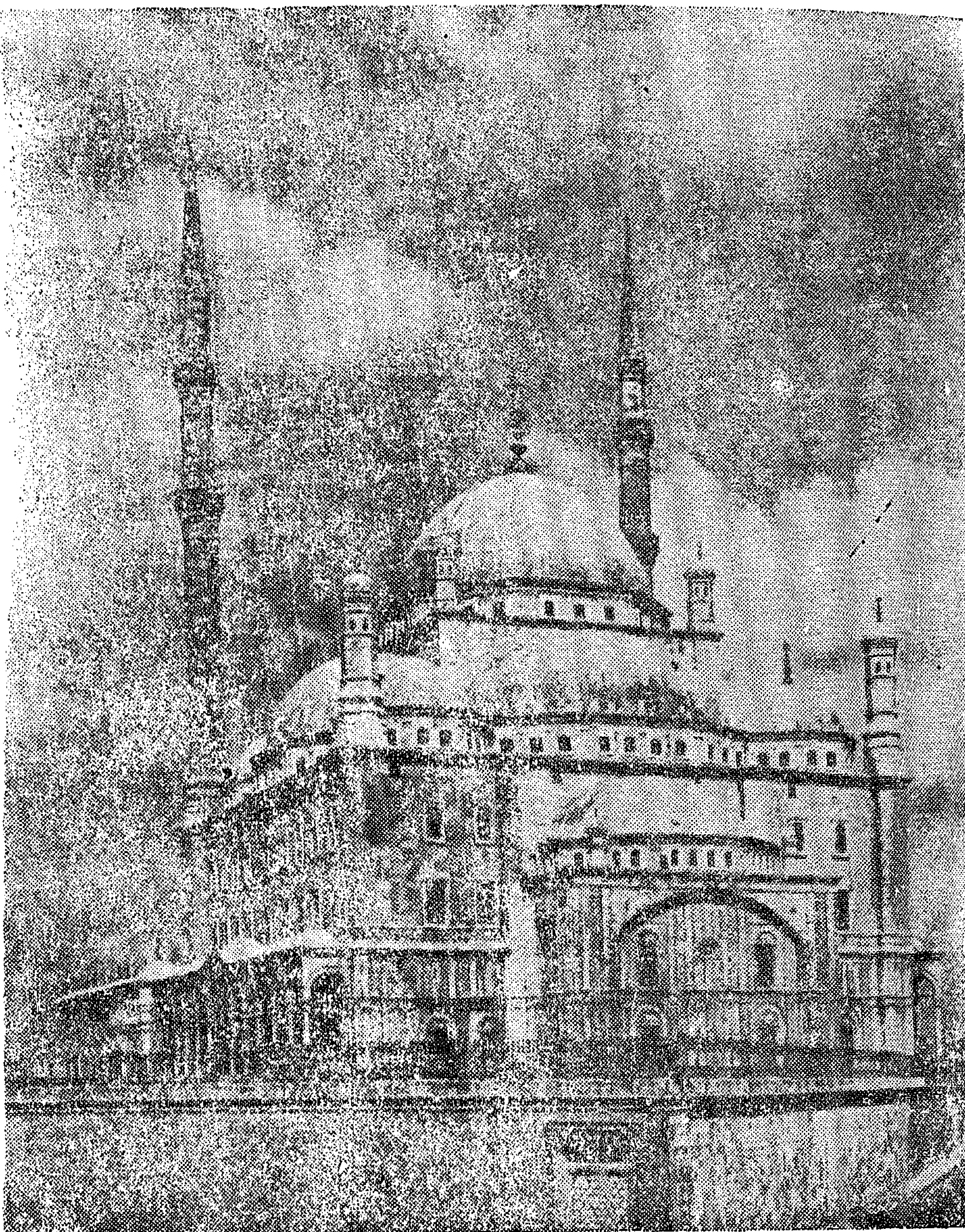
ويحيط بالبركة من جهاتها الأربعة عمد رشيقة من الرخام تحمل السقف الحافلة بالنقوش • أهمها صورة للمغفور له ابراهيم باشا وصور أخرى تمثل الات حربية ومناظر طبيعية • ولها طنف مزوقة • وبين العمد سياج من الرخام يحمل أصصـــا رخامية بها زهور • وفى النواصى الأربع حجرات كبيرة ، احداها الشرقية القبليـــة المعروفة بصالة الجوز فرشت أرضياتها بخشب الجوز القيم • وكسيت جدرانها بوزرة منه بها زخارف دقيقة • ويعلو الوزرة طراز مزخرف ثم السقف الحافل بكثير من النقوش ، وبها مرآتان متقابلتان حولهما أطر زخرفية مذهبة • وقد بقى بهذه الحجرة بعض أثاثها المنسجم مع طرزها •

والحجرة الثانية فى الركن الشرقى البحرى • وسقفها منقوش نقشا عربيا ، وقد كتب بوسطه محمد على باشا ــ ابراهيم باشا وحولهما كتب طوسون باشا ــ اسماعيل باشا ــ عبد الحليم بك ــ حسين بك ــ سعيد باشا ، والحجرة الغربية البحرية خاصة بالبليارد ، نقشت جدرانها بريش كبار الفنانين ، فجدارها الشرقى على شكل حنية رسم بها شكل معبد مصرى أو يونانى حوله أشجار باسقة ، كما نقش بازار السقف طيور ملونة فى حركات مختلفة وباقات زهور ، ونقش بالسقف اثنتى عشرة سيدة فى ثياب شفافة يرقصن رقصات مختلفة •

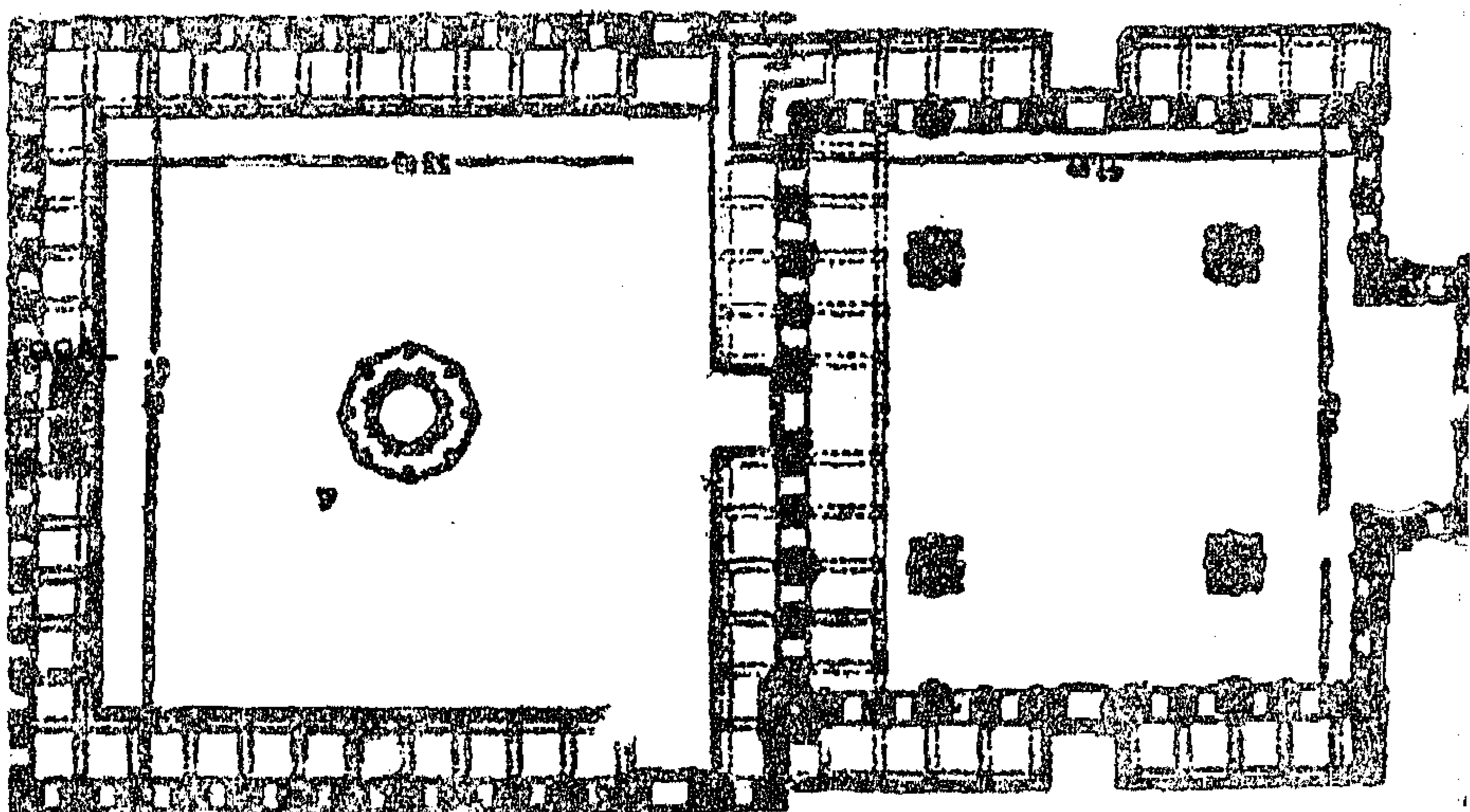
والحجرة القبلية الغربية حجرة المائدة ، نقشت جدرانها بزخارف ملونة ، كما نقش ازار السقف بمناظر ملونة دقيقة تمثل آثارا وطيورا ملونة ومناظر طبيعيـــة وفواكه ، ونقش بالسقف نساء وطيور محلقة فى الهواء • والمرجح أن نقوش هاتين الحجرتين من ريشة فنانين من اليونان خصوصا وانها تغاير نقوش السقف والبارزات حول الفسقية التى هى من ريش فنانين أروام أتراك •

مسجد محمد على بالقلعة ١٨٣٠ م

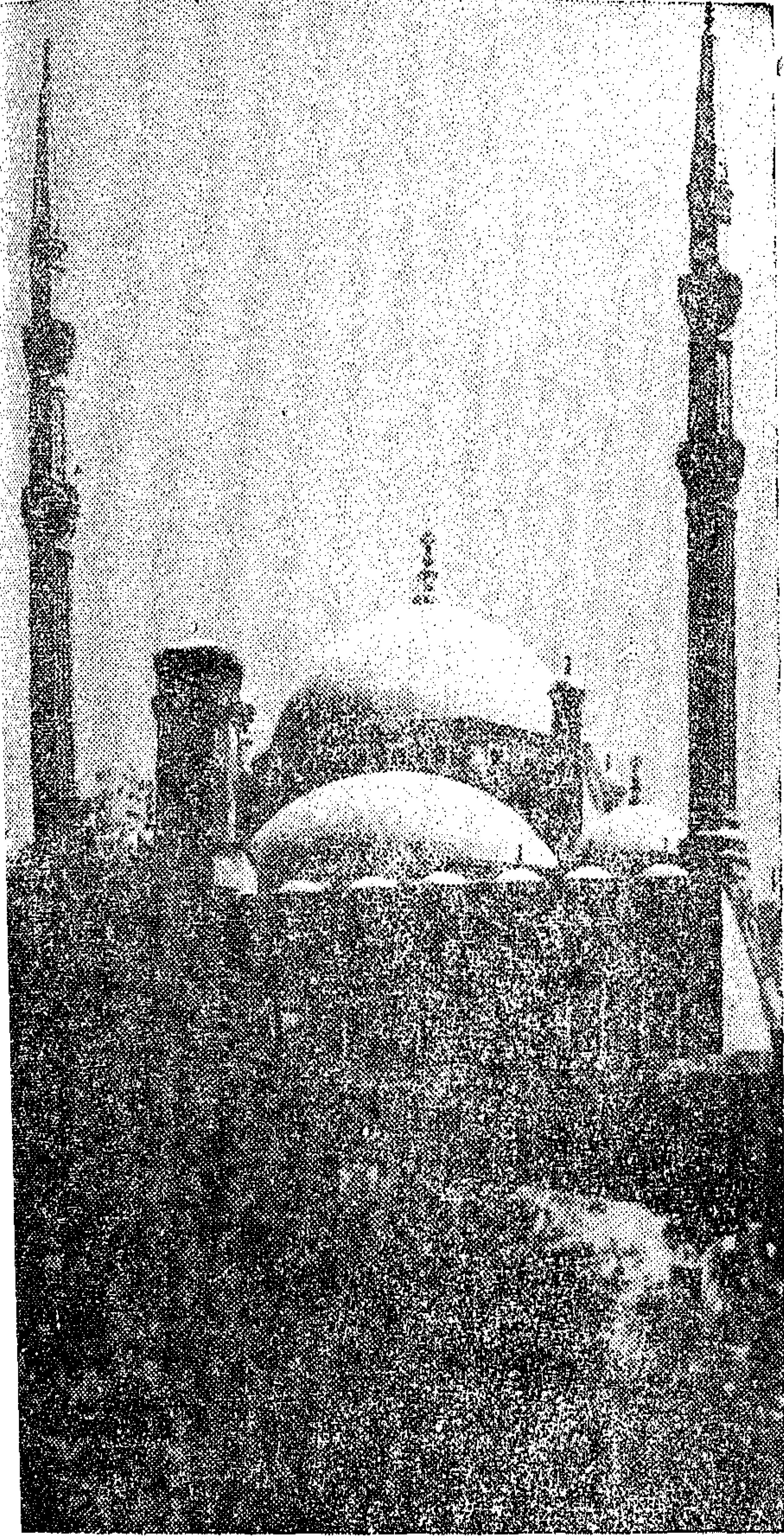
يشبق المسجد من الجهة الغربية صحن مربع تقريبا ٥٣ × ٥٤ تدور حوله أربع أروقة ذات عقود محمولة على أعمدة رخامية وفوقها قباب صغيرة بالواح من الرصاص ومنقوشة من الداخل ويتوسط الصحن قبة تقوم على ثمانية أعمدة رخامية تؤلفمثمنا سوقه زرفاو زخارف بارزة ،وتضم هذه القبة قبة أخرى أصغر منها وهى مثمنة ومصنوعة من الرخام أيضا وعليها نقوش بارزة تمثل عناقيد عنب ، فضلا عن شريط من الكتابة . أما القسم الشرقى من البناء فهو بيت الصلاة مربع ضلعه ٤١ متر تتوسطه قبه قطرها ٢١ متر وارتفاعها ٥٢م ويحملها أربعة عقود كبيرة على أربعة أكتاف مربعة ، وتحف بالقبة أربعة أنصاف قباب ونصف أقل ارتفاعا وفى كل ركن مربع قبة أخرى صغيرة ، والقبة الكبيرة محلاة بزخارف بارزة مذهبة وحوائط المسجدالاربعةمغطاة



٢٣٥
٢٣٦

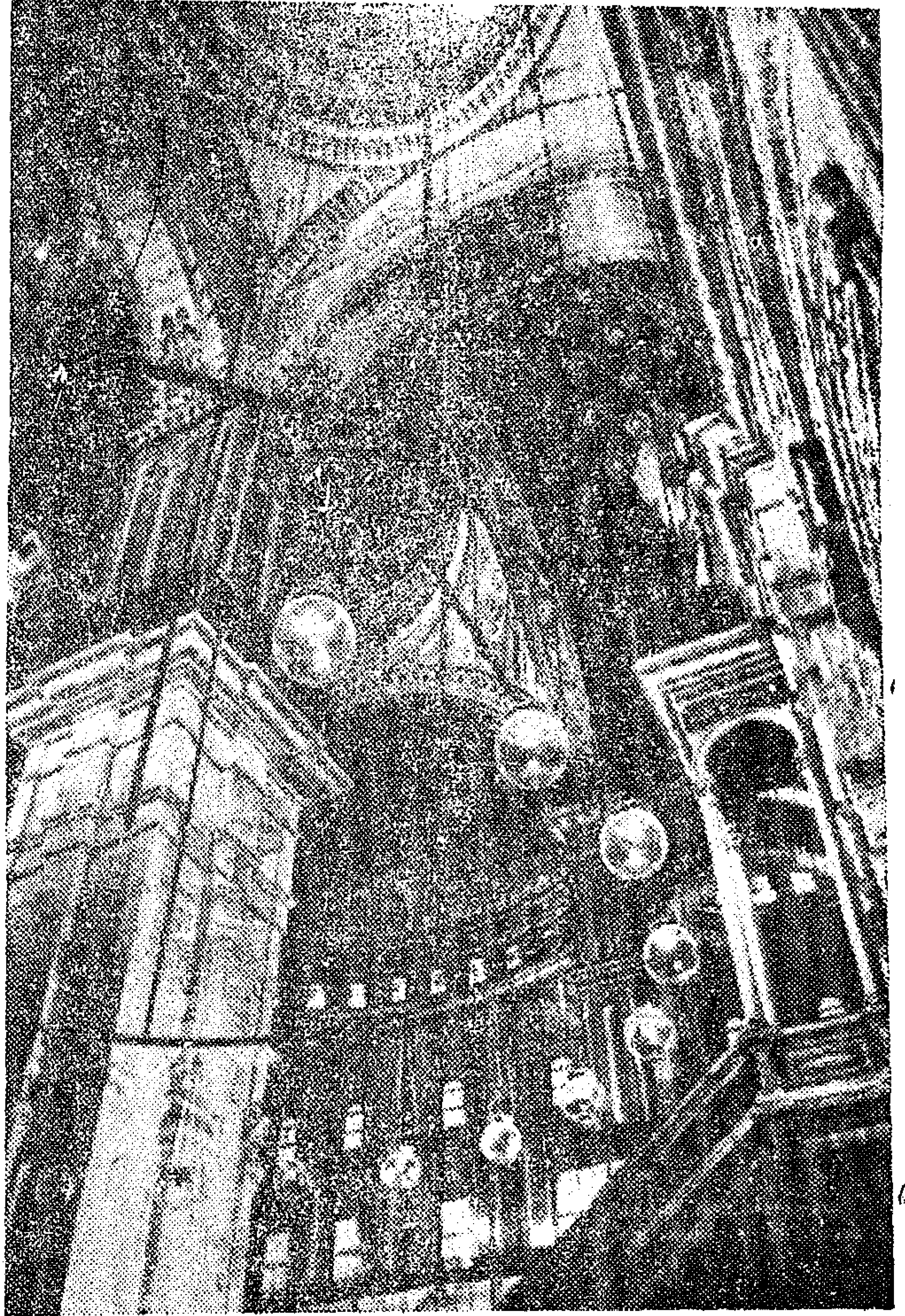


بالرخام لارتفاع ١١ متر ، وخلف الباب الغربى المؤدى للصحن دكة المقرىء على ثمانية أعمدة فوقها عقود محراب من الرخام أيضا ٠ والمنبر القديم من الخشب المحلى بالنقوش المذهبة ، أما المئذنتان ارتفاع كل منها ٨٤ متر ٠ والملاحظ فى زخرفة العمائر العثمانية بوجه عام أنها مشتقة الى حد كبير من زخارفة العمائر السلجوقية ، وكان التطور فيها واضحا سان واجهات العمائر قعدت سى الطراز العثمانى ما كان لها من الاهمية الزخرفية سى الطراز السلجوقى وكل ما سيها من زخارف بارزة ، وأقبل العثمانيون على استعمال المرمر فى صناعة المنابر ، وأن التجديد العظيم فى الزخارف المعمارية هو استخدام القيشانى لكسوة الجدران فقد اختفى استعمال الموازييك الخزفية التى عرفناها فى الطراز السلجوقى وحل محلها فى بداية العصر العثمانى استعمال لوحات من القيشانى ذى اللون الازرق وبالرسومات الذهبية المتعددة الالوان



٢٣٧

٢٣٨

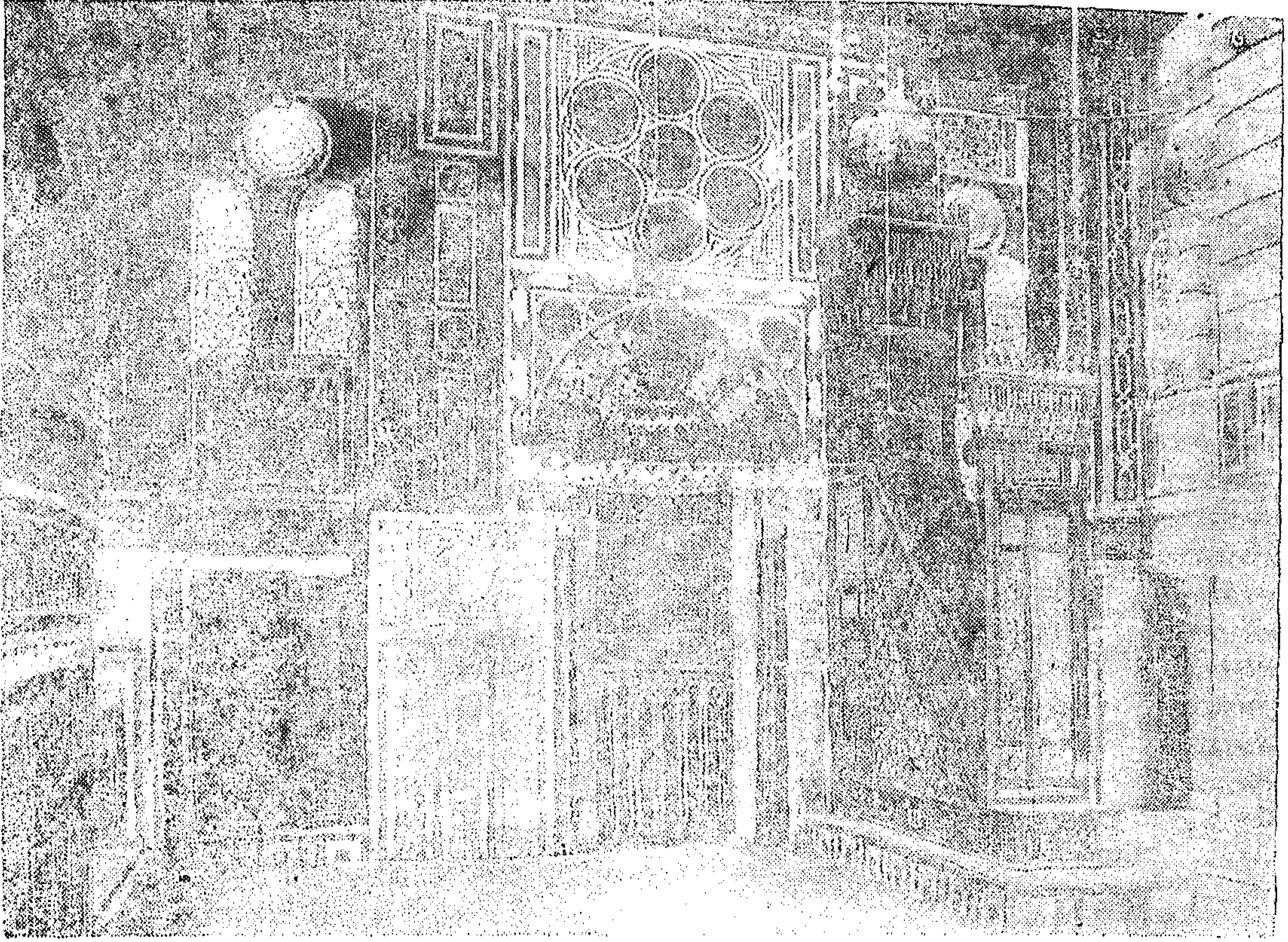


٢٣٥ ـ منظور عام للمسجد

٢٣٦ ـ المسقط الأفقى العام

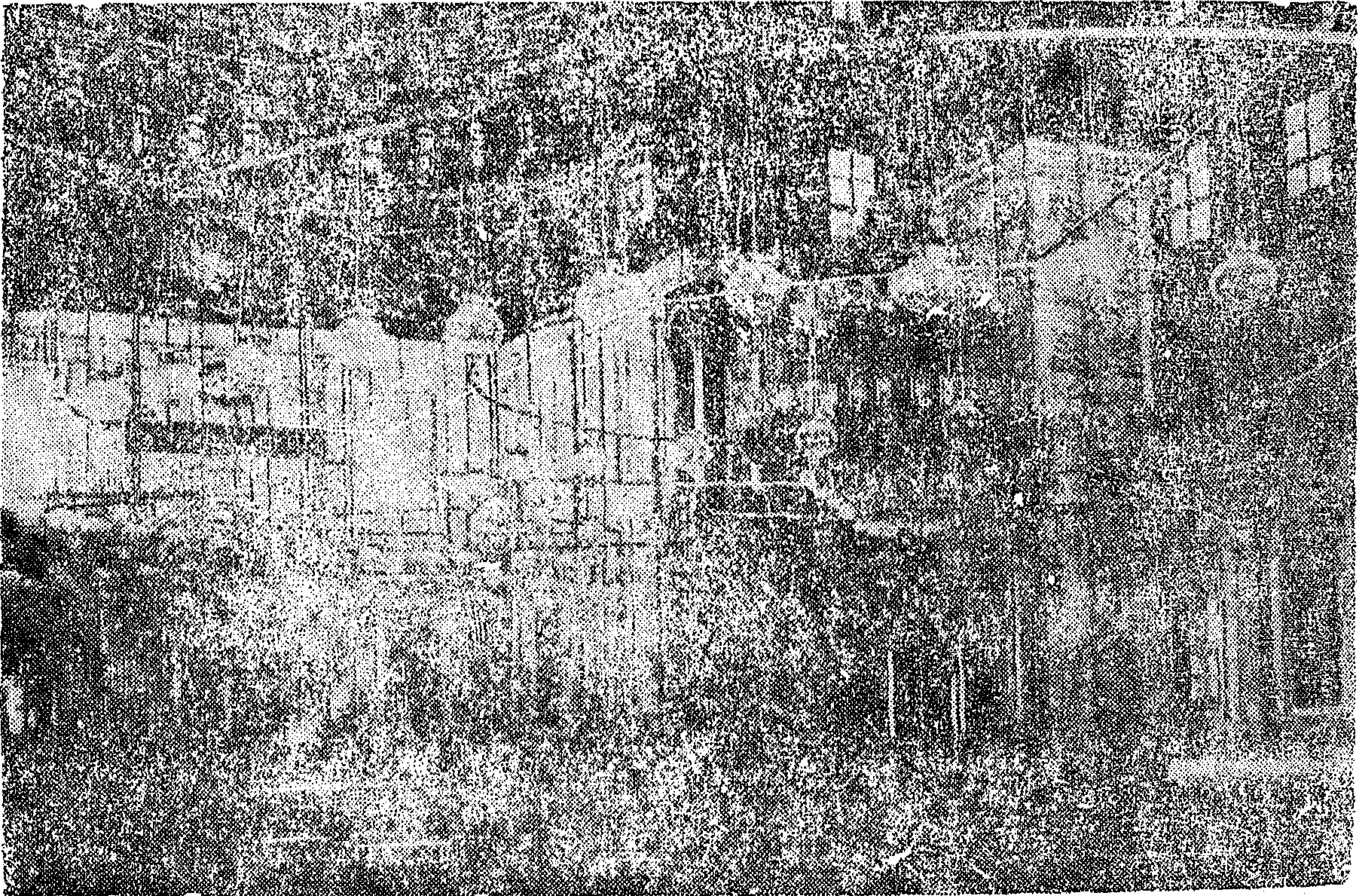
٢٣٧ ـ منظور

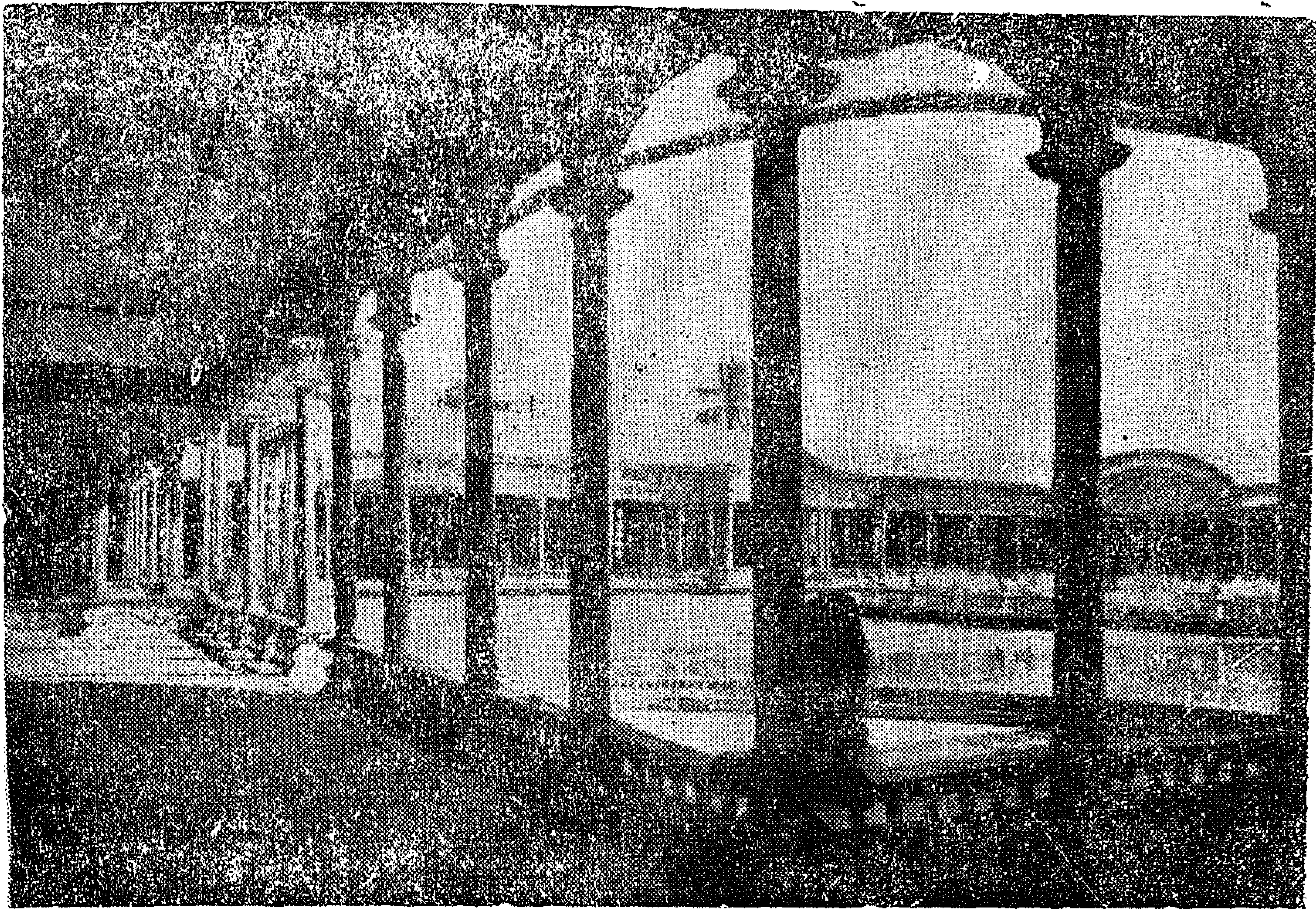
٢٣٨ ـ زخارف قبة الصحن



● مسجد محمد على بالقلعة ـ القاهرة ١٨٣٠م
٢٣٩ ـ أعلا : منظور داخلى للمسجد تجاه القبلة والمنبر

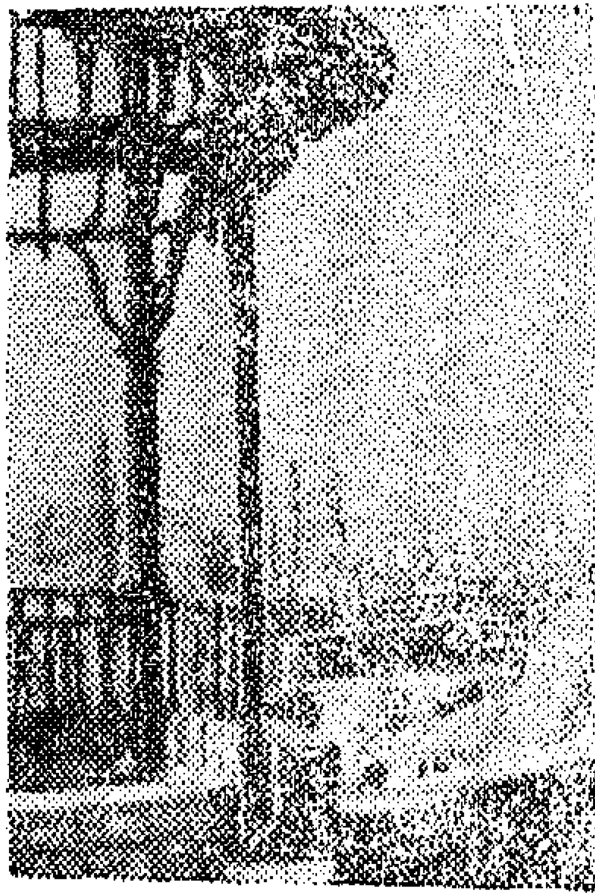
٢٤٠ ـ أسفل : منظور عام داخلى للمسجد ·



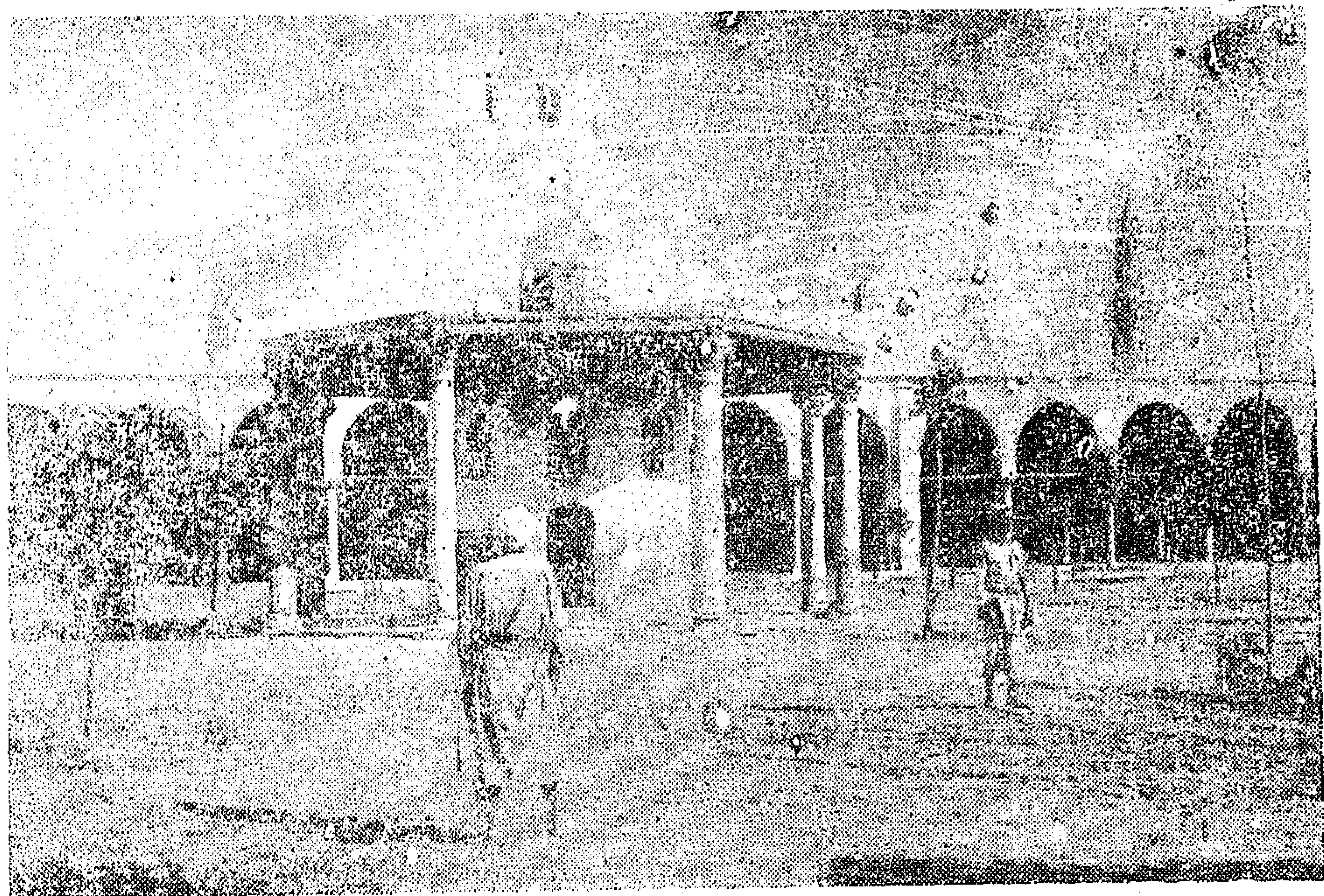


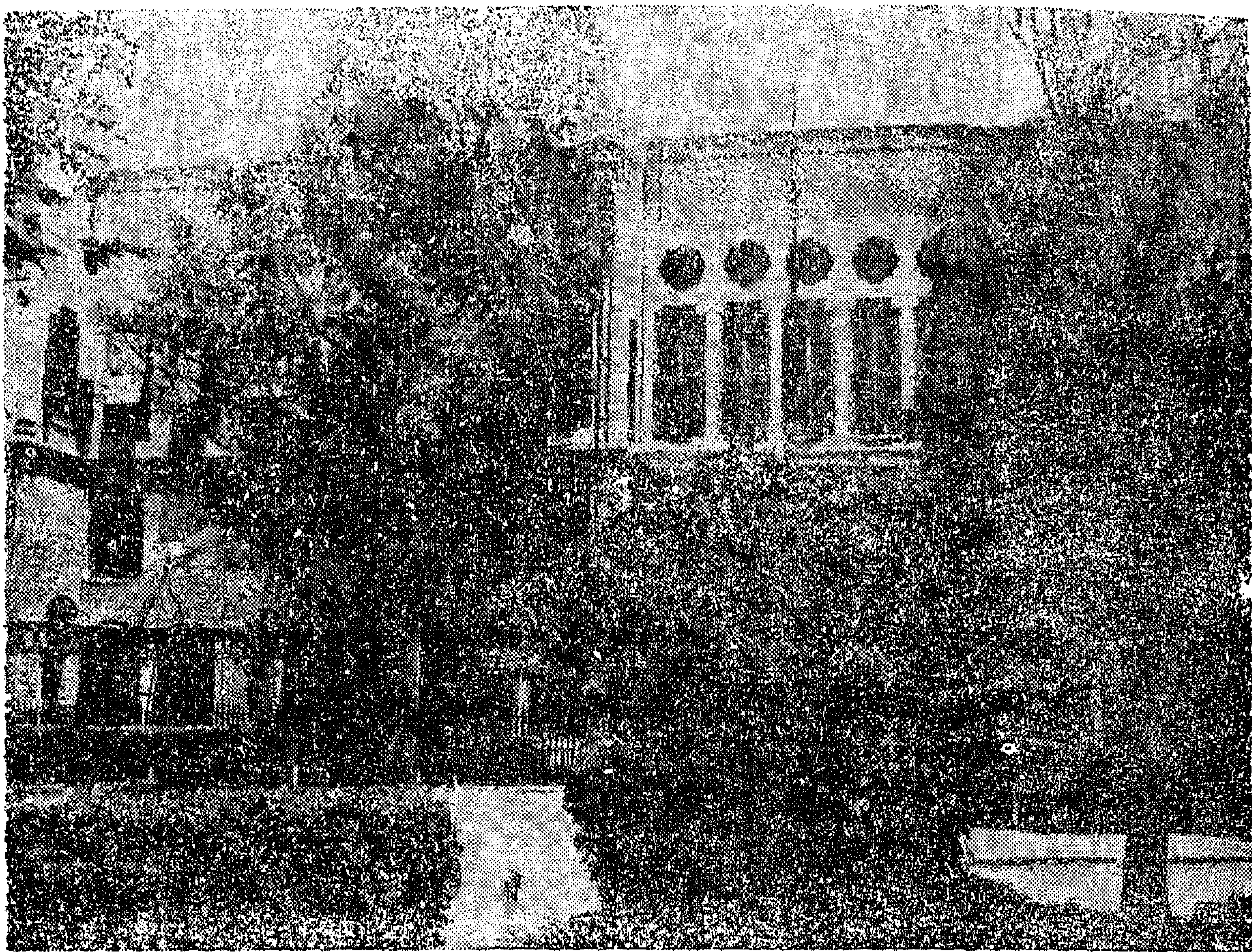
٢٤١ ـ واجهة قصر محمد على بشبرا تطل على فسقية والجزيرة فى الوسط

٢٤٢ ـ المسقط الافقى العام للكوشك والفسقية



● قصر محمد على شبرا ـ القاهرة ١٨٠٨ م





٢٤٤ ـ أعلا : قصر الحرم بالقلعة القاهرة ١٨٣٧ م
٢٤٥ ـ أسفل : قصر الجوهرة ـ الكوشك ـ القاهرة ١٨١٧ م

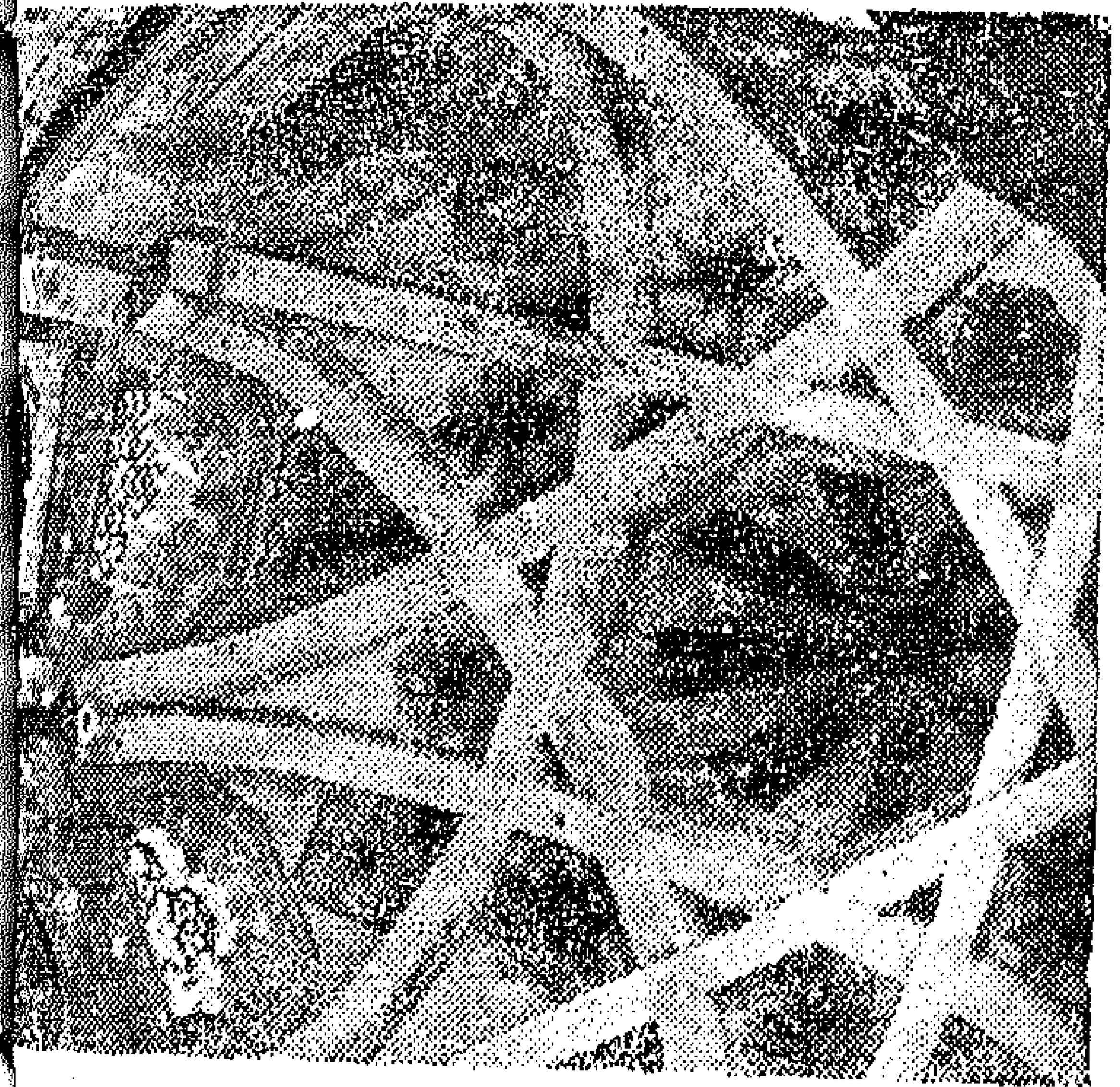


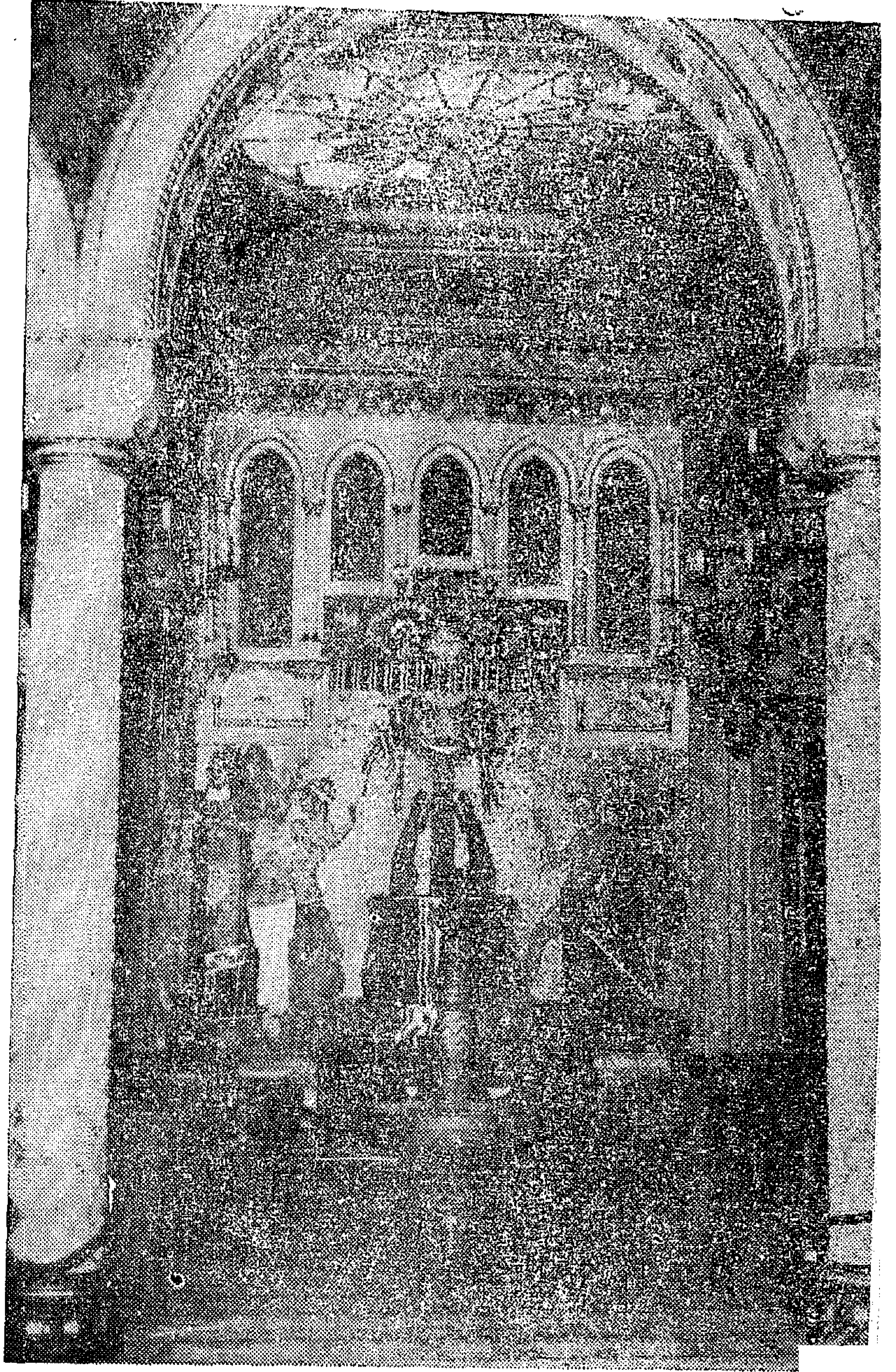
● العمارة فى عهد أسرة محمد على

٢٤٦ ـ يمين : أحد أركان متحف قصر عابدين / القاهرة ٠

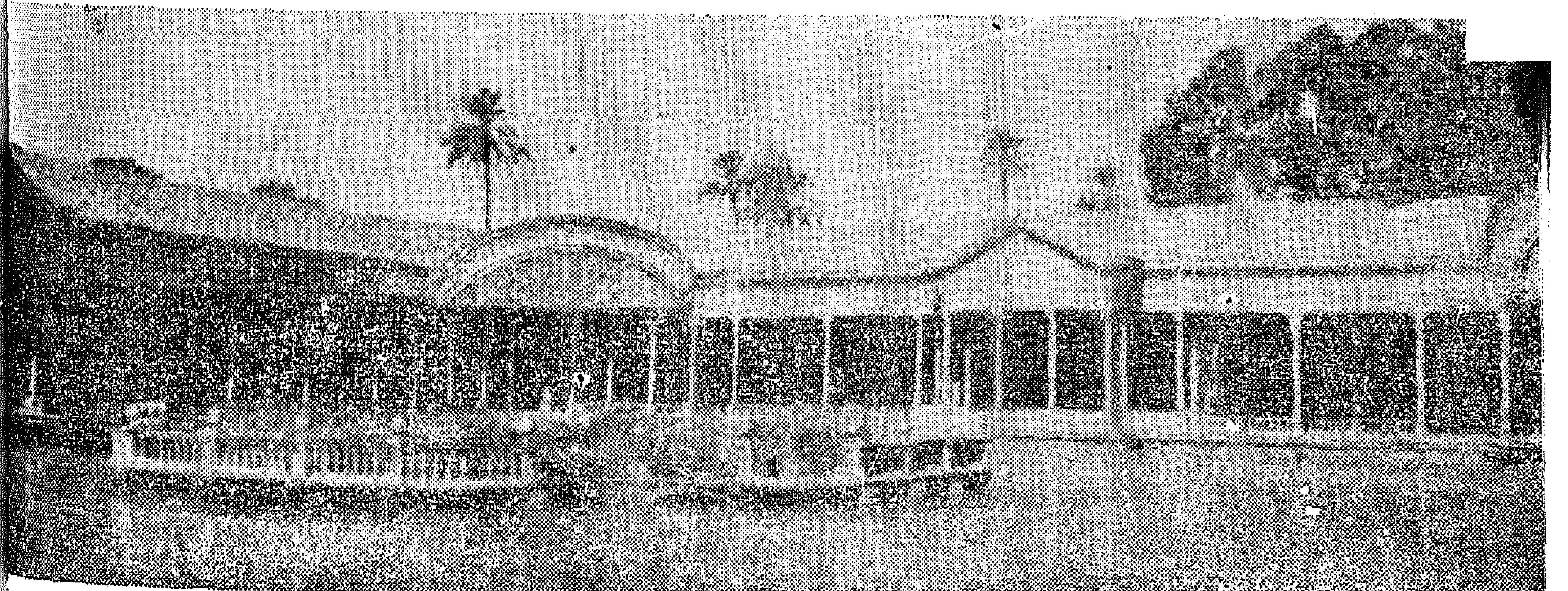
٢٤٧ ـ أسفل : زخاف سقف المتحف / قصر عابدين ٠

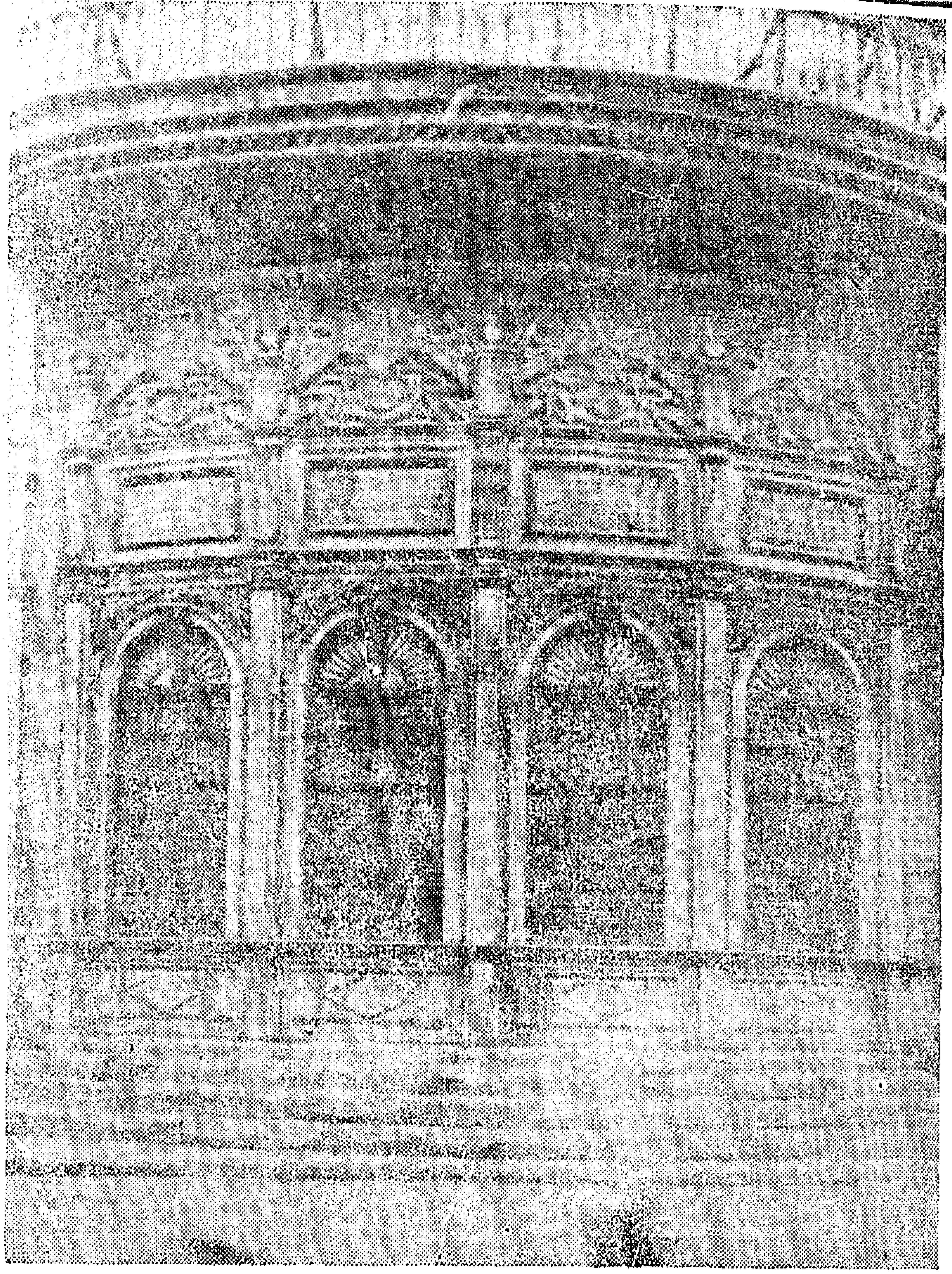


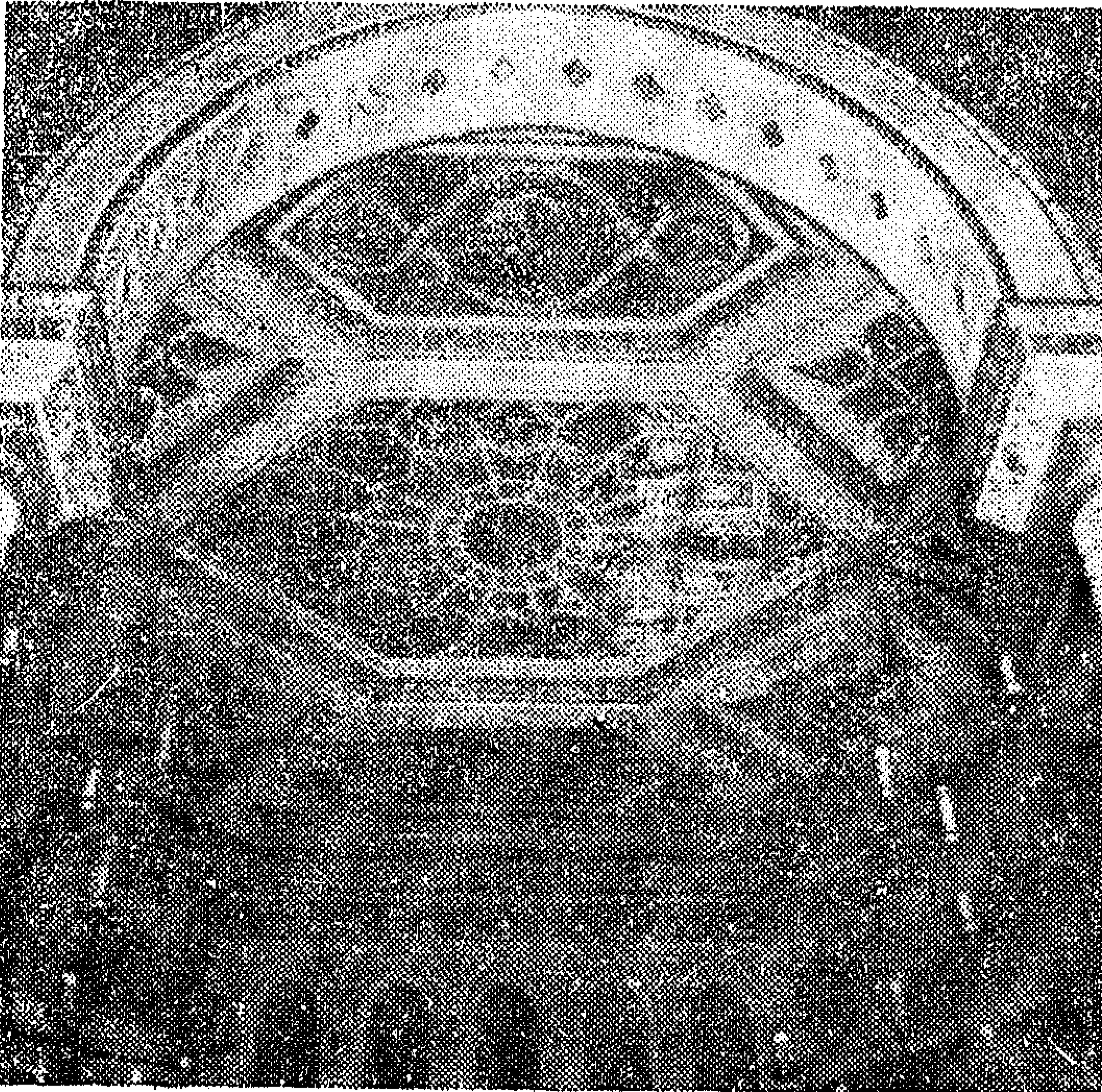




٢٤٨ ـ منظور عام داخلى للكوشك والفسقية تتوسطه الجزيرة ـ قصر محمد على بشبرا







٢٤٩ ـ أعلا : سبيل لمياه الشرب النقية بالمعقادين القاهرة ١٨٣٠ م أحـــد النماذج العديدة التى انشئت فى عصر محمد على ٠

٢٥٠ ـ يسار: صالة متحف قصر عابدين/القاهرة

وينسب تصميم هذا الكوشك الى مسيو (DROVETTI) قنصل فرنسا العام، وأن تكاليفه كانت كبيرة ٠

ويرى مسيو أوريان (AURIANT) فى كتابه محمد على والأروام ، أن محمد على أحضر أروام من شيو لاعداد الحدائق ، وأروام البانيين لأعمال البناء ، وأروام من استامبول للزخرفة وقد ظلت الأعمال جارية فى هذا كوشك الفسقية الى سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) ، فقد جاء فى الوثيقة التركية رقم ٣٢١ المؤرخة ١٢ جمادى الأول سنة ١٢٣٨ ، « أمر الى ناظر المراكب بسرعة ارسال الأحجار الرخام التى وردت من أوربا الى الاسكندرية لأجل رصف واتمام حوض شبرا فى ظرف هذين الشهرين»٠

وقد فتن بجمال حدائق هذا القصر الأجانب الذين وفدوا الى مصر فى عصر محمد على وبعده فقد وصفها (مسيو سيبيون مادين) فى كتابه على مصر المطبوع سنة ١٨٣٩ ٠ ومما جاء (١) فيه أن شبرا ولا ريب هى المثل الأعلى لما وصلت اليه فلاحة البساتين التركية ٠ وهى جنة عدن الفسيحة الفيحاء ذات العـــدد العديد من باقات الياسمين والفتنة وكل ما عرف من الزهور ٠ طرقاتها مزدانة الجوانب بالزعتر وحصى اللبان المقصوص المنسق ، كما زينت به حواف الأبسطة الخضراء ٠ وقد بعثرت فى أرجائها جواسق شتى الأحجام والأشكال ومظلات من أشـــجار وخمائل اكتست بمتسلق النبات ونافورات ومنحدرات ماء متألقة بالأضواء ٠

وفى وسط الحديقة بهو كبير للاستراحة فى وسط نافورات ماء ودهاليز وأفاريز وشرفات مزينة بأسود من البرنز وأبواب منقوشة الذرى ، وبها جميع أشجار الفاكهة٠ وقد ابتدأ تقدم فلاحة البساتين بمصر على عهد الأسرة العلوية فى أوائل القرن أى حوالى سنة ١٨٠٦ م ٠

وبالحديقة صرح للسمر وهو بناء جميل على الطرز البيزنطى مزخرفـمن الداخل بأبدع النقوش وأفخر الرياش وفى طرف الحديقة الشرقى قبالة القصر ٠بنى محمد على جوسقا كبيرا ببركة (فسقية) للسباحة فى وسط بناء مربع كبير محيطه حوالى ألف قدم مرفوع على عمد من مرمر ٠ وتستمد البركة ماءها من النيل بواسطة آلة بخارية تستخدم فضلا عن ذلك فى رى الحديقة وجانب من الأرض المزروعة بها الفاكهة والخضر حول هذه الأملاك ٠

---

(١) ص ٣١ حدائق القاهرة ومنتزهاتها ٠

وترى من واجهة القصر المشرفة على النيل منظرا من أبدع ما يشهد الانسان ، وأخص ما يراه من الربوة أهرام الجيزة وسقارة ثم القاهرة ومآذنها ٠

وبالجهة الشرقية من الحديقة قبالة القصر وبقرب المدخل الكبير ٠ تجد جوسقا مبنيا على ربوة كبيرة مدرجة زرعت على درجها الكبير أشجار البرتقال والموز والجوافة والمانجو الخ ٠ أما سلمها وعدد درجاته ١٥٠ فمصنوعة من الحصى المرصوف على شكل الفسيفساء وجانباه من المرمر الأبيض ٠ وبقمة الربوة أشجار الصنوبر الحلبى يبلغ ارتفاعها نحو العشرين مترا ٠ ثم نذكر بيان رسمها التخطيطى ٠

بيان الرسم التخطيطى : ١ ـ قصر الوالى ٢ ـ ملحقات القصر ٣ مسكن البواب ٤ ـ نافورة ٥ ـ شرفة وعليها جوسق ٦ بركة (فسقية) وحمام شرقى ٧ ـ معمل لتحضير غاز الاستصباح ٨ ـ البهو الأخضر من غاب البامبو ٩ طريق مزروع بالصنوبر الحلبى ١٠ ـ تكعيبة كرم ١١ ـ مجموعة من أشجار الموالح ١٢ أشجار فاكهة ذات أوراق متساقطة ٠ ١٣ ـ مدخل من شارع شبرا ١٤ ـ روضة الزهور ١٥ ـ حديقة الخضر ٠ ولما قدم مصر الدوق دى مونباسييه نجل ملك فرنسا لويس فيليب استقبل فيه ثم ركب الى القلعة لزيارة المغفور له محمد على باشا ٠ وكثيرا ما أقيمت فيه حفلات استقبال لكبار الوافدين على مصر من الأجانب ٠ ففى سنة ١٨٤١ م نزل فيه ياور سلطان تركيا لما قدم مصر حاملا الى محمد على باشا أفخر النياشين وسيفا وهدية عظيمة ٠

غير أن الزمن اعتدى عليه فأهملت وتخربت الأبنية التى حوله والحدائق المحيطة به ٠ وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بتسجيله ضمن الآثار فى سنة ١٩٣٥ مع ابداء الرغبة فى أن تعمل الحكومة على العناية بالحدائق المحيطة به ٠ ولما علم الملك فؤاد الأول بتسجيله تفضل رحمه الله وتنازل للحكومة عن حصته البالغة ٢٥ فدانا وكسور ٠

● **قصر الجوهرة « الكوشك » :**

هذا الكوشك قبلى مسجد محمد على ، ويشرف على مصر والقاهرة والصحراء وجبل المقطم ٠ وهو موقع يمتاز بجودة هوائه ٠ ويطلق على هذا القصر خطأ اسم قصر الجوهرة ٠ كان موضع هذا القصر أبنية قديمة للملك الأشرف قايتباى والسلطان الغورى ٠ وقد نسب الجبرتى المؤرخ الى محمد على هدمها ، اذ ذكر فى حوادث سنة ١٢٢٧ هـ ١٨١٢ م ضمن أعمال محمد على ٠

« ومنها أن هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن فهدم المجالس التى كانت بها والدواوين وديوان قايتباى وهو المقعد المواجه للداخل الى الحوش علو الكلار الذى به الأعمدة وديوان الغورى الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التى كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين وشرع فى بنائها على وضع آخر واصـطلاح رومى، وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب » ٠

غير أن الجبرتى عاد فانصف محمد على وبرأه من هدم هذه الآثار الجليلة ، وأبدى رأيه فى هندسة هذا القصر وقارن بينها وبين هندسة الآثار القديمة بما ذكره فى حوادث سنة ١٢٣٥ اذ قال :

« وفى ٧ رمضان وقع حريق فى سراية القلعة فطلع الأغا والوالى وأغات التبديل واهتموا باخماد النار وطلبوا السقائين من كل ناحية حتى شح الماء ولا يكاد يوجد ، وكان ذلك من شدة الحر وتوافق شهر بؤنة ورمضان وأقاموا فى اخماد النار يومين واحترق ناحية ديوان كتخدا بك ومجلس شريف بك وتلفت أشـــياء وأمتعة ودفاتر حرقا ونهبا » ٠

« وذلك أن أبنية القلعة كانت من بناء الملوك المصرية بالأحجار والصخور والعقود وليس بها الا القليل من الأخشاب فهدموا ذلك جميعه وبنوا مكانه الأبنيـــة الرقيقة وأكثرها من الحجنة والأخشاب على طريق بناء اسلامبول والافرنج وزخرفوها وطلوها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش وكله سريع الاشتعال حتى أن الباشا لما بلغه هذا الحريق وكان مقيما بشبرا تنذكر بناء القلعة القديم وما كان فيه من المتانة ويلوم على تغيير الوضع السابق ويقول » :

(أنا كنت غائبا بالحجاز والمهندسون وضعوا هذا البناء) ٠

وأمام المدخل الرئيسى لهذا القصر مظلة محمولة على عمد رخامية ، ومكتوب أعلا الباب (يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب) (سنة ١٢٢٨) ، وهذا الباب يؤدى الى طرقة كبيرة بها عقود حجرية تنتهى الى سلم فباب كبير مكتوب عليه بالخط الفارسى الجميل (الله ولى التوفيق)) ١٢٢٩ ٠ وعلى يسار هذا المدخل أبنية كثيرة متخربة تعلوها أبنية أخرى تسودها البساطة تتصل بديوان الكتخدا ، وبنهايته الشرقية البحرية حجرة مستطيلة لها سلم مزدوج يوصل الى الميدان الواقع أمام دار الضرب ومكتوب على أحد أبواب هذا الجناح (من آمن بالقدر أمن الكدر) ١٢٢٩ ٠ وهذا الجناح كان مخصصا للموظفين (ديوان الخاصة) ٠

أما الكوشك فقد كان مخصصا لاستقبال محمد على ، وبه قاعـــة كبيرة عرفت بصالة العرض (العرش) أو الفرمانات يتوصل اليها من الباب الأوسط المكتوب عليه « الله ولى التوفيق » • وحجرة الفرمانات هذه أكبر حجرة بالقصر ، بجدرانها بقايا نقوش وسقفها على شكل بيضاوى به نقوش مذهبة تمثل آلات حربية وآلات موسيقية تتوسطها سرة خشبية مذهبة بها مجموعة من الفواكه • وهى تشرف على ميدان صلاح الدين ، ومنها يتجلى منظر القاهرة والأهرامات من أروع المناظر •

وبجاور هذه الحجرة سلم يوصل الى صالة كبيرة توسطت القصر ، ولهذا القصر مدخل آخر من الحديقة الملحقة به الواقعة أما الباب القبلى للمسجد ، وبهذه الحديقة نافورة رخامية ربضت على حافتها الأسود تنساب المياه من أفواهها • وقد اشرفت عليها بعض الحجرات • وهذه الحجرات شاهقة البنيان تبدو ســـقفها من الخارج جملونية ، وقد فتحت بها عدة شبابيك تعلوها أخرى بيضاوية •

وقد بنيت الأساسات بالحجر والطوب بينما القواطيع والأسقف فانها خشبية جللت بالبياض • يرجى أن تنظر الصورة رقم ٢٤٥ ص ٢٨٢ •

وقد حليت الجدران من الداخل بوزراتخشبية منقوشة ومفرغة تعلوها مستطيلات منقوشة كررت الزخرفة فى بعضها بينما اختلفت فى الأخرى • وهذه النقوش بعضها يمثل فسقية على جانبيها درابزينات يكتنفها كشكان حولهما الأشجار • ويعلو كـل مستطيل بالموزرة دائرة بيضاوية نقش بها منظر طبيعى • وفوق ذلك أزار السقف ، وقد قسم الى مستطيلات نقشت بها مناظر طبيعية مختلفة الأشكال •

ونرى فى حجرة أخرى مناظر طبيعية مختلفة تنتهى من أعلاها بشكل ســـتائر تجاورها حجرة أخرى نقشت على جدرانها ساعات دقاقة اختلفت أوقاتها • وعلى أعتاب أبواب هذه الحجر نقشت سفن حربية ، لعلها قطع من الأسطول المصرى بينها قطع بخارية •

وهذه الحجر منها ما يشرف على الحديقة ، ومنها ما يشرف على ميدان صلاح الدين ، ولها أبواب توصل الى الصالة الكبرى التى نقش على أعتابها صورا لسفن الأسطول • وبالجهة الشرقية لهذه الصالة توجد حمام فرشـــت جدرانها وأراضيها بالرخام الالبستر المستورد من محاجر بنى سويف بها حوض رخامى من قطعة واحدة •

مهندسى وعمال هذا القصر : لم اعثر بين الوثائق الكثيرة التى اطلعت عليها

على شيء يتعلق بهذا القصر ، ولكن وثائق قصر رأس التين أثبتت أن المهندسين كانوا أجانب وكذلك العمال ما بين روم وأتراك وبلغاريين وأرناؤط ٠ وقد استقبل محمد على فى هذا القصر كبار الزائرين من الأجانب ٠ ولما زار مصر السلطان عبد العزيز خان فى ٤ شوال سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م احتفل به الخديو اسماعيل باشا احتفالا لا نظير له ، وأقام بهذا القصر سبعة أيام ٠

قصر الحـــرم :

هذا القصر داخل القلعة ويشرف على جبل المقطم وعلى الحطابة وعلى مدخل القلعة ٠ أمر بانشائه سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م ويتكون من أجنحة ثلاثة ٠

فالجناح الشرقى أكبرها ويتوصل اليه من باب معقود بواجهته القبلية ، مكسو بالرخام الأبيض بتواشيحه زخارف بارزة فى الرخام فكرنيش ثم لوح رخامى به كتابة تركية تعريبها : (١)

وبمناسبة البيت المجوهر الذى تضمن تاريخ القصر نشير الى أن هذا هو السبب فى تسمية هذا القصر بقصر الجوهر أو سراى الجوهرة التى أطلقت خطأ على الكوشك خلف المسجد ٠ وقد ركب على هذا الباب مصراع له خوخة صغيرة ، وهو يؤدى الى دركاة بها صفف وعقود حجرية على يسارها حجرة للحارس ، وهذه الدركاة تؤدى الى حوش بجداره البحرى باب كان يؤدى الى قاعة كبيرة تعلوها أبنية أخرى ، ويوجد باب آخر بدركاة مثل السابقة يوصل الى حوش آخر تشرف عليه واجهة القصر على امتداد الجناحين الآخرين ، ويحيط بهذا الحوش أيضـــا أبنية مكونة من دورين من المرجح أنها كانت لسكنى الحاشية والخدم ٠

وواجهة هذا الجناح مكونة من ثلاثة أدوار ٠ الأول والثانى بنيا بالحجـــر ٠ بينما الثالث بالطوب ويتوسطها باب صغير ليتوصل منه الى الدور الأرضى وبه سلم مزدوج يوصل الى الدور العلوى ٠

وأهم ما يسترعى النظر فى الدور الأرضى حجرة الفسقية الموجودة بالطـــرف

---

(١) تفضل بتعريبها والتعليق عليها حضرة محمود افندى نفعى رئيس الترجمة بالمحفوظات التاريخية بالقصر الملكى ٠

الشرقى البحرى ، فهى قاعة بها أربعة ايوانات بصدرها سلسبيل رخامى نقشت به طيور وزخارف بارزة تتدفق من أفواه هذه الطيور الى أحواض متدرجة تحت بعضها تصب فى قناة تحتها نقشت بها الأسماك السابحة وتصب فى الفسقية وسط القاعة ٠ وقد نقشت الجدران برسوم ملونة تمثل أكشاكا خشبية وستائر وأفاريز وزخارف مورقة يتوسط بعضها زهور ٠

ويكتنف السلسبيل عمد رشيقة من الرخام ، ونقشت حنـــايا الايوانات الأربع بمناظر طبيعية بلغت حد الاتقان ونقش فى بعضها قصر عظيم تحيط به الحدائق وأشجار الصنوبر ، وفى البعض الآخر قصور صغيرة وأكشاك وسط حدائق غناء يحيط بها من أعلى أفاريز مذهبه ٠ يرجى أن تنظر الصورة رقم ٢٤٤ ص ٢٨٢ ٠

وخلف السلم المزدوج صالة كبيرة فى بعض أركانها حجرتان وفى البعض الآخر حجرة وباب يؤدى الى طرقة توصل الى باقى أجزاء القصر وقد نقشت جدران وسقف هذه الصالة والحجرات حولها بنقوش ملونة مذهبة ٠

وهذه النقوش وان فقد الكثير مما كان منها بالجدران الا أنها ما زالت محتفظة بنقوش الاسقف وازرها ، وهى تمثل زخارف مورقة بها زهور تتخللها مناظر طبيعية ٠ والسلم المزدوج يوصل الى صالة علوية كبيرة بها أربعة ايوانات فى بعض أركانها بابان لحجرتين ، وفى بعضها حجرة وطرقة توصل الى باقى أجزاء القصر ٠

وهذه الصالة احتفظت بنقوش جدرانها وسقفها وازاراتها ، فقد حليت الجدران بحليات على هيئة عقود محمولة على عمد رشيقة ومناظر طبيعية تنتهى من أعلى بافريز صغير فوقه ازار رفيع حلى بمناظر طبيعية تنوعت أشالها ، يعلوه افريز آخر فوقه ازار بير نقشت به فروع نباتية تحمل زهورا تتخللها مناظر تمثل وجهات قصور متنوعة يسودها الطرز الأوربى ، ثم السقف وقد تكون من جدائل نباتية تفرعت منها الزهور ٠ وغربى هذه الصالة صالة أخرى مستطيلة على جانبها حجرات حفلت جدرانها وأسقفها بنقوش ما زالت باقية حتى الآن ٠ فى كثير منها حنايا محمولة على عمد خشبية رشيقة ازدحمت بزخارف بين زهور وأوراق نباتية ومناظر طبيعية ٠

والنقوش وان تنوعت فى باقى الحجرات ولكنها تدور كلها حول مناظر الزهور والطبيعة وذلك فيما عدا السقوف التى تنوعت تنوعا كبيرا فى رسومها واتحدت فى نوع الزخرف ٠

الجناح الأوسط : يتوصل الى هذا الجناح وحديقته من باب بالسور القبلى ٠

والحديقة تبلغ مساحتها ٧٠ر٠ × ٥٧ر٠ متر تقريبا أحيطت بها تكاعيب الـــكروم وتتوسطها فسقية فوقها كوشك وتطل عليها واجهة القصر التى يتوسطها باب ركب عليه مصراعان حليت حشواتهما بنقوش بارزة ٠ وهذا الجناح كان مدخلا رئيســـيا على ما أرجح ، والباب يؤدى الى سلم مزدوج يوصل الى الأدوار العلوية ٠ والدور الأرضى عبارة عن قاعة كبيرة بكل ركن من أركانها حجرتان وكلها احتفظت بنقوش الأسقف التى نرى فيها تنوعا بين مسدسات ومربعات بها زهور ملونة وجـــداثل انتشرت بها الزهور ٠٠٠ وبالنهاية الغربية للدور الأرضى بهذا لهذا الجناح حمام تتكون من طرقة مستطيلة مغطاة بسقف جصى حلى بزجاج ملون ٠ ثم باب أول ٠ وهى حجرة مقسمة الى ايوانين بينهما در قاعة يغطى الجميع سقف جصى من زجاج ملون وواجهة كل من الايوانين محمولة على عمد رخامية رشيقة قواعدها مربعة ومطعمة برخام أحمر ٠

والقسم الداخلى وهو بيت الحرارة ، يتوصل اليه من باب بالحجرة الأولى على جانبيه شباكان لتوصيل الملابس منهما ٠ وهو أيضا مقسم الى أقسام أكبرها أوسطها يغطى الجميع سقف جصى بتقاسيم زخرفية على هيئة زهرة ذات أربعة أوراق بها زجاج ملون بين فيروزى وأخضر وأحمر ، والسقف محمول على عمد رخامية رشـــــيقة ، وبالصدر حوض رخامى كبير من قطعة واحدة ٠٠٠٠ ومن السلم المزدوج المحمول على عمد ضخمة ، يتوصل الى الدور الثالث وينتهى الى صـــالة كبيرة تبلغ مســـاحتها ٣٦ر٠ × ١٤ر٠ متر بها أربعة ايوانات مقاس بعضها ١٣ر١٠ × ١٠ر٠ متر تكتنفها من زواياها الأربع فتحتان قد تكون لحجرتين أو لطرقة وحجرة ، وتبلغ مساحة الحجرة ٩ر٠ × ٨ر٥٠ مترا ٠ وقد احتفظت الأسقف وبعض الوزرات بنقوشها ٠ وقد اتفقت نقوش كل من الايوانين المتقابلين ، بينما اختلفت فى الآخرين ، وفى مجموعة الأسقف نرى تنوعا وجمالا كما نرى تنوعا فى مجموعة النقوش التى بازارات هذه الأســقف ولكنها لا تعدو مناظر الطبيعة فى أوضاع مختلفة ٠

الجناح الغربى : يمتد سوره الخارجى مع الجناح الأوسط ٠ ويتوصل اليه من باب فى السور القبلى ٠ يوصل الى حوش كبير مساحته ٧٥ر٠ × ٦٠ر٠ متر تشرف عليه واجهة الجناح المتصلة بباقى الوجهات ويتوسطها باب يوصل الى القاعة الكبرى بالدور الأرضى والى السلم المزدوج ، وتصميم هذا الجناح يماثل تصميم سابقيه وله واجهة أخرى تطل على مدخل القلعة وقد طرأ عليه تغيير كبير اذ ابدلت سقفه بأسقف حديدية فأصبح عاريا من الزخرف ٠ وجميع أجزاء القصر متصل بعضها ببعض ، كما أن بحوش كل جناح سور به باب يوصله بالجناح الاخر ٠

● قصر رأس التين / الاسكندرية :

كان للمغفور له محمد على باشا بمدينة الاسكندرية عدة قصور · ولذلك نرى بين الوثائق الرسمية ضمن محفوظات القصر التاريخية ما هو خاص بقصر رأس التين وما هو خاص بقصر ابراهيم باشا وما هو خاص بقصر المحمـــودية وما هو خاص بقصور أخرى بتلك المدينة · ففى الوثيقة رقم ٤٠٦ المؤرخة ١٣ شوال سنة ١٢٣٥ دفتر نمرة ٥ ما يفيد أن قصر ابراهيم باشا كان على وشك الاعداد للتأثيث ·

وكان للمغفور له محمد على باشا قصر آخر بالاسكندرية كاد بناؤه تنتهى سنة ١٢٤٠ كما جاء بالوثيقة رقم ١٤٥ المؤرخة ٢١ شوال سنة ١٢٤٠ (دفتر ٢١ معية تركى) · والوثيقة رقم ١١٥ المؤرخة ١٦ رمضان سنة ١٢٤٢ يستنتج منها وجود قصر آخر فقد تضمنت أمر الجناب العالى بارسال عشرة نجارين وعشرة مرخمين بلديين لأجل السراى الجارى انشاؤها فى الاسكندرية · وقد ظل العمل فيها الى ما بعـــد سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م · والوثيقة رقم ٤٢٠ المؤرخة ٢ رمضان سنة ١٢٥٢ (دفتر ٧٩ معيه تركى) تفيد الفراغ من بناء أحد القصور وتأثيثه ·

أقدم وثيقة أطلعت عليها وورد بها اسم قصر التين صراحة تلك الوثيقة المؤرخة ١٣ رمضان سنة ١٢٣٤ · هى من الجناب العالى الى أمين جمرك الاسكندرية · « أمر بمناسبة تشريفه الاسكندرية فى أسبوع عيد الفطر أن يفرشوا القصر الجديد الذى بنى فى رأس التين » · (والوثيقة رقم ٤٦٩ المؤرخة ٢٦ محرم سنة ١٢٤٠ دفتر ١٨ معية تركى) : تفيد أن الغرفة والصالة الجارى انشاؤهما اضـــافة الى قصر رأس التين بالاسكندرية قد تمت وفقط تحتاج لأعمال تكميلية ·

(وفى الوثيقة رقم ٤١ المؤرخة ١٤ شوال سنة ١٢٤٦ دفتر معية تركى رقم ٤١) ما يفيد تجديد أثاث الغرفة الكبيرة الكائنة فى طرف سراى الحريم بسراى رأس التين فى الاسكندرية بلون ثابت مطابق للون الغرفة ·

والمرجح أن هذا القصر أعيد بناؤه فى أواخر سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م · وأنه عهد الى سريزى بك المهندس الفرنسى الذى استقدمه سنة ١٢٤٥ هـ ١٨٢٩ م لانشاء دار الصناعة والأشراف عليها · بوضع تصميم هذا القصر وأختيار مهندس أجنبى لتنفيذه والاشتراك معه · فقد جاء بالوثيقة (رقم ٥٩ المؤرخة ١٩ شوال سنة ١٢٥٠ دفتر رقم ٥٩ معية تركى) · من بوغوصى بك الى زكى بك (١) ·· مطلوبنا منكم أن تعلمونا بسرعة هل أخذ سريزى بك رسم تصميم القصر الذى سيبنى فى الاسكندرية أم لا · واذا كان أخذه هل حصل الشروع فى البناء أم لا حتى تكون على علم منه ·

مهنـدس القصر :

لم يرد صراحة اسم مهندس القصر الذى استقدمه من أوروبا سريزى بك ولكن يفهم من الوثيقة (رقم ٤ دفتر ٧٥ معية تركى المؤرخة ١٤ شوال سنة ١٢٥٢) بأن اسمه روميور وها هو نصها :

من الجناب العالى (محمد على باشا) الى زكى أفندى ·

لقد جاءنا خمس قطع من الرسوم (التصاميم) بناء على ما كتبناه لكم بخصوص الأعمدة الرخامية اللازمة للحمام المزمع انشائها فى قسم الحريم من سراينا ولكن لم يبين فيها مقدار ما تحتاج الأعمدة واطارات الأبواب من الرخام المقتضى تبليط أرض الحمام به ، والحمام ستكون أربعة أقسام قسمان منها يبلطان بالرخام وقسمان منهـا يبطلنا بالخشب · فاطلبو المهندس (روميو) وخذوا منه المواصفات باللغة الأوروبية عن المقدار اللازم لتبليط الدائرتين والصالة وعرفونا عن ذلك ·

وكان مع مسيو روميو مساعد آخر اسمه (مسيو موزل) فقد جاء فى الوثيقة (رقم ٢٨ المؤرخة ٦ ربيع الأول سنة ١٢٦٠) أن (المسيو موزل) قـرر أنه يستطيع اتمام اشغال باب رأس التين لغاية قدوم مولانا الأعظم الى الاسكندرية على أن يرسل له ست عمال نحاتين · وكان هناك مهندس آخر اسمه (مسيو ليفروييج) ورد اسمه فى الوثيقة (رقم ٧٢ المؤرخة ١٠ ذى القعدة ١٢٦١) ونصها :

من ديوان البحر الى ديوان المبانى :

كتب لنا مدير الديوان الداورى (العالى) بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ١٢٦١ رقم ٢٤ أن المهندس ليفروييج كتب له أن الخشب الخاص لبهو العرض (صـالة العرش) حاضر وأنه يلزم نقله سريعا ·

---

(١) الأوامر التى كانت تصدر بخصوص قصر رأس التين كانت توجه الى زكى أفندى ·

الباب الرابع

- **المدينة الاسلامية ·· وأسس تخطيطها ٤/١**

وانشائها الفكرى والاجتماعى والعضوى ···
البعد الفكرى الروحى
ـ البعد البشرى الاجتماعى ، والجغرافى الطبيعى ··
ـ الخصائص التخطيطية العمرانية ···

- **المدينة الاسلامية ·· ٤/٢**

ـ اتجاه العمارة فى المدن العربية ··
عيوبها وفقدان الطابع المميز لها ···
ـ الحضارة العربية أحد الحضارات الست
ـ التفكير الأيديولوجى فى العمارة الاسلامية ···
ـ تخطيط المدن العربية المعاصرة ·
ـ التصور المعمارى والفنى الجمالى والعمرانى
للمدن العربية ·

- **تاريخ تخطيط وانشاء أهم المدن الاسلامية ٤/٣**

ـ القاهرة : كيف كانت وقبل ان تكون ·
ـ دمشق : كيف كانت وقبل ان تكون ·
ـ بغداد : كيف كانت وقبل أن تكون ·

- **مدن اسلامية لها تاريخ : ٤/٤**

طهران ، مراكش ، عمان ، فاس ، كابول ، كراتشى
قرطبة ، أم درمان ، البصرة ، صنعاء ، أسمرة،
الدوحة ، كربلاء ، طنجة ، برقة ·

المدينة الاسلامية ··· أسسها وخلفياتها الفكرية والاجتماعية والطبيعية

● التاريخ ··· المدينة ··· العمارة ··· المجتمع ··· الناس :

لم يخطىء « مارتن لوثر » حينما وصف عمارة المدن بأنها هى المـــرآة التى تنعكس عليها صورة المجتمع ··· ولم يخطىء « فيكتور هيجو » حينما وصف العمارة بقوله بأنها سجل لعقائد المجتمع ··· ولم يخطىء « برنارد شو » عندما وصـــفها بقوله بأنها هى الحياة التى عاشت فى عالم الأمس ، والتى تعيش اليـــوم ، والتى ستبقى حية فى المستقبل · هذه الأقوال من مشاهير الفلاسفة والكتاب تثبت أن المدينة، أى مدينة ، هى صورة مجسدة للمجتمع الـــذى يعيش فيها ، وهـــذا هو التاريخ الصحيح ، تاريخ المدن ، تاريخ المجتمع ، تاريخ الناس ·

لابد اذن من توضيح هذه الحقيقة ، حقيقة التاريخ ، ونحن نكتب تاريخ مدينة القاهرة فى العصور المتوسطة من القرن السادس حتى القرن الثامن عشر ، وهى التى تعتبر أروع العصور الاسلامية عرفها التاريخ نقـول ··· الناس يعيشون فى التاريخ ، والتاريخ يعيش فى الناس · ثم ان التاريخ هو حركة الصراع ، والصراع حركة التاريخ · وحيث يكون الناس يكون الصراع ويكون التاريخ · والقانون الوحيد فى التاريخ هو الصراع والحركة والتغيير · وليست هناك حـــالة ثبات ودوام فى التاريخ ، حيث لا يجب الخلط بين تيارات التاريخ ومتاحف التاريخ · فتيارات التاريخ هى الصراع والحركة والتغيير ، أما متاحف التاريخ فهى تماثيل من حجر ··· وأوانى من ذهب ···· وموميات فى أكفان · وربما قبل أن نفرغ من كتابة ما توصلنا اليه من نتائج ندرك أن هذه النتائج التى توصلنا الى استخلاصها من الدراسة تصبح عرضة للتغيير لأنه ليست هناك حالة ثبات أو دوام فى المدن لأنها كتيارات التاريخ صراع وحركة وتعبير ·

يقول « خومه » ان أى نظام للمجتمع لا يكون عضويا من حيث تكوينه بما يضمن له التطور والنمو المتجانس والمتماثل فى جميع أعضائه ، نظام يحول المجتمع بأكمله على شكل شجرة ترتبط جميع فروعها وخلاياها بنبضها بمركز

جذورها على أرض صلبة بما يضمن لها البقاء والدوام ٠٠٠٠ نظام مصيره الانهيار٠ كذلك الحال فى العمارة والمدينة ٠ وهذا هو النظام الاجتماعى الذى كان متبعا بالفعل فى العصور الاسلامية أساسه الوحدانية ٠٠٠ وحدة الدين ٠٠ وحدة العقيدة ٠٠ وحدة الهدف ٠

كان لوحدة العقيدة أثر كبير فى وحدة التطور ، فالعرب يؤمنون بوحدانية الله عز وجل، وفلاسفتهم يؤمنون بوحدة المعرفة والحقيقة ٠٠ ووحدة الدين والفلسفة ٠٠ والمعرفة والحقيقة متفقتان لأن الفعل واحـــد ٠٠ والحكمة والشريعة متفقتان لأن الحقيقة واحدة ٠ هذه العقيدة الدينية هى المحرك الأساسى للفكر العربى فى ماضيه وفى حاضره ٠ فهو يؤمن بوحدة العقل ووحدة النفس ، ويؤمن بالوحـــدة ايمانه بالمساواة ايمانه بالحرية ٠٠ وأى وحدة أقوى من وحدة تقوم على وحـــدة اللغة والمشاعر والتاريخ ووحدة المثل العليا ٠

يروى لنا التاريخ ويسجل بين صفحاته أن العرب أول النـــاس الذين علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ٠ ويقول أحد حكماء الغرب أن العرب أول من علم العالم كيف تكون الحضارة وكيف تكون العمارة ٠ ويقول أحد علمـــاء أوروبا أن العلوم التى كانت عند اليونان والأغريق والرومان وغيرهم مقبورة جدران الكتب مخزونة فى بعض الرؤوس وكأنها أحجار كريمة ثمينة لا حظ للانسانية منها سوى النظر اليها ، صارت عند العرب حياة للاداب والفنون والعلوم ، غذاء للارواح وروح الثروة وقوام الصناعة ٠

ألا فليعلم الذين أصيبوا بمركب النقص من المهندسين والمعماريين والمخططين وغيرهم ولا يزالون يعتقدون أننا لا نستطيع أن نجارى الغـــرب فى علومه وفنونه وصناعته ، لعلهم بعد هذا أن يدركوا ما كان عليه العرب فى ماضيهم وما وصلوا اليه من تقدم فى فترة وجيزة من عمر الزمن ، أو لعل البعض منهم بعد ذلك لا يتهكم على التراث العربى الاسلامى الاصيل فى مختلف المجالات ٠

« أن تناول أى موضوع عمرانى أو تطور حضرى لأية مدينة أو أى من عناصرها بالبحثيتطلب النظر فى خلفياتها التاريخية ، وتحليل المقومات الفكرية والمادية أو الاجتماعية القائمة عليها والتى ترتكز بمجموعها على عقيدة فكرية وثقافية معينتين ٠ والمدينة عموما فى العالم العربى ، والمغرب العربى جزء هام فيه لا تشذ بشىء عن هذه القاعدة وعلينا هنا للتحديد أن نضيف بأن الخلفية الفكرية فى هذه الحالة هى

العقيدة الاسلامية ، ولهذا كان لابد لنا من تقديم توطئة نمهد بها لفهم ظروف وبنية المدينة فى المغرب العربى الكبير »(١) ٠

● البعد الفكرى الروحى (*) :

ان غاية ما يصبو اليه كل مسلم مؤمن هو حسن الختام فى الدار الفانية والفوز برضوان الله وجنات الخلد فى الدار الآخرة ، فالحياة الدنيا ان هى « الا متاع الى حين » ، وهذا ما ينعكس جليا على المفهوم الفلسفى للمدينة فى الاسلام ، (كمسكن الأمة فى الدار الفانية) ٠ والتوحيد هو أول عمد الايمان بالنسبة للمسلم ، وهذا ما يتطلب الاعتصام بحبل الله مع بقية جماعة الايمان وذلك لتحقيق النصاب الفعلى لتكوين الجماعة بالمعنى الاجتماعى السياسى الاسلامى ٠

ويستدعى هذا بالتالى انتساب الفرد بالدرجة الأولى لتلك الجماعة بالمفهوم العريض للامم الاسلامية « أى الانتساب » ، وبالتالى فالى جزء مسكن هذه الأمة ، وهو المدينة ، وذلك كما يراه العلامة الفارابى (٢) ٠ فالمدينة بالنسبة للمسلم هى بالدرجة الأولى البيئة الصالحة التى تهىء الاطار الملائم لتأدية الفروض والواجبات الدينية ، ولتحقيق الغايات الأساسية الاسلامية ٠ وهـــــذا ما فات على كثير من

(*) بحث للدكتور اسماعيل ـ مجلة البناء / الرياض ٠

(١) المدن موضوع الحديث هى المدن التاريخية الحملة للتراث الاسلامى وليست المنشأة حـــديثا ٠

(٢) أبو النصر محمد الفار ابى ـ المعلم الثانى ـ رسالة فى اراء أهل المدينة الفاضلة : (الفصل ٢٦ ص ٥٢ ـ ٥٣) ٠

« ٠٠٠ فحدثت منها الاجتماعات الانانسنية فمنها الكاملة ومنها غير الكاملة ثلاث عظمى ووسطى وصغرى ، فالعظمى اجتمالات الجماعة كلها فى المعمورة ، والوسطى اجتماع أمة فى جزىء من المعمورة والصغرى اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن أمة ، وغير الكاملة أهل القرية واجتماع أهل المحلة ثم اجتماع فى سكة ثم اجتماع فى منزل وأصغها المنزل والمحلة والقرية هما جميعا = لاهل المدينة الا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة والمحلة للمدينة على أنها جزؤها والسكة جزء المحلة والمنزل جزء من السكة والمدينة جزء مسكن أمة ، والامة جزء جملة أهل المعمور ٠ فالخير والكمال الاقصى انما ينال أولا بالمدينة لاجتماع الذى هو أنقص منها ، ولما كان شأن الخير فى الحقيقة أن يكون ينال بالاختيار ٠٠ فالمدينة التى يقصد فيهـا التعاون على الاشياء التى ينال بها السعادة فى الحقيقة هى المدينة الفاضل والاجتماع الذى به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل ، والامة التى تتعاون مدنها كلها على ما ينال بها السعادة هى الامة الفاضلة ٠

المستشرقين والباحثين فى الفنون والبيئة الاسلامية فهمه ٠ فراحوا يســـــتنبطون اجتهادات تبنى غالبا على تفسير خاطىء وتحريف للقرآن الكريم والسنة وذلك للمس من المستوى الحضارى والجاهزية الحضارية للعرب والمسلمين (٣) ٠

والى جانب البعد الفكرى الأساسى لفهم وتحليل المدينة الاســـــلامية عموما هنالك ما يأتى :

● **البعد البشرى الاجتماعى ، والجغرافى الطبيعى :**

البعد البشرى الاجتماعى :

فقد ارتبط نشوء المدن فى جزيرة العرب ومناطقها الهامشية (حوض الفرات والجزيرة العليا ، بادية الشام وبر الشام حتى قبل ظهور الاسلام) بحالة البدو بين التنقل والحضر ، حيث تشد مضارب البدو وتستقر فى معسكر دائم يصـــــار الى تحصنه وتدعيمه بشتى الطرق ووسائل البناء المتوفرة ومن ثم يطلق عليه انئذ اسم « الحير أو الحيرة » (وهى فى لغة أهل اليمن مضارب البدو المحصنة ، التى غدت مستوطنة دائمة) ، أو الحضر فى لغة عرب الشمال ، وأبلغ مثال على هذا مدينة الحضر قـــرب الموصـــــــل التى ازدهرت ابتـــداء من القـــرن الثانى قبل الميلاد والتى أنشأتها قبائل عربية شديدة التأثر بالعنصر والثقافة الآرامية ، أو مدينـــة الحيرة عاصمة المناذرة اللخميين الشهيرة فى الأدب الجاهلى ، والتى بدأ تاريخها مع دخول العصر المسيحى ثم مســـتوطنات وقصور الحير فى البـــادية السورية (الشرقى والغربى) ٠

أن عملية استقراء جدى لتاريخ المنطقة مذ بدأ بكتابة التاريخ تقودنا لاستنتاج هام وأساسى ، وهو أن البداوة هى أهم عامل مادى اجتماعى مؤثر فى نشوء وتطور المدن والبيئة الحضرية فى المنطقة ٠ فالبادية هى الامتداد الطبيعى ، والرافد الأساسى الدائم للحضر بالاحتياطى البشرى والشريك الاقتصادى (وهى بالتحديد الرافد لكل من المجتمعين الحضريين ، الزراعى الريفى والمدنى) وكذلك الحليف أو الخصـــم العسكرى ، المن أبرز هذه الروافد هى الطاقة الفتية والحيوية المتجددة التى يمد بها بر الحضر بطاقات لا تنضب ٠

---

(٣) أوضح مثال على ذلك البروفيسور أرنست أغلى اســـتاذ تاريخ العمارة والتخطيط / المعهد العالى الفنى زيوريخ (تاريخ تخطيط المدن) شتوتغارت وزيورخ ١٩٥٩ م ٠

ولم تخف هذه الحقيقة قبل نيف وخمسمائة سنة على العـــلامة ابن خلدون المغربي ، الذى كتب فى القرن الرابع عشر (م) يعرف كـــل من البداوة والتحضر والعلاقة فيما بينهما وانتهى الى بلورة فكرة نشوء المدن والممالك على مبدأ (العصبية) أثر تحيله ومعالجته لموضوع تاريخ نشوء وسقوط الدول والســـلالات الحاكمة ، وبالتالى انعكاس ذلك على ظهور وعمران المدينة بشكل عام ٠

« ان العرب (يقصد بهم الأعراب أى البدو عموما) لا يحصـــــل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم على الجملة ٠٠٠ » ، وفى موضع آخر : « ان طبيعة البداوة بمجملها تجسم رفض العمران والبنيـان ، والذى يكون بالتالى قاعدة الثقافة الحضرية المدنية (المقدمة ، ابن خلدون) ، وكذلك : « البداوة هى أساس وأصل المدن ، وأسلوب الحياة الحضرية » (المقدمة ــ) ، وفى واقع الأمر ، فنشوء المدن الجديدة فى صدر فترة الفتوحات الاسلامية وتوسعها الهائل ابان حكم الخلفاء الراشدين وأول خلفاء بنى أمية ، يعكس هذا الشكل من تكوين المدن فى اطار جديد من الشروط والمتطلبات المختلفة ٠

الأطر والمكونات العامة لنشوء المدينة الاسلامية :

تتجسد هذه الأطر والعوامل المكونة فى العوامل الطبيعية الفيزيائية المؤثرة ، والشروط الاجتماعية النفسية بالاضافة الى النظم السياسية الاقتصادية الفاعلة ٠ وأقوى هذه العوامل كان فى الفترة الأولى الوضع الجغرافى وحاجة جيوش الفتح لقواعد هجوم أمامية وأخرى خلفية للامداد ، فقد نشأت أولى المدن فى الاسلام من تحول وتطور معسكرات للجند حصينة على أطراف البلاد المفتـــوحة ، وعلى طرق المواصلات والامداد ٠ ولعل اسم بعضها يكشف بجـــلاء طبيعتها وأصلها ، مثل الفسطاط (٦٤٢ م) القيراون (٦٧٤ م) الكوفة والبصرة (٦٣٨ م) ٠ وسرعان ما شهدت هذه المدن توسعا « وازدهارا » برسوخ وثبات الدين والدولة ، وأخذت طابعا مدنيا خاصا بدأت تخيط شخصيته المميزة ، ويعبر بصدق وبشكل وظيفى عن شكل وحاجات المجتمع الاسلامى الحضرى ٠ الا أن أسلوب وتقاليد اقامة المستوطنات الزراعية لعمران قلب البلاد (الحير) أو قواعد الجهاد والدعوة المحصنة (الرباط) كانت أهم ما يميز المرحلة الأولى ٠

- قصر الحير الشرقى (٤) ٠
- قصبة فيض الله ــ المغرب (٥) ٠

ولقد لعبت منشآت الرباط دورا « حاسما » فى ترسيخ وتطوير السلطة والدولة الاسلامية الفتية والحياة الحضرية خاصة على أطراف وتغـور الدولة فى مناطق الاحتكاك المباشر مع العدو ، كما فى افريقيا (تونس) والمغرب أو خراسان وما وراء النهر • ومنشات الرباط بذاتها كانت مراكز ذات وظائف متعددة ، فهى أولا معسكرات ونقاط دفاعية للجند وللرواد والدعاة المنخرطين تحت راية الجهـاد ونشر الدعوة الاسلامية وهم متطوعين أعدوا خصيصا لهذه الغاية • ثم هى مراكز احتكاك سلمى (تجارى ، خيرى) مع السكان المحليين كذلك • ولقد شهدت حركة الرباط انتشارا واسعا فى كافة اصقاع العالم الاسلامى ، الا أنها تطورت فى شمال افريقيا بشكل خاص مع مرور الزمن لتصبح مدنا مزدهرة ، ولا يزال بعضها الى يومنا يحمل نفس اسمها الأصلى ، كالرباط عاصمة المغرب ، ورباط جزيرة مالطة •• الخ الا أن أفضل ما يمثل الشكل الأولى للرباط هو كل من رباط سوسه ، ومونا‌ســــتير فى تونس ، والمستوطنات المعروفة حاليا باسم القصبات فى شمال افريقيا وتمثل شكل الرباط فى مراحل التطور ، وتعتبر قصبة (فيداله) فى الجزائر نموذجا لمستوطنة الرباط المتطورة فى هيكلها وبنيتها المتراصة المغلقة ، كما أن هنالك كذلك قصبات أخرى ذات بنية متباينة لتناسب الظروف البيئية الصحراوية أو الجبلية المختلفة ، ففى جنوب المغرب والجزائر ترتفع أبنية القصبات لتصبح متعددة الأدوار (ثلاثة أو أربعة أدوار) وتذكرنا هنا بقرى ومدن اليمن ، ممـا يوحى بوجـود علاقة فيما بينها عبر القـارة الأفريقية •

ولقد نشأت كذلك مدن أخرى فى المغرب الكبير استفادت من شروط جغرافية مناخية معينة ، (نائية الموقع ، قاسية المناخ) لتحقيق عزلة جغرافية سياسية عن السلطة الحاكمة المركزية وبالتالى تأمين الحماية لأهل هذه المدن ، اللذين يشكلون وحدة اجتماعية ـ سياسية متجانسة ، تجتمع على فكرة العصبية ، مثال ذلك مدن وادى المزاب الخمس ، فى الصحراء الجزائرية ، أو قلعة بنى حمـــاد القريبة الى تونس • وتعد مدينة غردايا • مثال نموذجى عن هذه المدن ، التى لا زالت تحمل الصفات التكوينية (المورفولوجية) المميزة للمدينة الاسلامية فى عهـــد ما قبـــل الصناعة •

وثمة عامل هام آخر أيضا لعب دورا « أساسيا » فى ظهور أو تطور عددا من المدن الاسلامية على امتداد ديار الاسلام جغرافيا ، هو وجود مقام أو مزار لشهيد أو ولى تقى فى المكان ، كمدن سيدى ادريس فى المغرب أو النجف وكربلاء فى العراق ومشهد فى ايران ، الا أن أشهر وأهم المدن التى بنيت فى العهود الاسلامية والتى لم يزال معظمها مدنا مزدهرة قائمة ، هى عواصم السلالات الحاكمة التى انشئت أساسا

لاسكان الطبقة الحاكمة وحاميتها مع تأمين جميع الخدمات الحكومية والادارية ، ومن أشهر هذه المدن هى بغداد ــ القاهرة ــ فاس ــ مراكش ٠٠ الخ ٠

كما أن هنالك عددا من عواصم أقيمت وازدهرت ثم اندثرت واختفت آثارها ، كسامراء العباسيين ومهدية الفاطميين (تونس) وزاهـرة الأمويين فى الأندلس ، (قرب قرطبة) ٠

الخصائص العامة للمدينة الاسلامية :

تشترك المدن الاسلامية ذات الشروط الفيزيائية الطبيعية المتشابهة فى خواصها المميزة وبنيتها العمرانية والاجتماعية ــ الاقتصادية ، وذلك وفقا لموقعها الجغرافى ــ ومناخها ــ وشكل نظامها الاقتصادى ٠

الموقع الجغرافى :

يشكل موقع المدينة الجغرافى الطبوغرافى عاملا من أهم العوامل لتكوين الشكل العمرانى للمدينة ، لنموذجها الوظيفى ، ولتحديد شخصيتها المعمارية ، فالمدينة اما أن تكون ساحلية وذلك ما هو نادر فى التراث الاسلامى لجنوح المسئول عادة بالابتعاد عن الساحل لضرورات أمنية ، وثمة بالطبع حالات خاصة تختلف عن ذلك كمدينة المهدية الفاطمية قرب تونس ، التى بنيت على شبه جزيرة متطاولة تتصـــــل بالبر بعنق ضيق ٠

واختيار موقع كهذا يظهر حرص مؤسس المدينة على تأمين عامل الأمان ٠ أما غالبية المدن التى انشأت فكانت تقوم اما على تقاطع عدة طرق تجارية داخلية فتكون صبغتها الغالبة تجارية ، واما أن تقوم فى سفح جبل ضمن واد خصيب وهذا يستدعى كون المنطقة فى العمق الآمن من ديار الأمة لضعف اعتبـارات الأمان فى وضعية كهذه ٠ وثمة حالة أخرى هى اختيار موقع وظيفى بحت لتأمين بناء عاصمة يمكنها الاشراف على البلاد بشكل مفيد فعال الى جانب تأمين الشروط الأساسية الأخرى للموقع ٠ كحالة مدينة القاهرة التى اختير موقعها كعاصمة ادارية للسلالة الفاطمية الحاكمة فى مصر ٠ كما نجد أيضا مدنا تنشأ فى شروط وظروف هى ذاتها متناقضة مع الشروط النظرية المتعارف عليها ٠ كما فى المستوطنات والمدن الصحراوية ذات الشروط المناخية القاسية والامكانيات الحيوية المحـــدودة كما فى مدن جوف حضرموت ، مدن الجوف فى الجزيرة العربية ومدن الأودية فى (شمال افريقية)

كما في وادي المزاب (وادي المزاب) (غردايا - بني اسغين - بونورا مليكة) ، وهي مدن نشأت في قلب الصحراء لدواعي أمنية ، وأعتمدت لاستخدام التكنيك البسيط المتوفر والحذاقة البشرية في حل مشاكل اعداد المناطق الزراعية وتأمين مصادر دائمة للمياه ، وهنالك أمثلة رائعة في الصحراء الجزائرية والمغربية ، تدل على التكامل والانسجام الكامل بين الانسان وبيئته الطبيعية الحياتية ، وذلك في شروط جدية في صعوبتها وعدم ملائمتها ويلجأ في ظروف كهذه غالبا لتقليص المساحة المبنية للمدينة الى الحد الأدنى · مدينة بني اسجين - ، من أجل زيادة المساحة الزراعية للحد الأقصى ، أو البناء على هضبة صخرية ، وهذا ما يستدعي تطوير أساليب خاصة في العمارة والبناء نرى معه ظهور البيوت العديدة الأدوار التي بلغ أحيانا الست أو العشرة أدوار ، (وهي صيغة بديلة هنا عن بيت العائلة الكبير ذو الصحن الداخلي ، الذي يجمع كافة أفراد العائلة من أدب وأبناء وأحفاد ، وهو الطراز الأساسي الذي يميز البيئة الحضرية الاسلامية ذات المناطق الحارة الجافة) وتلك طرز أخرى نموذجية بمناطق اليمن وجوف حضرموت ، وجوف الصحاري المغربية (القصبات والمستوطنات الصحراوية بالمغرب) · قصبة مراكشية جنوب الصحراء الكبرى ·

● أما العامل الأساسي الاخر الذي يميز المدينة في البيئة الحضرية الاسلامية فهو بنيتها الاجتماعية ، التي تتكون في غالب الأحيان من جملة من المجموعات البشرية المختلفة الأصل واللغة ، أو في حالات أخرى والدين أيضا ، مما يشجع على نشوء الأحياء المغلقة جزئيا تجاه بعضها البعض ، وازدياد استقلاليتها الداخلية ، وكذلك ظهور الضواحي التي تسكنها أقليات عرقية أو دينية متجانسة أو حديثة الهجرة الى المدينة (كأحياء الملة) على تخوم المدن المغربية ، وأحياء الحاضر في مدن المشرق·

واذا دققنا النظر في النسيج الاجتماعي الحضري للحي نجده عموما يحترم خصائص البنية القبلية (بغداد) وفي حالات معينة نجد التركيب الاجتماعي للمدينة متجانسا بشكل كامل اجتماعيا ودينيا ، مما يفسر أحيانا طبيعة نشوء تلك المدينة ، كما هو الحال في مدن وادي لمزاب في الجزائر مثلاً (حيث ينسب السكان الى هجرة مجموعة من الخوارج لجأت الى الصحراء من ملاحقة السلطة) وتبقى الخلية الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الحضري المديني هي العائلة الكبرى ، والتي تفرض بنيتها وتركيبها وطبيعة العلاقات التي تحكمها على كل المعايير والنظم المتبعة في المدينة ، ويبقى تسلسل الفراغات العامة التي تتحول الى أخرى نصف خاصة فخاصة، فراغيا وتخطيطيا هو النتيجة الطبيعية لبنية الحارة الصغرى الخلوية ، المؤلفة من

تجمع ثلاثة أو أربعةبيوت (أو عائلات متناسبة أو متجاورة فيما بينها) مما يشكل بالتالى بتجميع عدد من الجارات الحى الكبير ، أو العشيرة ، فقطاع المدينة وهكذا ٠

وكما أسلفنا ، تبقى البداوة باحتكاكها المستدر المتنوع الأشكال مع الحيـــاة المدنية فى الحضر (أحياء الحضر أو الحاضر على تخـــــوم مدن المشرق) العامل الديناميكى المؤثر فى توسع أو تطور أو انهيار المدينة ، والحفاظ على طبيعة بنيتها الاجماعية ، وهى فى جوهرها قبلية تجتمع على مبدأ العصبية ٠

● الخصائص التخطيطية العمرانية :

ــــ البنية التشريحية للمدينة :

تتكون المدينة فى البيئة الحضرية الاسلامية وفق عملية نمو وامتداد عضوى للخلايا الأساسية العمرانية ، ويغدو ذلك بالتالى مع التطبيق المتكرر أسلوبا ذا تقاليد ومعايير معينة ، ويعرف بتسلسل نموذج للفراغات العامة والخاصة ٠

الفراغ العام والفراغ الخاص :

ان البنية الفراغية الفيزيائية للحى وبالتالى للمدينة ككل تشكل سلسلة مترابطة من الفراغات المتكاملة ونظم التوسع والامتداد العضوى فراغيا ، بشكل ينسجم مع البنية الاجتماعية الخاصة للحى والمجتمع المدينى القائمة على روابط عشائرية أو طائفية أساسها العائلة الكبرى ٠

ويتكون الفراغ الخاص فى الحى من الصحن الداخلى لكل وحدة سكن ينتقل بعدها الى الحيز الذى يجمع مداخل عدة بيوت (الحارة ، أو العطفة) ويعتبر فراغ نصف خاص (العطفة أو الحارة فى مدينة تونس مثال الفراغ نصف الخاص/نصف العام ـ يختص بالعائلات المتجاورة فقط ننتقل بعدها الى الطريق الذى يوصل مجموعة أبنية الى الدرب العام والدعو الدريبة وهو بداية الفراغ العام الذى يتصل بالدروب العامة التى تصب بدورها بالقصبات الرئيسية الموصلة لسوق المدينة وبواباتها مارا بالعديد من الساحات الصغيرة والأبنية العامة ومساجد الأحياء والسوق ، ويتغير عرض هذه الطرق فى مسارها باستمرار مما ينسجم مع طبيعة استعمالها ، وتكون هذه المجموعة من الطرق المتنوعة شبكة متفرعة مرتبطة ببعضها عضويا تقوم على تسلسل معين يحرمه الجميع وهو لذلك وظيفى يؤمن كامل حاجات المجتمع الاسلامى الحضرى فى مرحلة ما قبل الصناعة ٠

وتحدد مسارات شبكة الطرق هذه وأبعادها بطريقة تعيين استعمالات الأراضى وشكل ملكية الأرض والعرصات المعدة للبناء ، وكذلك بطريقة تأمين أو فرض اقامة الخدمات والمصالح العامة ، واجماع أهل الحى على أساس المنفعة المشتركة بحكم السلطة المخولة للقاضى أو المحتسب وتحت اشرافهما • ويشكل نظام الأوقاف الاسلامية (ويدعى الحبوس فى المغرب الأقصى) من أهم العوامل والنظم الاقتصادية التى ساهمت فى تطوير وتوسع المدن الاسلامية ، خاصة القسم المركزى من المدينة (السوق) والمنشئات التعليمية والتجارية والدينية •

— التوجيه والتهوية :

تجرى فى العادة اقامة المدن والمستوطنات بشكل يتيح أكبر قسط من التعرض للشمس والتهوية الصحيحة مما يؤثر مباشرة على توجيه صحن البيت (الخلية المكونة) نفسه ويلعب الصحن الداخلى للبيت وللابنية الأخرى وخاصة فى السوق (مساجد ، مدراس خانات أو وكالات •• الخ) ، دور رئات تنفس للمدينة وينشط حركة الهواء داخل الأسواق المغطاة •

— الأقسام الأساسية للمدينة :

تتألف المدينة من الأقسام والعناصر التالية والتى تشترك بها معظم المدن الاسلامية •

— المسجد الجامع :

ويعتبر المؤسسة الروحية الفكرية الأساسية التى تنظم حياة المدينة اجتماعيا وفراغيا • وهو أهم نقطة علام للمدينة وعقدة المواصلات تمر بقربه أو حوله كما أنه يعد المركز المتعدد الوظائف بالنسبة للجماعة الاسلامية والمدينة فهو يلعب :

- وظيفة روحية •
- وظيفة سياسية •
- وظيفة ثقافية تعليمية •
- وظيفة اجتماعية حيث يقوى العلاقات فى الجماعة •

منشآت الدفاع : الأسوار والقلعة ، وهى مسئولية السلطة وكافة أفراد الجماعة وعليهما مهمة اقامتها وصيانتها وترميمها •

— الأحياء السكنية : وتتألف من الأحياء داخل الأسوار وهى الأصلية وتميز السكان الأكثر أصالة ونسبا وغنى وفيها تتمركز الارستقراطية الوطنية ، وأخرى خارج اسوار ويسكنها المهاجرون لاحقا أو البدو حديثى التوطن · كما تحتوى على الصناعات الملوثة للبيئة وبعض تجـــارة الجملة ومشـــاغل الغزل والنسيج · (القيسريات الانتاجية) ·

والحى هو المؤسسة الاجتماعية الاقتصادية القاعدية فى المدينة ويشكل كتلة فيزيائية مستقلة داخل المدينة تكون وحدة ادارية وظيفية مستقلة ·

— السوق المركزى :

وهو الكتلة الفيزيائية الأساسية فى هيكل المدينة لها بنيتها المتميزة ومقياسها الخاص ، وهى المعادلة لمركز المدينة فى المفهوم الحالى · وتضم العناصر التالية :ـ

— الأسواق المغطاة ·
— الخانات التجارية (أو الوكالات ـ الفنادق) ·
— القيسريات ·
— مشــافى ··
— مساجد ومدارس ·
— حمامات وسبل ماء نموذج السوق المركزى بمدينة تونس القديمة ·

الفراغ العام الترفيهى والمساحات الخضراء :

لقد اشتهرت بعض المدن الاسلامية وخاصة المغربية منها بالتركيز على انشاء الحدائق والرياض على التخوم المرتفعة المحيطة بالمدينة أو فى جزء مجاور يضم اليها، وأبرز ما يعبر عنها هى الحدائق والرياض الملحقة بالقصور الأميرية والملكية أو المعدة للجماعة وللاستعمال العام بقربها كما فى شـــاليمار باغ فى لاهور أو فى حدائق آل اغيـــدال فى المغـــرب (مراكش مكنـــاس ، فاس) (حدائق الأغيدال فى المدن المغربية مثال : مراكش ، مكناس) لاحظ نسبة الحدائق الى مسطح المدينة والروضة الخاصة التى توجد فى الصحن الداخلى لكل بيت تقريبا هى تقريب الطبيعة للانسان داخل بيته (شكل ٢٠) الروضة (الحديقة) داخل المنزل فى المدن الغربية ،

● ظهور التاثيرات الأوربية والعلاقات الصناعية :

لقد بدأت أولى بوادر الاحتكاك بين المغرب والكبير ودوائر النفـوذ السياسية

الاقتصادية الأوربية منذ حوالى منتصف القـرن المـاضى · وتزايدت تبـاعا بشكل مضطرد بعد قيام فرنسا باحتلال مناطق المغرب الكبير واحدة بعد الأخرى ، فكانت الجزائر ثم تونس فالمغرب · وقد عمدت سلطة الاحتلال منذ البداية الى تشجيع تهجير وتوطين مواطنيها فى الاقاليم الساحلية الزراعية الخصبة واقامة بعض الصناعات فى تلك الاقاليم ، وقامت بنفس الوقت بفصل معالجة المواضع المختلفـة للتطوير العمرانى للمدن والمستوطنات الحديثة واحياء التوسع بين مناطق الاستيطان الأوربية والمناطق السكنية الاسلامية للوطنيين · وكان هنالك خطان متباينان فى معالجة كل من الشقين · وتشكل السياسة التى اتبعتها سلطة الاحتلال الفرنسية فى المملكة المغربية مثالا للافكار والخطط التى جرى تخطيطها وتجربتها فى جميع مناطق المغرب الكبير وفى فرنسا أيضا ·

لقد كان من أول أهداف سلطة (الحماية) منذ اعلانها فى عام ١٩١٢ هو زاحة مركز الثقل الاقتصادى ـ السياسى من الداخل الغير مأمون جانبه بالنسبة للاوربيين وللعسكريين باتجاه الشريط الساحلى على المحيط الاطلسى · وكان أول اجراء اتخذه المارشـال Lyautey هو اعلان نقل العاصمة الادارية من فاس الى الرباط على ساحل المحيط والبدء ببناء أكبر ميناء بحرى فى أفريقيا فى مدينة الدار البيضاء لتصبح المركز الاقتصادى الأول فى البلد · كما قد شرع ببناء سلسلة من المستوطنات الصغيرة على ساحل المحيط تبعد عن بعضها مسافات تتراوح بين ٣٠ ـ ١٣٠ كم ، بالاضافة الى مركز حضرى اخر تطور لمستوى مدينة ليلبى حاجات القيادة العسكرية (القنيطرة Port-Lyautey) · وقد نجح هذا وبفترة قصـيرة بتحقيق مركزية اقتصادية بشرية قوية ترتكزت على الشريط الساحل حيث نشطت المستوطنات الأوربية وتكثفت المشاريع الصناعية ، وأزيح مركز الثقل العام فى البلد بالفعل بوقت قصير باتجاه الساحل (وهى ظاهرة صاحبت كل التطورات العمرانية الاقتصـادية التى شهدتها منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا منذ القرن التاسع عشر وحتى حصول كل من بلدان المنطقة على استقلالها) · وقد استعيض بذلك بالنسبة للمغـرب عن النظام التقليدى القائم على أساس الاستقلالية الاقليمية فى عواصم اقليمية تقليدية هامة (فاس ، مراكش ، مكناس ، الرباط ، ساله) · وقد أقيمت الطرق الحديثة لربط الشريط الساحلى بالداخل لسهولة ادارته والسيطرة عليه ، كما عمـد الى اقامة مستوطنة أوربية صغيرة الى جانب كل من هذه العواصم والمدن الرئيسية التقليدية ، مع التركيز على ترك مساحة فاصلة كافية تفصل المسـتوطنة الأوربية عن المدينة المحلية ، تملأ اما بمعسكرات الجيش أو بمشاريع ومنشآت صناعية ، (ظهور المدينة الأوربية الى جانب المدينة القديمة ·

وأما الاجراء الثانى الذى اتخذه Lyautey فكان محاولة المحافظة على التراث الحضارى والفنى الوطنى مع ابراز كل الظواهر المختلفة للمجموعات السكانية المتباينة لغويا أو دينيا (عرب - يهود الخ) وتضمين ذلك الاجراءات التى ستتخذ فى مواضع تنظيم المدن القديمة (من الحفاظ على بعض الابنية الأثرية) • والاجراء الثالث كان الايعاز بتطبيق احدث النظريات والطرق المستحدثة فى تنظيم المدن لدى بناء المدن الجديدة للاوربيين • وفى المناطق المتاخمة للمدن الوطنية القديمة اختارت السلطة الفرنسية أراضى الأوقاف وأملاك الدولة التى تبعد بين ٢ - ٣ كم لتقيم عليها المستوطنات الأوربية وذلك لتحقيق هدفين :

- أولا منع حدوث مضاربات بأسعار الأراضى لامكانية استملاكها بسهولة ومن ثم توزيعها حسبما تراه السلطة •
- ثانيا تحقيق فصل كامل بين المستوطنة الأوروبية والمدينة الاسلامية ، كما أمكن تحقيق ذلك فى النواحى التخطيطية والفراغية العمرانية أيضا •

ولقد تمت دراسة مشاريع اسكان للاوربيين وأخرى للمسلمين أو الوطنيين • ان النتيجة الحتمية لكل من تلك الاجراءات والتطورات هى حدوث هجرة مستمرة متصاعدة للفلاحين من قراهم الى المراكز الصناعية والحضرية الجديدة على الساحل ، حتى لقد وصل تركيز السكان هناك نسبة أكثر من ٤٠٪ من مجمل سكان البلد فى ١٪ تقريبا من المساحة الاجمالية •

وبالطبع فان هجرة اليد العاملة للقطاع الصناعى تولد مشاكل نموذجية معروفة فى العالم الصناعى • وفقا لهذا المنطق ، فقد بدأت تجمعات الأكواخ (آل Slums وال Bidonvilles بالظهور على مشارف المدن الصناعية (الدار البيضاء فى المغرب ، وتفاقمت المشاكل الاجتماعية والعمرانية والصحية وأصبحت هنالك ضرورة ملحة لاتخاذ مواقف واجراءات عملية ، فصدر أول تشريع عمرانى فى البلاد عام ١٩١٤ (كأداة تطبق لضرورة العمل العاجل لكبح وثيرة التوسع العمرانى ، الحاد للمدن) • وكان الهدف من ذلك وضع مخططات تطوير وتوسيع لمدن بكاملها ، أو لعدة مناطق يحدد بموجبها اتجاه ، عرض ومقطع الشوارع ، وأبعاد وتجهيزات الحدائق والساحات والمناطق الخضراء مع بعض الاجراءات المتممة للناية بالصحة العامة وتجميل المدن •

وفيما بين سنين ١٩١٥ - ١٩٣٠ جرت محاولات لتطوير مشاريع اسكان حديثة للوطنيين جرت فيها تطوير شكل المستوطنة الاسلامية التقليدية : (شكل ٢٥) مشاريع

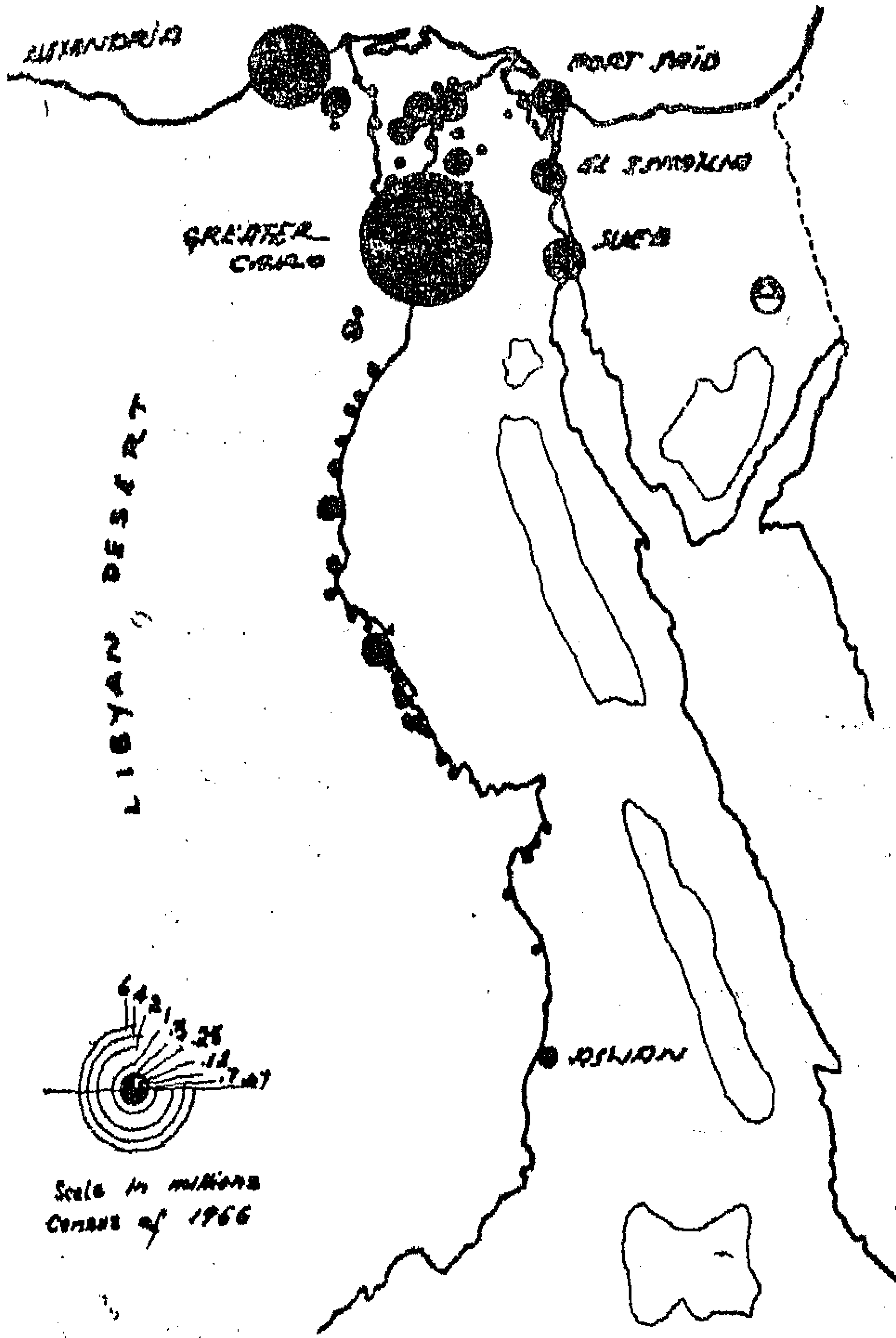
سكن ، للوطنيين بالمغرب ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية وما بعدها بدأ تيار أخر قوى من الهجرة الاوربية يتدفق الى المغرب الكبير مما جعـــل الوضع الايكولوجى للوطنيين يتفاقم وتضخمت المدن وخاصة الدار البيضاء بالسكان أختنقت بأحيـــاء الأكواخ الخشبية الفقيرة Bidonvilles الى أن ظهرت أفكار جديدة باعتماد أسلوب واعادة توزيع الخارطة الاقتصادية الاجتماعية · وكان ذلك بمبـــادرات حكومية ، الى جانب محاولة تحسين بنية أحياء التجمعات العمالية الفقيرة ·

ان ملامح التطور العمرانى الاقليمى هذه هى نموذجية بالنســـبة لكل بلدان العالم الثالث بنسب متفاوته من القدرة أو عدمها على مجابهـــة مهماتها ، الا أن الخصوصية الملحوظة فى أمثلة شمال افريقيا هى التالية ، فبالرغم من أن النفوذ الأوربى فى منطقة المغرب بدأ قبل بداه فى المشرق بمدة طويلة ، الا ان النتائج المنبثقة عن ذلك والتى تترك آثارها فى البيئات الشعبية على الصعيد الاجتماعى الاقتصادى وبالتالى العمرانى ليست متناسبة ، اذ نجد أن الأثر الذى تركته فترة الحكم الأوربى فى المشرق (حوالى ٢٥ عام) أعمق وأقوى أثرا منها عند أهل المغرب ، فاذا أخذنا قطاعات الحرف اليدوية والصناعات التقليدية ، وحتى صناعة البناء التقليدية فاننا نجد مستوى تدهورها أو حتى تحطمها نهائيا أقوى منه بكثير فى بلدان الشام ومصر منه فى المغرب ، الذى لازالت فيه الكثير من الصناعات والحرف التقليدية مزدهرة ولازال الطلب عليها فى مستوى معقول ليس فقط لدواعى سياحية ، وانما لوجود شرائح اجتماعية معينة لاتزال تتهافت فى الطلب عليها ، وتتمسك بأسلوب الحياة الاسلامية ·

ومن ناحية أخرى ، نلاحظ وعلى الصعيد النفســـــانى الاجتماعى أن معدل الازدواجية الثقافية والحضارية أعلى منه فى المشرق عنه فى المغرب بشكل عام ، وذلك على الرغم من التخريب المنظم الذى مارسته برامج محاربة اللغة العربية فى المغرب لسنين طويلة ، ودخول عنصر اللغة الفرنسية فى اللهجة المحلية ·

واذا عكسنا هذه الصورة على الوضع العمرانى للمدينة القديمة فى كل من المشرق والمغرب نجد أنها فى المشرق فقدت سكانها الأصـــليين والجاذبية اللازمة لاعتبارها بيئة سكنية ذات طبيعة معينة رغم التحسينات الأساسية التى ادخلت عليها (كهرباء ــ ماء ــ تليفون) كما أننا نلاحظ تغيرا مستمرا فى طبيعة استعمالات الأراضى والابنية الموجودة والتى تتحول بسرعة الى مشاغل ميكانيكية ، ومعامل صـــغيرة لصناعات تحويلية خفيفة ، أو أن المدينة تجتذب عددا من القرويين المهاجرين أملا فى الحصول على عمل ، أو النازحين من مناطق القتال على الحدود لتوفر المأوى فيها ·

القاهرة ٠٠٠ كمدينة عاصمة مصر ٢/٤



● القاهرة ـ أقدم مدينة عرفها التاريخ وأعظم متحف حضارى فى العالم يضم جميع حضـــارات العصـــور التى عايشتها والتيارات التى مرت بها : جمعت بين تيارات التاريخ وهى الصراع والحركة والتغيير وبين حضـــارات التاريخ وهى الحضارات المصرية القـــديمة ـ الفـــرعونية ـ والاغريقية والرومانية والمسيحية والاسلامية وحضارة العصر الحديث ٠

كيف كانت٠٠وقبل أن تكون٠٠وكيف أصبحت القـــاهرة عمرها أكثر من ٣٠ ألف ســـــنة

القاهرة ٠٠٠ ماضيها وحاضرها ومستقبلها

القاهرة عمرها أكثر من ٣٠ ألف سنة :

● عمر القاهرة ، هو عمر الحضارة الانسانية ٠٠ لقـــد اكتسبت مكانتها وتأثيرها على مختلف الحضـــارات ، وتأثرها بمختلف المدنيات ، بفضـــل موقعها الاستراتيجى الذى اختاره لها أهل مصر منذ فجر الحضارة وشروق المعرفة وعن طريق خطوات الاستقرار والترسيخ الحضارى ، فأثبتت شخصيتها المتفردة القوية عبر تاريخها الطويل ٠

لقـــد تميزت القـــاهرة التى امتـــد عمـــرها الى خمســين قرنا من الزمان عن بقية العواصم التاريخية القديمة بصفة الاستمرار ، فشكل تطورها سلسلة متماسكة الحلقات نسجت مراحل تطورها وتخطيطها وتعميرها الـــذى كتب قصـــة تاريخها

الواقعى ، لم يتغير منها خلاله سوى اسمها الذى تغير مع موجات الفتح والانفتاح ٠

بقيت جذورها خلال ذلك الطريق الطويل ثابتة فى مكانها أو فى أرض نشأتها رغم استمرار فروعها فى الامتداد والانكماش ، مما أكد أصالة جذورها وعراقة فروعها مما يفسر تسمية مؤرخى العرب لها « بأم الدنيا » ـ و « تاج البرية » و « مدينة المدن » و « المدينة المحروسة » و « حاضرة الدنيا » ٠

● لقد أجمعت المراجع التاريخية عن الحضارة المصرية ان أول عاصمة لمصر كانت « أون » أول عاصمة لوحدة القطرين أو عاصمة البلاد الموحدة القطرين وكان ذلك فى عهد ما قبل الأسرات أو ما أطلق عليه عصر النقادة الثانية عام ٤٢٤٠ ق٠م٠ وهى الوحدة السياسية التى كان أبطالها من أهل الدلتا وأطلق عليهم فى برديات تورين وحجر بالرمو بأنصاف الآلهة عبدة حورس ٠

وكانت « أون » أو هيليوبوليس وهو الاسم الذى أطلقه عليها الاغريق ومعنى كلمة أون مرصد أو برج رصد الشمس وقبة السماء وقد حرفت أون الى عين وأضيفت اليها شمس اله المعبد فأصبحت عين شمس ٠

ولا يعتبر ذلك التاريخ هو تاريخ نشأة مدينة أون فقد كانت فى ذلك الوقت مدينة متكاملة تمتد من أرض النعام بالمطرية التى كانت بها الغابات المقدسة التى تحوى أشجار البلسم وأخشاب البخور ويربى بها النعام المقدس وما زالت تحتفظ باسمها الى الآن ثم منطقة هيليوبوليس أو مرصد أون التى كانت تحوى أكبر جامعة وتمتد الى منطقة المعادى التى كانت تحوى أحد المناطق السكنية والادارية وتمتد الى حل أون أو جنوب أون والتى حرف اسمها الى حلوان الحالية ٠

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد العصر الذى أنشئت فيه مدينة أون القديمة فنسبها البعض الى العصر الحجرى القديم بالنسبة الى حفريات حلوان والمعادى أى فى عصر النقادة الأولى والعصر العمرى الذى يرجع الى ٦٠٠٠ سنة ق٠م٠

من تلك العاصمة ٠٠ خرج أول مذهب دينى لتفسير الوجود ومنها خرج أول تقويم شمسى عرفته البشرية الذى حدد السنة بـ ٣٦٥ يوما وربع اليوم ومن جامعاتها تخرج أمحتب واخناتون وعلى يد علمائها تتلمذ أساطين الاغريق وعلماؤهم وفلاسفتهم ٠٠ ومنها نقلت المسلات التى تتوسط عواصم العالم الحديث كلندن ونيويورك وروما ٠٠

كما اعترف لها تاريخ المدن بأنها تميزت بالاستمرار وامتدت الى عدة مناطق

أخرى شمالا وجنوبا أو عبر شاطىء النيل الى الضفة الغربية ، ولكن مركز نشأتها أو نواة تكوينها بقيت مكانها ٠

ومن البديهى أن مدينة أون المتكاملة التى كانت تمتد بطول ٤٠ كيلو مترا لم تكن هى بداية نشأة المدينة أو تاريخ ميلادها بل كانت مرحلة من مراحل تاريخها الطويل الذى تمتد جذوره الى أبعد أعماق التاريخ والحضارة الانسانية ٠

● رغم أن وثائق بحوث تاريخ المدن قد حددت عمر كل عاصمة من عواصم العالم التاريخية القديمة ــ الا أن المنافسة والسباق بينها ما زال قائما فى مجال المؤتمرات الدولية حيث تحاول كل مدينة أن تثبت أصالتها وعراقتها بالرجوع الى شجرة العائلة وما ارتبط بها من أساطير وقصص ٠ وجذور الشجرة وما كشفه علماء الآثار من حفريات ، حتى تخطو بما يضعه لها الباحثون من أسس ونظريات جديدة لتقدير عمرها ٠

من بين النظريات التى وضعها أحد مؤتمرات تاريخ المدن الذى انعقد فى مدينة فينا قبل الحرب الأخيرة ، نظرية المعالم الحضارية الانسانية أو حفريات آثار التجمع الانسانى فى المدينة نفسها واعتبارها نقطة البداية فى تحديد تاريخ نشأتها ٠

واذا طبقنا تلك النظرية على أصل مدينة القاهرة بالرجوع الى الحفريات والبحوث التى سجلها كل من يوفبيه كابيير وفلاندريترى عن أصل الحضارة المصرية التى وجدت أقدم حفرياتها وأثر الحضارة بها فى ثلاث مناطق وهى حلوان والعباسية وعين شمس وترجع جميعها الى العصر البليوسينى أى ما يقرب من ٥٠ ألف سنة وتدخل تلك الحفريات الثلاث ضمن حدود مدينة أون الفرعونية القديمة وتعتبر وفقا لتلك النظرية أحجار الأساس التى تحدد عمر مدينة القاهرة ، وهو خمسون ألف سنة٠

اذا رجعنا الى جذور نشأة المدينة تاريخيا نجد أن أقدم مدينة ذكرت فى الأساطير الفرعونية القديمة كانت مدينة الاله الخالق عندما خلق أرض مصر المقدسة وأطلق عليها اسم (جب بتاح) أى (أرض الاله) وهو الاسم الذى أطلق على مصر فيما بعد، فذكر هيرودوت أن اسمها اجيتوس والتى تحولت الى Egypt فيما بعد ٠

وأقدم تاريخ مسجل للمدينة التى نشأت مكان مصر القديمة عندما أطلق عليها الفراعنة اسم حرى عحا (أى ميدان القتال) وترجع الى سنة ٤٢٢٥ ق٠م٠ وهى التى يبدأ من عندها تاريخ القاهرة ومراحل تطورها عبر التاريخ ٠

(+)

● حرى عحا (ميدان الحرب) ٤٢٢٥ ق٠م :

كانت مدينة عسكرية تحيط بها أسوار من الطـــوب النيىء وقد وضع قدماء المؤرخين بالنسبة لاختيار اسمها تفسيرا ميثولوجيا ارتبط بالأساطير الدينية القديمة وأسطورة الخلق ، فأطلقـــوا عليها اسم ميـــدان الحرب الذى قامت فيه المعركة بين حورس بن أوزوريس وست اله الشر الذي قتل اوزوريس ليمنع حورس من ارتقاء العرش ، وهذا التصور الميثولوجى يفسر أسطورة أنها كانت مدينة الآلهة كما يعبر فى الواقع عن معارك القطرين التى بدأت عام ٣٥٠٠ ق٠م ومعارك أهل وادى النيل مع البدو المغيرين من الصحراء الشرقية للوصول الى النيل والسيطرة على خيراته أو سلب سكانه ٠

وقـــد ذكـــر مؤرخـــو الاغـــريق أن اختيـــار ذلك الموقـــع لأول مدينة أو عاصمة فى مصر كان لاعتبارات استراتيجية جغرافية وحربية ، فهى تقع عند نيل الجنوب مع تفـــرع أنهار الدلتا أو نيـــل الشمال ، يحميها من ناحية الشرق جبـــل المقطم ، كما أن موقعها المرتفع يحميها من خطر الفيضانات ٠

٠٠٠ وهكذا كان أول اسم للعاصمة مصر أجيتوس الذى أصبح اسم الـــدولة بأكملها ، وما زالت كلمة مصر تطلق على القاهرة الى الآن ٠

● أما مدينة حرى عحا (حرى رع ٠ حا) ومعناها ميدان القتال وكانت تقع مكان مصر القديمة الحالية والتى حلت قلعة بابيلون وأسوارها محل أسوارها وهى المدينة التى انتصر فيها نارمر فى معركة وحدة القطرين الثانية والذى أطلق عليه اسم مينا أول ملوك الأسرة الأولى ، فكانت فى الواقع تعتبر المدينة العسكرية للدفاع عن أول العاصمة المقدسة ٠ واستولى نارمر عليها عام ٣٢٠٠ ق٠م٠ ومنها نقـــل عاصمة ملكه الى الضفة الغربية جنوب منف وأطلق عليها اسم الأسوار البيضاء (أنب حز) وأقام فى وسطها معبدا للاله بتاح وهو اله منف وقد بلغت هذه المدينة أوج عظمتها وازدهرت فى عهد ملوك الامبراطورية القديمة وامتدت الى أبو صير والجيزة وأبو رواش ٠ وفى عهد الأسرة السادسة ٢٤٠٠ ق٠م أنشىء حى جـــديد جنوب « الأسوار البيضاء » حيث انشأه الملك بيبى الأول وجعله مقر ملكه وشيد بالقرب منه هرمه الذى أطلق عليه اسم (من نفر) أى الجمال الخالد وانتقل ذلك الاسم ليطلق على المدينـــة بأكملها أى العاصمة وتطور ذلك الاسم الى كلمة منف بالقبطية والعربية ومنفيس باليونانية ٠

(+) القاهرة عمرها ٥٠ الف سنة
بحث للدكتور سيد كريم نشر بمجلة الهلال ١٢/١٩٧١

وقد تقهقرت مكانة منف قليلا فى عهد ملوك الدولة المتوسطة والامبراطورية الحديثة عندما أسسوا عروشهم فى طيبة وجعلوا منها عاصمة للبلاد وجلعوا أمون الها رسميا لها ٠

في عهد الأسرة العشرين كان معبد بتاح اله منف أكبر المعابد فى مصر ٠

لقد ترضت منف لكثير من أحداث التاريخ وما ارتبط بها من عوامل التخريب فوقعت فى أيدى بعانخى الأثيوبى ثم الأشوريين وذلك فى الحروب التى قامت بعد الأسرة الثانية والعشرين ٠ واستولى عليها قمبيز ملك الفرس بعد انتصاره على مدينة الفرما وتغلبه على بسماتيك الثالث عام ٥٢٥ ق٠م٠

وحافظت منف على أهميتها ومكانتها بعد تأسيس مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق٠م٠

وفى عهد تيودوسيس أصدر أمرا بتخريب معبد بتاح وهدم جميع التماثيل التى كانت تزين المدينة عام ٣٨٠ م ٠

كانت مدينة منف مقرا للمقوقس زعيم القبط عندما كان يتفاوض مع عمر بن العاص ٠

ثم نقل الفاتحون العرب مقر حكمهم مرة أخرى من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من النيل حيث أنشأوا مدينة الفسطاط مكان (حرى رع حا) وبابيلون واستعملوا الحجارة التى كانت فى مبانى عاصمة الدولة القديمة فى تشييد مساجدهم وقصورهم وقلاعهم ٠ وقد كانت منف تثير الاعجاب حتى أن أحد كتاب العرب وصفها بأنها كانت تحوى الكثير من العجائب التى يحار لها العقل ٠

● بابيلون ١٣٠٠ ق٠م :

قام بانشائها رمسيس الثانى واتخذت اسمها من أسرى البابليين الذين ثاروا عليه فبنى القلعة التى اعتقلهم فيها وسميت باسمهم ٠ ثم اطلق الاسم على المدينة بأكملها وقد وجدت بين أنقاض وحفريات الحصن بعض الأوانى والأدوات الحربية التى ترجع الى ما قبل الأسرات ، والتى يرجح أنها تعود الى حرى عحا القديمة ٠

وقد ذكر مانيتون أنه وجد بين انقاضها حجرا يحمل ختم مينا كما اشتهرت بابيلون فى العصر الرومانى فى عهد الامبراطور أغسطس ؛ كذلك قام الامبراطور

تراجان باعادة بنائها عام ١٣٠ ق٠م وحول الحصن الى مدينة عسكرية ٠ كما لعبت بابيلون دورا هاما فى العصر القبطى ، ويحتفظ حصن بابيلون بذكريات المسيحية الأولى فيضم بين أرجائه مجموعة من الكنائس أهمها كنيسة القديس سرجيوس التى لجأت اليها العائلة المقدسة عندما لجأت الى مصر ، وتعتبر أقدم كنيسة فى العالم المسيحى ، وكنيسة القديسة بربارة ، والكنيسة المعلقة التى أقيمت بين برجين رومانيين وكنيسة مار جرجس ٠ وفى بابيلون بدأ نظام الرهبنة فى المسيحية التى نقلها الأقباط عن الفراعنة وانتقلت من مصر الى مختلف أنحاء العالم المسيحى ٠

كما بدأ فى القاهرة أيضا نظام التصوف الذى خرج بدوره من مصر الى مختلف انحاء العالم الاسلامى ٠

● الفسطاط ٦٤١ م :

أنشأها عمرو بن العاص فى المكان الفسيح الذى يقع شمال حصن بابيلون ، وقد اتخذت الفسطاط اسمها من خيمة عمرو بن العاص التى أقامها فى وسط معسكره ويطلق على الخيمة اسم « الفسطاط » ، وتحكى قصة انشاء المدينة أن عمرو بن العاص عندما أراد أن يزحف بجنوده لاحتلال الاسكندرية وفك خيمته « وجد أن يمامة بنت عشها فوقها واحتضنتصغارها ٠ فتفاءل بوجودها وأمر بابقاء الفسطاط مكانه ورعاية اليمامة حتى تكبر صغارها وتكسو أجنحتها الريش ٠

ولما تم له الاستيلاء على الاسكندرية عاد الى معسكره فى بابيلون حيث ترك فسطاطه قائما وحوله خيام بعض الحرس ، فوجد أن المنطقة قد أصبحت آهلة بالسكان الذين بنوا مساكنهم وأكشاكهم ، فأمر بتخطيط المدينة لتكون عاصمة الاسلام بدلا من الاسكندرية واختار لها الفسطاط خيمته المباركة التى عششت فوقها يمامة الخير والبركة ٠

وفى وسط المدينة قام ببناء مسجده « أمام المساجد ومطلع الأنوار » الذى اشتهر بمناراته الأربع وهى أول مآذن عرفتها مساجد الاسلام ، كما كان به أول منبر فى مساجد المسلمين وعنه انتقلت المآذن والمنابر الى مختلف مساجد العالم الاسلامى التى بنيت فيما بعد ٠

وقد وصف الفسطاط مؤرخو العصور الوسطى بقولهم « وشوارعها مرصوفة مسلوكة ومنازلها فسيحة تتوسطها نافورات المياه والحدائق الداخلية التى انتقلت من

الفسطاط الى المغرب والأندلس فيما بعد · كما كانت المساكن ترتفع الى خمسة أدوار ووصل بعضها الى سبعة أدوار ، وربما سكن الدار الواحدة مائتان من السكان ، وكان بها كثير من الحمامات ونافورات المياه » ·

وقد تعرضت الفسطاط لكثير من عوامل التخريب كان آخرها حريقها المشهور عام ١١٦٨ م ·

العسكر ٧٥١ م :

عندما انتقل الحكم الى العباسيين أسسوا عاصمتهم فى مكان عـرف باسم الحمراء القصوى بجبل يشكر بالقرب من جبل المقطم فى الشمال الشرقى من مدينـة الفسطاط ، على الطراز العباسى حيث يتوسط المدينة « المسجد الجامع » وبجواره دار الامارة وثكنات الجند أو دار العسكر ومنه اتخذت المدينة اسمها وبنوا مساكنهم حول الثكنات تحيط بها مساكن الموظفين ·

القطـائع ٧٨٠ م :

مدينة العهد الطولونى التى أسسها أحمد بن طولون ويرجع اسمها الى نظـــام تخطيطها الذى نقله ابن طولون عن مدينة سامراء التى عاش سنين شبابه فيها · وهو التخطيط المتقاطع المكون من قطع سكنية كل منها لجماعة من السكان تربطهم رابطة أو طبقة أو مستوى واحد ، يطلق عليها اسم القطع ، ويتوسط المدينة مسجد ابن طولون الجامع الذى يعد من أكبر مساجد العالم وأروعها وتبلغ مساحته ٢٦٥٠٠ متر مربع واشتهر باسم الجامع المعلق اذ يصعد الى أبوابه بدرجات دائرية الشكل · وقد ذكر بض المؤرخين أن تصميم الجامع وضع بناء على رغبة ابن طولون ليكـــون مماثلا لمسجد الكعبة بمكة وأروقته ، وان تكون له منارة مشابهة لملوية سامراء ذات السلالم الحلزونية الخارجية ·

وقد حل جامع ابن طولون محل جامعة ابن العاص كمركز للثقافة الاسلامية ، كما أنشأ ابن طولون أول مستشفى فى منطقة البساتين ، واشتهرت المدينة فى عصر خمارويه بالانتعاش الاقتصادى والازدهار الفنى وما وصلت اليه من مظاهر التـرف والبذخ التى تجسمت فى المدينة وحياة مجتمعها التى وصفها مؤرخو العصور الوسطى بما يشبه ليالى ألف ليلة وليلة ··· وصفوا قصر خمارويه الذى كسيت جدرانه بألواح الذهب المزخرفة بالميناء والأحجار الكريمة ، وتتوسط حديقته فسقية ملأها بالزئبق

ونصب عليها مخدعه أو ارجوحة الهنا » ووصفوا أشجار ميدان الاستعراض التى تكسو جذوعها الواح النحاس المذهب والفضة وغيرها من قصص جهاز قطر النـدى بنت خمارويه وزواجها الى الخليفة العباسى وانعكاس الأفراح والأعيـاد على المدينة ومجتمعاتها ٠

● قاهرة الفاطميين : (قاهرة جوهر الصقلى) ٩٦٩ م :

اتخذت اسمها من « النجم القاهر » الذى بزغ فى ســــمائها عند وضع حجر أساسها ٠ تبلغ مساحتها ٣٤٠ فدانا بنى حولها سور من اللبن مربع الشكل تقـــريبا، طول كل من ضلعيه الشمالى والجنوبى ١٥٠٠ ذراع وضلعيه الشرقى والغربى ١٧٠٠ ذراع وبكل ضلع من أضلاع السور بوابتان فالضلع الشمالى يواجه الأرض الفضـاء والمزارع به بابا النصر والفتوح، والشرقى ويواجه المقطم وبه بابا البرقية والقراطين، والجنوبى ويواجه الفسطاط عند باب الخلق وبه بابا زويلة (المتولى) والفرج ، والغربى ويواجه الخليج وبه بابا القنطرة سعادة ٠

وبدأت المدينة كمدينة عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومســـاكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ٠ وفى سنة ٩٧٣ أى فى العام الرابع من انشائها تحولت الى عاصمة الخلافة الاسلامية عندما انتقل اليها المعز وأسرته من المغرب واتخذ مصر موطنا له وأطلق عليها قاهرة المعز ٠

وفى قاهرة الفاطميين انشىء الجامع الأزهر ليكون المسجد الرســـمى للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، وقد تحول الى جامعة اسلامية حلت محل جامعة عمرو بن العاص ، وبفضله أصبحت القاهرة عاصمة الثقافة الاسلامية فى العـالم الاسلامى خلال ألف عام ، وكان للازهر بجانب مكانته العلمية أهميته الرسمية ، فكان مركز قاضى القضاة ، ومركز المحتسب العام وفيه تعقد مجالس الشورى والمجـالس السياسية والخلافية والقضائية ٠

وبانتقال العمران الى القاهرة الجديدة حول سورها الأول وداخل سورها الثانى الذى أقامه بدر الجمالى عام ١٠٩١ م ـ أخذت الفسطاط فى الزوال وهجرها سكانها لتعمير المدينة الجديدة والاحتماء خلف أسوارها حتى اختفت تماما وقت الصـليبيين ولم يبق منها سوى انقاض مبانيها ٠

● قاهرة صلاح الدين ١١٦٦ م

خرجت القاهرة عن نطاق أسوارها القديمة وامتد تخطيطها ليصل الى القلعـة

التى شيدها صلاح الدين وأحاطها بسور دفاعى جديد ضم عواصم مصر الاسلامية الأربع السابقة وقلعة الجبل المنطقة مصر العتيقة وأثر النبى جنوب الفسطاط ، ومن أشهر المعالم المميزة لقاهرة صلاح الدين قلعة الحصن التى أنشأها مكان قبة الهواء التى بناها العباسيون فى مدينة العسكر • وقد اتخذت القلعة مقرا للملك ودارا للحكم فى مختلف العصر التى تلت حكم الأيوبيين حتى عصر قاهرة الاسماعيل حيث نقل مقر الحكم الى قصر عابدين •

ومن المعالم التى ما زالت قائمة سواقى عيون بئر يوسف وقناطر مجرى المياه التى تحمل المياه الى القلعة التى عهد بانشائها الى الأمير قراقش الذى اشتهر فى القصص الشعبى بقسوته •

لقد ذكر مؤرخو تخطيط المدن الدفاعية أن صلاح الدين قد أخطأ فنيا فى اختيار موقع القلعة الذى يقع تحت مرمى جبل المقطم مما يسهل حصارها والاستيلاء عليها بضربها من جبل المقطم وهى الثغرة التى استغلها محمد على باشا فى الاستيلاء عليها بعد ما حطم وسائل دفاعها ••

لقد مرت القاهرة بعد حكم الأيوبيين خلال أكثر من عهد من عهود الحكم المتباينة ، لم يكن لها أثر فعال فى تاريخ المدينة وتطورها حيث تركزت معالم التغيير فى طراز العمارة ونوع المبانى ، يذكر التاريخ منها قاهرة السلطان سليم ١٥١٧ م وطرد المماليك وبداية حكم الأتراك وحملة نابليون ١٧٩٨ م التى انتهى بها حكم الأتراك ومهدت لحكم محمد على •

- **قاهرة محمد على ١٨٠٥ م**
  (عصر النهضة)

اشتهر عصر محمد على باسم عصر النهضة لارتباطه بعصر النهضة فى أوربا وأثرها فى تطور العمارة وتاريخ المدن ، لذا فقد وجه برنامجه الاصلاحى والعمرانى نحو الثقافة والتصنيع والانفتاح على الغرب ، فعمل على تبادل الثقافة ببناء دار للبعثات المصرية فى باريس قدمت عشرات من الخبراء المصريين فى مختلف العلوم والفنون فكانوا نواة النهضة الثقافية والتعليمية فى مصر التى أنشأ لها مختلف المعاهد والمدارس والمصانع فى أنحاء البلاد •

وكان من نصيب القاهرة أول مدرسة للمهندسخانة وأخرى للحرف والصناعة بالقلعة ، ومدرسة للطب البشرى ، مستشفى للتدريب بالخانقاه ، والمدرسة

العسكرية ، ومدرسة للزراعة بشبرا ، وأخرى للطب البيطرى ، ودار للطباعة ودار للصناعة فى بولاق ، ودار الضرب (سك النقود) التى اشتهرت فى العالم أجمع بدقة صناعتها ، ومدرسة الزخرفة وحرف البناء ٠

كما أقام فوق قمة المقطم قلعة الجبل لتحل محل قلة صلاح الدين فى الدفاع عن القاهرة ، وأقام بجوارها ثلاثة مصانع للسلاح والذخيرة ، كما شهدت القاهرة تطورا فى بناء المساجد عندما شيد محمد على مسجد القلعة الذى بنى على غرار مسجد السلطان أحمد بالاستانة ومن مساجد ذلك العصر المشهورة مسجد بولاق ومسجد الخطباء ومسجد المدرسة العسكرية بالخانقاه مسجد شبرا ٠

واشتهرت قاهرة محمد على بالقصور التى أقيمت داخل القاهرة وداخل القلعة نفسها ، وفى مختلف أحياء المدينة وخارجها ، وقد أحضر لتلك القصور مجموعة من الفنانين والاخصائيين والعمال المهرة من فرنسا وايطاليا وتركيا واشترط أن يعين مع كل فنان أو خبير أجنبى أربعة من المصريين يعملون معه ويتعلمون منه المهنة ليحلوا محله بعد انتهاء مهمته ، واشترط أن يقيموا معه أثناء العمل وخارجه طوال مدة اقامته فى مصر ويقوم كل اخصائى بعمل امتحان لطلبته ومساعديه فى مدرسة الحرف والفنون واعطائهم شهادة تؤهلهم لمزاولة المهنة ٠

ومن القصور التى أقامها محمد على وكانت عنصرا مميزا للقاهرة قصر الجوهرة ، وقصر القبة ، وقصر الحرم بالقلعة ، وقصر المغارة بالروضة ، والقصر العالى ، وقصر الخرنفش (البكرى) ، وقصر الأزبكية ، وقصر شبرا ، وقصر النيل (قشلاقات قصر النيل) ، عشرات القصور التى بناها للعائلة والأعيان أمثال قصر طوسون ، وقصر طاهر ، وقصر شريف ، وقصر الدوبارة ، وقصر الوالدة ٠

- **قاهرة اسماعيل (باريس الشرق) ١٨٦٢ م :**

تعتبر قاهرة اسماعيل فى نظر علماء تخطيط المدن وتاريخ تطورها من أعظم المشروعات العالمية التى تمت فى ذلك العصر لما اشتملت عليه من دراسات فى التخطيط والتعمير الشامل ومعجزات فى اخراجها الى حيز الوجود ٠

كانت القاهرة عندما تولى اسماعيل باشا عرش مصر تمتد من منطقة القلعة الى ميدان العتبة والأزبكية ، وكان يفصلها عن النيل مجموعة من البرك والمستنقعات والتلال والمقابر ٠ وكان الانحلال العمرانى قد بدأ يدب فى كثير من أحيائها السكنية المقفلة ٠

كان الحافز الأساسى لاهتمام اسماعيل باشا بتخطيط مدينته الجديدة حملة الدعاية التى قام بها كتاب الغرب عندما تولى اسماعيل باشا الحكم ونادى بأن القاهرة قطعة من أوربا فوصفوا القاهرة بقولهم :

«خير لك أن تسمع عن القاهرة من أن تراها» كما وصفها البعض بأنها «عاصمة الباعوض التى يعيش زائرها طوال العام تحت الناموسية» ٠

ومن يشرب من ماء النيل مرة يعود الى بلاده ليعالج مما حمله معه من أمراض» وقد اتفق ذلك مع انتشار حمى الملاريا التى فتكت بالمئات من سكان القاهرة وانتشار الحمى المعوية كما كانت مياه خزانات المجارى تطفح فى الشوارع والميادين فيضع الجمهور قوالب الطوب ليمروا فوقها ٠ فقام اسماعيل باشا بوضع تخطيط القاهرة الجديدة الذى أطلق عليها كتاب الغرب اسم « باريس الشرق » وذلك لتأثر تخطيطها فى كثير من نواحيه بالتخطيط الجديد الذى وضعه المهندس هاوسمان لباريس ، وقضى فيها اسماعيل باشا أيام شبابه ودراسته ٠ لذا فقد قام المهندس النمساوى الذى كلف بتخطيط القاهرة بنقل الكثير من عناصر تخطيط باريس ومعالم تعميرها الى مشروع تخطيط القاهرة وذلك بناء على طلب اسماعيل باشا نفسه ٠

ويعتبر تخطيط القاهرة الذى تم اعداده وتنفيذه بأكمله بما ضم من منشآت عمرانية خلال خمس سنوات فقط ، يعتبر من معجزات فن تخطيط المدن العالمية لما اشتمل عليه من برنامج يعد الأول من نوعه فى العالم ويمكن تلخيص عناصر ذلك التخطيط ومعالمه فيما يلى :

١ ـ نقل مجرى نهر النيل الرئيسى من مكانه حيث كان يمر بمنطقة بولاق الدكرور والدقى وامبابه ليحتل مكانه الحالى ، وردم المجرى القديم الذى حلت محله حدائق الأورمان والحيوانات والجامعة وأحياء الجيزة والدقى ٠

٢ ـ ردم البرك والمستنقعات التى تمتد من حدود القاهرة القديمة الى شاطىء النيل وتخطيط شوارعها وميادينها وهى جميع الشوارع والميادين والأحياء الرئيسية الموجودة حاليا وهى ميادين العتبة والأوبرا ، وباب الحديد وسليمان باشا والاسماعيلية والانتكخانة وعابدين والقصر العينى ، وهى جميع شوارع وميادين القاهرة الحالية ولم يتغير منها حتى الآن الا أسماؤها ٠

٣ ـ تعمير مداخل القاهرة وكانت جميعها عبارة عن خرائب ومدافن فكانت أسوأ دعاية تستقبل بها القاهرة من يدخلها من أى مدخل من مداخلها فاهتم التخطيط

بازالتها واعادة تخطيطها وتعميرها فالمدخل الشرقى وكان عبارة عن مزارع للفجل وعشش للفجالة ، تحول الى حى للبساتين والقصور من أجمل أحياء القاهرة واحتفظ باسمه القديم حى الفجالة الى الآن · ومدخل القاهرة الشمالى أنشأ به أول محطة للسكة الحديد ، وشمل البرنامج تخطيط ميدان المحطة وتخطيط منطقة شبرا بأكملها حتى ترعة الاسماعيلية الحالية ، كما أعد شارع المدخل الرئيسى ليكون طريقا للنزهة وزرعت على جانبيه الأشجار الباسقة التى استوردها من مختلف البلدان ، كذلك المدخل الجنوبى الممتد من مصر القديمة الى المعادى وحلوان ، والمدخل الغربى الذى يمتد من الأهرام الذى أنشأ الطريق الموصل اليها وقام بردمه بارتفاع أربعة أمتار ورصفه وزراعة الأشجار على جانبيه وتم اعداده كاملا فى ستة أشهر ·

كما أمكن حل مشكلة تجميل المداخل بأن وزع الأراضى المطلة على المداخل على الأعيان وكبار رجال الدولة مجانا واشترط بأن يقوموا ببناء قصورهم عليها خلال سنتين ·

٤ ـ ربط شاطىء النيل بأول كوبريين أقيما على النيل فى وادى النيل بأكمله وهما وهما كوبرى قصر النيل وكوبرى الانجليز ·

٥ ـ الخدمات والمرافق : لم يكن بالقاهرة شبكة للمياه أو المجارى أو الانارة فعرفت القاهرة أول مشروع للمجارى وأول شبكة للانارة بالغاز ، فأضيئت جميع الشوارع والميادين والمساكن ·

ثم شبكة لتزويد المساكن والأحياء بمياه الشرب والحدائق بمياه الرى ، كما رصفت الشوارع بالأحجار وعملت لها أفاريز للمشاة ·

٦ ـ الأشجار والغابات : شمل مشروع تخطيط القاهرة الجديدة تزويدها بالغابات والحدائق العامة التى جلبت لها الأشجار من الهند وافريقيا والسودان والصين ، وهى حدائق الأورمان والحيوانات والأزبكية والجزيرة كذلك زرعت الأشجار على جانبى الشوارع الرئيسية جميعها ·

من المبانى العامة التى احتلت مكانها فى القاهرة الجديدة دار الآثار الفرعونية ودار الآثار العربية ودار الكتب ودار المعارف ودار الرصد بالعباسية ودار الاحصاء ، ودار الجغرافيا (الجمعية الجغرافية) ودار العلوم ، ودار القضاء العالى ، ومدرسة المهندسخانة ، وحديقة الحيوانات ، ومدرسة الصناعات والحرف ، وثكنات الجيش ،

والمدرسة الحربية بالعباسية ، ومدرسة الأركان بقصر النيل ، ودار الأوبرا ، ومسرح الكوميديا · وقد نقلت فكرة هذه المبانى من تخطيط باريس ومعالمها العمرانية العامة ·

هذا بجانب انشاء مجموعة من القصور فى مقدمتها قصر عابدين الذى بناه مكان قصر عابدين بك لنقل دار الحكم من القلعة الى عاصمته الجديدة ، وردم بركة عابدين التى كان يطل عليها القصر ، وحولها الى ميدان أمام القصر وللاستعراضات · وطلب اسماعيل باشا أن يحتفظ القصر والميدان باسمهما القديم ·

٨ ـ أما موضع المساجد فى القاهرة الجديدة فقد اتجه الاهتمام ببناء المساجد والأضرحة لآل بيت رسول الله فاشتمل التخطيط على بناء مسجد وميدان سيدنا الحسين ، ومسجد ميدان السيدة زينب ، ومسجد بولاق ، ومسجد العظام الذى نقل العظام التى نقلها من مدافن العتبة الخضراء والأزبكية بعد ازالتها عندما كانت تعوق امتداد التخطيط ·

لقد بلغ مسطح القاهرة فى ذلك التخطيط ألفى فدان أى أربعة أمثال مساحتها الأصلية ·

كان عدد سكان القاهرة ٣٥٠ ألف نسمة فوضع تخطيطها لتسع ٧٥٠ ألف ساكن وهى الزيادة التى قدرها المخطط فى ذلك الوقت لتبلغها خلال خمسين سنة ·

● **القاهرة مدينة المائة باب**

وصف أحد مؤرخى العصور الوسطى الذين زاروا القاهرة فى أواخر القرن الرابع عشر بأن القاهرة اشتهرت بأبوابها الداخلية والخارجية التى يبلغ عددها « مائة باب » تسمت بأسمائها الأحياء التى تؤدى اليها أو تقع فيها · وترجع نشأة تلك الأبواب وأسماؤها الى حصون القاهرة القديمة وأسوارها الدفاعية وبوابات مداخلها ·

فالقاهرة منذ نشأتها من عهد ما قبل الأسرات كانت مدينة دفاعية حرى عحا (قلعة الدفاع) تحيط بها أسوار عالية وعندما حلت مدينة أون (مدينة الشمس) محل حرى عحا وامتدت الى عين شمس (هليوبوليس) وصف المؤرخون أسوارها الدفاعية التى بلغ طولها ٢٠ كيلو مترا وارتفاعها عشرون مترا · كما سجل التاريخ القديم أسوار بابيلون القديمة التى أقامها رمسيس الثانى حول المدينة والحصن ١٢٨٥ ق·م· وقام بهدمها قمبيز سنة ٤٢٠ ق·م والتى أعيد بناؤها وتهدمت فى الفتح العربى واستعملت بعض أحجارها فى مدينة الفسطاط والقطائع وكانت أسوارها تمتد من المقطم الى شاطىء النيل عند مصر « عتيقة » · وقد تهدمت تلك الأسوار فى حريق الفسطاط الكبير ·

وفى قاهرة الفاطميين كانت باكورة أعمال جوهر الصقلى عند حلوله القاهرة أحاطها بسور لتصير حصنا له من القرامطة وهو ما سمى بسور جوهر الذى بناه (٣٥٨ هـ ـ ٩٦٧ م) وكون منه مربعا منظما تواجه أضلاعه الجهات الأصلية وبكل ضلع منها بابان فيواجه الضلع الجنوبى الفسطاط وبه بابا زويلة والفرج والغربى محاذيا للخليج وبه بابا القنطرة وسعادة والبحرى وبه بابا النصر والفتوح والشرقى ويواجه المقطم وبه بابا البرقية والقراطين ٠

وبنى السور من اللبن كما كان عرضه كبيرا بحيث يسع مرور فارسين متجاورين بجواديهما ٠ أما البوبات فكانت من الحجر ركب لها أبواب مصفحة من الحديد ٠

وفى سنة (١٠٩١ م) أعاد بدر الجمالى بناء السور بعد توسعته ليضم المبانى والأحياء السكنية التى بنيت خارج السور الأول ٠

وتم بناء السور الجديد بأكمله من الحجر وزوده بمجموعة من الأبواب الجديدة أشهرها الأبواب الثلاثة الجديدة وهى النصر والفتوح وزويلة كما أضيف للسور عدة أبواب جديدة منها باب الشعرية وباب البحر وباب المحروق وباب الوزير والقنطرة الجديدة ٠ كما سميت المنطقة المحصورة بين السورين الجديد والقديم فى الجهة الغربية بحى بين « الصورين » وهو الاسم الذى يطلق عليها حتى الآن ٠

وفى سنة ١١٧٦ م عندما وجد صلاح الدين الأيوبى أن عدد السكان خارج السورين القديمين أصبح يساوى ما كان بداخلهما قام ببناء سور جديد يضم القاهرة والقلعة والفسطاط واستخدم فى بنائه وبناء القلعة نفسها أحجار الأهرام والمصاطب الصغيرة بالجيزة وبعض الأحجار المتخلفة من أسوار بابيلون القديمة ومات قبل اتمام مشروع أسواره وأكمله السلطان العادل ٠ واشتمل السور الجديد على مجموعة جديدة من الأبواب كأبواب القرافة والقلعة وأيوب بك وباب الغريب وباب طولون وباب الخلق وباب الحسينية ٠

وكلما توسعت القاهرة وامتد عمرانها خارج أسوارها أضيفت اليها مداخل جديدة وأبواب جديدة كأبواب السيدة زينب وباب الشيخ ريحان ٠ وعندما دخلت السكة الحديد مصر ظهر باب الحديد فى الشمال ثم باب اللوق فى الجنوب ٠

لقد اندثرت معظم الأسوار وآثارها وأبوابها الا أن الأحياء والمواقع التى كانت بها احتفظت بأسمائها لتسجل تاريخها ٠٠ أو تاريخ المدينة نفسها ٠

ـــ من أسوار القاهرة الدفاعية وقلاعها خرج رمسيس الثانى ليصل بجيوشه الى القدس وآسيا الصغرى ٠

— وخرج صلاح الدين الأيوبى بجيوشه ليلتقى برتشارد قلب الأسد ويستخلص منه مدينـــة القـــدس ·

— وبيبرس ومماليكه يكسرون شوكة الصليبيين ويفتحون عكا ويطـــردون لويس التاسع الملقب بالقديس ·· كما نقل أحد أبواب عكا القوطى الطراز من كنيســة أندرو ونصبه فى القاهرة تخليدا لذكرى انتصاره ·

— وخرج قونصوه الغورى ليصل الى حلب لمحاربة العثمانيين حيث انتصر عليهم واستشـــهد ·

● القاهرة مدينة الألف مئذنة :

وصف مؤرخو القرن الرابع عشر ممن زاروا القاهرة بأنها «مدينة الألف مئذنة» وهو الاسم الذى ما زال يطلق عليها حتى الآن فى كثير من مراجع الاعلام · فالقاهرة تعد فى الواقع متحفا للمآذن يسجل تاريخ نشأة المئذنة وتطورها عبر تاريخ العمارة الإسلامية ، كما تعتبر كل مئذنة بما ارتبط بها من ذكريات تاريخية صفحة فى مدينة القـــاهرة ·

— ان أول مئذنة فى تاريخ الاسلام والعالم الاسلامى بأكمله ابتكرها المصريون وقاموا ببنائها سنة ٦٤٥ م ، وهى مئذنة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، وقد أطلق عليها اسم « المنارة » (ذكرت بعض المراجع التاريخية القديمة أنها كانت أربع منارات أقيمت فوق أركان المسجد الأربعة) ·

وعندما وصلت أخبارها الى الخليفة عمر بن الخطاب أمر بهدمها لأنها بدعة لا تتفق مع الاسلام ·

كما شهد مسجد عمرو أول منبر فى تاريخ المساجد الاسلامية ابتكره المصريون أيضا ، ولما علم الخليفة بأمره طلب ازالته ·

وقد ذكر كل من ثيرش Thiersch وبتلر Butler فى مراجع تاريخ العمارة أن المآذن التى ابتكرها المصريون للمساجد الاسلامية نقل تصميمها وفكرتها من فنار الاسكندرية الفرعونى والذى كان سببا فى اطلاق اسم المنارات على المآذن · وقد أعيد بناء المنارة فى العصر الأموى عند توسعة جامع عمرو كما ارتفعت فى ســـماء القاهرة منارة أخرى لمسجد مدينة العسكر التى أقيمت سنة ٧٨٥ م فى العصر العباسى وتهدمت فى حريق الفسطاط الكبير ·

وتعتبر منارة مسجد قيروان الذى أقامه هشام بن عبد الملك بن مروان التى نقـــل تصميمها من منارة الاسكندرية الفرعونية أقدم مئذنة ما زالت قائمة فى العالم الاسلامى

وقد ذكر المؤرخ Rivoira انها تحاكى منارة جامع عمرو بن العاص القديمة أول منارات الاسلام ٠ أما أقدم مئذنة ترتفع فى سماء القاهرة فهى مئذنة جامع ابن طولون الذى بناه فى مدينة القطائع سنة ٧٢٤ م التى نقل تصميمها من ملوية مسجد سامراء ٠

لقد تطور شكل المئذنة وطرازها وطريقة بنائها ونسب تكوينها خلال مختلف العصور الاسلامية فى مصر وما تبعها من تطور فى فن العمارة نفسه فسجلت المآذن استعراضا معماريا رسم خط السماء لمدينة الألف مئذنة ٠

من أول المساجد التى بنيت فى قاهرة المعز داخل أسوارها الجديدة جامع الأزهر الذى بناه جوهر الصقلى سنة ٩٧٠ م أما مآذنه الثلاث فترجع الى ثلاثة عصور مختلفة ، الأولى بناها المهندس قايد بك فى القرن الخامس عشر والثانية بناها الغورى فى بداية القرن السادس عشر والثالثة بناها كاتخدا فى القرن الثامن عشر ٠

ـــ أما جامع الحاكم فقد قام ببنائه الخليفة العزيز سنة ٩٩٠ م وقام بتكملته ابنه الحاكم بأمر الله سنة ١٠١٢ م وله مئذنتان تعتبران تحولا فى فن عمارة المآذن ، وقد تعرضت المآذن للتصدع فى زلزال سنة ١٣٠٢ وقام بيبرس الثانى بتدعيمها بواسطة البناء المربع الذى يخفى الجزء الأسفل من المئذنة ، ولو أن الكثير من المؤرخين يعارضون تلك النظرية حيث ان معظم المساجد التى بنيت فى وقت معاصر أو فى العصر الفاطمى بأكمله (٩٦٨ ـ ١١٧١ م) بنيت جميعها بنفس الأسلوب ذى القاعدة المربعة التى تعلوها المئذنة ومنصاتها المختلفة التكوين ، كمآذن الجيوشى والأقمر وأبو الغضنفر ٠

ـــ كما اشتهرت مآذن العصر الأيوبى (١١٧١ ـ ١٢٤٩ م) بكثرة الزخارف والمعلقات والمقرنصات والقباب التى تتوج المآذن ، ومن أشهرها مآذن مسجد سيدنا الحسين ١٢٣٧ م ومئذنة مدرسة الصالح نجم الدين أو الصالح أيوب وذكر ريفوارا Rivoira ان الأيوبيين نقلوا تلك الزخارف والمقرنصات من مسجد آنى فى أرمينيا الذى بنى سنة ١١٠٠ م عن طريق الفنانين الذين أحضروهم معهم من أرمينيا ولو أن كرسويل يكذب تلك النظرية حين أثبت أن زخارف مسجد أرمينيا ومقرنصات وقبة مئذنته ما هى الا تطوير لزخارف وحليات مسجد الجيوشى الذى بنى قبل مسجد أرمينيا بخمس عشر سنة ٠

ـــ وفى عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨١ م) أخذ تصميم المآذن طابعا آخر تغيرت به نسب المآذن وأبعادها وظهر أثر الطراز السورى والمغربى فى كثير

من تفاصيلها ومن أشهر المآذن التى خلفها ذلك العصر مئذنة زاوية الهنود التى بنيت عام ١٢٥٠ م ثم السلطان قلاوون ١٢٨٥ م وفاطمة خاتون ومدرسة الناصر قلاوون وسنجر الجاولى والماردانى ٠

ومن أشهر مآذن ذلك العصر مئذنتا جامع السلطان حسن ١٣٥٦ م التى تهدمت احداهما فى زلزال القاهرة سنة ١٣٦١ م بعد اقامتها مباشرة والتى ذكر لين بول أن ارتفاعها كان تقريبا مائة متر وأنها سقطت على مدرسة مجاورة وقتلت ٣٠٠ طفل ٠

ـــ وفى عهد المماليك الشراكسة (١٣٨٣ ـ ١٥١٧ م) أخذت المآذن طابعا معماريا خاصا امتاز بدقة التفاصيل وكثرة الزخارف فى مختلف أدوار المئذنة ومنصاتها ومن أشهر مآذن ذلك العصر مئذنة جامع السلطان برقوق ١٣٤٨ م وفرج والمؤيد والقاضى يحيى وقايد بك وابن مظهر ٠

ـــ مع الفتح العثمانى بقيادة سليم الأول (١٥١٧ ـ ١٨٠٥ م) تطورت المآذن لتأخذ الطابع التركى فى طراز المآذن الاسطوانية الشكل والتى تمتاز بارتفاعها ونحافتها ومن أحسن أمثلتها مئذنة جامع عثمان كاتخدا ١٧٣٤ م وفى عهد أسرة محمد على كان طراز المآذن امتدادا للطراز العثمانى ومن أحسن الأمثلة التى خلفها ذلك العهد مآذن قلعة محمد على ٠

وقد تم فى العصر الحديث اقامة عشرات المآذن التى احتلت مكانها فى التطور العمرانى للمدينة لتعبر عن تطور المدينة وعمارتها ٠

● فتح العرب لمصر :

وحينما دخل عمرو بن العاص مصر توجه رأسا نحو الحصن باعتباره حصن مصر كلها وأخذ عمرو يتقدم فى طريقه دون مقاومة جدية حتى وصل قرية أم دنين حيث توقف ريثما يستجمع قواه ويأتيه المدد الذى كان قد أرسل فى طلبه من المدينة ٠ وموقع أم دنين الآن هو فى قلب القاهرة عند جامع أولاد عنان بالقرب من محطة مصر ٠

وبعد أن وصلت الامدادات تقدم عمرو بن العاص الى حصن بابليون حيث نصب الجيش العربى فسطاطه أو مخيمه على مقربة منه ، وظل محاصرا له الى أن استسلمت حامية الحصن ٠ ودخل العرب الحصن فى ٩ أبريل سنة ٦١ بعد الميلاد ٠ وقد بقى حتى اليوم من آثار بابليون بعض معالم قصر الشمع ، منها أجزاء من الأسوار ومن بروج بعض المداخل ، وقد شيدت كنيسة المعلقة فوق برج منها وكل

هذه الأجزاء تقع الآن داخل مدينة القاهرة الحالية · وبعد أن ترك عمرو حامية فى الحصن توجه الى الاسكندرية وحاصرها وافتتاحها عنوة ·

● تأسيس الفســطاط ٦٤١ م (*) :

ولم يلبث عمرو بعد أن استقرت الامور فى الاسكندرية ان رجع الى بابليون حيث أسس فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) مدينة لتكون عاصمة لمصر : هى الفسطاط التى تعتبر بحق أصل القاهرة الحالية · ويقال ان عمرو كان قد اراد أن يتخذ الاسكندرية مركزا لحكمه وقال حين استولى عليها « مساكن قد كفيناها » غير أن الخليفة عمر بن الخطاب منعه من ذلك حتى لا يفصل ما بينه وبين المسلمين مما اضطر عمروا أن أن يؤسس مدينة جديدة عند بابليون هى الفسطاط ·

كما يقال أيضا بصدد تأسيس مدينة الفسطاط كعاصمة كان أنسب كثيرا من الاسكندرية عاصمة له وذلك ارضاء للمصريين الذين بغضوه فيها باعتبارها ترمز الى ظلم الرومان واضطهادهم لهم · غير أنه من الواضح أن موقع الفسطاط كعاصمة أنسب كثيرا من الاسكندرية من نواح أخرى كثيرة لا تخفى على فطنة داهية محنك مثل عمرو الذى كان قد سبلا له أن زار مصر من قبل للتجارة وألم بظروفها السياسية والاجتماعية والجغرافيــة ·

اذ أنه بدخول العرب مصر واســتقلالها عن الامبراطورية البيزانطية فقدت الاسكندرية أهميتها كمركز يتصل بحــرا بطريق مباشر بالقســطنطينية عاصمة الامبراطورية بل صارت على العكس موضع تهــديد ومركز خطر لاعــداء هذه الامبراطورية فى مصر ·

ولذا كان من الاسلم للعرب أن يبتعدوا عن الاسكندرية التى كانت فى ذلك الوقت موطن العناصر الأجنبية الحاكمة ومركز الثقافة اليونانية الرومانية ، وأن يقيموا عند بابليون فى قلب مصر حيث العناصر الوطنية المسالمة التى كانت معادية للسيطرة الرومانية الغاشــمة والتى كانت تنظر الى العــرب كمنقذين لهم من ظلم الرومان واضطهادهم المذهبى ·

● موقع الفســطاط :

وبالاضافة الى ذلك كان موقع الفسطاط يجمع بين مزايا عديدة : فمن جهة

يمكن الاتصال منه مباشرة بالمدينة : مركز الخلافة الاسلامية فى الحجاز عن طريق الصحراء التى اعتاد العرب سلوكها ٠

وفى موقع بابليون كان فى استطاعة العرب أن يؤسسوا مدينة جديدة حسب تقاليدهم الاسلامية على نمط ما سارت عليه جيوشهم قبل ذلك فى العراق حين أسسوا مدينة البصرة سنة ١٤ ق (٦٣٥ م) ومدينة الكوفة سنة ١٦ ــ ١٧ هـ (٦٢٧ــ٦٣٨م)٠

ومن جهة أخرى كان الموقع الجديد يمتاز بحصانة طبيعية اذ تحميه التلال من الشرق والشمال ويحميه من الغرب خندق مائى طبيعى هو : نهر النيل الذى كان فى الوقت نفسه يصل بين الشمال والجنوب ٠

ومن المحتمل أن عمرو بن العاص حين سمح لبنى وهدان ومن والاهم أن يقيموا على الضفة الغربية من النيل حيث بنى لهم حصنا فى الجيزة يعتصمون به عند الخطر كان يهدف من وراء ذلك الى زيادة تأمين هذا الجانب الغربى لمدينة الفسطاط ٠

ولذا لم يبق للفسطاط غير جانب واحد مفتوح هو الجانب الشمالى ٠ ولم يهتم عمرو بتحصين هذا الجانب وربما كان السبب فى ذلك أن عمروا لم يخشى تعرضه للاخطار من هذا الجانب نظرا الى أن الطريق اليه يمر باقطار يحكمها العرب أى أنها كانت على العكس مصدر الأمان للفسطاط وطريق الامدادات اليها كما أن هذا الجانب كان المجال الطبيعى لامتداد المدينة ونموها فيما بعد ٠

وايا ما كانت الظروف التى حدت بعمرو بن العاص الى أن يؤسس عند بابليون عاصمة مصر العربية فان هذا الموقع الذى اختاره عمرو أثبت ببقائه موقع العاصمة المصرية حتى اليوم توفيق عمرو فى اختياره ٠

كما فعل الرب عند تأسيس البصرة والكوفة بدأ عمرو ببناء مسجد رشيد الى جواره دارا له وأسند عملية توزيع الخطط بين جماعات القبائل الى أربعة نفر من العرب : هم معاوية ابن حديج التجيبى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى ، وشريك بن سعى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى ، فوزعوا الأراضى حول الجامع على جماعات القبائل : فاختط هؤلاء الخطط ، وبنوا الدور والمساجد وسميت هذه الخطط بأسماء القبائل أو الجماعات التى اختطتها : مثل خطة تجيب وخطة مهرة وخطط لخم وغيرها ٠

ويتضح من اسماء بعض الخطط اشتراك جند من غير العرب فى فتح مصر ٠

من ذلك مثلا خطة الفارسيين ، وكانوا من بقايا جند باذان : عامل كسرى ملك الفرس على اليمن وخطط الحمراوات ، وقد سميت بذلك لاشتراك بعض الروم فيها وكانوا حمر الألوان · وكان منهم بنو نبه وبنو الأزرق وقد حضر الفتح من بنى الأزرق أربعمائة رجل وكان ينزل معهم بنو يشكر ، وقد نسب اليهم جبل يشكر الذى شيد عليه جامع ابن طولون فيما بعد ·

وكانت من أعظم الخطط واوسعها خطة أهل الراية ، وهم جماعة من العدد لأن ينفرد بخطة ، فجعل لهم عمرو راية لم ينسبها لأحد فعرفوا بأهل الراية ·

وأخذ أهل الخطط يشيدون المنازل والمساجد وامتدت المنازل حول الجامع نحو الشرق والشمال والجنوب ·

وكان بين هذه الخطط دور جماعة من الصحابة اشتركوا فى فتح مصر مثل دار عمرو ابن العاص ودار الزبير بن العوام ودار يعقوب القبطى ودار جبر القبطى وكانا قد صحبا السيدة مارية القبطية الى المدينة حيث أهداها المقوقس للنبى صلى الله عليه وسلم ·

وكانت خطط الفسطاط يحدها من الغرب مجرى نهر النيل الذى كان يسير فى ذلك الوقت بجوار الجانب الغربى لحصن بابليون الى جامع عمرو حيث يمر فى غربيه مباشرة ثم يتجه الى موقع مشهد السيدة زينب الحالى ، وكان يحدها من الشرق عين الصيرة ومن الشمال الشرقى المطل على بركة الحبش عند دار السلام حاليا ومن الجنوب جبل يشكر الذى شيد عليه فيما بعد جامع ابن طولون : أى أن الفساط كانت تشغل مساحة طولها من الشمال الى الجنوب حوالى خمسة آلاف متر وعرضها من الشرق الى الغرب نحو ألف متر ·

ونظرا الى ان هذه المساحة كانت أوسع كثيرا من ان تقتصر على جند عمرو الذين كان عددهم حسب بعض الروايات اثنى عشر ألف جندى فقط فان بعض العلماء يحاول أن يستنتج من ذلك أن دور هذه الخطط كانت على درجة كبيرة من الاتساع ، وأنها كانت منعزلة بعضها عن بعض ولا تتلاصق ألا بالقرب من الجامع فقط ، وأنها كانت يزيد انعزالها كلما بعدت عن الجامع ·

غير أنه من المرجح أن الخطط قد شملت هذه المساحة الكبيرة حتى تتسع أيضا للسكان الأصليين من القبط الذين كان بعضهم من غير شك يعيشون من قبل فى ذلك

المكان والذين قدم بعضهم الآخر ليقوم بأعمال الصناعة والتجـــارة مع المستوطنين الجدد . ولقد ذكر المؤرخون العرب أنه كان بموقع الفسطاط عدة كنائس وديارات للنصارى ، ومن المستبعد اقامة كنائس عدة فى مناطق خالية من السكان .

● جامع عمرو :

وقد كان جامع عمرو حين أسس يقع على شاطىء النيل الشرقى فى منطقة بها أشجار وكروم ، وكان يشغل مساحة طولها خمسة وعشرون مترا وعرضها خمسة عشر : ويقال أنه اشترك فى تحرير قبلته ثمانون رجلا من الصحابة وقيل ثمانية فقط ومع ذلك قيل ان هذه القبلة انحرفت نحو الشرق أكثر مما يجب ، وكان يحدد قبلته عمد قائمة بصدر الجدار وكان له بابان فى كل من جوانبه فيما عدا جدار القبلة ، وكان منها بابان يقابلان دار عمرو فى شرقى الجامع وكان طولها يســـاوى طول المسجد من قبليه الى بحريه وكان بين المسجد وبين دار عمرو طريق عرضه نحـو ثلاثة أمتار ونصف . وقد استوحى عمرو فى تخطيط المسجد والدار والعلاقة بينهما مسجد النبى (صلى الله عليه وسلم) وداره فى المدينة .

ويقال أنه لما سرغ عمرو من بنائه اتخذ له منبرا يخطب عليه فأمره عمر بكسره وكتب اليه : « أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك » .

ولقد توالت على جامع عمرو كثير من العمـــائر حتى أنه لم يبق مع الجامع الأصلى : الذى بناه عمرو غير البقعة من الأرض التى شيد عليها ، وتوجـــد هذه البقعة فى رواق القبلة فى النصف الشمالى من المسجد أى على يسار الواقف أمام المحراب الأوسط ومتجها نحو القبلة .

● بيوت الفســـطاط :

وكانت بيوت الفسطاط فى أول الأمر تحيط بجامع عمرو من ثلاث جهات فقط نظرا الى أن النيل كان يجرى فى غربيه مباشرة كما سبق ان ذكرنا أن المســـاحة الواقعة بينه وبين النيل كانت تتسع تدريجيا كلما انحرف مجرى النيل الى الغرب ومن ثم أخذت هذه المساحة تسع لبناء بيوت جديدة وهكذا صارت بيوت الفسطاط تحيط بالجامع من جميع نواحيه وتبلغ المسافة بين جامع عمرو والنيل حاليا نحو خمسمائة متر وهى المسافة التى انحرفها النيل منذ ذلك الوقت .

ومن المرجح أن دور الفسطاط كانت متسعة وكانت مشيدة بالطوب غير أن

بعضها كان مبنيا بالحجارة وربما استخدم اللبن أو الطين أحيانا فى البناء ولاسيما فى الأطراف ولقد كشفت بعض الحفائر التى أجريت حديثا بالقرب من مسجد أبى السعود الجارحى عن بعض جدران من الطين قد يرجع الى عصور مبكرة ٠

وكان بالفسطاط ميادين وأسواق كما أسس بها مصانع مختلفة وكان بها عدد من المساجد والحمامات كما كان لها ميناء على النيل زادت أهميته بعد أن حفر عمرو الخليج الذى صار يصل النيل بالبحر الأحمر عند القلزم أو السويس ٠

● **صناعة السفن بجزيرة الروضة :**

وفى سنة ٥٤ هـ (٦٧٤ م) أنشىء فى جزيرة الروضة مقابل الفسطاط صناعة العمائر والسفن ولذلك سميت جزيرة الصناعة ثم غلب عليها اسم الروضة وكان بينها وبين الفسطاط جسر ممتد من المراكب ٠

وفى سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) اقيمت على الخليج قنطرة كانت تفتح عند وفاء النيل ، وكان مكانها بين قناطر السباع (موقع المشهد الزينبى) وبين قنطرة السد (موقع كنيسة مارمينا) ٠

وفى عصر الولاة الأمويين أخذ عمران الفسطاط فى الأزدياد الى ان تعرضت المدينة لبعض أعمال التدمير فى نهاية العصر الأموى أثناء مطاردة جيوش العباسيين لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ٠ وكان التخريب الذى نال المدينة على يد الأمويين الهاربين أشد مما نالها على يد العباسيين القادمين: ذلك ان الأمويين عمدوا الى التخريب كوسيلة من وسائل تعويق الجيوش العباسية عن مطاردتهم أو حقداً منهم أن يتركوا هذا العمار ينعم به العباسيون ٠

وقد ذكر المؤرخون مثلا ان مروان بن محمد نزل أثناء هربه بدار عبد العزيز بن مروان فقال : ان أبق ابنها لبنة من ذهب اليها « فلما رهقه القوم أمر باحراقها فلامه فى ذلك بعض بنى عبد العزيز بن مروان فقال : ان ابق ابنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة والا فما تصاب به نفسك أعظم ولا يتمتع به عدوك من بعدك ، أى اذا استطعت ان أبقى فى الخلافة فسوف ابنيها بالذهب والفضة واذا مت فلا يهمنى شىء بعد نفسى ولا تركها ليتمتع بها عدوى » ٠ وكان من جزاء هذه الأحداث أن خرب الجانب الشمالى من الفسطاط مما يلى جبل يشكر وخلا من العمار ٠

وتمت الغلبة للعباسيين فى مصر على يد صالح بن على قائد جيوشهم الذى

قام بمطاردة مروان بن محمد فى مصر وتمكن من قتله ، وستقر صالح بن على كأول وال على مصر من قبل الخلافة العباسية الجديدة ٠

العسكر ٧٥١ م :

ولما خلفه الأمير أبو عون فى ولاية مصر شرع فى سنة ١٣٥ هـ (٧٥٢م) فى تأسيس مدينة جديدة فى الجانب الشمالى من السسطاط الذى كان قد أصبح فضاء قفرا ٠ ونظرا الى أن هذه المدينة قد أسست لايواء العسكر العباسى فقد سميت بالعسكر ٠ وكان حد العسكر من الجنوب عند كوم الجارح ومن الشمال قناصر السباع ومن الغرب قنطرة السد ومن الشرق تلال المقطم ٠

وقد شيد فى العسكر دار للامارة ظل ينزلها الولاة العباسيون وبنى بها الفضل ابن صالح فى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م) مسجدا لم يكتب له البقاء ، وفى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٩ م) أثناء ولاية السرى بن الحكم سمح للناس بالبناء حول العسكر فكثرت بها العمارة حتى اتصلتبالفسطاط وشيدتالدور العظيمة والأسواق وغيرها من المنشآت٠

ومما تجد الاشارة اليه أنه كان يطلق على هذه المدينة فى ذلك الوقت أيضا اسم مصر وذلك من باب اطلاق اسم القطركنة على العاصمة كما يطلق على دمشق اسم الشام ٠ ويؤكد هذه التسمية أنه قد عثر بحفائر الفسطاط على قطعة من الزجاج (متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم ٦ ــ ١٢٧٣٩) مؤرخة سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) نقش عليها أنها صنعت « بمصر » ٠

كما وصلنا دينارر مؤرخ سنة ١٩٩ هـ (٨١٤م) نقش عليه أنه « ضرب مصر » بل وصلنا مسكوكات نحاسية من الفلوس يرجع أقدمها الى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م) نقش عليها اسم «مصر» (مجموعات متحف الفن الاسلامى) ٠ وظلت العسكر عاصمة مصر ومركز الامارة والادارة والشرطة حتى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) حين أسس أحمد ابن طولون مدينة جديدة هى القطائع اتخذها عاصمة له ومقر للجيش والادارة ٠

أحمد بن طولون :

جاء ابن طولون الى مصر فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) وكيلا عن ياكباك صاحب اقطاعها وكان زوج أم أحمد بن طولون وكان من عادة أصحاب اقطاعات الولايات أن يقيموا بسامرا مركز الخلافة ويرسلوا عنهم وكلاء الى ولايتهم ٠ ولما قتل باكباك منح اقطاع مصر لباركوج وكان صهر أحمد بن طولون فأبقاه وكيلا له فى حكم مصر بل

اطلق يده فيها حتى قال له (تسلم من نسبه لنفسك) فأسندت اليه ولاية الاسكندرية وخضع له صاحب برقة وبسط سلطانه على سائر أقاليم القطر المصرى • ولم يلبث ابن طولون أن استقل بحكم مصر ثم ضم اليه بلاد الشام •

وقد اقام ابن طولون فى أول الأمر بالعسـكر ونزل دار امارتها وأسس فيها مستشفى اشتهر بدقة انظمته ولكنه فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) شرع فى تأسيس مدينة القطائع لتكون مركزا لحكمه ومقرا لجنده وحاشيته الذين اقتسموها فسميت بذلك القطائع • وربما كان تأسيس ابن طولون للقطائع مرتبطا بأطماعه فى الاسـتقلال بحكم مصر •

● **القطـائع ٧٨٠ م :**

وكما فعل أبو عون حين أسس العسكر فى الجانب الشمالى من الفسطاط أسس ابن طولون القطائع فى الطرف الشمالى من العسـكر أو على الاصح فى الطرف الشمالى الشرقى • وكانت القطائع تقع من جهة جبل يشكر وهو الحد الشـمالى للفسطاط وبين سفح جبل المقطم عند مكان القلعة حاليا وكان يعرف فى ذلك الوقت باسم قبو الهواء • ومن جهة أخرى بين الرميلة تحت القلعة الى « مشهد الرأس » الذى عرف فيما بعد باسم « مشهد زين العابدين » •

وقد بدأ ابن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) بتشييد قصر له تحت موقع القلعة فيما بين قلعة الجبل حاليا والمشهد النفيسى ثم أتم بناء مسجده المعروف فوق جبل يشكر فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ ـ ٨٨٩ م) كما يتضح من لوحة التأسيس التى وصلتنا وترك بين المسجد والقصر ميدانا واسعا واختطت حاشيته وجنده دورها فى موقع المدينة حتى اتصلت بالعسكر والفسطاط •

وكما أنه لم يبق من فسطاط عمرو غير جامع عمرو فانه لم يبق من قطائع ابن طولون غير جامع ابن طولون الذى ـ على العكس من جامع عمرو ـ قـد وصلنا تقريبا بحالته الأصلية وذلك فيما عدا المئذنة التى أعاد بناءها السلطان لاجين فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) • ويتميز جامع ابن طولون بزخارف جصية من طراز جديد بدأ ظهوره فى عهد ابن طولون ويعتبر صدى لطراز الزخرفة الجصية التى ازدهرت فى مدينة سامرا عاصمة الخلافة العباسية فى ذلك الوقت • ويعتمد علماء الآثار الذين يقومون بالحفر والتنقيب فى مناطق الفسطاط على ظهور هذه الزخارف الجصية فى تاريخ المبانى التى يكشفون عنها •

● ازدياد العمران بالفسطاط :

ولذا لم يؤثر تأسيس القاهرة فى عمران الفسطاط وازدهاره بل على العكس تزيدات عمارته وأسست به « الادر الانيقة والمســاجد القائمة والحمامات الناهية والقياسر الزاهيةوالمستنزهات الرائقة ورحل الناس اليه من سائر الاقطار وقصدوه من جميع الجهات وغص بسكانه وضاق فضاؤه الرحيب عن قطانه(القلشندى ٠ صبح الأعشى ج ٣ هـ ٣٣٣) ٠

وقد عمرت مدينة : الفسطاط بالمصانع المختلفة التى كانت تسد حاجات سكانها وغيرهم من أهل مصر كما كانت تصدر الفائض من منتجاتها الى الخارج ٠

وقد كشفت الحفائر التى أجريت فى مناطق الفسطاط عن مصبغة يتضح مما تبقى من اثارها أنها كانت تقوم بأعمال الصباغة على نطاق واسع ٠ كما عثر أسفل بعض الطرق على مجارى ذات أقبية مما يدل على العناية بتنظيم وسائل الصرف ٠

كما كشفت الحفائر أيضا عن مجموعة من الدور والطرق ترجع الى ما بين القرنين الثالث والخامس بعد الهجرة (٩ ــ ١١ م) استشفوا منها فكرة واضحة عن تصميمها سى تلك الفترة ٠

وكانت الدار تتألف من عدة وحدات أهمها وحدة الاستقبال وكانت تتكون من فناء مربع مسقوف يقام فى أحد جوانبه أو فى جانبين متقابلين أو فى جوانبه الأربعة ايوانات تفتح عليه وقد يكون ، بعض هذه الايوانات ضحلا أو عميقا ، وكان أحــــد الجوانب يتميز عادة بتصميم خاص اذ كان يتألف من ايوان رئيسى أوسط على كل من جانبيه حجرة وكان يتقدم الجميع سقيفة تفتح على الصحن خلال ثلاث فتحات ٠

وكانت الدور تشتمل على مقاعد وملاقف ونافورات وسلسبيلات أو شاذروانات وأحواض للنباتات ، كما كانت مداخلها فى معظم الأحيان منكسرة بزاوية قائمة حتى يختفى داخل الدار عن السائرين فى الطريق ولو كان الباب مفتوحا كما زودت بعض الدور بمعدات داخلية تمكن أهل الدار من التنقل بين أجزاء الدار دون المرور بالفناء الأوسط ، كما عثر فى بعض الدور على خزانات مياه تحت الأرض وكان الماء يجرى فى البيوت خلال أنابيب داخل الجدران ٠

وكانت جدران الدور تكسى عادة بالجص المزخرف الرسوم المحفورة والبارزة كما كانت تزخرف أحيانا بالصور المرسومة بالألوان المائية على الجص ٠

ولقد ظلت الفسطاط بعد تأسيس مدينة القاهرة مدينة الشعب ومقر الصناعات والمهن والتجارة ومزاولة الأعمال ٠

ولقد ترك لنا بعض من زار الفسطاط فى تلك الفترة وصفا لمدى العمران الذى كانت عليه هذه المدينة قد يكون بعضها من باب المبالغة فى التقريظ غير أنه فى الوقت نفسه يشير الى انطباعاتهم عن هذه المدينة ومدى ازدهار العمران بها ٠

وقد نكبت الفسطاط فى عهد المستنصر حين استمر القحط من سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) الى سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) وبلغ أوجه فى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) وانتشر فى مصر الوباء واختل الأمن وثارت الفتن مما اضطر المستنصر الى أن يستغيث بأمير الجيوش بدر الجمالى فقدم من عكا وحكم مصر باسم الخليفة وكان من سياسته العناية بالقاهرة واهمال الفسطاط بل أنه أباح للجند ولغيرهم من القادرين على البناء أن يستغلوا مبانى الفسطاط الخالية من السكان فى تشييد مبان لهم فى القاهرة وقد أدى ذلك كله الى تخريب العسكر والقطائع وجزء كبير من الفسطاط وصار ما بين القاهرة ومصر من المساكن خرابا ولم يبق هناك الابعض البساتين ٠

● **ضم الفسطاط للقاهرة :**

ثم كانت الطامة الكبرى على الفسطاط حين أمر شاور باحراقها فى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩ م) حتى لا تقع فى يد عمورى ملك بيت المقدس حين طمع فى الاستيلاء على مصر مما كان من جرائه أن تحولت الفسطاط الى اطلال وكيفان ٠

ويصف المقريزى (الخطط ج ١ ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩) كيف تم حرق الفسطاط فيقول ان شاور نادى بأنه لا يقيم فى مصر أحد « وازعج الناس فى النقلة فتركوا أموالهم واثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم ٠ وبعث شاور الى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرغ ذلك فيها فارتفع لهيب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظرا مهولا واستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوما » ٠٠ كل ذلك والنهاية ينقبون سى المنازل فى طلب الخبايا » ومن ثم تحولت مصر الفسطاط الى تلك الاطلال المعروفة، ومما يسترعى الانتباه أن حفائر الفسطاط قد أخرجت ولا تزال تخرج كميات كبيرة من قوارير النفط ٠

وعندما آل الى صلاح الدين حكم مصر شرع فى بناء سور يضم القاهرة والفسطاط وصار يطلق عليها معا اسم القاهرة ٠

● **تأسيس القاهرة :**

اسسها قبلاى خان بعد ذلك بثلاثة قرون ٠٠ وقد اشار كاى الى أنه لا يوجد ما يدل على أن جوهرا أو سيده قد أودا أن يؤسسا مدينة جديدة بالمعنى الحرفى المفهوم من هذه الكلمة أو كان يتوقع ما حدث بدع ذلك أى أنه ما كان يخطر ببال أحدهما أن سكان تلك المدينة الثلاثية المكونة من الفسطاط والعسكر والقطائع سيجاورون بالتدريج القصر الملكى ٠ وأنهم سيبلغون السور وينشئون المساجد والمبانى الخاصة على انقاض قصورها التى سارع الخراب اليها بعد أن قضى صلاح الدين الايوبى على هذه الأسرة سنة ٥٦٧ هجرية (١١٧١ ميلادية) ٠٠ وفيما قبل ذلك الوقت لم يكن يسمح لأى فرد باجتياز أسوار مدينة القاهرة الا اذا كان من جند الحامية أو من كبار موظفى الدولة ويشير المقريزى الى أن القاهرة صارت دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه بينما استمر عامة الشعب فى سكنى الفسطاط ٠

● **اختيار المنجمين لطالع سعيد :**

اصدر جوهر أوامره الى المنجمين فجمعهم وطلب اليهم أن يختاروا طالعا سعيدا لتأسيس المدينة حتى لا تتعرض دولة الفاطميين لتقلب يسلبها منهم فحفرت الخنادق لبناء أسس الأسوار والجدران وثبت سيها قوائم ربطت بحبال علقت عليها أجراس وكان المتفق ليه أنه عندما تحين اللحظة المناسبة يرسل المنجمون اشارة لبدء العمل ٠ وأبلغ المنجمون العمال بأن يقفوا على تمام الأهبة لالقاء الحجارة والمونة التى كانت فى متناول يدهم فى الخنادق المحفورة بمجرد صدور الاشارة لهم بذلك ٠ ولكن قبيل أن تحين اللحظة المنتظرة ، وقع غراب على الحبال الممتدة فدقت الأجراس فظن العمال أن المنجمين قد اعطوا الاشارة فبدأوا العمل ، وصادف فى هذه اللحظة أن كان كوكب المريخ فى الأوج ونظرا الى ان هذا الكوكب كان يسمى قاهر الفلك اعتبر ذلك فألا غير حسن ، ويظهر من رواية المقريزى المضطربة بعض الشىء أن المدينة الجديدة اطلق عليها أولا اسم المنصورية وهو الاسم الذى كان يطلق على المدينة التى أسسها المنصور بالله ثالث الخلفاء الفاطميين خارج مدينة القيروان وان المدينة الجديدة لم تعرف باسم « القاهرة » الا بعد أربع سنوات وذلك حين حضر المعز الى مصر ورأى من قراءاته الخاصة للطالع أن فى التسمية فألا حسنا اذ رأى أن اسم القاهرة مشتق من القهر والظفر فأطلق عليها اسم « القاهرة » ٠

● النواحى الأسطورية فى القصة :

وقد سلم جميع المؤلفين الذين عالجوا موضوع تأسيس القاهرة ، رافيس ، لين، لين.بول ، وبيكر ، وأولرى ، وريتشموند ٠٠ وغيرهم ، سـلموا بقصة « المنجمين والغراب ولم يشكوا فى صحتها ، ويظهر أنهم قد فاتهم أن هناك قصة شديدة الشبه بها ذكرها المسعودى المتوفى سنة ٩٤٣ ميلادية فى روايته الخرافية عن انشـاء الاسكندر لمدينة الاسكندرية فقد روى أن العمال وقفوا بأمر الاسكندر سى الخطوط التى حددت لانشاء المدينة الجديدة وان الاوتاد دقت فى الأرض على مسافات على طول هذه الخطوط ثم ربط بها خيط ثبت آخره لعمود من الرخام أمام خيمة الملك ٠ وعلقت بهذا الخيط أجراس ثم انتظر العمال الاشارة حتى يشرعوا جميعا فى العمل فى وقت واحد لاقامة أسس المدينة وكان ـ الاسكندر يؤمل بهذه الوسيلة أن يحقق من انشاء المدينة سى طالع سعيد ٠٠ ولكن مع الأسف حين حان اليوم واللحظة المحددة شعر الاسكندر بثقل فى رأسه ونام فوقع غراب على الحبل فدقت الأجـراس وبدأ العمال فى العمل ٠ ولما استيقظ الاسكندر وعرف ما حدث قال « لقد أردت شـيئا واراد الله آخر » ٠٠

ومن ذلك يظهر أن القصة التى رواها المقريزى ومن الواضح ان ما سبق يخول لنا اعتبارها فى حكم الخرافة ٠

● أسوار القاهرة وأبوابها :

بفضل المعلومات التى أمدنا بها المقريزى يمكننا أن نتتبع بكثير من الدقة حدود سور مدينة جوهر فى أكثر أجزائه وذلك فيما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب القصر وباب البرقية اذ أنه لم يصلنا عنه أية معلومات ٠٠

ولما كانت الأعمال الأولية قد تمت فى أثناء الليل بسرعة كبيرة فقد لوحظ فى الصباح التالى لوضع الأساس أن هناك اضطرابا فى تخطيط القصر وان الخطوط لا تسير على استقامة واحدة ٠٠ وكانت هذه من غير شك حال الأسوار الرئيسية للمدينة أيضا ٠٠ ومع ذلك فان تخطيطها كان على هيئة مستطيل منتظم تقريبا طول ضلعه من الشرق الى الغرب ١١٠٠ متر ومن الشمال الى الجنوب حوالى ١١٥٠ مترا ويواجه الحائط الجنوبى الفسطاط والشرقى المقطم والشمالى الخلاء : ويسير الضلع الغربى محاذيا للخليج ولكن على بعد قليل منه لأن المسافة التى تركت أقيم فيها دار الذهب ودار اللؤلؤة وغيرها ٠٠ وقد ظل الخليج قائما حتى سنة ١٨٩٨ حتى طمر وسار فى مكانه الترام يطلق عليه اسم شارع الخليج المصرى ٠

وكان يسير فى موازاة شارع الخليج شارع آخر هو شارع بين السورين ٠٠ ويقول المقريزى عند ذكر خط بين السوريين « به الآن صفاف من الاملاك : أحدهما مشرف على الخليج والآخر مشرف على الشارع المسلوك فيه من باب القنطرة الى باب سعادة ٠ ويقال لهذا الشارع بين السورين ٠٠ تسمية العامة بها فاشتهر بذلك ٠ « ويقصد بذلك بين الحائطين » ٠

والسور الثانى هى سور صلاح الدين وكان قائما بين هذا الشارع والخليج فى موقع الدور التى كانت تطل شرساتها على الخليج وتفتح أبوابها على شـــارع بين السورين أى أنها كانت دورا ملاصقة للخليج لأن المسافة بين الخليج وبين الشارع كانت نادرا ما تصل الى ١٥ مترا وقد ازيحت هذه الدور الآن ٠٠ أما السور الآخر جوهر سقد كان تبعا لذلك على الناحية الأخرى من هذا الشارع ويقع بينه وبين درب سعادة وهو يبلغ من ٣٠ الى ٥٠ مترا خلف السور الأخير لصلاح الدين ٠

وبناء على ما ذكر المقريزى كان يوجد بالسور ثمانية أبواب هى كما يلى :

فى الناحية الجنوبية من السور باب زويلة ذو القوسين وفى الحائط الغربى باب الفرج وهذا خطا اذ أن هذا الباب كان فى الحائط الجنوبى ثم باب ســعادة وباب القنطرة ٠ وفى الحائط الشمالى باب الفتوح وباب النصر ، وفى الحائط الشرقى باب البرقية وباب القراطين الذى اطلق عليه فيما بعد اسم باب المحروق ٠

وهناك أبواب أخرى غير هذه مثل باب الخوخة الذى يذكر المقريزى أنه يعتقد أنه بنى بعد جوهر ولكن جميع هذه الأبواب قد زالت وحل محلها أبواب القاهرة بعد تكبيرها على يد بدر الجمالى أولا ثم على يد صلاح الدين بعد ذلك ٠ ولازال ثلاثة من هذه الأبواب الأخيرة باقية الى الآن ومعروسة باسم باب رويلة ٠ وباب الفتوح ، وباب النصر ٠

● القصر الشرقى أو القصر الكبير الفاطمى :

بفضل الأبحاث الطبوغرافية المضنية والدراسات العلية التى قام بها راميس فى ضوء خطط المقريزى أمكننا أن نعرف بدقة امتداد وحـــدود هذا القصر وحدود واجهته الرئيسية ٠

وبالرغم من أن أجزاء من البوابات قد ظلت باقية حتى بداية القرن ١٥ الميلادى حين رآها المقريزى الا أنه لم يعثر فى العصر الحاضر على أى جزء منها ـ ولم يمدنا

المقريزى نفسه بأية بيانات معمارية تشير الى قاعاته وكل ما نعرفه عنه هو ما امدنا به ناصر خسرو هو ان القصر الفاطمى كان يقوم وسط مدينة القاهرة ولا تتصل به به ميان أخرى وان أقرب مبنى لهذا القصر يقع خلفه وانه لا تلتصق به أية عمائر ·· ويقول ناصر خسرو فى هذا الصدد « ان قصر السلطان الخليفة يقع فى وسط القاهرة وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أى بناء لأن أقرب المبانى للقصر تقع خلفه ولا تلتصق به » · ثم يضيف « ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع أسواره » ·

« وهذا القصر يتكون من اثنى عشر بناء وله عشرة أبواب فوق الأرأن فضلا عن أبواب أخرى تحتها ، واسماء أبوابه الظاهرة هى باب الذهب ، وباب البحر وباب السيرج ، وباب الزهومة ، وباب السلام وباب الزبرجد وباب العيد ، وباب الفتوح وباب الزلاقة وباب السرية ··· وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة تقول أنها قدت من صخر واحد ··· وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهذا الباب على سرداب يؤدى الى قصر آخر خارج المدينة وهذا يسمى بقصر الغربى الصغير ·

وعند حديثه عن القصر الشرقى يقول : أنه كان هناك اثنا عشر قصرا يجاور كل منها الآخر وكلها ذات شكل مربع · وكل قصر دخلته رايته أجمل مما دخلته من قبل وتبلغ مساحة كل قصر ١٠٠ ذراع فيما عدا القصر الأخير الذى يبلغ ٦٠ ذراعا فقط · وفى القصر الأخير عرش بعرض حائط القاعة كلها ··· وتقع المطابخ خارج القصر ويصل سرداب أرضى ما بين المطابخ والقصر ·

وقد امدنا المقريزى لحسن الحظ ببعض البيانات المعمارية الموجوزة عن أربعة أبواب لهذا القصر ، ولا يزال اسم اثنين منها باقيا حتى اليوم وهما « باب الريح ، وباب العيد » — يقول المقريزى :

« باب الذهب » : موضعه الآن محراب مدرسة الظاهر بيبرس ·· وقد كان هذا الباب أعظم أبواب القصر كان يعلو عقده « قنطرة يشرف الخليفة فيها من طاقات فى أوقات معروسة » ·

باب الريح : ويقول عنه المقريزى ما نصه : « قد ادركنا منه عضاديته » كتفيه واسقفته عتبةوعليها أسطر بالقلم الكوفى وجميع ذلك مبنى بالحجر الى أن هدمه الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الاستادار » ويذكر المقريزى فى مكان آخر أنه « كان بابا مربعا يملك فيه من دهليز مستطيل مظلم » ·

«باب العيد»، وهو عقد محكم البناء ويعلوه قبة قد عملت ـ فيما بعد ـ مسجدا٠
« باب البحر » ، عبارة عن قبو يرتكز على أعمدة ومن هنا جاء اسمه « دهليز العمود » وقدبناه الحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢١ م) ٠

ومما سبق ذكره نرى :

١ ـ ان بابا واحدا على الأقل من هذه الأبواب وهو باب الريح قد بنى بالحجر بالرغم من ان حوائط المدينة بنيت باللبن ، وبالرغم من أن الجامع الأزهر بنى بالطوب الأحمر ٠

٢ ـ وان أحد الأبواب هو باب العيد تعلوه قبة أو ربما حجرة تغطيها قبة كما كانت الحال فى أبواب بغداد التى بناها المنصور سنة ١٧٠ هـ (٧٦٠ ـ ٧٦٥ م)٠

٣ ـ وان بابا آخر هو باب الذهب كانت تعلوه حجرة (ويسميها المقريزى قنطرة) ويشرف فيها الخليفة فى أوقات معينة ٠

٤ ـ وأن أحد هذه الأبواب وهو باب البحر وكان عبارة عن ممر له قبو يستند الى أعمدة ٠

٥ ـ وأن أحد أبواب الشرقى وهو باب الريح كان له ممر يبلغ اتساعه ١٠ عشرة أذرع (خمسة أمتار تقريبا) ولكنه طويل وبالتالى كان مظلما وهو يشبه سقيفة الكحلة بالمهدية وكان هذا الباب يحمل كتابة كوفية ٠

ويظهر أن الممرات الأرضية انت من الظواهر الشائعة فى القصور الاسلامية المبكرة فمثلا نجد الخليفة المعتمد فى بغداد يربط قصر الحسنى بقصر الثريا بممر أرضى له قبو طوله ميلان وكان يمكنه عن طريقه أن يمر من قصر الى آخر دون أن يرى (انظر ياقوت ج ١ ص ٨٠٨ و ج٢ ص ٢١ و ص ٢٢ ، وص ٩٢٤ ، ج٣ص١٢) ٠

ولم يختلف القصر الساطمى عن غيره من هذه الناحية أن اشتمل على عدة ممرات أرضية طويلة كان الخليفة ينتقل بواسطتها فى القصر من قسم الى آخر وهو دائما ممتط ظهر بغلة أو حمار (القلقشندى ج٢ ص ٥٢ والمقريزى ج١ ص ٣٨٧) ـ كما كان به أيضا منحدرات توصل الى القم العلوى كما كانت الحال فى الأخير ٠

وكان هناك أيضا ممر أرضي ما بين القصر الشرقي قصر اللؤلؤة (بالقرب من

باب القنطرة) اذ ذكر المقريزى أن « الآمر بأحكام الله والحافظ لدين الله والفائز كانوا من الخلفـــاء الساطميين الذين توفوا بقصر اللؤلؤة وأنهم حملوا الى القصر الكبير الشرقىمن السراديب · (المقريزى ج١ ص ٤٦٩) ·· وقد ذكر المرحوم على بهجت ملاحظة فى طبعته لكتاب ابن البهير فى قانون بديوان الرسائل : مؤداها أن بعض سكان حارة بين السياج عثر فى سنة ١٩٠٣ على سرداب من هذه السراديب بينما كان يحفر بئرا فى منزله ثم يضيف : ولما دعيت لمشـــاهدته ونزلت فيه وجدته قبوا منخفضا عن أرض الحارة بنحو عشرة أمتار يتجه من الشرق والى الغرب وسلكت فيه قليلا فعرفت أنه السرداب الذى كان يؤدى بالمسالك الى قنطرة اللؤلؤة التى كانت على حافة الخليج فى هذه الجهة » ·

● **الجامع الأزهر :**

يتكلم المقريزى فى خططه (ج٢ ص ٢٧٣) عن الجامع الأزهر فيقول ما نصه :

هذا الجامع أول مسجد أسس بالقاهرة والذى انشـــأه القائد جوهر الكاتب الصقلى مولى الامام أبو نعيم معد الخليفة أمير المؤمنين المعـــــز لدين الله لما اختط القاهرة وشرع فى بناء هذا الجامع فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة ، ٤ أبريل سنة ٩٧٠ ميلادية) ، وكمل بناؤه لتسع خلون من شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة » · وقد كتب بدائرة القبة التى فى الرواق الأول – وهى على يمين المحراب والمنبر – ما نصه بعد البسملة » :

« مما أمر ببنائه ·· المعز ·· على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى ، وذلك فى سنة ستين وثلثمائة » ·· أول جمعة جاءت فيه فى شهر رمضان لسبع خلون من سنة احدى وثلثمائة (٢٢ يونيو سنة ٩٧٢ ميلادية) ·

ويستشف من هذا النص أنه وجدت قبة على يمين المحراب فى الركن الايمن من رواق القبلة كما وجدت من غير شك قبة أخرى مماثلة فى الركن الآخر على يسار المحراب على سبيل التماثل تماما كما هى الحال بجامع الحاكم ·

وفى سنة ٣٧٨ هجرية (٩٨٨ – ٩٨٩ ميلادية) تحول الأزهر من مسجد جامع الى جامعة هى أقدم جامعات العالم ·

ويزعم البعض أن هذا التحول قد استدعى أحداث تغيرات معمارية فى الجامع ولكنه لا أساس لمزاعم من هذا النوع ·· وذلك أنه قبل ظهور النظام المعمارى الخاص

بالمدرسة حيث كانت تدرس العلوم الدينية ، كما يفضل اعطاء هذه الدروس سى بيت الصلاة رواق القبلة حيث كان يجلس كل شيخ الى عمود من أعمدة المسجد ليواجه تلاميذه الجالسين له فى هيئة حلقة ٠٠ وقد وصلنا وصف كامل لهذا المنظر فى وفيات الأعيان لابن خلكان (ج٢ ص ٥١٦ ـ ٢ ص ٨ ـ ١٤ جزء ٤ ـ ٣٦٥ ـ ٣٩٦) ترجمة Deslane ٠

وسى سنة ٧٠٩ هجرية (١٣٠٩ ـ ١٣١٠ ميلادية) انشئت المدرسة الطيبرسية لصق الجانب الشمالى الغربى من واجهة الجامع الى يمين الداخل ـ وبذلك اختفى اختفى جزء من واجهة الأزهر الشمالية الغربية وفى سنة ٧٢٤ هجرية (١٣٣٣ ـ ١٤٤٣ ميلادية) انشأ الأمير أقبغا المدرسة الاقبغاوية لصق الحائط الشمالى الغربى الى يسار الداخل وهكذا أيضا اختفى جزء آخر من واجهة الجامع الأزهر الرئيسية ٠

● جامع السلطان حسن : القاهرة ١٣٥٦ م :

لا ريب أن أجمل الجوامع الاسلامية فى مصر والشام ذلك الجامع الضخم الذى يقوم فى سفح القلعة بالقاهرة ، والذى أمر السـلطان المملوكى الناصر حسن بن الناصر محمد بتشييده فى الفترة الثانية من حكمه ، فبدأ بناؤه عام ١٣٥٦ م بعد وفاة السلطان حسن بعامين ٠ ولهذا الجامع مظهر جديد أو ساحة هائلة وتصميمها عجيبا وحدودا مترامية ، وقبة عظيمة وأبواب فخمة ، وايونات عالية وزخارف لطيفة ، ولهذا مما جعله أجمل العمائر الاسلامية فى العصر المملوكى ونال شهرة عالية تمثل مجد الاسلام ٠ وقد فطن مؤرخو العصور الوسطى الى جمال هذا المسـجد الذى شيد بالحصن المنيع ، ان السلطان أعياه الانفاق على تشييده ، وكان اليأس يدب فى نفسه لولا أنه خشى أن يقال ان سلطان مصر غير قادر على اتمام بناء شرع فى اقامته ٠

● ومساحة هذا الجامع لا تقل عن ٧٩٠٠ متر مربع ، وطـوله ١٥٠ متر وعرضه ٧٨ مترا وارتفاعه عند بابه ٣٧ مترا ، أما تصميمه فهو على نمط المدارس التى كانت تشيد لتدريس المذاهب السنية فضلا عن اقامة شعائر الدين ٠ فكان صحن المسجد صليبى الشكل قوامه صحن حوله أربعة ايوانات للدرس ، وفى الزوايا الأربع تقوم مساكن الطلبة والشيوخ ٠ والقادم الى هذا الجامع يعجب بحوائطه العالية الفخمة والتاج الذى يتوجها ٠ ويمتاز بما فيه من زخارف معمارية تشبه خلايا النحل تخدع النظر وتبدو الحوائط أعلى ما هى عليـه فى الحقيقة ، ويرى النـاظر الى الواجهات تجاويف الحوائط عمودية طويلة وضعيفة ، وقد شكلت هيئة النوافذ فيها على ٨ أدوار ٠

● أما المدخل الرئيسى البارز عن الواجهة البحرية له فتحة كبيرة تعلوها المقرنصات ، يسير منها الداخل الى المدرسة الصغيرة والمشيدة فى احـــدى زوايا المسجد وهى ذات ثلاثة ايوانات وصحن فوقه قبة · ثم يسير الداخل الى اليسار فى طريق ضيق حتى يصل الى صحن المسجد ، وطول ضلع الصحن ٣٢ × ٣٤ متر وفى وسطه حوض كبير للوضوء فوقه قبة محمولة على ٨ أعمدة من الرخـــام · وعلى جوانب الصحن ٤ ايوانات مسقفة كل منها بعقد مدبب جليل المنظر ، وأكبرها ايوان القبلة فى الواجهة الجنوبية الشرقية · وتقام الصلاة فى الايوانات أو التدريس فى المدارس المشيدة فى زوايا الجامع والتى يوصل اليها باب فى كـــل زاوية من زوايا الصحن · ومن الطبيعى أن يكون ايوان القبلة اغناها وأعظمها دقة فى الزخارف · ويعتبر جامع السلطان حسن من المبانى الاسلامية النـــــادرة التى تجمع بين دقة الزخرفة وجمالها ودقة البناء وعظمته ·

● احياء القاهرة فى العصور الأولى والمتوسطة :

١ ـ حى مصر القديمة :

يروى لنا التاريخ بأن منطقة مصر القديمة أو بوجه عام منطقة جنوب القاهرة كانت من أقدم المواقع أعمارا وستيطانا سفى حلوان كشفت الحفـــائر الأثرية عن حضارة نيولينية أو ما يسمى بحضارة العصر الحجرى الجديد ، كما كشف شمالها فى المعدى عن حضارة ثانية أحدث منها استخدمت فيها أدوات من النحاس ، وكلتا الحضارتين ترجع الى عصر ما قبل التاريخ ·

وتمثلت بداية عصر الأسرات فى مدينة منف ، التى صارت عاصمة القطرين طوال دولة بناة الأهرام ، وبقيت آثارها المتأخرة الى اليوم فى قرية ميت رهينة جنوب مصر القديمة ·

● مصر القديمة تحمى المسيح :

وكانت لمنطقة مصر القديمة دورها فى حياة المسيح والسيدة العذراء ، ولا يزال ذلك الأثر كنيسة أبى سرجة يحكى قصة التجاء السيد المسيح والسيدة العذراء الى مصر ، حيث يوجد أسفل الهيكل مغارة يقال أن السيدة مريم آوت اليها لتحمى المسيح من انتقام هيرودس الذى كان قد أزمع على قتله كما جاء فى انجيل متى · وتشهد الكنائس والأديرة سى هذه المنطقة بمدى تكريم المسيحيين لهذه البقعة التى حمت السيد المسيح والسيدة مريم من مؤامرات اليهود والرومان الوثنيين ·

● الكنائس تعلوا أبراج الحصن :

وعلى مقربة من كنيسة « أبو سرجة » توجد بعض أبراج حصن بابليون أو قصر الشمع ، الذى يمثل بدوره ما أصـــــاب المصريين من محن على يد الرومان الذين شيدوه ، ويتضح من أسلوب بنائه أنه على الطراز البيزنطى ، اذ يتألف البناء من خمسة مداميك من الحجر تتبادل مع ثلاثة مداميك من الطوب ٠

ويعلو برجين من أبراجه الكنيسة المعلقة ، وتعلو برجا ثالثا منه كنيسة مارى جرجس ، كرمز لأنتصار المسيحية على طغيان الرومان وجبروتهم فى هذا العصر ٠

وتروى اطلال هذا الحصن من جهة أخرى ، قصة دخول العرب مصر ، وفتح الحصن عنوة بقيادة عمرو بن العاص ٠ حيث بنى عمرو الجامع العتيق جنوب الحصن وعلى بعد ١٠٠ م من حائطه الشمالى ٠ وهو أول مسجد يؤسس فى أفريقيا ، والذى لا يمثل فقط مرحلة جديدة فى تاريخ مصر ولكنه يروى لنا أيضا ـ بما أجرى فيه من انشاء على مر السنين ـ تاريخ مصر العربية على مر السنين ٠ وكانت الفسطاط التى انشأها عمرو حول مسجده عاصمة للقطر المصرى ومركز ادارته ومقر ولاته ٠ وهكذا يروى لنا هذا التاريخ الممتع الدكتور حسن باشا أستاذ الفنون الاسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة فيقول :

● مراكز الثقل تنتقل نحو الشمال :

وكما كان مركز الثقل الحضارى فى هذه المنطقة ينتقل نحو الشمال فى عصور ما قبل الاسلام حتى وصل الى بابليون قبيل دخول العرب مصر ، فأنه أخذ ينتقل أيضا بصفة عامة فى نفس الاتجاه بعد الفتح ٠ اذ نراه ينتقل ن الفسطاط الى العســــكر ٥٧٢ م ، ثم الى القطائع ٨٧٩ م وأخيرا الى القاهرة ٩٦٩ م ٠ أى أن العاصـــمة كانت تنمو دائما نحو الشمال ، ومن ثم فليس من طريق الصدفة أن نجد فى جنوب القاهرة حى مصر القديمة ، وفى شمالها حى مصر الجديدة ٠ ويرجع هــــذا النمو الشمالى لعاصمة مصر الى ظروف طبيعية من حيث ملاءمة الموقع ٠

ولقد كانت من نتيجة انتقال النشاط السياسى والاجتماعى من الفســطاط الى القاهرة ، أن أخذ الخراب يدب فى أوصال الفسطاط ، وخاصة أيام بدر الجالى حين أباح سنة ١٠٧٣ استخدام أحجار الفســــطاط فى تعمير بيوت القاهرة الفاطمية ثم تخربت الفسطاط تماما حينما أمر شـــــارو بأحراقها حتى لا يملكها الصـــليبيون ويتحصنوا فيها ٠

● جامع عظيم يرمز الى دولة عظيمة :

ولقد كانت أول منطقة تعرضت للخراب منطقة القطائع ولم يبق منها حينئذ غير جامع ابن طولون على جبل يشكر ٨٧٩ م ٠ ولا يزال هذا الجامع باقيا حتى اليوم بحالته الأصلية يرمز بسعته الكبيرة وبموقعه المرتفع الى الدولة التى أسسها مشيده ابن طوطلون ، الذى كان أول من استقل بمصر عن الخلافة العباسية ، والذى أراد أن يجعل من القطائع عاصمة دولة كبيرة لا تقف حـــدودها عند مصر ، بل تتسع حتى تشمل الشام وما هو أبعد من ذلك ٠

ويمثل جامع ابن طولون من جهة أخرى ــ بطرازه الفنى وبتأثره بالأساليب العباسية واحساسه بالوحدة العربية وتماسك المجتمع الاسلامى ٠

٢ ــ حى الجمالية :

ينسب هذا الحى فى تسميته الى بدر الجمالى ، وهناك رأى آخر يقول أن هذا الاسم منسوب الى الأمير جمال الدين الاستادار فى عصر المماليك الجراكسة ، حيث انشأ فى الحى مدرسة سنة ١٤٠٩ م من أعظم مدارس القاهرة ، ثم غلبت التسمية على المنطقة المحيطة بها ٠

● حى الجمالية يحده من الشرق جبل المقطم ، ومن الشـمال حى الوايلى والظاهر ، ومن الغرب حى باب الشــــعرية وحى الموســـكى ، ومن الجنوب حى الدرب الأحمر ٠

ان خلفاء الفاطميين لم تفتهم ألوان الجمال فى أطراف القاهرة(*) بين ضلع السور الغربى وشاطىء الخليج وشاطء النيل حيث كانت الخضرة والماء ، فأنشأوا المناظر التى يجلس فيها الخلفاء لقضاء الوقت أو استعراض عســـاكرهم ، وكان وكان للانتفاع بهذه المنطقة أثر كبير فى تعمير القاهرة خارج أسوارها وقد أشار المقريزى لهذا الاتساع بقوله ٠ توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر الى أن انتهت العمائر الى الريدانية ــ العباسية ــ وبنوا خارج باب القنطرة الى حيث الموضع الذى يقال له بولاق ٠٠ حيث شاطىء النيـــل ، وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق الى سفح الجبل بطول السور ، فصار حينئذ العامر بالسكنى قسمين ، أحدهما يقال له القاهرة والآخر يقال له مصر ٠٠٠

(*) الدكتور عبد الرحمن فهمى ــ أستاذ الاثار الاسلامية المساعد ــ جامعة القاهرة ٠

● والحق أن القاهرة منذ عصر المستنصر لم تعـد قاصرة على قاهرة المعز وأسوارها · بل تطورت أحياء القاهرة فيما وراء أســوار بدر الجمالى وأبوابها الحجرية · الى أن كان عهد زويلة والسيدة نفيسة · فعمرت الخـرائب فى جنوب القاهرة على حساب مدينة العسكر التى مهدت أرضها وأصبحت فضاء بين السيدة نفيسة وجامع أبو السعود الآن بالقرب من ميدان زين العابدين ، وكان جامع الصالح طلائع جنوب القاهرة خارج باب زويلة هو آخر وأجمل جامع انشىء فى القـاهرة

وفى ضوء هذه الحقائق يمكن القول بأن أحياء القاهرة ، وخاصـة الجمالية والغورية والسيدة زينب وقتئذ وباب الحديد أى خارج الأسوار الشمالية والجنوبية فى أواخر العصر الفاطمى وقبيل العصر الأيوبى ، كانت زاهرة عامرة ، وقى طغى هذا المران على الفسطاط والعسكر والقطائع ·

وما بقى من الفسطاط بسور واحد ، أى أنه جمع بين الجماليـة والدراسـة والغورية وحى السيدة زينب والحلمية وحى زين العابدين ومصر القديمة وبولاق ومن ثم انتعشت حركة العمران من جديد فى الفسطاط ، سمح صـلاح الدين للمصريين بسكنى الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة جميعا فأصبحت كلها مدينة واحدة هى القاهرة ، التى يضمها سور صلاح الدين من حدود باب الفتوح وباب النصر شمالا الى حدود الفسطاط الجنوبية حيث منطقة الرصد أو اسطبل عنتر حاليا · ومن حدود القلعة المشرفة على المدينة من فوق جبل المقطم شرق القاهرة الى أرض المقسى على شاطىء النيل غربا · وقد ضم سور صلاح الدين قاهرة الأيوبيين بما فيها من بساتين وقصور ودور ورباع – ربع – وفنادق وقياسر وحمامات وجوامع ومدارس ·

● والواقع أن قاهرة الأيوبيين بما أضيف اليها من أحياء ، وما أقيم فيها من تحصينت حربية وعمرات مدنية ودينية ، قد دخلت فى دور حضرى جديد منـذ صلاح الدين الذى سيطر على جانب كبير من الشرق العربى · ويكفى أن نشر الى تلك المنشئات المعمارية التى عرفتاه القاهرة لأول مرة كالخنقاوات التى بداها صلاح الدين بالخنقاة الصلاحية فى مكان الدار الفاطمية ، وانشاء المدارس كمعاهد علمية صممت لهذا الغرض ، كالمدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بمصر القديمة وعدد آخر من هذه المدارس بحى الجمالية ، أشهرها وأبقاها حتى الآن المدرسة التى بناها الصالح نجم الدين بشارع المعز لدين الله حاليا وخصصها لتدريس المذاهب الأربعة ·

● ويمكن القول أن قاهرة الأيوبيين لم تعد هى تلك المدينـة الملكية التى

أنشأها جوهر بحى الجمالية الحالى لتكون ضاحية ملكية على مثال القطائع وفرساى وبوتسدام ، بل كانت قاهرة عظيمة متسعة ـ شملت قاهرة المعز والقطائع والعسكر والفسطاط والروضة وبولاق • فهى أقرب الى طوبوغرافية القاهرة اليـوم فى حى الجمالية ، وحى الدرب الأحمر ، وحى الخليفة ، وحى مصر القديمة ، والروضـــة وبولاق والزمالك ، وأصبحت قاهرة الأيوبيين على يد صلاح الدين عاصمة للديار المصرية كلها يسكنها الخاصة والعامة شعبا وحكومة •

٣ ـ حى الحسينية والظاهر :

ازداد نمو القاهرة فى عصر المماليك ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م وخرجت من أسوارها التى حددت داخلها فى عصر الفاطميين والأيوبيين • فلم تعد مدينة القصور الفاطمية أو العاصمة الأيوبية التى يحيط بها سور صلاح الدين مع الفسطاط والعسكر والقطائع وقد امتدت القاهرة فى اتجاهاتها الأربعة وبامتدادها بدأت تولد وتتكون احياؤها التى مازال كثير منها يحمل اسماء قديمة ترجع الى هذا العصر •

● فى الشمال اتسع العمران خارج باب الفتوح ، حيث كانت حارة الحسينية التى عمرتها طائفة من الجند عرفت بهذا الاسم فى العصر الفاطمى ، وامتد العمران حتى شمل ما يعرف بمنطقة الظاهر التى سميت بهذا الاسم ، لتعمير السلطان الظاهر بيبرس جامعه الكبير بها • وكذلك عمرت « أرض الطبالة » التى سميت باسم مغنية فاطمية ، وذلك بعد حفر الخليج الناصرى الذى شقه الناصر محمد بن قلاون وكان يخترق هذه الأرض وأصبحت من أجمل متنزهات القاهرة • وتشـمل أرض الطبالة اليوم منطقة محطة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى وما حولها بمنطقة الظاهر •

كما اتصل العمران من باب النصر الى منطقة العباسية ، امتدت اليهـا شرقا الى عمارة الحى الحسينية ، كذلك اتسع العمران فى ضواحى القاهرة الشـمالية كحى القبة الذى نشأ حول القبة التى انشأها الأمير يشبك بن مهدى ٨٨٢ هـ ـ ١٤٧٧م، ومنية مطر والتى سميت فى العصر المملوكى باسم المطرية ، والخانكة التى حرف اسمها عن خنقاه ، التى أنشأها السلطان الناصر محمد لتعبد الصوفية قرب بلدة سرياقوس ٢٧٥ هـ • ساعد على ازدهار حى الحسينية ما بناه السلطان الظاهر بيبرس من عدة منشئات معمارية أهمها مسجده الكبير ١٢٦٦ م •

● تعرض حى الحسينية الى كثير من الأحداث والمحن منذ العصر التركى وأيام الحملة الفرنسية وما بعدها ، والدليل على ذلك ما ترض له جامع الحى من

أحداث . حيث تحول جامع الظاهر بيبرس الى مخزن للمهمات الحربية فى العصر التركى ، ثم الى ثكنة حربية أيام الحملة الفرنسية وحصنوه بالمدافع وهدموا جزءا من مئذنته ، ثم تحول الى معسكر أيام محمد على ، ثم مخبز ثم مصنع للصابون ، وبعد ذلك نقلت بعض أحجاره وأعمدته لبناء رواق الشراقوة بالجامع الأزهر . وأخيرا استعمل جيش الاحتلال البريطانى هذا الأثر مذبحا ، حيث يعرف حتى اليوم « المذبح الانجليزى » وهذه هى الأحداث التى مرت بهذا الأثر الكبير .

ومن أسباب اضمحلال هذه المنطقة تفشى حشرة القرضة ـ النمل الأبيض ـ التى أتلفت الكثير من مساكنها . ومما يذكر أنه أثناء الاحتلال الفرنسى ثارت القاهرة مرتين على الفرنسيين ، الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨ م فى عهد نابليون والثانية فى عهد كليبر ، وأمتدت ٣٣ يوما فى مارس وأبريل ١٨٠٠ م وقد أبلى أهالى الحسينية بلاء حسنا فى هاتين الثورتين ، كما فعل أهل بولاق وغيرهم من سكان القاهرة . وقد أشار الجبرتى مؤرخ عصر الحملة الفرنسية بأعمال « فتوات الحسينية » فى هاتين الثورتين ، ولذا كان نصيب هذا الحى من انتقام الفرنسيين ، فخربوا كثيرا من العمائر والآثار بهذه المنطقة ، كما فعلوا بغيرها من نواحى القاهرة .

٤ ـ حى الأزبكية :

لم يهتم الولاة العثمانيون بتعمير القاهرة مثل ما اهتم الفاطميون والمماليك من من قبلهم ، بل على العكس من ذلك ذهب العثمانيون الكثير من محتويات دور القاهرة ومساجدها ، وقاموا بنزع الكسوات الرخامية التى كانت تغطى بعض أجزاء من القلعة والمساجد . واستعملوا هذا الرخام فى بناء وتزيين دورهم الخاصة بالقاهرة ، كما ارسلوا بعضا منه الى تركيا للانتفاع به ، ولذلك نرى أن القاهرة لم تتغير كثيرا فى العصر التركى فى مساحتها وحدودها وأحيائها عما كانت عليه فى العصر المملوكى .

غير أن بعض الولاة مثل سليمان باشا وسنان باشا وبعض أمراء المماليك الذين كانوا يتولون حكم مديريات مصر ، مثل محمد أبو الدهب ومراد بك ، كان لهم شغف بالبناء والتعمير فخلدوا اسمائهم بما أنشأوه من مساجد وأسبلة ودور وتكايا كان يتعبد بها الدراويش ورجال الصوفية .

وقد رأينا أن تأثرت عمارة القاهرة فى العصر التركى ببعض أساليب البناء التى جاءت مع الحكام الجدد من تركيا ، فكثر استعمال القباب والأقبية الصغيرة

والكبيرة فى تسقيف المساجد وبنيت المآذن الاسطوانية الدقيقة ذات النهايات المدببة ، وكسوة الحوائط والقباب بالقيشانى ، ولا يزال بعض منشئات العصر التركى قائمة الى اليوم مثل جامع محمد أبو الدهب بالأزهر ، وجامع الملكة صفية بشارع محمد على ، وجامع سنان باشا ببولاق ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا ، وقصر المسافرخانة ، وبيت السحيمى بمناطق متفرقة من حى الجمالية ٠

● الأزبكية مركز الثقل الحضارى :

وقد شهد العصر التركى ظهور أحياء جديدة بالقاهرة بدأت تدب فيها الحيـاة وانتقل اليها مركز الثقل من الأحياء القديمة كالقلعة مثلا ومن أهمها حى الأزبكية ، نسبة الى اسم الأمير المملوكى « أزبك » الذى كان قائدا للجيش فى عهد السلطان قايتباى ١٨٧٢ ـ ٩٠٧ هـ ، حيث اعاد الأمير حفر بركتها ومدها بالمياه من الخليج الناصرى وأقام المنشآت والحدائق حولها ٠ ومن أهم منشآته قصر ومسجده المعروف باسمه ، واستمر هذا المسجد قائما الى أن هدمه الخديو اسماعيل ، عندما أمر بردم البركة لاقامة دار الأوبرا الحالية ٠

ومن أهم مبانى القصور التى كانت تطل بواجهاتها على البركة قصر محمد بك الألفى ، الذى كان يتكون من ثلاثة مبان جميلة تحيط بها وتتخللها الحدائق الغناء ٠ وقد تم بناء هذا القصر فى الوقت الذى دخلت فيه جيوش الحملة الفرنسية القاهرة ، وبادر نابليون الى الاستيلاء عليه واتخذها مقرا للقيادة ٠

ومما يذكر أن شهد هذا القصر احدى المغامرات الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى، اذ تمكن الشاب الأزهرى سليمان الحلبى من الترصد بحديقة القصر لقتل القائد كليبر، ونفذ خطته فى ١٤/٦/١٨٠٠ م ٠ وقد ارتبط هذا القصر بفندق شبرد القديم بشارع الجمهورية الذى حرق عام ١٩٥٠ ٠

وكانت تقام بميدان الأزبكية الاحتفالات الكبيرة فى المناسبات المختلفة ، حيث تقام السرادقات الكبيرة واعلام الزينة ، ويجتمع عدد كبير من أهالى القاهرة حول الشعراء والمداحين يستمعون الى القصص الشعبى على انغام الرباب ٠ وفى المناسبات الدينية كانت تقام المواكب واذكار الدراويش تتقدمها أعلامهم ومصابيحهم المحمولة على سوارى خشبية مرتفعة ٠

● حدود حى الأزبكية :

يحده شمالا « الحى القبطى » باب الحديد حاليا ، وقد شيدت به فيما بعـــد

الكنيسة المرقسية الكبرى • وشرقا كان « حى الأفرنج » الذى سكنه الأجانب وأقاموا به فنادقهم ومتاجرهم ودورهم والته كانت تضم أيضا امنازل قناصل الدول الأوربية • والى شرق حى الأفرنج هذا كان يقع « حى اليهود » حيث لا تزال تحمل اسمه حارة اليهود حتى الآن ، وجنوبا حى الموسكى حيث يصل شارع الموسكى بين بركة الأزبكية أو الخليج المصرى ، ولا يزال يمتد جزء من هذا الشارع حتى الآن بين ميدان العتبة الخضراء ـ التى تدخل فى قطاع حى الأزبكية ـ وبين شارع الخليج المصرى الذى حل محل الخليج نفسه بعد ردمه •

أول مشروع تخطيط عمرانى لمدينة القاهرة وبرنامج المشروعات السبع ١٨٦٠:

١ ـ مشروع تحويل مجرى النيل : كان المجرى الرئيسى يمر فى الجهة الغربية محاذيا لشارع الدقى الحالى مارا ببولاق الدكرور وامبابة بينما كان الفرع الشرقى أو النيل الحالى عبارة عن سيالة ضيقة تنحسر عنها المياه أكثر فصول السنة لارتفاع منسوب قاعها وكان السقاؤون ينقلون المياه منها الى أحياء القاهرة فكانت سببا فى أنتشار كثير من الأمراض كما كانت تلك السيالة فى نفس الوقت موطنا للبعوض •

فلما تولى الخديوى اسماعيل عرش مصر فى سنة ١٨٦٣ وضع فى مقـدمة مشروعاته الاصلاحية لتعمير مدينة القاهرة مشروع تحويل مجرى النيل الأصلى من الجهة الغربية الى الجهة الشرقية محاذيا لمدينة القاهرة •

وقد بدأ ديوان الهندسة باجراء عملية التحويل باقامة جسر فى النيل فى أواخر سنة ١٨٦٣ يبدأ من مدينة الجيزة ويمتد الى امبابة وقد تمت تلك العملية فى سـنة ١٨٦٥ وأخذ النيل يسير فى مجراه الحالى وبذلك تم أول مشروع حيوى كان له أكبر أثر فى تكوين قاهرة اليوم •

٢ ـ مدخل القاهرة ومنطقة الفجالة : كان أول ما يستقبل الزائر أو السائح الأجنبى عند وصوله الى مدينة القاهرة عن طريق السكة الحديد منطقة الفجالة التى أشتهرت بمزارع الفجل وحقوله التى تغذى أحياء القاهرة الفقيرة وكان يصفه الأجانب فى حملاتهم المدبرة لمهاجمة الخديوى اسماعيل ومشـــاريعه التعميرية بأنه الغذاء القومى للمصريين ولذا أطلق على تلك المنطقة اسم الفجالة نسبة الى زراعى الفجل وكانوا يسكنون فى قرية خربة تسمى قرية كدم ريش تحولت الى مجموعة من الخرائب والاطلال تعد أقبح دعاية للقاهرة عاصمة البلاد وكان ميدان المحطة الحالى عبارة عن مجموعة من التلال والكثبان فقام الخديوى اسماعيل بازالة تلك الخرائب والتلال

واستعمل اتربتها فى ردم البرك والمستنقعات المنتشرة فى المنطقة الممتـــدة بين حى الفجالة والسكاكينى وتسوية المنطقة بأكملها بما فى ذلك ميدان المحطة الحالى وقسمت أرضها وزرعت فيها الحدائق وخطت فيها الشوارع وبنيت مجموعة من القصـــور الفاخرة لا يزال بعضها قائم الى الآن حتى تحولت المنطقة الى حى من أجمل أحياء السكن بالقاهرة وكثرت الرغبة فى سكناها حتى ارتفعت قيمتها ووصل سعر المتر المسطح فيها مالا يقل عن الجنيه بعد ما كان سعره لا يزيد عن بضعة قروش ــ كما قام الخديوى اسماعيل باصلاح مدخل القاهرة الزراعى وهو طريق شبرا الرئيسى وكذلك مدخلها الصحراوى من طريق الأهرام ٠

٣ ــ منطقة عابدين كانت منطقة عابدين « قلب القاهرة » عبارة عن مجموعة من البرك الراكدة منها بركة الفراعين وكانت مكان ميدان سراى عابدين الحالى ثم بركة السقايين وبركة الفوالة وبركة الناصرية ومجموعة كبيرة من البرك الصغيرة والمستنقعات تتخللها سلسلة من الهضبات وكثبان الرمال والقلاع الفرنسية تمتد من منطقة السيدة زينب الحالية الى نهاية شارع المبتديان فقام الخديوى اسماعيل بتسوية تلك الهضاب والمرتفعات وردم البرك بأتربتها فأصبحت تلك المنطقة بعد تخطيطها من أجمل اخطاط القاهرة الحديثة ونقل اليها مقر الوالى بعد أن كان فى القلعة وقصر الجوهرة فى عهد محمد على باشا الكبير وخلفائه فأنشأ الخديوى اسماعيل سراى عابدين مقر الملك الرسمى الى الآن بناه فى سنة ١٨٧٤ على اطلال قصر عابدين بك أحد المماليك وكان يطل على بحيرة الفراعين التى أنشأ اسماعيل باشا مكانها ميدان عابدين الحالى والذى تبلغ مساحته ما يقرب من التسعة أفدنة وأقام على أحد جوانبه قشلاقات الحرس ثم قام بتخطيط المنطقة بأكملها بعد ما ردم ما كان حولها من البرك مثل بركة الناصرية وبركة السقايين وبركة الفوالة ومجموعة من المستنقعات كما أزال ما كان يتخلل المنطقة من الاكوام والتلال وخطط عدة شوارع أهمها شارع عابدين الحالى وشارع عبد العزيز الذى سمى بهذا الاسم نسبة الى السلطان عبد العزيز التركى بمناسبة زيارته لمصر فى عهد اسماعيل حتى أصبح هذا الحى من أجمل أحياء القاهرة وأجدرها بمقر الملك ٠

٤ ــ منطقة الأزبكية : أمر الخديوى اسماعيل فى سنة ١٨٦٧ بردم بركة الأزبكية وما كان يحيط بها من مستنقعات وتحويل جزء منها الى حديقة عامة تحت اشراف المهندس الفرنسى باريل بك وغرست فيها الأشجار النادرة التى جلبت من جميع بقاع العالم وحولت الى متنزه عام تبلغ مساحته ٢٠ فدانا لتكون بمثابة رئتى التنفس لاحياء القاهرة المكتظة بالسكان وامتد تخطيط المنطقة الى الجزء المعروف حاليا بشارع

وجه البركة شمالا والاجزاء الجنوبية منها تحولت الى ميدان التياترو الذى سمى فيما بعد ميدان الأوبرا ٠

وبعد انشاء حديقة الأزبكية خططت المنطقة بأكملها بما فى ذلك شارع كلوت بك وميدان العتبة الخضراء وأقيم تمثال ابراهيم باشا الذى نقل فيما بعد الى ميدان الأوبرا وكانت منطقة العتبة الخضراء قبل أن يقوم الخديوى اسماعيل بتخطيطها عبارة عن مجموعة من المرافق والمقابر « المعروفة باسم ترب المناصرة وترب الأزبكية وجامع السلطان أزبك الذى سميت المنطقة على اسمه فشمل التخطيط ازالة الجامع والترب فى سنة ١٨٧٠ وشق شوارع رئيسية مكانها وهى شـــوارع محمد على والموسكى لتخترق الاحياء القديمة وتصل قلب القاهرة الحديثة بكل من حى القلعة وقصورها وميدان المحطة عن طريق شارعى كلوت بك وابراهيم باشا ووصله بحى عابدين بانشاء شارعى عبد العزيز وعابدين ٠

٥ ـ الشاطىء الشرقى : وتعتبر تلك المنطقة أكبر اتساعا فى مشروعات التعمير والتخطيط حيث وصلت القاهرة القديمة بشاطىء النيل الشرقى وتشمل ازالة جميع التلال والهضبات واستعمال أتربتها فى ردم البرك والمستنقعات التى كانت تمتد من شارع عماد الدين الحالى وامتداده المعروف حاليا بشارع محمد بك فريد وبين شارع الملكة نازلى ومريبيت باشا وجنوبا الى القصر العينى وتشـــمل اخطاط الاسماعلية والتوفقية ومعروف وباب اللوق والدواوين والحوياتى والقاصد والانشا والمنيرة ـ وبدأ الخديوى اسماعيل بوضع مشروع تخطيطى لها بعد اصلاحها يتوسطه ميدان الاسماعيلية الذى تمتد منه الشوارع الرئيسية المتسعة وقســمت الى مجموعة من الأحياء انشئت فيها مجموعة من الميادين الرئيسية الموجودة بالقاهرة حاليا وقد وصف على مبارك باشا ذلك المشروع فى كتاب الخطط التوفيقية بقوله :

« وكان بهذه المنطقة قبل عهد اسماعيل كثبان أتربة وبرك مياه واراضى سباخ فلما جاء الخديوى اسماعيل أمر بازالة هذه الكثبان وردم هذه البرك وتمهيد جميع الأرض وتخطيطها الى شوارع وميادين وجعلت منازلها منفردة عن بعضها ودكت أرض شوارعها بالدقشوم وأنشئت الأرصفة على جانبى كل شارع منها وجعل وسط الشارع للعربات والحيوانات ومرت فى جميعها مواسير الماء لرش أرضها وسقى بساتينها ونصبت فيها فوانيس الغاز لاضاءتها وتنويرها فأصبح خط الاسماعيلية من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها » ٠

وعندما وصل التخطيط الى شاطىء النيل أقام الخديوى اســـماعيل سراى

الاسماعلية على الضلع الجنوبى للميدان وقد هدمت السراى فى عهد الاحتلال الانجليزى ولم يبق من هذه السراى الضخمة الا المسجد الذى كان ملحقا بها ويقع فى الجنوب الغربى من السور الخارجى القديم وجنوب سراى الاسماعيلية كانت مجموعة من القصور الملكية أهمها قصر الدوبارة والقصر العالى وكانا يطلان على النيل من الغرب وشارع قصر العينى شرقا وكان يضمها سور واحد مرتفع وقد هدما حوالى سنة ١٩٠٠ وقسمت أراضيها وتحولت الى المنطقة المعروفة حاليا باسم جاردن سيتى ٠

٦ ـ الشاطىء الغربى : عندما تم تحويل مجرى النيل تخلف عن المنطقة الغربية من مجراه القديم الذى انحسر عنه الماء أراضى واسعة بين شارع الجيزة الحالى وشارع فاروق الأول (البحر الأعمى سابقا) تمتد بين الجيزة وامبابة فقامت احدى الشركات الفرنسية بردم القسم الجنوبى بمعاونة رجال العونة فى المسافة بين مدينة الجيزة وشارع ثروت وبلغ ارتفاع الردم فى معظم أجزائها ما يزيد عن المترين أما المنطقة البحرية أى من شارع ثروت الى امبابة فقد طمت أرضها بتحويل مياه الفيضان عليها وتركها حتى يترسب ما تحمله من طمى ٠

وقام اسماعيل باشا بتحويل القسم الجنوبى منها الى أورمان أى غابة جلب اليها أنواع الأشجار من آسيا وأوروبا وأمريكا وقام برسمها وتخطيطها المنهدس باريل بك الذى سبق له تنظيم حديقة الأزبكية وتبلغ مساحة تلك الغابة ٤٦٥ فدانا وكانت تشمل حدائق الأورمان الحالية وحدائق الحيوان وتمتد حتى تصل الى سراى الجيزة بمبانيها الفخمة والتى كانت تقع موضع مخازن الترام بشارع المدارس ٠

٧ ـ منطقة الزمالك ووصل الشاطئين : لقد ترتب على تحويل مجرى النيل الرئيسى من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية أن تسلط تيار النهر على الجزء الجنوبى من الجزيرة الكبيرة وكان ساحلها الجنوبى قريب الاتصال من جزيرة الروضة ـ كذلك أثر فى الساحل الشرقى للجزيرة فتآكل جزء كبير منه عند توسيع مجراه خصوصا فى المنطقة المواجهة لحى بولاق وكان الشاطىء البحرى للجزيرة ينتهى عند شارع فؤاد الأول شارع ٢٦ يوليو حاليا حيث تبدأ المنطقة المعروفة حاليا باسم الزمالك ولم يكن موجود بها فى ذلك الوقت سوى قصر للنزهة أنشأه محمد على مكان نادى الضباط الحالى ٠

وقد نقل النهر ما تآكل من جنوب الجزيرة وشاطئها الشرقى الى ساحلها الشمالى وبذلك تم تكوين منطقة الزمالك الحالية ـ والزمالك لفظ البانى معناه الخص

أو العشة وقد وصفها محمد بك رمزى رحمة الله بقوله « وكان بالقرب من قصر محمد على » زمالك « يصطاف فيها رجال الحاشية وعساكر الحرس فعرفت منذ ذلك الوقت باسم الزمالك ، ثم أطلق فيما بعد على الجزيرة بأكملها فسميت بجزيرة الزمالك وقام الخديوى اسماعيل بتخطيط الجزيرة وأقام على ساحلها الشرقى سراى الجزيرة سنة ١٨٦٨ (فى مكانها المعروف الآن باسم سراى لطف الله) لنزول الامبراطورة أوجينى زوجة أوجينى زوجة نابليون الثالث بمناسبة زيارتها لمصر لحضور الاحتفال بافتتاح قناة السويس وأمر الخديوى اسماعيل المهندس باريل بك بتحويل الأراضى الزراعية المحيطة بهذه السراى الى حدائق ملكية تبلغ مساحتها ٦٠ فدانا ٠

كما انشأ أول كوبرى بالقاهرة على النيل وهو كوبرى قصر النيل سنة ١٨٧١ وهو أول كوبرى نشأ على النيل من منبعه الى مصبه وأمكن بواسطته ربط شاطىء النيل ببعضهما وتمكين سكان القاهرة من اجتياز النيل الى الجزيرة والشاطىء الغربى وأقام على الفرع الغربى (البحر الأعمى) النيل قنطرة صغيرة قبل أن يطهر الفرع وتجرى فيه الماء وقد استبدل كوبرى قصر النيل سنة ١٩٣٣ فى عهد الملك الراحل فؤاد الأول رحمه الله بكوبرى الخديوى اسماعيل الحالى كما اســـتبدلت القنطرة الصغيرة بكوبرى الانجليز الجلاء الحالى سنة ١٩١٤ ٠

عندما أتم الخديوى اسماعيل وضع ذلك البرنامج الاصلاحى الشـامل وأعد خطوات تنفيذه كان المنهدس العالمى هاوســـــمان قد أتم مشروعه الذى قدمه الى الامبراطور نابليون الثالث ذلك المشروع المشهور لاعادة تخطيط مدينة باريس والذى عمت شهرته الآفاق وانتشرت على أثره فكرة اعادة تخطيط المدن القديمة فى جميع أنحاء العالم ٠

فكان من الطبيعى أن يتأثر مشروع قاهرة اسماعيل بمشروع هاوسمان الزخرفى رغم اختلاف الدافع لكل منهما وقد ظهر أثر ذلك الاتجاه واضـــــحا فى المساحات الواسعة التى تحولت من برك ومستنقعات الى شوارع وميادين واسعة النطاق التى لا يزال يطلق عليها الاحياء الأوروبية كذلك فى الطرقات والشوارع المستقيمة التى تخترق الاحياء الوطنية لتصل أطراف المدينة ببعضها ٠

كما كانت رغبة الخديوى اسماعيل فى اقتفاء خطوات باريس أن تحتضــــن القاهرة غابة أو « أورمان » كما يطلق عليها باللغة التركية أسـوة بغـابة بولونى فأنشأ غابات الجزيرة والشاطىء الغربى والتى أطلق عليها فيما بعد حدائق الأورمان أو حدائق الغابة ٠

كما شمل برنامج قاهرة اسماعيل ما كانت تحتاجه المدينة من القصور والمبانى العامة والادارية التى كانت فى أشد الحاجة اليها كعاصمة للشرق فأخفى ذلك المظهر الواسع النطاق ما كان يخفيه جوهر المشروع من نواحى الاصلاح فكان أساسا للخطأ الذى وقع فيه كثير من المؤرخين المعاصرين عند نقدهم لمشاريع الخديوى اسماعيل وبرامجه الانشائية كما أنها أعطت الفرصة لمن افتروا عليـــــه أن يركزوا تحليلهم لقاهرة الاسماعيل على ناحية المظهر الشكلى مع تجاهلهم الجوهر الاصـــلاحى أو الهيكل الأساسى الذى بنى حوله المشروع بأكمله ٠

خطت القاهرة بذلك المشروع الاصلاحى مئات السـنين الى الامام ولكن تلك النهضة العمارنية لم تعجب مؤرخى الغرب فوصفها أرتور رونيه بقوله :

« ان القاهرة قد تطورت الى مدينة حديثة فحلت الملابس الأفرنجية محل القفاطين الشرقية المريحة واختفت المبانى المنخفضة والطرقات الضيقة بســــدرها الشرقى ومشربياتها الخشبية لتحل محلها العمارات العالية والنوافذ الزجاجية المتسعة فمن الآن فصاعدا سوف لا يرى السائح بالقاهرة الا طرقا واسعة مستقيمة وميادين رحبة عظيمة الطول والعرض تقوم على جوانبها تلك المبانى الضخمة التافهة التى يسمونها بالمبانى الرومانية » ٠٠ هكذا ثار مؤرخو الفرنسيين وغيرهم على قاهرة الاسماعيل وتطورها العمرانى لأنها تحولت من اطلال وآثار يعيش أهلها بين انقاضـــها ليجد السائح الأجنبى شيئا يستلفت نظره بالتفرج اليه ٠٠ تحولت الى عاصمة حديثة ليس فيها ما يلفت نظر الأجنبى لأنها أصبحت لا تختلف عن أية عاصمة من عواصم دول العالم المتمدينة الكبرى ٠

منذ حوالى قرن من الزمان انتقل الخديوى اسماعيل الى جوار ربه فى منفاه المطل على البسفور بعد ما حقق للقاهرة ما أراده لها من مكانة بين كبريات عواصم العالم وأمكنه فى تلك المدة القصيرة أن يخرج برنامجه الى حيز الوجود فبذلك تحققت أمنيته الأولى وكانت أمنيته الأخيرة التى رددها على فراش الموت أن يرى القاهرة فى زيها الجديد الذى أفنى زهرة العمر فى نسجها بيده ٠

وها هى قاهرة اسماعيل لازالت تختال بذلك الزى بأحيائها وشوارعها وميادينها التى تسيطر على تخطيطها المدنى بأكمله وتزينها مجموعة كبيرة من التماثيل تمثال ابراهيم باشا ولاظ أوغلى وسليمان باشا الخ ٠٠٠ ومع ذلك فهى تفتقر الى تمثال من كان له الفضل الأول فى انشائها وهو تمثال اسماعيل ٠

ولكن التاريخ المعمارى الذى سجل نهضته العمارنية قد اقام له تمثالا خالدا من أعماله الخالدة ٠

٢٥١ ـ رسـم تخطيط يوضح موقع الفسـطاط والعسكر والقطائع·جنوب الاهرة ، ويبدوشاطىء النيل بمجراه القديم بالقرب من جامع عمرو ·

● القاهرة هى رابع العواصم الاسلامية فى مصر · وكانت العاصمة الاولى هى الفسطاط التى اسسها عمرو بن العاص بعد استيلائه على مصر عام ٦٤٠ م ، ثم العسكر التى شيدها صالح بن على قائد الجيش العباسى الذى أوفد الى مصر للقضاء على الحكم الاموى بها وذلك عام ٧٤٩ م ·· ثم جاء أحمد ابن طولون واختار منطقة جبل يشكر ـ وهى الان جامع بن طولون ـ وبنى القطائع ·· وهذه المدن الثلاث اتصل بعضها ببعض فى أواخر العصر الطولونى ·

ولما جاء الفاطميون واستولوا على البلاد عام ٩٦٩ م · شرع قائدهم جوهر الصقلى · بناء عاصمة الفاطميين الجديدة، وذلك بناء على تعليمات المعز لدين الله · وقد اختار جوهر الصقلى موقعا شمال الفسطاط · وكانت هـذه البقعة بين العواصم الثلاث السابقة ، وكانت مسـاحتها الكلية فى ذلك الوقت يبلغ نحو ٣١٥ فدانا ·

● القاهرة ·· عبر العصـور الاسـلامية ، كيف كانت وقبل أن تكون وكيف أصبحت ·· القاهـرة ماضيها وحاضرها ومستقبلها ·

المرجح أن العرب قد أطلقوا على المدينة التى أسسوها فى مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة، كما أطلق على البصرة أيضا نفس الاسم ٠

وكما فعل العرب عند تأسيس البصرة والكوفة ، بدأ عمر ببناء مسجده ، وشيد بجواره دارا له وأسند عملية توزيع الخطط (التخطيط) بين جماعات القبائل الى أربعة من العرب ٠ وأخذ أهل الخطط يبنون المنازل حول الجوامع نحو الشرق والشمال والجنوب ٠ وكان بين هذه الخطط دور جماعة من الصحابة اشتركوا فى فتح مصر مثل دار عمرو بن العاص ، ودار الزبير ابن العوام ، ودار يعقوب القبطى ، ودار جبر القبطى ، وكانا قد صحبا السيدة مارية القبطية الى المدينة حيث أهداها المقوقس للنبى صلى الله عليه وسلم ٠

٢٥٣ ـ مسجد أحمد بن طولون ٢٦٣ هـ ـ ٨٧٦ م

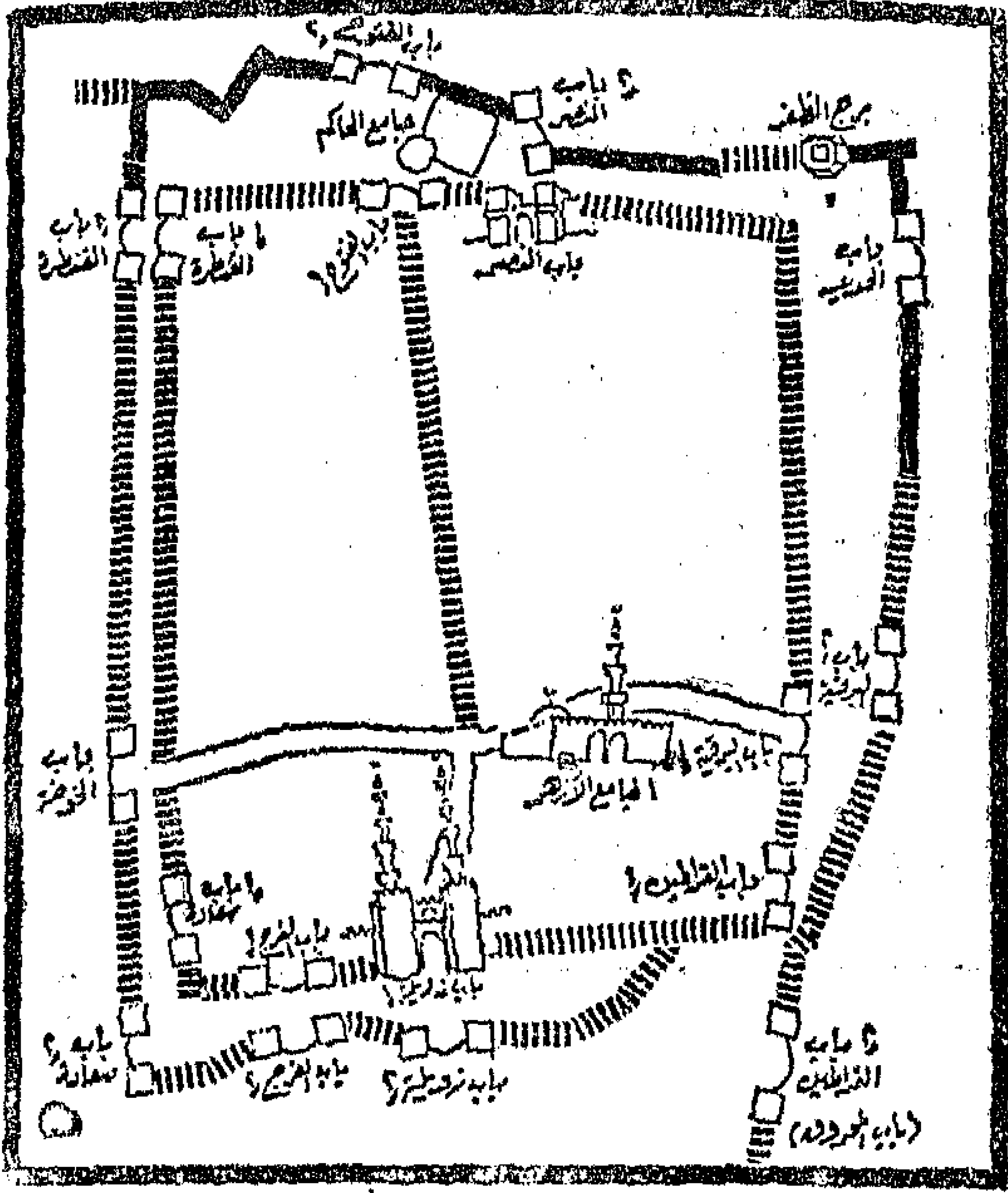


ويمثل هذا المسجد العظيم بطرازه الفنى وبتأثره بالاساليب العباسية ارتباط ابن طولون بمركز الخلافة العباسية ، واحساسه بالوحدة العربية ، وتماسك المجتمع العربى ٠



٢٥٥ أ يسار ـ القاهرة الكبرى عام ٢٠٠٠

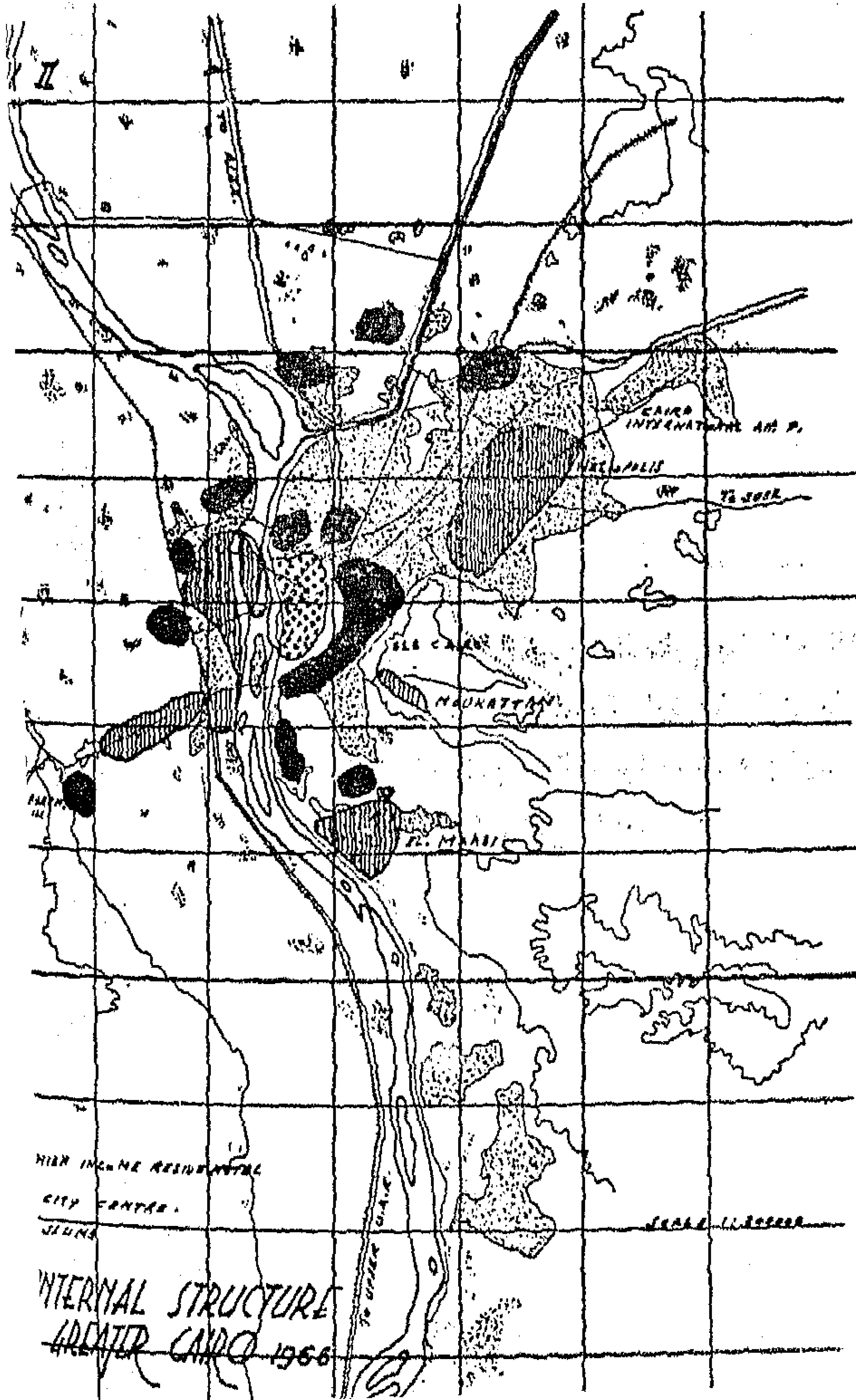
شرح العالم البريطانى بروفسر كريزويل فى كتابه « فن العمارة فى صدر الاسلام » أثر أبنية سامارا فى العمارة الطولونية بمصر . فيقول أن جامع أحمد بن طولون بصحنه الواسع ، وزخارفه البارزة ، وحناياه المعقودة ، ونوافذه المتناسقة ، ومنارته اللولبية ، انما بنى على غرار المسجد الجامع الذى بناه المتوكل العباسى فى سامارا وقد غدا جامع أحمد بن طولون بدوره مبدأ عصر جديد لفن العمارة الاسلامية

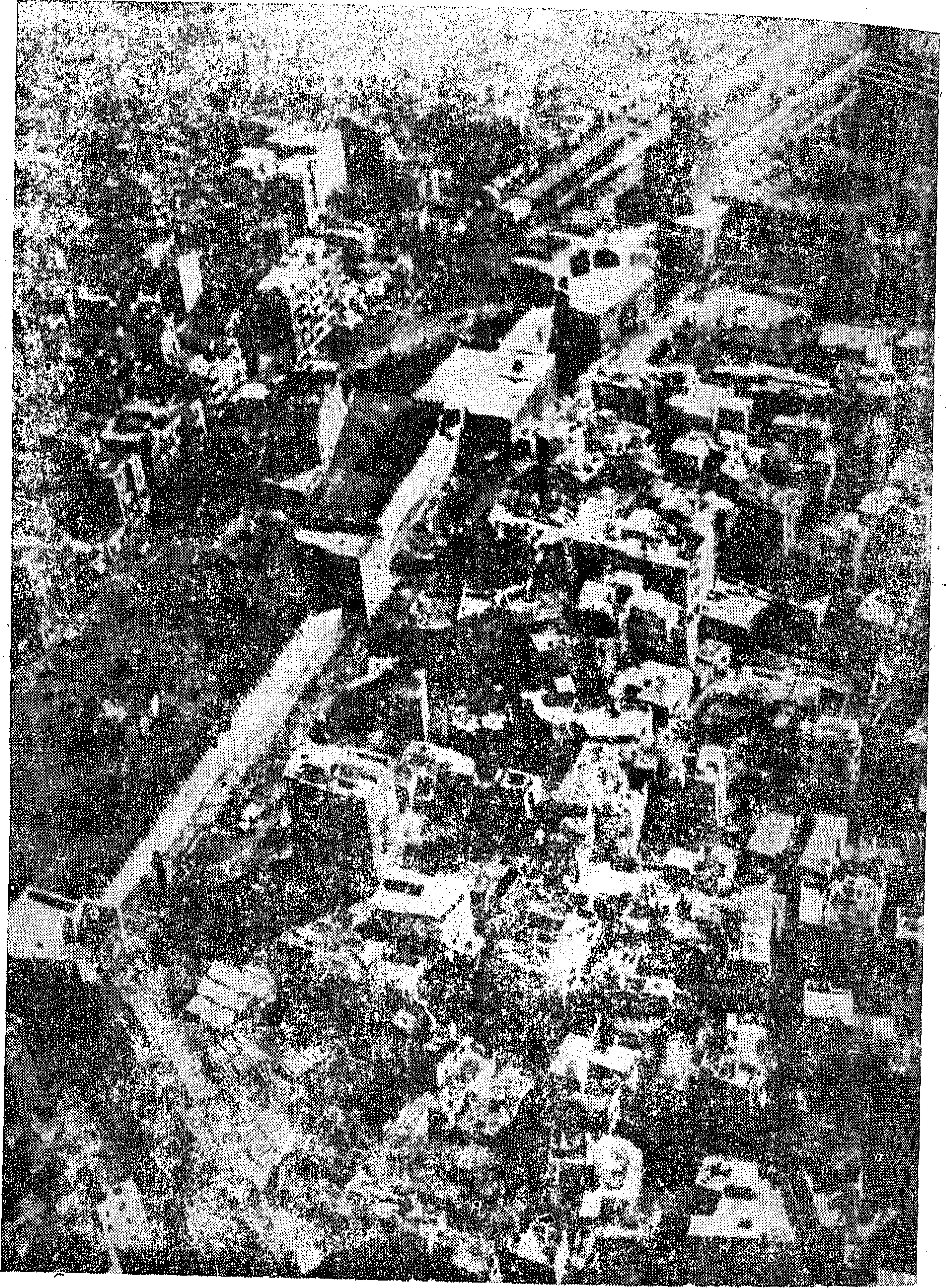


٢٥٤ ـ القاهرة كما وضع تصميمها جوهر ، وتبدو على حدودها أسوار جوهر وأسوار بدر الجمالى بأبوابها وأجزاء من سور صلاح الدين ومئذنتا المؤيد .

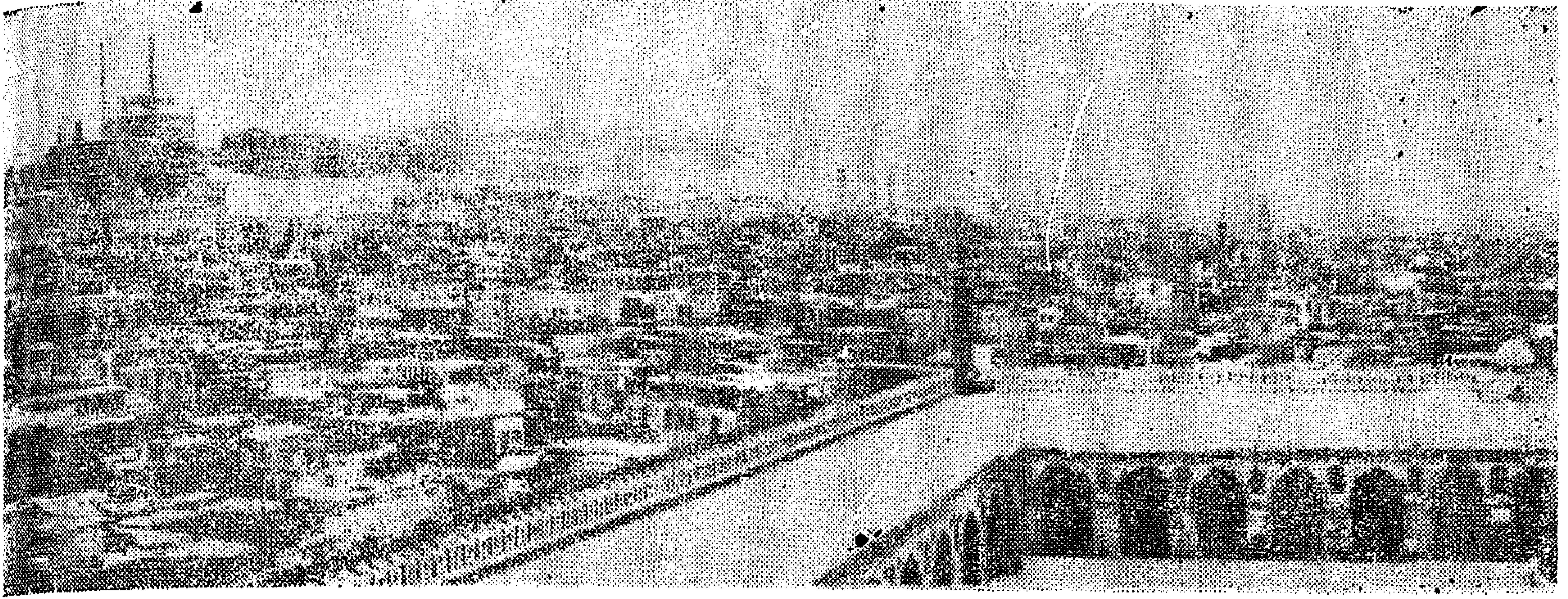
٢٥٤ أ ـ قاهرة القرن العشرين .

٢٥٥ ـ مئذنة جامع الحاكم وجزء من السور الشمالى فى القاهرة .

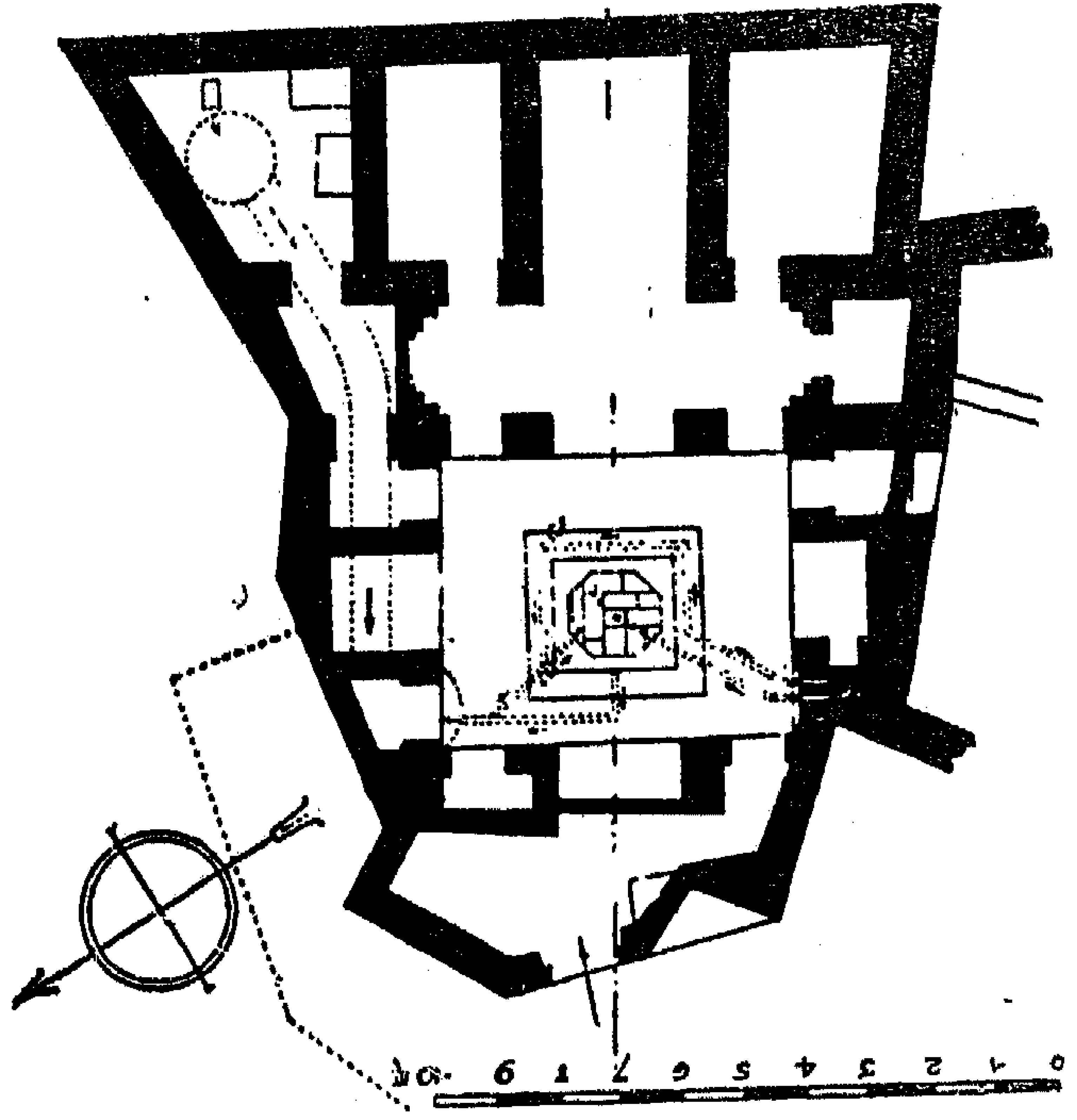




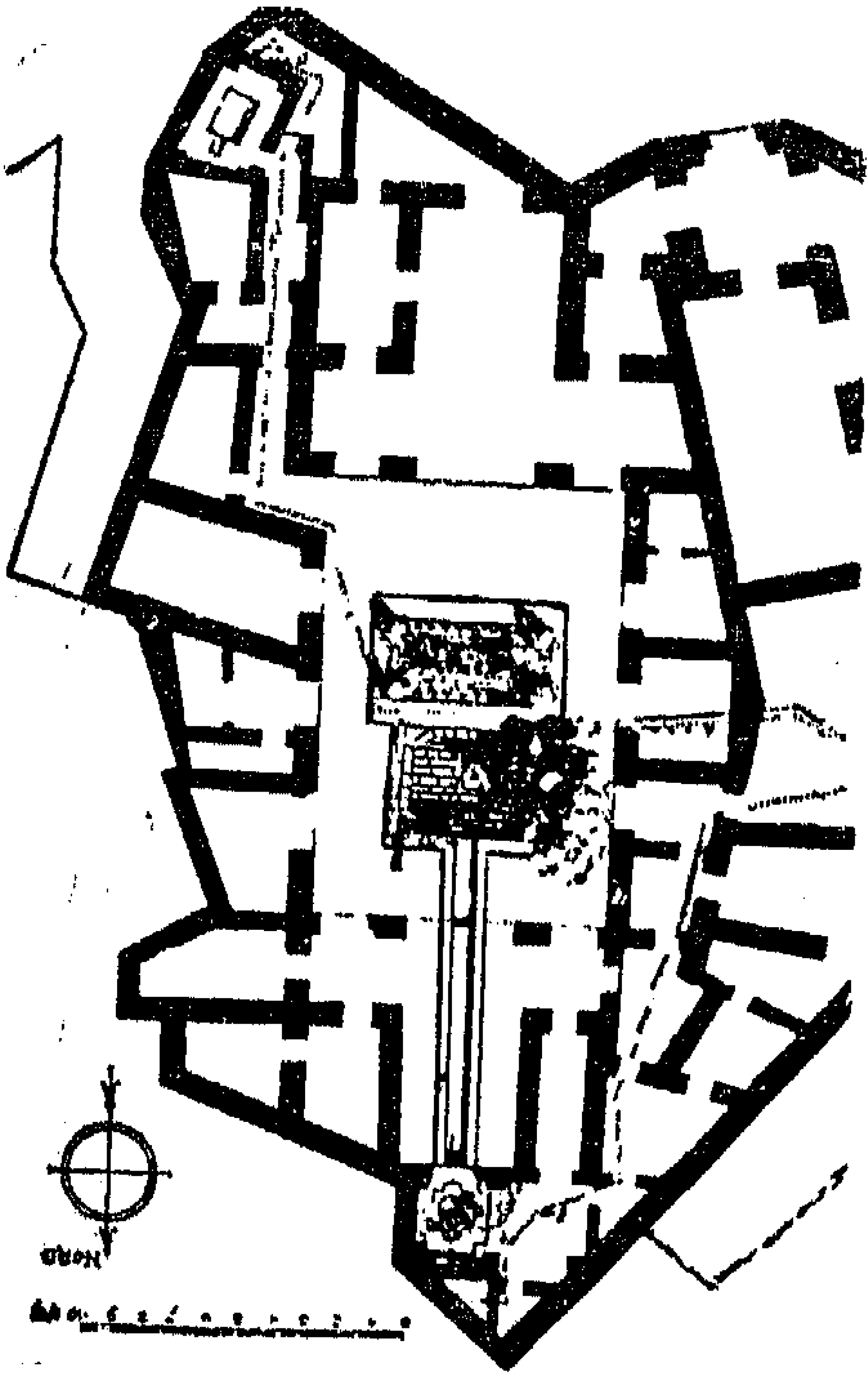
٢٥٦ ـ قاهرة اليوم .. قاهرة العصر الحديث فى القـرن
العشرين كما تبدو من القلعة وجامع محمد على ويرى جامع
أحمد بن طولون وكأنه درة فى جبين القاهرة



● القاهرة عبر العصور الاسلامية ...
كيف كانت وقبل أن تكون وكيف أصبحت..
٢٥٧ ـ أعلا : مدينة القاهرة ، ويرى فى المقدمة جامع أحمد بن طولون ٠
٢٥٨ ، ٢٥٩ ـ يمين وأسفل : نمـــاذج من بيوت الفسطاط ٠



● القـــاهرة ٠٠ مساكن الفســـطاط
النصف الثانى من القرن الحادى عشر ٠





SH AL DAK'R AL ASFAR

SH AL JAMALIYAH

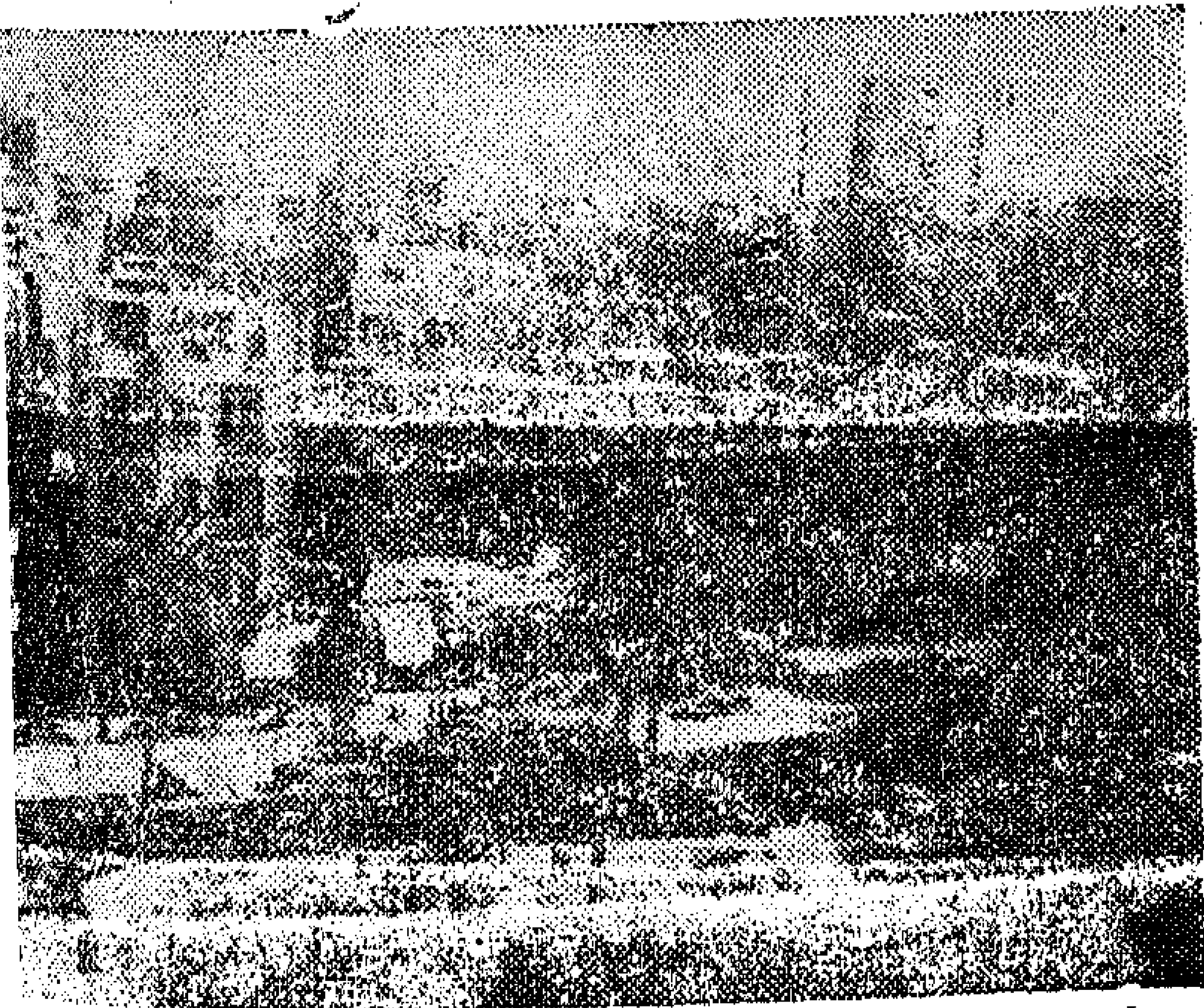
SH QASR AL SHAUQ

٢٦٠ ـ خريطة منطقـــة الجمـــالية توضح أهم
المبانى والمعـــالم الاثرية التـــاريخية



٢٦١ – أول خريطة مساحية لمدينة القاهرة تمت
بمعرفة مصلحة المساحة أيام نابليون عام ١٨٠٠ م

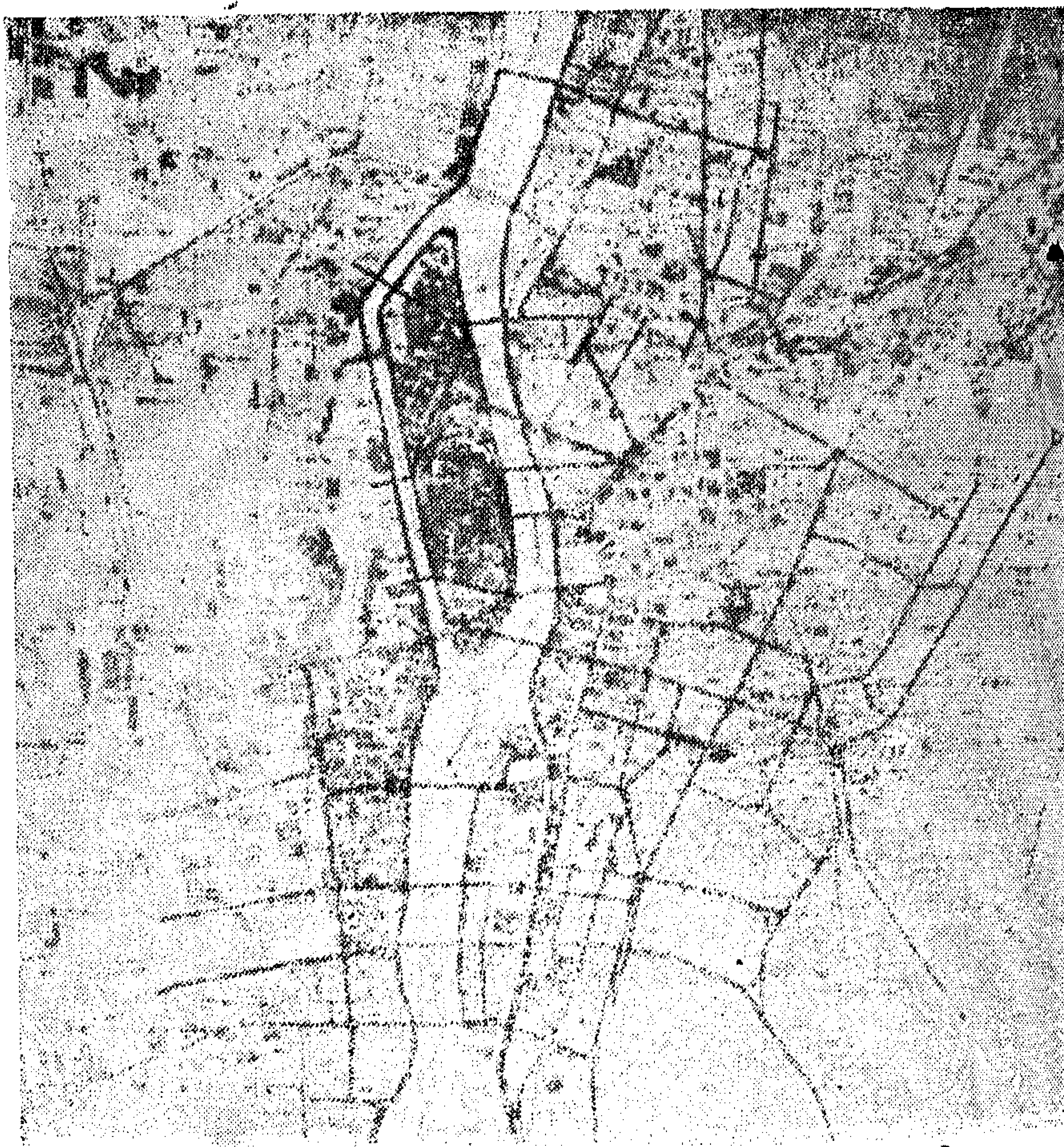
يمين : ١ – باب الفتوح ٠ ٢ – جامع الحاكم ٠ ٣ – باب
النصر ٠ ٤ – وكالة قيسون ٠ ٥ – بيت السحيمي ٠ ٦ – خانقاه
بيبرس ٠ ٧ – جامع الاقمر ٠ ٨ – وكالة ٠ ٩ – جامع جمال
الدين ٠ ١٠ – وكالة ٠ ١١ – قصر المسافرخانة ٠ ١٢ – سبيل
وكتاب عبد الرحمن كتخدا ٠ ١٣ – مقبرة الشيخ سنان ٠
١٤ – مدرسة ٠ ١٥ – قصر ٠

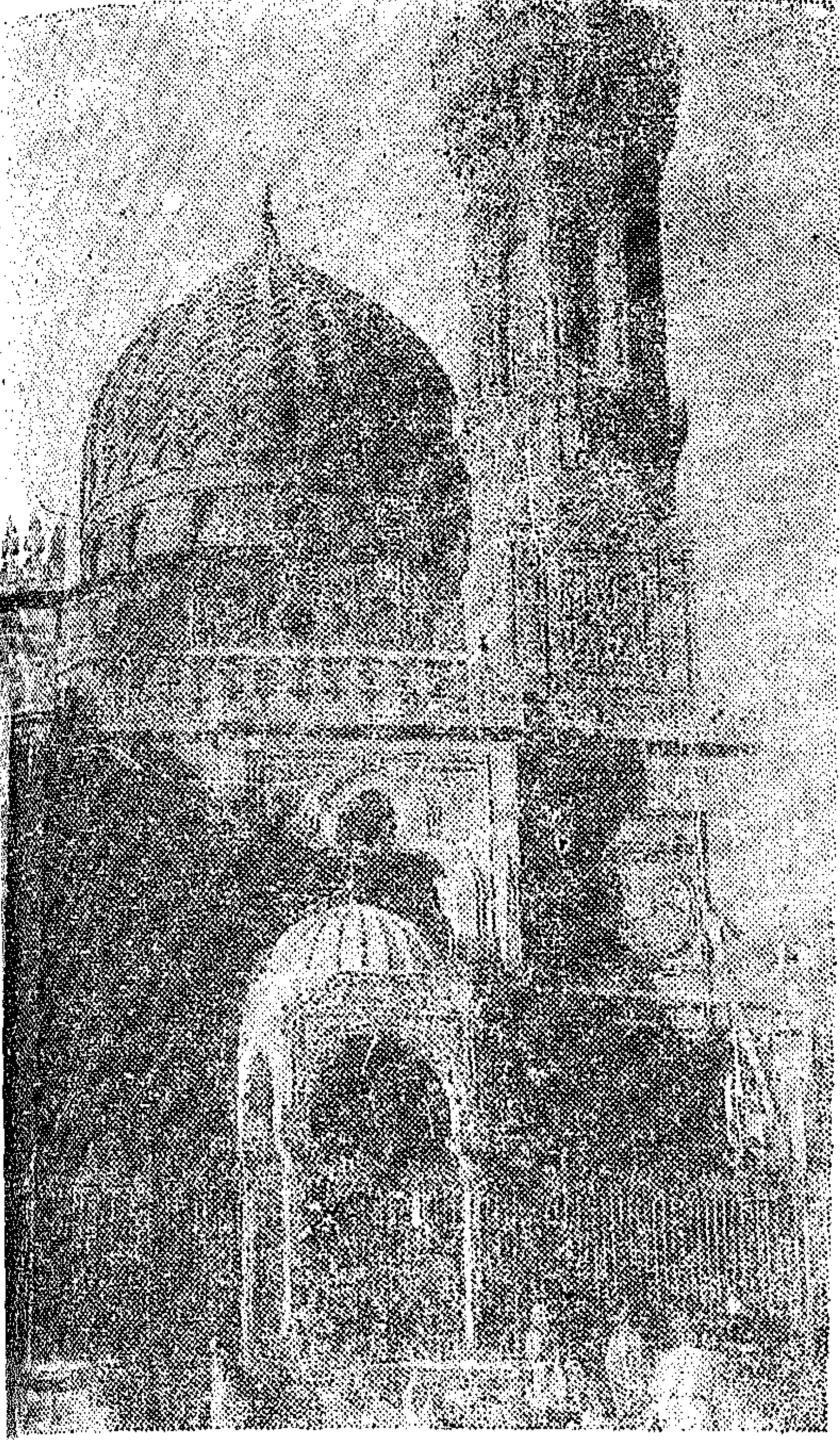




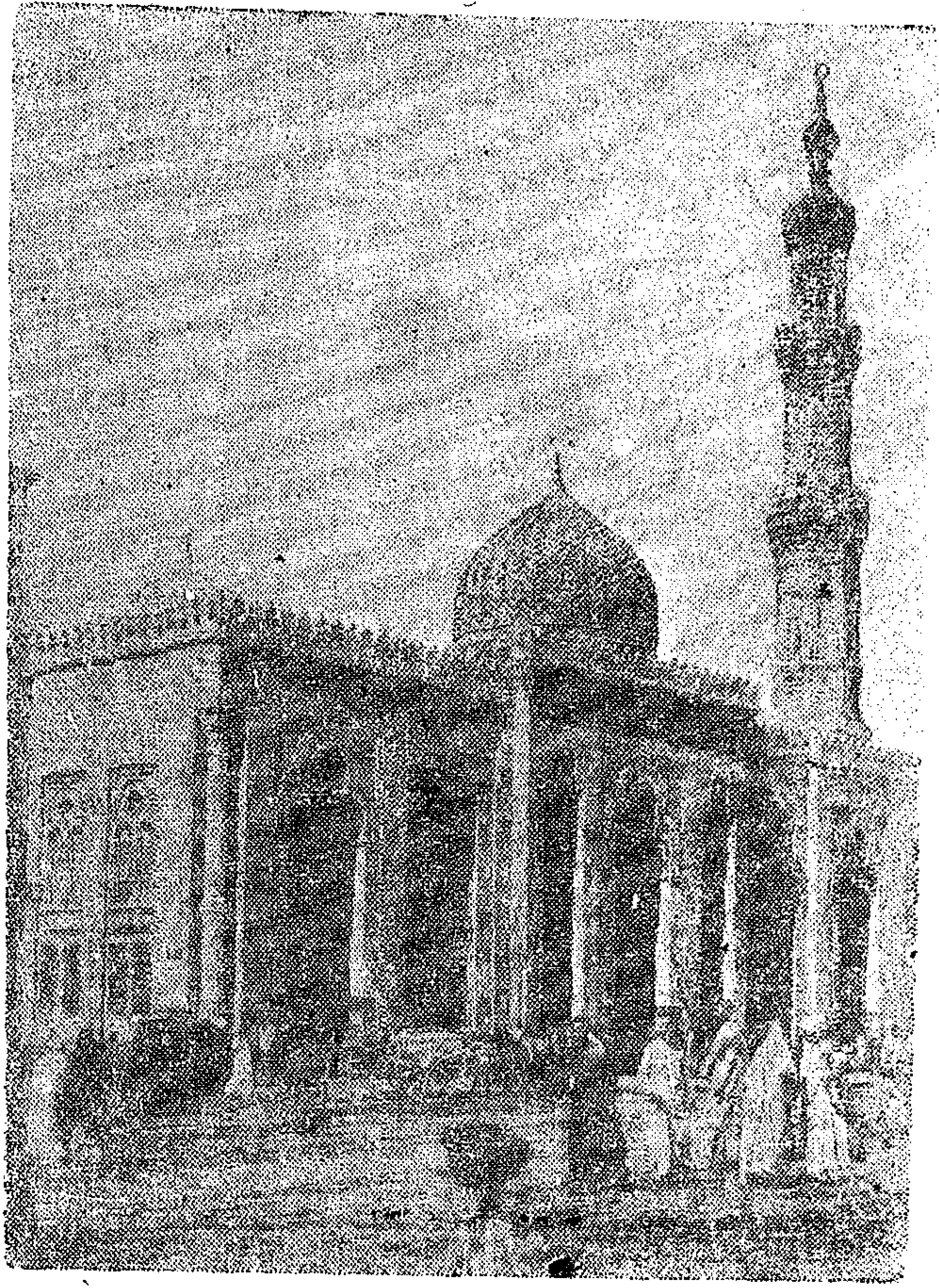
٢٦٢ ـ أعلا : أول مشروع تخطيط عمرانى لمدينة القاهرة وضعه المهندس الفرنسى « هوسيمان » عام ١٨٦٢ م ٠

٢٦٣ ـ أسفل : خريطة لمدينة القاهرة توضح الكبارى الاساسية الاربعة لربط شاطىء النيل لمواجهة زيادة السكان أضيف بعد ذلك فى السبعينات كوبرى ٦ أكتوبر ٠

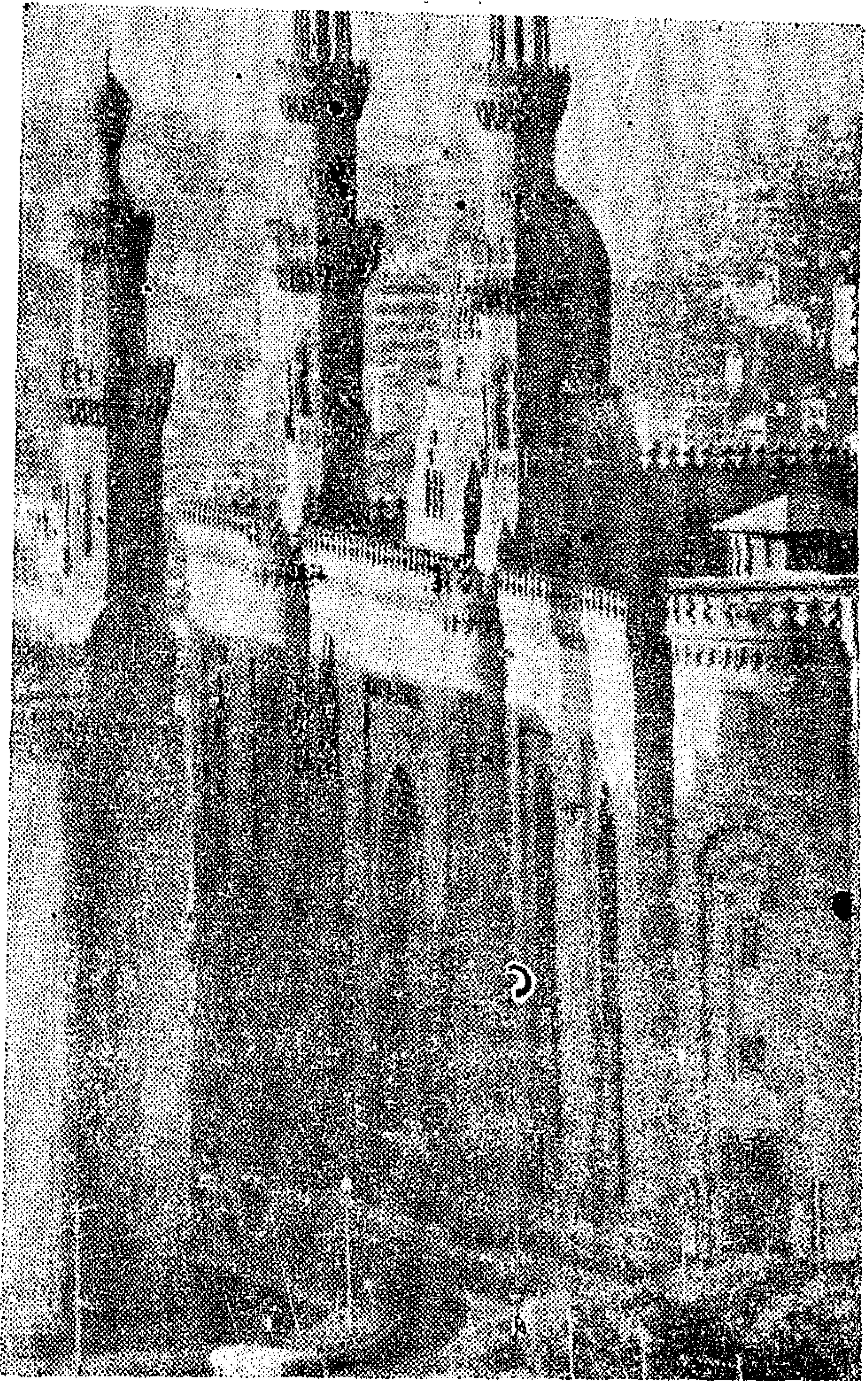




٢٦٥



٢٦٤



● مساجد القاهرة عبد العصور الاسلامية ..
عمـــارة ومنـــارة وحضارة

من أهم المعالم المميزة لمدينة القاهرة كثـــرة المساجد والاضرحة التى أنشئت بها عبر العصور الاسلامية الاولى والمتوسطة والتى تنوعت من حيث أسس التصميم والتكوين والهيئة والاسلوب مثل : مساجد عمرو وأحمد بن طولون والحاكم بأمر الله والازهر الشريف والسلطان حسن ومحمد على والرفاعى وغيرها .

٢٦٦

● مناظر اختفت من القاهرة .. وكانت تعبر عن الحياة الاجتماعية والاحتياجات الشعبية الطبيعية .

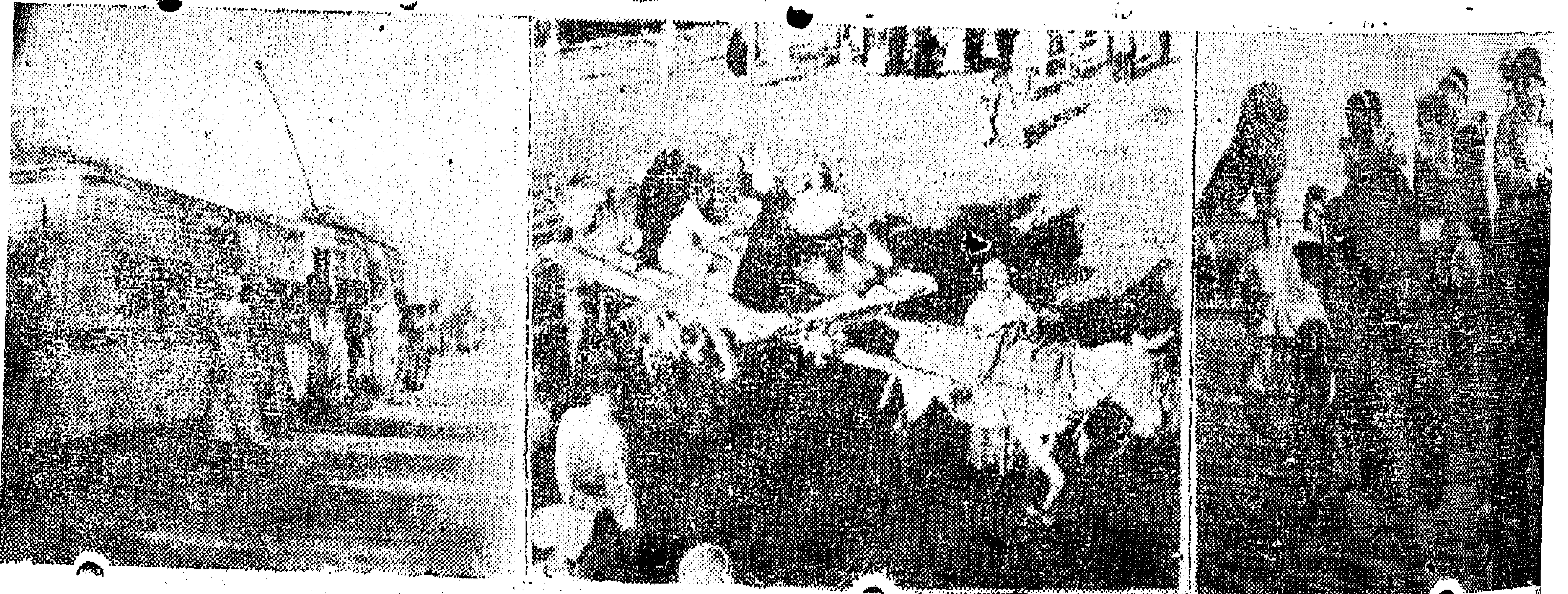
٢٧٦ ـ يمين : بائع العرقسوس ـ شفة وخمير .

٢٦٨ ـ أسفل : عربات الرش ـ غسيل الشوارع وترطيب الجو من شدة الحرارة ... وحمامات سباحة متنقلة لاطفـال الحى وترطيب أجسادهم .





٢٦٩ ـ أسفل بعض وسائل النقل الشعبى وكذا الترفيه والنزهة



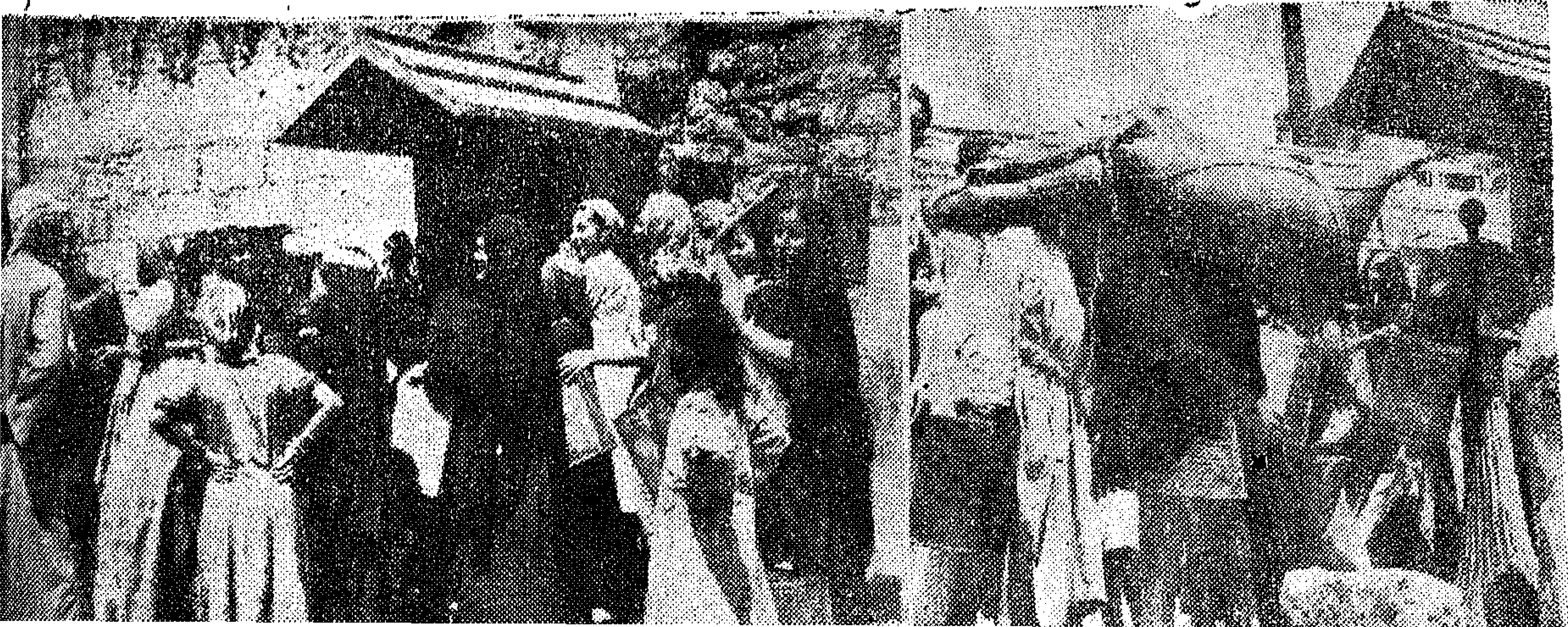


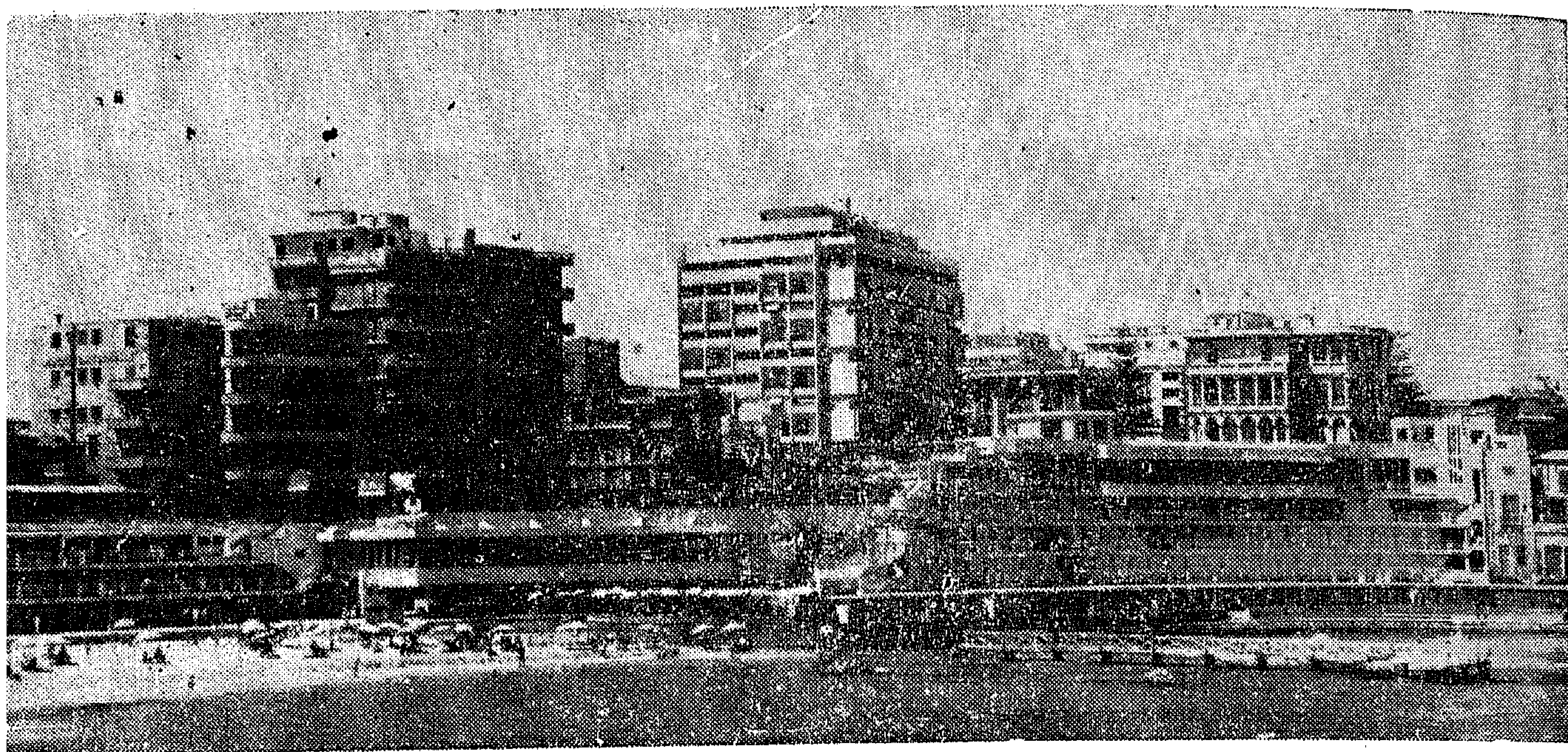
القاهرة بين الماضى والحاضر والمستقبل

٢٧٠ ـ يسار : حارة شق الثعبان وعرضها ٦٧ سم ٠

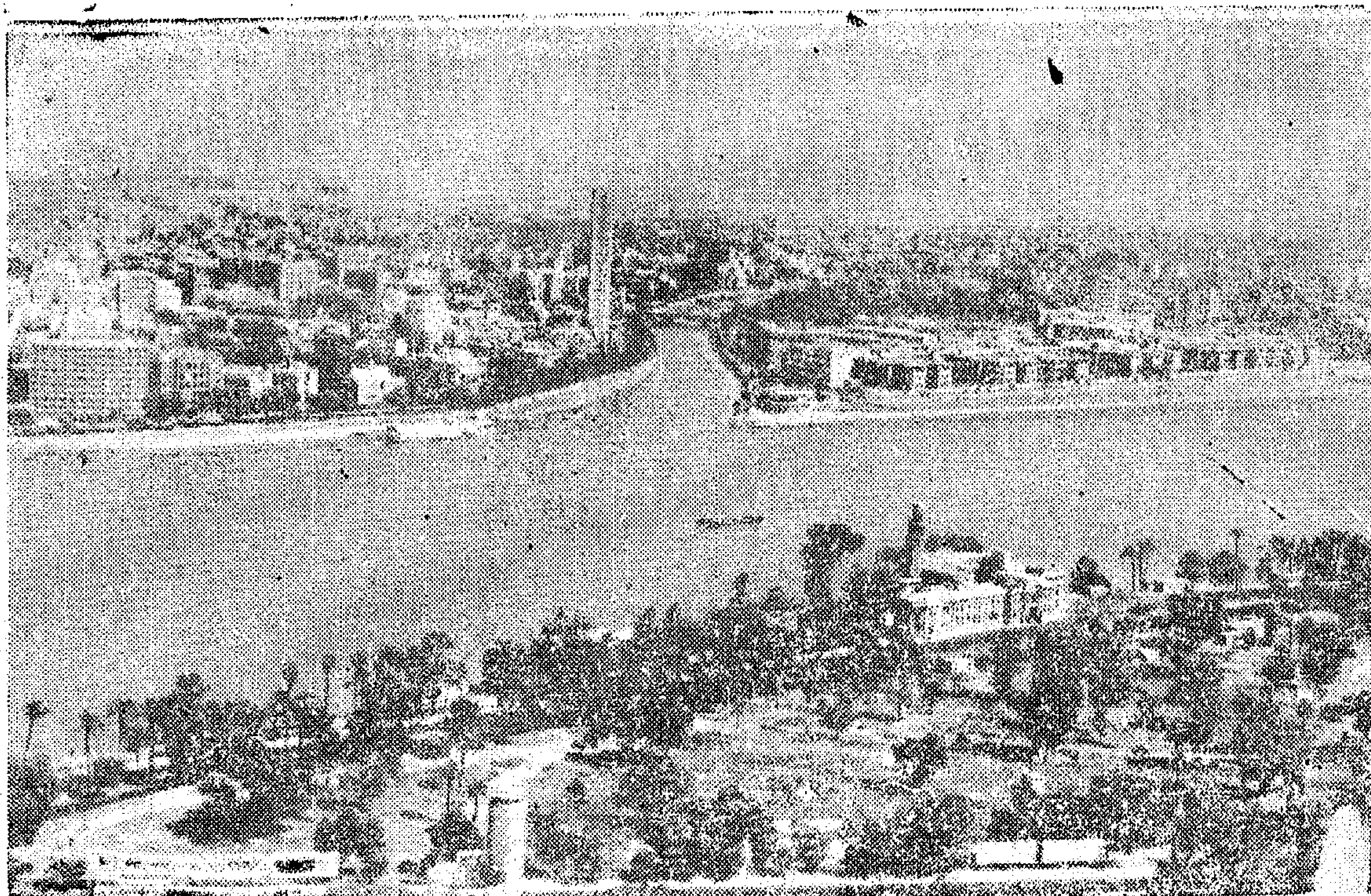
٢٧١ ـ صور تعبر عن بعض مظاهر الحياة فى مدينة القاهرة فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين





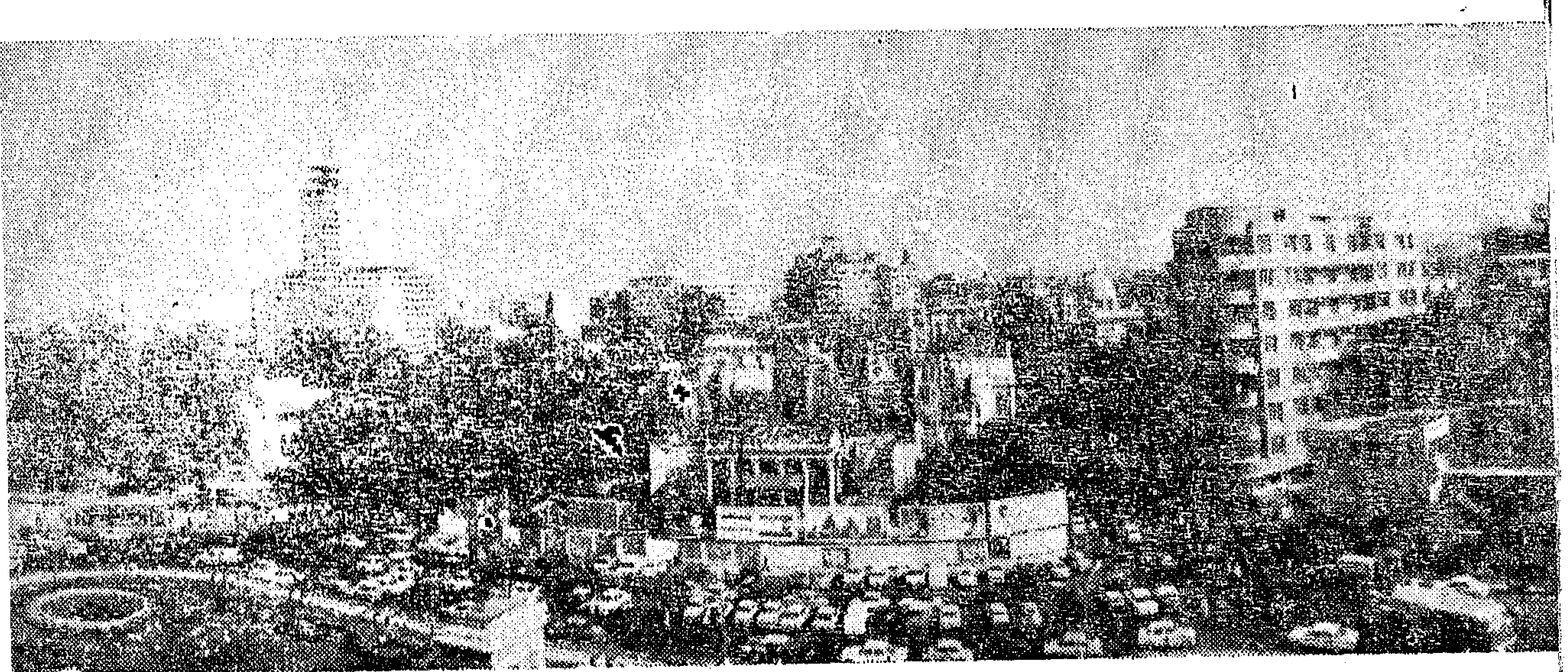


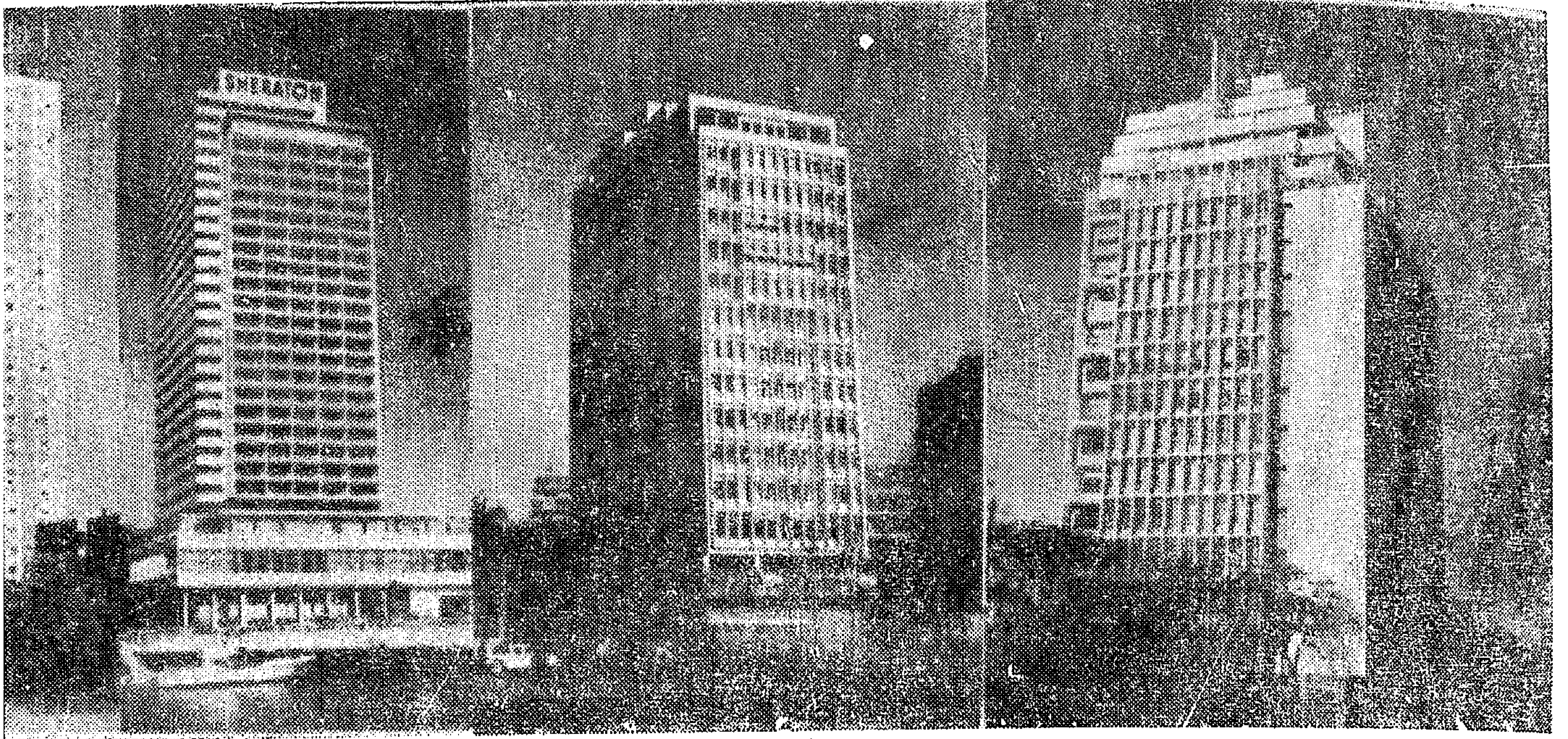
٢٧٣ ـ أعلا : شاطىء النيل الشرقى ··· وحى جاردن
ستى حتى عام ١٩٥٤ · كانت القاهرة تحافظ دائما على
حفظ التوازن بين البيئة والمجتمع واحترام النيل ·
٢٧٤ ـ القاهرة وكورنيش النيل فى الخمسينيات ·





٢٧٥ ـ أعلا : وجه القاهرة الحالم الجميل يطل على ضفاف النيل قبل الستينات وقبل أن يلبس قناع شيكاغو المخيف ، قناع الابراج العالية ٠
٢٧٦ ـ أسفل : مركز الثقل الحضارى لمدينة القاهرة بعد حريق دار الاوبرا عام ١٩٧١ ٠





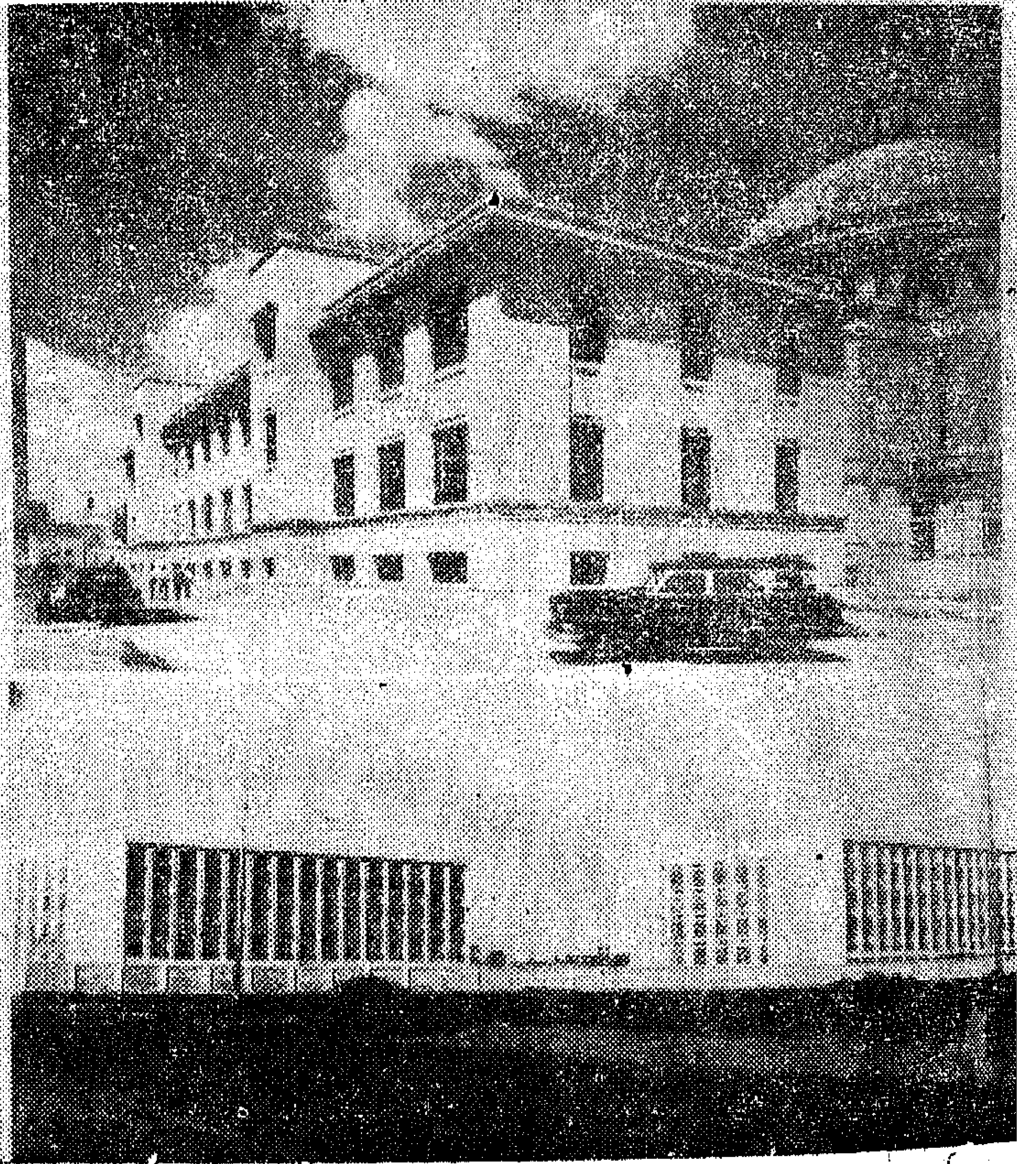
● القاهرة ... قبل الستينات .

كانت عمارة القاهرة التى أنشئت قبل ١٩٦٠ تتسم بالوقار والاحترام والشخصية . كانت تعبر عن أصالة الماضى وتقدم الحاضر وأمل المستقبل .

٢٧٧ ـ أعلا : برج الزمالك ١٩٥٤ ، فندق كليوباترة ميـدان التحرير ١٩٥٠ ، فندق شيراتون/الجلاء ١٩٦٠ ، عمارة حسن أبو الفتوح/جاردن ستى ١٩٥٠

٢٧٨ ـ أسفل : قاعة الاحتفالات جامعة القاهرة ١٩٣٠ ، مبنى المدرجات جامعة عين شمس العباسية ١٩٥٦ .







● العمارة ٠٠ سجل لعقائد المجتمع ٠٠ عكست مارة القاهرة صورة المجتمع وما طرأ عليه من تطور ٠٠ سياسيا واجتماعيا وثقافيا وروحيا ٠ وبعد أن كانت عمارة القاهرة منذ أوائل القرن العشرين وحتى الستينيات تتسم بالاحترام والوقار والشخصية ٠٠ اتجهت بعد ذلك نحو التصنيع والتجميع والاستغلال والارتجال، ووضعت القاهرة على وجهها الجميل قناع مدينة شيكاغو المخيف ٠

مقارنة بين عمارة القاهرة فى أوائل هذا القرن وبين عمارتها فى اخره ٠

٢٧٩ ـ يمين عمارة شركة تأمين بميدان مصطفى كامل ١٩٢٣ ٠

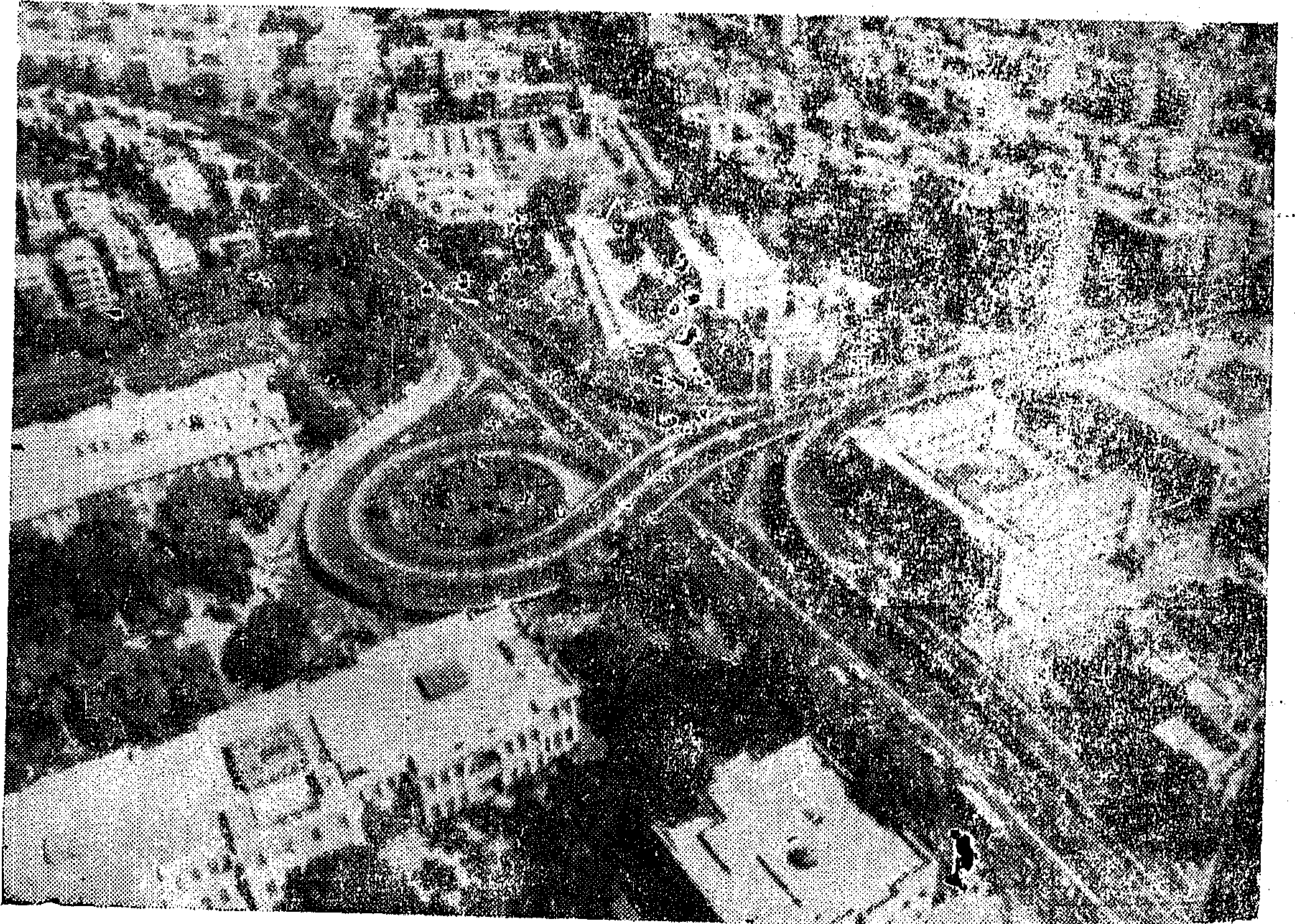
٢٨٠ ـ أسفل : مجمعات سكنية وادارية بميدان العباسية ١٩٧٣

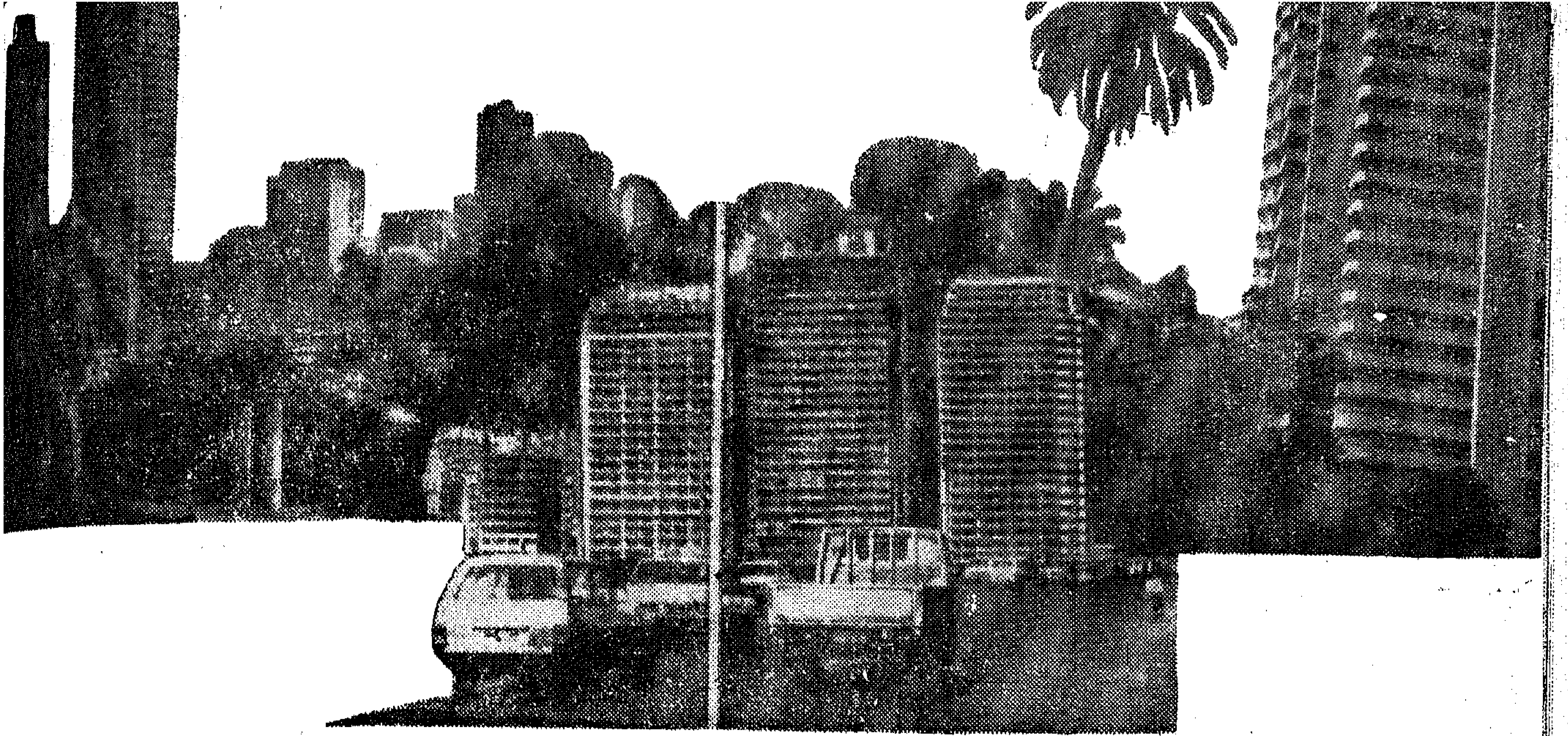




٢٨١ ـ أعلا : مركز الثقل الحضارى لمدينة القـــاهرة حديقة الازبكية وقد شطرها امتداد شارع ٢٦ يوليو الى جزئين قضى على وظيفتها كرئة لمدينة القاهرة ٠

٢٨٢ ـ أسفل ـ قاهرةالقرن العشرين ـ ١٩٨١ وكوبرى٦ أكتوبر

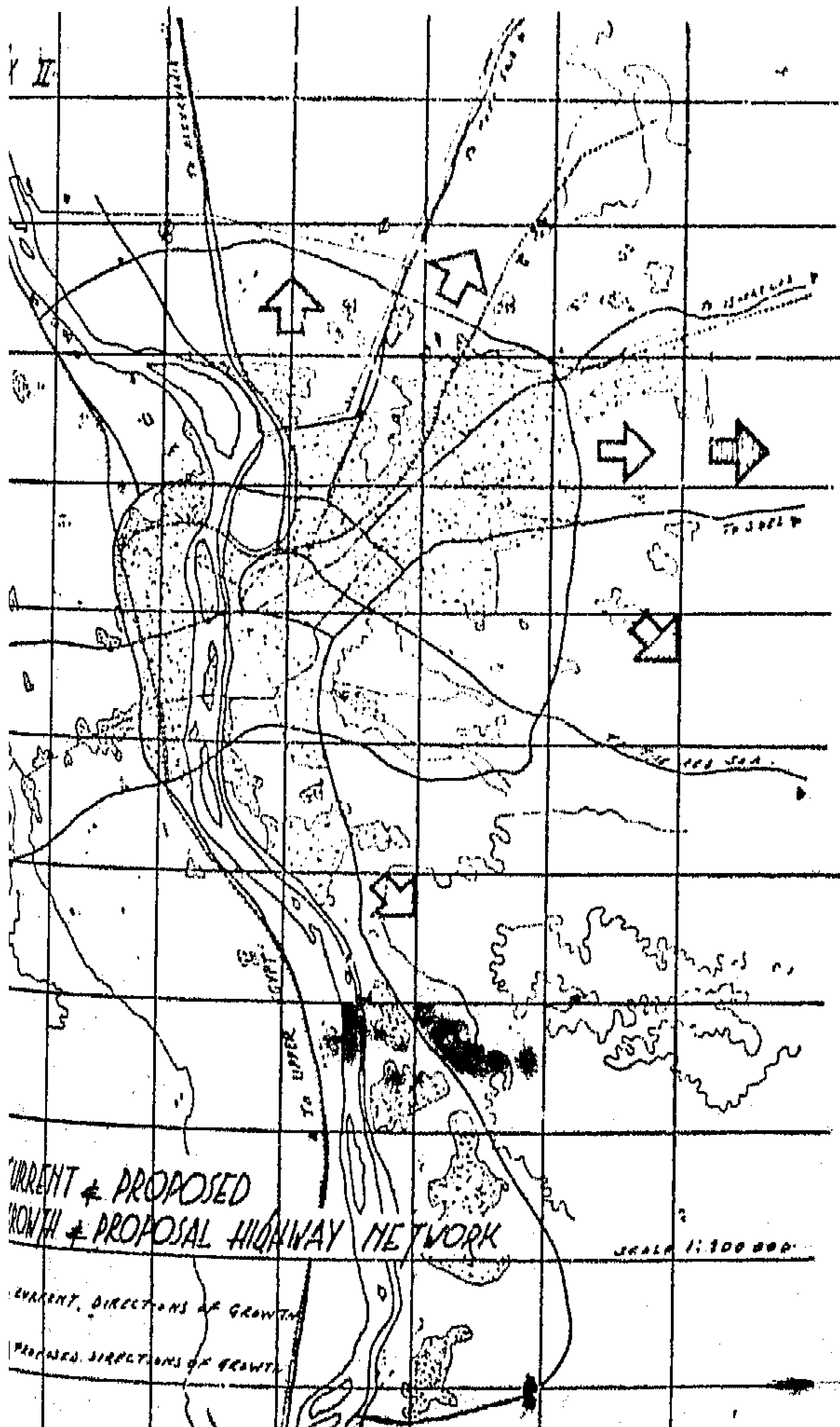


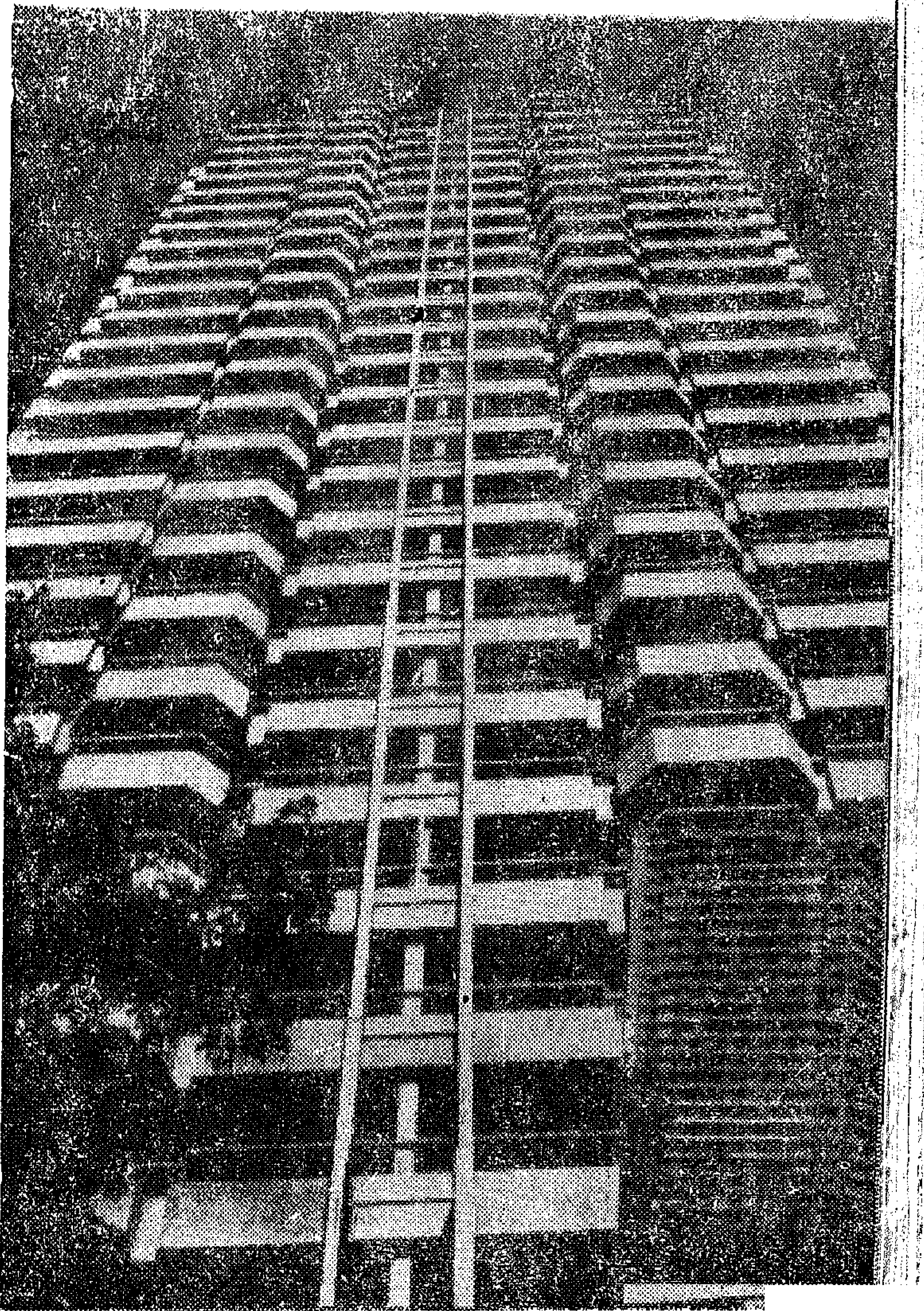


٢٨٣ ـ جزيرة الزمالك ـ القاهرة ١٩٨٢

٢٨٤ ـ أحد الابراج العالية بالزمالك ··

● القاهرة التى ظلت تحترم خط السماء ·· الخط الافقى المستقيم وهو خط الحياة ·· نجد أنها فى هذا العصر الحديث تضع على وجهها الجميل قناع شيكاغو المخيف وترتفع بمبانيها الى أعلى وتخترق خط السماء بتلك الابراج السكنية والادارية العالية ، حيث أصبحت القاهرة تعيش فى كابوس عمرانى مخيف وفوضى معمارية





دمشق اسم هذه المدينة ، وردت فى اللغـــة الهيروغليفية ومعناها الأرض المزدهرة أو لحديقة الغناء · وأطلق الآراميون عليها اسم « درمسق » · وقيل ان « ارم ذات العماد » التى وردت فى القرآن الكريم هى دمشق ، والآية الكريمة « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » سميت دمشق بأسماء عدة منها ، جلق الخضراء ، والغوطة ، وذات العمـــاد ، ولقبت بالفيحاء ، وبالعذراء ·

تبعد دمشق عن البحر الأبيض المتوســط بنحو ٦٠ ميلا ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦٩١ م يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ · غربها مفتوح وكذا شرقها ، فهى سهلية جبلية · تأخذ فيها الفصول الأربعة حكمها وقد تصل درجة البرودة فى الشتاء الى ١٢° تحت الصفر وتصعد صيفا الى نحو ٣٧° · وكما أن مصر هبة النيل، كذلك دمشق بأسماء عدة منها ، هبة بردى الذى يسقى المدينة بعد تقســيمه الى ستة أنهار ·

دمشق(*) أقدم مدينة فى العالم ، ظلت باقية على عمرانها على اختلاف العصور بنحو ٤٠٠٠ سنة ونظرا لقربها من جزيرة العرب والعراق ومصر وأرض الجزيرة فقد كانت مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب · وأهم ما تمتاز به مدينة دمشق من حيث الموقع أن لها واديين ، وادى بردى ووادى العجم · وهى على مقربة من اقليم حوران الغنى بالمحاصيل الزراعية ، وعلى أميال يسيرة من اقليم الجولان المشهور بالمراعى ، وعلى مسافات قليلة من المصايف والمشاتى · فغورها على مقــربة من نجدها ، وجبالها كسهولها ، تتعاون على جلب الخيرات اليها ·

دمشق عبر التاريخ :

● استولى الآشوريون والبابليون والفرس والأرمن واليونان والرومان على هذه المدينة · حكمها الرومان ٧٠٠ سنة ، وحكمها اليونان ٢٦٩ سنة ، واتخــذها الأرمن قلعة لهم مدة ١٨ سنة · وكان شأن دمشق فى النكبات شأن العواصم الكبرى،

(*) دمشق ـ للاستاذ محمد كرد على ·

اذا اضطرب حبل الأمن فى البلاد المجاورة لها أو تنافس الرؤساء من الملوك والحكام ، تظهر الخلافات وتعم النكبات ٠

ـــ فتح دمشق خالد بن الوليد ٦٣٦ م ، ووضع أساس ملك بنى أميـــة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وكان على غاية من التسامح الدينى ٠ ثم تولى الخلافة ابنه يزيد ثم مروان بن الحكم ، ثم ابنه عبد الملك ، ثم تولاها عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب لأمه ، حيث ضرب المثل بعدله وحسن سياسته ٠ ويقول جوســتاف لوبون « أبان العرب عن سامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بدينهم وسلطانهم وطرحوا النصرانية ، وقبلوا دين الفاتحين ، وتعلموا لسانهم » وأصاب دمشق من بنى أمية ما أصبحت به عاصمة أعظم دولة ٠ وانتابت دمشق فتن وأحــداث أيام العباسيين ، وكان أحمد بن طولون أول من اقتطع جزءا كبيرا من جســم الخلافة العباسية وأستولى على الشام ، ثم تبعه ابنه خمارويه وأحسن لأهل دمشق ٠ ثم ظهرت الدولة الاخشيدية ، حيث صادر الأخشيد أموال الأغنياء فى دمشق ، واستولى كافور الأخشيدى على دمشق وضمها الى مصر ٠

ـــ ثم جاءت الدولة الفاطمية فاستولت على هذه المدينة سنة ٣٥٩ هـ ، وعادت الأحداث تتوالى على دمشق ، وانتشر الجوع والنهب والقتل والحرائق التى اتصلت بالجامع الأموى ٠ وأصيبت دمشق فى ٤٦٧ هـ بكارثة انتشار الطاعون أولا ثم المجاعة ثانيا ، فلم يبق من أهل دمشق سوى ثلاثة آلاف انسان بعد أن كانوا خمسمائة ألف نسمة ، أفناهم الغلاء والجلاء والوباء ٠

ـــ ثم جاء نور الدين بن زنكى ، وخلفه صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردى الأصل ، وأسديا لدمشق الخدمات الكبرى والتى لا ينساها التاريخ ، حيث كان أملهما القضاء على الصليبيين ٠ وبعد ذلك الملك الظاهر بيبرس ملكا على مصر والشــام سنة ٦٤٧ هـ ٠

ـــ وجاء أنصار هولاكو الى دمشق بعد أن خربوا وقضوا على الخــلافة العباسية ٠ ولقيت دمشق من جانكز خان ، وهولاكو ، وتيمور لنك من المصــائب والمحن ما يذكره التاريخ ، وكذلك الحال بالنسبة لحكم الدولة العثمانية التى كانت تخشى ولاتها ، والتى ما كانت تبقيهم فى دمشق الا أشهرا معدودة ، فانتشرت الفوضى فى البلاد على أربعة قرون حتى عام ١٩١٨ م ٠

ـــ ثم تولى الأمير فيصل الحكم حيث وضع أساس الحكومة العربية ، ثم

دخلت الجيوش الفرنسية دمشق وتغلغل النفوذ الفرنسى فى البلاد • وبعد ذلك استولت بريطانيا على سوريا ولبنان عام ١٩٤٠ م بسبب الحرب العالميـــــة الثانية ، ثم تم استقلال سوريا ولبنان •

معالم دمشق التاريخية :

من أهم آثارها الرومانية ٥٢ حصنا وقلعة أقيمت بين دمشق وتدمر ، وأهمها قلعة دمشق التى سماها الرب بالأسد الرابض •

بنى معاوية قصر الامارة جنوب المسجد الأموى ، وسمى بالخضراء نسبة للقبة الخضراء التى تعلوه • وبنى الأمويون بيوتهم بجوار الجامع بخلاف القصور التى بنيت فى الغوطة • وجاء الخليفة الوليد بن عبد الملك فبنى الجامع الأموى – يرجى الرجوع الى شرح الجامع الأموى والرسومات أشكال ١٧٣ ، ١٧٤ – وتبلغ مساحته ربع مساحة دمشق فى ذلك الحين •

ومما يذكر أنه كان أجمل جامع فى الاسلام ، وبقى على جماله ومحاسنه الى سنة ٤٦١ هـ • التى حرق فيها المسجد أيام عهد الفاطميين ، وقد حرق ٦ مرات فى عصور مختلفة ، كما تعرض هذا المسجد لكثير من الهزات الأرضية التى أتت على بض حوائطه ومآذنه الثلاث وبلغت دمشق فى العصر الأموى ازدهارا لم تبلغه فى أى عصر ، حيث حاول كل خليفة من خلفاء بنى أمية أن يترك أثرا فيها • وجـــاء العباسيون فظهرت الأبراج التى تعلوها قباب واستخدمت مراصد فلكية بغرض التطلع منها الى حركات الأعداء المغيرين على المدينة بالاضافة الى استخدامها فى رصـد الكواكب والنجوم •

وفى القرن الخامس لعبت المدرسة دورا هاما فى التعليم وتحفيظ القـرآن • وكانت هذه المدارس لعدة قرون بعد ذلك أشبه بكليات لمدرسة جامعة كبرى تدرس فيها علوم القدماء وعلوم الدين واللغة • ومن القصور التى بنيت فى القرن السابع الهجرى قصر الأبلق غربى دمشق ، بناه الظاهر بيبرس ، وقيل أنه كان من عجائب الدنيا • حوائطه الخارجية والداخلية مكسوة بالرخام الأسود والأصفر ، منقوش على واجهة القصر الشرقية مائة أسد ، والشمالية اثنى عشر أسدا منزلة صـورها بالأســـود والأبيض ، وقد بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبـــل بالقاهرة على غراره •

واشتهرت دمشق بحماماتها لتدفق المياه عليها من كل مكان ، مكسوة حوائطها

من الداخل ببلاط القيشانى ذات الألوان والرسوم البديعة • وكان بها نحو مائة حمام وأربعة وستون خانا فى القرن التاسع • كما وصفت دور دمشق بأن داخلها يحوى الجمال كل الجمال ، وخارجها لا ينبىء عن شىء كثير ، كما سبق وصــفه فى دور الفسطاط والدور العربية • والمسكن الدمشقى يتألف عادة من فناء فسيح ، فى وسطه حوض مياه تتدفق اليه من نافورة لا ينقطع جريانها ، غرست من حوله الأشجار المثمرة والرياحين العطرة • وعلى جوانب هذا الفناء توجد الغرف والقاعات والمخادع • وفى القاعة بركة ماء أيضا لتزيد من رطوبة المسكن صيفا • فالمساكن الدمشقية ضمت جميع العناصر الطبيعية الجميلة ، المياه والأشجار ، والخضرة •

بدمشق الكثير من المساجد والمدارس والتكايا والمصانع ، منها « جامع الجوامع» الذى بنى من أحجار وأعمدة عدة أبنية مختلفة ، وجامع التوبة ، وجامع السنانية ، وجامع مراد باشا فى السويقة ومدرسة اسماعيل باشا المعظم • ومدرسة عبد الله العظم ، والتكية السليمانية نسبة الى سليمان القانونى ولهــا مئذنتان جميلتا من تصميم المهندس التركى سنان باشا ، والتى شغلت الجامعة السورية جزءا منها وبقى الجزء الآخر جامعا • ومن المآذن الجميلة المئذنة الغربية بالجامع الأموى فى عصر المماليك ، ومئذنة جامع المعلق أما أجمل المنابر فهو منبر جامع الجراح فى السويقة، ومنبر جامع الحنابلة فى السفح ، ومنبر جامع مراد باشا ومحرابه ، ومنبر جامع الشيخ عبد الغنى النابلسى وغيرها من المنابر والمحاريب •

ومن أهم آثار العصر التركى سكة حديد الحجاز وطولها ١٣٠٢ كيلو مترا ، كانت تمتد من دمشق الى المدينة المنورة • حيث تم انشــاؤها بأموال من العــالم الاسلامى ، ومحطتها تعتبر من أجمل الأبنية الحديثة على الطراز العربى ، وكذلك مبنى محطة مياه عين الفيجة • ولا يزال بعض أسواق مدينة دمشــق مغطاة غير مكشوفة على نحو ما كانت عليه الشوارع فى معظم الاقطار العربية قديما • ومن الشوارع المسقوفة بجمالون حديد أو خشب أو قبو من الحجر ، ســوق الأروام ، وسوق الحرير والقطن ، والسنانية ، وسوق مدحت باشا ، وسوق الحميدية وتعتبر أسواق مدينة دمشق التجارية من العناصر الأصيلة القديمة التى تكونت منها المدينة والتى لم تختف منها كلية حتى الآن • بل ان كلا منهاز ظل ينمو ويزدهر بذاته ، حتى وان استوعبت المدينة جزءا من كيانه •

وعلى الرغم من أنها اليوم توشك أن يغمرها تيار التحضر فيغرقها وكما حدث لأسواق المدن العربية الأخرى ، فانها قد احتفظت بالأساليب الشعبية القديمة الأصيلة النابعة من عادات ومتطلبات واحتياجات الشعب الذى يعايشه على مر مئات السنين•

ظلت باقية ، فى حين أن منافسها من الأسواق الحديثة والمحال التجارية العصرية ، والأكبر حجما والأوفر ثروة ، والأشد اغراء قد اندثرت بعد كل ما أصابته من تقدم وارتقاء • وصف مدينة دمشق شيخ من أبنائها فى أوائل القرن الثامن فقال :

« انها مقسومة ثلاث طبقات ، قسم مثبوت العمارة فى غوطها لو جمع لكان مدينة عظيمة ، ما بين جواسق وقصور وقاعات وطواحين وحمامات وأسواق ومدارس وترب وجوامع ومساجد ومشاهد ، غير القرى والضياع الأمهات •

القسم الثانى تحت الأرض منها دينة أخرى من متصرفات المياه والقنى وجداول ومساوب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلها ، حتى حفر الانسان أينما حفـــر من أرضها وجد مجارى المياه تحته مشتبكة طبقات يمنه ويسرة شيئا فوق شىء •

والقسم الثالث سورها وما فيه وما حوله من المعمور • وكأنما هى فى وصفها طائر أبيض فى مرج أخضر فيرشف ما يصل اليه أولا فأولا » • وهذا أدق تعبير ينطبق على مدينة دمشق حتى اليوم •

دمشـــــق :

عاصمة الجمهورية السورية تقع على نهر بردى فى الطرف الجنوبى الغربى من البلاد وعلى مسافة ٦٠ ميلا من بيروت يتفرع عندها نهر بردى الى شبكة الجداول مكونا منطقة زراعية تعرف بالغوطة وعدد سكانها كما يوضحه احصاء عام ١٩٧٠ حوالى ٨٣٦ ألف نسمة •

ودمشق ملتقى عدة خطوط حديدية وبرية منها الخط الحديدى الى بيروت مارا بزحلة ومنها يسير شمالا الى بعلبك ويرتبط بخط الشرق الى حلب •

وكانت دمشق عاصمة للدولة الأموية ثم عاصمة لولاية الشـــــام أيام حكم السلاطين المصريين ثم استولى عليها العثمانيون عام ١٥١٧ لحين استصلاحها عام ١٩١٨ وقامت بهاالحكومة القنصلية الأولى ثم وضعت تحت الانتداب الفرنسى لحين اعلانها عاصمة للجمهورية السورية عام ١٩٤٦ •

وأهم ما يميز دمشق تلك الأبواب العتيقة من سور دمشق القديم الذى كان يحيط بها منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة هذه الأبواب هى توما وباب شرقى وباب السلام •

فى طريق الزيدانى على بعد ٣٦ كم من دمشق وعلى حافة عالية فوق وادى بردى أقدم أثر تاريخى منذ بدء الخليقة وأول قبر لأول قتيل وهو هابيل أن بن آدم الذى قتله أخوه قابيل ٠

وتضم دمشق باب توما وبه عد من الكنـــائس القديمة منها كنيســـتا حنانيا والقديس بولس ومن آثار دمشق المسجد الأموى ٠

وكانت عادة العرب عند فتحهم البلاد التى يستولون عليها أن يبدأوا بتأسيس المساجد الجامعة ولذلك قرر الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يبنى مسجدا يليق بعظمة الاسلام ويضارع العمائر البيزنطية ٠

ووقع اختيار الوليد على الجزء الشرقى من كنيسة القديس يوحنا المعمدان التى كانت قد شيدت فى منطقة مقدســـة من معبـــد وثنى قديم وفى مقابل ذلك بنى للمسحيين أربع كنائس ٠

ويتكون المسجد الأموى بدمشق من صحن كبير مستطيل الشكل وايوان رئيسى يبلغ طوله ١٢٦ مترا وعمقه ٣٧ ويوجد ما بايوان القبلة أربعة محارب ويحتوى ايوان القبلة على ثلاثة أروقة موازية لحائط القبلة ومحمولة على أعمدة رخاميـــة وفوقها عقود أصغر منها ويبلغ ارتفاع هذه الأروقة بعقودها الكبيرة والصغيرة ١٥ مترا والواجهة الشمالية تعلوها مئذنة تعرف باسم مئذنة العروس وتنتهى قمة هذه المئذنة باسعة دقاقة ، تضبط على دقاتها جميع مساجد دمشق مواعيد الاذان ٠

ضريح صلاح الدين :

وضريح القائد البطل صلاح الدين الأيوبى الذى يوجد داخل المدرسة العزيزية التى بناها الملك العزيز بن صلاح الدين الأيوبى على أثر وفاة والده فى قلعة دمشق سنة ٥٨٩ هـ ــ وفوق ضريح صلاح الدين قبة ، وتحتها الضريح وفوقه تركيبة من خشب الجوز المزين بزخارف منحوتة نحتـــا جميلا وفى أعـــلاه نقشت آية الكرسى بالخط الكوفى ٠

بيت المـــال :

وفى وسط صحن المسجد الأموى بناء يعرف باسم بيت المال مغطى بالفسيفساء وفى بيت المال كانت تحفظ أموال الدولة التى تجبى من الزكاة كما يحتفظ فيها بأموال

اليتامى وينسب بعض المؤرخين بناء بيت المال الى الوليد بن عبد الملك وبعضهم الاخر يرجعه الى عهد الفضل بن على والى دمشق من قبل الدولة العباسية سنة ١٧٢ هـ ٠

البيمارســـتان :

ومن المنشآت المدنية التى تزخر بها دمشق (بيمارستان نور الدين زنكى) الذى شيده السلطان نور الدين زنكى فى القرن السادس الهجرى وتخطيط البيمارستان متعامد فهو يحتوى على أربعة ايوانات خصص كل واحد منها لعلاج نوع من المرض ويدخل الزائر الى هذا البيمارستان من بابه الذى يبرز عن جداره الغربى كما ان النوافذ التى تعلو الابواب زخرفت بزخارف مخرمة ٠

قلعة دمشـــق :

وقلعة دمشق بنيت أولا الأمر فى العصر السلجوقى ثم اعاد بناءها الملك العادل أخو صلاح الدين من جديد سنة ٦١٥ هجرية والقلعة عبارة عن مستطيل مساحته ٢٢٠ × ١٥٠ مترا وتحتوى على ١٢ برجا يبعد كل منها عن الآخر ثلاثين مترا ٠

قصر العظم :

اراد سعد باشا العظم والى دمشق فى القرن الثامن عشر الميلادى أن ينشىء قصرا تتحدث عنه الأجيال فلم يجد خيرا من البقعة التى انشأ عليها معاوية ابن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية مقرا له ٠٠ فشيد عليها الظم مقرا منيعا ٠٠ انفق عليه أموالا طائلة وحشد له من الصناع وارباب الحرف عددا كبيرا وجمع كميات كبيرة من العمد والرخام وبلاطات القيشانى ٠

ويتكون القصر من صحن الحرملك بأركانه المستطيلة والمضلعة وكذلك أروقته الشمالية ٠

ومن رجالات دمشق أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الانصـــارى الدمشـــقى الجغرافى العربى ألف عدة كتب من أهمها كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر الذى يعد مصدرا هاما لمدى معرفة العرب بالهند الجنوبية توفى فى دمشق عام ١٣٢٧م ومن رجالات دمشق أيضا أبى عبيدة القائد العربى الذى استولى على دمشق بعـد معركة اليرموك عام ٦٣٥ ومن العلماء أيضا بهاء الدين على بن محمد الساعاته وعلى بن الحسن بن عساكر وهو مؤرخ ورحالة عربى ولد بدمشق عام ١١٠٥ ٠

من أسمائها العربية « مدينة السلام » أو دار السلام ، وفيه اشارة للآية الكريمة « ولهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » وكان العباسيون فى صدر دولتهم مغرمين بالتفاؤل الدينى ، ويريدون من مدينتهم هذه أن تكون نموذجا للجنة التى وعد بها المتقون . وقد أنشأوا فيها « قصرا أسموه الخلد » اشارة الى جنة الخلد ، وآخر اسمه « الفردوس » . ومن أسمائها أيضا « مدينة المنصور » و « الزوراء » . وكان هذان الاسمان فى أول الأمر لا يطلقان الا على المدينة المستديرة التى أنشأها المنصور . ومن أسمائها أيضا « دار الضيافة » .

اتخذ العباسيون الكوفة أول عاصمة لهم ، ثم بنوا مدينة على مقربة من الكوفة سموها بالهاشمية . ثم فكر المنصور فى نقل عاصمته الى مكان آمن ، فوقع اختياره على المساحة الواقعة بين دجلة شرقا ، ودجيل شمالا ، وقطر بل غربا والصراة جنوبا . ويرجح أن سبب اختيار المنصور لهذه البقعة لانشاء مدينة بغداد ، سهولة الوصول اليها من دجلة والفرات وقربها من البر والبحر والجبل ، فضلا عن اعتدال مناخها .

● **تخطيط المدينة :**

أمر المنصور بتخطيط هذه المدينة سنة ١٤٥ هـ على شكل مستدير ، وأشرف على عملية التخطيط بنفسه ، حيث أقيم للمدينة سور داخلى بقطر ١٢٠٠ ذراع وارتفاع ٣٥ ذراعا وعرضه من أسفل ٢٠ ذراعا . أما السور الخارجى فيبعد عن السور الداخلى مسافة قدرها ١٦٠ ذراعا ، وعرضه من أسفل ٥٠ ذراعا ، ومن أعلى ٢٠ ذراعا وفى كل سور أربعة أبواب ، بين كل باب وآخر مسافة نحو ميل ، وعلى كل باب قبة ، وبين كل قبتين ٢٨ برجا .

بنى المنصور قصره المعروف بقصر الذهب فى وسط المدينة ، يضم ايوانات شامخة متسعة ، يعلوه القبة الخضراء ذات ارتفاع شاهق ، حيث كانت تعتبر هذه القبة تاج بغداد ، ثم أقام المنصور حول مركز المدينة سورا داخليا ثالثا ، فيتألف من مجموع الأسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد وهو قصر المنصور .

لم تكن الدولة العباسية تتخذ بغداد عاصمة لها حتى أقبل الناس عليها من كل مكان ، وتكاتف فيها رجال المال والأعمال على انشاء الدور والقصور ، وكانت الدولة

تشجع على ذلك وتمدهم برعايتها · وكما تضافرت الجهود والأيدى العـــاملة على تعمير بغداد وازدهارها ورفعة شأنها تضافرت الأحداث والكوارث على تمزيقها ومحو آثارها كالفاتحين الغزاة من المغول والتتار ، وفيضانات دجلة والفرات وانتشـــار الأمراض والأوبئة ، حتى لم يبق من آثارها الاسلامية كالمساجد الجامعة والمدارس والقصور الا بعض أطلال لا زالت باقية ، مثل المدرسة المستنصرية وباب الطلســـم وبعض المآذن · ولذلك فقد اتمحت معالم المدينة المستديرة ، وأماكن قصور الخلفاء ومجارى الأنهار التى كانت تجرى خلال الجانبين ومدافن الخلفاء العباسيين ·

والظاهر أن الخليفة المنصور اتخذ هذا الشكل المستدير أساسا لتخطيط المدينة ذات الأسوار متأثرا بذلك بالمدن القديمة فى بلاد ما بين النهرين ، والذى كان شبيها جدا بمظهر المدن ذات الأسوار فى شمال افريقيا حتى اليوم · فقد كانت توجد ذات الشبكة من الطرقات الضيقة التى لا يزيد عرضها عن مترين ، ونفس المنـــازل ذات الطابق الواحد أو الطابقين أو الثلاثة ، والأسطح التى يمكن استخدامها ، والأفنية الداخلية ، وأخيرا المعبد المدرج الذى يشرف عليها جميعها · ولكنه استبدل المعبد بالمسجد ومآذنه التى تشرف على المدينة الاسلامية ، أو قصر الحـــكم الذى يقع فى مركز الدائرة ·

أما فيما يتعلق بالأسوار فقد كانت ضرورة عملية وفرضت شكلا معينا فى مدن المجتمعات المبكرة فى بلاد ما بين النهرين · وكان لهذه الأسوار أثرها فى الحد من التوسع فى سهولة ويسر ، فى نفس الوقت ضاعفمن أنانية الحاكم وانصرافه الى ما يهمه شخصيا ·

فقد كان السور يؤدى غرضين أو وظيفتين ، احداهما بوصفه تدبيرا عسكريا ، والأخرى بوصفه وسيلة للسيطرة الفعلية على سكان المدينة · أما من الناحية الجمالية فقد أقام السور فاصلا واضحا بين المدينة والريف المجاور ، ومن الناحية الاجتماعية أبرز السور الفارق بين المقيم فى الداخل والمقيم فى الخارج ، بين الحقل المكشوف المعرض للصوص والجيوش الغازية والحيوانات المتوحشة وبين المدينة التى يحيط بها السور احاطة تامة ، حيث يطمأن الانسان ويتكامل هذا الاطمئنان اذا ما توافرت فى الداخل كميات وفيرة من الماء والحبوب المختزنة فى الصوامع والمخازن ·

وبطبيعة الحال كانت الفتحات الموجودة فى سور المدينة وأبراجها المتعددة تلقى من الدقة والعناية فى المراقبة ما تلقاه الآن فتحات البوابات فى نظام الرى · ومن المرجع أن المدينة ذات الأسوار ظهرت فى مصر قبل تركيز السلطة فى عهد الأسرات ، ولكن لعله قد مرت على مصر فترة طويلة نعمت فيها بالسلام ، فخفف التوتر الداخلى

ونقصت الحاجة الى حماية خارجية ٠ وعندما عادت المدينة المحاطة بالأسوار ، كانت وسيلة للدفاع المشترك ضد الغزاة الأجـــانب ، أكثر منها وسيلة لبسط الســـيطرة محليا بالقوة ٠

وقد بقى السور مظهرا من أبرز مظاهر المدينة فى معظم البلاد حتى القـــرن الثامن عشر ، باستثناء مصر فى عهدها المبكر ، واليابان ، وانجلترا ٠ حيث كانت الحواجز الطبيعية تكفل للمدن مناعة جماعية فى عصور معينة ، أو حيث كان يغنى عن اقامة أسوار محلية وجود جيش كبير ، أو احاطة الدولة بسور هائل ، كما كانت الحال فى روما أو الصين أيام حكم الأباطرة ٠ حيث قد نشأ نظام دقيق تتميز به المدن التاريخية الكبرى حتى القرن المشار اليه للتحصينات بالأســـوار والمتاريس والأبراج والقنوات والخنادق ٠

فمدينة بغداد التاريخية القديمة ، تلك المدينة المستديرة ، كان لها مظهران فى نفس الوقت ، أحدهما استبدادى ، والآخر مظهر بديع رائع ٠ فقد كانت من ناحية ، ذلك الحصن المنيع ، مركز السيطرة والحكم والسلطان ، وكانت من الناحية الأخرى صورة من الجنة تتحول فيها قوى الكون البعيدة الى أنظمة فعالة ٠ كان الســـور متراسا ماديا للدفاع عنها ، وكان أيضا حاجزا روحيا له دلالة قوية عظيمـــة بأنه يحفظ المقيمين فى داخله من الفوضى والشر الذى لا يوصف ويضمن الأســــتقرار الداخلى اللازم لتحقيق مزيد من التقدم الانسانى ٠

المســاجد الجــامعة :

أول مسجد جامع أقيم فى مدينة المنصور هو المسجد الذى انشـــأه المنصور لنفسه ملاصقا لقصره الكبير حيث تم انشاؤه سنة ١٩٢ هـ ، وبقى هذا المسجد قائما حتى العصر الثامن الهجرى ٠ ثم مسجد الرصافة الذى انشأه المنصور أيضا ملحقا بالجانب الشرقى من قصر الرصافة ٠ ثم مسجد دار الخلافة حيث كان قصر الخليفة المعتضد ٠ وغير ذلك من المساجد الجامعة ومئات الجوامع ٠

كانت هذه المساجد الجامعة تضم حلقات التدريس لعلم الكلام وتعليم الفقه ورواة الحديث وعلوم كثيرة شرعية وكونية ٠ وكانت تلحق بهذه المساجد مدارس يعنى فيها بتدريس القرآن الكريم واللغة العربية والحساب ٠ هذا بالاضافة الى مدارس أخرى كثيرة لتأديب الجوارى وتثقيفهن ، حيث أن الجارية التى تتأدب وتتثقف وتتهذب تغلو قيمتها وتعلو مكانتها ٠

ومن أهم المدارس التى أنشئت فى بغداد المدرسة النظامية ، أنشأها الملك سنة ٤٥٩ هـ ٠ كان من بين أساتذتها أبو اسحاق الشيرازى كبير فقهاء الشافعية ، والامام الغزالى وغيرهم ٠ وفى أواخر القرن الثالث الهجرى أنشىء معهد للطب ، أطلق عليه اسم البيمارستان ، كان من بين أساتذته أبو بكر الرازى ٠ وكانت أول مدرسة طبية نظرية وعملية أنشئت فى بغداد ٠ أما المدرسة العباسية التى لا تزال باقية حتى الآن فهى المدرسة المستنصرية وتعتبر من أهم الآثار الاسلامية الباقية حتى الآن ٠

● **القصـــور :**

يحدثنا التاريخ بأن الخلفاء والأمراء تباروا فى انشاء القصور ، وبالغوا فيها وتأنقوا فى زخارفها حتى بلغ مجموع مسطحاتها بنحو ثلث المساحة التى تقع على الجانب الشرقى من بغداد ٠ ولكى نتبين مبلغ ما وصلت اليه تلك القصور من السعة وما اشتملت عليه من عناصر ، فقد روى أنه كان فى قصر الخليفة ٧٠٠٠ خادم ٤٠٠٠ من البيض، ٣٠٠٠ من السود ــ وعدد ٧٠٠ حاجب، ٤٠٠٠ غلام من السودان ٠ وكان لقصر الخليفة المقتدر بالله شجرة من الفضة زنة ٥٠٠ ألف درهم قائمة فى وسط بركة بها طيور مصنوعة من الذهب والفضة ، والى جانب الشجرة صفين من التماثيل لثلاثين فارسا ٠ يغطى نوافذ القصر ستائر من الحرير مطرزة بلغت نحو ٣٨ ألف متر مربع ، وأبسطة من السجاد الفاخر بلغت نحو ٢٢ ألف قطعة ، علاوة على التحف وأدوات الزينة العربية الصنع ٠

والواقع أن المنشآت الجميلة كانت الوسيلة التى توسلت بها المدينة لتحديد معالم الشخصية الجماعية الجديدة التى انبعثت ولتتطلع الى محياها بزهو شديد ٠ واذا كان الملك أو الحاكم اسمى وأمنع من أن يستطاع الوصول اليه الا عند الضرورة الملحة والحاجة القصوى ، فانه مع ذلك كان فى وسع أقل فرد من السكان أن يوحد بين نفسه وشخصية المدينة فى كل قوتها وبهائها ٠ وبطبيعة الحال كانت هذه القصور سببا فى طمع الغزاة الأجانب ، أو الطامعين فى الحكم من داخل البلاد نفسها ٠

وما أن أخذ العرب يستوطنون ضفاف بلاد النهرين تدريجيا خلال عدة قرون ، بل وعندما تسلموا زمام الحكم فى العراق فى أوائل القرن السابع بعد الميلاد ، نفثوا فى البلاد روحا جديدة وأنشأوا مدينة على أسس عربية اسلامية عريقة نابضة بالحياة ٠ وأصبحت بغداد التى أنشأها المنصور عام ٧٦٢ م حاضرة العـــالم ، وتلتها بعدها بيزنطة فى المرتبة الثانية ٠ ازدهرت العـــلوم واخترع علم الجبر فى ذلك الوقت ، وتطورت علوم الهندسة والكيمياء والطب على أيدى كبار علماء العرب ممن جمعوا

بين معرفة الفلسفة الاغريقية التى ترجمت الى العربية آنذاك ، والتعطش الى البحث العلمى . وكانت قصور بغداد والبصرة المحاطة بالحدائق النضرة ونافورات المياه تردد أصداء الشعر والموسيقى على أنغام راقصة حالمة .

وما أن أطل القرن الخامس عشر حتى ورثت أوروبا مجموعة هـذا التراث الانسانى الذى بنت عليه عصر نهضتها وحضارتها . ثم جاء المغـول ليبعثوا فى العالم العربى فسادا ونهبا وتهديما . وجاء بعدهم العثمانيون كغزاة فاتحين ، حيث احتفظوا بالعالم العربى فى حالة انحطاط وتدهور طوال ٤٠٠ عاما ، الى أن استطاع العراق فى سنة ١٩٢١ م أن يحدد مكانه وينشىء كيانه الحاضر ، دولة مستقلة ذات شأن وسيادة ، فأنشئت الدولة العراقية الحديثة على أنقاض ولاية عثمانية مهجورة.
ولذا نرى البلاد وهى تحمل معالم القديم والحديث فى جوار بعضها . ويرى المرء فى هذا الجوار شتى الجنسيات والمذاهب والأزياء ومختلف التقاليد . فقد انصهر عرب السهل وأكراد الجبال الشمالية فى بوتقة شعب واحد ، وكيان واحد ، فيهم المسلمون والمسيحيون واليهود واليزيديون .

ورغم اختلاف المظاهر الخارجية ، فاننا نرى فى التركيب الداخلى للبلاد وحدة فى القوة وفى الهدف . واذ تصبح البلاد أكثر اخضرارا وأحسـن تنظيما وأعلى ازدهارا ، تبرز حيوية الشعب مترقبة خلافة ، ووراء هذا التغيير تهب ثروة ضخمة من البترول ، ثروة القوة والرجاء بالأمل فى المستقبل الزاهر للبلاد .

مدن اسلامية ... لها تاريخ وحضارة (+) ٤/٤

● **طهـران :**

تقع طهران ـ عاصمة ايران ـ عند سفح جبال البرز وعلى بعد مائة واثنى عشر كيلو مترا من جنوب بحر قزوين . وهى مركز تجارى ومما تشتهر به كثرة البساتين المتشابكة وتقع الخط الحديدى الذى بواسطة يربطها بساحل الخليج العربى وأيضا بحر قزوين وهى قريبة من مدينة الرى القديمة التى كانت ـ فى العصور الوسطى ـ ذات شهرة عريضة . ويرجع نهوض طهران الى عام ١٧٨٨ م حيث صارت قاعدة للبلاد وقد عمل الحكام على انعاشها ولذلك فقد نمت بسرعة وجذبت اليها عددا كبيرا من أهالى المقطاعات المحيطة بها .

(+) مدن لها تاريخ .. نشر بجريدة الأهرام تباعا فى شهر مايو ١٩٨٦

ولقد كان مصير الامبراطورية الفارســـــية على نحو مختلف لما حـــدث مع الامبراطورية البيزنطية فقد تمكن العرب فى العام الثانى عشر من الهجرة (مارس ٦٣٢ م) بقيادة المثنى بن حارثة وتسنى للعرب الاستيلاء على الحيرة التى كانت عاصمة اللخميين ‥ وأيضا تحقق نصر آخر بعد ذلك فى شهر مايو ٦٣٣م كتب الله الهزيمة للامبراطورية الفارسية على يد البطل العربى وسيف الله ، خالد بن الوليد وكان لابد من رد فعل من جانب الايرانيين متمثلا فى بدء الاستعدادات كمحاولة لصد الجيش العربى القادم من الجزيرة العربية حاملا معه لواء الايمان ٠

وفى شهر نوفمبر من نفس العام قام القائد الايرانى رستم حاكم خراســـان ، بحصار الجيش العربى بعد أن تركه يعبر نهر الفـــرات وفى موقعة الجسر لحقت بالجيش العربى هزيمة فادحة ٠ وخفف من ذلك سرعة بديهة وحدة ذكاء القائد العربى المثنى بن حارثة مما مكنه من فك الحصار المضروب حوله وبذلك ـ وبفضـــل الله ـ استطاع العرب عبور نهر الفرات مرة أخرى ، وفى العام الرابع عشر من الهجرة أبيد حشد كبير من الجيش الايرانى فى موقعة البويب بالقرب من الحيرة وكان ذلك فى العشرين من شهر أغسطس ٦٣٦ م ٠

لم يستسلم رستم القائد الايرانى فقد صمــــم ـ رغم ما لحق به ـ على جمع وحدات عسكرية من جميع أنحاء ايران واستدعى جميع قادة الجيش وقد استغرق ذلك مدة تزيد على العام ٠

وفى فصل الخريف من العام الخامس عشر الهجرى أقام الجيش الايرانى الكبير معسكره ، فى القادسية الواقعة بالقرب من مدينة الحيرة بينما يوجـــد بالقرب منه الجيش العربى بقيادة أحد قدامى المهاجرين هو عمر بن سعد بن أبى وقاص ٠

ونظرة سريعة على الجانب الايرانى نجد الاستعداد العسكرى بأفضل أنواع الأسلحة ـ طبعـــا وفق ظروف وطبيعة ذلك العصر ـ وترافقهم الفيلة الضخمة ذات الهوادج القاذفة للرماح ٠ وفى هذا الجو ورغم بساطة عتاد الجيش العربى وعدم التكافؤ دارت معركة القادسية لمدة أربعة أيام وكان القتال ضاريا وعنيفا وفى خلال المعركة وصلت الامدادات العربية القادمة من الشام ، وفى اليوم الاخير هبت ريح عاصفة وتلبد الجو بسحب من الحصى والرمال أعمت وجوه المقاتلين على الجانب الايرانى سبحان الله ‥ وتحقق النصر المبين للعرب وقتل فى تلك المعركة القائد رستم ٠

وعندما سمع الملك يزدجرد بتلك الهزيمة النكراء ترك العاصمة على الفور واتجه الى مدينة حلوان ثم الى جبال زاجروس ‥ وبعد فترة قصـــيرة ســـقطت المدائن

(العاصمة التى هجرها حكامها) فى يد الجيش العربى وتحقق ذلك فى شهر يونيو ٦٣٧ م لأن تحصينات واستعدادات الدفاع عن المدينة لم تكن كافية ٠٠ ولم يتمكن سكانها من عقد اتفاق مع العرب بتسليمها فتعرضت طيسفون للدمار والخراب فقتل فريق من سكانها وأسر فريق آخر وغنم العرب منها غنائم بلغت قيمتها تسعمائة مليون درهم ٠ وفى العام التاسع عشر الهجرى تم للعرب الاستيلاء على مـدينة حلوان ثم اتجهوا صوب اعماق الهضبة الايرانية لتقع المعركة الفاصلة فى نهاوند وفيها تحقق النصر للجيش العربى وفى المعركة قتل القـــائد الايرانى نيروز ٠٠ وتوالت جولات وصولات الجيش العربى وسار من نصر الى نصر بفضل من الله وتوفيقه ٠

وكان لدخول ايران فى حوزة أقطار الخلافة الاسلامية نتائج هامة عديدة منها ٠

انتقال العرب الى بعض مناطق ايران والاســـــتيطان فى المـــــدن وبدأ الأمر بالاقامة فى خيام وكان هذا الانتقال يتم على شكل جماعات وتمت على شكل معسكرات حربيـــة ٠

تحولت تلك المعسكرات فيما بعد ـ ويمضى الوقت ـ الى مـدن كاملة وأصبح بعضها مراكز للفكر الاسلامى وبوتقة انصهر فيها مع الفكر الفارسى المشترك ٠

● مراكش :

اسم كان يطلق على المغرب أو المملكة المغربية قبل اعلان استقلاله ، ومازال هذا اللفظ (أى موروكو بالانجليزية أو ماروك بالفرنسية) مستخدما فى المراجع الاجنبية ٠

ومراكش كذلك اسم المدينة الثانية فى المغرب (ومنها اشتق اسم الاقليم) وتقع مدينة مراكش فى الداخل على نهر تنسيفت وينتهى عندها الخط الحديدى القادم من الدار البيضاء كما يربطها بميناء أغادير خط جوى ، ويبلغ عدد سكانها ١٠٠ر٢٢٤ر١ نسمة (احصاء عام ١٩٨٠) ، ومساحتها ٧٧٥ر١٤ كم ، والاسلام دين الدولة ودين الأغلبية العظمى ٠

أسسها المرابطون فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتطلق عليها جوهرة الجنوب وهى من حيث الاقدمية ، ثانية عواصم المغرب ، ومن اثارها جامع الكتيبة الذى يرجع عهده الى عصر الموحدين وتعلوه منارة مشهورة ، وكذلك مدرسة يوسف الموحدى ، والمشهورة ، بتفسيفسائها ومرمرها أخشابها المنقوشة وغير ذلك من آثار هندســية رائعة ترجع الى عهد السعديين فالدولة الثانية الكبيرة التى خلفت الاداريه هى دولة

المرابطين وكان مؤسسها يوسف بن تاشفين الملقب بشيخ المرابطين لدينه وفضـــله وشجاعته وعدله وقد بنى مدينة مراكش عام ١٠٦٢ ومسجدا كبيرا لصلاته ٠

وقد اعتنى يوسف بن تاشفين بعد أن استوثق له الأمر بجمع علماء الأندلس وأدبائها ، ثم نقل العلماء الى عاصمته المغربية مراكش الحمراء عاصـــمة المغرب والأندلس والصحراء فى الآن الواحد ، وخلفه ابنه على بن يوسف الذى تغلب على ملوك الطوائف بالأندلس ، وأنشأ عام ٥١٤ هجرية مدرســـة كبيرة تعرف بالجامعة اليوسفية ، وغدت مراكش فى أيام المرابطين مركزا علميا هاما ٠ فقد كان فى المغرب ثلاث جامعات جامعة القرويين الادريسية ، وجامعة سبته الاندلســـية ثم الجامعة اليوســـفية ٠

وجاء بعد المرابطين دولة الموحدين بزعامة ابن تومرت ومن بعده عبد المؤمن عام ١١٣٠ هـ وقد نجحت هذه الدولة فى توحيد المغرب وأسبانيا المسلمة فى ظل دولة واحدة فعادت هيبة العرب الى شمال افريقيا ، ودفعت عنهم العدوان الاوروبى الذى كان يهددهم فى الأندلس وفى الشمال الافريقى ذاته وتوحدت البلاد الاندلسية والمغربية تحت حكم أبو يعقوب ، بن عبد المؤمن ، وخلفه ابنه يعقوب بن المنصور الذى كانت الدولة قوية فى عهده فانتصر على الاسبان عام ١١٩٥ ، وانتهى ملك الموحدين عام ١٢٦٢ بموت آخر ملوكها الواثق ٠

وقد عرف عهد الموحدين أيضا بالازدهار العلمى ويقول الاستاذ عثمان الكعاك « نقل المرابطون ثم الموحدون علماء الأندلس الى جامعتى فاس ومراكش وقد نضجت الحركة التعليمية والثقافية فى عهد الموحدين الذين أسسوا مؤسسات تعليمية كثيرة ابتداء من الكتاتيب الى الزوايا على مختلف أنواعهـــا ، الى المدارس على مختلف اختصاصاتها كالمدرسة العامة التى كانت تعمـــل على تخريج الموظفين الموحدين لاستكمال النظام الادارى ، ثم المدرسة الملكية لتعليم امراء الموحدين ، ومدرسة تعليم فن الملاحة بمدينة الرباط ومدرسة بيت للطلبة بمراكش ، وهى شعبة مدرسة عليا » ٠ وقد وجد فى المدرسة الادارية ثلاثة الاف طالب يقرأون كتب المهـــدى ابن تومرت ويتعلمون الى جانب ذلك الفنون الحربية هذا بالاضافة الى دراســـتهم فى الادارة وشئون الدولة ، وكانت جميع نفقات هؤلاء الطلاب على الدولة وكان الطلبة مبيت جميل المعمارى أنيق البناء ، كما كانت لهم مكتبة وناد ، وكان رئيس الطلبة شبه نقيب يدافع عن حقوقهم ويجمعهم فى ناد للمناظرة ٠ ويطلق على سكان الشـــمال الافريقى الأصليين اسم « البربر » وهم من نفس السلالة التى ينتمى اليها العـــرب الســـاميون ٠

عمــــان :

تقع على بعد مائة وستة كيلو مترات شرق بيت المقدس تم تشييدها على انقاض مدينة فيلادلفيا القديمة وهناك قول آخر بأنها مدينة دقيانوس ٠

وفى عمان ـ عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية توجـــد مجموعة من الآثار الرومانية لعل من أهمها المسرح الرومانى الذى كان يتسع لخمسة آلاف مشاهد الى جانب أجزاء من الأسوار القديمة وقلعة عمان وقد نمت المدينة نموا كبيرا وخاصة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ٠ وعنها قال أبو عبد الله محمد بن البشارى : عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع وبها عدة أنهار مما يتيح زراعة الحبوب وتربية الأغنـــام ٠

يفد السياح من مختلف ارجاء العالم لمشاهدة الآثار وزيارة الأماكن المقدسة مما يتيح للاردن ميزة خاصة وطابعـــا متميزا ٠٠ وتتجه قلوب الملايين من اتباع الديانات السماوية الثلاث الى الأردن حيث سار الأنبياء والمرسلون ومنها تواجهوا برسالاتهم السماوية من الله تعالى الى البشر لهدايتهم ٠

فالملكة الأردنية الهاشمية يوجد بها الأماكن الدينية التى يهم المســـيحيون لزيارتها ومن أهمها كنيسة القيامة التى قامت ببنائها الملكة هيلانة والدة الامبراطور الرومانى قسطنطين سنة ٢٣٥ م ونتيجة لهزات أرضية صارت هذه الكنيسة فى حاجة لأعمال الترميم أكثر من مرة وهذه الكنيسة مشتركة بين مختلف الطوائف المسيحية طوائف الروم الارثوذكس واللاتين والاقباط والسريان والأرمن ٠ وأيضا توجد كنيسة المهد التى تقع فى مدينة بيت لحم وقد انشئت فوق المكان الذى ولد فيه المسيح عليه السلام وأيضا هناك كنيسة الصعود ومقام السيدة العذراء وجبل الزيتون ٠

ثالث الحرمين الشريفين :

والقدس بالنسبة للمسلمين أولى القبلتين وثالث الحـــرمين الشريفين وحيث معجزة الاسراء والمعراج للرسول صلى الله عليه وسلم ٠ وأهم الأماكن الاســـلامية المقدسة فى المدينة الحرم الشريف الذى يضم المسجد الأقصى ومسجد الصخرة الى جانب عدد كبير من المساجد وقد اهتم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بالمسجد الأقصى ومسجد الصخرة خلال القرن الأول الهجرى وبذل فى سبيل ذلك مبالغ طائلة من المال فقد رصد مثلا لمسجد الصخرة خراج مصر لمدة سبع سنوات ، ويعتبر هذا المسجد من أجمل الابنية الدينية ٠

ولكن نتيجة لعوامل الزمن والظروف الجوية لحق بهذه الآثار التصدع وبعض الاضرار عبر مختلف العصور نتيجة للزلازل الا أن ايدى الاصلاح كانت دوما تبادر الى القيام بكل ما يلزم من ترميم واصلاح وتعمير فقد تألفت فى سنة ١٩٥٤ لجنة لتقوم بالاتصال بالحكومات العربية والاسلامية لجمع التبرعات لصيانة وتعمير مسجد الصـــخرة ٠

ومن ضمن الآثار الاسلامية أيضا الحرم الابراهيمى الموجود فى مدينة الخليل٠

أضرحة شهداء غزوة مؤتة :

كما يوجد اضرحة شهداء غزوة مؤته الواقعة جنوبى مدينة الكرك فى الضفة الشرقية من نهر الأردن حيث توجد مقامات الصحابة أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة ومعاذ بن جبل وحزار بن الاوزر ويزيد بن أبى سفيان ولا يخفى ان الأردن فى التاريخ الاسلامى يعتبر أول بلد اتجه اليه المسلمون لنشر الدعوة الاســـــلامية السمحة ٠٠ فمن المعروف أن غزوة مؤته هى أول غزوة اسلامية تتم خارج شـــبه الجزيرة العربية ٠

لقد تم العثور على الكهف فى قرية الرقيم ٠٠ والكهف المقصود به هنا كمــا هو معروف وهو ما جاءت قصته فى القرآن الكريم فى سورة بنفس الاسم قال الله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » ٠

لقد عثر الاثريون على الكهف وبداخله سبع جماجم بشرية وجمجمة حيوان (الكلب) وان ما وجد بداخله يطابق تماما ما ورد ذكره فى القرآن الكريم وان كان بعض المفسرين للقرآن الكريم كانوا قد اختلفوا فى تحديد هذا المكان فمنهم من قال أنه يوجد فى دمشق واخرون قالوا بوجوده فى تركيا ومنهم من اشار بوجوده فى منطقة البلقاء وبعد التحرى والتقصى تبين أن المؤرخين الذين أشاروا الى وجود الكهف فى منطقة البلقاء هم المصيبون ٠

وقرية الرقيم هذه تبعد عن جنوب عمان بنحو سبعة كيلو مترات وان كان اسمها قد تم تحريفه الى « الرجيب » حيث اشـــــار المفسرون الى أن موقع الكهف فى هذه القرية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وتقع فى منطقة البلقاء وبعد دراسات جادة واتصالات مع سكان البلدة فى هذه المنطقة عرف ان هناك غارا تم اكتشـــافه عام ١٩٦٢ وتبين أنه هو الكهف المقصود به الآيات الكريمة ومن نتائج هذه الحفريات :

ـــ العثور داخل الكهف على نقوش وأدوات زينة ونقود من العهد البيزنطى من القرن الثالث الميلادى ٠

ـــ العثور على المسجد الوارد ذكره فى القرآن الكريم ٠٠ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ٠

ـــ عثر على سبعة قبور كما ورد ذكره فى القرآن الكريم كما عثر على قبر ثامن للكلب الذى تبعهم وعثر على سبع جماجم بشرية وجمجمة كلب ويقولون سبعة ثامنهم كلبهم ٠

ـــ تم تنظيف موقع المعبد الذى أقيم فوق الكهف وأعمدته باقية وبعد اجراء فحص النقوش والكتابات الموجودة على الجدران بالكهف وعلى القبور السبعة تبين أنها بيزنطية وهو ما يتفق مع العصر الذى عاش فيه الفتية السبعة ٠

● **فاس :**

من أعمال المملكة المغربية تتمتع بموقع هام على مفترق الطرق الى الرباط وطنجة كانت عاصمة للبلاد فى عهد عدة أسرات حكمت البلاد ابتداء من القرن الثامن الميلادى حتى القرن التاسع عشر وتتكون مدينة فاس من مدينتين الأولى المدينة القديمة والأخرى حديثة وقد قام بأنشائها مولاى ادريس الثانى ٠

لقد سكن المدينة فى أول عهدها البربر وأهـــل الأندلس اللاجئون من قرطبة وأصبحت مركزا ثقافيا خلال القرن العاشر وبلغت أوج عظمتها فى عهد بنى عامر وكان ذلك بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر والذين شيدوا بها المساجد والمدارس السبع التى بقيت على ازدهارها ٠٠ وبها شيدت أيضا جامعة القرويين الاسلامية وتعتبر فاس العاصمة الثقافية والروحية والفنية للملكة المغربية ٠

ولقد وصل العرب الى بلاد المغرب سنة ٦٨٢ هـ حاملين معهم الدين الاسلامى ذلك الدين القيم وسياسة سمحة تحارب الظلم والعدوان داعين الى الدين الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنة وقد نشر العرب الدعوة الاسلامية التى استجاب اليهـا السكان مما ترتب على ذلك تغيير شامل فى حياة الأهالى اجتماعيا واقتصاديا الى ما هو أفضل ٠

وبعدما عين الامير أدريس الثانى بعد وفاة أبيه خرج ليبحث عن مكان مناسب

لاقامة عاصمة جديدة للمملكة فجذبته سهول وادى فاس لوفرة مائها وخصوبة تربتها وعلى ذلك قرر بناء مدينته الجميلة الجديدة وفعلا قام بوضع حجر الاساس لها سنة ٨٠٨ هـ وهو يقول : « بنيت هذه المدينة لعبادة الله وترتيل كتابه واحترام شرائعة » ٠

وتم تصميم المدينة على أن تكون على هيئة قسمين احاط كل منهما بسور عظيم وخصص القسم الواقع على الضفة اليسرى لسكناه مع جنوده وضباط قواته اما القسم الواقع على الضفة اليمنى فكان للقبائل ٠

وبعد سنوات قليلة وفدت الى فاس ما يقرب من ألف عائلة أندلسية كانت تقيم فى قرطبة فقام ادريس الثانى عاهل المدينة بأسكانها فى الضفة اليمنى فى مكان أطلق عليه « عدوة الأندلس » ، وبعد ذلك قصد فاس نحو ثلاثة آلاف من عرب القيروان الذين استقروا فى الضفة اليسرى فى مكان أطلق عليه (عدوة القيروان) ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى قام المرابطون بتوحيد العدوتين وأحاطوهما بسور واحد ٠

وفى محاولة للتوفيق بين الأصالة والمعاصرة كما يقال والذى ينعكس على العمارة ونتيجة لذلك يظهر فى فاس نماذج ثلاثة :

ـــ فاس القديمة: التى ما زالت تئن تحت الكثافة السكانية المتزايدة فقد عجزت عن أن تقدم لهم وسائل الحياة ولكن فى نفس الوقت تقدم تراثا تاريخيا لا يقدر بثمن فهناك على سبيل المثال ـ المخطوطات التى تضم تراثا عربيا فى ذروة ازدهاره واليها يحن أبناء الشرق وأيضا تذهل أبناء الغرب ٠

ـــ فاس الحديثة : التى صار مألوفا فيها أن ترى العمارات الحديثة والمحلات التجارية الحديثة تعكس روح العصر رغم أنها لم تراع البيئة المحلية وجذبت البعض اليها ليسر الحياة فيها وخاصة بعد الارتفاع الكبير فى أسعار أراضى البناء وصار السكان يعيشون فيها بعد أن ضاقت بهم فاس المدينة القديمة ٠

ـــ الحى السكنى : وهو يشكل مجموعة من القصور تسكنه كبار العائلات وترى فى هذا الحى الفن الأندلسى الى جانب العمارات القديمة العريقة متداخلة مع عناصر الحداثة فى أنسجام متناغم مع توازن جميل بين احتياجات البيئة ونتاج العصر فطرقاتها واسعة نسبيا تتسع للسيارات ويحيط دورها حدائق الزيتون والبرتقال ، ومن الممكن تعميم ذلك على كل سكان فاس لاستيعاب أجمل ما فى التراث الاسلامى مع استغلاله وتوظيفه من أجل حياة عصرية وهذا يحتاج استخدام بعض ثروات المغرب وعندها تبقى فاس العتيقة ، فاس الرمز لتحتضن أبناءها وتحتويهم فى داخلها بعماراتها ومساكنها الحديثة أو العريقة العتيقة على حد سواء ٠

وشأن مدينة فاس فى مواجهتها المشاكل التى تعانى منها مثل باقى المدن القديمة من المشاكل التكيف مع العصر مع الحرص على الاحتفاظ بالتراث الفنى والبعض الآخر من هذه المشاكل فقدان دورها القديم بعد ان كانت يوما عاصمة ومقرا للحكم ثم انتقلت العاصمة السياسية الى الرباط بينما المركز التجارى والاقتصادى انتقـــل الى الدار البيضاء ٠

والدخول الى مدينة فاس يبدأ من بوابة وكأنها احدى بوابات التاريخ الأندلسية الطراز المحلاة بالفسيفساء بألوانه الفيروزية ، ولمدينة فاس سور يمتد اثنى عشر كيلو مترا وبه ست بوابات على امتداد السور وكان اغــلاق هذه البوابات يجعـــل الناس يشعرون بالأمان والأمن حتى الناس كان لهم زى خاص ولا تكاد تلمح الا عند رؤية زائر غريب ٠

وعبقرية المكان ــ كما يقول د٠ جمال حمدان ــ غيرها فى مدينة فاس ، أنها كانت انعكاسا للقيم الاجتماعية فالبيت المغربى كان يطل على الداخل حفاظ على المرأة فى مجتمع فاس وان كانت المرأة فىفاس شريكة فى الحياة العامة٠٠ ولا غرو فان الظروف الاجتماعية من حول أهل فاس تتغير وتظل فى نفس الوقت ــ محافظة على القديم ٠

ولا بأس عند أهلها أن تظل المدينة مغلقة وان قل فيها النشاط التجارى والاقتصادى مع انتقال الزيادة السكانية مع أنشطتها الى الأحياء الجديدة وتظل عماراتها ومبانيها التاريخية يفوح منها عبق التاريخ وتبقى برموزها وفنونها ليمتص منهـــا كل ما هو جديد ويوجد فى مدينة فاس ثلاثة مساجد يؤدون فيها صلاة الجمعة الى جانب جامعة القرويين ٠

● كابول / افغانســــــتان :

كابول أو كابل ، عاصمة افغانستان كما يطلق الاسم على احدى الولايات السبع التى تنقسم اليها افغانستان ، تقع على نهر كابول فى منطقة مشهورة بزراعة الفاكهة ، اتخذها السلطان المغولى بابر حاضرة ملكه ابان القرن ١٦ ، وبابر معنـــاه بالتركية الأسد ، وهو الاسم الشائع لظهر الدين محمد (١٤٨٠ ــ ١٥٣٠) ، مؤسس امبراطورية المغول بالهند ، سليل تيمورلنك ، والذى اعتلى عام (١٤٩٥) عرش امارة بوسط آسيا حاول أحد أعمامه بمعونة بعض النبلاء اغتصاب الحكم منه ، ولكن الحاكم الفتى أنقض فى شجاعة على مقاطعات كشغار وقندهار ، وامتلكها ، ثم استحوذ عام (١٥٠٤) على كابل وأقام مملكة فى افغانستان ، ومنها غزا الهند عام (١٥٢٥) ، ورغم صغر قوته ،

فانه باستخدام المدافع هزم سلطان دلهى فى بانيبات عام (١٥٢٦) ، وسقطت فى يده أجرا ودلهى ، وتم له فتح معظم الارجاء الشمالية من الهند ٠

كان عبقريا فذا ، فى الشئون الحربية والادارية ، وفى العلوم والفن أيضا حيث كان موسيقيا موهوبا ، كما كتب سيرة لحياته وفتوحاته تعد تحفة أدبية ٠ وعمل على ادخال اصلاحات كثيرة منها تمهيد الطرق ، وتنظيم البريد ، ومسح الأراضى ، ووضع نظام عادل للضرائب ٠٠ ثم صارت كابول مرة أخرى عاصمة لأفغانستان عام (١٧٧٣) بدلا من قندهار وبرزت أهميتها فى أثناء الحرب الأفغانيـــة الأولى أعوام (١٨٢٠ ـ ١٨٤٢) ، ويبلغ عدد السكان فى هذه الولاية ٩٠٩ر١٧٥ر١ ، والمساحة ٥٨٥ر٤ كم٢، أما عدد سكان المدينة العاصمة فيصل الى ٤٠٧ر٠٣٦ر١ ، وان ٩٩٪ من هذا العدد مسلمون ، ومع ان كابول ليست على خط حديدى الا أنها مركز هام للمواصلات البرية الخارجية اذ يربطها مع باكستان طريق برى رئيسى يصلها بمدينة باشور عن طريق ممر خيبر ، كما تربطها شبكة من طرق للسيارات مع عواصم الولايات الأخرى وقد أقيمت جامعتها عام ١٩٣٣ ٠

قال الاصطخرى الخلج صنف من الأتراك وقعوا فى قديم الزمان الى أرض كابل التى بين الهند ونواحى بحستان فى ظهر الغور وهم أصحاب نعم على خلق الأتراك فى زيهم ولسانهم ، وكابل اسم يشمل الناحية ومدينتها العظمى أو هند وقد اجتمعت برجل من عقلاء بحستان ممن دوخ تلك البلاد وطرقها فذكر لى بالمشاهدة ان كابل ولاية ذات مروج كبيرة بين هند وغزنه ، قال ونسبتها الى الهند أولى فصح عندى ٠ وأما قول ابن الفقيه انها من ثغور طخارستان فليس ببعيد من الصواب ، ولعل لخارستان تكون فى المثلثة الشرقية منها ٠

قال ابن الفقيه ، كابل من ثغور طخارستان ، ولها من المدن واذان وخواش وخشك وجزه ، قال ٠ وبكابل عودونا رجيل وزعفران وأهليلج لأنها متاخمة للهنـــد ٠ وكان خراجها ألفى ألف وخمسمائة ألف درهم ومن الوصـــــائف ألفا رأس قيمتها ستمائة ألف درهم ٠ وعن تاريخ دخول الاسلام فى كابل ٠ فيذكر من أخبار الخليفة العباسى المأمون أنه فتح كابل واظهر ملكها الاسلام والطاعة وأدخلها عامله (رأى عامل المأمون) واتصل بها لبريد ، ثم استقامت بعد ذلك حينا ، ويبدو أن فتح كابل استقر بصفة دائمة حوالى عام ٣٥٧ هـ (٨٧١ م) ٠

● كراتشى :

ميناء بجمهورية باكستان على بحر العرب ـ تقع فى شمال دلتا نهر السند ، يبدأ

عندها الخط الحديدى الذى يتفرع عند جيدر أباد والسند متجها الى الهند عبد باكستان وهى أيضا مسقط رأس الزعيم الباكستانى محمد على جناح وكراتشى من أهم الثغور ونظرا لأهمية موقعها الجغرافى الهام اعتبرت المنفذ الوحيد لباكستان على بحر العرب ــ كما أنها العاصمة الاقتصادية للبلاد لوقوعها فى أقليم زراعى داخل دلتا السند ولكونها مركزا صناعيا وتجاريا مرموقا ٠

وكانت كراتشى العاصمة السياسية للبلاد منذ قيام دولة باكســـتان حتى سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) وانما تحولت العاصمة عنها لموقعها غير المناسب وبالرغم من ذلك فهى النواة الأولى لدولة باكستان ولا تزال قلبها النابض ٠

تطورت أهمية كراتشى السياسية منذ عام ١٩٤٧ م حين اختارها الزعيممحمد على جناح عاصمة لدولة باكستان الجديدة ومن ثم تطور عدد سكانها تطورا كبيرا ٠ وبعد أن كان ٣٥٩ ألفا فى عام ١٩٤٠ ارتفع الى ٣ ملايين ٤٩٥ ألفا عام ١٩٧٢ ثم وصل حسب تعداد ١٩٨١ الى ٥ ملايين و ١٠٣ آلاف نسمة ٠

والغالبية العظمى من أهل باكستان مسلمون ويمثلون ٩٨٪ م نتعداد السكان وتوجد أقلية صغيرة من الشيعة ويتركز أعضاء الطائفة الاسماعيلية فى كراتشى ــ كما توجد الطائفة الأحمدية فى منطقة لاهور ٠

ويؤلف الهندوس ٦ر١٪ من تعداد السكان ــ ويتحدث غالبية السكان « الأوردو» وتعنى لغة « المعسكر » وكانت هذه اللغة قد دخلت مع المغول وتحـــوى الكثير من الكلمات العربية والفارسية ــ وان كانت اللغة الانجليزية تســــتخدم فى الأوساط الرسمية والتجارية والمحاكم ومعاهد التعليم كما يتكلم بعض السكان لغــات أخرى محدودة الانتشار مثل البنجابية والسندية والبشتية ٠

وفى عام ١٩٥٩ بدأ نقل العاصمة واتخذت الدولة من مدينة روالبندى عاصمة بدلا من كراتشى لتناسب ذلك مع توزيع السكان والعمران فى باكستان ، ثم رئى مؤخرا أن تكون العاصمة اسلام أباد التى أقيمت خصيصا لذلك على مقربة من روالبندى ٠

وعلى الرغم من هذا فقد ظلت تتمتع كراتشى بأهميتها اقتصاديا باعتبارها الميناء الثانى فى القارة الهندية بعد بومباى ونظرا لموقعها الجغرافى الهام وصـــــل اليها الاسلام مع التجار والقوافل التى كانت تفد الى السواحل الهندية ، كما أدركها مد الفتوح الاسلامية وقد بدأت الحملات البحرية كغزو الشواطىء الشمالية الغربية للهند حول بومباى « الديبل » التى كانت تقع مكان كراتشى ٠

ومنذ خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ـ وعندما كان الحكم بن عمر والغفارى واليا على خراسان أرسل المهلب بن أبى صفرة فى عام ٤٤ هـ لغزو السند ثم أرسل الحجاج صهره محمد بن محمد بن الحكم بن عقيل الثقفى فى عام ٨٩ هـ (٧٠٨ م) الذى وطد حكم الاسلام فى مكران وقطع ما يعرف الآن باسم أقليم بلوخستان حتى وصل أرض السند ـ وفتح « أرمئيل » وهى مدينة كبيرة من أرض السند شرقى مكران ـ ثم سار الى « الديبل » ميناء السند العظيم على ساحل بحر الهند ٠

وحين خندق محمد بن القاسم امام « الديبل » أمره الحجاج برمى « الدقل » وهى سارية لمنارة عظيمة للبلد وقيل عنه فى كتاب العرب انه « صنم بوذا » أو مكان عبادة البوذيين وأطلق عليه « البددة » ٠

وأستمرت فتوحات محمد بن القاسم فى طريقه الى شمال السند وانضم اليه جماعة من « الزط » كان المسلمون قد التقوا بجماعة منهم خلال فتوحاتهم فى فارس وخرسان ـ وأسكنهم وأهلهم بأسفل كسكر وتناسلوا بها بعد ان غلبوا البطيحة ٠

وحين تولى السلطان التركى الأصل محمود بن سبكتكين عرش الدولة الغزنوية عام ٣٨٨ هـ نذر نفسه للجهاد ونشر الاسلام ٠ وخاض غمار سبع عشرة حملة فى المنطقة وفتح كشمير ودلهى ولاهور واحكم توطيد الحكم الاسلامى فى البنجاب ٠

● قرطبة :

بعد فتح مصر انحرفت الجيوش تجاه الغرب لتأمين خطوط المسلمين وقاعدتهم فى مصر واستطاعت مصر بعد فتحها فى عام ٢٠ هجرية أن تصبح قاعدة لفتح افريقيا ٠

وكانت طبيعة البلاد وقائدها سببا فى تأخر الفتح الاسلامى واستقر أول حاكم حقيقى على يد حسان بن النعمان الغسانى الذى استعان بالأسطول العربى على طرد الروم من المدن الساحلية فى شمال أفريقيا خاصة « قرطاجة » ٠

وقد شهد المغرب بعد ذلك واليا من أعظم رجال الاسلام وهو « موسى بن نصير » الذى دخل الاسلام الى أسبانيا وعهده بعد ان استتب فى شمال أفريقيا وأمن به البربر وتكلموا لغته وعاشوا حياته واستطاع ابن نصير أن يستولى على أغلب جزر البحر المتوسط وكان يعرف باسم بحر الروم وهدفه من ذلك تأمين حدود الخلافة الاسلامية فى أفريقيا ٠

طلائع جيوش المسلمين بقيادة طارق بن زياد :

استأذن بن نصير الوليد بن عبد الملك فى فتح اسبانيا وأشار عليه الوليد بأن يخضعها بمجموعات صغيرة من السرايا ليأمن عليهم فأرسل بن نصير أولاها بقيادة « طريف بن مالك الذى استطاع أن يحقق نصرا عسكريا باهرا وأصبح المكان الذى نزل فيه معروف الى الآن باسمه » رأس طريف ٠

كما أرسل « يوليان » حاكم سبته رسالة الى ابن نصير يطلب منه الاسراع بغزو أسبانيا ، وذلك بسبب عداء شخصى بينه وبين الملك « لوزريق » ٠

وبدأت طلائع جيوش المسلمين بقيادة طارق بن زياد تعبر الزقاق (جبل طارق) أو (جبل الفتح) لتجتاح جيوش المسلمين جيوش الملك « لوزريق » وتهزمها فى شهر رمضان سنة ٥٢ هـ (٧١١ م) فى موقعة خالدة عرفت بموقع « شريش » أو « وادء نهر لكه » وهزم القوط وفرت قواتهم وعبيدهم وانضموا الى المسلمين ٠

ومن الخطب الشهيرة لدى العرب قول طارق لجنده ٠٠ أيها الناس اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر ٠٠ واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضعف من الايتام فى مأدبة اللئام — وقد اســـتقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وتد لكم الا ســــيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ٠٠ وقيل ان طارق أمر بأحراق أسطوله ليدفع جنده على الاستبسال وقد اجتاحت جيوشه بعد ذلك أشبلية وقرطبة وطليطلة ٠

وقد لحق موسى بن نصير بطارق بن زياد واستطاع أن يؤمن ظهره ويعيد فتح بعض البلاد التى خرجت على حكم المسلمين ٠ والتقى الجيشان (قوات ابن نصير وقوات (ابن زياد) فى العاصمة « طليطلة » وتفرق الجيشان من جديد ٠ فسار طارق نحو جبال كنبزية وأستولى على امايا واشرقه وليون واستطاع موسى بن نصير أن يكمل فتح أقليم قشتالة وسماها العرب بلدة « الوليد » وتعرف الآن باسم « فاليا دوليد» ووصلت قواته حتى بلدة خيخونة وصخرة « بلاى » وتم لهم بذلك فتح أسبانيا جميعا باستثناء الاقاليم الجبلية فى الشمال الغربى « اشتريس وجليقة » التى فر اليها أمراء القوط ونبلاؤهم وقادتهم العسكريون ٠٠ ومن الغريب أن يقال أن هذه المناطق نفسها هى التى لجأ اليه العرب المسلمون بعد ذلك بثمانية قرون هربا من طغيـــان ومذابح المسيحيين ٠

من رجالات قرطبة :

ومن رجالات قرطبة أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال : أحد كتاب

السير ولد بقرطبة عام ١١٠١ ــ ألم بالحديث وبتاريخ وطنه بعد ان درس في مسقط رأسه اشبيلية وقيل أنه لم يكن له نظير في تاريخ الأندلس ٠٠ ألف حوالي ٥٠ كتابا ٠٠ لا يعرف منهم الا كتابان ٠٠ هما « الصلة في تاريخ ائمـــة الأندلس والمبهمات من الاسماء » ٠

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد : فيلسوف وطبيب وفقيه عربي أندلسي ولد بقرطبة عام ١١٢٦ ــ حفظ العلوم الشرعية والعقلية وولي القضاء في اشبيلية ، ثم في قرطبة وأصبح يلقب بقاضي قرطبة ، الى جانب تلقيبه بالشارح لشرحه كتب أرسطو ومن كتبه « الطبيعيات » « الســماء » ٠٠ « العـــالم » ٠٠ « الكون » والفســـاد » الآثار العلوية ٠ وأهم شروحه شرحه المعروف باسم « تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو »٠

● أم درمـــــان :

من أهم مدن السودان التي كان لها دور في انتشار الاسلام هي مدينة أم درمان التي تقع بوسط جمهورية السودان ــ وهي من أكبر مدن البلاد وعاصمته الوطنية والتجارية وسوق لكثير من منتجاته ، وهي الضفة الغربية للنيل بالقرب من التقائه بالنيل الأزرق ويبلغ تعداد ساكنها ٤٠١ر٢٩٩ ألف نسمة حسب احصـــاء ١٩٧٣ ــ أغلبهم من الوطنيين الذين نزحوا اليها من انحاء السودان المختلفة ، وتعتبر أم درمان أحد أجزاء العاصمة المثلثة (الخرطوم) والتي تشمل ثلاثة أجزاء :

الخرطوم ــ الخرطوم بحري ــ أم درمان : ويربط بين الأجـــزاء الثلاثة جسر صلب على النيل الأزرق ــ ذو سبع عيون ــ كان قد تم تشييده فيما بين عامي ١٩٢٤ ــ ١٩٢٨ م فوصل بين الخرطوم وأم درمان ، كما تم تشييد كوبري أم درمان في نفس الفترة تقريبا ليتحدا في نهر النيل ٠

ـــ أم درمان عاصمة السودان ١٣ عاما :

وقد اصطبغت الخرطوم بصبغة أوروبية وشرقية الا أن أم درمان ظلت مركزا للحياة الوطنية وتركزت فيها تجارة السودان الداخلية ٠

كما قامت الثورة المهدية في عام ١٨٨٤ وقتل حاكم السودان الانجليزي جوردون وأمر المهدي بنقل عاصمة السودان الى أم درمان ــ وبقيت على هذا الحال لمدة ثلاث عشرة سنة ، عادت بعدها السيادة للخرطوم الى أن دخلتها القـــوات المصرية عام ١٨٩٨ ــ واستقل السودان كله في عام ١٩٥٦ ٠

وجاء ذكر أم درمان أول مرة عندما حصنها جوردون باشا ليصد عن الخرطوم غارة الدراويش بقيادة محمد أحمد الذى أستولى على أم درمان فى ١٥ يناير ١٨٨٥ م أى قبل سقوط الخرطوم ونهبها بعشرة أيام ٠

وفى عهد عبد الله خليفة محمد أحمد أصبحت أم درمان مقر حكومة الأسرة المهدية والمركز الدينى لهذه الفرقة الجديدة ، وشيد بها قبر المهدى ذو القبة فى وسطها وفقا للتخطيط الذى وضعه أسير مصرى : من ذلك الوقت عرفت باسم « بقعة المهدى» وعمل الخليفة على توطيد سلطانه ، فأغرى جموعا كثيرة من عشيرته على سكنى أم درمان ، ونزحت اليها القبائل ومنها التعايشية والبقارة الذين يقطنون سـودان الغرب ، وأخذوا يعتمدون فى معاشتهم على طلب السـكان الذين يعيشـون فى حوض النهر ٠

وقد أطلق المهدية على نزوح السكان لفظ « الهجرة » لأنهم وجدوا شبها بين حياة محمد أحمد وأصحابه وحياة المسلمين فى صدر الاسلام وفى موقعة « أم درمان » اعادت الجيوش المصرية الانجليزية فتح السودان بقيادة السير هربرت كتشنر (اللورد فيما بعد) وكان ذلك يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨ بالقرب من قرية كربوى على مسيرة بضعة أميل شمال هذه المدينة ٠

وفى عهد هذا الحكم الجديد تحضرت المدينة وأقيم فيها مبان كثيرة وشقت فيها الطرقات وسيرت بها العربات وعربات الترام وانيرت بالكهرباء وأصبحت بيوت أهل اليسر ودور الحكومة تبنى بالآجر والحجر ، وظل الجزء الاكبر من المدينة يتألف من مساكن مربعة الشكل مبنية بالطين شأن جميع المبانى فى شمال السودان ، وبقيت الأسواق المزدحمة محتفظة بطابعها الشرقى والافريقى ٠

وتؤكد الروايات السودانية أنه فى عصور الاسلام الأولى نزحت قبائل عربية الى السودان من شبه جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر مباشرة ٠

وخلال الفترة التى امتدت بين القرن العاشر (١٦ م) والنصف الأول من القرن الثالث عشر (الربع الأول من القرن ١٩ م) قامت ممالك اسلامية فى مناطق متفرقة من السودان كان أهمها مملكة الفونج (١٥٠٥ ــ ١٨٢٠ م) التى قامت فى بلاد النوبة مقام الدولة المسيحية الزائلة وكانت قاعدتها سـنار ، وسلطنة دارفور (١٦٣٧ ــ ١٨٧٥ م) التى قامت فى الأطراف الغربية من السودان ــ ثم مملكة تقلى التى تأسست حوالى عام ١٥٧٠ م واستمرت الى أواخر القرن ١٩ م ٠

نشطت الدعوة الاسلامية فى عهد مملكة الفونج على يد الدعاة القادمين من

الحجاز ومصر والمغرب وكان الحج والتجارة بين الحجاز والسودان من أكبر ما هيأ السبيل لانتشار دعوة الاسلام التى كانت سلمية فى أغلب الأحوال · وكان لسلطنة دارفور الفضل فى الاستعانة بفقهاء جزيرة سنار لنشر العلم فى ربوعها وارتحل الكثير من السناريين الى الأزهر لطلب العلم ·

ولما جاء فتح محمد على حاكم مصر لأراضى السودان عام ١٨٢٠ م استطاعت جيوشه ضم وتوحيد أجزاء السودان المتفرقة كما كان للادارة المصرية فى العهود التركية الأثر الكبير فى التمهيد للثورة المهدية ـ وقامت الجهود لنشر الاســـلام فى أعالى النيل وأصبحت الخرطوم التى أسسها محمد على عام (١٨٢٢ م) عاصمة للبلاد وتقابلها فى الضفة الغربية أم درمان ، ثم أصبحت أم درمان العاصمة الوطنية التى انتقلت اليها مقاليد الحكم فى عهد المهدية ·

ويعد ازدهار الاسلام بالسودان فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر أصبح دين الدولة الرسمى تحول السودان الى أحد المراكز الهامة لنشر الدعوة الاسلامية وشيدت به المساجد ودور العلوم الدينية وأقبل ابناء السودان على الدراسة بالأزهر الشريف وكان على رأسهم سودانى يدعى « محمد على ودامة » وكان ذلك فى عام ١٨٣٦ م وقاد هذا الرجل معظم القادمين من السودان وأصبح لهم مقر فى مصر اشتهروا به آنذاك ·

وأقيمت المعاهد والمدارس على غرار معاهد مصر الاسلامية وشيدت المساجد وأقيمت الزوايا فى كل مكان ـ كما أقيم المعهد العلمى فى أم درمان بعد قيام ثورة ١٩٠١ م ونهض برسالته كمؤسسة وطنية اسلامية وكانت محاضراته تلقى فى مسجد أم درمان · كما يوجد بأم درمان جامع الخليفة « المعهد العلمى » الذى يرأسه شيخ العلماء وتدرس فيه العلوم الاسلامية ، وجدير بالذكر أن نساء السودان أقبلن على الاسلام بحب شديد وكان لهن دور فى نشره ، ومن بين هؤلاء النسوة سيدة تدعى « امونة » فى دنقلة ـ وكانت تشرف على دارين لتحفيظ القرآن الكريم للبنات والبنين وتنفق عليهما من ثروتها ـ وكان بيتهـــا مقصـــد الفقراء والذاهبين الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج ·

ويعتبر محمد أحمـــد المهـــدى (١٨٤٤ ـ ١٨٨٥) الزعيم الدينى من أهم الشخصيات التى انجبتها السودان ـ فلقد كان هو منشىء الطريقة المهدية التى اخذها عن الأدريسية وقد تصوف ودخل الخلوة ، وكثر مريدوه الذين لبسوا الجبة المرقعة دليلا على الفقر والمساواة فسموا بالمهراويش · وأعلن دعـــوته عام ١٨٨١ وأطلق اتباعه الدراويش اسم الأنصار على أنفسهم وثار على الحكومة وهزم كل الحملات

التى وجهت اليه وأستولى اتباعه على السودان ودخلوا الخرطوم ثم أخمدت الثورة فى ١٨٩٩ ٠

● البصـــرة :

احدى مدن العراق الشهيرة فى الآفاق ، الفسيحة فى الأرجاء ، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة ، كانت تعرف فى العصور باسم بلسورا ، وهى تقع على الضفة اليمنى لشط العرب ويبلغ تعداد سكانها مليونا و ٥٤٠ ألف نسمة وعاصمتها هى كركوك ٠

وقد أسس مدينة البصرة أولى المدن الاسلامية التى اختطها المســـلمون الأوائل عتبة بن غزوان عام ١٦ هـ (٦٣٧ م) بأمر من الخليفـــة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى المكان الذى شيدت فيه المدينة معسكر ضرب هناك منذ عام ١٤ هـ (٦٣٥ م) وقد قصد من بنائها أن تكون مركزا للجيش الاسلامى ، ولذلك اختير مكانها فى بقعة بالقرب من النهر والوادى الخصيب القريب من المشارب والمرعى ٠

وسميت المدينة بالبصرة أى « الحجر الأبيض » لأن الأرض التى شيدت عليهـا من الحجر الأبيض ومما يذكر أنها كانت فى مبدأ أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة فأنشأ بها أولا أبو موسى الأشعرى مسجدا ، وبنى بجواره دار الامارة وقد اتخذت من الغاب أولا ، ولما وجدوا أن الغاب لا يقوى على مقاومة النار بنوا الدور باللبن ثم أقاموها بالآجر والحجارة بعد أن اتسعت ثروتهم بأقامة منبر فيها كعلامة تعرف بها المدينة الاسلامية التى سرعان ما ازدهرت وأصبح لها شأن هام فى تاريخ الاسلام ففى بداية وجودها أمدت جيوش الفتح الاسلامى بالجند واشترك أهالى البصرة فى موقعة نهاوند عام ٢١ هـ (٦٤٢ م) وفتوح اصطخر وفارس وخراسان وسجستان سنة ٢٩هـ (٦٥٠ م) ثم بدأت الأحداث تسير بخطى سريعة وأصبحت البلدة مسرحا لأول نزاع كبير مسلح قاتل المسلمون فيه اخوانهم المسلمين اذ خرج طلحة والزبير وعائشـــة لمقاتلة الامام على ابن أبى طالب الذى أنتصر عليهم فى موقعة الجمل الحـــربية عام ٣٦ هـ (٦٥٦ م) كما ان دسائس الخوارج جعلت البلاد مرتعا للحروب الأهلية بين القبائل التى انتهزت فرصة الفوضى السياسية فجعلوا المدينة نهبا لغاراتهم التى تبتغى السلب والنهب (ولم يبق فى أيامنا هذه سوى مبنى يعرف بمسجد على وقبور طلحة والزبير وابن سيرين والحسن البصرى) ٠

وقد بلغت مدينة البصرة أوج مجدها زمن العباسيين وقد كانت هى وضاحيتها « المربد » ٠ أهم مفاخر البصريين وكانت « المربد » صورة معدلة لعكاظ فى الجاهلية

ـ ومركزا لتجارة العرب البحرية تلك التجارة التى انتشرت حتى بلغت بلاد الصين وتفرغت القناتان الكبيرتان اللتان تربطان هذه المدينة بالنهر ـ وهما نهر الأبلة ونهر المعقل الى جملة مجار مائية أغلبها صالح للملاحة تجرى فى شوارع البصرة وحدائقها ٠

كذلك ازدهرت الحياة العقلية فى البصرة حتى قيل انها البوتقة الحقيقية التى اتخذت فيها الثقافة الاسلامية شكلها ، فكانت المكتبات العامة والمساجد اسمى ما يتوق اليه الأهالى فى حياتهم وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن علم النحو العربى ولد هناك ويعد أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو كما كان أول من وضع أساس مدرسة البصرة ٠

ومن أشهر علماء البصرة وأدبائها أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد واضع علم العروض وصاحب كتاب « العين » الذى يعد أول معجم وضع فى اللغة العربية ، وعمرو بن بحر الجاحظ البصرى الذى عرف بحرية الفكر والميل الى عقائد المعتزلة ومن كتبه « البيان والتبيين » و « الحيوان » ٠

وفى المجال الدينى أشرق سنا العلوم اشراقا عظيما ، فقد وطد الحسن البصرى ومريدوه دعائم التصوف ، كذلك أسس الأشعرى مذهب الأشاعرة ، كما أن البصرة تستطيع أن تزعم أنها أنجبت شعراء بنى أمية العظام والمجددين أمثال بشارة بن برد وأبى نواس وأخيرا فان النثر العربى ولد فى هذه البلدة على يد ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون ٠

البصرة مركز للعلم والأدب :

لقد احتفظت البصرة بمكانتها العلمية فكان أحرار الفكر من العلماء والأدباء يعقدون اجتماعاتهم فى تلك المدينة كما نشطت دراسة الفلسفة فظهر بها اخوان الصفا واتخذوها مركزا لنشاطهم العلمى ٠

وقد صنفت جماعة اخوان الصفا اثنتين وخمسين رسالة عالجت موضوعات شتى كما ضمت معلومات ومعارف تنم على ان مؤلفيها نالوا حظا موفورا من الرقى العقلى ٠

كذلك لم يكن اخوان الصفا جماعة فلسفية فحسب بل كانوا أيضا جماعة سياسية ذات ميول شيعية متطرفة ، وقد حرصوا على نشر مبادئهم فكان لهم فروع

فى كثير من البلاد ، وكان منهم زيد بن رفاعة ، وأبو سليمان محمد بن نصر السبتى ويعرف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ·

بين العلم والدين ولكنهم لم يستطيعوا ارضاء أهل الدين ولا أهل العلم · وقد أخذت الثقافة العربية بوجه عام فى الاضمحلال واهتمت بغداد وغيرها من حواضر الأقاليم بأن تجرد البصرة من عرشها تجريدا تاما ·

● صـــنعاء :

كان اسم صنعاء فى القديم « أزال » فلما قدمت الاحباش ورأوا مدينتها مبنية ومحصنة قالوا هذه صنعة بمعنى أنها حصينة ، ويذكر لنا المؤرخون بأنها سميت بهذا الاسم نسبة الى صنعاء بن أزال بن يقطن بن عاير بن شامخ على أساس أنه هو الذى قام ببنائها ·

وكان لمدينة صنعاء تسعة أبواب حتى لا يدخلها غريب الا باذن لأنهم كانوا قد قرأوا فى بعض الكتب أنها سوف تخرب على يد رجل يدخل من باب يسمى باب حقل ووصل بهم الأمر لتركيب أجراس على هذا الباب متى تحركت سمع صوت الأجراس من الأماكن البعيدة ·· وأى قادم اليها بعد غروب الشمس كان دائما ينام خـــارج الأسوار حتى الصباح ·

وعندما أشرق نور الاسلام على شبه الجزيرة العربية سافرت وفود كثيرة من اليمن وكان من بين العظماء الذين وفدوا على الرسول الله صلى الله عليه وسلم وائل ابن حجر بن ربيعة وكان من أبناء الملوك فى اليمن فأدناه الرسول صلى الله عليه وسلم منه وأجلسه على ردائه ثم أقطعه الرسول أرضا وأرسل معه معاوية ابن أبى سفيان ليسلمها اليه فركب وائل ناقته ومشى معاوية خلفه ولما شق المشى على معاوية طلب من وائل أن يردفه خلفه فقال وائل لست كفئا لأن تكون ردفى وقد عاش وائل حتى أصبح معاوية خلفه ، فوفد وائل عليه بدمشق فأكرمه معاوية وأحسن اليه فقال وائل وددت لو كنت حملته بين يدى !

ومن مشاهير الذين وفدوا من اليمن أبو موسى الأشعرى وأخوه أبو بردة وياسر بن عمار العنسى والد عمار بن ياسر ·

الســـــردة :

وعقب انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى وفى بداية خلافة

أبى بكر الصديق ظهرت الردة وكانت بدايتها من اليمن وظهر مسليمة الكذاب والأسود العنسى وادعيا النبوة ولكن موقف أبى بكر رضى الله عنه حسم هذه الفتنة وعندما استقر الوضع فى جنوب شبه الجزيرة العربية والقضاء على حركة الردة بدأ التوسع الاسلامى شمالا وقد عملت اليمن وساهمت بقسط وافر فى الصراع ضد الفرس والروم ويذكر المؤرخون أنه عندما تلى خطاب أبى بكر داعيا أهل اليمن للجهاد استجابوا بحماس شديد لهذه الدعوة حتى يخدموا الاسلام ويعملوا على رفع رايته وحتى يتهجوا بنشاطهم العسكرى الى أعداء العرب وتجدر الاشارة الى مسجد الجامع الكبير الذى مازال يعد حتى اليوم من أندر الآثار الاسلامية فى اليمن وقد تم بناؤه بأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وفى تاريخ الرازى عن صنعاء جاء فيه قوله : « ان النبى صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه ببناء مسجد لأهــل اليمن فى بستان بهذان بن ساسان ــ آخر حاكم فارسى لليمن ، قبل دخول الاسلام اليها ، وبالجامع نقش مسجل عليه تاريخ بنائه وكيف أمر الرسول الكريم ببنائه قبل مسجد الجند ٠ وهذا الجامع يعد تحفة فنية أثرية تدل على عظمة أهل اليمن الذين أقاموا هذا البناء الضخم ومسجد بهذا التاريخ الطويل تعرض للعوامل الجوية وكان بحاجة للترميم والعمارة وتم ذلك ثلاث مرات على امتداد ثلاثة قرون كان اخرها تلك التى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى ٠

● آثار سـبا :

ولقد جاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى فى سورة النمل : « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ٠ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أوليأتينى بسلطان مبين ٠ فمكث غير بعيد فقال أحطت بمالم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ٠ انى وجدت أمرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ٠ وجـدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » ٠

ومعنى ذلك ــ فى ايجاز شديد ــ أن نبى الله سليمان عليه السلام تفقد الطير ذات يوم فلم يجد الهدهد فلما عاد قال لسليمان أنه وجد فى سبأ امرأة تملكهم وتحكمهم وأنها وقومها يسجدون للشمس ــ من دون الله فبعث سليمان معه بكتاب القاه للملكة يطلب فيه ألا تتعاظم عليه ، وأن تأتى اليه مسلمة وعند وصول الكتاب اليها جمعت قومها لتشاورهم فى الأمر فقالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد وأنهم رهن اشارتها وقالت أنها أرسلت الى سليمان بهدية فلما وصلت الهدية لم يقبلها لأنه فى غنى عنها ، وقال انه سيرسل الى بلادها جنودا لا قبل لها بهم ، وعلى أثر هذا التهديد توجهت

الى سليمان الذى شيد لها صرحا ممردا من قوارير ووضع فيه عرشها وعندما وصلت رأت ما يدهشها فقالت : « رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ٠

ويوجد فى بلاد اليمن قصور وحصون بقيت من عهد الأقدمين مما دفع الاثريين للبحث والتنقيب عن هذه الآثار فقد ترك السبئيون آثارا عديدة وهامة بعضها مازال قائما لليوم فى صرواح ومأرب التى كانت عاصمة لملكة سبأ ويوجد مكان يسمى بهيكل سليمان ولكن الأهالى قاموا بوضع مكبر للصوت أعلى الهيكل وسدوا ما بين الأعمدة الخارجية وجعلوه مسجدا يعرف أيضا بمسجد سليمان ٠

● أسمرة :

اقليم اريتريا (المستعمرة الايطالية حتى عام ١٩٤١ وضعت تحت الادارة البريطانية وفى ٣ ديسمبر ١٩٥٠ أصدرت الجمعية العمومية لهيئة الأمم قرارا بضم اريتريا فيدراليا الى أثيوبيا باعتبارها ولاية ذات استقلال داخلى تحت التاج الأثيوبى ووضع القرار موضع التنفيذ فى ١٥ سبتمبر ١٩٥٢ وفى ١٤ نوفمبر ١٩٦٢ اصدر المجلس التشريعى فى اريتريا قرارا بفض الاتحاد الفيدرالى وضع الاقليم ضما تاما الى أثيوبيا ، ولكن القرار كان مثار أعتراض باعتباره قد تم تحت الضغط والاكراه ، واريتريا معناها الغابة والزهرة وهى تقع فوق جبل يرتفع ٧٧٦٥ قدما فوق سطح البحر ، يربطها بميناء مصوع خط حديدى طوله ٧٥ ميلا ، عدد سكانها حوالى ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة وتدين الأغلبية من سكانها بالاسلام بمذاهبه الأربعة ٠

وفى ٤ أغسطس (أب) ١٨٨٩ دخل الجنرال باليسير أسمرة ، وكانت عبارة عن أربع قرى صغيرة يطلق عليها أربعتى أسمرة) وقد نقلت الادارة الاستعمارية الايطالية مكاتبها من مصوع الى أسمرة لتصبح عاصمة البلاد بعد وصول خط السكة الحديدية اليها فى ٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١١ بالنظر الى موقعها الممتاز المتوسط البلاد وجوها الدائم الربيع ٠

تكرار غارات القراصنة :

وقد دخل الاسلام فى مناطق شمال اريتريا وغربها عن طريق التجار العرب والعلماء الذين استقروا بين ممالك البجه وحول مناجم الذهب فى هجر وغيرها منذ القرن التاسع الميلادى ، وعلى أثر تكرر غارات القراصنة على ميناء جدة فى عامى ٦٣٠ م و ٦٤٠ م وصلت ادارتها الى مرحلة الزبول نتيجة الصراع الرومانى الفارسى الذى أقحم اليمن واكسوم فى حروب طويلة اضطر العرب الأمويون الى الاستيلاء على

جزر دهلك وشاطىء مصوع وعدوليس فى عام ٨٤ هـ الموافق (٧٠٢ م) وأقام الامويون هناك القلاع والحصون وأمنوا طرق التجارة فازدهرت البلاد وتشجع العرب على استيطان المنطقة وتعميرها ، وأصبحت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل لجنوب الجزيرة العربية المجال الحيوى للجماعات التى خرجت من الجزيرة العربية للتجارة وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة ٠

تجار البندقية :

وكانت القرون الثلاثة التى تلت القرن السابع الميلادى فترة تصاهر فيها العرب النازحون مع قبائل البجة التى اكتسحت المنطقة والقبائل الكوشية القديمة ٠٠ وعن طريق المصاهرة والتجارة انتشر الاسلام حتى أن المؤرخ الايطالى كونت روسى يشير الى قيام ولايات اسلامية عربية مزدهرة فى دهلك والشواطىء الاريترية فى القرن الثامن الميلادى ٠ ويعتقد أن قبائل الدناكل فى جنوب ايترياوا السمهر فى ضواحى مصوع تعد من أقدم سكان اريتريا اعتناقا للاسلام ، كما انتشر الاسلام بين قبائل الساهو التى تسكن فى المنطقة الممتدة من خليج زولا الى مرتفعات أكلى قوازى فى القرن الرابع عشر عن طريق أسر دينية عربية أشهرها أسرة (بيت الشيخ محمود) التى تسكن زولا وتدعى الانتساب الى الزبير بن العوام ٠

أما قبائل الساحل والبنى عامر فقد انتشر الاسلام بينها ابتداء من القرن العاشر الميلادى ٠ ويذكر تجار البندقية فى القرن الخامس عشر قبيلة بيت معلا كقبيلة اسلامية تعيش فى سواحل شـــمال اريتريا وهو موطنها حتى الآن مع امتدادها الى منطقة بركة ٠٠ وكان لعائلة (عد شيخ جاهد ولدنا فعوتاى) تأثير كبير فى نشر الاسلام بي قبائل الحباب وبنى عامر ٠ وتنتمى هذه الأسرة الى اشراف قريش ٠ وقد قدمت الى اريتريا عن طريق السودان ، ولها حتى الآن زوايا لتعليم الدين (زقا شيخ) فى محافظة الساحل ٠ وخلال القرن التاسع عشر تحول عدد من القبائل الناطقة بالتجرى والتى كانت تعتنق المسيحية ، الى الاسلام ، ومنها الماريا والمنسع والبلين والبيت جوك والحباب بفروعها الثلاثة (بيت أسقدى، عد شكليس، عتماريام) وكانت أسر حاكمة نزحت من هضبة حماسين الى المرتفعات الشمالية وأضاف لسلطانها قبائل التجـرحـ الكثيرة العدد ، كما اعتنقت قبيلة الباريا فى وادى القاش الاسلام ، وكانت من قبـل وثنية ، الكذلك بعض من قبيلة البازا ٠

● الدوحة / قطر :

تقع فى منتصف الساحل الشرقى لشبه جزيرة قطر وتشكل مركزا ثقافيا وتجاريا

هاما وفيها ميناء تجارى كبير ومطار دولى يربطها بمختلف انحاء العالم ويقدر عدد سكانها بحوالى ١٨٠٫٠٠٠ نسمة حيث يقدر عدد سكان قطر الحالى بحوالى ٢٥٠ ألف نسمة يعيش معظمهم فى الدوحة العاصمة وحيث تبلغ مساحة الدولة ١١٫٤٣٧ كيلو مترا مربعا . والدوحة هى قصر الحكم فيها دوائر الحكومة والوزارات والمؤسسات المالية والتجارية ويبرز فى العديد من مبانيها العامة والخاصة الطابع العربى التقليدى الى جانب الطابع المعمارى الحديث . أما شوارعها فحديثة كما أن هناك شوارع عديدة تعج بالحركة التجارية النشيطة ومن أهم معالم المدينة أسواقها الحديثة والشعبية ، وكما تشتهر العاصمةبالمساجد الجميلةالمنتشرة بكثرةوأشهرها المسجد الكبير ذو القباب المتعددة التى تتدلى منها الثريات الفخمة كذلك تشتهر بالمكتبات العامرة مثل دار الكتب القطرية التى تحوى العديد من الكتب والمجلدات والمخطوطات النفيسة ، وتزدان غالبية الميادين بالنوافير التى تضاء ليلا بالألوان الخلابة وأشهر هذه الميادين ميـــدان برج الساعة المبنى على الطراز العربى الجميل والدوحة التى تعج طيلة النهار بالحركة والحياة تغفو ليلا على ساحل الخليج الهادىء الجميل ، وتزين شوارعها المضاءة فى الليل واجهات المحال التى تعرض السلع .

أما من ناحية الديانة فالاسلام هو دين الدولة الرسمى والشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى لتشريعها ، واللغة العربية هى لغة الدولة الرسمية وعنـــد مجىء الاسلام كان حاكم هذه المنطقة المنذر بن ساوى الذى دعاه الرسول الى الاسلام فلبى الدعوة وأعلن اسلامه هو وجميع العرب هناك وبعض العجم وكانت قطر وما جاورها تدخل فى نطاق ما يعرف بالبحرين فى صدر الاسلام كما كانت وقتذاك داخلة فى تلك الدائرة الواسعة لتجوال القبائل العـــربية بين الربع الخالى والاحساء وشـــبه جزيرة قطر .

ويذكر بالمناسبة أن فرقة الخوارج التى ظهرت بعد موقعة صفين استطاعت أن تسيطر وتحكم البحرين من سنة ٦٧ الى ٧٣ هـ ، ٦٨٦ الى ٦٩٢ م عنـــدما تمكنت جيوش عبد الملك بن مروان من الانتصار عليهم فأنهت حكمهم على هذه البلاد . وكان أحد زعماء الخوارج قطرى بن الفجاءة زعيم الخوارج الازارقة واسمه ، جعونه بن مازن بن يزيد التميمى من ناحية والده ، والشيبانى من ناحية نسب أمه ، وقد لقب بالقطرى لأنه من قطر ، وقيل لأبيه فجاءة لأنه كان من اليمن فقدم عليه أهله فجاءة .

وقطرى بن الفجاءة يمثل الفارس العربى المتصف بالقوة والشجاعة والاقدام وبالشعر والخطابة والبلاغة والفصاحة والمتصف بالكرامة والعزة أى أنه كان يمثل السيد العربى الأصيل أصدق تمثيل ويقول الدباغ « انه أعظم قطرى ذكره التاريخ حتى يومنا هذا » .

وان ذكرنا قطر لابد لنا من أن نذكر ان القرامطة الذين يرجع أصلهم الى الفرقة الاسماعيلية وهى فى الأصل فرقة شيعية لكنها اختلفت معها فى بعض الاعتقادات وأصبحت فى الواقع حركة سياسية تسترت تحت الدعوة الى امامة اسماعيل بن جعفر الصادق لتحقيق أغراضها · وقد سيطر القرامطة على منطقة البحرين وقطر وغيرها من مناطق الخليج ، ونحن نعلم ان هؤلاء القرامطة اتخذوا من هذه المنطقة مركزا تسللوا منه الى سائر مناطق الجزيرة وبلاد الشام ومن العباسيين ، كما حاولوا التسلل الى مصر ولكن الفاطميين تمكنوا من صدهم وتقهقروا بعد ذلك الى البحرين فظلوا يحكمونها الى أن هزموا سنة ٤٦٩ هـ ١٠٧٦ م على يد رجال احدى القبائل العربية فيها وفى عام ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٧ م تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على بعض المناطق فى هذه البلاد ومنها قطر ، وقد قاموا بأعمال وحشية من قتل وتدمير وتمثيل فى العرب ، الى أن كانت سنة ٩٤٣ هـ حيث استطاع الأسطول العثمانى الذى أرسله السلطان سليمان أن يطرد البرتغاليون من جميع الأماكن التى استولوا عليها فى جنوب الجزيرة العربية ، ثم تقدموا وطردهم من المنامة وقطر ، والقطيف الى أن كان الفتح العثمانى لبلاد الشام والبلاد العربية ومنها قطر ، وتمكنت جيوش السلطان سليمان القانونى من الاستيلاء على قطر عام ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٥ م ومنها جزر البحرين واضطر البرتغاليون الى الانسحاب ·

● **كـــــربلاء :**

قرية صغيرة على هامش الخريطة دخلت التاريخ بعد استشهاد الحسين فيها ·

مدينة كربلاء من المدن العراقية المقدسة ، أوجدها عامل الدين بالعراق وهى مزار اسلامى يقع بقرب نهر الفرات بحوالى ستين ميلا جنوبى غربى بغـــداد على مشارف الصحراء ، كما تقع أيضا بمواجهة قصر بن هبيرة ـ وهى احدى المحافظات الست عشر للعراق ـ فى جنوبها محافظة القادسية ومركزها الديوانية التى توجد بها النجف والكوفة ـ وتربطها ببغداد سكة حديدية طولها ١١١ كليو مترا ، وهى مركز للواء مسمى باسمها محصور بين الوية الحلة والديلم والديوانية (٢٠٠ر٢١كم) وفيه قضاء النجف (وناحية الكوفة) وناحيتان ملحقتان بمركز اللواء وهما الحسينية وعين تمر ·

ولم تكن كربلاء قبل الفتح الاسلامى بلدة تستحق الذكر · ولم يرد ذكرها فى التاريخ الا نادرا ، فقد كانت قرية بسيطة فيها مزارع وضياع لدهاقين الفرس ، ولما وردها الحسين بن على رضى الله عنه فى يوم الخميس الثانى من محرم سنة ٣٦١ هـ أيام يزيد الأول ٦١ هـ ـ ٦٤ هـ ثائرا ، ولقى مصرعه فيها يوم الجمعة العاشر من محرم سنة ٦١ هـ سلط التاريخ ـ نتيجة لهذه الحادثة المؤلمة ـ اضواءه عليها ، وأصبح

حديثه هذه المرة ذا شجون ، فهو يتحدث عن أعظم مأساة عرفتها البشرية فى تاريخ الانسانية ·

ومنذ ذلك الوقت ذاع صيتها وأصبحت محط رحال ، ومحط تجارة وقوافل نظرا لأهمية موقعها الدينى الجغرافى فنالت بذلك شهرة واسعة ملأت افاق العالم الاسلامى وأصبحت مع الزمن من أمهات المدن العراقية قديما وحديثا ·

تبلغ مساحة مدينة كربلاء ٥٢٫٤٥٦ ألف كيلو متر مربع · ويبلغ عدد سكانها فى عام ١٩٨٢ (٣٠٦ آلاف نسمة) بنسبة ٦٠٫٧٪ فى الكيلو متر الواحد ·

اختلفت الآراء حول أصل تسميتها بكربلاء فيقول ياقوت فى معجم البلدان ان الكربلة هى ظاهرة فى القدمين حيث يقال جاء يمشى مكربلا ويجوز أن تكون هذه المنطقة ذات تربة رخوية فسميت بذلك ــ كما يقال كربلت الحنطة ــ اذا هذبتها ونقيتها ــ فيجوز ان تكون الأرض منقاة من الحصى والدغل فسميت بذلك ــ كما أن هناك رأيان « الكربل » نبت الحماض ــ وقد يكون هذا النبات منتشرا فى هذه المنطقة فسميت على اسمه ــ كما ذكر أيضا أن الحسين رضى الله عنه لما انتهى الى كربلاء واحاطت به خيل عبيد الله بن زياد قال ما أسم هذه الأرض التى نحن فيها فقيل كربلاء : « أرض كرب وبلاء ــ واراد الخروج منها فمنع حتى كان ما كان » ·

والراجح أن هذه المدينة كانت احدى القرى العراقية القديمة التى يرتفع تاريخها الى العهد البابلى القديم ، والاسم الذى تحمله يؤيد هذا ــ اذ أن كلمة كربلاء تعنى احدى القرى المنتشرة غرب بابل ·

وكما يبدو فان موضع كربلاء قد خص بالنشاط العسكرى الاسلامى لصلاحه فهو موضع هامش لا يفصله مانع عن مقر القيادة فى المدينة ·

وقد ذاع صيت هذه المدينة بعد استشهاد الامام الحسين بن على فيها فى العاشر من محرم سنة ٦١ هـ فأخذ الناس يتوافدون عليها لزيارة القبر ، كما أخذ الكثير منهم فى استيطان هذه التربة المقدسة أو يوصى بدفنه هنـــاك ، على الرغم من مقاومة ومعارضة بعض الخلفاء العباسيين ، كالرشيد والمتوكل للعلويين ·

وقد توسعت بمرور الزمن ، ففى سنة ٢٣٦ هـ أمر المتوكل بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من المنازل والدور وأمر أن يبذر ويسقى موضع القبر ، ومنع الناس من اتيانه · ولما تولى ولده المنتصر فى تلك السنة عدل عن سياسة أبيه فى معاداة العلويين

وأمر الناس بزيارة قبر على والحسين ومجاورته فى السكن لمن يرغب وأهتم بعمارة المشهد ، كما عنى بعمارة المشهد محمد بن زيد بن الحسن الملقب بالداعى الصغير فى عام ٢٨٣ هـ وكان أول علوى سكن كربلاء هو تاج الدين ابراهيم المجاب حفيد موسى بن جعفر ــ فى حوالى عام ٣٢٤٧ هـ ٠

● **طنجـــة :**

أقدم مدينة فى المغرب اذ عثر فيها على بقايا لمدينة عاشت فيما قبل التاريخ وبعد هذا تعاقبت عليها آثار قرطاجنة وروما الى أن حل العرب فيها وهى ميناء تطل على المحيط الأطلسى عند مدخل بوغاز جبل طارق ٠

ومساحة طنجة ١٩٥ر١ كم مربع وعدد سكانها ٦٠٠ر٣٧٧ نسمة أكثرهم من المسلمين ، وقد احتلها البرتغال عندما قوى جانب الفرنجة فى شبه جزيرة ايبيريا وضعف جانب المسلمين ، وذلك فى القرن الخامس عشر ، وفى القرن السابع عشر تزوج ملك بريطانيا شارل الثانى الأميرة كاترين البرتغالية ، وكانت طنجة هـــدية البرتغال للعريس ، ولكن المغرب اســـتطاع أن يستردها فى عهـــد الاشراف بعد معارك طاحنة ٠

وفى عهد العزلة المراكشية ، سمح لأعضاء التمثيل الأجنبى بالحياة فى طنجة حتى لا يتوغلوا فى البلاد تأكيدا لسياسة العزلة ، وهكذا أصـــبحت طنجة مدينة دبلوماسية وبمرور الزمن أصبح للدبلوماسيين سلطان بالمدينة ، وأصبحوا يتدخلون فى تنظيمها وادارتها بحكم ارتباط ذلك بمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية ، ثم عقدت المغرب معاهدة مع بريطانيا سنة ١٨٥٦ ومع أسبانيا سنة ١٨٦١ وفى هاتين المعاهدتين اعترفت المغرب بامتيازات خاصة للدولتين فى طنجة ، ولما احتجت الدول الأخرى التى لها مصالح فى طنجة لحرمانها من مثل هذه الامتيازات وافقت المغرب ومنحت هذه الامتيازات للدول المحتجة ٠

وعندما أعلنت فرنسا الحماية على مراكش اشترطت بريطانيا لكى تعترف بهذه الحماية ــ أن تصبح طنجة مدينة دولية ، وتم لها ذلك وبمقتضى هذا أصبح لطنجة مجلس تشريعى خاص يتكون من ٣٦ عضوا موزعين كما يلى :

٦ من المغاربة ــ ١٢ يهوديا ــ ٤ أسبان ــ ٤ فرنسيين ــ ٣ بريطانيين ــ ٣ طليان ــ واحد لكل من بلجيكا وهولندا والبرتغال وأمريكا ، والرئيس الأعلى لهذا المجلس هو مندوب الملك ٠

أما الادارة الدولية فكانت تتألف من قناصل بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولندا وايطاليا والبرتغال وأسبانيا ·

ومن جهة القضاء كان بطنجة محكمة مختلطة مكونة من خمسة قضاة ، ينتمون الى فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وبلجيكا وايطاليا ·

وفى سنة ١٩٤٠ انتهز فرانكو ظروف الحرب العالمية فأحتل المدينة وأضافها الى القسم الشمالى (الريف) الخاضع لأسبانيا ، ولكن هزائم الحلفـاء انقلبت الى أنتصارات ، فأمر الحلفاء فرانكو ليعيد طنجة الى سابق عهدها ، فانصاع للامر ، وعندما بدأ عهد الحرية للمغرب لم تكن مشكلة طنجة عسيرة الحـل اذ يبدو أن صاحبة الامتياز لم تر ما يدعوا أن تقف موقف العداء من الأمانى الوطنية المغربية فكانت كثرة الأيدى المسيطرة على المدينة من دواعى تيسير حلها ، وأسرعت المغرب بعد الاستقلال فمدت نفوذها الى طنجة فى يوليو سنة ١٩٥٦ ، وألغت المجلس التشريعى والمحكمة المختلطة ، وأخضعت طنجة للنظام الاقتصادى المعمول به فى المغرب ، ووافقت الدولة التى كانت صاحبة الشأن بطنجة على هذه الاجراءات، وعادت المدينة للوطن الأم·

وقد جعل العهد الملكى طنجة مكان لقاء دوليا تعقد فيه الاجتماعات والمؤتمرات وهذا أمر امتازت به طنجة فى القديم حتى صار لها صفة تقليدية ، وقد شهدت فعلا عدة اجتماعات لليونيسكو وللمنظمة الاتحادية للفلاحة واجتماعات للنقابات والاحزاب السياسية بالشمال الافريقى ·

أن طنجة هى همزة الوصل بين الشرق والغرب ، لتعدد مراكز الاتصالات الدائمة بها وتوافر العارفين بعدة لغات فيها ·

أما عن دخول الاسلام بها فقد جاء توطيد الفتح الاسلامى فى أراضى المغرب الأقصى واستكماله فى ولاية موسى بن نصير ، قيل أنه تولى افريقية عام ١٧٩ هـ من قبل عبد العزيز بن مروان ، وقيل بل وليها فى زمن الوليد بن عبد الملك عام ٨٩ هـ ففتح طنجة ونزلها وهو أول من نزلها فيها للمسلمين وانتهت خيله الى السوس الأدنى ، وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوما فوطئهم وأدوا اليه الطاعة وقبض عامله منهم الصدقة ، ثم ولاها طارق بن زياد وانصرف الى قيروان افريقية ·· واذا صح القول بأن عقبة بن نافع كان قد « غزا السوس الأدنى وهو خلف طنجة فى حملته عام ٦٥ هـ ، فان هذا يعنى أن توطيد الفتح الاسلامى فى أرجاء المغرب الأقصى وحده قد استغرق زهاء ثلاثين عاما ، ويبدوا أن طبيعة البلاد كانت تساعد على تفوق أهلها أمام المهاجم الى مفاوز الجبال والصحراء ، فاذا قفلت جيوش الفتح عاد الناس الى

أماكنهم وانتهى الأمر ، ولم يكن ليستقر الفتح حتى تنشأ القواعد وتمصر الأمصار وتقام المساجد وينشر الاسلام ٠

« أخضع موسى قبائل البربر التى خرجت على الطاعة بعد مسير حسان بن النعمان الى الشرق ، وكذلك التى لم تكن قد خضعت بعد للعرب ٠٠٠ فتتبع القبائل عبر السوس الأدنى حتى بلاد سلجماسة ووادى درعة وسير الله الى السوس الأقصى ونجح موسى فى انتزاع (مدينة) طنجة لأول مرة وكان بها من البربر بطون من البتالبرنس ممن لم يكن دخل فى الطاعة ووضع موسى على ساحل طنجة حامية الرباط تتكون من ١٧٠٠ رجل قيادة ابن مروان ٠٠ والظاهر أن البربر أقبلوا على الرباط على الساحل بحماس لا نظير له اذ لم تلبث قوات طارق ابن زياد الذى استخلفه موسى ابن نصير ــ أن بلغت اثنى عشر ألفا ، ويقول ابن عذارى « وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن والاسلام ٠٠ » وقد ظاهرهم الاف العـــرب المسلمين المرابطين فى المغرب الذين كان لهم دورهم الفعال فى نشر الاســـلام بين اخوانهم البربر ٠

● برقـــة :

هى من أعمال ليبيا وتقع بمنطقة الجبل الأخضر وعنها قال أحمد بن محمـــد الهمدانى : برقة مما افتتح صلحا وقد صالحهم عليها عمرو بن العاص وألزم أهلها بالجزية فأسلم أكثر أهلها فصولحوا على العشر ونصف العشر وكان ذلك سنة احدى وعشرين من الهجرة وكان فى شرطهم أن لايدخلها صاحب خراج بل يوجهوا خراجهم الى مصر فى وقته الى أن استولى المسلمون على ما جاورها من بلاد ٠

لقد مر العرب منذ أن غزو فريقيا حتى آخر غزوات ابن حريج فى تعاملهم مع الروم بمتاعب حيث كان من طبعهم ــ أى الروم ــ أى ينقضوا العهـــود والمواثيق والمواثيق ولا يحترمونها رغم أن العرب كانوا يقنعون فى تعاملهم مع الروم بعقـــد الأمان ودفع الجزية أو الغرامة الحربية ويرحلون عن البلاد فكانوا كلما ارتحل العرب عنهم نقضوا عهودهم ومنعوا ما كانوا يؤدونه بل وارتد من أسلم منهم ٠

ولم يكن المسلمون يهدفون من فتح البلاد سواء فى افريقيا أو فى غيرها من أجل المال أو طمعا فى التحكم فى رقاب العباد ٠٠ لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح على العرب مصر والعراق والشام قبل فتح افريقيا وفى هذه الأمصار من أسباب رخاء العيش ومنابع الثروة بما هو فوق حاجتهم ٠٠ ولكن كانت حركة العرب عموما بهدف نشر الاسلام بما يتضمنه من فضائل وقيم سامية وتخليص البشر من مظالم الفرس

والروم ونشر العدالة بين الناس وكان العرب يكررون حملاتهم على افريقيا كلما نقض الروم عهودهم لتحقيق هذه الأغراض السامية مهما كلفهم الأمر من بذل الأرواح وما واجههم من صعاب ·

وفى السنة الثانية والعشرين من الهجرة كان عمرو بن العاص قد أرسل عقبة بن نافع الى زويلة ففتحها وكان موفقا فى حملته وعينه عمرو واليا على ما فتح من بلاد وفى برقة بقى حيث اكتسب خبرة بأحوال الشمال الافريقى وسكانه وعلى الأخص البربر حيث اختلط بهم وعايشهم مضافا لذلك شجاعة عقبة بن نافع فى الحـــروب لا ينكرها عليه أحد وكان لكل هذا أن اختاره معاوية لمواصلة فتح افريقيا ·· وسار عقبة فى جيش من المسلمين نحو افريقيا وكانت بداية مسيرته من برقة حيث كان مقيما بها ·· ونزل فى مكان غربى من مدينة سرت القديمة ·· وفى هذه الأثناء بلغ عقبة أن بلاد (ودان) نقضت عهدها الذى عاهدت عليه بسر بن أبى أرضاة وكان ذلك فى السنة الثالثة والعشرين من الهجرة وأيضا ارتد من أسلم منهم على يديه فترك جيشه فى منطقة (مغمداس) فى أرض سرت وأناب عنه فى رياسة الجيش زهير بن قيس البلوى فوصل اليها فى أربعمائة فارس وأربعمائة جمل ولما وصل اليها أبى أهلها الا العصيان وعدم الطاعة فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد وقبض على ملكهم فقطع أذنه جزاء وفاقا على نقضه العهد وقال له اذا مسست أذنك تذكرت فلا تحـــارب العرب مرة أخرى ·

فلما استتب الأمر لعقبة بن نافع فى بلاد ودان سار نحو (جربة) وكانت اذ ذاك عاصمة لاقليم (فزان) ·

وأقليم برقة تتداخل حدوده الغربية فى أراضى تابعة لاقليم طرابلس وتعتبر أول الحدود الشرقية لطرابلس وأصبح مفهوم اقليم برقة يعنى المنطقة الممتدة من حدود مصر الى منطقة طرابلس ·

والعياشى صاحب الرحلة المشهورة بعد أن ترك مدينة مصراته متجها نحو المشرق قال : « وفارقنا آخر العمران ودخلنا برقة قبل أن نصل الى قصور حسان وعلى ذلك فهو يجعل سرت التى وصل اليها بعد ذلك ضمن أراضى برقة وقسم هـــذه الأراضى الممتدة من مصراته الى الاسكندرية الى خمسة أقسام مشتقة اسماؤها على الجملة من طبيعة أرضها ·

ولم ينته المطاف بالجيش الاسلامى عند حدود برقة بل لقد تقدم غربا حتى وصل الى طرابلس وبذلك ربط مصير هذين الاقليمين ووحد بينهما بهذا العمل ولم يصادف

فى مسيرد اية مقاومة بينما كانت مدينة طرابلس أكثر مناعة وأشــد مقاومة لقوة تحصيناتها وشدة مقاومة حاميتها وتم ذلك بتجديد أسوار المدينة وترميمها وهناك عامل آخر مهم أيضا لا يمكن اغفاله وهى مساعدة مراكب الروم لها من البحر فكان من الطبيعى أن يجد الجيش العربى صعوبة ومقاومة عنيفة فى فتحها .. مما استدعى أن يضربوا عليها الحصار حتى تم فتحها عنوة وعلى أية حــــال سرعان ما انتشر الاسلام فى كل البلاد مكتسحا أمامه العقيدة الوثنية التى كانت ســـائدة بين معظم السكان خاصة فى المناطق الداخلية .

وعن برقة كان لعبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله تعالى عنهما ـ رأى انه يقول ، ما أعلم منزلا لرجل له عيال أسلم ولا أعــــزل من برقة ولولا أن أموالى بالحجاز لنزلت برقة .

كما أن رويفع بن ثابت بن عدى بن حارثة الأنصارى من بنى مالك وهو صحابى جليل شهد فتح مصر وأقام بها ولاه ابن جريج ولاية طرابلس فى السنة السادسة والأربعين من الهجرة وتمكن من فتح جربة فى السنة التالية وأمر أصحابه بألا يأتوا السبايا الا بعد الاستبراء .

البـــاب الخامس :

- العمارة الاسلامية والاسكان ٥/١

- المساكن العربية ونماذج من القرن الثامن عشر ٥/٢ ٠

— الوكالة والربع والخان ٠٠٠

- مقارنة تحليلية بين العمارة ٥/٣

الاسلامية والعمارة الأوروبية

● المسكن الفسطاطى :

تنقل لنا مساكن الفسطاط رغم اختلاف تفاصيل تصميماتها ، احساسا متجانسا عن ما هى هذه البيوت · وبدراسة ما عثر عليه من بقايا هذه البيوت الفسطاطية ، نجد أنها تشترك بشكل واضح فى عدة خواص ، فالبيت الفسطاطى بؤرته الفناء الداخلى المفتوح ، مربع أو مستطيل الشكل وعلى جانب منه ثلاثة عقود محمولة على أكتاف من الطوب ، ويكون دائما العقد الأوسط أكبر من العقدين الجانبيين وتغطى هذه العقود رواق PORTICO يؤدى الى حجرة عميقة تسمى ايوان ، وعلى جانبيها حجرتين ثانويتين أو طرقات تؤدى الى أجزاء أخرى من المسكن ، أما الثلاثة أضلاع الأخرى من الفناء فغالبا ما تعالج بنفس الطريقة دون الحجرة الرئيسية ·

ومن أهم المميزات والخواص المعمارية فى البيوت الفسطاطية هى المدخل ، فدائما ما يكون المدخل عن طريق مجاز لا يسمح لمن فى الخارج برؤية من بالداخل · يؤدى هذا المجاز الى طرقة تتصل بالفناء فى أحد جوانبه · كذلك من أهم المميزات فى مساكن الفسطاط هى النافورة الموجودة فى وسط الفناء · وفكرة النافورة من حيث تصميمها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمعتقدات الأساسية فى الاسلام ، وبروح الفكر الشرقى · ولا أدل على ذلك من بقاء هذه الفكرة وملازمتها للمسكن أكثر من اثنى عشر قرنا ، ويقول بروفسير كريزويل فى مرجعه عن العمارة الاسلامية ، أن هذه البيوت مستوحاة من بيوت مشابهة فى العراق وسوريا · ويعزو هذه الظاهرة الى الارتباط الوثيق الموجود بين هذه الحضارات قبل غزو العرب لمصر ، بل ويضع احتمالا أنه ربما كانت بيوت العراق وسوريا متأثرة فى تصميمها أصلا بالعامل العربى نتيجة الاتصال فى التجارة وغيرها ·

من المظاهر الهامة فى المبانى السكنية فى مصر فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجرى ١٦ ، ١٧ م ، الاهتمام بالزخارف الخارجية والداخلية وتنميقها والعناية بها وخاصة فى الداخل أما خارج المبنى فيكاد يكون خاليا من الزخارف العربية الا بعض تلك المشربيات الخشبية الجميلة ، فتظهر المبانى السكنية من الخارج أشبه ما تكون بالقلعة أو الحصن · وقد روعى فى التصميم الداخل للمبنى أن يتمتع ساكنوه بالراحة والحرية التامة والعزلة ، وأن يكون المبنى صحى يتخلله الشمس والهواء ، مع تمتعه بالاستقلال والخصوصية ·

ولقد حرص المهندس العربى والفنان المصرى أن يكون لكل مبنى حديقة داخلية تكون متنفسا لأهلها ، وأن تتلاءم المبانى مع طبيعة الجو الحار فى الشرق . فعمل على تخفيف وطأة الحر الشديد بشتى الطرق الطبيعية ، بتزويد المبنى بالفســـاقى الداخلية والملاقف التى يدخل منها الهواء والتخفيف من شدة الاضاءة وحجب النوافذ والفتحات بالزجاج الملون البديع الصنع والمشربيات المشغولة والمصنوعة من الخشب الخرط ، الى غير ذلك من الطرق الطبيعية المختلفة واســـتخدام الوحدات المعمارية العربية الدقيقة الصنع ، يرجى أن تنظر المساقط الأفقية للمساكن الفسطاطية .

● المســـكن العـربى :

من أهم المميزات أيضـــا فى العمارة الاسلامية العربية فى المبانى الســكنية العربية ما نلاحظه من تركيز هام على المداخل الرئيسية ، حيث نرى أنها كانت تصمم بطريقة خاصة تتلاءم والتقاليد الشرقية ، فنجد أن المدخل لا يؤدى الى الفناء مباشرة بل يوصل الى رحبة مربعة Interance والرحبة الى ردهة Hall وتلك تؤدى بدورها الى الفناء Patio ، وذلك حتى لا يتمكن أى عابر خارجى أن يرى ما بداخل المنزل ، وهذه هى الطريقة التى كانت تتبع فى تصميم أبنيه الحصون ، اذ كان الغرض منها هو تخفيف اندفاع الجنود المهاجمة ، كما أنها تعرض جانبهم الأيمن الغير محمى لضرب السهام ، ويعرف هذا النوع من المداخل باسم « مجاز » .

ويطل على الفناء الداخلى الغرف الرئيسية الهامة وهى ، المقعد وبه باب حوله عقد محلى بالقرنصات والنقوش الدقيقة التى تلاحظ أيضا فى سقف هذا المقعد بألوان زيتية متعددة ، وكان المقعد يخصص لجلوس الرجال فى ليالى الصيف . ويتصـــل المقعد عادة بالقاعة الكبرى التى تطل على الفناء أيضـــا ، وهى كبقية قاعات الدار مقسمة الى ايوانين بينهما جزء منخفض (درقاعة) ، وتخصيص هذه القاعة لجلوس الرجال شتاءا . ويتوسط الجزء المنخفض من الدرقاعة قرص زجاجى من الالبستر الشفاف ، كان يستعمله صاحب الدار كمنضدة ، نقشت على حافة هذا القرص بعض الآيات القرآنية ويتوسط القرص نارجيلة . وفى نهاية القاعة الكبرى عادة ما يوجد باب خشبى يؤدى الى حجرة صغيرة مربعة تسمى بالخزانة ، وبها سلم داخلى يوصل الى قاعة الحريم وهى تماما كالقاعة الكبرى المخصصة للرجال .

● ومما هو جدير بالذكر أيضا أن موضوع استغلال الحوائط بعمل دواليب داخلها حتى لا تشغل حيزا داخل الحجرة الأمر الذى نلاحظه الآن فى العمارة الحديثة المـــودرن Modern Architecture كان هذا الموضوع مستعملا بكثرة فى العمارة الاسلامية فى مصر فى العصور الوسطى ، وهذا الموضوع وهو استغلال الحوائط

بعمل دواليب داخلها Built in يستخدم أيضا كعازل صوتى هام لفصل الحجرات ومنع تسرب الصوت ووصوله الى الحجرات المجاورة الأخرى ، حيث يعتبر الآن من أهم مظاهر وعناصر العمارة الغربية الحديثة ٠

ولم يكتف المهندس العربى الفنان باستخدام الدواليب لحفظ الملابس والأدوات المنزلية فحسب ، بل حاول أيضا اختيار أبوابها لكى تكون تحفا فنية رائعة ، فتظهر وكأنها لوحات مثبتة على الحوائط ٠ فكانت تصنع هذه الأبواب (الضـــلف) من الخشب الثمين السميك المنقوش عليها بالحفر البارز زخارف نباتية محفـــــورة (أرابيسك) فى منتهى الدقة والابداع ، وتحيط بالزخارف أشرطة من الكتابة الكوفية المزهرة ، أو بنقوش مصنوعة بطريقة اللاكيه ٠

● وكان من مميزات الدور الاسلامية المتأخرة احتواء هـــذه القاعات على السراديب والمخابىء السرية ٠ وكان المخبأ عبارة عن حجرة صغيرة ضيقة تؤدى اليها فتحة فى أرضية القاعة مغطاة ببلاطة كبيرة بحيث يستوى مع أرضية الحجرة فيصعب تمييزها أو الاهتداء اليها ٠ ومن المحتمل أن يكون الغرض من هذا المخبأ هو الالتجاء اليه عند الخطر ، أو لحفظ المقتنيات الثمينة به فى حالة حـــدوث فتن أو اضطرابات بالخارج ، والتى ما كانت تتعرض اليها البلاد كثيرا فى العصر العثمانى ٠

وبالدور الأرضى سلم رئيسى فى نهاية الدرقاعة يؤدى الى الدور الاول الى حجرة صغيرة على يسار الصاعد ، عند مدخلها حاجز خشبى يلى الباب مباشرة ، وبالحجرة شبابيك من الجبس (قمرات) ذات زجاج ملون مزخرف برسوم متعددة على شكل طيور وأزهار وزخارف هندسية جميلة ٠ وتؤدى هذه الحجرة الى حجرة القراءة ثم حجرات النوم وحجرات الحريم ، ثم حديقة السطح Roof Garden والتى تعتبر الآن من أهم مظاهر العمارة الحديثة فى العالم ٠

وكانت حجرات الحريم الداخلية بهذا الطابق تصمم بطريقة تجعلها تشرف على قاعة الاحتفالات أو القاعة الكبرى بالدور الأرضى ، وذلك من خلال مشربيات جميلة كانت تعرف باسم (المغانى) والتى كانت تجلس خلفها المغنيات يصدحن بأصواتهن الجميلة والموسيقى العربية الأصيلة تشغف أذان الحاضرين بالطابقية ٠ كما تتمكن سيدات الدار وضيوفهن من رؤية الرجال خلال المشربيات وتشـــاركهن عن بعد فى سمرهم ومرحهم وهن بمنجاة عن الأعين ٠

ومن أهم الخواص المعمارية السكنية الهامة للمساكن هو ما نلاحظه من عدم وجود حجرات مخصصة للنوم أساسا ، بل كانت تستعمل كل الحجرات للمعيشـــة أثناء اليوم والنوم بها ليلا ، وأهم ما نلاحظه أيضا فى تصميمات هذه المساكن هو

تأكيد الرغبة الأكيدة فى الانتظام ، وأن الهدف الرئيسى للمهندس المعمارى العربى فى ذلك الحين هو جعل المسكن خاص Private ورطبـــا قدر الامـــكان ، وتأكيد الاستجابة الحقيقية الى احتياجات ومطالب ذلك العصر ، والارتباط الوثيق بين فلسفة الشرق والفكر الاسلامى من ناحية والحلول المعمارية الأساسية لهذه المساكن المنفصلة (مساكن العائلة الواحدة) متمثلة فى الفناء الداخلى والنافورة من ناحية أخرى ٠

● فالفناء الداخلى فى المسكن العربى (١) معالجـــة معمارية تحجب عن الساكن كل عوامل الطبيعة الخارجية ، وتترك له التمتع المطلق بالسماء وحدها ٠ والسماء فى بلادنا فى الشرق العربى هى العنصر الطبيعى الوحيد لا تشوبه قسوة ولا حدة ، وبذلك فالفناء الداخلى معالجة معمار ية ناجحـــة نابعة من بذور الفكر الشرقى واستجابة صريحة لمقتضيات مناخنا ٠

● أما النافورة فهى مرآة فى الماء تعكس صورة السماء على الأرض ، فتدخل السماء بما لها من قدسية وشفافية الى المسكن ، وهى دائما مربعة ترمز أركانها الى عمد السماء ، الأربعة ، ثم تتحول الى مثمن فتردد شكل القبة والمقرنصات ٠ والقبـــة هى رمز السماء وينساب الماء داخل هذا المثمن فيعكس صورة قبة السماء على أرض المسكن (٢) ، ربطا صريحا بين الانسان وأسلوبه الفكرى الأساسى ٠ هذا فضلا عن ما للنفاورة من أثر فعال فى تنظيف وترطيب وتلطيف جو المسكن العربى ٠

من كل ذلك نرى أن المسكن العربى تأثر بالتقاليد والنظم والعـــادات الغربية ، وأهمها حجاب المرأة المسلمة ، ولذلك خصص مدخل للرجال وطابق خـــاص بهم ، وآخر للنساء وتم تغطية الشبابيك بالمشربيات التى تحجب الناظر من خلفها ، وعلى ذلك اتبع فى التصميم الأسس والشروط الاتية :

(أ) تخصيص حجرة رئيسية هامة تواجه الشمال ـ البحرى ـ وتطـــل على الفناء الداخلى الذى كان يعتبر عنصر أساسى فى التصميم ٠

(ب) مراعاة أن تكون الفتحات والشبابيك المطلة على الشارع ضيقة وجلساتها مرتفعة ٠

(حـ) أن يكون المدخل متعرجا على نفسه درة واحدة على الاقل ، ليمنع المارة من رؤية من داخل المنزل ، وللحماية المطلوبة كما سبق شرح ذلك تفصيلا ٠

---

(١) التصميم والبناء حسب التراث العربى
عن الاستاذ المهندس حســـن فتحى

(٢) سمى بالمسكن من السكنية ٠

(د) أن يؤدى المدخل المخصص للحريم الى فناء سماوى آخر اذا تيسر ذلك ، أو أن يؤدى الى أبعد ركن من أركان الفناء الرئيسى للمسكن ٠

(هـ) أن يحتوى الدور الأرضى على حجرة استقبال للرجال متسعة منمقة مزدانة بالزخارف العربية ٠ وعادة ما كانت تسمى « بحجرة العفش » ومقعد وحجرة انتظار وحجرات للخدم ومطبخ ودورة مياه ويسمى هذا الطابق « بالسلاملك » ٠

(و) أن يحتوى الدور الأول على قاعات استقبال خاصة بالسيدات ، وحجرات المعيشة والنوم ، ويسمى هذا الدور « بالحراملك » ٠

وبالقاهرة عدة مساكن عربية أصيلة من حيث التصميم والتكوين والانشاء ٠ واهتم رجال الاثار اهتماما كبيرا بها للمحافظة عليها ، وأعيد ترميم واصلاح الكثير منها وجعلت متاحف ٠ وأهم هذه المساكن المنزل المعروف باسم « الكريديلية » تم بناؤه عام ١٦٣٢ م ويقع هذا المنزل أمام مدخل جامع أحمد بن طولون الشرقى ، ومنزل جمال الدين الذهبى بحارة حوش قدم الذى بنى عام ١٦٣٧ م ومنـــزل عبد الوهاب الطبلاوى والمعروف الآن بمنزل « السحيمى » بالدرب الاحمر ٠ بالجمالية وبنى عام ١٦٤٨ م ، ومنزل كتخدا السنارى بالسيدة زينب وبنى عام ١٧٤٤ م ، وغيرها من المساكن الاسلامية الأصيلة الخالدة من حيث التصميم والانشاء والتكوين تتلاءم مع الحياة العربية والطبيعة الشرقية ، والبيئة ، والعادات والتقاليد الاسلامية ٠

● ويقول بروفسير كرزويل فى مرجعـه عن العمارة الاسلامية أن هــذه البيوت مستوحاة من بيوت مشـابهة فى العراق وسوريا ،ويعزو هذه الظاهرةالى الارتباط الوثيق الموجود بين هذه الحضارات قبـل غزو العرب لمصر ٠

القرن التاسع الى الحـادى عشر

أمثلة لمســـاكن الفســـطاط فى

أمثلة مختلفة لمساكن الفسطاط من القرن السابع الى الحادى عشر ، ويلاحظ أن العنصر الاساسى فى التصميم هو الفناء الداخلى « الباتيو » التى تطل عليه جميع الوحدات السكنية المكونة للمسكن

مســـاكن الفسطاط

القرن السابع الى الحادى عشر

● تنقل البيوت الفسطاطية رغم اختلافتفاصيل تصميماتها ومساقطها الافقية احساسا متجانسا بما هى هذه البيوت وعما كانت عليه ٠

كانت دور الفسطاط تتألف عادة من عدة وحـدات مخصصة للسكن والمعيشة اليومية ٠ أهمها وحدة الاستقبال التى كانت تتكون من فناء مربع مسقوف يقام فى أحـد جوانبه أو فى جوانبه الاربعة ايونات مخصصة للجلوس تفتح على هذا الفناء ٠

● وكانت دور الفسطاط تتميز بأنها تحتــوى على مقاعد وملاقف هواء ونافورات وسلسبيلات وأحواض للنباتات ٠ كما كانت مداخلها فى معظم الاحيان منكسرة بزاوية قائمة بحيث يختفى ما بداخل الدار عن السائرين فى الطريق ٠ كما زودت بعض الدور بممرات داخلية تمكن أهل الدار من التنقل بين أجزائه دون المرور بالفناء الاوسط ٠ كما عثر فى بعض الدور على خزانات مياه تحت الارض وأنابيب مياه (مواسير) داخل الحوائط ٠

تستند الهندسة المعمارية على أربعة أركان أساسية هى :

أولا ــ المنفعة ثانيا ــ القوة أو المتانة
ثالثا ــ الاقتصاد رابعا ــ الجمال

هذه هى الأركان أو العوامل الأساسية التى يجب أن تتوفر فى كل انتاج هندسى معمارى أو انشائى أو تخطيط عمرانى وهى الميزان الذى يزن به انتاج كل مهندس ، هى الهدف الذى ينشده ويضعه نصب عينيه قبل أن يباشر تصميم وتنفيذ أى مشروع للوصول الى أحسن وأفضل النتائج · الا أن هذه العوامل الأربعة تتغير بشكل نسبى فيما بينها ، هى متغيرة أيضا بالنسبة لكل نوع أو تخصص من فروع الهندسة ·

ان المعنى الحقيقى أو التعريف الصحيح للهندسة المعمارية أنها : علم وفن وعمل فالعمارة كعلم تحق الحق وتظهره ، والمعارة كفن تخلق الجمال وتصوره ، والعمارة كعمل وتنفيذ تعمم الخير وتنشره · فالمعنى الحقيقى للعمارة اذن هو احقاقها للحق ونشرها للفن · وتعميمها للفضيلة · وهذا هو ما عبر به المهندس المعمارى العربى المسلم والفنان العربى والصانع فى انتاجه فى العمارة وجميع الفنون المكملة لها ·

ان المساكن العربية والدور والعمارات السكنية التى انشئت فى القرن الثامن عشر تعتبر ثروة معمارية ضخمة رائعة تعبر عن فكر وحضارة المجتمعات الاسلامية فى هذا العصر ·· تعكس صورة هذه المجتمعات · اهتم المعمارى العربى بتصميم المسكن أو الدار ، سواء أكان هذا المسكن منفصلا أو متصلا أو مجمعا فى مجموعات سكنية ــ مثل الوكالة أو الربع ــ وجعلها تحقق الوظيفة أو الغرض أو الانتفاع ، وكذا الأمن والأمان وتوفير الخصوصية · صور المبنى فى أحسن صورة وجعله يبدو كأنه جزء من الطبيعة المحيطة به ، أو ان الطبيعة جزء منه ·

التزم المعمارى العربى بتلبية احتياجات ومطالب الأسرة العـــربية وعاداتها وتقاليدها المتبعة مثل الفصل التام بين الحجرات المخصصة لرب الأسرة والمترددين عليه ، وذلك بتخصيص جناح أو محلق للزوار والضيوف سمى « بالسلاملك » وجناح آخر بالدور الأرضى أو الأول مماثل مخصص لربة البيت سمى « بالحرملك » ·

ومن أهم الصفات المميزة للمسكن العربى فى القرن الثامن عشر ان الفتحات

والشبابيك التى تطل على الشوارع قليلة وضيقة ومغطـــاة بالمشربيات ، حيث كان الغرض منها هو الحصول على التهوية المستمرة داخل الحجرات • اما الفتحات أو الشبابيك الرئيسية للحجرات والصالات فهى تطل على الفناء الداخلى للدار • هذا الفناء الذى يعتبر من أهم عناصر التكوين المعمارى والجمالى والترفهى للمسكن ، ذود بنافورة مياه وبالشجر والخضرة والنخيل • والزهور والرياحين •

وفيما يلى وصفا مختصرا لمنزل الكريدلية ومنزل السحيمى بالقاهرة :

● **منزل الكريدلية : بميدان أحمد بن طولون**

أنشأ هذا المنزل الحاج محمد سالم الجزار عام ١٦٣٨ م ، وهو من حيث تصميمه يشبه منازل القرن الحادى عشر ، حيث يحتوى على مقعد يشرف على الفناء الداخلى وقاعات علوية •ولكنه يمتاز عن منازل هذا القرن بمميزات هامة منها أن واجهاته المطلة على الفناء الداخلى على مجموعة من العقود تنوعت أشكالها ومقرنصاتها ، ومنها الحاق سبيل كبير بناصيته الشرقية القبلية ميزته على بقية المنزل ، يرجى أن تنظر المساقط الأفقية والصور والرسومات أشكال ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ •

ويقابل هذا المنزل منزل آخر عرف باسم منزل آمنة بنت سالم ، يربطه بالأول من أعلا بكوبرى محمول على عقد ستينى يظهر من خلفه الباب الشرقى لجامع أحمد ابن طولون ، أنشأ هذا المنزل المعلم عبد القادر الحداد عام ١٥٤٠ م • ويحتوى على قاعة غنية بالنقوش الجميلة الصنع والفسقية الدقيقة المنقولة اليها •

● **منزل السحيمى : بالدرب الأحمر بالجمالية**

هذا المنزل مقسم الى قسمين : أحدهما وهو القبلى أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى عام ١٦٤٨ م ويحتوى على المقعد والقاعة أسفله والقاعة القبلية الشرقية ، أما القسم الآخر وهو البحرى أنشأه الحاج اسماعيل شلبى عام ١٧٩٦ م وربطه بالقسم الأول • وهذا القسم غنى بزخارفه وخاصة القاعة الغربية ذات الفســقية الدقيقة والقاعة العلوية البحرية المكسوة حوائطها بمجموعة قيمة من القيشانى — يرجى أن ينظر المسقط الأفقى للمسكن شكل ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ص ٤٢٣ •

وعرف هذا المنزل باسم السحيمى نسبة الى آخر مالك له وهو السيد محمد أمين السحيمى الذى كان شيخا لرواق الأتراك بالأزهر الشريف •

الوكالة والربع والخان :
فى القرن الثامن عشر

فى الوقت الذى كان فيه قوام النهضة المعمارية فى أوروبا هو اســتجابتها الى احتياجات الطبقة البورجوازية متمثلة فى المساكن الخاصة والفيلات الفاخرةوالمبانى العامة ، بدأت تظهر فى مصر بوادر عمارة جماعية جديدة تخدم طبقات الصناع وصغار التجار ، وتحاول تحقيق رغباتهم ، فوجدت الوكالة ووجد الربع ·

والوكالة عبارة عن فندق يحوى شققا صغيرة مصممة على عدة طوابق بدلا من الحجرات المنفصلة · وهذه الشقق هى نفسها التى اتخذتها أوروبا وأمريكا والمعروف باسم الدوبلكس ·

والوكالة تتكون من مخازن منفصلة بالدور الأرضى وتطل على فناء مفتوح كما تضم جميع المرافق والخدمات اللازمة لمثل هذه الأغراض · أما الطوابق العلوية فهى مخصصة للشقق السكنية وتطل على نفس الفناء · وكانت تخصص هذه الوكالات لاقامة صغار التجار فى مواسم التجارة ممن يحضرون من مختلف القرى المجاورة مع عائلاتهم لقضاء موسم التجارة فى المدن الكبيرة ، فتقيم هذه العائلات فى الوكالات وتخزين البضائع فى هذه المخازن الموجـــــودة بها ، حتى ينتهى كل تاجر من بيع بضاعته ثم يرحل ·

أما الربع فقد كان يخصص أصلا للصناع وأصحاب الحـــــرف · وكان الدور الأرضى يحتوى على ورش ومحلات والمرافق والخدمات اللازمة · والطابقان العلويان يحتويان على شقق منفصلة مكونة كل شقة من حجرة أو حجرتين ومطبخ ودورة مياه لعائلات الصناع أصحاب هذه المحلات ، وتشبه هذه الشقق الى حد كبير مثيلاتها بالوكالات ، وتؤدى اليها عادة طريقة متصلة فى أحد نهايتها بسلم واحد يؤدى الى الشـــــارع ·

- **الفنادق أو الوكالات : وأثرها فى التجارة والفنون**

انتشرت الفنادق بصفة خاصة فى العصر الأيوبى لزيادة التبادل التجارى بين المعسكرين الاسلامى والأوربى ، وكانت تسمى هذه الفنادق بالخانات أو الوكالات أو الربع ، عبارة عن أبنية تتكون من عدة عناصر مختلفة ، كل عنصر معمارى له وظيفة خاصة به ـ وحدة المبانى التى تطل على فناء داخلى ـ باثيو ـ وتتكون من عــــدة طوابق الأرضى مثلا خصص لحفظ بضائع التجار الوافدين أو لعرض السلع التجارية

المدة للبيع او للتبادل ، بالاضافة الى اماكن مخصصة للدواب ٠ اما الطوابق العليا فكانت عبارة عن غرف نوم مستقلة ومعدة للنزلاء ٠

ولا يزال بالقاهرة أمثلة قليلة من هذه الوكالات أو فنادق العصور الوسطى ، مثل وكالة الغورى بالقرب من جامع الأزهر ٠ (يرجى أن تنظر المســـاقط الافقية والرسومات :شكال ٢٩٧ ، ٢٩٨ ص ٤٢١ ٠

وكانت الدولة تهتم اهتماما بالغا براحة التجار الأجانب ــ فجعلت هذه الأبنية أو الوكالات مراكز للتبادل التجارى وزودتها بوسائل أخرى مكملة ، فأنشأت بالقرب منها الحمامات والأفران ودور العبادة ٠ كانت قوافل التجارة العربية لا ينقطع مسيرها من مصر الى دمشق والى أوروبا ، وكذلك الحال بالنسبة الى التجارة الأجنبية ٠ وكان لهذا التبادل التجارى أثر كبير فى تطور الصناعات والفنون فى الشرق وفى الغرب٠ ووصل الى أوروبا كثير من صناعات الشرق مثل الأقمشة والمنسوجات والعطور ، والزجاج الملون ، والسجاد ومواد الصباغة ، ومواد تثبيت الألوان وغيرها ، وأدخلت صناعة الورق الى أوروبا لأول مرة عن هذا الطريق ٠

كان تجار القوافل يفدون الى القاهرة من بلادهم من جميع أنحـــاء الشرق ، ينزلون فى هذه الوكالات أو هذه الخانات مثل خان الخليلى ، وخان جعفر ، والغورى، وخان أبو طقية ، وحارة النصارى ٠٠٠ وغيرها وجميعها بها أسواق ينزلون فيها التجار لكى يبيعوا سلعهم الثمينة التى يتجلى فيها مهارة الانسان وصبره وجهده ببلوغ الكمال ، حيث كانت أيضا تتم عمليات المقايضة أو المبادلة مثل الأخشاب المعطرة والبخور الثمين من الهند ٠٠ والأوانى الخزفية والحرير من الصين ٠٠٠ والسجاجيد العجمية من فارس ٠٠٠ المنسوجات الموشاة من الشام ٠٠٠ وغيرها كلها تلتقى فى هذه الخانات ، وأهمها خان الخليلى حيث موقعه الممتاز ومكانه الساحر ٠

● خان الخليلى ٠٠٠ هدية الماضى للحاضر :

خان الخليلى قطعة من القرن الثانى عشر ٠٠٠ دروب ضيقة رطبة مزدحمة بعدد كبير من الحوانيت القديمة ٠ تتخللها أسوار وبوابات أثرية ٠ لا يريد هذا الخان أن يعترف بالزمن ٠ حيث مازالت الصناعات فى هذه الأبنية محتفظة بطابعها الشرقى القديم الأصيل ٠ لم تستطيع الآلة ٠٠ آلة العصر الحديث أن تقتحم هذا الحى الضيق الذى تعيش فيه تلك الأصابع الحساسة المرهفة ولم تســـتطع الأيام أن تمحو الفن اليدوى الأصيل ٠ انها هى ــ هى نفس الأصابع التى تعمل فى صبر وجلد ٠ لكى تخرج

قطعة من النحاس المزخرف وهو ... هو نفس المسمار الرفيع الذى يندس فى طرقات خفيفة على الأطباق الخشبية فتظهر الفرعونية والمصرية والعربية الأصيلة القديمة . أن هؤلاء العمال المهرة لا يزالون يعملون بنفس الأدوات التى كان أجدادهم يعملون بها ، ويستعملون نفس الاصطلاحات فى العمل . يمارسون صناعة التطعيم بالصدف والسن ونقش النحاس وتطعيمه بالفضة ، وعمل التماثيل الدقيقة من العاج والكهرمان وصناعة الجلود ، وصياغة الفضة ، وطلاء المعادن ، وصناعة المشربيات الى غير ذلك من الصناعات الشرقية الأصيلة التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم .

دروب خان الخليلى ضيقة رطبة ، ينبعث منها عبير المسك والعنبر ، ويغمرها ضوء خافت ينساب فى رفق فيحيل المكان حلما جميلا ... صورة خيالية رسمتها ريشة الأجيال الغابرة وظلت مكانها على حافة المدينة ترقب تطوراتها وهى ثابتة ، تكافح بحرارة ذلك التيار الجارف الذى يعمل جاهدا على محوها من الوجود . ويحكى خان الخليلى قصته الخالدة حيث نقشها على حوائط مبناه ، فيروى لنا هذا المكان الحالم قصته فى صمت . ويتحدى الزمن ، وكأنه يقول :

كان هذا المكان الحالم الجميل مقبرة طوال حكم الفواطم حتى عصر المماليك . وكانت هذه المقبرة تجاور القصر الشرقى الكبير ، حيث كانت تعـــرف باسم « تربة الزعفران » . وفى عصر السلطان برقوق ، رغب الأمير جركس فى بناء سوق مكان هذه المقبرة . وتم بناء هذا السوق فى سنة ١٣٨٨ م . وقد أوقف الأمير جركس هذا السوق وغيره من المبانى على فقراء مكة .

وفى يوليو ١٥١١ م هدم السلطان الغورى خان الخليلى ، وأنشأ مكانه حوانيت وربوعا ووكالات تجارية محاطة بسور . ولها ثلاث بوابات .. وأصبح « الخان » معدا لتجار الجواهر الثمينة والثياب المزركشة ، كما كان سوقا للمماليك الأرقاء . وكانت بوابات الخان الضخمة ، يحكم اغلاقها بالسلاسل الحديدية ليلا حتى لا تمتد يد اللصوص والعابثين الى ما يحويه من جواهر وتحف .

وكان السلطان الغورى على صداقة قوية بأحد أثرياء سوريا اسمه الحاج خليل الذى كان يعيش فى مصر . وقد سمحت هذه الصداقة بأن يهدى السلطان الغورى صديقه الحاج خليل السورى ، هذا الخان بعد أن تم بناؤه . ومنذ ذلك التاريخ أضيف الخان الى اسم الرجل الذى يملكه فصار « خان الخليلى » وكلمة « خان » فارسية الأصل ومعناها السوق .

● **خواص المساكن المنفصلة فى القرن الثامن عشر :**

تشترك المساكن الحضرية بهذه الفترة فى عدة خواص فهى غالبا من دورين أو

ثلاثة على عكس مساكن الفسطاط التى كانت كلها من دور واحد الا أنها احتفظت بفركة الفناء الداخلى كمحور للمسكن كله ، تطل عليه كل حجرات المسكن الرئيسية فلا تتعرض لذلك الى ضوضاء الطريق وتتمتع فى الوقت ذاته بالخصوصية وتلطيف ظروف المناخ • والدور الأرضى يخصص عادة لمعيشة الرجال واستقبال الزوار منهم• فدخول المسكن يكون عادة عن طريق مجاز يشابه تصميمه الى حد يعيد التصميم الموجود فى مساكن الفسطاط ، ويؤدى الى الفناء الداخلى • والفناء تطل عليه عدة أجزاء بالدور الأرضى ، فعادة ما توجد مندرة لاستقبال الزوار الرجال ـ أرضيتها على مستويين ، الجزء الأوسط ـ الدرقاء ـ منخفضة ومن الرخام وبها النافورة والأجزاء الجانبية ـ الايوانات ـ مرتفعة قليلا وتغطى بالحصر أيضا « تختبوش » وهى عبارة عن حجرة واجهتها مفتوحة تماما على الحوش وبها « دكة » طويلة تستعمل عادة لقراءة القرآن وبالاضافة الى المندرة السابق ذكرها فعادة ما توجـــد مندرة مفتوحة « مقعد » وهى تشابه التختبوش الى حد بعيد غير أنها مرتفعة حوالى مترين عن أرضية الفناء ولها سلم خاص بها من الفناء مباشرة وهى تشـــبه البلكونات فى مساكننا المعاصرة الا أنها عميقة وواجهتها بحرية فتستعمل بذلك للجلوس أو الاستقبال فى الصيف• وعلاوة على هذين الأجزاء فالدور الأرضى يحتوى علىكافة أجزاء الخدمة وحجرات الخدم ••

والصعود الى الأدوار العليا يكون من مداخل بالفناء أيضا ، فلجناح الحريم مدخل خاص يؤدى الى سلم للدور العلوى ويتكون هذا الجناح من « فسحة » لها ملقف عالى مفتوح للاتجاه البحرى وتفتح عليها عدة حجرات • والمدخل الآخر يؤدى للقاعة وهى ما يشابه صالة الاستقبال فى مساكننا المعاصرة وتستعمل لاستقبال الزوار من الرجال والنساء ولاقامة الحفلات وهى دائما فى الدور الأول وتعطى لها أهمية خاصة فى التصميم وتتكون أيضا من درقاعة وايوانين وأسقفها عالية وفنية جدا ولا توجد بالقاعة نافورة ، وتتصل بمكان للتخديم •

ومن الخواص الهامة للمساكن فى هذه الفترة أيضا ، هو عدم وجود حجرات مخصصة للنوم أساسا بل تستعمل كل الحجرات للمعيشة أثناء اليوم وللنوم بالليل ، الى جانب الخواص التفصيلية الأخرى كاستعمال المشربيات (تشبابيك خشـــبية مخروطة) وكافة التفاصيل المعمارية •

ويعلق وليم لين W. Lane فى مرجعه عن عـــادات المصريين فى القرن الثامن عشر على المساكن بأنه يلاحظ بها رغبة أكيدة فى الانتظام وأن الهدف الرئيسى للمعمارى هو جعل البيت خاص Private ورطب قدر الامكان والواقع أن المؤلف فى تعليقه هذا انما يؤكد نجاح مساكن هذه الفترة فى الاســـتجابة الحقيقية الى احتياجات الوقت •

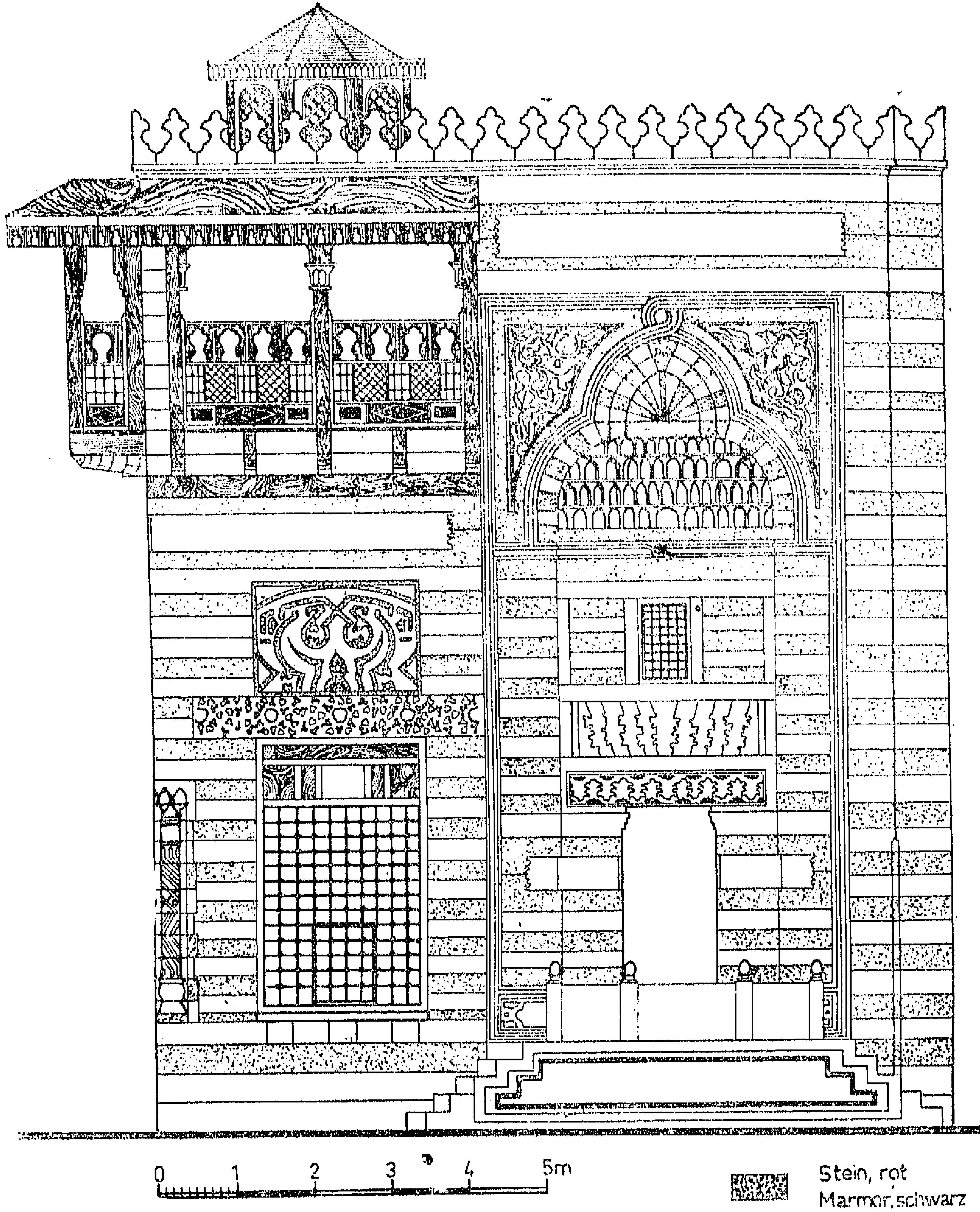
وفى ختام التعليق على المساكن المنفصلة (مساكن العائلة الواحدة) فى هذه الفترة لا يفوتنا التنويه الى ارتباط وثيق بين فلسفة الشرق والفكر الاسلامى من ناحية وبين الحلول المعمارية الأساسية للمساكن متمثلة فى الفناء الداخلى والنافورة من ناحيةأخرى ٠ فالفناء الداخلىفى المساكنمعالجة معمارية تحجب عن الساكن كلعناصر الطبيعة الخارجية وتترك له التمتع المطلق بالسماء فى بلادنا هى العنصر الطبيعى الوحيد الذى لا تشوبه قسوة ولا حدة ، والفناء الداخلى بذلك معالجة معمارية نابغة من بذور فكرنا الشرقى واستجابة صريحة لمقتضيات مناخنا ٠

أما النافورة فهى مرآة فى الماء تعكس صورة السماء على الأرض فتدخـــل السماء بما لها من قدسية وشفافية الى البيت وهى دائما مربعة ترمز أركانها الى عمد السماء الأربعة هى رمز السماء وينساب الماء داخل هذا المثمن فيعكس صورة قبة السماء على أرض البيت ، ربطا صريحا بين الانسان وأسلوبه الفكرى الأساسى ٠ وغنى عن الذكر ما للنافورة من أثر فعال فى تنظيف جو المسكن ٠

● **المدافن :**

اعتـــاد الملوك والحـــكام أن يخصصـــوا جـــزءا من الجـــوامع لمدافنهم ، والبعض منهـــم أقامـــوا مـــدافق خاصـــة بهـــم مســـتقلة بعيـــدة عن المدينة ٠ وهناك مقابر عديدة من هذا النوع شرقى العباسية بالقاهرة تعرف « بمقابر المماليك »٠ وحجرة المدفن سواء أكانت بالجامع أو مبنى مستقل عادة مربعـــة الشكل تعلوها قبة ، ومن الواضح أن فى تركيب القبة الدائرية على الشكل المربع صعوبات فنية كبيرة تغلب عليها المهندسون المعماريون بحلول جديرة بالاهتمام ٠ وأول خطوات المحاولة التى انبعثت فى هذا الشأن هى التى اتبعت فى قبة « جامع الحاكم » اذ لجأ المهندس المعمارى الى تحويل الشكل المربع الى شكل مثمن بوضع أربعة قبلات نصف دائرية فى أربعة أركان الحجرة تعلوها نصف قبة ٠ والخطوة الثانية اتخذت بمدفن«الجعفرى» فتوصل المهندس الفنان الى المثمن بحشو الأربعة أركان ببناء مدماكين ماثلين على أضلاع الزاوية ، بارزين أسفل القبة مباشرة ، بأولهما ثلاث قبلات وبثانيهما قبلة واحدة فى منتصف طوله ٠

أما فى مدافن « الخلفاء العباسيين » فقد أضيفت الى هذه القبلة المتوســـطة قبلتان على جانبيه ، فصار بكل مدماك ثلاث قبلات ، وتسمى هذه القبلات الصغيرة المعلقة « بالمقرنصات » وقد أخذ عدد المداميك المقرنصة يزداد تدريجيا ، وتزداد عدد المقرنصات التى يشتمل عليها كل مدماك ، للوصول الى أقرب مضلع ينســـجم من انحناء القبة ٠



٢٨٥ ـ واجهة مسجد فرج بن برقوق ١٤٠٨ والتى تشبه عنـــاصرها المعمارية وتكويناتها وجهة بمنزل الكريديلية ، بالحى الطـــولونى ، القرن السادس عشر

● لم تعن العمارة العربية الداخلية الفارق بين الداخل والخارج . ولكنها عنت الخلوة والاستقلال والخصوصية · عولج الداخل بمعالجات معمارية وأساليب فنية رائعة ليختلف مع الخارج القاسى بشكل حاد ومباشر · فكانت البرودة ، والظل ، وشبه الظل ، والخضرة والماء بدلا من الحر ، والشمس ، والوهج ، والجفاف ·

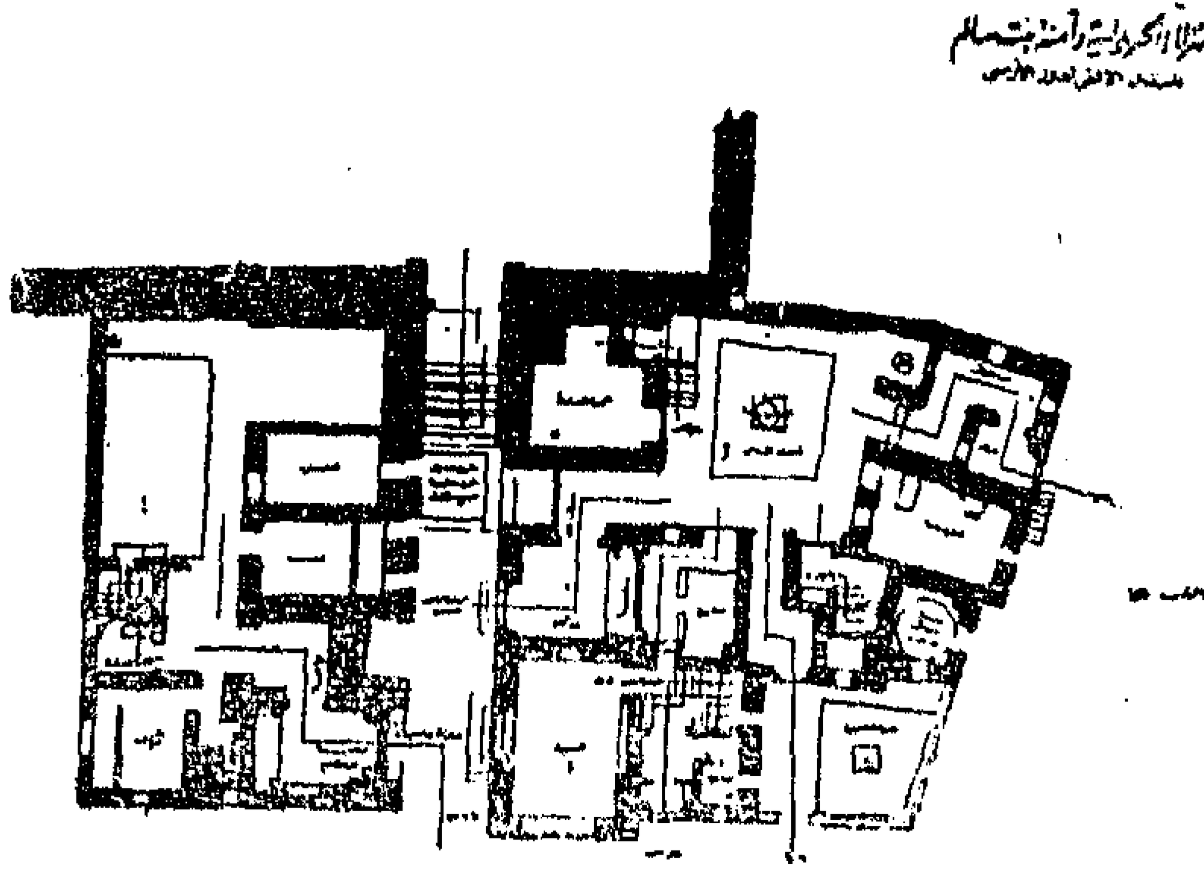
البـــاب الخـامس :

المســـاكن العربية

حتى القرن الثامن عشر

● منزل الكريدلية وامنة بنت سالم بميدان أحمد ابن طولون من القرن السابع عشر . ويشبه من حيث تصميمه منازل القرن الحادى عشر ، ويمتاز بالنقوش العربية الجميلة والفســـقية البديعة الدقيقة الصنع .

● من أهم القصور والبيوت أو المساكن العربية الاســـلامية ، والتى أنشئت فى القرن الخامس والسادس والسابع والثامن عشر والتى لا تزال باقية تعبر عن الاصـــالة والروحانية والعقيدة والترابط الاسرى والاجتماعى : قصر الامير يشبك ابن مهدى ١٣٣٧ م ، قصر الامير طام ١٣٥٢ م ، منزل جمال الدين الذهبى ١٦٣٧ م ، منزل قايتباى ١٤٨٥ م ، منزل السحيمى ١٦٤٨ / ١٧٩٦ م ، عبد الوهاب الطبلاوى ١٦٤٨ م .

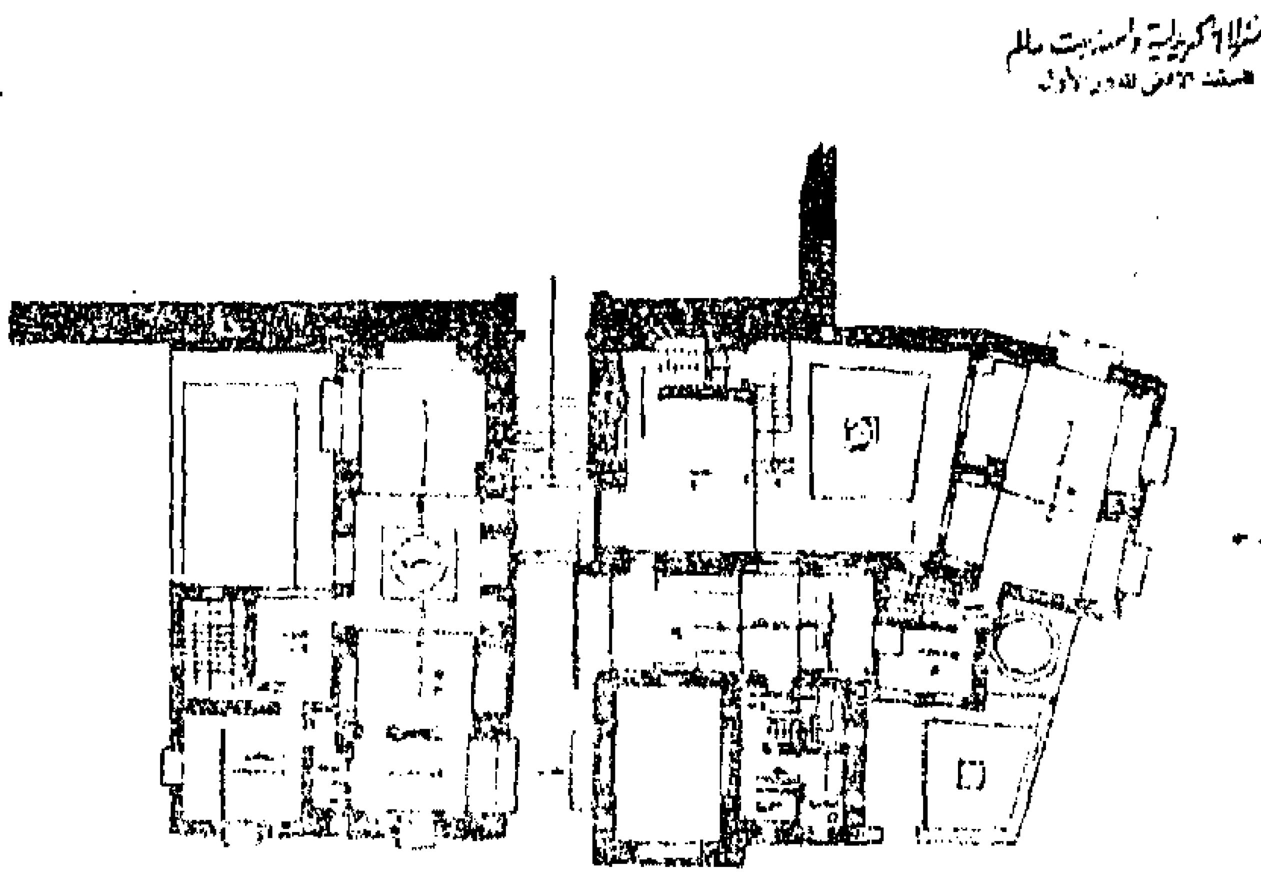


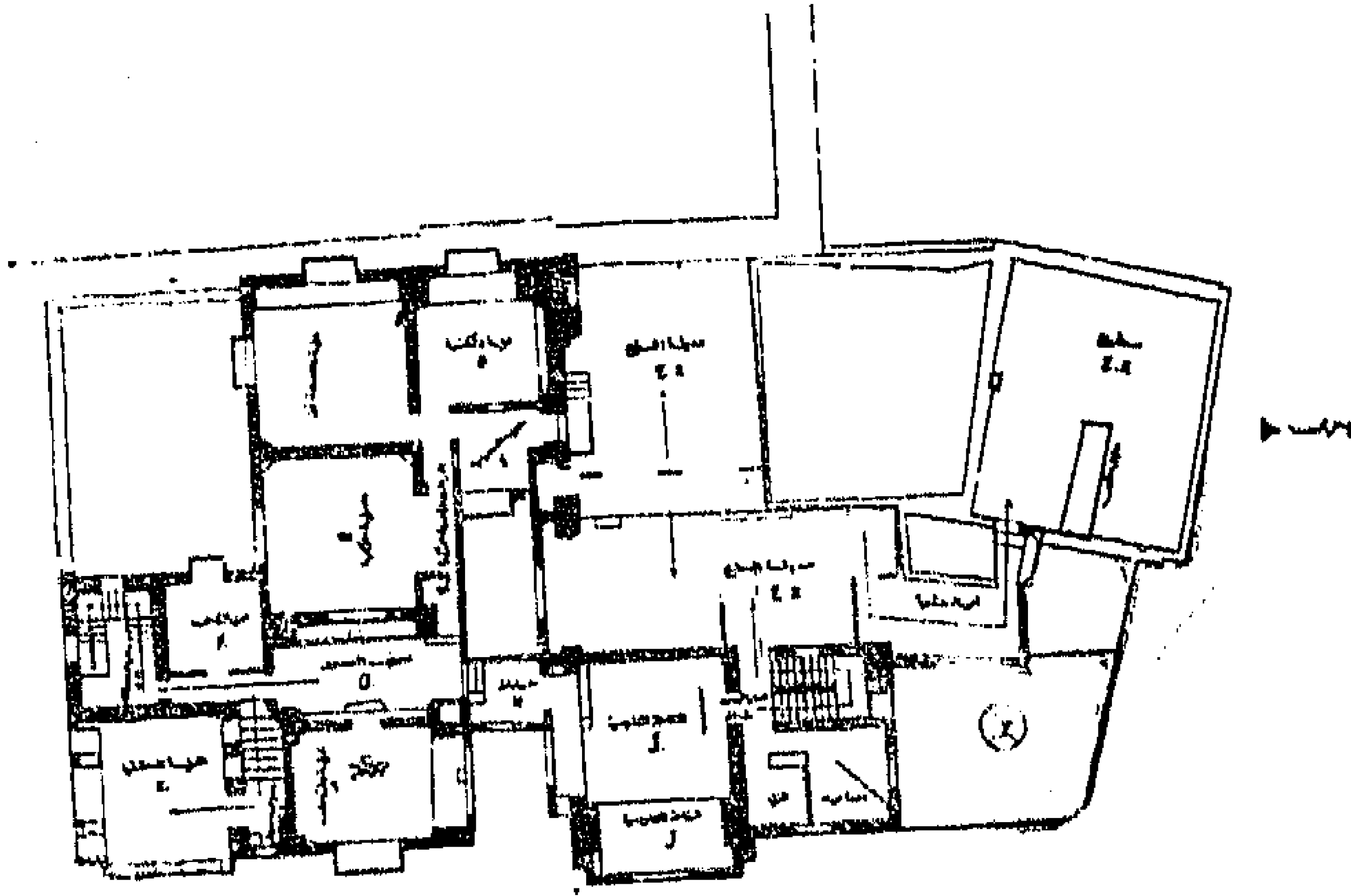
٢٨٦

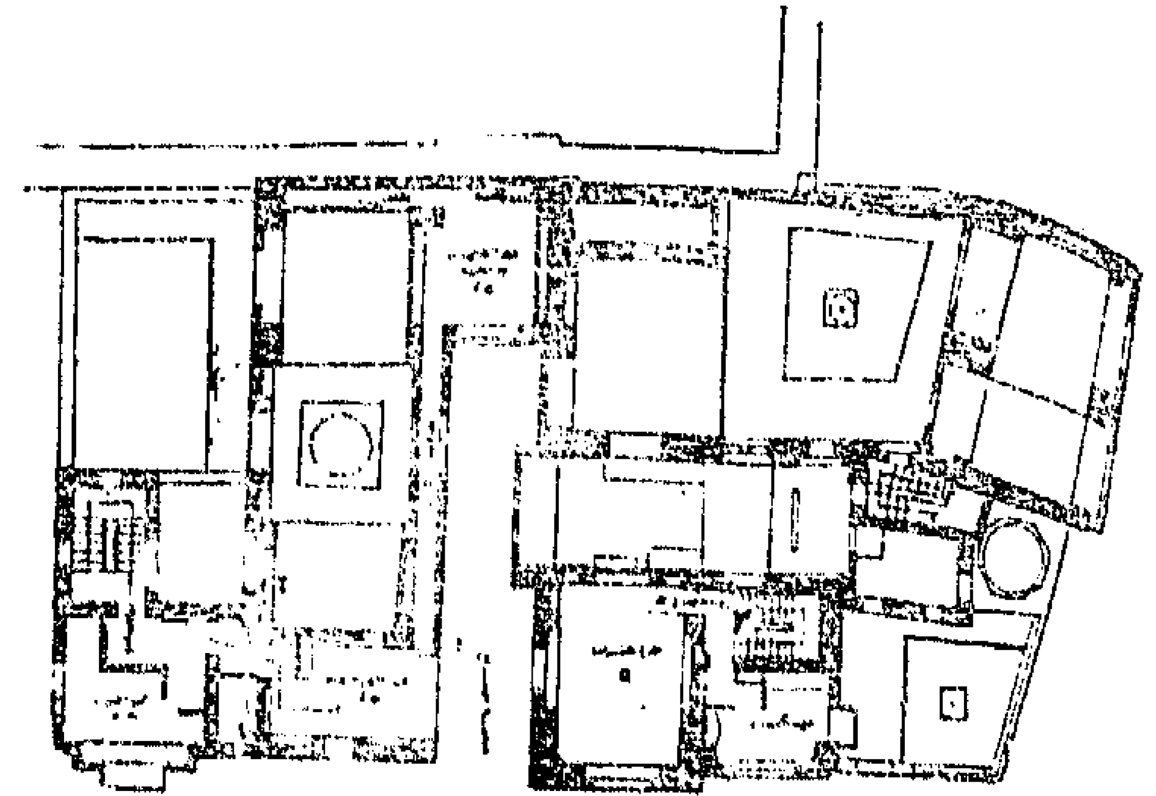
٢٨٦ ــ المسقط الافقى للدور الارضى

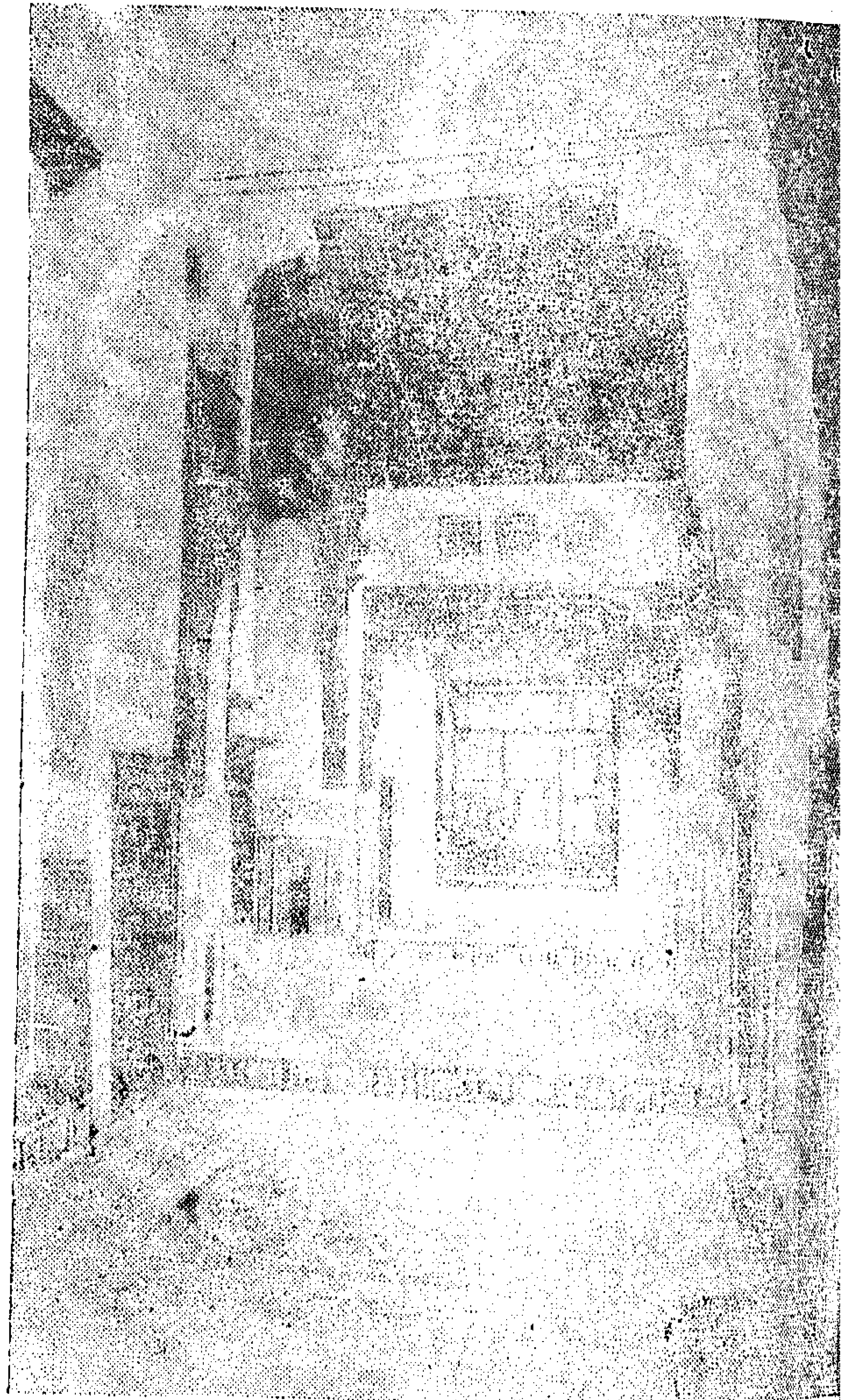
٢٨٧ ــ المسقط الافقى للدور الاول

٢٨٧









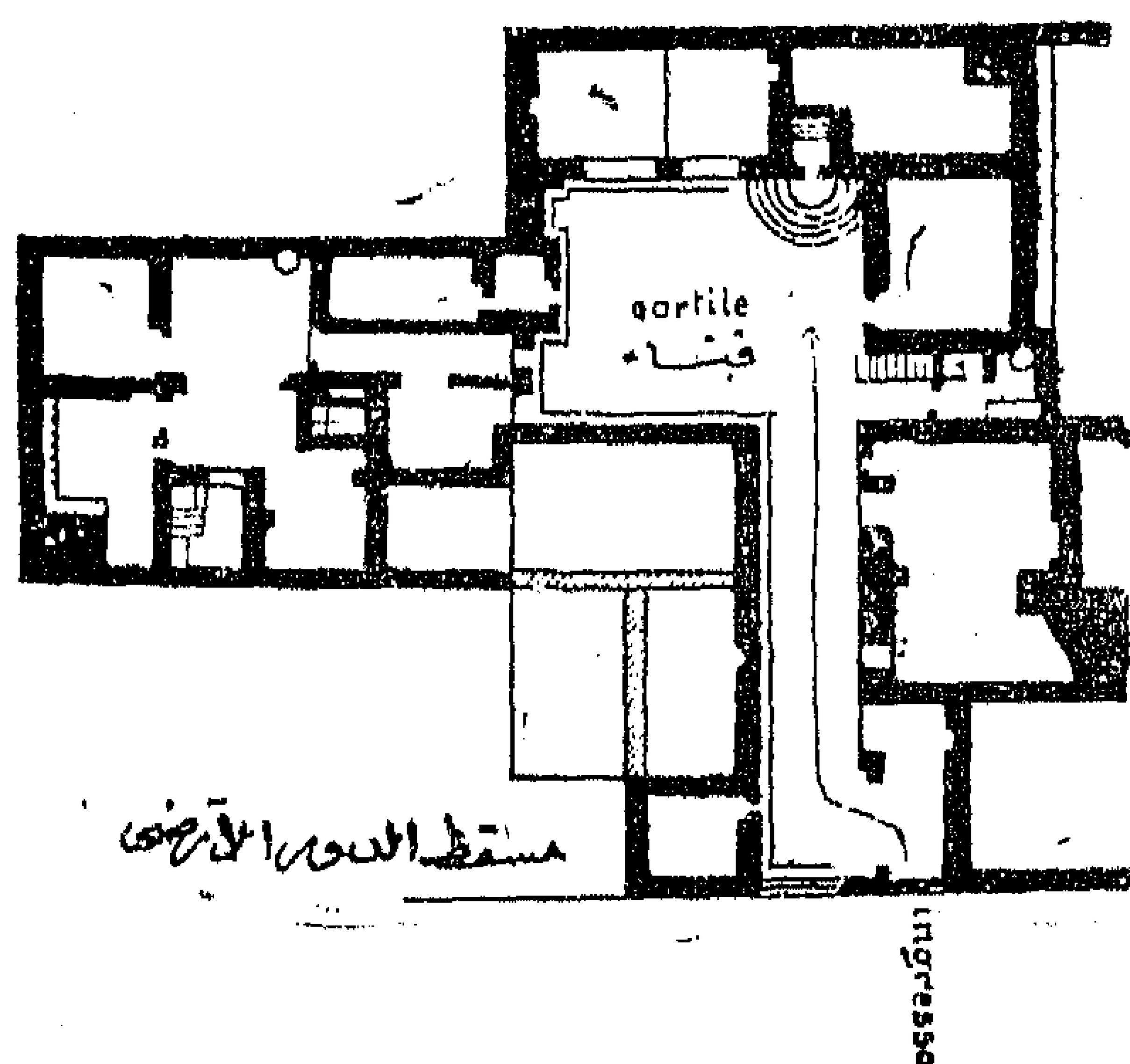
٢٨٨ ـ المسقط الافقى للدور الثانى .
٢٨٩ ـ المسقط الافقى للدور الثالث .
٢٩٠ ـ القاعة بمنزل آمنة بنت سالم .

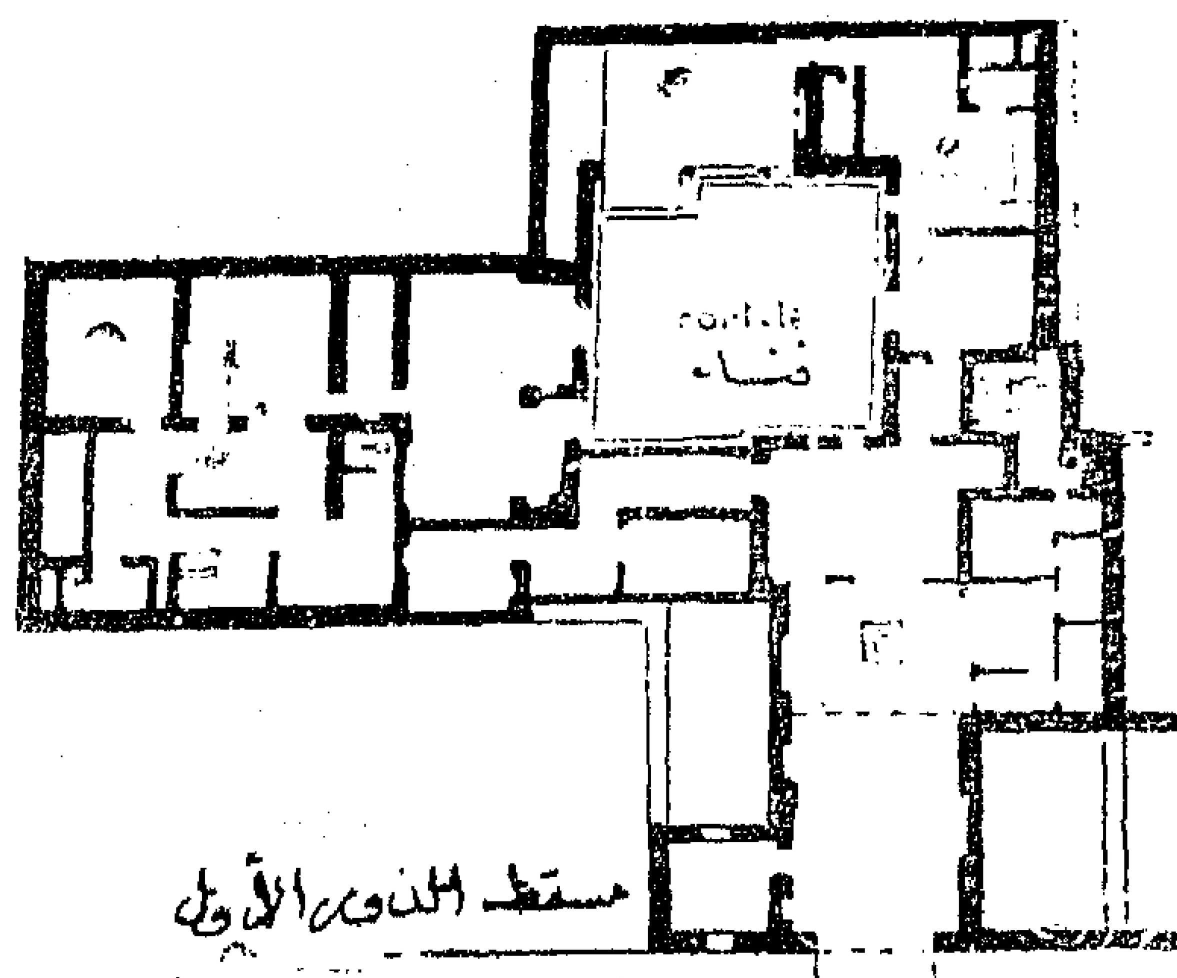
● رأى المعمارى فرانك لويد رايت :

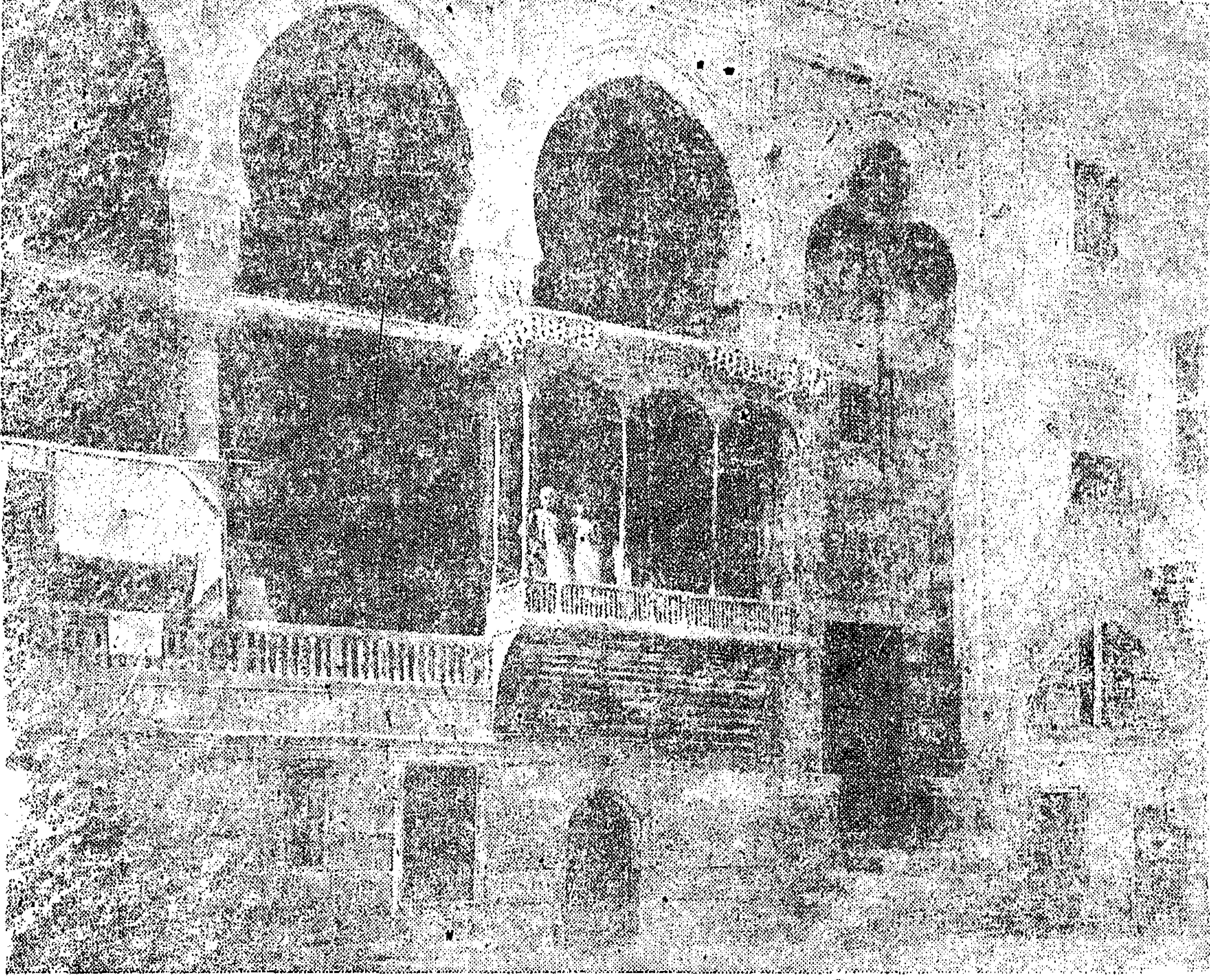
فى سبتمبر عام ١٩٥٦ صاحبت فرانك لويد رايت فى زيارته للمبانى الاسلامية بالسيدة زينب والقلعة . وصف مسجد السلطان حسن بما معناه .. بأنه عمل عظيم اقتضته رسالة عظيمة وأنه عمل ضخم لانسان وأمة . والانسان هنا هو المعمارى المسلم . والامة هى المجتمع الاسلامى .

وصف العملاق العالمى رايت المساكن العربية التى زارها بقوله ... انها ترديد لنغم الموسيقى العربية ، وتجسيد للرسالة الدينية التعبير عن عقيدة التوحيد وأحكام الشريعة . وحينما زار وكالة الغورى قال .. ان ما ادعاه « كوربوزييه » من أنه ابتكر الشقق السكنية المكونة من طابقين أو ثلاثة فى العمارات السكنية كان باطلا .. والان أجزم بأنه نقلها عن العمارة الاسلامية وعن وكالة الغورى .

٢٩١ ـ حجـرة اسـتقبال مخصصة للرجال بمنزل
الكريدلية بالحى الطـــولونى ـ ويلاحظ الفسقية
ونافورة المياه وسط الحجرة لتطيب جوها أثناء
فصل الصيف ٢٩٢ ، ٢٩٣ ـ المسقط الافقية للمنزل





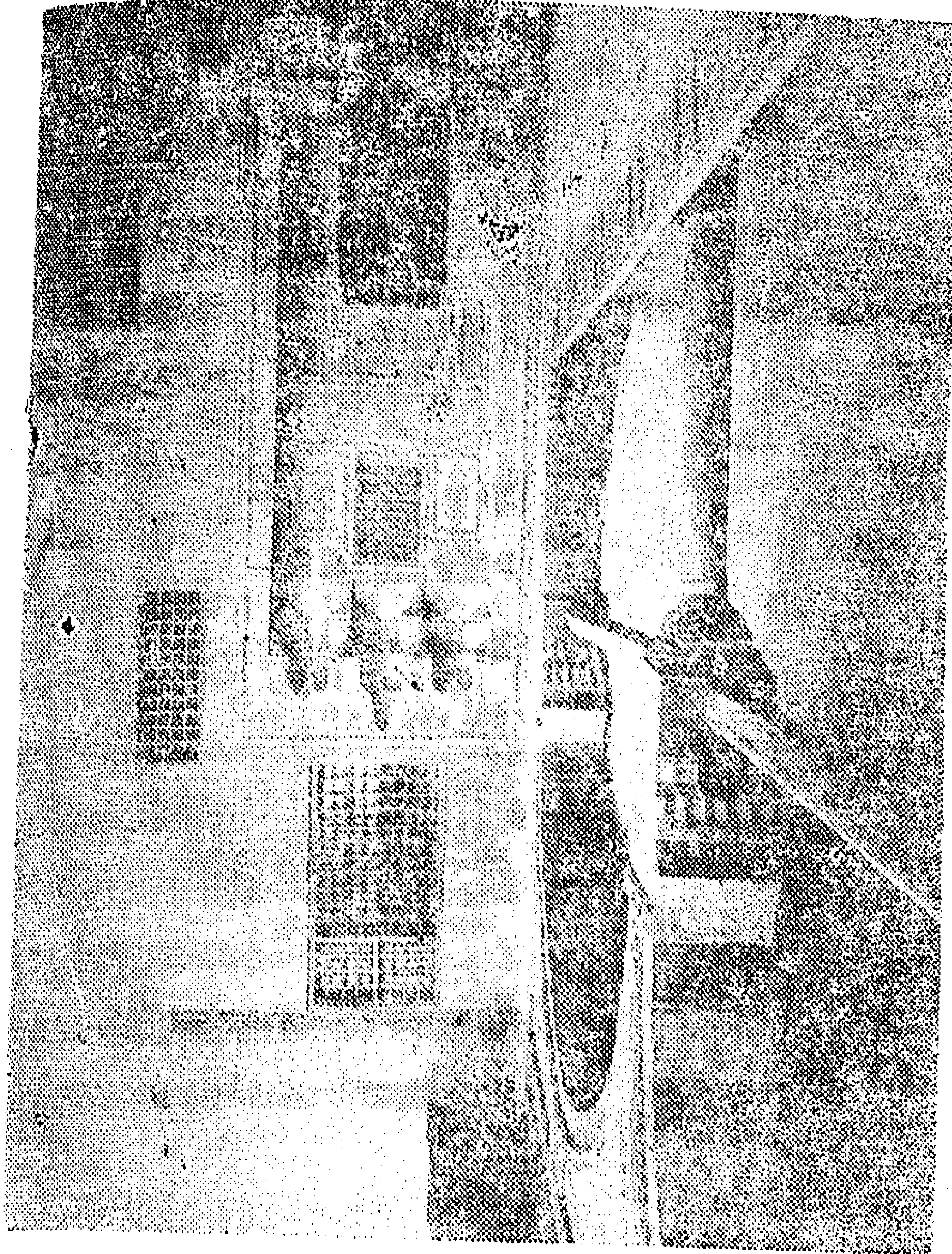


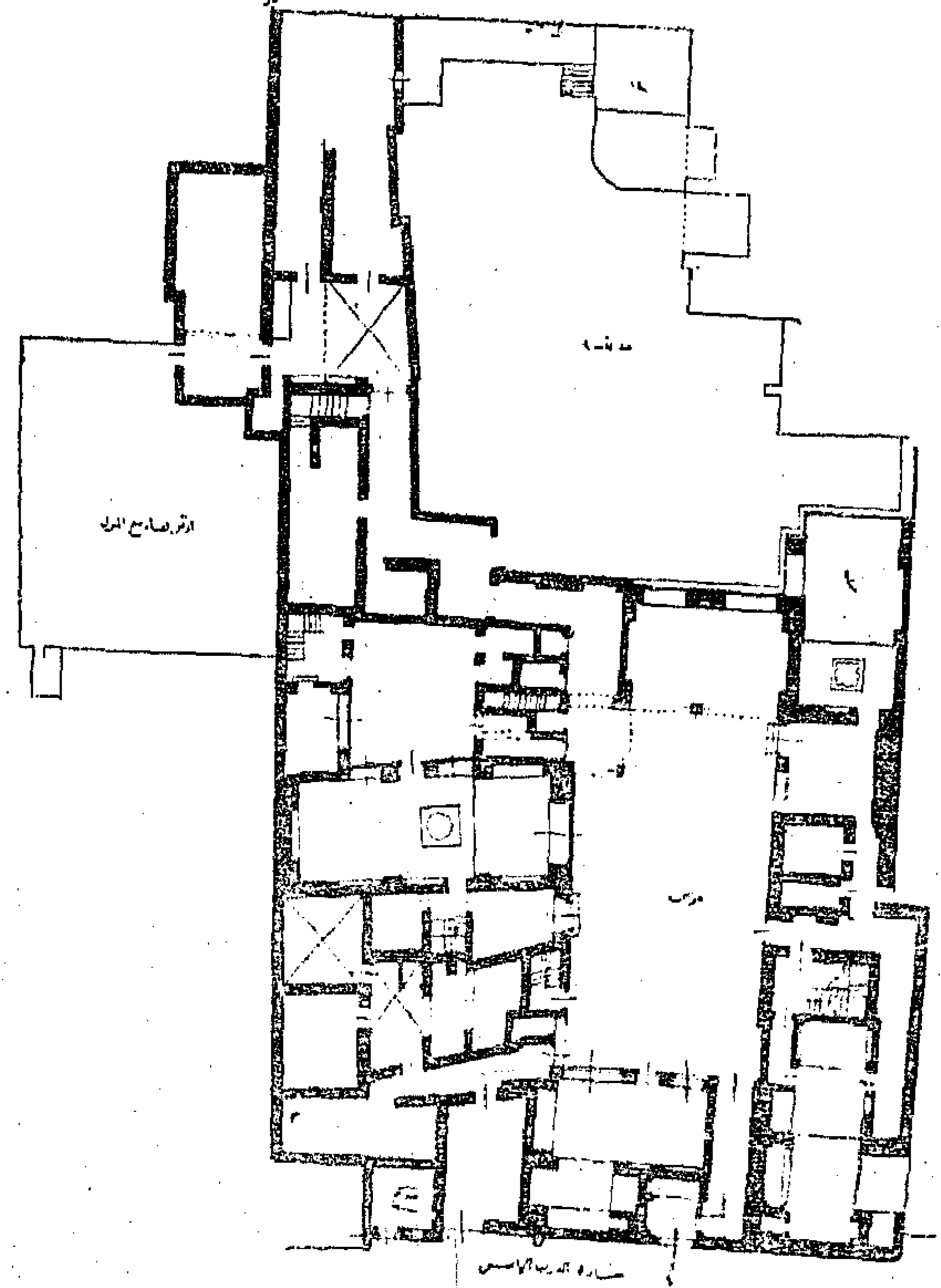
٢٩٤

مدخل جمال الــــدين الذهبى ـ الواجهة البحرية ١٦٣٧ م ـ أحد المساكن العـربية ويلاحظ كيفية استخدام المشربية كمعـالجة معمارية بارعة

● بالقاهرة عدة مساكن عربية اسلامية قائمة حتى الان وعلى جانب كبير من الأهمية التاريخية ۰ وأهمها منزل الحاج ســالم الجزار ، والمعروف باسم منزل « الكريدلية » بنى سنة ١٦٣٢ م وموقعه ند جامع أحمد بن طولون ۰ ومنزل جمال الدين الذهبى الموجود الان فى حارة حوش قادم وبنى سنة ١٦٣٧ م۰والمنزل بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى والموضح مسقطه الأفقى أعلا شكل ٢٥٨ ، والمعروف باسم منزل السحيمى ، وموقعه بالدرب الأحمر بالجمالية بنى سنة ١٦٤٨ م ۰ ومنزل ابراهيم كتخدا السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب وبنى سنة ١٧٤٤ م ۰

وجميع هذه المساكن عربية أصيلة من حيث التصميم والانشاء والتكوين ملائمة مع الحياة العربية ومع الطبيعة والبيئة والعادات والتقاليد الاسلامية ۰





(شكل ٢٨٢)

● مساكن القرن الثامن عشر

٢٩٥ ـ ٢٩٦ ـ منزل عبد الوهاب الطبلاوى

ـ السحيمى المسقط الافقى الدور الارضى ٢٩٥ ـ ٢٩٦

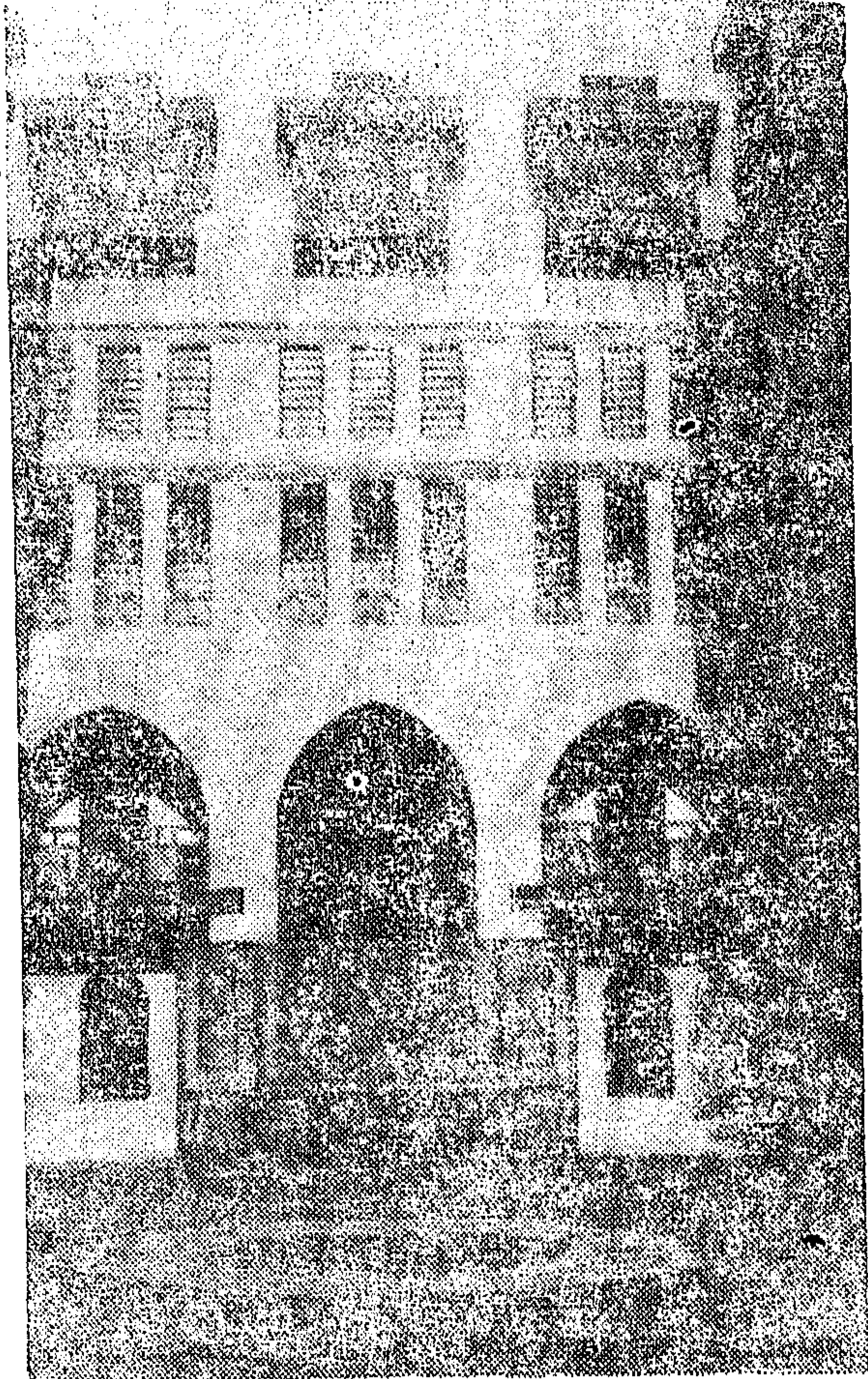
١٦٤٨م

● المساكن العربية بصفة عامة بسيطة المظهر من الخارج ، متواضعة ولم ينل الشكل الخارجى قسطا كبيرا من العناية كما هو الحال الان . وتعطى الخـوارج فى المسكن العربى احساسا عميقا بأن صاحب المسكن كان يبنى لكى يعيش بحياته فى هدوء ، ولا يهتم بالحصول على اعجاب الناس من الخارج . وأخذت القاعة أهمية كبرى فى التصميم ، كما دلت على مكانة صاحب المسكن ومقدار ثرائه .

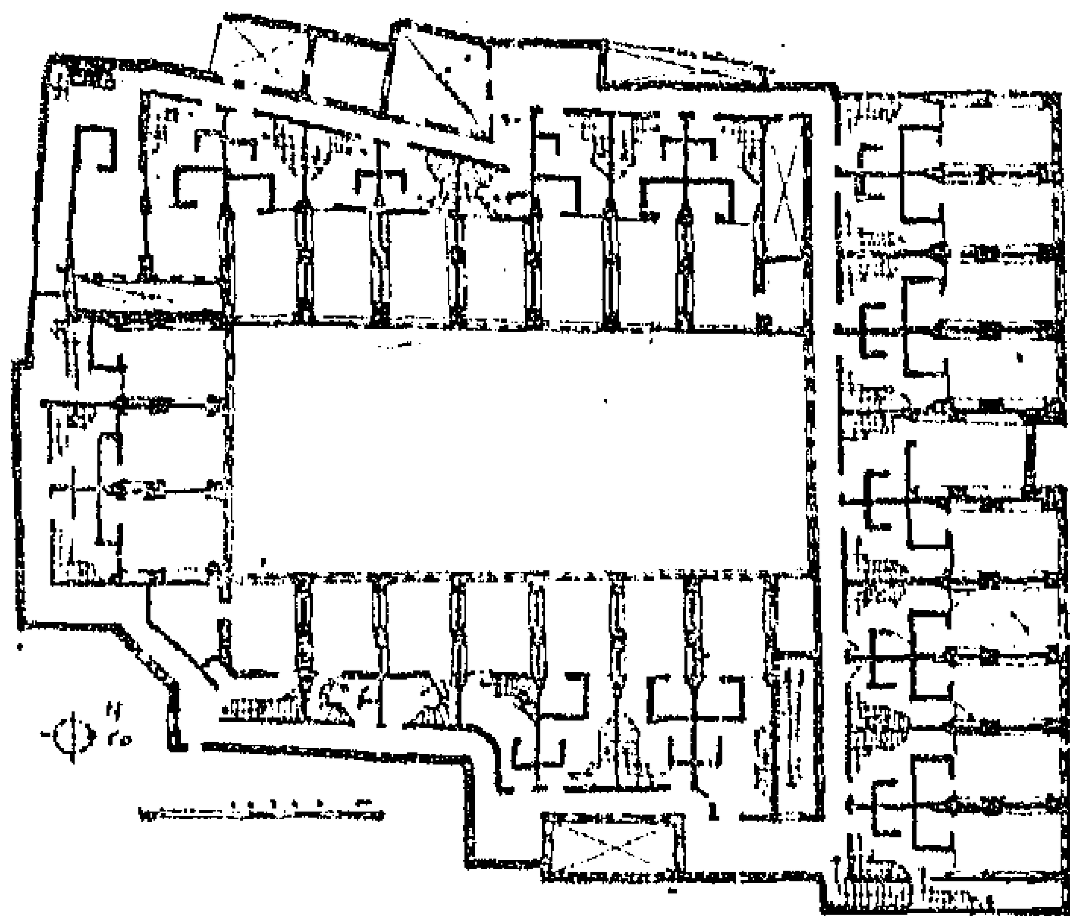
● القبة فى المسكن العربى هى رمز السماء ، تقام على مربع يعلوه ارتفاع فى أركانه بالمقرنصات أما النافورة فى الفناء الداخلى للمسكن فهى محـاولة رائعة جذابة لاسقاط صورة السماء على أرضية المسكن ، فهى ترديد مباشر للقبة السماوية ـ السماء وصحنها مربع يتحول الى متمن وينساب الماء داخله ، فيعكس تلك الصورة السـماوية الساحرة على أرضية المسكن .

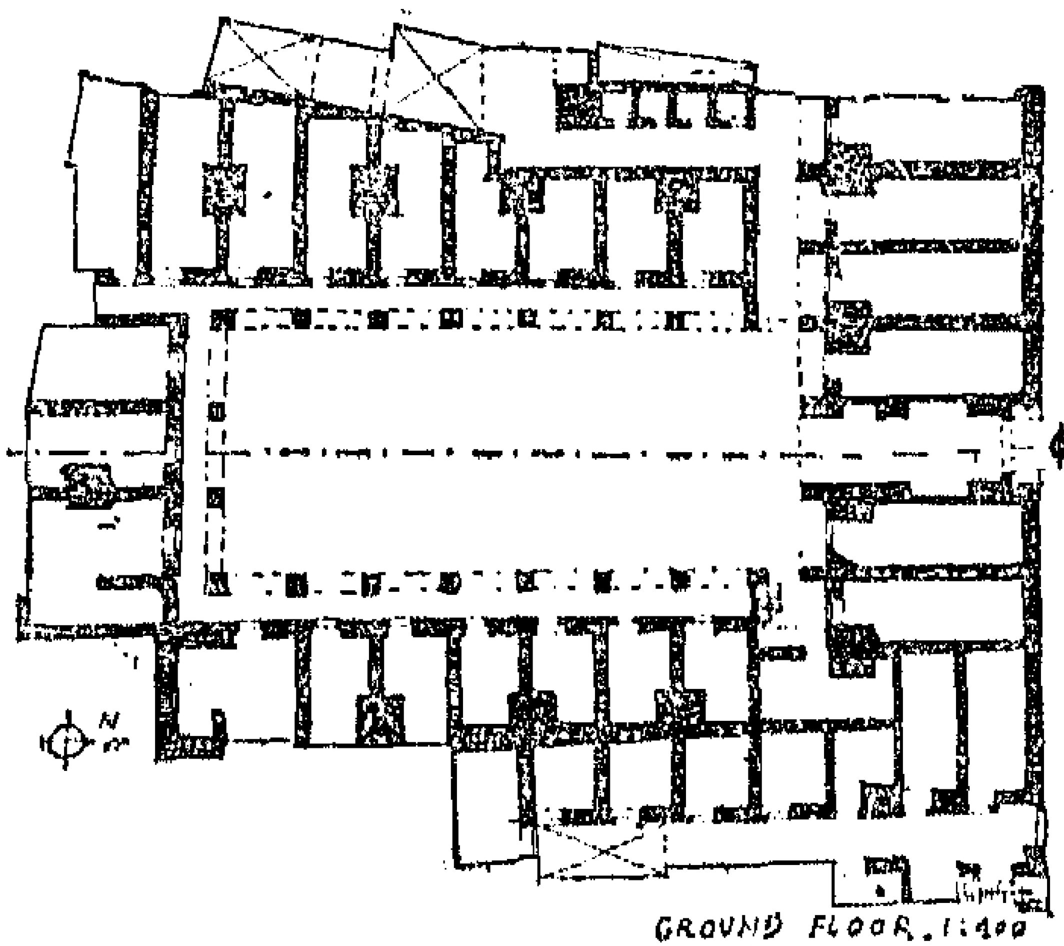
● الفناء الداخلى فى المسكن العربى « باثيو » معالجة معمـارية تحجب عن المساكن التغيرات الجوية وكافة عناصر الطبيعة ، وتترك له السماء التمتع بالسماء وحدها ، وفكرة الفناء الداخلى نابعة من بذور الفكر الشرقى واسـتجابة صريحة لمقتضيات المناخ .

● التختبوش مكان للجلوس صيفا مفتوح للاتجاهين البحرى والقبلى فتزيد سرعة الرياح عند المرور به . أما المقعد أو المندرة فهى حجرة معيشة طبيعية لها سلم مباشر من الفناء الداخلى . والملقف يوجه الى الخارج لاتجاه الرياح ، وبذلك يمكن تهوية الحجرات والصالات التى لا تفتح مباشرة على الاتجاه البحرى .



● العمارة الاســــلامية .. فكر وحضارة ..
العمارة مرآة الحضارة . هى سجل لعقـــائد المجتمع .وتعكس صورة المجتمع . هى المرآة التى تنعكس عليها ثقافة الشعب ونهضـــته وتطوره ورقية . وكانت العمارة الاسلامية هى الصورة الصادقة والتعبير الدقيق للمجتمع .





وكالة الغورى ٩٠٩ هـ / ١٥٠٥ م

مساقط أفقية لنموذج من نماذج الوكالات التى انتشرت فى القرن الثامن عشر
٢٩٧ ــ مسقط الدور الارضى للوكالة .
٢٩٨ ــ مسقط الدور الاول للوكالة ن النشرة المعمـــارية ١٩٦٨ لجمعية المهندسين الملايين . بحث للدكتور عبد الباقى ابراهيم .

تشترك العمارة الاسلامية مع العمارة الأوروبية فى عدة أوجه شبه كثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالعقد المدبب ·

وفى العمارة الأوروبية يميز العقد المدبب بين طراز العمارة القوطى بين سنتى ١١٠٠ و ١٣٠٠ م وبين طراز العمارة الرومانى الذى سبقه بين سنتى ٨٠٠ و ١١٠٠ م والذى كان يستخدم العقد المستدير · وقد كان الافتراض الشائع منذ وقت طويل أن العقد المدبب قد جاءت به الحروب الصليبية ويرجع تاريخ أول حرب صليبية الى سنة ١٠٩٦ م) الى أوروبا من بلاد سوريا وفلسطين الاسلاميتين · وقد استطاع بناؤو العهد القوطى عن طريق استخدام العقد المدبب ابتكار القبو المتقاطع المضلع الذى هيأ اقامة الكاتدرائيات العالمية ، وهى أعلا ما أخرجه طراز فن العمارة القوطى ·

ويدعى الكثيرون من العلماء ، والفرنسيون منهم بوجه خاص ، أن القبو المتقاطع المضلع كان ابتكارا فرنسيا ، ولهذا فانهم ينسبون نشأة فن العمارة القوطية الى فرنسا ، وقد أوضحنا ذلك فى الباب الثالث من الجزء الثانى من تاريخ العمارة فى العصور المتوسطة فى توضيح العناصر القوطية ·

وفى عام ١٨٨٤ م نادى العالم الأثرى الفرنسى « ديولا فوى » بأن فن العمارة القوطية قد استمد أصوله من العصر الساسانى فى بلاد الفرس ــ العهد الساسانى من سنة ٢٢٦ الى سنة ٦٤٣ م ·

وفى السنوات الأولى من هذا القرن أعلن « سترزيجوسكى » وهو أستاذ من فيينا أن بلاد الفرس كانت منشأ أشكال عديدة من الأقبية التى أكد أنها وصلت الى أوروبا عن طريق أرمينيا · وفى غضون الأعوام الثلاثة الماضية بدأ عدد كبير من الآثار الاسلامية فى بلاد الفرس يجتذب انتباه المؤرخين فى ميدان العمارة · وظهرت مع هذه الاكتشافات الجديدة دعاوى جديدة تؤيد الأصل الفارسى لفنون العمـــارة القوطية ، وكان لابد من البحث عن الأسس الواقعية لهذه الدعاوى مما حدا بالباحث أن أمضى أربعة أعوام ــ بين سنتى ١٩٤٤ و ١٩٤٧ ــ فى استقصاءات أثرية فى ايران والعراق ، وفى دراسة هذه التحقيقات والمشاكل المرتبطة بها وغيرها ·

● **تحليل المشـــكلة :**

ان جذور هذه المشكلة متغلغلة فى أعماق تاريخ الهندسة المعمارية • ومن بين الأسئلة التى تحتاج الى اجابة صريحة مستندة الى وقائع وأصول علمية ما يلى :

١ ــ متى وأين ابتكر العقد نصف الدائرى الصحيح المشع من المركز ؟
٢ ــ متى وكيف ظهر العقد المدبب لأول مرة ؟
٣ ــ متى وكيف وصل العقد المدبب الى أوروبا لأول مرة ؟
٤ ــ متى وأين استخدم الضلع لأول مرة فى التسقيف بالأقبية ؟
٥ ــ هل كان القبو المتقاطع المضلع ابتكارا فرنسيا ؟
٦ ــ هل كان القبو المتقاطع المضلع ابتكارا أوروبيا خالصا ؟

جميع هذه الأسئلة والتى تجاهلها المؤرخون من قبل ، وربمـــا كانوا يعلمون الاجابة عن بعضها ويعرفونها حق المعرفة، ولكنهم أجانب متحيزون، وكانت هذه الأسئلة ولأول مرة محتاجة الى البحث عن الأسس الواقعية لتقرير الواقع وحسم هـــذا الموضوع ، ورده الى أصله احقاقا للحق وانصافا للتاريخ الصحيح الذى لا يكذب وقد يكذب المؤرخون • وفيما يلى بيان الشواهد وبيان النتائج •

● **الشـــواهد :** يظهر من التحقيقات التى أجريت ما يلى :

١ ــ أن ما يدعى بالعقد الرومانى ، العقد المستدير الصحيح ذو الصـــنجات المشععة من المركز ليس ابتكارا رومانيا ، فقد كان معروفا فى مصر منذ عهد الأسرة الثالثة (فيرنيترخيت) وفى بلاد ما بين النهرين « العـــراق » فى نفس ذلك العهد (تل أسمر) •

٢ ــ وظهر العقد المدبب « الكاذب » المبنى بالكوابيل ، وهو المكون من وحدات موضوعة أفقيا بصورة متقابلة حتى تلتقى فى القمة فى العصور المتقدمة فى أريدو بالعراق وفى موهنجادارو بالهند • وثمة أمثلة عديدة منه فى مصر •

وظهر العقد المدبب الصحيح المشع من المركز فى مصر فى الأسرة العشرين (فى مصطبة باسنا والنوبة) وفى كونججو بكوريا (أسرة بايكس ١٨ ــ ٦٦٠ م) ، وفى كنيسة سوريا بقصر ابن وردان فى منتصف القرن السادس • ويوجد العقد المدبب فى بعض مبانى العصر الأموى • وهو الشكل المعتاد للعقود فى العمارة الاسلامية منذ

أوائل العصر العباسي من مصر حتى الهند ، أما في بلاد المغرب فيسود العقد المصرى الاسلامي شكل حدوة الحصان ــ يرجى أن تنظر رسومات مسجد قرطبة ٠

٣ ــ وصل العقد المدبب الى أوروبا من الهندسة المعمارية الاسلامية فى عام ١٠٦٦ م ــ مونتكاسيتو بايطاليا ــ قبل الحروب الصليبية الأولى بثلاثين عاما ٠

٤ ــ يظهر منشأ الضلع ــ العقد المستقيم ــ فى الأحواض الاغريقية فى ديلوس فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وفى قصر بارثى فى آشور بالعراق ، وفى قصر ساسانى بايران يرجع عهده الى القرن السادس ٠ وما أن جــاء القرن العــاشر حتى كان المهندسون المسلمون قد ابتكروا شكلا متقدما من الأقبية المضلعة ــ مبنى الحــكم الثانى بقرطبة ٠

٥ ــ عرف القبو المتقاطع المضلع فى ايطاليا فى ساناتزاروسيسيا منذ عــام ١٠٤٠ م ، أو ١٠٨٠ م ٠ وعرف القبو المتقاطع المضلع فى انجلترا فى مدينة ديرهام منذ عام ١٠٩٣ م ويرجع أقدم قبو متقاطع مضلع فرنسى قوطى فى مدينة كلونى الى الفترة بين عامى ١٠٩٥ و ١١٠٠ م ٠

٦ ــ وعرف القبو المتقاطع المضلع ذو الشــكل القوطى الحقيقى فى ايران (اصفهان) منذ عصر تيمور لنك فى القرن الخامس عشر وما بعده ٠

● النتــائج :

١ ــ سبقت العمارة الاسلامية غيرها من الطرز المعمارية الأخرى فى اقتباس وتطوير العقد المدبب ، وجعله أساسا للاسلوب المعمارى ٠

٢ ــ الغرب مدين للاسلام بالعقد المدبب ٠

٣ ــ الأقبية المضلعة (وهى ليست على نظام قوطى حقيقى) تســبق الأقبية الرومانية والقوطية الطراز المتقاطعة المضلعة فى أوروبا ٠

٤ ــ تطور القبو القوطى الحقيقى (القبو المتقاطع المضلع المدبب) على نحو مستقل فى الغرب وفى الدول الاسلامية : فى أوروبا فى أواخر القرن الحادي عشر ، وفى فارس فى منتصف القرن الخامس عشر ٠

أن استخدام الضلع فى بناء القبو عاش فترة فى المناطق التى تعرف سياسيا الان باسم ايران أطول مما تبينه المؤرخون المعماريون حتى الان ، وانه قد انبثق من هذه الابتكارات التى قام بها المهندسون المعماريون فى العصر الاسلامى الاول أغلب أشكال الاقبية الاسلامية من أسبانيا حتى الهند · ولكن ان لم تكن الاقبية الفارسية المتقاطعة المضلعة — على ضوء ما هو ميسور لنا من معرفة حتى الان — ذات صلة مباشرة بالكاتدرائيات القوطية فى الغرب ، فانها رغم ذلك تحمل الشواهد على حقائق ذات دلالة أعظم وأبعد مدى · وهذه الحقائق هى الدوافع للبحث والمقارنة والابتكار ، وهى التى تجعل الانسان بالهمه الروحى يختلف اختلافا تاما عن الأعضاء الآخرين فى المملكة الحيوانية · وكل دراسة تظهر أو تعيد تأكيد تلك الصفات الروحية والذهنية المشتركة بين البشر ، سواء كانوا من الشرق أم من الغرب ، مسلمين أم مسيحيين ، لها جدواها فى الدراسة البشرية · تلك الدراسة التى يجب أن تضم جميع البشر فى أخوة ثقافية وروحية واحدة ، اذا ما قدر للمثل العليا التى كشف عنها أنبياؤنا أن تجد استجابة فى حياتنا ·

● المساكن العربية اسلامية ··· والمساكن الغربية الحديثة :

أما فيما يتلق بالمساكن العربية الاسلامية ، والعناصر المعمارية الشرقية الأصيلة المكملة اليها ، فسترى من التحليل بعد ذلك أن الغرب تأثر بها تأثيرا كبيرا منذ أوائل هذا القرن واستخدم المهندسون الأجانب هذه العناصر وتلك التكوينات المعمارية الشرقية بمواد بناء مختلفة وحوروا فى نسبها دون تعمق فى دراستها ، فلم تؤد الغرض الكامل منها · والغريب فى الأمر أن علماء الغرب من المهندسين والمخططين لطشوا من الشرقى كثير من العناصر المعمارية الأصيلة المتعلقة بالمساكن ، وخاصة من العمارة الاسلامية من وحدات معمارية وأسس وقواعد وتكوينات مختلفة متعددة ، ثم حوروها واستخدموا فى انشائها مواد رخيصة مبتذلة ونسبوها الى أنفسهم وسموها بالعمارة العالمية الحديثة ، وصدروها الى الشرق تحت اسم التجديد فى العمارة اسم العمارة المعاصرة · أو العمارة الملائمة للمناطق الحارة ·

صدروا الينا المشربيات العربية الاسلامية الأصيلة باسم الكولاسترا ، وصنعوها بالجبس أو الحجر الصناعى أو الخرسانة المسلحة بوحدات ذات مقاسات مختلفة تتناسب مع الفتحات المراد تغطيتها وحمايتها من أشعة الشمس · ولكنهم وقعوا فى خطأ جسيم ، حيث عجز معماريو الغرب عن تفهم عمق الحلول المعمارية للمشربيات العربية الاسلامية واقتباسهم لأشكالها دون جوهرها ، أدى بهم الى اهمال فكرة المقاسات « Practical Measures » فأتت استعمالاتهم للمشربية تؤدى عكس الهدف منها ، فتزيد من حدة الضوء فى كثير من الحالات ، ومما يدعو الى الأسف الشديد أن انتشر استعمالها فى الشرق بشكل مبتذل ·

والجدير بالذكر أن الوحدات المختلفة للمشربيات العربية الاســـلامية الأصيلة لا يمكن تكبيرها أو تصغيرها ، لأنها وحدات ذات مقاسات مطلقة Practical Measures حيث أنها تستعمل لكسر حدة الضوء Glare الناتج عن شدة الاستضاءة ٠ وهى معالجة معمارية عربية نابعة من الشرق ذات حساب علمى دقيق ، تسمح بدخول الرياح الملطفة ولا تسمح بدخول أشعة الشمس ٠ وعادة توضع المشربيـــات لتغطى المسطح الخارجى للشبابيك أو البلكونات أو الشكمة التى تستعمل للجلوس من الداخل والتمتع بالخصوصية Privacy وتلطيف الرياح دون التعرض لأشعة الشمس ٠

وأهم ما يلاحظ أيضا فى هذا الصدد أن هذه المشربيات أو هذه التشابيك الخشبية، الضيقة منها تستعمل فى الأجزاء أو فى الطوابق السفلى من المسكن لكسر حدة الضوء وتوفير عامل الخصوصية ، أما الأجزاء العلوية أو الطوابق العـــلوية من المساكن فتستعمل فيها المشربيات ذات العيون الواسعة أو تشابيك أوسع تساعد على التهوية (يرجى أن تنظر الصور الموضوحة للمشربيات أو التشابيكأشكال ١٥١ ، ١٥٢ ،١٥٣)٠

صدروا أيضا الينا الأفقية الداخلية Internal Courts تحت اســـم باثيو Pathio وهذه الأفنية الداخلية شرقية الأصل عربية المنبع ٠ والفناء الداخلى فى المسكن العربى الاسلامى معالجة معمارية تحجب عن المساكن جميع تقلبات الطبيعة وتترك له التمتع بالسماء وحدها ، سماء الشرق بصفائه وسحره وروعته ٠ فان فكرة الفناء الداخلى فى المساكن نابعة من بذور الفكر الشرقى واستجابة صريحة لمقتضيات المناخ الشرقى٠ صدروا الى الشرق أو الىأقاليم المناطق الحارة نافورات المياه وسط حديقة داخلىناء المساكن، ونسبوها الىأنفسهم وهذا خطأ واعتداء علىالتاريخ٠ فهى فكرة عربية شرقية اسلامية أصيلة ؛ نابعة من ظروف المناخ ومن العادات والتقاليد والاجتماعيات العربية ، هى محاولة لاسقاط صورة السماء على أرض المسكن العربى، وهى ترديد مباشر للقبة السماوية (السماء) ، وهى مربعة الشكل ثم تتحول الى مثمن وينساب الماء داخلها فيعكس صورة السماء ٠

صدروا الى الشرق ملاقف الهواء باسم التكييف الطبيعى ، والشكمة أو التختبوش باسم الفراندة أو التراس ٠ صدروا لنا ذلك العنصر المعمارى العربى الأصيل الذى كان جزء هام فى العمارة الاسلامية ، وهو تخصيص مساحة كبيرة من الدور الأرضى للبوائك Archaids لحماية المارة والمترددين على المبنى من الشمس والحر والمطر ٠ هذا العنصر الهام الذى أهملناه فى العمارة الشرقية ، صـــدوره لنا تحت اسم العمارات السكنية المرفوعة على عمد ٠ وكذلك الحال فيما يتعلق بالأثاث الثابت فى الحوائط كالدواليب وغيرها من العناصر المارية العربية الأصيلة النابعة من بيئة المجتمع الرعبى واحتياجاته واجتماعياته ومطالبه ٠

البـــاب الســادس

ـ كان لوحدة العقيدة عنـد العرب أثر كبير فى وحدة التطور فالعرب يؤمنون بوحـــدانية الله ، وفلاســـفتهم يؤمنون بوحدة المعرفة والحقيقة ، ووحدة الدين والفلسفة والمعرفة الحقيقية متفقتان، لأن العقل واحد والحكمة والشريعة متفقتان ، لأن الحقيقة واحدة ٠

● **تعريف الفن :** مكان الفن ومكانته ···· سحر الفـــن وروعته
جمال الفن وروحانيته ···· خلود الفنوقدسيته
جلال الفن وعظمته ···· روح الفن وسيمفونيته
في العصور الاسلامية :

ينقسم الفن الى قسمين : فن ثابت ، فن متحرك ·

فالفن الثابت هو الرسم والنحت والتصوير والعمارة ،
أما الفن المتحرك فهو : الشعر والموسيقى والغناء واللحن والأدب ·

ويمكن القول كذلك أن أنواع الفن خمسة كحواس الانسان تماما · أى أن أنواع الفن هى ما يعبر عنها بوصول الفن الى مركز الاحساس وهو القلب ·

ـ هناك فن يصل الى القلب عن طريق العين ··· كالرسم والتصوير والنحتوالعمارة
ـ هناك فن يصل الى القلب عن طريق الأذن ··· كالموسيقى والغناء والشعر والأدب
ـ هناك فنيصل الى القلبعن طريق اللمس·· كالمواد ـ الحرير ـ القطيفةوالمنسوجات
ـ هناك فن يصل الى القلب عن طريق الأنف ··· كالروائحالعطرية والزهور والفواكه
ـ هناك فن يصل الى القلب عن طريق الفم ··· المأكولات والتذوق أى ذواقة الفن

فالفن والعمارة صنوان ، كلاهما مرآة صادقة تنعكس عليها ثقافة الشـــعب ونهضته ورقيه وتطوره · وقد تحدثنا عن العمارة الاسلامية فى الجزء الأول ، ونتحدث عن الفن فى هذا الجزء وعن الفنون الاسلامية · فكلما سما الفن وارتقى فى أى عصر من العصور ، ولأى شعب من الشعوب ، كان ذلك دليل على سمو الشعب ورقيه الذى يعيش فى هذا المجال الفنى · لأن الفن ما هو الا أحاسيس ومشاعر فكلما أحس الشعب بمكانته وقدرته وشعر برقيه وتطوره ، وسمت تلك القوى التى تسير دقة الحياة لهذا الشعب ، انعكست هذه القوى وتلك العوامل على مشاعر الفنان ، وأنتج قطعا فنية تعبر عن هذا الرقى وذلك التطور ·

فمهما بلغ العالم من تقدم فى العلوم الحديثة ، كالذرة والصواريخ والأقمار الصناعية ، ومهما بلغ العالم من تقدم فى تســـخير الآلة التى تســـيطر الآن على

اقتصاديات الشـــعوب المادية ، ومهما بلغ العالم من تقدم فى صناعة العقـــول الاكلترونية ··· فلا غنى لهذا العالم أبدا عن الفنون بمختلف أنواعها فلها الأثر الأول والأكيد فى تهذيب الشعب ــ أى شعب ــ وصقل مشـــاعره ، وتنمية ذوقه وترقيه آدابه ، ورفعة شأنه ·

والعالم اليوم وقد تعددت مشـــاكله ومتاعبه ، وثقلت تكاليف أعباء حياته ومعيشته ، وتعقدت أموره وكثرت وتشابكت مطالبه ، هذا العالم محتاج فى معاملاته وصلاته واجتماعياته أ،ن يكون رفيع الآداب والعلم ، سامى الذوق والفن ، ذا شعور مرهف وحس دقيق ، فيرفه بذلك من عنائه ويخفف من أعباء حياته · لذلك أعتقد أن أول واجب على الفنان أن يعمل على أن تكون فنونه محببة الى النفس ، ذائعة بين الناس : يهيمون بها ويتعشقونها ويتذوقونها ، يجدون فيها غذاء لأرواحهم ، مقربة الى نفوسهم ، لا ينظرون اليها أنها أمور كمالية يتعشقها المترفون ، بل يؤمنون بهـا أنها من أسس الحياة ومقوماتها ·

فالفن علم دقيق من أدق علوم الحياة ، ويتطلب فى الشخص الذى يعمل فى هذا المجال الى جانب دقة الحس ورفاهية الشعور ــ أن يكون ملما الماما تاما بتاريخ الفن الذى يزاوله ، والحقل الذى يعمل فيه ، والتمكن من أصوله وقواعده وأسراره · وفى تاريخنا العربى والاسلامى كان الفن دائما وأبدا عنصراً هاما من عناصر الحيـــاة ومقوماتها ·

- **تعريف الجمـــال ····**

تكامل الجمال فى الطابع المعمارى العربى ·
ــ ان الجمال والخير والحق حقيقة واحدة ·
ــ العمـــل هو الذى يوصـــف بالخـــير ·
ــ والشـــكل هو الذى يوصـــف بالجمال ·

اذا ما تحدثنا عن الفن ، فلابد وأن يتجه الفكر أو العقل أو الوجدان الى موضوع الجمال · ويعتقد المؤلف أنه قد يكون من المناسب توضيح معنى الجمال لكى يتكامل موضوع الفن · وقد يكون من المناسب تحقيقا للفائدة أن نقف برهة عن الحديث عن الفن وتاريخه ، ونوضح اجابة على سؤال كثيرا ما يتبادر الى الذهن ··· ما هو الجمال ؟ وذلك لكى نتمكن من توضيح وتصحيح المفاهيم للعمارة المعاصرة ان صحت هذه التسمية ، وتوضيح قواعد الجمال فى العمارة والفنون بالنسبة للنظرة الوجدانية

للرجل العربى أو الانسان العربى ، لامكان تحديد مكاننا فى حركات التطور الشامل والتغير والتحول الكامل المرجوة حاليا فى مختلف ميادين الحضارة ، والتعرف على آثارها فى العمارة ، وحسم موضوع ما اذا فـان هناك تعارضا أساسيا بين العمارة العربية والتطور الحديث فى العمارة الحديثة كما يذهب اليه البعض ·

من الملائم توضيح معنى الجمال ، لكى نتذوق القيم الجمالية فى الفنون العربية الاسلامية التى نحن بصدد شرحها ونقدر المعانى الفنية فيها ··· فنجيب على سؤال كثيرا ما رددناه وهو ما هو الجمال ··· ؟

اتفق الناس على حب الجمال ، ولكنهم اختلفوا على تعريفه · فيقول أفلاطون مثلا أن الجمال والخير والحق حقيقة واحدة ، فليس بجميل ما يقوم على الباطل ويأتى منه السوء · ورض معترض على رأى أفلاطون يقول ، بأن الخير نافع ولكن الجمال لا يشترط فيه المنفعة ، وأن الحق يقوم بالبرهان ، ولا حاجة بالجمال الى البرهان ·

ويفرق أرسطو بين العمل وبين الشكل · فالعمل هو الذى يوصف بالخير ، ولكن الشكل هو الذى يوصف بالجمال ، ولابد فى كل جميل من نظام وتناسق وكمال وتنزه عن الغرض · واذا كان الشعور بالجمال منزها عن الغرض ، فليس مراد « ارسطو » بهذا أن الجمال خلو من الفائدة لأنه يقول مثلا فى الألحان الموسـيقية أنها مريحة ، مهذبة ، مطهرة ، وأنها تجربة سارة يرغب فيها السامع لما فيها من سرور ·

ومن العلماء من شرح الجمال وفسره بالراحة البيولوجية ، أى بشعور الانسان بالارتياح وهو فى هذه الحالة · ومنهم من قال أن الجمال محسـوس ، ولكنه يرجع بالحس الى الصورة لا الى المادة وأن تقدير الجمال مسألة كيفية لا كمية · فالوجه الجميل مثلا لا يساويه ألف وجه أقل منه جمالا · فالجمال معنى لا يقاس بالأعداد ولا بالمقادير · وهنا تظهر نظرية « الادراك الحسى » أو علم الجمال · حيث استخدم الفيلسوف « كانت » كلمة « استيتك » ليشـير بها الى نظـريته فى الزمان والمكان باعتبارهما صورتى الادراك كله ، وعلى ذلك نجد أن هذا الاصطلاح شمل كل أبواب الادراك الحسى التى تتضمن كل أنواع « اللذة والألم » ·

فالادراك الحسى (*) صفة جوهرية فى نظرية الجمال ، والصفة الأخرى هى صفة النقد الواعى الذى يشمل الأحكام القيمية الغريزية المباشرة ، أى يشمل حالتى اللذة والألم · والمجال الذى يشترك فيه كل من النقد الحسى والنقد الواعى هو ذلك المجال

(*) المهندس محمود الشكرجى ـ الهندسة والمهندسين ·

الذى توجد فيه الادركات الحسية النقدية أو مجال الادراك النقدى التذوقى · وذلك يصبح موضوع علم الجمال هو ادراك القيم ·

فالناس اذن فى حبهم للجمال وتقديرهم لقيمه يختلفون ويذهبون فى حكمهم الى عدة مذاهب ولكنهم يتفقون على أمر واحد هو الاعتراف بأثر هذا الجمال فى نفوسهم وسلطانه عليهم · فالجمال هو الجمال مهما اختلفت الناس فى تكييفه · أو يحتفظ بقيمة الجمال فيه مهما اختلفت أنظار الناس اليه ·

والجمال الحر السليم الصافى ، أو الجمال المطلق · هو اســتكمال الشىء لكل المعانى والغايات فجمال الكتلة ، وجمال الخطوط ، وجمال اللون ، وجمال التكوين ، وجمال المنظر ، ان تم كل ذلك فى شىء واحد ، سواء فى الطبيعة أو فيما ينتجه الفنان أو الرسام أو النحات أو المهندس المعمارى ، مصحوبا بسمو الفكرة وســلامة الذوق وحسن الأداء ، فان ذلك هو الجمال كل الجمال أو ما يسمى بالجمال المطلق · فالناحية الجمالية تعود الى الوجدان ، وتتبع فى ذلك عبقرية الجنس وعبقرية الفرد عندما يكون هناك ترابط ثقافى ·

وهناك الكثير من الفلاسفة والأدباء والنقاد والمهندسين مثـــل جوته ، ولويس مامفورد ، وفيكتور هوجر ، هـ · ج هولفورد ، وسانيانا ، وبرنارد شو وغيرهم ممن كتبوا عن الفن وعن الجمال والتقدير الجمالى وعن العمارة كفن · كتبوا بعمق وغزارة بدرجة أنهم تورطوا فى هذا المجال الخيالى الهام ذى القيم المطلقة والقيم النسبية ، وعالجوا النواحى العاطفية والروحية والانسانية لهذا الموضوع · وزعم بعض الأدباء والكتاب والنقاد الأقل درجة من هؤلاء العمالقة أن الحكم الأخير فى هذا الأمر هو الفرد فيما يتعلق بالمحتوى الفنى لأى جسم أو كتلة أو تكوين ويمكنه أى الفرد ، أن يقبله أو أن يرفضه طبقا لما يلهمه به خياله · ومما لا شك فيه أن حواس الفرد تلعب دوراً أساسيا فى هذا المجال وهى فريدة جدا ، وهى أقدس من أن يبعث بها فيلسوف أو أديب أو شاعر ونعتقد أننا قد نبذنا الكفر بأن الفن والجمال ينتميان للمتحف أو الكتاب الرصيين، أو ربما لتلك الأقلية من طلاب الجامعات الذين مازالوا يفكرون ويتأملون ويتجرأون ·

تدرجت الفنون الاسلامية وتطورت مع العمارة الاسلامية منذ أن بزغفجر الاسلام، وتدرجت وتطورت وسايرت عصوره المختلفة · ولذلك رأينا أن لكل عصر طابعا خاصا به ، كما رأينا أن هذا الطابع أو هذا النسق سواء كان فى العمارة أو فى الفنون فى كل عصر غنيا أو متواضعا ، ولكن تسوده روح واحدة تنسب الى عصره · ولم يكن هذا الطراز أو هذا الطابع مقتصرا على ناحية واحدة من نواحى الحيـــاة ، بل كان متداخلا شاملا فى شتى النواحى الأخرى · نرى هذا الطابع فى الطرز المعمارية ، نراه فى الأسواق منعكسا على شتى النواحى الاجتماعية الأخرى ، نراه ف الملابس والألوان ، فى الأدوات المنزلية والمفروشات والمنسوجات ، فى الأدوات الكتابية وأدوات الزينة ، نراه فى الحفلات والاجتماعات العامة والخاصة واحياء الموالد والاحتفالات الدينية ، نراه فى الدور والقصور وفى القاعات الشرقاية الاسلامية وفى كل كبيرة وصغيرة ·

ومما لا شك فيه ، أن الحياة الاسلامية كانت غنية بمظاهرها ، تشع البهجة بألوانها المتناسقة الجميلة السارة التى تبعث على الهدوء والروحانية والطمأنينة وسمو الخيال، من حولها الناس قصورها الشعراء وتغنوا بجمالها ، ونظموا فيها قصائد خالدة من الشعر · كما عشق العرب الشعر وادب بدورهم ، فسطروا أبياتا رقيقة من الشعر على حوائط مساكنهم وعلى أدواتهم المنزلية وملابســـهم وأدوات الزينة ، محافظين على تقاليدهم وعاداتهم وطرزهم ومستلزمات حياتهم ، من متاع وترف شرقى فى الفنون والآداب استمر أكثر من اثنى عشر قرنا ·

وبصورة عامة تتميز الفنون الاسلامية بصفة تجريدية كانت سببا فى بروز الاتجاه الهندسى فى جميع زخارفه ، كما سادها بوجه عام ميل الى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية ، فعمد الفنان المسلم الى تحوير التماثيل ، بعكس الفنان اليونانى أو الرومانى الذى كان يبحث عن المثل وعن المادة التى يسلتهم منها وحيه فيما حوله من الطبيعة · ومع كل ذلك نرى أن كتب التاريخ تزخر بوصف رائع لما كانت تحويه قصور الخلفاء والملوك من تماثيل ومن صور حية ·

أنشأ خمارويه بن أحمد بن طولون قاعة بقصر أبيه ، طلى حوائطها بالذهب ولصق تماثيل خشبية ملونة مذهبة له ولحظاياه (١) ومغنياته ، كما اعتنى بحدائق القصر ،

(١) أثر الفنون فى الحياة الاسلامية
للمرحوم حسـن عبد الوهاب

وكسى جذوع النخيل بالنحاس المذهب ، وجعل بين النحاس وأجسام النخيل مزاريب من الرصاص كى يخرج منها الماء فينساب الى الفساقى الرخـــام وكذلك كانت قصور الفاطميين غنية بشتى الفنون العربية الاسلامية ٠

فكانت الحوائط اما تكسى بالحصير الدقيق النسيج ، أو بقطع نادرة من السجاد أو باستعمال زخارف متعددة بكسوة من رخام مطعم بالصدف ٠ ثم وجد صنف آخر من زخارف الحوائط فى العصر العثمانى بالاضافة الى زخارف الرخام ، وهى زخارف البوية المائية أو الزيتية مشابهة الرخام ٠ كما كانت تكسى الحوائط أيضا بالقيشانى الموازييك المزجج الدقيق الصنع ٠

أما الأرضيات فقد اتخذت من الرخام الملون الدقيق الصنع بأشكال جذابة تفوق السجاد رونقا وجمالا تتوسطها الفساقى الجميلة ذات النافورات الرخامية المفرغة تحيط بها صعف من الرخام عليها زهريات وتحف ثمينة ٠ وكذلك الحال بالنســبة للاسقف فاتخذت على أشكال جميلة ذهبت ولونت فى انسجام وتوافق تام الشبابيك ذات الزجاج الملون الجميل الصنع ٠

واذا ما تحدثنا عن تجارة الأبواب والشبابيك والأثاث فنجد أنها لا تقل أهمية ودقة فى صناعتها والعناية بها ٠ فقد وضعت الدواليب فى سمك الحوائط من الخشب المجمع وبأشكال هندسية مختلفة ، بعضها مطعم بالسن والبعض الآخر بالأويمة أو تكسى بالنحاس بأشكال هندسية زخرفية ، وكانت تكسى قطع الأثاث وتطعم بالفضة والسن والأبنوس أو النحاس ٠

وكانت الزخارف سواء منها ما كانت تصـــنع على قطع الأثاث أو الحوائط أو أدوات الزينة اما زخارف محزوزة أو زخارف منزلة بالفضة ، تمثل عناصر نباتية أو صورا آدمية وحيوانية ٠

فالزخرفة بالحز كانت مألوفة قبل الاسلام وبعده وهى أبسط الطرق وأسـهلها لزخرفة التحف المعدنية ٠ أما الزخرفة بالتنزيل أو التكفيت فتتلخص فى حفر الزخارف على السطح المراد زخرفته حفرا عميقا ، ويملأ الجزء المحفور بالفضة أو الذهب أو أى مادة أخرى وسيأتى شرح ذلك تفصيلا فيما بعد ٠

كانت مصر تستورد الخشب من الخارج ، والأخشاب المحلية مثل خشب النبق وخشب الجميز تحتاج الى الوقت الكافى لكى تجفف تماما ، وأن البلاد مفتقرة الى

الأنواع الجيدة من الخشب . فكانت تستورد من لبنان خشب الارز والصنوبر ، ومن السودان تستورد الأبنوس ، ومن الهند خشب الساج ، فلكل هذه الاسباب فكر الصانع العربي فى طريقة الحشوات والتجميع ولدينا روائع كثيرة من هذه الأمثلة منها تابوت الامام الشافعى مصنوع من الخشب الساج الهندى على هيئه منشور مستطيل يعلوه جزء هرمى الشكل . وجميع جوانبه مغطاة بحشوات منقوشه بزخارف نباتية دقيقة الصنع ، وهذه الحشوات تكون فى تالفها معا اشكالا هندسية من نجوم ومثلثات . والأجزاء الحابسة لهذه الحشوات — السدايب — محلاة هى الاخرى بخطوط متوازنة محفــورة .

ومن التحف الرائعة التى جمعت بين الخط الكوفى والخط النسخ وزخـــارف الحشوات البديعة الصنع المحفور عليها زخارف نباتية بينها عناقيد العنب ، والتى تدل فى طريقة الحفر والتجميع على مهارة ودقة الصانع المصرى وعن مدى درجة التفوق التى وصل اليها فى هذه الصناعة ، هو تابوت المشهد الحسينى ، الموجـود بالمتحف الاسلامى بالقاهرة . وكتب الينا مؤرخوا الاندلس بوصف رائع للتحف الأندلســـية المصنوعة من الخشب مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ومقصورته ، ومنبر الزهراء ، ومنبر جامع أشبيلية ومقصورته ، ومن هذا الوصف الدقيق يتضح لنا مدى ما وصل اليه هذا الفن من تقدم فى العصر الاسلامى .

يقول بن غالب فى وصف منبر جامع قرطبة أنه « من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والغود الرطب والمرجان ، وأوصاله وحشواته من الفضـة المثبتة المنيلة ، وارتفاعه تسع درجات ، وذراعاه من الأبنوس » أما منبر جامع أشبلية فيقول فيـــه « .... من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ، مرصعا بالصندل ، مجزعا بالعاج والأبنوس ، يتلألأ كالجمر بالأشغال وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال فى عمله من الذهب الأبريز يتألق نورا ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدورا » .

وهذا الوصف ينطبق علىمعظم المنابر والمقصورات للمساجد الاسلامية الكبرى، وعلى القطع الخشبية التى نحتت عليها زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس مفصصة متداخلة فيما بينها ، ولون هذه الزخارف بألوان خضراء وزرقاء وغيرها من الألوان فى تنسيق وتوافق .

● **المينا على الزجاج :**

نجح العرب فى أن يرفعوا من شأن الزجاج ويضفوا عليه جمالا لم يكن له من قبل ، فمنذ أن اهتدى الانسان الى صنع الزجاج فى العصور القديمة لم تتغير طريقة صنعه وصناعته أو حتى طريقة زخرفته · وسار العرب فى أول الأمر على النهج الذى كان مألوفا من قبل باستخدام نفس الأساليب التى كانت معروفة · ولكن العرب كانوا يحبون العطور الطيبة ، كالرسول الكريم الذى كان يعتنى بالطيب فضلا عن أن العرب كانوا علماء فى الكيمياء ، السبب الذى من أجله كانوا فى أشد الحاجة الى الاوانى الزجاجية لاستخدامها فى التجارب وتعبئة المواد والسوائل · لكل هذا اهتم العرب بهذه المادة البراقة النقية الرونق ·

وتقدمت صناعة الزجاج فى الاسكندرية والفيوم والفسـطاط ، كما أثبتت ذلك الحفائر الأثرية وأن الطرق التى ابتكروها فى زخرفته هى التهذيب والترصيع بالميناء · فانتشرت الطريقة الأولى وهى التهذيب فى العصر الفاطمى ، كالأوانى الزجاجية المملوءة بالذهب الموجودة الآن بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ·

أما الطريقة الثانية وهى الترصيع بالميناء فظهرت لأول مرة فى العصر الأيوبى ، ثم انتشرت فى العصر المملوكى · وتتلخص هذه الطريقة فى رسم الزخارف بالميناء على الزجاج · والمينا هى عجينة تتكون من أكاسيد مختلفة تسحق مع قطع صغيرة من الزجاج ، ثم تخلط بمادة زيتية ثم تتحول الى محلول بواسطة الحرارة فى درجة معينة، وتختلف ألوانها باختلاف الأكاسيد التى تستعمل فيها ··· وترســم الزخارف بهذا المحلول ، فاذا ما جف بدأ بارزا بروزا خفيفا على سطح الاناء · وفى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، وفى جميع متاحف العالم أوانى وقوارير جميلة تفصح بشكلها المتناسق وزخارفها الجميلة بالمينا عن سمو الذوق الفنى للصانع العربى وعن جمال الفن الاسلامى وروعته ·

● لم يكن للخزف قيمة تذكر فى العصور القديمة قبل الاسلام ، وذلك بسبب حب المسئولين على رعاية الفنون باستخدام الأوانى المعدنية من الذهب والفضــة ، وبالتالى لم يهتموا بالأوانى التى تصنع من الفخار ، ولما جاء الاســلام حرم البذخ والتغالى فى استعمالات أدوات الزينة والأوانى المصنوعة من الذهب والفضة ، مما كان لهذا التحريم أطيب الأثر فى العناية بصناعة الخزف وابتكار أنواع جديدة لتحل محل الأوانى المعدنية · فظهر لأول مرة الخزف ذو البريق المعدنى فى الراق فى القرن

التاسع الميلادى • وانتقل الخزف العربى من مرحلة تقليد الخزف الصينى الى مرحلة الابتكار وابراز الشخصية الفنية العربية • وانتشر هذا النوع الجديد من الفن الخزفى بين العراق موطنه الأصلى الى مصر حينما دخلها بن طولون ، ووصلت صناعته الى درجة ممتازة من الرقى فى العصر الفاطمى •

وتعرض لنا أوانى الخزف الفاطمى لوحات رسومات أشخاص وطيور وحيوانات، وزخارف نباتية وهندسية ، وكتابات بالخط الكوفى الجميل • فضلا عن مناظر للرقص والموسيقى والصيد ومناظر من الحياة اليومية الاجتماعية كالمبارزة بالعصى ــ التحطيب ــ والمصارعة ومناقرة الديوك وغيرها • وقد سجل الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، الذى زار القاهرة أيام الخليفة المستنصر بالله ما يأتى :

« يصنعون بمصر الفخار من كل نوع ، لطيف وشفاف ، حتى أنه يمكن أن ترى باطن الاناء اليد الموضوعة خلفه • وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبرانى والصحون والأوانى الأخرى وتزين بألوان تشبه النسيج المعروف باسم البوقلمون ، وهو نسيج تتغير ألوانه باختلاف وسقوط الضوء عليه » • ونجد فى كنائس مدينة بيزا بايطاليا أوباقا من الخزف القاهرى ذى البريق المعدنى حملها معهم بعض السائحين الى مصر ، وثبتوها على حوائط الكنائس اعتزازا بها كلوحات وتحف فنية جميلة •

ثم أصيبت هذه الصناعة بنكسة عندما احترقت مصانع الخزف فى الفسطاط ، حينما أغار عليها الصليبيون عليها • وبسقوط الدولة الفاطمية وظهور الدولة الأيوبية التى حاربت المذهب الشيعى ، السبب الذى من أجله رحل الكثير من الفنانين والخزافين الى ايران ، حيث ظهر هذا الفن الجديد ، فن صناعة الخزف فى أواخر القرن السادس الهجرى •

● وفى العصر الأيوبى اهتمت الدولة الاسلامية بهذه الصناعة ، وظهر نوع جديد منها ، عرف باسم الخزف الأيوبى ، الذى امتاز برقة الطينة وجمال التزجيج ، ذا أرضية خضراء وزخارف سوداء ورسومات بديعة لأفرع نباتية يتخللها أشكال جميلة للطيور والحيوانات حيث ينسب الى القرن السابع الهجرى ــ ١٣ م ــ فى القاهرة نوع جميل من الخزف عجينة بيضاء ترسم عليه الزخارف بالأسود تحت طلاء زجاجى أخضر أو أزرق أو بنفسجى ، وأحيانا ترسم فيه الزخارف بألوان متعددة من الأحمر والأزرق والأسود تحت طلاء شفاف • تتألف زخارفه من رسومات آدمية مثل لقاء شخصين فى قارب شراعى ، أو لقاء حول شجرة ، أو شخصا ممسك بكأس ، أو عازفا على الهارب Harp ، أو فارس ممطيا جواد ، فضلا عن رسومات للطيور والحيوانات تتمتع

بقسط وافرمن المرونة والحركة · ومن الرسومات الجميلة من الخزف الموجود فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رسم للسيدة العذراء تسند السيد المسيح عليه السلام ، ولهذه القطعة بقية محفوظة بمتحف بناكى فى أثينا تمثل صورة قديسين وفوقهم ملائكة مجنحة ·

● أما الخزف فى عصر المماليك فكانت زخارفه من رسومات لصور حيوانات ترسم بالأسود والأزرق تحت طلاء زجاجى شفاف على أرضية من زخارف نباتية قريبة من الطبيعة ، متأثرا بذلك التأثير الايرانى · حيث هاجر كثير من الفنانين والخزافين من ايران والعراق الى الشام ومصر أثناء حرب المغول مع المماليك ·

وظهر نوع آخر من الخزف فى العصر المملوكى المتأثر بالخـــزف الايرانى فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى متأثرا بالبورسيلين الصينى المزخرف بالأزرق على أرضية بيضاء ، حيث نجد فيه زخارف مقتبسة مثل رسم التنين والعنقاء ـ الرخا ـ ورسومات لحيوانات وطيور ونباتات مائية مرسومة طبقا لقواعد الطراز الصينى ·

كذلك ظهر نوع من الخزف الشعبى أرخص وأكثر استعمالا وهو الفخار المطلى بالمينا المتعدد الألوان ، وكان كثير الاستعمال فى المطابخ والحاجيات اليومية · ويتكون بدن الأوانى فى هذا النوع من طينة عادية من الفخار حمراء أو سوداء اللون ، تغطيها بطانة بيضاء ترسم فوقها الزخارف بالمينا الملونة · وتحدد الرسومات بخطوط تحز فى بانة الاناء ، وقد تكون هذه الخطوط المحزوزة بلون عسلى قاتم يحدد الزخارف ثم يعلو هذه الزخارف طلاء زجاجى شفاف · وقد يحدث فى بعض الأوانى أن تكشط الأرضية تحت طبقة الطلاء الشفاف ، وقد تنفذ بعض الزخارف البارزة بعجينة طلاء زجاجى ملون ، أى بطانة سائلة بطريقة القرطاس (١) أو القمع ، وقد نجح الخزافون المصريون فى هذا النوع فى استخدام خامات رخيصة لانتاج تحف ذات جمال خاص للاستعمال اليـــومى ·

وتزدان هذه الأوانى من الفخار المطلى بأشكال مختلفة ، بعضها تشـــبه قرص الشمس وأشرطة وجدائل وزخارف نباتية متشابكة قد ترتب أحيانا على شكل هرمى ، كما تزخرف أحيانا برسومات لحيوانات أو طيور من أنواع مختلفة ، وفى حالات قليلة برسومات آدمية بعضها يمثل صيادا على جواده أو بحارا يمسك بمرســـاة قاربه أو مجالس شراب أو طرب · وتمثل الكتابات مكانا بارزا فى زخاف هذا النوع من العصر

---

(١) دور القاهرة الحضارى ـ الخزف ·
للاستاذ عبد الرؤوف يوســـف ·

المملوكى بالخط الثلث الجميل أو بخطوط سريعة تشتمل على عبارات دعائية لصاحب الآنية أو أسماء أصحابها وألقابهم ووظائفهم ٠

● وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى بدأت صناعة الخزف المصرى فى الاضمحلال نظرا لأن البورسلين الصينى غمر الأسواق المصرية بكميات كبيرة أقبل الناس على شرائها ، وخاصة بعد الضعف الشديد الذى أصاب هذه الصناعة المصرية ٠ وتدهورت هذه الصناعة بعد الفتح العثمانى التركى سنة ١٥١٧ م وأخذت مصر تستورد الخزف من آسيا الصغرى ٠ يرجى أن تنظر الصور والرسومات واللوحات للأوانى الخزفية ٠

دور القاهرة الحضارى ٠٠٠ وصناعة الخزف :

ازدهرت صناعة الخزف فى مصر منذ بداية العصر الاسلامى وزاد الاهتمام بهذه الصناعة فتقدمت فى سبيل الرقى منذ أصبحت مصر دولة مستقلة فى عهد الطولونيين وصارت عاصمتها تنافس حاضرة الخلافة فى بغداد ، وقد ظهر فى هذا العصر نوع من الخزف المصرى يتميز بالزخارف البارزة المطبوعة بالقاب وبالطلاء الزجاجى ذى اللون الأخضر والمتعدد الألوان وتزخرف أوانى هذا النوع رسوم طيور وحيوانات وزخاف هندسية ونباتية وكتابات كوفية بسيطة ، وقد وصلنا اسم أحد صناع هذا النوع وهو « أبو النصر البصرى » وكان يوقع على أوانيه بعبارة (عمل أبو نصر البصرى بمصر) ٠ وقد وصلنا توقيعه على صحن مقسم الى مناطق ٠ ويضم المتحف البريطانى صحنا صغيرا من هذا النوع نقش عليه بيت من شعر أبى تمام نصه :

اذ استعنت بصبر أعقبت فرجا لا تيأسن وان دامت مطالبيه

كذلك وجدت فى مصر كما وجدت فى الشام والعراق أجزاء من أوانى خزفية بزخارف بارزة يغطيها طلاء مذهب تظهر فيه محاكاة الخزافين للاوانى الذهبية والفضية التى كانت تستعمل عند الرومان والفرس وتقتصر رسوم هذا النوع على الزخاف الهندسية والنباتية والكتابات ٠ وتؤرخ هذه الأنواع المبكرة من الخزف المصرى ذات الزخارف البارزة بالقرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد ٠

خزف ذو بريق معدنى الفضة ـ والذهب :

كذلك أسهمت مصر مع باقى أقطار العالم الاسلامى فى انتاج الخزف اللامع ذى البريق المعدنى وهو ابتكار اسلامى خالص غير مسبوق ، لم تعرفه الحضارات السابقة

على الاسلام ولم يهتد اليه الصينيون رغم علو شأنهم فى ميدان الخزف والبورسيلين. وترسم زخارف هذا النوع ذى البريق المعدنى بأكاسيد معدنية فوق طلاء الاناء بعد حرقه للمرة الأولى ثم يعاد حرق الاوانى مرة ثانية بعد زخرفتها لتثبيت الزخارف وأعطائها اللمعان والألوان المطلوبة . ويحتاج هذا الأسلوب صناعة الخـــزف الى مهارة ودربة كبيرة للسيطرة على حرارة القرن أثناء تثبيت هذه الزخارف وانضاجها. وقد يستخدم فى هـــذا النوع مركبات مختلفة التكوين لاعطـــــاء لونين أو ثلاثة لزخارف الاناء .

ويمتاز الخزف الطولونى بصغر حجم أوانيه فنجد منها صحونا وكؤوسا وقدورا مزخرفة بطلاء معدنى يغلب عليه اللون الزيتونى على أرضية بيضاء عاجية اللون .

وتشتمل زخارفه على رسوم حيوانات أو رسوم آدمية مبسطة مثل رسم أمير جالس على العرش أو رسم صياد يمسك رمحا وتبدو زخارفه النباتية محورة عن الطبيعة وتجاور مكملة بعضها بعضا وتشبه زخارف الجص التى نرأها فى الجامع الطولونى ، كما تزين بعض الاوانى كتابات كوفية لبارات دعائية منها :

« بركة لصاحبه » و « توكل يكفيك » .

خـــزف الفاطميين :

وبمجىء الفاطميين الى مصر وتأسيسهم عاصمتهم القاهرة فيها (٣٥٨ هجرية ـ ٩٦٩ ميلادية) ازدهر هذا النوع من الخزف المصرى ذى البريق المعدنى ازدهارا كبيرا واستمر ازدهاره طوال حكمهم أكثر من قرنين من الزمان . ولذا راجت هـــذه الصناعة وتعددت أشكال الأوانى وتنوعت زخارفها وظهر عدد كبير من أساتذة صناعة الخزف فى هذا العصر وساعد على ازدهار هذا النوع الفاخر من الخزف المحاكى للاوانى الذهبية الرخاء الاقتصادى الكبير الذى نعمت به البـــلاد فى عصر الدولة الفاطمية . ويكفى للتدليل على رواج هذه الصناعة أن الدولة فى العصر الفاطمى كانت تفرض مكوسا على أحمال الوقود التى كانت تستخدم فى مصانع الخـــزف وكانت تعتبر هذه الضرائب من المواد الهامة للدولة .

وتعرض أوانى هذا النوع من الخزف الفاطمى لوحات لرسوم آدمية وحيوانات وطيور وزخارف نباتية وهندسية فضلا عن كتابات بالخط الكوفى الجميل . وكذلك مناظر للرقص وللموسيقى والشراب والصيد ومشاهد من الحياة الاجتماعية واليومية

مثل رسم لجمال وكلبه والمبارزة بالعصى (لعبة التحطيب) ومشاهد للمصارعة ومناقرة الديوك وغيرها . وتلعب الزخارف النباتية دورا هاما فى زخرفة كثير من الأوانى وتقتصر زخرفة بعضها على هذه الرسوم النباتية دون غيرها فنجد فيها أمثلة جميلة شائقة لزخارف الأرابسك . ومن العبارات التى زينت بعض الأوانى بالخط الكوفى المورق والمزهر (أى المزخرف بأوراق نباتية وازهار) نجد عبارات دعائية وأقوالا طريقة مثل ، « نعمة شاملة وبركة كاملة وسعادة متواصلة .. » و « من خفى طرفه تم ظرفه » والمقصود أن جمال الحديث يكشف عن صفات صاحبه و « من حرم الوفا أمن الجفا» أى من حرم الاصحاب أمن شر الهجر والجفاء . كما نقش على احدى قطع الخزف من أسلوب الخزاف الفاطمى سعد بيت من الشعر فى العتاب نصه :

أغلقت باب السود دون تعطف
وتركت باب الهجر لى مفتوحا

مسلم وسعد :

ويتزعم خزافى هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى اثنان من مشاهير الخزافين أحدهما هو أبو القسم مسلم بن الدهان وتؤرخ منتجاته هو ومدرسته من أواخر القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى وثانيهما (سعد) والأرجح أنه عاش وعمل فى فترة متأخرة عن مسلم فتؤرخ منتجاته هو ومدرسته من أواخر القرن الحادى عشر وشطر البير من القرن الثانى عشر بعد الميلاد، وذلك لما يبدو فى أسلوب المدرسة الثانية من تطور ملحوظ عن أسلوب مسلم ومدرسته وقد استمر انتاج هذه المدرسة حتى أواخر الدولة الفاطمية . وقد لفتت هذه الأوانى الخزفية ذات البريق المعدنى أنظار الرحالة المسلمين والأوربيين الذين زاروا القاهرة فى هذا العصر . وقد سجل الرحالة الفارسى ناصرى خسرو الذى زار القاهرة فى عصر الخليفة المستنصر بالله فقال :

« ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع وهو لطيف وشفاف حتى أنه ليمكن أن ترى من باطن الاناء اليد الموضوعة خلفه . وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبرانى والصحون والأوانى الأخرى وتزين بألوان تشبه ألوان النسيج المعروف باسم البوقلمون » وهو نسيج تتغير ألوانه باختلاف سقوط الضوء عليه ، وكذلك نجد فى كنائس مدينة بيزا بايطاليا اطباقا من الخزف القاهرى ذى البريق المعدنى حملها معهم الرحالة والمسافرون الى بلادهم وثبتوها فى جدران الكنائس اعتزازا بها كلوحات وتحف جميلة .

خزافون من العصر الفاطمي :

وقد تأثر بأسلوب مسلم مجموعة كبيرة من الخزافين وصلتنا أسماءهم على بعض منتجاتهم .ومن هؤلاء الخزافين من تتضح صلته بمسلم من توقيعه معه معه على نفس الاناء مثل جعفر البصرى والشامى ومنهم من ينتسب اليه مثل مترف أخو مســـلم، وتربط الباقى بمسلم صلات واضحة فى أسلوب صناعة أوانيهـــم وزخارفها وألوان طلاءاتها المعدنية ... وقد وصلنا أيضا من خزافى المدرسة الفنية الثانية أسماء بعض صناع الخزف مثل رائق أو (رافق) بن الساجى ويمتاز أسلوبه باستعمال لونين معا هما الأخضر الزيتونى والبنى يرسم بهما زخارفه بخطوط غليظة نوعا ولكنها تشهد له بالمهارة والتمكن فى صناعته .

ومن أنواع الخزف الأخرى فى العصر الفاطمى نوع معاصر لمدرسة سعد تحفـر فيه الزخارف أو تحز فى بدن الاناء تحت طلاء زجاجى شفاف أو ذى لون واحد . ويزخرف هذا النوع رسوم مختلفة من آدمية وحيوانية وزخارف نباتية وكتابات كوفية . وفى بض القطع من هذا النوع استعمل الخزاف فى زخرفاتها عدة أساليب صـناعية منها التضليع والحز أو الحفر تحت طلاء من لون واحد . وقد صنع الخزاف من هـذا النوع من الخزف ذى الطلاء الزجاجى ذى اللون الواحد تماثيل صغيرة تمثل آدميين أو حيوانات وطيور ، وقد يشكل مقبض الاناء مثلا أو غطاؤه على هيئة تمثال . ويزخرف الطلاء الزجاجى لبعض هذه القطع بخطوط وبقع سائلة أو مرشوشة باللون الأزرق أو الأخضر أو البنفسجى .

خزف ينسب لمدينة الفيوم (خـــزف الفيـوم)

من أنواع الخزف المصرى نوع يزخرف بأسلوب البطانات الملونة بالألوان الأبيض والأخضر والأزرق والاصفر وتزينه رسوم بسيطة تتألف من أشرطة تنتفى فى مركز الأطباق أو تزخرف القدور طوليا وقد تتألف من هذه الأشرطة أشكال هندسية بسيطة . ويشيع فى زخارف هذا النوع البقع المرشوشة أو المنثورة تغطى سطح الاناء أو يؤلف منها أشكال هندسية أيضا ، هذا فضلا عن رسوم مبسطة نباتية وحيوانية وتنـدر فيه الرسوم الآدمية ويزخرف بعض الأوانى كتابات كوفية لطيفة لعبارات دعائية منها (بركة كاملة) وغيرها . وقد استمر انتاج هذا النوع فى مصر مدة طويلة من القرن التاسع فى العصر الطولونى الى القرن الثالث عشر الميلادى فى عصر المماليك . وقد عثر على كسر وأوان من هذا النوع فى منطقة الفيوم فأطلق عليه اسم خزف أو فخـار

الفيوم لهذا السبب ٠ والثابت أنه عثر على أوان من هذا النوع بكميات كثيرة فى حفائر الفسطاط والأرجح أنها كانت مركزا هاما لصناعته خلال هذه الفترة الطويلة٠

وينسب الى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فى القاهرة نوع جميل من الزخرف عجينته بيضاء ترسم فيه الزخارف بالأسود تحت طلاء زجاجى أخضر أو أزرق أو بنفسجى ، وأحيانا ترسم فيه الزخارف بألوان تحت طلاء شفاف ٠ ونطلق على هذا النوع لاتقان صناعته ورقته اسم (الخزف الدقيق الصنع) وتتألف زخارفه من رسوم آدمية ومنها رسم شخصين فى قارب شراعى أو لقاء شخصين حول شجيرة مبسطة أو شخصا يمسك كأسا أو عازفا على آلة الهرب) أو فرسان على ظهور الخيل هذا فضلا عن رسوم حيوانات كالأرنب والغزال ترسم محوره ولكنهـا تتمتع بقسط وافر من المرونة والحركة وذلك بالاضافة الى كتابات كوفية ونسخية ٠ ومن العبارات التى ترد على هذا النوع من الخزف (الجد الصاعد والاقبال الزائد والدهر المساعد) وكذلك (العز الدائم والعمر السالم والدهر المسالم) ٠٠ ومن الرسوم الآدمية المشهورة فى تحف هذا النوع من الخزف فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رسم السيدة العذراء تسند السيد المسيح ولهذه القطعة بقية محفوظة بمتحف بناكى بأثينا تمثل صور قديسين وفوقهم ملائكة مجنحة ٠ والحق أن هذا النوع الأخير من الخزف المتعدد الألوان متأثر فى رسومه الآدمية وألوانه بالخزف الايرانى من النوع الميناثى فى القرن ١٢ ـ ١٣ م ٠

خزف مرسوم تحت الطلاء من عصر المماليك :

وقد وصلنا نوع آخر من الخزف المصرى فى عصر المماليك كانت زخارفه من الرسوم الحيوانية ترسم بالأسود والأزرق تحت طلاء زجاجى شفاف على أرضية من زخارف نباتية قريبة من الطبيعة ، وتشبه هذه الرسوم والزخـارف خزف مدينتى سلطاناباد وقاشان فى ايران ٠ وترجع هذه التأثيرات الايرانية على أنواع خـزف القاهرة فى القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر الميلاديين الى هجرة الصناع من ايران والعراق الى الشام ومصر أيام غزوات المغول الكبرى التى دمرت مدينة الرى سنة ١٢٢٠ ميلادية ومدينة تاشان سنة ١٢٢٤ وخربت الرقة سنة ١٢٥٩، والى كثرة الوافدين الى مصر أثناء حروب المغول مع المماليك وغاراتهم على العراق والشام ٠ وقد حمل هؤلاء الخزافون الوافدون معهم أساليبهم الفنية فى صناعة الأوانى وزخرفتهـا ٠

وبالاضافة الى هذا النوع من خزف العصر المملوكى المتأثر بخزف ايران نجد

نوعا آخر من الخزف يظهر فى القاهرة منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادى متأثرا بأوانى البورسيلان الصينى المزخرف بالأزرق على أرضية بيضاء وكانت تستورد منه كميات كبيرة فى عهد أسرة « مينْج » (١٣٦٨ ـ ١٦٤٤ ميلادية) ٠ فنجد فيه زخارف مقتبسة من البورسيلان مثل رسم التنين والعنقاء (الرخ) ورسوم حيوانات وطيـور ونباتات مائية مرسومة حسب الطراز الصينى ٠

الخـزاف غيبى ومدرسته :

ومن أشهر خزافى العصر المملوكى الذين نرى فى أسـلوبهم تأثرا بزخارف البورسيلان (غيبى بن التوريزى) ٠ وقد تأثر بأسلوبه كثير من الصناع الذين وصلتنا أسماؤهم على بعض انتاجهم ٠ ويقابل هذه المجموعة من الخزافين مجموعة أخرى يتضح فى رسومهم استمرار الزخارف الاسلامية التقليدية سواء المعروفة منها فى مصر أو ايران ، مثل المناطق الزخرفية المثلثة المتشعة من المركز التى تزينها رسـوم نباتية وخطوط هندسية متكسرة وكتابات نسخية ، أو رسم حيوان مفترس ينقض على حيوان آخر أو زخارف نباتية متشابكة (أرابسك) وغير ذلك ٠ وقد وصلنا كثير من أسمائهم على بعض انتاجهم مثل شيخ الصنعة والمعلم وغزال وقطيطة وفليفل وخادم الفقراء وابن الملك ٠ وتلاحظ فى أسماء بعضهم انتسابهم للشام وايران مثل الشامى وعجمى وربما كان ذلك بقصد ترويج منتجاتهم وذلك لشهرة هذين البلدين فى صناعى الخزف ، وقد نجد فى توقعات الخزافين ما يشير الى تمكنهم فى صناعتهم وأستاذيتهم فى هذا الفن ٠ ونلاحظ أيضا أن صناعة الخزف هذه مثل غيرها من الصناعات فى العصر الاسلامى كان يتوارثها الأبناء عن آبائهم ٠

فخـار مطلى بالميناء الملونة :

كذلك ظهر فى العصر المملوكى نوع متميز من الخزف يطلق عليه مؤرخو الفنون الفخار المطلى بالميناء المتعددة الألوان ٠ والحقيقة أنه نوع شعبى كان أرخص وأكثر استعمالا من الخزف الرقيق السابق ذكره وكان يستعمل فى الحاجات اليومية وفى المطابخ ، فنجد على بعض أوانيه عبارات تبدأ « عمل يرسم المطبخ المعمور ٠٠ » ثـم اسم صاحب الاناء مسبوقا بما كان يلقب به من ألقاب ٠ ويتكون بدن الأوانى فى هـذا النوع من طينة فخارية عادية حمراء أو سوداء اللون تغطيها بطانة بيضاء ترسم فوقها الزخارف بارزة بالميناء الملونة (البطانات) وتحدد الرسوم بخطوط تحز فى بطانة الاناء ، وقد تلون هذه الخطوط المحزورة بلون عسلى قاتم يحد الزخارف ثم يعلو هذه الزخارف طلاء زجاجى شفاف ٠ وقد يحدث فى بعض الأوانى أن تكشط الأرضية حول

الزخارف التى تبدو بارزة ذات لون أغمق أو أفتح من لون الأرضية تحت طبقة الطلاء الشفاف ، وقد تنفذ بعض الزخارف البارزة بعجينة (طلاء زجاجى ملون أى بطانة) سائلة تضاف بطريقة القرطاس أو القمع • وقد نجح الخزافون فى هذا النـــوع فى استخدام خامات رخيصة عادية لانتاج تحف ذات جمال خاص للاستعمال اليومى • ومن أوانى هذا النوع نجد صدريات (أوانى كبيرة مستديرة) ذات جدران مقعرة نصف كروية وسلطانيات عميقة مخروطية الشكل أو كروية لها قواعد مرتفعة وأطباقا وغيرها من الأوانى ، وكذلك الشمعدانات الضخمة والمسارج الصغيرة •

وتزدان هذه الأوانى من الفخار المطلى بأشكال هندسية مختلفة بعضها تشبه قرص الشمس وأشرطة وجدائل وزخارف نباتية متشابكة قد ترتب أحيانا فى شـــكل هرمى ، كما تزخرف أحيانا برسوم حيوانات وطيور من أنواع مختلفة ، وفى حالات قليلة برسوم آدمية بعضها يمثل الصياد بالبارز على جواده أو البحار يمسك بمرساة قاربه أو مجالس شراب أو طرب • وتحتل الكتابات مكانا بارزا فى زخارف هذا النوع من الخزف المملوكى ، وهى تدون بخط الثلث الجميل أو بخطوط سريعة وتشتمل على عبارات دعائية لصاحب الآنية أو أسماء أصحابها مصحوبة بألقابهم ووظائفهم ، واحيانا رنوكهم أو شاراتهم •

شرف الأبوانى صـــانع الفخـار :

وأشهر صناع هذا النوع من الأوانى الفخارية المطلية بالمينا فى هذا العصر « شرف الابوانى » والراجح أنه عمل فى عهد الناصر محمد بن قلاوون • ويوقع هذا الخزاف على بعض أوانيه بصيغ مختلفة مشتقة من اسمه ومن هذه التوقيعات (عمل شرف بابوان) التى تظهر على انتاجه المبكر الذى عمله فى مدينة ايوان بلدته الأولى كما يتضح من كلمة (بايوان) • وايوان هذه بلدة بالصعيد لا زالت تعرف باســـم (ايوان الزبادى) ولا يزال الصعيد وكثير من بلاده مشهورا بصناعة الأوانى الفخارية حتى اليوم وكلمة الزبادى نفسها الملتصقة باسم بلدة يوان تعنى الأوانى الخزفيـــة والفخارية • ومن المرجح أن شرف هاجر الى الفسطاط وعمل بها بعد أن ذاعت شهرته واشتد الاقبال على منتجاته وقد عثرنا على مئات القطع من انتاجه فى حفائر الفسطاط وأغلبها يحمل توقيعه منتسبا الى ايوان (عمل شرف الايوانى) مكتوبا بخط ثلث جميل وكثيرا ما يكتب اسمه فى عبارة طويلة يظهر فيها تواضعه المتناهى فيقول « عمـــل العبد الفقير المسكين شرف الايوانى غلام الناس كلهم » ولقد وصلنا كثير من أســماء صناع الأوانى الفخارية على انتاجهم مثل شيخ الصنعة وأحمد الأسيوطى والمصرى والقاهرى ومن الملاحظ أن أسماء بعضهم قد ظهرت أيضا على الخزف المملوكى • ومن

المرجح أن « المصرى » كان مصنعه بالفسطاط التى كانت تسمى (مصر) فى ذلك الوقت أما « القاهرى » فالأرجح أن مصنعه كان بالقاهرة نفسها ٠

على أن صناعة الخزف المصرى التى أفادت كثيرا من فن البورسيلين والسيلادون الصينى فى عدة عصور بدأت فى الاضمحلال فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى وذلك لأن الأسواق فى مصر غمرتها منتجات البورسيلين الصينى بكميات كبيرة وأقبل الناس على شرائها فأصبح من العسير على الخزفيين المصريين منافسة هذه التحف الجميلة الرخيصة الثمن ٠ ونلحظ هذا الضعف الذى أصاب صناعة الخزف ٠ ولقد زاد اضمحلال هذه الصناعة وتدهورها بعد الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ ميلادية ، وأخذت مصر تستورد الخزف من أسيا الصغرى ، ولكن هذه الصناعة لم تندثر تماما فى مصر بل كانت لها نهضة متواضعة فى القرن الثانى عشر (الثامن عشر الميلادى على يد خزاف عمل فى القاهرة هو (عبد الكريم الفاسى الزريع) ومن آثاره فى متحف الفن الاسلامىمشكاة مؤرخة سنة ١١١٥ ميلادية وبلاطات من الخزف تحمل اسمه وتواريخ صناعتها بين سنتى ١١٧١ ــ ١١٨٧ هجرية وغيرها فى بعض الآثار القائمة بالقاهرة من هذا العصر ٠

الخط العربى ٠٠٠ فن اسلامى بين العقيدة والابداع ٣/٦

واذا ما تحدثنا عن الفنون الاسلامية بصفة عامة ، لابد وأن نشيد هنا الى الخط العربى الذى اتخذ مكانه وحدد مكانته بين جميع الفنون الاسلامية المكملة للعمارة ٠ بل ويكاد أن يتبوأ مكانا ساميا ممتازا بلغ أوج الكمال ، ويتصدر جميع هذه الفنون ويتوجها ٠ فاتخذ الفنان العربى الخط العربى لغة خاطب بها وعبر بها عن ذوقه واحساسه الفنى ٠

والخط العربى له صور متعددة واستعلامات خاصة :

★ الخط النسخ : يستعمل فى الحياة اليومية للاغراض المختلفة ، وعلى الآثار والتحف ٠

ـ الخط الكوفي : وقد استمد اسمه من مدينة الكوفة بالعراق ، حيث كانت هذه المدينة تتصدر مراكز الثقافة العربية ، واستعمل فى كتابة المصاحف والتحف والآثار ٠

ـ الخط الثلث : وهو مشتق من خط كبير كان يعرف بالطومار (١) ، وقد سمى كذلك لأنه ثلث هذا الخط فى الحجم ٠

ـ خط التعليق المسمى بالخط الفارسى ، وخط الرقعة والخط الديوانى ، ابتدعهما الأتراك العثمانيون ٠

ويضم المتحف البريطانى مكتبة بها مجموعة للمخطوطات العربية تزيد على ستة آلاف مجلد تمتاز بمميزات فنية ، منها المصاحف المزخرفة والتى يرجع أجمل نماذجها الى القرنين السابع والثامن الهجرى ٠ زخارف نادرة باهرة ، موشاة بالذهب والألوان المختلفة البديعة المتجانسة ، تحيط بسورة الفاتحة ، ورءوس السور ، وعلامات على هوامش الصفحات على شكل أوسمة وشجيرات ، مع سمو فى الخط واضحا فى تمديد الحروف ، سميكا راسخا من أول الصفحة الى آخرها من غير أثر لاهتزاز فى القلم وهو مع ذلك متابع فى كل كلمة لأدق الأصول الخطية فى التناسب والتناسق ٠ كل ذات يملأ النفس روعة وتقديرا لتلك المهارة المخلصة التى أنطقها أولئك الفنانون العظماء الذين لم يدخروا وسعا فى ابتداع أنبل صورة بشرية يكتبون بها كلمات الله

ويضم المتحف أقدم المخطوطات التى ترجع تاريخها الى القرنين الثانى والثالث الهجرى من مصاحف مكتوبة بخط كوفى جميل على رق ـ اذ أن الورق وهو ابتكار الصين ، كان ذلك فى بدء دخوله فى البلاد الاسلامية ٠ حيث كان على أوروبا أن تنتظر ثلاثمائة سنة أخرى لمعرفة اختراع صناعة الورق ، والذى يعد مرحلة تاريخية فى تقدم الحضارة ٠ وكان العرب هم الذين نقلوه الى أوروبا بانشائهم مصانع للورق فى أسبانيا الاسلامية فى القرن الثانى عشر الميلادى ٠

ـ الفن الاسلامى ٠٠٠ بين العقيدة والابداع ٠٠

تقوم الحياة الاسلامية على أصول ثلاثة : القرآن الكريم والسنة النبوية والاجتهاد ٠ وتبدو فى الشريعة الاسلامية صور من التفاعل الخصب بين المصدرين الأساسيين والثابتين ـ وهما القرآن والسنة النبوية ـ وبين الاجتهاد ، وهو المصدر الثالث الآخذ فى الاتساع المستمر ، واليه يدعو المصدران الأساسيان ٠ واستطاع هذا

التفاعل أن يثرى الفكر التشريعى الاسلامى ، وهو يقابل القضايا والمشكلات التى يظهرها تطور الحياة ٠

وامتــــدت العنـــاية الى اللغـــة العــــــربية وعلومها وآدابها : ذلك لأن العربية ـ لسانا وقلما ـ هى لغة القرآن ، والرسول ، والذين حملوا الاسلام من مهده فى الجزيرة العربية ٠

ويجمع بين الاسلام واللغة العربية، أن لهما وسيلة تواصل أساسية هى «الكلمة»: فالقرآن كلام الله ٠ والسنة كلام الرسول وفعله وتقريره ٠٠ والأدب العربى كلام العرب٠ ومن أجل ذلك استمرت العناية « بالكلمة » قولا وخطا ٠ وكان أكثر التذوق الفنى ، فى مجال « الكلمة » شعرا ونثرا ٠

أما الابداع الفنى الاسلامى ـ بمفهومه الواسع ـ فهو لغة يحاول فيها الفنـان أن يعبر تعبيرا جماليا فى اطار عقيدته ٠

١ ـ ولهذا الابداع وسائل تواصل متعددة تجمع الكلمة والخط (فى استقامته وانحنائه) والشكل والحجم واللون والكتلة ٠

٢ ـ وتتنوع المواد التى يعالجها فتشمل الورق والجـلد والحجـر والمعـــدن والزجاج والفخار والخشب والصخر ٠

٣ ـ وتتنوع الآفاق التى يضمها لتشمل الكلمة المكتوبة والرقش (الزخرفة) والرسم والنحت والعمارة والفنون التطبيقية والصورة ٠

٤ ـ وتتنوع الحجوم التى يعمل فيها : من تخطيط مدينة كاملة الى مسجد وقصر وقلعة ، الى تصميم وتزيين كتاب أو حلية أو سلاح أو أداة من أدوات الحياة اليومية٠

ونحن مع الابداع الفنى الاسلامى فى متحف كبير ، تمتد قاعاته من اليـــابان والصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، وينتشر فى أفريقيا جنوبا وأوروبا شمالا ، ومنه الآن فروع فى العالم الجديد واستراليا حيث تستقر جماعات اسلامية نقلت معها أقباسا من هذا الفن ، وتضيف اليه ابداعا يحمل روح الاسلام ، وأن تأثر بدرجات متفاوتة بمؤثرات محلية سابقة أو معاصرة عالمية مكتسبة ٠

● بين المنابع والابداع +

ونستطيع أن نشبه الفن الاسلامى بمنشور ثلاثى متساوى الأضلاع :
الركن الأول من قاعدته هو الاسلام عقيدة وشريعة·
الركن الثانى هو الحضارات المحلية التى لقيها الاسلام فى مهده وانتشاره ·
والركن الثالث هو الحضارات العالمية التى عاصرت الاسلام وكان لها تأثيرها الذى تخطى مواطن نشأتها ·

أما القمة فتمثل الابداع الذى يستلهم أركان القاعدة ·

ان الابداع الفنى فى ذاته اجتهاد · ومحاولة تفسيره اجتهاد آخر · وبينما وجدت الدراسات التشريعية عناية كبيرة فى تأصيلها ، ووضع مناهجها ، فان الابداع الفنى الاسلامى لا يزال بحاجة الى مزيد من الاجتهاد : أولا فى الابداع ذاته ، وثانيا فى تفسيره ·

وتختلف مدارس تفسير الفن الاسلامى فى بيان الأهمية النسبية لكل من أركان القاعدة ومدى تأثر الابداع بكل منها · واذا كانت هذه المنابع متوفرة أمام الفنان فان عبقريته هى « القيمة المضافة » بحيث يصبح هذا الابداع مصدر الهام جديد مضافا الى المنابع · وبهذا يبدو الحوار الدائم : أولا فيما بين أركان القاعدة ، وثانيا بين الأركان والابداع فى اضافته المتجددة ، وتتطور معه صورة المنشور الثلاثى الى رباعى يصبح فيه الابداع – الذى تلقاه المسلمون بالقبول – ركنا رابعا فى القاعدة ومصدرا للالهام · وتظل قمة الابداع ترتفع باضافات جديدة ، لا تلبث أن تتحول الى تراث مضاف يغذى الابداع الجديد ·

والآن نصل الى مفرق طريقين فى هذا البحث :

أولا – أن نتخذ طريق الدراسة المقارنة بين مقومات وتطور المدارس الفكرية الثلاث فى دراسة أصول الفن الاسلامى : المؤثرات الاسلامية الذاتية ، والتراث المحلى (القومى) ، والتراث العالمى وحجم كل منها ·

ثانيا – أن نوجه أكبر الجهد الى تأصيل المؤثرات الاسلامية وردها الى أصولها فى العقيدة والشريعة مع افادتها من التراث القومى والعالمى · وهذا الاختيار الثانى هو الأقرب الى هدف البحث ·

وفى دراسة العقيدة والشريعة سنعمد الى الايجاز ليتسع القـــول للربط بين الأصول الدينية وبين الابداع عن طريق تحليل النماذج ٠

وهذا التحليل لن يزيد عن كونه « اجتهادا » فى التذوق والربط ٠ يبدأ أول أمره « فرديا » ، ثم ينقله النقد والتنقيح والاضافة الى أرض الحوار ، اذا كان فيه ما يستحق القبول ٠ وهذا هو المأمول ٠

● **العقيدة كمصدر الهام :**

١ ــ « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » هذه الشهادة هى مدخل الاسلام : أن تؤمن بالله وتصفه بما وصف به ذاته المقدسة فى كتابه ٠ فهو تعـــالى الموصوف بكل كمال المنزه عن كل نقص ٠٠ « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (الشورى : ٤٢ ــ ١١) ٠

وجاءت السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم ، وبها اجتنب المسلمون ــ وبخاصة فى بيوت الله ــ تصوير أو تجسيد الانسان والحيوان ، وحلت « الكتابة » مكانا رفيعا فى تمجيد الله ٠

٢ ــ ولقد خلق الله الكون فى نظام دقيق ٠ يقول تعالى واصفا ذاته : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» (السجدة ٣٢ ــ ٦ ــ ٧) ٠ والآيات كثيرة فى القرآن تدعو الى التأمل فى بديع صـــنع الله ٠

٣ ــ وخلق الله الانسان وجعله خليفته فى أرضه ، لم يأتها ليكفر عن خطيئة أب أول ٠ وأرسل اليه الرسل مبشرين ومنذرين ، ودعاه الى التأمل فى جمال الخلق ، وجعل هذا التأمل سبيلا الى الايمان ودعوة الى العمل الصالح ٠ وعمارة الحياة ٠ ووعده بالمثوبة على العمل الصالح ٠

فالعلاقة فى الاسلام بين الكون والانسان علاقة مودة ٠ يقـول تعالى « والله أنبتكم من الأرض نباتا » (نوح ٧١ ــ ١٧) ويصف الآخرة وجزاء المتقين فيها بقوله « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » (الأنعام ٦ : ١٢٧) ٠ والناس جميعا أخوة لأب وأم ٠ والانسانية كلها أسرة كبيرة مترابطة ، والتفاضـــل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ٠

● **الشريعة كمصدر الهـام :**

وتأتى الشريعة تفصيلا للعقيدة فى جوانب ثلاثة رئيسية : العبارات والمعاملات والأخـــلاق ٠

١ ـ فالصلاة عبادة شاملة ٠ وأقصد بالشمول أنها تسـتغرق حركة الجسـم واللسان والقلب والفكر ٠ وأنها تدعو الى النظام وروح الجماعة ٠ الجماعة الصغيرة فى انتظام صفوفها ٠ والأمة فى اتجاهها ـ حيث تكون ـ الى القبلة متخطية حـدود المكان والزمان : كيف ؟ لأن الصلاة صلة بين المسلم وربه ، وبين المسلم والرسول ، وبين المسلم والمسلم ٠ لك أن تقول بين المطلق والمحدود ٠ بين الأرض والسماء ٠

٢ ـ واذا كان خشوع الصلاة يغلب فيه عنصر السكون عند أداء الفرض الواحد، فان خشوع الحج يغلب فيه عنصر الحركة : الطواف ٠ السعى ، الدفع الى عرفات ٠٠ وهو عبادة تتجلى فيها روح الجماعة فى وحدة الملبس بثياب الاحرام ، ووحدة المكان والزمان فى أداء المناسك ٠

والمسلمون فى كل من الصلاة والحج يرسمون بأجسادهم « لوحات » تستقر مبانيها ومعانيها فى أعماقهم ٠ وتعود لتظهر هذا فى صور مجردة من الفن الاسلامى٠

٣ ـ والزكاة بدورها رباط اقتصادى واجتماعى وله نظامه الرياضى الدقيق ، وتتدرج أنصبة الزكاة ـ وفق قواعد شرعية معروفة ـ من الخمس الى ربع العشر ٠ وهى ليست عملية حسابية صماء ، ولكنها قاعدة لها جسم وروح ٠ يقول الله تعالى فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ٠ وصل عليهم ان صلاتك سـكن لهم » (التوبة ٩ : ١٠٣) ٠

وأنت تجد النظام الحسابى الدقيق ، مع الرحمة ، فى أنصبة المواريث والتوزيع الرأسى والأفقى للثروة فيها ! أعنى بين الأجيال المتتابعة ، وأفراد الجيل الواحد ٠

٤ ـ يبقى بعد هذا الصوم ، ولنذكر فيه صلة المسلم بالكون : شمسه وقمره ، وبخالق هذا الكون ، وتربية الضمير والرقابة الذاتية وهى أساسية فى أى عمــل ناجح ٠ والارتباط بين النفس والكرم فى أثناء الشهر ، وزكاة الفطر فى آخره ٠

٥ ـ فاذا انتقلنا الى المعاملات وجدنا فيها صورا أخـــرى من العدل والدقة والأمانة :

« والسماء رفعها ووضع الميزان · ألا تطغوا فى الميزان · وأقيمو الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » (الرحمن ٥٥ : ٧ ـ ٩)

هذه آية فى المعاملات تذكرنا بآية فى دقة خلق الكون والانسان :

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيهـــا من كل شيء موزون » (الحجر : ١٥ : ١٩) ·

٦ ـ وتأتى الأخلاق فى الاسلام متناسقة مع هذ. لله · ويكفى وصف الله لرسوله فى القرآن : « وانك لعلى خلق عظيم » · (القلم (٦٨ : ٤) ·

وبدا هذا الخلق بين المسلمين فى معاملة بعضهم بعضا ، وسعة أفقهم فى التعامل والتعاون مع غير المسلمين ما دام هؤلاء لا يؤذون الاسلام وأرضه وأهله · وحتى فى الحروب : للمسلمين أخلاقهم التى جاء بها القرآن ، وجاءت تطبيقاتها العملية فى حياة الرسول والذين معه والذين اتبعوه باحسان · وتجلى هذا فى حسن تقلبهم للحضارات الأخرى والافادة من التراث المحلى والانسانى · فالاسلام فى ذاته دين الفطرة : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها » (الروم ٣٠ : ٣٠) · فأى انتاج انسانى هو فى أصله من فضل الله ، ولا تثريب على المسلم أن يطلب وأن يتقبل الحكمة من أى مصدر ·

وفى هذه الدراسة نتناول ظاهرات وعناصر من الفن الاسلامى ، ونحاول ردها الى أصولها فى العقيدة والشريعة ·

● **التوضـــيح بالرســـم :**

كان النبى صلى الله عليه وسلم أميا ، لا يقرأ ولا يكتب · وفى هذا يقول الله تعالى :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون · بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظـــالمون » · (العنكبوت ٢٩ : ٤٨ ـ ٤٩) ·

ولكن فى بعض الأحيان استعان الرسول بالرسم على توضيح قوله : ويذكر الامام البخارى فى صحيحه الحـــديث التالى من رواية عبـــد الله بن مسعود :

« خط النبى صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط خطا فى الوسط خارجا منه، وخط خططا صغارا الى هذا الذى فى الوسط ، من جانبه الذى فى الوسط . وقال : هذا الانسان ، وهذا أجله محيط به . وهذا الذى هو خارج : أمله . وهذه الخطط الصغار : الأعراض ، فان أخطأ هذا ، نهشه هذا ، وان أخطأه هذا ، نهشه هذا » .

وكان فيهم أنس بن مالك فوصف فقال : «خط النبى صلى الله عليه وسلم خطوطا، فقال : هذا الأمل ، وهذا أجله ، فبينما هو كذلك اذ جاءه الخط الأقرب » .

● **التوضيح بالتشـــبيه**

وفى القرآن والحديث تشبيهات ملهمة . ولكل منها مراجع متخصصة ، ولكن الذى يعنينا منها ما استوحاه الفنان المسلم منها فى ابداعه ، ومن نماذجها قـــول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ... المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضىء ولم لم تمسسها نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » (النور ٢٤ : ٣٥) .

ــ » ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (ابراهيم ١٤ : ٢٤ ــ ٢٥) .

فالتشبيهات البعيدة عن التجسيد الانسانى والحيوانى ، والتى تحمل بشارة الخير من القرآن والسنة النبوية ، وجدت طريقها الى الفن الاسلامى ، كما سترى بعد قليل .

● **الخـــط العـــــربى**

ويرتبط أساسا بالقرآن الكريم : وكانت العناية به تجويدا فى النطق ، وتجويدا فى الكتابة ، وتطبيقا فى الحياة . وكان مما امتاز به الخلفاء الراشدون الأربعة ونفر من كبار الصحابة أنهم كانوا من « كتاب الوحى » .

ومع تطور الحياة الاسلامية اجتماعيا وسياسيا ، وزيادة العناية بكتابة المصاحف وانتشار الاسلام ظهر خطاطون كبار أبدعوا فى وضع قواعد الخط ومقاييسه الجمالية وظهرت المؤلفات التى تتناوله ، وهى عناية لا نجد لها نظير ــ بنفس الوزن ــ فى مجالات الابداع الفنى الاسلامى الأخرى .

واذا كان ارتباط الكلمة بالقرآن والخط قد أزهر كل **هذا** الابداع ، فان ظاهرة أخرى تستوقف النظر وهى ثنائية سنراها فى أكثر من مظهر من مظاهر حيـاتنا

فمهما تكن أنواع الخطوط العـربية فانها ترجع الى قسمين كبيرين : اليابس واللين · أو قل : المزوى « ذى الزوايا) والنسخى ذى الانحناءات · هل نذكر مـع هذه الثنائية ، ثنائية قرآنية نباتية : وهى « النخيل والأعنـاب » النخل اليابس · الأعناب اللينة ؟

ثم هذه المزاوجة بين الكلمة والنبات · فلكل منها ثمر · الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة · ألا يوحى هذا بالتوريق فى الخط ؟ وان تدخل الزخارف النباتية المصاحف · وجدران المساجد : فاذا كلمات الله مزهرة مثمرة ؟ (لوحة ١)

● ضوء على الزخارف النباتية

تناول الابداع الفنى الزخارف النباتية اليابسة والمنحنية كالنخيل والأعنـاب ـ كما سبق القول ـ · ومما يسترعي النظر كثرة الأوصاف النباتية فى القرآن الكريم، وان كانت دعوته الى التأمل فى الخلق جميعا : فى وصف الجنة وما أعد الله فيها للمؤمنين تقرأ الوصف النباتى غالبا ، كلمة « جنة » فى ذاتها ، والقرآن يتحدث عن نبات الجنة وظلالها وثمرها « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » (الانسان ٧٦ : ١٤) · ولا نكاد نقرأ وصفا لحيوان الجنة الا ما جاء فى طعام أهلها ·

كذلك نجد ما جاء عن ثمار الجنة فى القرآن الهاما للفنان المسلم : فبالاضافة الى النخيل والأعناب : التين · الزيتون · الرمان · الشجر والفاكهة بعامة · الزهر · السـنابل ·

ومن هـذه القاعدة انطلق الفنـان فى الحياة النباتية يحمل الى النفس أقباسا من ثمر العمـل الصالح فى الدنيا والآخرة ·

يقول الله تعالى فى وصف ثمر الجنة : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها · ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » (البقرة ٢ : ٢٥) ·

ونقف قليلا عند قوله تعالى « وأتوا به متشابها » يذكرون به ثمر الدنيا وليس منها · ألا يوحى هذا الى النفس اتجاها فى تحوير الرسم النباتى ؟ وحتى بعض الرسوم الحيوانية ، فاذا مجرد « وجه شبه » يربطها بالأصل ، ثم تنطلق منه لتحلق فى آفاق أخـرى · (لوحة ٢) ·

● وبدأ خلق الانسان من طين

نتأمل قول الله تعالى « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين · ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين · ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (السجدة ٣٢ : ٦ ـ ٩) ·

الآيات كلها فى موضع الفضل من الله والشكر من عباده · ومهين هنا ضعيف · ومع هذا الضعف اكرام من الله بأن نفخ فيه من روحه وجعل لنا السمع والابصار والأفئدة ·

ليس فى الآية أى « احتقار » للطين · فالله أكرم الانسان بقوله للملائكة : « انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (ص ٣٨ : ٧١ ـ ٧٢) ·

فبكرامة الخلق وكرامة العلم يرتقى الانسان من بدء ضعيف لا يكاد يرى ، الى كائن يعمر الأرض بابداعه ، ويحس فى هذا افتقاره الى الله واستمداده منه · من هذا البدء الضعيف : « الطين » جاء الأنبياء والمرسلون الذين تلقوا الوحى وأناروا الدنيا به · والاسلام يعلمنا « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات ٤٩:١٣)

ولنا أن نرجع الى سورة الحجرات ـ كنموذج ـ لنرى هذا الأدب القرآنى فى المساواة بين الناس والكرامة بالعلم والتقوى ·

وامتدت أيدى الفنانين المسلمين الى الطين والحجر وقطع الأخشاب والزجاج : مواد رخيصة الثمن ، كثيرة التداول ، وتناولها الابداع فأخرج منها آيات باقيات · تماما كما حدث فى كتابة المصاحف وزخرفة الكتب : ما رأس مال الخطاط وما أدواته ؟ عبقرية وأقلام وحبر وألوان وبعض أدوات يحملها بين يديه ·· وفى هذا يختلف الابداع الاسلامى عن حضارات أخرى اعتمدت على الذهب والفضة والجواهر الثمينة · ان حشوات المنابر قطع صغيرة من الخشب لكل منها ذاتيتها ، وطريقة « تعاونها » مع غيرها ، حتى يستوى المنبر على أعواده · (لوحة ٣) · وهنا نجد جانبا من الالهام الاسلامى فى اختيار مادة الابداع · وفى ابراز العامل الانسانى فيه· ومن هنا يبدو أن هذا الابداع أوسع وأعمق « انسانية » من كثير مما حفظ ويحفظ التراث الحضارى البشرى · أقرب التشبيهات الى ذهنى الآن لهذا الابداع هو الصناعات الالكترونية التى ترتفع فيها قيمة العامل البشرى : ابداعا ودقة وتطويرا· وتتراجع قيمة « المادة » التى يستخدمونها فى الصناعة ·

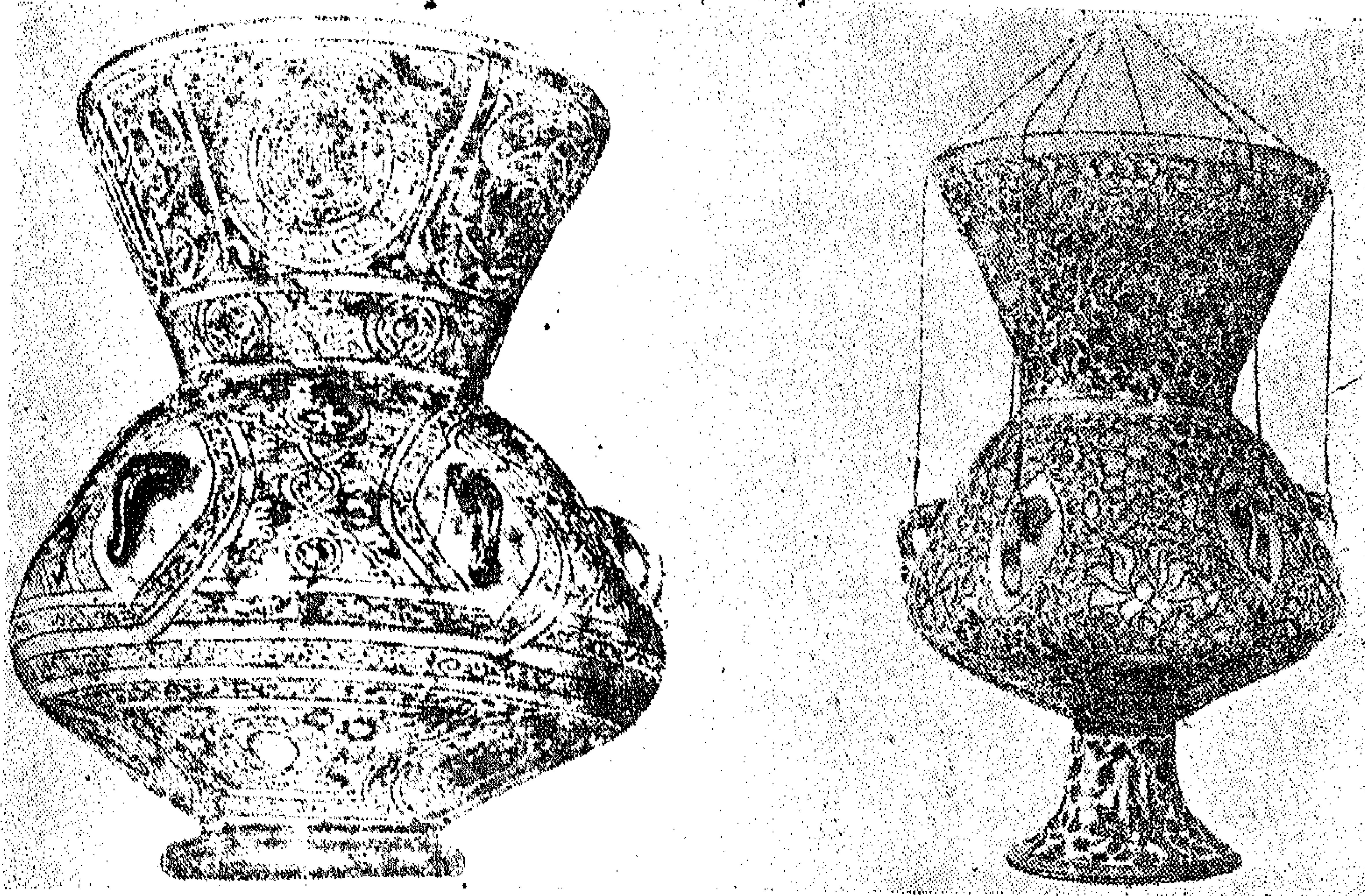
العصر الذهبى للخط العـــربى :

يعتبر القرن الثامن الهجرى ـ ١٤ ـ ميلادى هو العصر الذهبى للفن الاسلامى فى مصر · السبب هروب فنانى ايران والعراق من الغزو المغولى لبلديهما حيث لجأوا الى مصر · ومعهم ازدهر فن تكفيت المعادن بالذهب والفضة ، تبارى مماليك مصر فى اقتناء التحف الفنية هذه ·· أصبحت هواية ·· ازدهر أيضا الخط العربى المنقوش على هذه المعادن وأصبح « حيا » أى ينتهى رأس الحرف برسوم آدمية أو حيوانية أو نباتية ·

انحسر فن الخـــزف ذو البريق المعدنى فى عصر المماليك البحرية والجراكسة معا ·· الا أنهم اهتموا بالفخار الأحمر وكانت روانكهم شعار كل مملوك تزيين هـذه القطع الفخارية أشهر خزاف مملوكى اسمه غيبى بن التوريزى ·

ولأن العرب فاقوا شعوب الأرض بعلم الفلك الذى يتطلب دراية قوية بالعـلوم الهندسية لهذا انطبع فن الزخارف فى عصر المماليك بالأشكال الهندسية الرائعة التى تبدو واضحة فى الثريات مثل ثرية الأمير قوصون التى صنعها بدر بن أبى يعلا فى ١٤ يوما فقط « أربعة عشر » كما نقشها والتى تزن طنا واحدا وتزين قاعة « ٥ » فى المتحف الاسلامى ·

انتهى حكم المماليك البحرية وجاء المماليك الجراكسة أو البرجية ـ نسبة لاقامتهم فى أبراج القلعة فى عهد السلطان برقوق ·· احتفظ هؤلاء المماليك بازدهار الفنـون فى بداية حكمهم ولكن ·· حدث أن اكتشف الرحالة البرتغالى ماجلان طريق رأس الرجاء الصالح فى جنوب أفريقيا المؤدى الى الشرق الأقصى بلاد التوابل فتـدهور اقتصاد مصر وبالتالى بدأ بريق تكفيت المعادن بالنحاس بدلا من الذهب والفضة ·· اختفى الذهب فاستبدلوا بالعملة الذهبية أخرى نحاسية وتدهور حالهم أكثر فأكثر حتى عرف عصرهم فى نهاية حكمهم بالعصر النحاسى ·· مملوك واحد هو السـلطان الغورى حاول احياء الفنون مرة أخرى وأمر بصنع أثقل ثريا عرفتها وتعرفها مصر حتى الآن اذ تزن ٢½ طن وهى مصنوعة بزخارف « التخريم » وأشكال هندسية نجمية· أشهر مستشرق سجل برسوماته المرهفة مساجد وفنون مصر الاسلامية اسمه بريس دافن عاش فى حى الجمالية وحور سكان المنطقة اسمه الى ادريس أفندى غادر مصر (١٩٧٩) بعد أن ألف ٣ مجلدات ضخمة بهذه الرسوم ·



٢٩٩ ـ طبق من الخزف ذى الطلاء الابيض الرمادى، زخارفه زرقاء وسوداء مرسومة تحت الطلاء ، قوامه رسم طائر ـ أوزة ناشرة جناحيها ـ حوله زهور وفروع نباتية • صنع فى مصر فى العصر المملوكى •

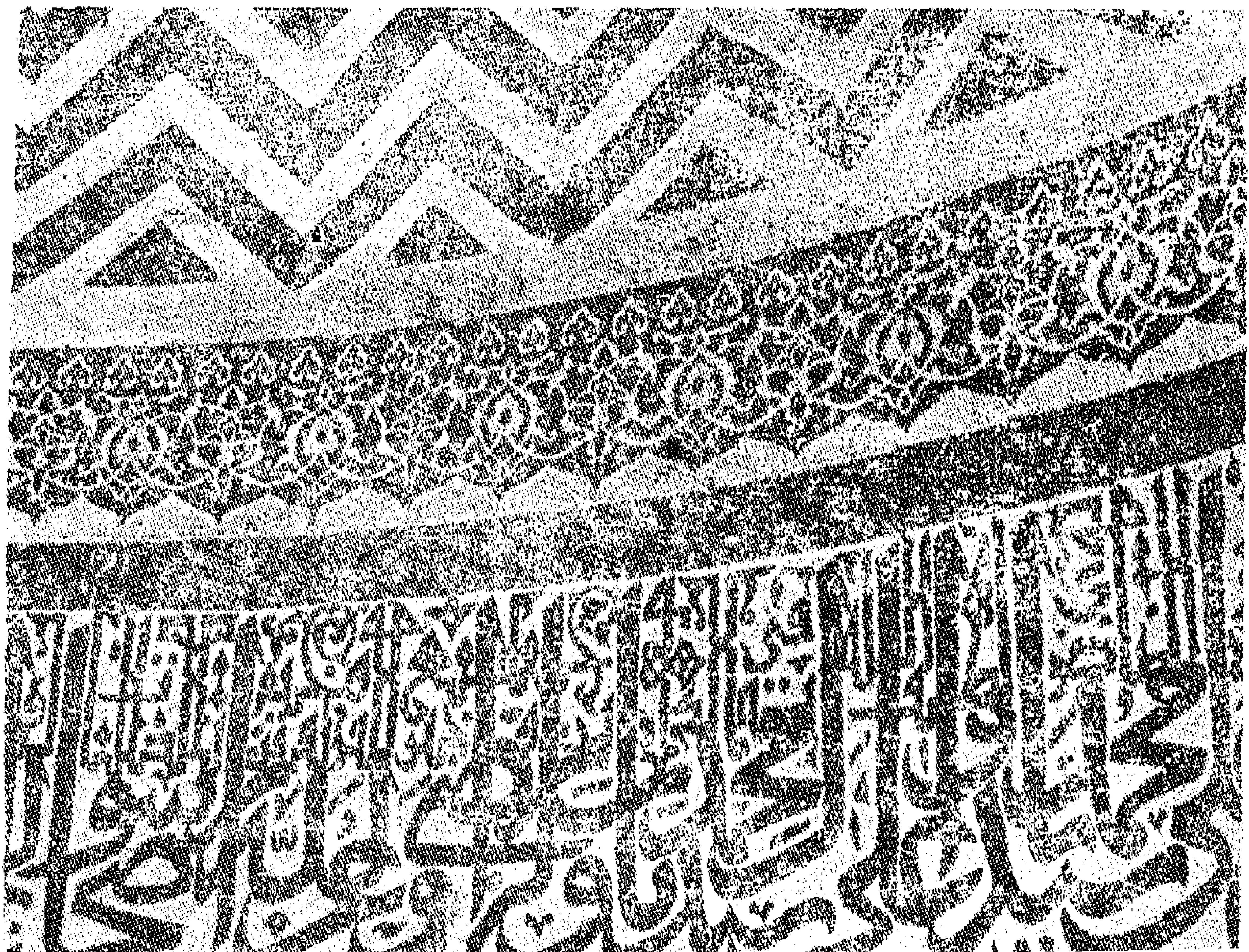
● كان للعرب فضل كبير فى ابتكار طريقة زخرفة الزجاج بالمينا ، حيث كانت صناعة الزجاج متقدمة فى الفسطاط والفيوم والاسكندرية وساعدوا على انتشار طريقة تكفيت المعادن التى بدأت فى ايران ، ومنها انتشرت فى جميع أنحاء العالم الاسلامى بسبب هجرة مال المعادن من ايران الى العراق أثر غارات المغول عليهم ، ومن العراق الى الشام ومصر • فكان للعرب أثر بالغ الشأن فى تطوير صناعة الاوانى المعدنية وزخرفتها بطريقة التكفيت ، وفى تطوير صناعة الزجاج وزخرفته بطريقة الترصيع بالمينا والتى ظهرت لاول مرة فى العصر الايوبى •

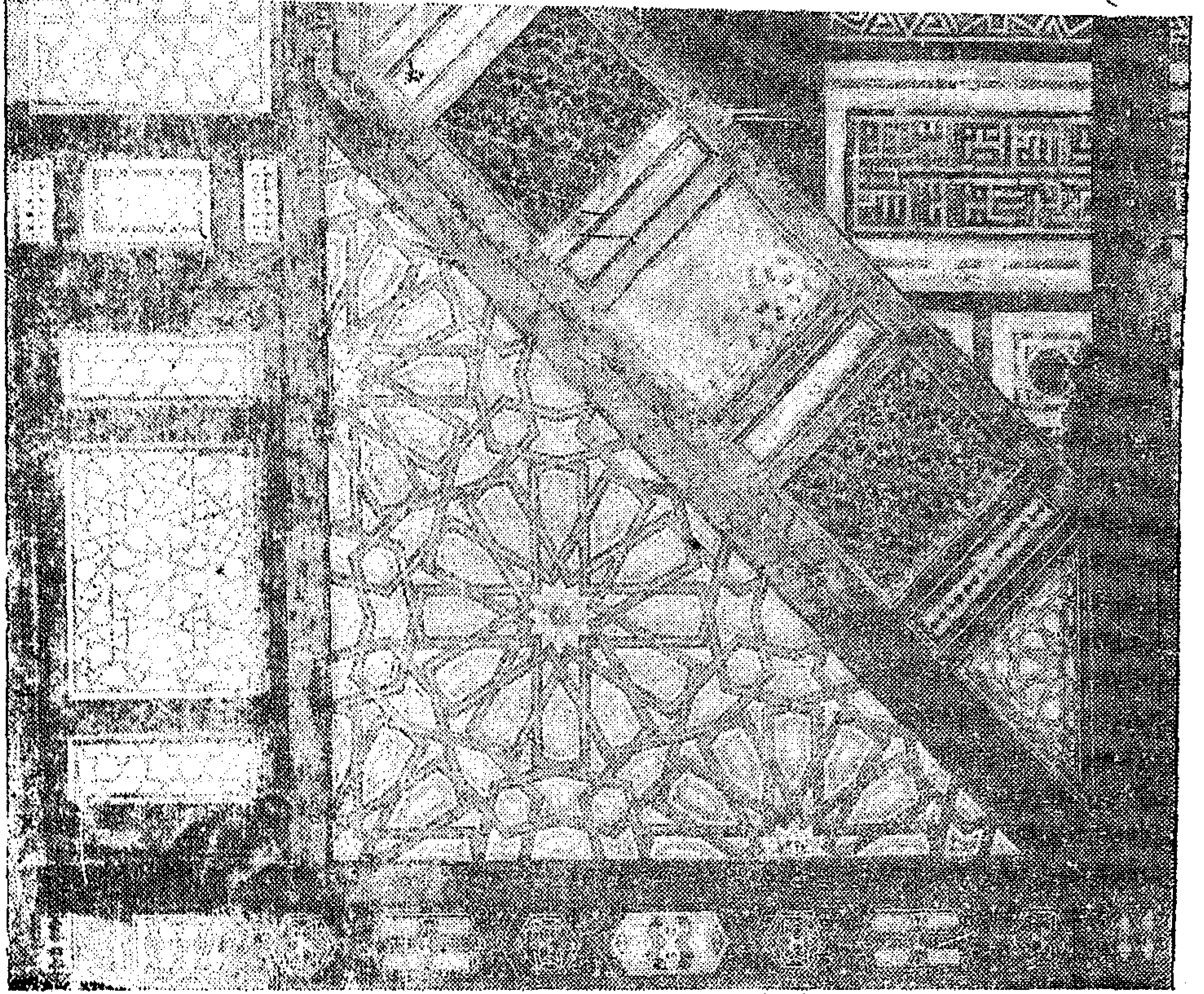
● ثم فكر الصانع العربى فى ابتكار صناعة جديدة لم تكن معروفة قبل الاسلام ، وكيفية الوصول الى طريقة يكسب بها الاوانى الخزفية بريقا محببا الى النفس • بدأ الخزاف العربى فى تقليد الخزف الصينى المستورد من الصين ، ثم انتقل من مرحلة التقليد الى مرحلة التجديد • وأنشئت المصانع فى الفسطاط حين أدخل هذا الفن أحمد بن طولون ، وجاء به من العراق ووصل الى ذروة مجده فى العصر الفاطمى • ثم اضمحلت هذه الصناعة بحريق الفسطاط ، وبسقوط الدولة الفاطمية • وفى عصر الدولة الايوبية التى حاربت المذهب الشيعى ، هاجر كثير من الصناع الى ايران ، حيث اهتمت ايران بهذه الصناعة •

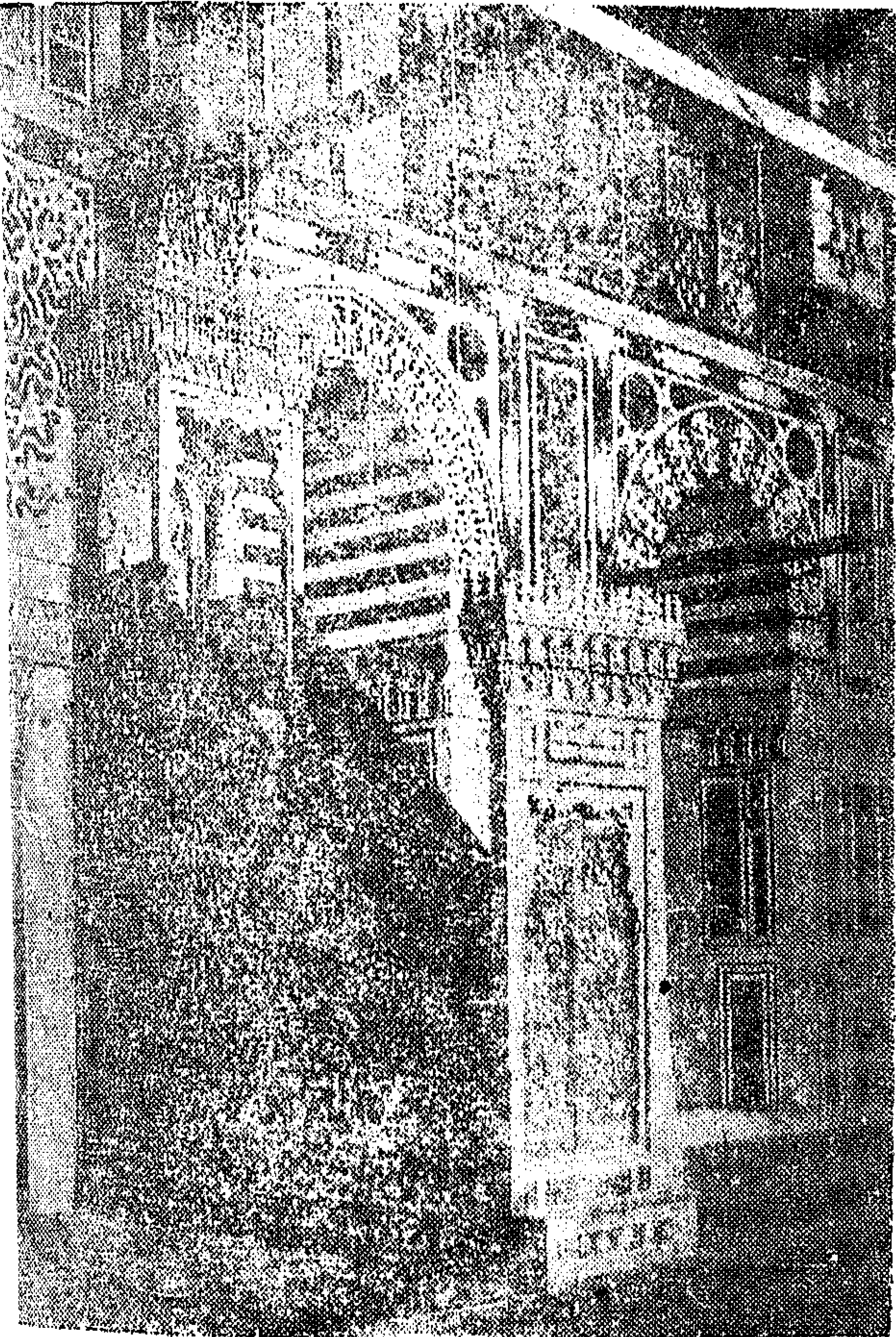


٣٠٠ ـ حشوات خشبية بالخط البارز لزخارف وتصميمات نباتية مختلفـــة من القرن الثـــامن بالقاهرة

٣٠١ ـ الخط العربى واســـتخداماته فى الآيات القرانيـــة ٠

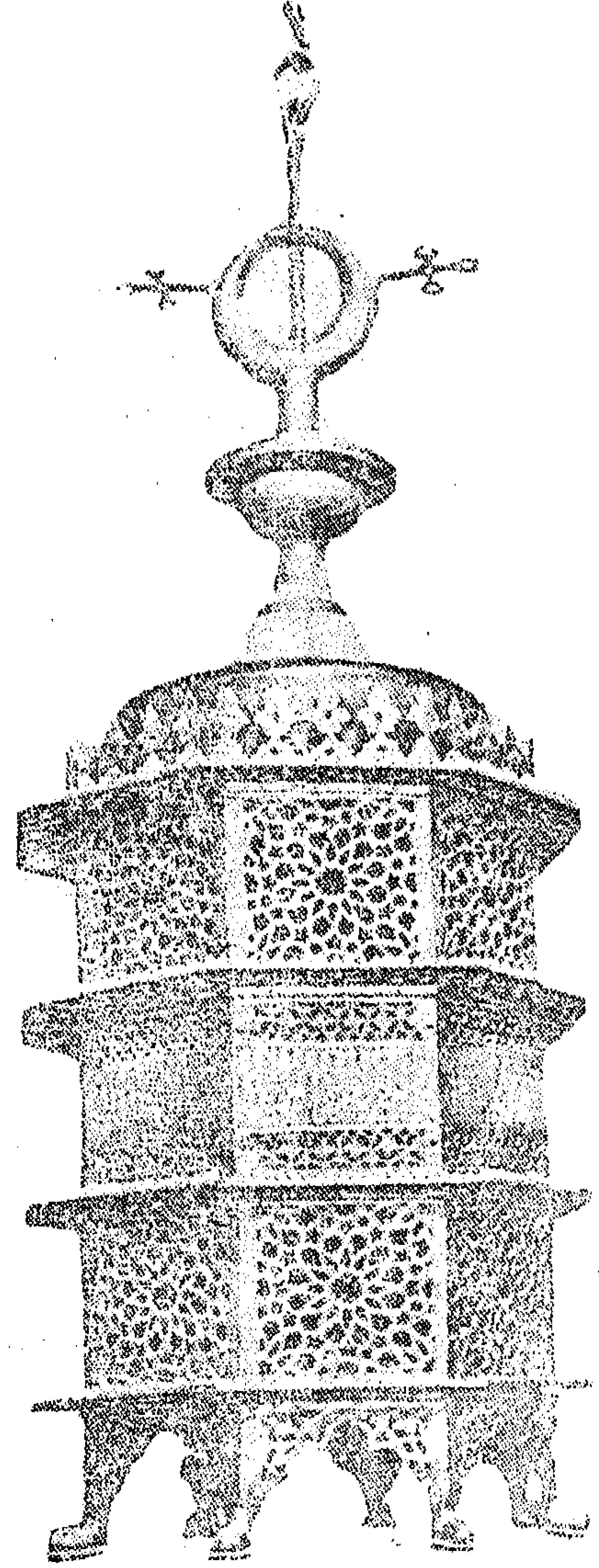






★ مسجد السلطان المؤيد / القاهرة

المنبر والمحراب بمسجد السلطان المؤيد بالقاهرة ـ القرن الخامس عشر ـ كانت مصر تستعمل الاخشاب المحلية ، مثل خشب النبق والجميز فى طريقة التجميع واستعمال الخشوات فى زخارف الاخشاب، كما كانت تستورد خشب الارز والصنوبر من لبنان ، والابنوس من السودان ، وخشب الساج المعطر من الهند ٠ وابتدع الصانع المصرى طريقة التجميع فى الخشب نحتت عليها زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس مفصصة متداخلة ، كما استعمل الفنان العربى طريقة تلوين هذه الزخارف بألوان خضراء وزرقاء وغيرها فى توافق وانسجام ٠



● كان لوحدة العقيدة أثر كبير فى وحدة التطور · فالعــرب يؤمنون بوحدانية الله · وفلاسفتهم يؤمنون بوحدة المعرفة والحقيقة· ووحــدة الدين والفلسفة ، والمعرفة والحقيقة متفقتان ، لان العقـل واحـد والحكمـــة والشريعـــة متفقتان لان الحقيقة واحـدة

● يؤمن الفكر العربى بوحدة العقل ووحدة النفس · وهو يؤمن بالوحدة ايمانه بالمساواة ، ويؤمن بالمساواة ايمانه بالحرية · وأى وحدة أقوى من وحدة اللغة ، ووحدة المشاعر ووحـــدة التاريخ ، ووحدة المثــل العليا ·

٣٠٤ ـ مصباح مصنوع من النحاس المطعم

٢٦٩ ـ مصباح مصنوع من النحاس المطعم بالذهب والفضة بالخط ولزخارف العربية الدقيقة الصنع ، المصباح يحمل اســـم السلطان قايتباى ·

● لم تكن لصناعة الاوانى الخزفية قبل الاسلام قيمة فنية تذكر ، غير أن هذه الصناعة نهضت فى العصر الاسلامى ، وخاصة الخزف ذو البريق المعدنى والذى ظهر لاول مرة فى العراق فى القرن التاسع · ثم انتشرت هذه الصناعة فى العالم الاسلامى كله ، ووصلت ذروتها فى العصر الفاطمى · كما امتاز الخزف الايوبى برقة طينته وجمــال تزجيجه وزخارفه البديعة الصنع ·

● وتابوت الامام الشافعى مصنوع من خشب الساج على هيئة منشور مستطيل يعلوه جزء هرمى الشكل ، وجميع جوانبــه الاربعة مغطاة بحشوات منقوشة بزخارف نباتين ، تكون فى تآلفها معا اشكالا هندسية من نجوم ومثلثات ، والاجزاء الحابسة لهذه الحشوات (السدايب) محلاة هى الاخرى بخطوط متوازية محفورة ، زادت هذا التابوت جمالا على جماله ·

لم يكن للفن الزخرفى فى بدء الاسلام أثر يذكر ، لأن المسلمين فى ذلك الوقت كانت لهم رسالة أهم وأكبر ، وهى نشر الهدى ودين الحق ٠ ولم تظهر الفنون الزخرفية الاسلامية الا بظهور عصر بنى أمية ، حيث كانت السيادة الفنية للفنانين السوريين الذين تأثروا فى زخارفهم بالفنون المسيحية ٠ ولما آلت الخلافة الاسلامية للعباسيين ونقلوا عاصمة الملك الى بغداد ، أصبحت السيادة فى العالم الاســــلامى للعراق وايران ، وبالتالى اتخذ الفن الاسلامى اتجاها غلبت عليه الصبغة الفارسية ٠ وقد بلغ الفـن الزخرفى أوج عظمته ومجده فى القرن التاسع الميلادى ، ثم ضعف حينما ضعفت الدولة العباسية ٠

● وبظهور الدولة الفاطمية ، حينما فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩م وجعلوها مقرا لخلافتهم ، عرف الصانع المصرى تزين المنسوجات بالزخارف المنقوشة فوقها أو المطبوعة عليها وانتشر هذا الفن فى مصر والشام وامتد الى جزيرة صقلية التى حكمها العرب وقتئذ ٠

ثم انتقل الطراز الفاطمى الى الطراز المملوكى أيام حكم الأيوبيين ، وظل مزدهرا فى مصر والشام أيضا من القرن الثالث عشر الى السادس عشر الميلادى ٠

واستمرت نهضة الفن الزخرفى سائرة فى طريقها الى أن قضى العثمانيون على المماليك وعلى الفنون فى مصر ، حيث هاجر كثير من الصناع والعمال والفنانين ورحلوا عن مصر ، وأصبح العصر التركى عصر ركود فنى ٠

● أما فى الأندلس ، فقد ازدهر الطراز الأموى الأندلسى الى القرن الخامس، بينما احتفظت المغرب بأساليبها القديمة الفنية الوثيقة الصلة بالفن الرومانى ، ولـم يتأثروا بالفن العباسى الا قليلا ٠

ولما استولى المرابطون على الحكم فى المغرب ، وامتد حكمهم الى أسبانيا ، ظهر الفن المغربى مختلطا بالفن الأسبانى حوالى القرن الخامس الهجرى ، وفى القـــرن الخامس الهجرى حكم المغرب الموحدون وامتد سلطانهم الى الأندلس ٠ وكان المرابطون والموحدون حلقة اتصال بين الفن فى المغرب وأسبانيا ، حيث كان الاتصال بين أسبانيا والمغرب مطلق وغير مقيد ٠ ومن هذا الاتصـــال تم الاختلاط بين الفنـــون الزخرفية الأندلسية والفنون الغربية ٠

وانتشرت فى الجزائر الأساليب التركية والأوروبية فى القرن العاشر ، واستمرت تونس تقاوم هذه الأساليب فترة طويلة لكى تحفظ بالفن المغربى ٠

● وحينما وطد المغول حكمهم فى ايران فى القرن السابع الهجرى ـ ١٣ ميلادى ظهر طراز مغولى وازدهر هذا الطراز بسقوط هذا الحكم واقامة الدولة الصفوية فى القرن العاشر الهجرى ، واختلط بالفن الأوروبى الغربى ، وكثر انتاج الملابس والأغطيــة والمفروشات المزركشة ٠

وبدراسة الفن الايرانى نجد أن موضوعات الزخرفة النباتية كانت تمثل الطبيعة من غير تحوير متأثرة بذلك بالفن الصينى ، الذى تسربت أساليبه الى الفن الاسلامى على يد المغول فى ايران وغيرها من البلاد الاسلامية الأخرى ووجدنا أن هذه الفنون قد ظهرت فى عصر النهضة فى أوروبا كما سبق شرحه فى الجـــزء الأول من تاريخ العمارة الاسلامية ، وسامارا حيث وجدت زخارف نباتية دقيقة وعناقيد عنب وأوراق نقلت عن الفن الاسلامى الايرانى ٠

وتظهر هذه الزخارف واضحة فى قبة الصخرة ، وسامارا ومنبر جامع القيروان بتونس ، وزخارف العقود والنوافذ فى ضريح السلطان قلاوون ، وفى الايوان الرئيسى لجامع السلطان حسن وفى أعمال الخزف والمنسوجات التركية ٠
وفى شبه جزيرة آسيا الصغرى، امتد سلطان العثمانيين الىأن وصل الى أواسط أوروبا والعراق ومصر والشام وبلاد العرب والمغرب من القرن الثامن الهجرى ٠ وقد انتشرت فى عصرهم المنسوجات المطرزة على الطريقة التركية ، ثم تأثرت بالطراز الأوروبى ثم بالطراز الركوكو ٠

● ان الطريقة التى كانت مستعملة فى زخارف الأخشاب منذ العصور السابقة على الاسلام لم تخرج عن التلوين أو الحفر ٠ أما طريقة التجميع ، أى اســــتعمال الحشوات فلم تظهر الا فى العصر الفاطمى حيث بدأت فى هذا العصر الحشوات كبيرة الحجم يصغر تدريجيا الى مساحة أقل من سنتيمتر مربع ٠ والحقيقة أن ذكاء الصانع المصرى ومهارته ، وعلمه بأن طبيعة جو البلاد من حيث الحرارة والرطوبة التى تؤثر على تمدد الخشب ، بالاضافة الى افتقار البلاد الى الأنواع الجيدة من الخشب ، كل هذه الأسباب جعلته يفكر فى طريقة يستعين بها على حل هذه المشاكل وعدم الوقوف جامدا أمام الطرق المورثة باستعمال طرق التلوين والحفر والتطعيم ، فابتدع طريقـــة التجميع ٠ يرجى أن تنظر الصور واللوحات والرسومات وأشكال ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ص ٣٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ٠

الفن الاسلامى فى العصر الأيوبى
للدكتـور عبد العــــزيز مرزوق

فن صـــناعة النســـيج :

ان صناعة النسيج بصفة عامة من الصناعات التى ازدهرت على أيدى العـرب فى العصور الوسطى ، والواقع أن التقاليد والعادات العربية الأصيلة كانت سببا مباشرا لهذا التقدم وذلك الازدهار ٠ ومن هذه التقاليد كسوة الكعبة الشريفة ، وعادة منح الخلعة ، وميل العرب الطبيعى الى التكثير من الثياب ، وتفضلهم للمنسوجات عند الاهداء ، والتصدق على الفقراء فى المواسم والأعياد وهذه العادات الأصلية العربية ما زالت موجودة حتى الآن ٠

ومما كان له أكبر الأثر وساعده على ظهور أنواع جديدة من المنسوجات لم تكن معروفة قبل الاسلام ، أن الحكومات العربية أنشأت «دور الطراز» أى المصانع الحكومية للنسيج تحت اشرافها المباشر ٠ هذه المصانع أو تلك الدور لعبت دورا هاما فى سـبيل هذا التقدم باعتبار أنها مؤسسات حكومية تملك من الوسائل والامكانيات المادية والمالية والفنية ما لا يتوافر لدى الأفراد الحصول عليه منها ٠

ومتحف الفن الاسلامى بالقاهرة به مجموعات على جانب كبير من الأهميـــة التاريخية لمنسوجات الأثرية التى استخرجت من حفائر الفســـطاط وعين الصيرة والبساتين ، ومعظمها نصوصا منسوجة أو مطرزة تتضمن اسم المدينة التى نسجت فيها ، وتاريخ النسيج ، واسم الخليفة التى نسجت فى عهده ، واسم الصانع ٠ وامتازت الفنون الاسلامية فى عهد المماليك بالزخارف الهندسية ذات الأشكال النجمية المتعددة الأضلاع ٠ وأتقن المسلمون هذا النوع وبرعوا فيه ، وابتكروا كثيرا من الزخـــارف المتفرعة منه ٠

وقد اضمحل نسيج الكتان فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك ، وزادت العناية التامة والاهتمام الشديد بنسيج الحرير وتطريزه وتزيين المنسوجات بالزخارف التى نراها على التحف الخزفية والمعدنية فى العصر نفسه٠ وقد كان انتاج الأقمشة الجميلة من أهم مميزات الفنون الاسلامية ، وكانت مصر وايران ، وهما من أهم البلاد التى قام على أكتافها الفن الاسلامى ، لهما منذ القدم شهرة واسعة فى انتاج المنسوجات ٠ فضلا على أن الأقاليم البيزنطية فى الشام وآسيا الصغرى كانت تضم قبل الاسلام مراكـز هامة للاقمشة تمتاز بالرسومات الجميلة ٠ أما مصر فقد كانت صناعة النسيج ظاهرة فيها منذ عصر الفراعنة ٠ ثم سارت في سبيل التقدم حتي جاء العصر القبطي ، فتأثرت

صناعة المنسوجات بتيارين فى الأساليب الفنية هما الاغريقية والساسانية · ثم فتح العرب مصر ، واعتمدوا فى أول الأمر على الصناع والفنيين المصريين ، وظهرت صناعة النسيج فى مصر بتطور ملحوظ ، ثم بدأ فى الاستغناء عن الرسومات الآدامية التى كانت منتشرة فى زخارف المنسوجات فى العصر القبطى وأخذت الكتابة الزخرفية النباتية الهندسية ، ورسومات الطيور والحيوانات تسود زخرفة الأقمشة فى مصر · وكذلك ذاعت شهرة الأقمشة الرومانية فى هيرودوت ، وكان أهل روما يدفعون الأثمان الباهظة للحصول عليها وعلى المنسوجات المصرية · ثم أقبل البيزنطيون على تمويلها ، وبلغت صناعة النسيج أوجها فى العصر الساسانى ·

والزخارف فى أكثر هذه القطع ، مكونة من مجموعات ودوائر وأشكال هندسية، وأخرى فيها رسوم حيوانات أو طيور أو فرسان فى الصيد متجاورة فى ترتيب هندسى بديع ، ويفصلها فى معظم الأحيان رسم شجرة محورة عن الطبيعة ترمز الى رمز شجرة الحياة · ولما انتشر الاسلام وانقضت فترة الزهد والتقشف التى سادت العالم الاسلامى فى بداية تاريخه ، بسبب كراهية الترف والملابس الحريرية ، لقيت صناعة النسيج تشجيعا خاصا فى جميع الأقاليم الاسلامية ، ولا سيما بعد أن انتشرت عادة الخلفاء والأمراء بمكافئة رجال الدولة بالخلع الثمينة والملابس الفخمة · وقد زاد نشاط التجارة فى الشرق الأدنى فى العصر الاسلامى · وكانت المنسوجات النفيسة تصدر من مصر وايران والشام الى سائر الأقاليم الاسلامية والى أوروبا والشرق الأقصى · والواقع أن المسلمين أنشأوا عددا كبيرا من المصانع الكبيرة للنسيج فى الأقاليم التى ضموها الى امبراطوريتهم ، حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير فىالعالم خلال العصور الوسطى · كما تدل كذلك أسماء بعض أنواع الأقمشة التى لا تزال باقية الى الآن ، والتى كان بعضها يستعمل فى العصور الوسطى · والمنسوجات التى كانت تسمى Damasks التى كانت مركز التجارة الاسلامية والتى كان الغربيون ينسجون اليها كثيرا من البضائع التى كانت تباع فيها أو مستورد منها ، مع أنها كانت فى الحقيقة تصنع فى أقاليم أخرى فى العالم الاسلامى · وكلمة Musline نسبة الى المصرى ، التى كان الايطاليون فى العصور الوسطى يستوردون منها الحرير ويسمونه Musline
وقد عرف العالم الاسلامى فى العصور الوسطى نظاما خاصا فى مصانع النسيج فقد كانت بسيطة ، وقد وصلنا قطع من المنسوجات المصنوعة فى مناسج حكومية أو فى الطراز كما كانوا يسمونه ·

كان هناك نوعان من مصانع النسيج أو الطراز ، الأول طرازا خاصا وكان لا يشتغل الا للخليفة أو رجال البلاط وحاشيته · والثانى طراز العامة وكان أيضا تحت رقابة الحكومة ، ولكنه كان يشتغل لأفراد الشعب فضلا عن بلاط الخليفة اذا دعت

الحاجة ، كما نجد خير نموذج له فى كتاب «الموشى» حيث يحتوى هذا الكتاب على قسم خاص بثياب المتأنقين والحلل التى يرتديها ذوو المناصب . ونعلم أن ثياب ذوى الفضل والشجاعة وأهل العلم ، تتألف من القمصان الرقيقة والقمصان العليظة المصنوعة من أنواع فاخرة من الكتان الناعم الصافى الألوان كالدبيقى والجنابى . .

ويعد من سوء الرأى ارتداء ثياب ذات ألوان قبيحة مصبوغة بالطيب والزعفران، كالملحم الأصفر والبيقى المدرج بالعنبر . لأن ذلك لباس النساء ، ولباس الراقصات والخادمات .

ويضف « الوشاء » مؤلف الكتاب كذلك ما ينبغى للنساء فى آداب الثياب ، ولعل أفضل ما يوضح لنا كيف أن بغداد كانت عاصمة عالمية فى حياتها ، هو تلك القوائم التى يذكرها للمنسوجات والتى تحتوى على قمصان دارابجرد فى بلاد فارس ، ومطارق سوس ، وجباب فرس والمنسوجات الاسكندرانية والخرسانية ، وعباءات عدن ، والنسيج الأرمنى المشهور ، والنسيج المشجر من الحرير والذهب فى سوريا ومصر .

ولفظ طراز مشتق من الكلمة الفارسية « طراز يدول » بمعنى التطريز أو النسج، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير أو السلطان التى نسجت فى عهده ، فضلا عن التاريخ وبعض الألفاظ الدعائية . ثم اتسع معنى الطـــراز فى اللغتين الفارسية والعربية حتى صار يطلق على المكان والمصنع الذى كانت تنسج فيه هذه الاقمشة . والراجح أن احتكار الحكومات لصناعة النسيج لم يبدأ فى الاسلام، وقد كان معروفا قبل ذلك فى مصر الفرعونية وفى ايران وفى آشور وبيزنطة . ومما كان يشجع صناعة النسيج فى العصر الاسلامى أن الخلفاء والأمراء كانوا يتبارون فى ارسال الكسوة الســنوية الى الكعبة من المنسوجات النفيسة التى كانت العناية بنسجها عظيمة جدا . ولم يكن غريبا أن يعنى الأمراء أو الخلفاء بكتابة اسمهم على تلك الاقمشة النفيسة تخليدا لذكراهم . وقد كانت تحمل هذه الأقمشة اسم البلاد التى صنعت فيها .

● النسيج فى مصر

المعروف أن الحكومة فى مصر كانت تراقب صناعة النسيج الأهلية مراقبة دقيقة، وكانت الأقمشة تختم بالخاتم الرسمى . ولم يكن يتولى البيع أو التجارة الا تجار تعينهم الحكومة ، وعليهم تقيد ما يبيعونه رسميا . وكانت المراكز الرئيسية فى النسيج هى فى مصر التى يكثر فيها الأقطان وكان القطن والكتان ينسجان فى البلاد المصرية المختلفة ، ولا سيما فى الدلتا فى مدينة البهنسة فى مصر الوسطى .

اما الاقمشة الحريرية فكانت تنسج فى الاسكندرية ، وكانت هناك مصانع للنسيج فى مدينتى اخميم وأسيوط كانتا مركزين عظيمين فى صـــناعة النسيج فى العصر القبطى ، وكثيرا ما صدرت الى مدينة بيزنطة وروما نفائس المنسوجات التى كانت تعمل فى الكنائس والأديرة ٠

وقد ظلت الزخارف القبطية غالبة على المنسوجات المصرية فى القرون الثلاثة الأولى الماضية أى من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى ٠ وخير دليل على ذلك قطع المنسوجات التى عثر عليها فى الوجه القبلى والفسطاط وهى من الصوف والكتان وزخارفها متعددة الألوان وأكثرها من الطيور أو الحيوانات أو أشكال آدمية بسيطة بأشكال بيضاوية الشكل أو متعددة الأضلاع أو موزعة توزيعا غير منظم ، وفيها أشكال هندسية وخطوط متقاطعة ودوائر مناسبة ، وتظهر الدوائر العربية فى القرن السابع٠ ويظهر بوجه عام أن طراز تصميم الزخرفة كان شريطا أفقيا أو أشرطة أفقية من الرسوم توازيها أشرطة من الكتابة فى بعض الأحيان ٠

● المنسوجات فى العصر الفاطمى

فى عصر الدولة الفاطمية كثر اهتمام الخلفاء بصناعة النسيج ، وكان وظيفته بأن المشرف على شئون النسيج فى البلاد لا يتولاها الا أحد كبار المواطنين المقربين للخليفة، وزاد الانتاج فى حسن نوعها ٠ وكانت هناك أصناف من المنسوجات الحريرية لا تصنع الا للخليفة نفسه ، وكثيرا ما كان الخلفاء والأمراء يأمرون بصناعة المنسوجات الحريرية الفاخرة لاهدائها الى غيرهم من الأمراء التى كانت تربطهم بهم العلاقات وحسن الجوار٠

وأنواع المنسوجات أربعة طبقا للعصور التى ظهرت فيها :

أولا ـ عصر المعز والعزيز والحاكم من ٩٦٩ ـ ١٠٢٠ م

كانت قوام الزخرفة فيها أشرطة من الكتابة ، وأشكال تتداخل فى بعض ، منها رسم حيوان أو طائر أو حيوانين أو طائرين متقابلين ٠

ثانيا ـ عصر الظاهر والمستنصر ١٠٢٠ ـ ١٠٩٤ م

زاد فى هذا العصر الاقبال على الأشرطة الزخرفية ، واتسعت وزادت وحدتها ، وكانت قوامها مناطق صغيرة فيها رسوم طيور وحيوانات محورة من الطبيعة ، وتحصرها سطور من الكتابة الكوفية المتعاكسة والفراغ بين الرسوم ٠

ثالثا ــ عصر المستعلى بالله والآمر بأحكام الله ١٠٩٤ ــ ١١٢٠ م

تطورت فيه الزخرفة فظهرت الى جانب العناصر القديمة عناصر أخرى جديدة مثل الأشرطة التى تتماوج وتتداخل بينها رسوم طيور أو فاكهة كما يظهر فى الكتابة والخط النســـخ ٠

رابعا ــ القرن الثانى عشر :

كانت فيه الكتابة دائما بالخط النسخ وفى هذا النوع أشرطة واسعة ٠

وبعد ٠٠٠ هذا السـجل وهـــذا التاريخ
سجل ضخم وأعمــال ضــخمة لماض عريق
تاريخ العمارة الاسلامية معناه تاريخ العرب
تاريـــــخ البشرية ــ تاريـخ الانســــانية

● ان عمالقة الأساطير الشرقية ومشيدوا قلاع وحصون وقصور صلاح الدين، ومصمموا مساجد السلطان حسن وابن طولون وسامارا وبابل والقيروان والفسطاط وقصر الحمراء وغيرها من تلك الأعمال الخالدة ليسوا بسحرة ، ولكنهم عمالقة ٠

رأينا من هذا العرض التاريخى المختصر ، الذى لا أدعى أننى وفيته حقه ، أن العرب هم الذين علموا الغرب كيف تكون الحضارة ، وكيف تكون العمارة ، وأن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ٠

● ورأينا أن الفكر العربى كان دائما وأبدا حارس للتجارب العلمية ٠ وجدنا أن كتب العرب فى الطب والطبيعة والكيمياء لا تقتصر على الأحكام الغيبية المجردة ، بل تشتمل على كثير من الملاحظات والتجارب ٠ فالأطباء يذكرون تجاربهم ، وعلمـــاء الطبيعة والكيمياء يقيمون التجارب ، واستخدموا العلم فى خدمة الانسان ٠ وقد أثبت التاريخ أن العــرب هم الذين وضعوا قاعدة التجربة أولا ثم الحكم ثانيا ٠ فطبهم تجريبى وفلكهم تحقيقى ، وهندستهم تطبيقية ، وكيميائهم عملية ٠

● كان لوحدة العقيدة أثر كبير فى وحدة التطور ٠ فالعرب يؤمنون بوحدانية الله ، وفلاسفتهم يؤمنون بوحدة المعرفة والحقيقة ٠ ووحدة الدين والفلسفة والمعرفة والحقيقة متفقتان ، لأن العقل واحد ٠ والحكمة والشريعة متفقتان ، لأن الحقيقة واحدة ٠

فهذه العقيدة هى المحرك الأساسى للفكر العربى فى ماضيه وحاضره · فهو يؤمن بوحدة العقل ووحدة النفس ، وهو يؤمن بالوحدة ايمانه بالمساواة ، ويؤمن بالمساواة ايمانه بالحرية ···· وأى وحدة أقوى من وحدة تقوم على وحدة اللغة ، ووحـــدة المشاعر ، ووحدة التاريخ ووحدة المثل العليا ·

قال أحد حكماء الغرب ، ان العرب أول من علم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين وقال غيره من علماء أوروبا ، ان العلوم التى كانت عند اليونان وغيرها مقبورة بين جدران الكتب ، مخزونة فى بعض الرؤوس كأنها أحجار ثمينة ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها صارت عند العرب حياة الأدب ، وغذاء الأرواح ، وروح الثروة وقوام الصناعة » ·

● ألا فليعلم الذين أصيبوا بمركب النقص ولا يزالون يعتقدون أننا لا نستطيع أن نجارى الغرب فى علومه وفنونه وصناعته ــ للهم بعد ذلك العــرض التاريخى أن يعرفوا ما كان عليه العرب فى ماضيهم وما وصلوا اليه بعد نهضـــتهم فى حاضرهم الأخيرة ، ولم يمض عليها الا سنوات قليلة من عمر الزمن يقدرون أنفسهم ، ويقدرون عروبتهم ، ويدركون قيمتهم وأثرهم فى التطور العلمى ·

لعلهم بعد ذلك أدركوا أو كادوا يدركون أنه اتسم تراثنا الفنى والثقافى بأربعة اتجاهات هى : وحدة فى الله ، الحرية والتســـامح ، النظر العقلى ، الاســـتيعاب والشمول ···· ان فى كيان الدول العربية مقومات تضمن لها البقاء ، وتدفعها الى تجديد حياتها ، وتدعوها الى السير فى طريق التقدم حتى تبلغ غاياتها ــ والله ولى التوفيق ·

دكتور مهندس

توفيق محمد عبد الجواد

مايو ١٩٨٧

تعريف الاصطلاحات الهندسية فى العمارة
وانشاء المبانى العربية الاســــلامية (*) :

ابــلق : رصات الداميك الحجرية ذات اللون الأبيض والأحمــر على التوالى بالحوائط ٠

ارابســك : حليات نباتية متشابكة تتكرر بانتظام ٠

ايوان : كلمة فارسية ـ صالة استقبال ٠

باب زور : باب وهمى

باب السر : باب ثانوى يستعمل أحيانا كباب خدمة ولا يعامل معماريا معاملة خاصة ٠

باب مربع : باب بعتب مستقيم ٠

باب مقنطر : باب معقود ٠

بذاهنج : كلمة فارسية ـ منور للتهوية والانارة ٠

بوائك : سلسلة من العقود ٠

بلاطة : السقف المحصور بين صفين من البوائك ٠

بيمارستان : كلمة فارسية من مقطعين ـ بيمار = مريض وستان = مكان أى مكان لمعالجة المرضى ـ مستشفى ٠

تصويق : زخرفة ـ ديكور ٠

تطعيم : وضع قطع صغيرة من الصدف أو الســن أو الزرتشان فى الخشب ٠ يكثر وجوده فى المنبر ، وكرسى المصحف وضلف الخزائن ٠ كذلك يطعم الرخام بالصدف وخاصة فى المحراب ٠

تكفيت : حفر فى النحاس يملأ باسلاك الفضة ٠

تكية : دار تعبد وتصوف فى العصر العثمانى ويسكن بها الدراويش٠

جامة (جامات) : قطعة صغيرة من الزجاج ٠

جدول : حلية بارزة بشكل اطار حول الفتحات ٠

جزع : حجر من الكوارتز له طبقات مختلفة الألوان

جفت : حلية بارزة بشكل اطار حول الفتحات (جدول) ٠

جفت لاعب : حلية بارزة بشكل اطار حول الفتحات وتتقاطع عدة مرات ٠

حاصل : مخزن ـ خزانة ٠

حجر صوان : جرانيت ٠

(*) التــراث المعمــارى الاســـلامى فى مصر / الدكتور صالح لمعى مصـــطفى

حجر الماء	: حجر يزداد صلابة بوضعه فى الماء ويوجد فى صعيد مصر بالعيساوية ٠
حجر مزرر	: حجر ذو لحامات متداخلة هندسية أو نباتية ٠
حرمدان	: كابولى حجر ٠
حقوق	: غرف الخدمات ــ توجد دائما مع كلمة منافع ٠
خــــان	: كلمة فارسية معناها فندق ٠ اســــتعملت كلقب عند التتار والأتراك والايرانيين ٠
خانقاه	: كلمة فارسية ومعناها : دار عبادة وتصوف فى العصر الايوبى والعصر المملوكى البحرى والجركسى ، ويسكن بها الصوفية ٠
خرزة	: غطاء من الحجر أو الرخام يغطى فوهة البئر فى السبيل ٠
خشب نقى	: خشب اجرى اختياره بدقة ٠
خطائى	: نوع من القماش الحرير ٠
خلع	: فتحة فى شباك أو باب ولها ضلفة خاصة ٠
داخــــل	: فوصرة فى الحائط ٠
دراية	: باب خشبى من جزئين يغلق على الدكان ٠ جزؤه العلوى يفتح الى أعلى ويستعمل كمظلة للحماية من الشمس والمطر ٠
دركاة	: كلمة فارسية من مقطعين : در = مدخل ، كاة = مكان ٠ صالة المدخل خلف الباب ٠
دهان حريرى	: دهان بالزيت على سطح خشــبى ثم يغطى الدهان بطبقة من الشمع ٠
دهليز	: من الكلمة الفارسية داليج أو داليز ومعناها ممر أو طرقة ٠
دهيشة	: قصر أو صالة استقبال ٠
ذراع	: وحدة للقياس اختلفت حسب البلاد والعصور ــ ذراع المقياس بجزيرة الروضة (٢٤٧هـ/٨٦١م) = ٥٤٫٠٤ سم ٠ ذراع الشريعة ، الذراع السوداء ، ذراع الملك ، ذراع العمل = ٦٥٫٦ سم ٠
رباط	: حصن على الحدود يتلقى فيه المدافعون عن البلاد تربية دينية بجانب التربية العسكرية ٠
ربع	: بناء سكن به العديد من المساكن المؤجرة ٠
رحبة	: حوش أو غرفة كبيرة ٠
رخام زرزورى	: رخام رمادى مائل الى السواد ــ غالبا اشتق الاسم من لون

الزرزور (العصفور) بصعيد مصر حيث توجد محاجر هذا الرخام .

رخام سماقى : رخام أحمر داكن . يطلق عليه السماقى الامبراطورى - شديد الصلابة .

رخام شحم ولحم : رخام أحمر بعروق بيضاء .

رخام مرسينى : رخام أخضر زرعى - يرجح قدومه من الميناء التركى مرسين .

رخام مفكك : ألواح من الرخام بدون لحامات .

رفرف : بروز خشبى أعلى فتحات الكتاب .

رنك : كلمة فارسية بمعنى لون . تستعمل فى العمارة الاسلامية للدلالة على الشعار أو العلامة . وقد كان لكل أمير أو موظف كبير فى الدولة أو السلطان شعار يختم به على ممتلكاته ، بعضها يحمل اسمه والبعض الآخر يوضع به رمز للدلالة على الوظيفة . ويكون فى بعض الأحيان ملونا .

رواق : المسافة المحصورة بين صفين من العقود - غرفة .

روشن : بلكون أو برج (بروز فوق الطابق الأرضى) .

زاوية : ركن . جزء من مبنى يخصص للصلاة . فى شمال افريقيا يطلق على دور التصوف . استعملت أيضا للدلالة على المساجد الصغيرة فى مصر .

زلاقة : مستوى مائل . يطلق على السلم أمام باب المسجد .

ساباط : ممر أسفل المبنى يربط بين شارعين .

سقف عراقى : سقف خشبى مستو لا تظهر به من أسفل العروق الحاملة .

سروال : جزء خشبى فى ركن الغرفة أسفل الافريز الخشبى بالأسقف الخشبية ينتهى فى العادة بشكل زهرة الليليا .

سقف لوح وفسقية : سقف خشبى ألواح وعروق خشب .

سلسال غاطس : قناة لصرف المياه تعمل حول حوض الفسقية بالصحن .

سلسبيل : لوح رخامى بالسبيل - يمكن أن تعبر عن الفسقية أيضا .

سنابل : حاجز من الحديد بشكل مربعات يوضع فى حلق خشب الشباك .

شاذروان : كلمة فارسية : فسقية ، حوض ماء - مجرى ماء .

شرفة مسننة : قطع حجرية تدرج بالجانبين على شكل اسنان توضع أعلى المبنى فوق الكورنيش .

شرفة مورقة : قطع حجرية بشكل زهرة Fleur-de-lis تتوج بها الواجهات أعلى الكورنيش .

صحن : حوش المسجد ٠

صفة : قوصرة ٠

صفره : لون أصفر (أوكر) ٠ تعرف حاليا بالوسط التجارى « تراسينا صفراء » ٠

صهريج : خزان للمياه تحت الأرض يعمل من الطوب والمونة المانعة لنفاذ الميـــاه ٠

صومعة : حجر صغيرة ٠ أطلق على المئذنة فى بداية العصر الاسلامى (العصر الأموى) ٠

طاقة : نافذة ـ داخل ـ فتحة ٠

طاقية المحراب : نصف القبة فى نهاية المحراب ٠

طبقة (طباق) : مسكن يتكون من قاعة وغرفة أو غرفتين مع دورة مياه ٠

طبلية : قطعة من الخشب من عدة طبقات بسمك حوالى ١٠ ـ ١٥ سم، توضع أعلى تاج العمود ٠

طراز : نص كتابى بشكل اطار ٠ وجد أولا على القمـــــاش ثم على الخشب والمعدن والحجر ٠ ويشتمل على اسم صاحب المبنى وتاريخ الانشاء ويكون فى بعض الأحيان مذهبا ٠

طمبور : رقبة للقبة ٠

عروق خطائى : شرائط من الحرير ٠

عضاضة : دعامة ٠

عقد تخفيف : عقد بشكل جزء من دائرة قد يكون وجهه العلوى بشكل خط مستقيم يعمل بهدف نقل الاحمال بعيدا عن الأعتاب ٠

فرخ شامى : خشب ابلكاج ٠

فسقية : فوارة مياه ٠ غرفة دفن فى تخوم الأرض ٠

فسيفساء : قطع صغيرة من الزجاج ترص فى أشكال هندسية بديعة تستعمل فى تكسية الأسطح ٠

قبة : مدفن ـ تربة ٠

قبة خركاة : خركاة فارسية = خيمة ٠ القبة بشكل الخيمة (فانوس) ٠

قمرية : حاجز من الجص بشكل هندسى أو نباتى يوضع فى النوافذ ٠

قندلون : شباكان متجاوران بعقد دائرى أو حدوة الفرس يعلوهما فى المنتصف شباك دائرى ٠

قيسارية : مبنى به عدة أسواق وله مداخل متقابلة ٠ وقد يعلوه مساكن٠

كبش حجر : كابولى حجرى ٠

كريدى : كوابيل من الخشب فى نهاية رجل عتب فتحات الايوانات ·
كشف : حجرة بدون سقف ـ فتحة ·
مجاز : دهليز · أطلقت كلمة مجاز على البلاطة المتعامدة على حائط القبلة أمام المحراب · وقد عومل المجاز معماريا لتأكيد محور المحراب وخاصة فى العصر الفاطمى ·
محراب : حنية فى حائط القبلة ·
مزملة : قوصرة كبيرة عميقة فى دهليز المدرسة أو الخانقاه تحفظ بها ازيار المياه لتقديم المياه للطلبة والزائرين · تفصل عن الدهليز بمقطع من الخشب الخرط ·
مزيرة : مزملة ·
مسمار مكوبج : مسمار ذو رأس دائرية نتيجة الطرق عليها ·
مشربية : حاجز من الخشب الخرط توضع أمام النوافذ من الخارج · ويرجح أن هذه الكلمة مأخوذة من كلمة مشرب بمعنى مكان للشرب أو مشربة وهى الغرفة فى الطوابق العليا تقدم بها المشروبات · وقد استعملت كلمة مشربية حيث أن السكان كانوا يضعون أوانى الشرب خلف هذه الحواجز لتبرد نتيجة لتعرضها للهواء ·
مشهد : مدفن يخصص للاولياء أو أقارب الرسول · ظهر بمصر فى العصر الفاطمى ·
مصلى : مكان للصلاة فى الهواء الطلق · عمل لها فى بعض الأحيان محراب أو حائط فى اتجاه القبلة ـ مصلى العيد ومصلى الأموات ·
معلم : مهندس ·
معلم المعلمين : كبير المهندسين ·
مقرنص : عدة قوصرات صغيرة فوق بعضها وينتقل المحور الرأسى فى كل حطة بمقدار نصف مقرنص · يسمى المقرنص حسب مصدره أو شكله · ويستعمل كعنصر معمارى وانشائى أيضا ·
مقصورة : حاجز من الخشب الخرط يحاط به المكان خلف المحراب · عملت بعد محاولة الاعتداء على معاوية · أقدمها موجود فى القيروان من النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى · عملت مقصورة فى جامع عمرو فى أيام الوالى قرة بن شريك فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ·

مقطع خشب خرط : حاجز خشبى فى أبواب المدافن والمزيرة ٠
المقعد : عنصر من عناصر السكن ٠ تراس مفتوح على الصحن فى اتجاه الشمال ٠
مكتب السبيل : الكتاب أعلى السبيل ٠ مدرسة لتعليم الايتام القرآن والكتابة والقراءة ٠
مكسلة : مسطبة على جانبى المدخل فى المساجد ٠ استمل هذا الاصطلاح فى العصر العثمانى ٠
ملقف : جزء من السقف مرفوع بزاوية فى اتجاه الشمال لسحب الهواء الى الداخل ٠
منارة : مئذنة ٠
منافع : غرف الخدمات ٠ توجد غالبا مع كلمة حقوق ٠
منبر : مكان مرتفع لجلوس الخطيب بالمسجد ٠ من كلمة انتبر أى أرتفع ٠
مندرة : قاعة استقبال بالمنزل بالطابق الأرضى (منظرة) ٠
موشق : مقطع الى قطع صغيرة (خشب موشق) ٠
ميضأة : مكان للوضوء يحتوى على حوض غير مسقوف به حوض للمياه فى المنتصف وبه دورات للمياه ٠
نحاس اصفر مسبك : برونز ٠
نقش : زخرفة ٠
وتر : عرق خشب يوضع بين الأعمدة أو الاكتاف فى بداية رجل العقود لمقاومة الدفع الخاص بالعقود ولتعليق المشكاوات ٠
وزرة : سفل من الرخام قليل الارتفاع ٠
وكالة : مبنى لاقامة التجار القادمين من البلاد المجاورة وحفظ البضائع الخاصة بهم حتى يتم بيعها ٠
يشم : حجر غالى الثمن ذو لون أخضر يتكون من سليكات الجير والمغنيسيا ٠

فهرس الابواب

الباب الثانى :

البـاب الثـالث

صفحة رقم

فهرس الاشكال والصور والرسومات

بيان الرسومات والاشكال	شكل رقم	صفحة رقم
متحف قصر عابدين / القاهرة .. قصر محمد على / شـــبرا	٢٤٦ـ٢٤٧ـ٢٤٨	٢٨٢
سبيل مياه الشرب بالعباسية .. صالة متحف قصر عابدين	٢٤٩ـ٢٥٠	٢٨٣
الباب الرابع		
القاهرة .. كمدينة عاصمة مصر	٢٥١	٣٠٨
موقع الفسطاط والعسكر والقطائع	٢٥٢	٣٥٤
مسجد أحمد بن طولون / القاهرة	٢٥٣	٣٥٥
قاهرة جوهر ـ قاهرة القرن العشرين ـ جامع الحاكم	٢٥٤ـ٢٥٥ـ٢٥٥ أ	٣٥٦
قاهرة القرن العشرين	٢٥٦	٣٥٧
قاهرة العصور الاسلامية .. والبيـــوت الفسطاطية	٢٥٧ـ٢٥٨ـ٢٥٩	٣٥٨
أول خريطة لمنطقة الجمالية توضح أهم المبانى الاثرية والتـذكارية	٢٦٠	٣٥٩
أول خريطة مساحية لمدينة القادرة .. عام ١٨٠٠ م	٢٦١	٣٦٠
أولمشروع تخطيط عمرانى لمدينة القاهرة عام ١٨٨٦م	٢٦٢ـ٢٦٣	٣٦١
مساجد القاهرة	٢٦٤ـ٢٦٥ـ٢٦٦	٣٦٢
معالم القاهرة فى العصور المتوسطة	٢٦٧ـ٢٦٨ـ٢٦٩ـ ٢٧٠ـ٢٧١ أ	٣٦٣ـ٣٦٤
القاهرة فى منتصف القرن العشرين	٢٧٢ـ٢٧٣	٣٦٥
القاهرة فى الاربعينات من القرن العشرين . . .	٢٧٥ـ٢٧٦	٣٦٦
القاهرة فى الخمسينيات من القرن العشرين . .	٢٧٧ـ٢٧٨	٣٦٧
القاهرة فى الستينيات من القرن العشرين . . .	٢٧٩ـ٢٨٠	٣٦٨
القاهرة فى السبيعينيات من القرن العشرين . .	٢٨١ـ٢٨٢	٣٦٩
القاهرة فى الثمانينات من القرن العشرين . . .	٢٨٣ـ٢٨٤	٣٧٠
الباب الخامس :		٤٢٥
المساكن العربية ـ الوكالة ـ الربع ـ الخان	٢٨٥ـ٢٨٦ـ٢٨٧ـ٢٨٨	٤٢٥ـ٤٣١
أمثلة الاوانى الخزفية . . .	٢٩٩	٣٦٦
أمثلة الخط العربى كعنصر فنى اسلامى . . .	٣٠٠ـ٣٠١ـ٣٠٢ـ٣٠٣	٤٦٧ـ٤٦٨
الاعمال الزخرفية والمشغولات والتطعيم . . .	٣٠٤	٤٦٩

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

● المـؤلف :

- دكتور مهندس معمـارى استشارى ·
- بكالوريوس العمارة بدرجة شرف ١٩٣٦ ماجستير فى العمارة جامعة ليفربول ١٩٣٩ شهادة عضوية المعهد الملكى للمعماريين البريطانيين لندن R.I.B.A. . دكتوراه فى الفلسفة جامعة لندن ١٩٤٦ ·
- عضو مجلس ادارة جمعية المعماريين منذ عام ١٩٣٩ حتى ١٩٨٧ ورئيس الجمعية سابقا ·
- عضو نقابة المهندسين ورئيس مجلس شعبة الهندسة المعمارية سابقا ·
- أستاذ جامعى غير متفرغ بكليات الهندسة اقسام العمارة جامعات عين شمس ، الازهر ، حلوان ، أسيوط منذ عام ١٩٥٢ الى ١٩٨٢ ·
- نشر أكثر من ٦٥٠ بحثا فى مجال الاسكان والتعمير والعمارة وتخطيط القرى والمدن وتنظيم البناء ومزاولة المهنة فى المجـلات أو المؤتمرات الهنـــدسية المحلية والعربية والدوليـة ·
- حائز على وسام الجمهورية من الطبقة الثالثة عام ١٩٥٦ ، وعلى وسام الدولة فى العلوم والفنون من الطبقة الاولى عام ١٩٨١ ، والميدالية الذهبية لنقابة المهندسية ١٩٨٦، وشهادات تقدير من هيئات علمية مصرية وعربية ودولية



- عضو جمعية المهندسين المصرية ·
- عضو الاتحاد الدولى للمعماريين ، وعضو مجموعة العمل الدولية للمبانى التعليمية ·
- مدير عام المشروعات بمؤسسة أبنية التعليم ، مدير عام المشروعات بمؤسسة الابنية العامة سابقا ·
- المصمم الاول / مدير المشروعات بدرجة وكيل وزارة بالمكتب العربى للتصميمات سابقا ·

● المؤلفـات :

	الناشر
تاريخ العمارة والفنون فى العصور الأولى	جامعة الأزهر
مواد البناء وطرق الانشاء فى المبانى ·	مكتبة الأنجلو المصرية
تاريخ العمارة والفنون فى العصور الأولى جـ ١	مكتبة الأنجلو المصرية
تاريخ العمارة والفنون فى العصور المتوسطة جـ ٢	مكتبة الأنجلو المصرية
تاريخ العمارة والفنون فى العصور الاسلامية جـ ٣	مكتبة الأنجلو المصرية
تاريخ العمارة والفنون فى العصر الحديث جـ ٤	مكتبة الأنجلو المصرية
دليل المهندس : مجموعة اللوائح والقوانين لتنظيم	مكتبة الأنجلو المصرية
عمالقة العمارة فى القرن العشرين	مكتبة الأنجلو المصرية
معجم المصطلحات الفنية فى العمارة وانشاء المبانى	مكتبة الأهرام
المدنية ومجتمع الغد	مجلة جمعية المهندسين
المبانى التعليمية ·· مدارس المرحلة الأولى	مجلة العمارة والفنون
تنظيم واعادة بناء وتخطيط القرية المصرية ·	وزارة الاسكان
القاهرة كيف كانت وقبل أن تكون وكيف اصبحت	مجلة جمعية المهندسين
العمارة وحضارة مصر الفرعونية · حضارة الوجود	مكتبة الأنجلو المصرية
تصميم مبانى الكليات والمدن الجامعية	مجلة جمعية المهندسين
العمارة الاسلامية ·· فكر وحضارة	مكتبة الأنجلو المصرية
التطور المعمارى ورواد المارة فى مصر ·	مكتبة الأنجلو المصرية